الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



الرواية التي حوّلتها هوليوود إلى
إنتاج سينمائي ضخم

نيلسون ديميل
Nelson DeMille

ابنة الجنرال

رواية

ابنة الجنرال

بسم الله الرحمن الرحيم

الآن
في إنتاج سينمائي ضخم

ابنة الجنرال

لاكتشاف الحقيقة، تتبَّع الأكاذيب

نيلسون ديميل

المترجمة
رشـــا جمال

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-29-132-2

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

مقدمة المؤلف

الرواية والفيلم

الرواية

تدور هذه الرواية - بالأساس - حول سبر أغوار جريمة قتل تحدث في أحد مواقع الجيش الأميركي.

إلا أنها - على مستوى آخر - تمثل قصة حول ذلك المجتمع العسكري الفريد، والقانون العسكري، والمرأة في الجيش، وكيف تضافرت كل تلك العناصر داخل قاعدة عسكرية حارة وشديدة الرطوبة بمنطقة جورجيا.

ويُعد ميثاق شرف العدالة العسكرية هو القانون الذي تعمل في ظله كافة القطاعات العسكرية؛ الجيش، والمشاة، والبحرية، والقوات الجوية، والمارينز، وخفر السواحل. ويأتي هذا الميثاق مسايراً للدستور الأميركي، إلا أنه مصمم بحيث تؤخذ في الاعتبار مفارقة تتمثل في أن أفراد الجيش من رجال ونساء، والذين أدوا القسم على أن يحموا الدستور، لا يتمتعون هم أنفسهم بكافة الحقوق التي يكفلها هذا الدستور الذي يحمونه. كما أن القانون العسكري يتناول بعض الفضائل العسكرية، منها الواجب والشرف والولاء - وهي مفاهيم من النادر أن يتناولها القانون المدني، هذا إن تناولها في الأساس.

وهكذا يتبين لنا من خلال الرواية أن القانون العسكري أكثر من مجرد قانون - بل هو مصفوفة قانونية، اجتماعية، مهنية، بل وسيكولوجية، قد يتسق بداخلها كافة أفراد الجيش، وأحياناً قد لا يتسقون.

تبدأ رواية "ابنة الجنرال" بجريمة قتل بعد اغتصاب ظاهر، ونرى منذ البداية أن تلك ليست مجرد جريمة ضد فرد أو مجتمع؛ بل هي كذلك جريمة ضد المؤسسة العسكرية الأميركية، جريمة ضد النظام والانضباط، وإهانة لمفاهيم الشرف والولاء، وللحكمة

العسكرية التي تتمثل في أن "كل الأخوة شجعان، وكل الأخوات فاضلات". والحقيقة أن جريمة قتل قائدة العسكرية هي الفتيل الذي أحدث انفجاراً هزّ أركان الجيش من أساسه.

وكان من بين دوافعي لكتابة هذه الرواية أحداث حرب الخليج التي وقعت في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير من العام 1991. فلقد أعجبت على وجه الخصوص بالدور الذي لعبته المرأة في تلك الحرب، وفي مؤسسات الجيش عموماً. على أنني – مثلي مثل أغلب من خاضوا حرب فيتنام – اندهشت قليلاً واستأت كثيراً من الأسلوب الذي غطت به وسائل الإعلام الإخبارية تلك الحرب؛ بوصفها مناقضة للحرب التي أعرفها. وغني عن القول أن الجيش الأميركي خرج من الخليج العربي في وضع أفضل كثيراً مما كان عليه وقت انتهاء الحرب الفيتنامية. والأسباب وراء ذلك عديدة، ولا مجال للاستفاضة فيها هنا، إلا أن أحدها كان الحضور الواضح للعنصر النسائي داخل الجيش.

ولقد وضع الجيش – سواء عن قصد أو عن دون قصد – وسائل الإعلام في ورطة؛ فمعلوم أن الصحفيين كانوا يبحثون عن غبار الحرب، وعن ما يأخذونه على الحكومة من عقم في الأداء العسكري. إلا أننا كنا أمام موقف كان الجيش يمثل فيه جبهة لحركة تصحيح سياسي – ألا وهي المساواة بين الرجل والمرأة.

فمن خلال عدة مقابلات مع نساء الجيش، صبغت وسائل الإعلام حرب الخليج بصورة المرأة التي تؤدي أعمال الرجال. وفي ظني أن هذا التيار قد أسهم في نقل صورة إخبارية إيجابية عن الحرب عموماً.

وبطبيعة الحال فإن العديد من الجنود الذكور والبحارة والطيارين الرجال شعروا ببعض الإهمال بالنسبة لهم ولدورهم، ومن المؤكد أن قدامى المحاربين من جيلي شعروا أيضاً بأنهم وكأنما سُلبت حقوقهم، وعوقبوا على ما لم يفعلوا، وصُوروا بشكل لا يخلو من ظلم واضح.

وبغض النظر عن هذا، كانت النتيجة هي "حرب جيدة" في مقابل "حرب سيئة".

وبذكر "الحرب السيئة"، أقول بأني خدمت في الجيش الأميركي من نيسان/أبريل 1966 وحتى نيسان/أبريل 1969. وخلال ذلك الوقت، تلقيت تدريبي الأساسي في قاعدة (فورت جوردون) بولاية جورجيا، وأديت تدريبات فرقة المشاة المتقدمة ومدرسة القادة في (فورت ديكس)، بولاية نيوجيرسي، كما التحقت بمدرسة ضباط مشاة الاحتياط بقاعدة (فورت بينينج)، بولاية جورجيا. وبعد أن ساهمت في تدريب القوات في (فورت بينينج)، التحقت بفرقة عمليات الأدغال بقاعدة (فورت جاليك) بمنطقة قناة بنما، ثم أبحرنا متجهين إلى فيتنام حيث خدمت كقائد فصيلة مشاة مع فرقة الفرسان الجوية الأولى.

كانت فترة العسكرية هذه خلال ثلاث سنوات – كما قد تتخيل – في مجملها تجربة ذكرية مغالية في التباهي بالرجولة، فلم يحدث أن قابلت الكثير من المجندات. والحقيقة أن

عدد الإناث اللاتي كن يخدمن في الجيش خلال الصراع مع فيتنام أقل من إجمالي عدد من خدمن طيلة الحرب العالمية الثانية.

فبخلاف الممرضات العسكريات، لم يكن في فيتنام أي من الإناث في ساحات الحرب، فيما عدا المدنيات المتطوعات للصليب الأحمر، واللاتي اشتهرن باسم "عرائس الدونتس". وعلى أية حال فإن المرأة الأميركية في فيتنام كانت تمثل الدور الإغاثي التقليدي، ولم تشكل تهديداً للرجل.

وفي عام 1969، وهو آخر عام لي في الخدمة بالولايات المتحدة، بدأت ألاحظ المجندات يلتحقن ببعض الوظائف التي كانت حكراً على الرجال. ولقد كانت تلك تجربة ذات نتائج متفاوتة. فلقد كانت الحركة النسوية تبزغ داخل أميركا، ولم تواجه مؤسسات الجيش ضغطاً بالمعنى فيما يخص المساواة بين الجنسين والتمييز بينهما.

حقيقة الأمر، كان الجيش متفوقاً على جميع الحركات الاجتماعية والسياسية وقتذاك فيما يخص المساواة بين الجنسين، تماماً كما كان سابقاً على الأمة كلها فيما يخص القضاء على التمييز العنصري؛ ففي عام 1949 قضت القوات المسلحة على التمييز العنصري بين أفرادها، حتى وإن كان هذا بناء على أمر رئاسي رسمي.

ما أقصده هنا هو أن للقوات المسلحة سجلها المشرف في كافة مجالات المساواة، وهو أمر يعود جزئياً إلى طبيعة هذه المؤسسة. وأعني بهذا أنك لو طلبت من رجل أسود أن يقاتل ويتعرض للموت، فإنه من المحال أن تتعامل معه بوصفه مواطناً من الدرجة الثانية. ولو أنك ستأمر سيدة بأن تخدم في فرق دعم خط النار (ولكن ليس في فرق النار نفسها)، فعليك أن تعطيها كافة حقوقها، ومزاياها، والفرص المماثلة لتلك التي ينالها من يخدم إلى جوارها من رجال.

بالطبع سيقول البعض من الرجال: "نحن في الأساس لسنا بحاجة إلى النساء في الجيش"، وقد يقول آخرون: "لا ضير من وجود النساء في الجيش، ولكن ليشغلن المهام الأنثوية التقليدية فقط".

إلا أنني موقن من أننا قد تجاوزنا تلك التوجهات، ليبقى أمامنا سؤالان: هل يتوجب على المجندة أن تؤدي المهام القتالية المباشرة؟ وهل يمكن لها أن تخضع للعقوبات التي يخضع لها المجندون من الرجال؟

تلك أسئلة صعبة، ولا تتناولها الرواية بشكل مباشر، بيد أن هناك ما بين السطور ما يثير مسألة المساواة تلك.

وحينما كنت أتهيأ لكتابة رواية ما بعد حرب الخليج هذه، كان أول ما قررته هو ألا تكون هذه الرواية ذات مسار جدلي. وكنت أنوي لها أن تكون عادلة ما أمكن تجاه

المجـــندين والمجندات الذين يخدمون بالقوات المسلحة، وكذلك تجاه الجيش ككل، ولمفهوم الجيش المتعدد الأعراق والأجناس. إلا أنها لن تكون في ذات الوقت أنشودة تمجيد سياسية حيث كل الأخوات رائعات، وكل الإخوان وطنيون متعصبون.

فـــي الفترة التي ظهرت فيها هذه الرواية عام 1992، كانت فضيحة (تايلهوك) تهزّ أرجـــاء أميركا. كان هذا جيداً بالنسبة للرواية، إلا أنه لم يكن مجدياً لحوار عقلاني محايد حـــول الموضـــوع المعقد المتمثل في قضية الأجناس داخل الجيش. فقد كان هدف معظم وســـائل الإعـــلام التي حاورتني حول الرواية، هو أن أربط بينها وبين فضيحة تايلهوك القائمة، والتي كانت تتحول إلى شكل هيستيري من أشكال بحث وسائل الإعلام المحموم.

وكان الحدث ذاك – وهو خروج أحد الأحزاب عن السيطرة – بمثابة برهان مفاجئ على ما تحويه المؤسسة العسكرية من فساد وتمييز جنسي. لم يكن هناك شك في أن بعض الـــرجال قـــد أساؤوا التصرف، ولكن ما فُقد في الضجيج هو حقيقة أن البعض الآخر من الرجال قد تصرف بنبل بالغ، بينما أتت بعض النسوة بأفعال سيئة. فها هي نفس المؤسسة التي تم تلميعها أثناء حرب الخليج يشهر بها الآن.

لا يمكن النظر إلى فضيحة (تايلهوك) بوصفها نموذجاً. وكان من الواجب على كبار ضباط البحرية أن يوضحوا هذا، وأن يدافعوا عن القوات البحرية فلا يلطخ الوحل اسمها العظـــيم، ولا ســـمعة هيئة بأكملها من الطيارين المقاتلين، بسبب ليلة واحدة سيئة، ضمت عدد محدود من الأفراد.

لكن المناخ السياسي في واشنطن، والجو الاجتماعي العام في أميركا، تسببا في إعاقة أية محاولة لفرض خطاب عقلاني عادل. وبدلاً من ذلك، استدارت الرؤوس، وفقد الكثير أعمالهم، واتسعت الهوة بين المجندين والمجندات أكثر مما كانت عليه بعشرات المرات.

لكننـــي كنت قد عزمت – قبل تلك الفضيحة بفترة طويلة – على كتابة رواية تتناول المـــسائل والإشـــكاليات الخاصـــة بالرجال والنساء الذين يخدمون معاً في الجيش الجديد. وكـــنت آمـــل ألا أخاطـــب أو أتعرض لمثل تلك الأزمة؛ فقد كنت أرغب في رواية أكثر عمومـــية بحـــيث تتـــناول قضايا الرجل والمرأة بشكل أشمل، ودونما ارتباط بفترة زمنية بعيـــنها: كالغيـــرة والجنس والشرف والصدق والقدرة البشرية على الحب والكراهية، أو كلاهمـــا في الآن نفسه. وقد جعلت من القاعدة العسكرية محور كل هذه الأفكار، كي أزيد الرواية حبكة وتشويقاً.

قـــد تقـــع أحداث هذه الرواية في أي مكان وزمان – وقد تجد تشابهاً بينها وبين أية تراجيديا إغريقية. إلا أن أحداث "ابنة الجنرال" لا يمكن أن تقع على هذا النمط، إلا بداخل قاعدة عسكرية أميركية حديثة.

الفيلم

اشــترت شركة (باراماونت) الحقوق السينمائية لرواية "ابنة الجنرال" قبل نشرها في العــام 1992. فقد أبدت (شيري لانسينج) – مديرة الأستوديو – إعجابها بالرواية ورأت فــيها قــصة تتناول قضايا تهم المجتمع الأميركي المعاصر. وفي الوقت نفسه كان مدار القــصة للــرواية، والحبكة، والشخصيات، كلها عناصر يسهل تكييفها بسهولة في القالب السينمائي.

وقد مرّ السيناريو بالعديد من محاولات الكتابة – فيما يبدو الشيء المعتاد في هوليود – حتى تحول في النهاية إلى مسودة رائعة على يد (كريستوفر بيرتوليني)، مع بعض من المعالجــات الذكــية للــرائع دائماً (ويليام جولدمان)، وتنقيح أخير ممتاز قام به (سكوت روزينبرج).

وكثيراً ما تلقيت أسئلة تتعلق بما إذا كان لي أية مساهمات في سيناريوهات سينمائية مأخــوذة عن رواياتي. وكنت دائماً أجيب بالنفي. فالكتابة للسينما شيء مختلف تماماً عن تألــيف الــرواية، فعلى كاتب السيناريو أن يتعامل مع رواية قد تستغرق قراءتها ما بين عــشر ســاعات إلى ست عشرة ساعة، فيعمد إلى تحويلها إلى فيلم سينمائي مدته ساعتان علــى الأكثر. من الواضح إذاً أنه لا مفر من تجاهل أشياء عدة في الرواية عند إتمام هذه العملية، وكم هو صعب على الروائي أن يستقطع بنفسه من عمله الذي يراه رائعاً.

بيد أنني أقرأ جميع السيناريوهات المأخوذة عن رواياتي – في أطوارها المتعددة – وأقــدم بعض النصائح. وفي حالة روايتنا هذه، فإن المسودة النهائية ظلت ملتزمة ووثيقة الصلة بجوهر روايتي.

تــم تــصوير الجزء الأول من الفيلم في وحول منطقة (سافانا) بولاية جورجيا، في محاكــاة للموقع الخيالي لمنطقة (ميدلاند)، جورجيا، المذكور في الرواية. وتحولت قاعدة (فورت هاردلي) وليدة خيالي إلى أخرى اسمها (فورت ماكالوم)، أما (آن كامبيل) – ابنة الجنــرال في الرواية – فأصبحت (إيليزابيث) أو "ليزي" في الفيلم. قد لا يستحق الأمر أن نقــف عند هذه التفصيلات الصغيرة، ولكنني ممتن لأن الفيلم لم يتحول في نهاية المطاف إلى كوميديا موسيقية عنوانها "ليزي"!!

حيــنما يــبدأ تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي بداية سيئة، فعادة ما يستمر به الحال علــى هذا النحو، وينتهي به الأمر بأن يتم تأجيره لنوادي أفلام الفيديو، وأحياناً ما يُعطى لهــا كهدية. إلا أن فيلم "ابنة الجنرال" بدأ بداية قوية بدعم هائل وأفكار رائعة من (شيري لانــسينج) و(كــارين روزينفيلت) التي تشغل منصب نائب رئيس مجلس الإدارة التنفيذي لشؤون الإنتاج في باراماونت. وبعدها تم اختيار المنتج – وهو (ميس نيوفيلد). مع شريكه

(بــوب ريمه)، كان (نيوفيلد) قد قام بتحويل روايات (توم كلانسي) إلى أفلام، وله العديد من الأفلام التي يعود إليه الفضل في نجاحها.

الساخر في الأمر أن (ميس نيوفيلد) كان قد قرأ الرواية حين صدورها للمرة الأولى وعــرض أن يقــوم بتحويلها لفيلم، إلا أن عرض باراماونت كان الأفضل. وها هما الآن يلتقيان من جديد، (ميس) و"ابنة الجنرال"، من خلال باراماونت.

وكانت الخطوة التالية هي السيناريو – وقد عرضت لهذا – ومن بعده طاقم التمثيل، والبحث عن مخرج مناسب. وتم اختيار المخرج (سيمون ويست) الذي كان قد أخرج من قــبل الفــيلم الــناجح Con Air. في الحقيقة، لم يكن هذا اختياراً طبيعياً لإخراج مثل هذه النوعــية من الأفلام، إلا أنه – مثله مثل جميع المبدعين – كان يودّ القيام بشيء مختلف، وقال: "كنت أبحث حقاً عن مشروع فيلم يتناول قضية أكثر جدية. وحينما عرض عليَّ فيلم (ابــنة الجنرال)، قمت بقراءة الرواية، فأحببتها، وسرعان ما انضممت إلى الطاقم". فكان (سيمون) كغيره متحمساً للفيلم، وظهر هذا جلياً في النتائج.

عــادة مــا يــتحدد نجاح أو فشل العمل السينمائي وفقاً للشخصية الرئيسية. وكانت شخــصية (بــول برينيــر) فــي الرواية تجسد رجلاً ذا أصول إيرلندية يعيش في جنوب بوســطن، ويتــصف بسرعة البديهة ودقة الملاحظة. وكنت أتخيل الممثل (بروس ويليز) التجسيد الأمثل لتلك الشخصية، ووافقني مسؤولو باراماونت الرأي، إلا أن (بروس ويليز) لــم يكن متفرغاً في وقتها. ثم حدث أن اتصل بي وكيلي (نيك إيليسون) ذات يوم ليخبرني بــأن (جــون تــرافولتا) قد وقّع عقد القيام بهذا الدور. جون ترافولتا؟ في شخصية بول برينيــر؟ إن ترافولتا ممثل بارع ولا شك، إلا أنني لم أستطع أن أتخيله مجسداً للشخصية التــي صنعتها، أو حتى بعد أن تمت معالجتها في السيناريو السينمائي. لكنني سرعان ما تعلمت معنى ما كانوا يرددونه من أن هذا الممثل أو ذاك يتصف بتنوع وعمق الأداء.

أتذكر كيف منذ عدة سنوات مضت أنني حينما عرفت أن (مارلون براندو) قد اختير لــيلعب الــدور الرئيسي في فيلم "الأب الروحي" أنني ظننت أنه كان اختياراً غير موفق. وكــان هــذا رأي كثير ممن كانوا قد قرأوا الرواية. والآن.. لكل الناس في كل الأزمنة، أصبح (مارلون براندو) هو "الأب الروحي".

يــشكل الدور الممثل، تماماً كما يصيغ الممثل الدور. كان هذا حال (جون ترافولتا) مع (بول برينير). فقد كان (ترافولتا) هو (برينير).

جلــب (جــون تــرافولتا) معه مدير أعماله المحنك (جوناثان كرين)، والذي أصبح المنتج المنفذ للفيلم. وهكذا تدخل (ترافولتا) و(كرين) في النص السينمائي وفي اختيار طاقم التمثيل.

كانت هناك مشكلة تتمثل في اختيار البطلة الرئيسية، وكان قد تم اختيار طاقم الفيلم بأكمله عندما نجحت باراماونت - أخيراً - في التعاقد مع الممثلة (ماديلين ستو)، والتي قد أدّت بطولة فيلم "الموهيكان الأخير" من قبل. وكما كان الحال مع (ترافولتا)، فلم أكن أتخيل (ستو) في دور (سينثيا صنهيل) - والتي سيصبح اسمها في الفيلم (سارة صنهيل) - أو أن تكون (صنهيل) هي (ستو). لذا كانت المفاجأة السارة التي أدهشتني ثانية، من أنه كيف يصيغ الممثل الموهوب نفسه ويتقمص الشخصية بحيث لا تتخيل أحداً في محله.

وقد كان الممثلون المساعدون على قدر كبير من التميز. فقد كان (جيمس وودز) موفقاً في تجسيد دور الكولونيل الطبيب (تشارلز مور)، و(تيموثي هوتون) في شخصية القائد كولونيل (بيل كينت)، و(جيمس كروموبل) الذي لعب دور الجنرال (جو كامبل) "المقاتل"، والذي أخبرني بأنه كان من نشطاء معارضي الحرب الفيتنامية، إلا أنه جسد دوره وكأنما كان يشغل من قبل منصب جنرال بالجيش، و(كلارينس ويليامز) في دور مساعد الجنرال - (الكولونيل فاولر) - والذي كان من الإقناع بحيث لا تكاد تشك في أنه هو و(جيمس كورمويل) قد خدما معاً في القوات المسلحة. فقد كان التناغم بين كل طاقم التمثيل على درجة يحلم بها أي مخرج.

ونأتي أخيراً، وليس آخراً، إلى (ليزلي ستيفانسون)، والتي تلعب الدور الرئيسي، ابنة الجنرال، والتي هي وجه جديد في الأفلام الروائية، إلا أن أداءها يجعلك تظن أنها ممثلة متمرسة. فهي ممثلة شابة ينتظرها مستقبل باهر.

عادة لا أعمد إلى تخيل الممثلين والممثلات الذين قد يؤدون أدوار الشخصيات التي أكتبها في رواياتي، إلا أن هناك إحساساً غريباً راودني وأنا أشاهد كلاً من (وودز) و(هوتون) و(كروموبل) و(ويليامز) و(ستيفانسون) على الشاشة؛ فهم من رسمت شخصياتهم بالرواية، حتى بملامحهم الجسدية وسلوكياتهم. لا يعني هذا أنهم لم يحددوا الشخصيات التي كتبتها ويكسبوها العمق بأدائهم - فقد فعلوا هذا بامتياز، ولكنهم بدوا لي وكأنهم خرجوا من بين صفحات الرواية.

تمّ تصوير الفيلم خلال صيف وخريف عام 1998، وكنت قررت ألا أزور موقع التصوير في (سافانا) خلال فترة التصوير الصيفية، ولكني فعلت بصحبة وكيلي (نيك إيليسون) حال انتقال موقع التصوير إلى لوس أنجلوس في شهر تشرين الأول/أكتوبر.

يجدر بي أن أذكر هنا أن وزارة الدفاع لم يكن لها دور في هذا الفيلم. وقد كان (ميس نيوفيلد) ذا علاقة جيدة مع الوزارة تعود إلى أفلامه السابقة، إلا أنه شعر بأن عليه ألا يطلب أي تعاون حكومي لأجل هذا الفيلم. وقد علق على هذا بقوله: "لقد عملت على مدى أعوام مع العديد من الأشخاص الرائعين في وزارة الدفاع، والذين لعبوا دوراً هاماً

في إخراج بعض الأفلام إلى النور، إلا أنني أدرك مدى ملاءمة مشروع فيلم ما لمثل هذا التعاون من عدمه. فعلاقتي معهم علاقة احترام متبادل".

لم تكن روايتي معادية للمؤسسة العسكرية، وكذلك حال سيناريو الفيلم. إلا أن كلاً منهما يثيــر قضايا حساسة وجدلية قد لا ترتاح لها المؤسسة العسكرية. وعلى أية حال فإن تصوير فــيلم تدور أحداثه داخل الجيش من دون معاونة عسكرية أمرٌ يمثل قدراً أكبر من الصعوبة، وقدراً أعلى من التكلفة. إلا أنه أسفر عن قدر أكبر من حرية الإبداع والتنفيذ للفيلم.

ومــع هــذا فلــم يكــن بالفيلم أي شك في مصداقية تجسيده للحياة العسكرية، حيث اســتعانت باراماونت بعدد من المستشارين العسكريين لكي تضمن اتصاف الأحداث بالدقة العــسكرية. ولقد التقيت عدداً منهم في موقع التصوير، وبدا لي أنهم سعداء لاعتناء (ميس نيوفيلد) و(سيمون ويست) بتنفيذ كل ما يبدونه من ملاحظات.

أمــا كبير المستشارين العسكريين فكان (جارد شاندلر)، والذي يعد شريكاً منذ زمن لـــ (ميس نيوفيلد)، وهو ضابط احتياط بالجيش. وكان له إسهامه في أعمال لـــ (ميس)، مــن قبــيل: Flight of the Intruder و Clear and Present Danger، ولــم يتأخر عن إبداء النصح خلال تنفيذ هذا الفيلم متى كان التعرض لقضية المصداقية. وبالنسبة لمحارب قديم مثلــي – اعتاد أن ينتقد الصورة الهوليودية للجيش الأميركي – فإنني لم أجد كثيراً مما قد أنتقده في "ابنة الجنرال".

وبالنــسبة لزيارتي لموقع التصوير، فكان من الممكن أن تتحول إلى مناسبات غير ســعيدة. فــنحن نسمع عن حكايات أسطورية عن روائيين من الساحل الشرقي يزورون هوليود – حكايات تعود إلى أيام (ف. سكوت فيتزيجيرالد) في عشرينيات القرن العشرين. وينبهــر بعــض الروائيين – من أمثال فيتزيجيرالد – بمنطقة (تينسيل تاون) فيمكثون بها فتــرات طويلة بما يكفي لتدمير أعمالهم. أما أغلب الكتّاب فيأتون، يشاهدون، ثم يعودون إلى حياتهم العادية من دون سوء.

إن صــناعة السينما صناعة متفردة، كما أن لوس أنجلوس مدينة ليس لها نظير في بقية أنحاء أميركا. لذا أقول بأن على أي روائي ألا يفوت فرصة أن يعمل على أن يتحول أحد أعماله إلى فيلم سينمائي.

ولــو كانــوا يقولون بأن كل من الضيف والسمك يفسد بعد ثلاثة أيام، فإن الروائي الــذي يأتــي لموقع التصوير يفسد بعد يومين اثنين. فقد قضيت يومان كاملان في موقع التصوير، ولقيت ترحيباً حاراً إلى أن قررت المغادرة. فقد كانت زيارة طيبة.

ذات ظهيرة، كنت جالساً أنا و(نيك إيليسون) مع (ميس نيوفيلد) نراقب حوالى نصف ســاعة من عملية مونتاج لبعض مشاهد الفيلم. وحينما ظهر أول مشهد على شاشة الفيديو

بدا عليَّ القلق والشك، ولم أستطع أن أمنع بعض لمحات من السخرية النيويوركية الشهيرة التي كنت أحاول بها أن أخفف مما يعتمل في نفسي من رهبة وخوف على هذا العمل، حتى كدت أصاب بنوبة قلبية. إلا أنني أدركت منذ المشهد الأول أنني أشهد عملاً استثنائياً. كان أداء الممثلين يبعث على التقدير الشديد، مع تفاعل ساحر بين الممثلين والممثلات. وحينما انتهى العرض داخل غرفة المشاهدة الصغيرة وأضيئت الأنوار، وجدت أن (ميس) و(نيك) والمهندس، بل وأنا نفسي مبتهجون لما بدا أنه عمل متميز.

ويختلف الفيلم عن الرواية، فهو تطويع سينمائي لها. ومن الهين على الروائي أن يشكو أو يغضب من الطريقة التي تم التعامل بها مع روايته. وهناك من الحالات ما يبرر تلك المشاعر، حيث إن إحساس أهل هوليود بعظمتهم مبالغ فيه، كما أن مؤتمرات الروائيين عديدة. لكن كل من مدراء الأستوديوهات والمنتجين والمخرجين وكتّاب السيناريو يشترك في جهد جماعي لا يفهمه الروائي ولا يرغبه. فتلك الجهود المتضافرة تسفر عن ما يشبه سباق الجياد الجامحة، وهو شيء متأصل في تلك الصناعة ولن يتغير.

على أنه أحياناً ما تتوافق الأمزجة جميعها، وتتوحد الرؤى ليكون النتاج سحراً. وأنا لم أرَ - حتى وقت كتابتي لهذه السطور - الفيلم في صورته النهائية، ولا أعرف شيئاً بعد عن مؤثراته الصوتية وخلفياته الموسيقية، ولم أرَ نهاية القصة. إلا أن ما رأيته على شاشة السينما وفي موقع التصوير يكفيني.

أجد أن أكثر ما يشكو منه متلقي الفيلم المأخوذ عن رواية، هو أن الرواية كانت أفضل من الفيلم. ونادراً ما أسمع العكس، أو أن التغيير الذي تم في الأحداث والشخصيات كان للأفضل. إلا أن بوسعي القول أن هذا الفيلم قد أفصح عن جوهر روايتي من خلال التمثيل الممتاز، والحوار الحيوي المتدفق، واستغلال مثالي للمناظر السينمائية التي لا يسع حتى أفضل روائي أن يوصلها إلى قارئه في الرواية.

يقول المنتج التنفيذي (جوناثان كرين) عن الجوانب البصرية في الفيلم أن: "المشاهد السينمائية في الفيلم تكاد تكون عبقرية. فالفيلم يحوي بعض من أروع ما شاهدت من مؤثرات بصرية". قد يكون في ذلك مبالغة، إلا أن المقصد هو أن المؤثرات البصرية تعد أفضل ما يبرع فيه المخرجون الأميركيون. ولو جمعت بين هذا والتجسيد المبهر للشخصيات والسيناريو المحكم، تكون قد حصلت على فيلم بمعنى الكلمة.

وليس أقل أهمية من الالتزام بالنص المكتوب، على الفيلم أيضاً أن يكون ممتعاً، وهو الشيء الذي غالباً ما يتم تجاهله. ولكن أتى فيلم "ابنة الجنرال" ممتعاً بحق. استمتعت أنا به كثيراً، وأظن أن كل من يراه سوف يستمتع به.

ربما كانت تجربتي مع هوليود تجربة عادية، كما قد لا أكون محظوظاً في أي تعامل قادم معها، إلا أنه يكفيني هذه المرة أن الرياح قد أتت بما تشتهي السفن.

الفصل الأول

"هل هذا المقعد محجوز؟"

سألت الشابة الجميلة التي كانت تجلس بمفردها في قاعة الانتظار. فتطلعت إليَّ من فوق جريدتها إلا أنها لم تجب.

جلست قبالتها إلى المنضدة، واضعاً قدح المشروب المفضل أمامي، فيما عادت هي إلى جريدتها وهي ترتشف من شرابها؛ مزيج من المشروب المفضل والكوكا. سألتها في فضول: "أكثيراً ما تأتين إلى هنا؟".

"إليك عني".

"ما هي رتبتك؟".

"لا تكن متطفلاً".

"ألم ألتقِ بكِ من قبل؟".

"كلا".

"بلى. التقينا في حفل الكوكتيل في مقر الناتو ببروكسل".

لم تجد بداً من الرد، فقالت: "ربما كنت محقاً. حينها شربتَ حتى الثمالة، لدرجة أنك قد تقيأت في كأس المشروب المفضل".

أجبتها قائلاً: "إنه عالم صغير". حقاً إنه لعالم صغير. فمعرفتي بالمرأة الجالسة أمامي – (سينثيا صنهيل) – كانت أكثر من مجرد صداقة عابرة. فكما يقولون؛ ربطتنا علاقة ذات مرة. ولكن يبدو أنها لم تشأ أن تتذكر كثيراً عن هذا. صحتُ فيها: "بل أنتِ التي تقيأت آنذاك. حذرتكِ من أن المشروب المفضل والكوكا مزيجٌ ضارٌ بمعدتك".

"وأنت أيضاً ضارٌ بمعدتي".

ربما يوحي لك موقفها هذا بأني قد خذلتها، وليس العكس.

كنا نجلس في استراحة الشراب بنادي الضباط في قاعدة (فورت هادلي) بولاية جورجيا. كنا في ساعة تقديم الشراب بأسعار مخفضة، وقد بدت السعادة على جميع من بالاستراحة، عدانا – أنا وهي. كنت مرتدياً حلة مدنية زرقاء اللون، بينما ارتدت هي رداءً وردياً أنيقاً، محبوكاً على جسدها، أظهر سمرة اكتسبتها من لفحة الشمس، وشعرها

الكستنائي، وعينيها العسليتين، وبعض الأجزاء الأخرى التي أتذكرها بشغف بالغ. عدت معها إلى فضولي، وسألتها: "أتراكِ هنا في مهمة رسمية؟".

"ليس لي أن أتحدث عن هذا".

"وأين تقيمين هنا؟".

لم تجب.

"إلى متى ستمكثين هنا؟".

عادت تطالع جريدتها.

سألتها: "هل تزوجتِ ذاك الرجل الذي كنتِ تلاقينه على هامش علاقتنا؟".

هنا وضعت الجريدة جانباً، وحدّقت فيَّ وهي تقول: "بل كنت ألقاك أنت على هامش علاقتي به... فقد كنا خطيبين".

"نعم.. هذا صحيح. وهل ما زلت خطيبته؟".

"لا شأن لك بهذا".

"بل قد يكون لي شأن".

"ليس في هذه الدنيا"، أجابتني ثم اختفت وراء صفحات الجريدة من جديد.

لم أرَ في يدها خاتم خطبة أو زواج، بيد أن هذا لا يعني الكثير في عملنا، ... هكذا تعلمت في بروكسل.

وبالمناسبة، كانت (سينثيا صنهيل) في أواخر العقد الثاني من عمرها، بينما كنت أنا قد ناهزت الأربعين من العمر، ومن ثمّ لم نكن مختلفين كثيراً؛ فلم نكن أيار/مايو وتشرين الثاني/نوفمبر، ربما أيار/مايو وأيلول/سبتمبر، أو حتى آب/أغسطس.

ودامت علاقتنا قرابة العام، حيث كانت أوروبا موقع عملنا، وكان خطيبها - رائدٌ في القوات الخاصة - يعمل بقاعدة في بنما. صحيح أن الحياة العسكرية شاقة بالفعل على كافة العلاقات، لا سيما وأن مسألة الدفاع عن الحضارة الغربية هذه تجعل البعض شبقاً لأي شيء.

كنا - أنا و(سينشيا) - قد انفصلنا منذ أكثر من عام حين كان لقاء الصدفة ذاك، وكان هذا في ظل ظروف أقل ما توصف به أنها كانت ظروف عابثة. ومن الواضح أن كلينا لم يستطع بعد أن يتجاوز الأمر؛ فلا زلت أنا متألماً، ولا زالت هي غاضبة. أما الخطيب المخدوع فقد بدا عليه بعض الاستياء في آخر مرة رأيته فيها في بروكسل، وذاك المسدس في يده.

كان طراز نادي الضباط في (هادلي) يميل نوعاً إلى الطراز الإسباني، أو المغربي، وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أتذكر فيلم "كازابلانكا" في تلك اللحظة. وفي

استهزاء، همست لنفسي بصوت تسمعه، فقلت: "من بين كل حانات العالم أتت لتلتقيني هنا".

لم يبدُ عليها أنها قد فهمت مرمى الدعابة، أو أنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالابتسام، حيث واصلت قراءة الجريدة؛ جريدة العَلَم الأميركي التي لا يقرأها أحد، ... علناً على الأقل. لكن (سينثيا) كانت مثالية إلى حدٍّ كبير؛ جندية وطنية، ومخلصة، ومفعمة بالحماس، دونما علامات التهكم والإرهاق التي تكسو ملامح معظم الرجال بعد سنوات قليلة من انخراطهم في عمل الجيش. أردفتُ قائلاً: "القلوب مليئة بالتوق والغيرة، والكراهية".

"إليك عني يا (بول)".

"أعتذر أني أفسدت حياتك" قلتُ وأنا فعلاً أشعر بالأسف.

"أنت واهم، ليس بمقدورك حتى أن تفسد يومي هذا".

فقلت بمزيد من الصدق: "لقد حطمتِ فؤادي".

فردّت برغبة صادقة: "ولكم وددت لو حطمت عنقك أيضاً".

كنت متيقناً من أن كلماتي توقظ شيئاً ما بداخلها، إلا أنني لا أعتقد أنه كان ولعاً أو شغفاً.

تذكرت حينئذ قصيدة كنت معتاداً أن أهمس بها إليها في لحظاتنا الحميمة، فملت نحوها وقلت بصوت ناعم: "لم يأسر عيوني إلا (سينشيا)، ولم يُشنَف آذاني إلا (سينشيا)، ولم يسلب فؤادي إلا (سينشيا)، فهجرت كل ثروات الأرض سعياً وراء (سينشيا)، وها أنا الآن.. أهب حياتي للموت، لو كان في هذا سعادة (سينشيا)".

"جيد جداً.. هبها الآن إذاً". قالت هذا ووقفت ثم انصرفت.

فرغت من قدحي، ونهضت متجهاً إلى البار وأنا أصيح: "أدرها مجدداً يا سام".

توجهت إلى البار الطويل بين مجموعة من العسكريين المخضرمين؛ رجال تعلو صدورهم الميداليات والأوسمة وشارات المشاة المقاتلين؛ ورجال يحملون أشرطة عن حروب امتدت بطول الدنيا وعرضها؛ من كوريا وفيتنام، وحتى غرينادا وبنما والخليج. قال الرجل الجالس إلى يميني، وهو كولونيل أشيب الشعر: "الحرب جحيم يا بني، إلا أن غضب المرأة المخدوعة أشد من الجحيم ذاته".

"صدقت".

"لقد رأيت ما دار بينكما عبر مرآة البار".

"يبدو أن مرايا البارات شيقة بالفعل".

"أجل". أجاب الرجل بينما يمعن النظر فيَّ عبر المرآة، ثم سألني في تلميح إلى زيي المدني: "هل تقاعدت؟".

أجبته بنعم. إلا أنها لم تكن الحقيقة.

فما كان منه إلا أن أسدى لي برأيه حول التحاق النساء بالجيش: "إنهن يجلسن ليقضين حاجتهن، ... حاول أن تفعل ذلك بملابس الجيش التي تزن ستين رطلاً". ثم استطرد قائلاً: "من الأفضل أن أذهب إلى دورة المياه"، ونهض... أظنه كان قاصداً المبولة.

خرجت من النادي إلى ليل آب/أغسطس الحار واستقليت سيارتي الشيفروليه. قدت السيارة عبر الموقع الرئيسي، وهو أشبه بوسط المدينة، ولكن دونما تقسيم واضح؛ هو يضم كل شيء بدءاً من المخازن العسكرية ومخازن التموين وغرف الطعام، إلى ثكنات في غير مواضعها الصحيحة، وحتى مراكز مهجورة لصيانة الدبابات.

ويعد (فورت هادلي) موقعاً عسكرياً صغيراً بجنوبي جورجيا، تم إنشاؤه عام 1917 لتدريب قوات المشاة التي تتأهب للذهاب إلى ساحات القتال الضارية في الجبهة الغربية. بيد أن المنطقة العسكرية التابعة لها واسعة جداً، حيث تزيد مساحتها عن مائة ألف فدان، أغلبها غابات، مما يناسب التدريبات الحربية، وتدريبات النجاة والبقاء، والتدريب على حروب العصابات، وما شابه.

كانت مدرسة تدريب المشاة في طريقها إلى التوقف عن نشاطها، فبدت غالبية الموقع مناطق مهجورة يائسة. إلا أن هناك مدرسة للعمليات الخاصة بالمكان، دونما غرض واضح، أو - كي لا أكون متحاملاً - يمكنني القول إنها ذات هدف تجريبي. فحسبما يتراءى لي، فإن المدرسة تقدم مزيجاً من الدراسات عن الحرب النفسية ودراسات الروح المعنوية لدى المقاتل، ودراسات العزل والعقوبات، ودورات حول أساليب السيطرة على الأعصاب والإجهاد، وغير ذلك من منظومات الحرب النفسية والعقلية. قد أبدو شريراً في قولي هذا، ولكن بحكم معرفتي بالجيش، فإن الأمر في النهاية لا يعدو كونه ضرباً من التدريبات والطقوس ومجموعة من الأحذية العسكرية الفخمة اللامعة، بغض النظر عن نبل وروعة الهدف الأصلي.

إلى الشمال من (فورت هادلي) تقع بلدة (ميدلاند) المتوسطة المساحة، وهي نموذج للبلدة العسكرية في بعض الأوجه، حيث إن سكانها من العسكريين المتقاعدين، والموظفين المدنيين بالقاعدة، وأناس يتاجرون مع الجنود، وكذلك البعض ممن ليس لهم علاقة بالجيش وارتضوا الأمر على ما هو عليه.

منذ زمن بعيد، تحديداً في عام 1710، كانت (ميدلاند) مركزاً إنكليزياً للتبادل التجاري. وقبل هذا التاريخ، كانت منفذاً لمستعمرة (سانت أوجستين) الإسبانية في فلوريدا. وقبل هذا وذاك، كانت بلدة للهنود الحمر؛ مركز "أمة أباتوي". قام الإسبان بإحراق البلدة الهندية، وأحرق الإنكليز المستعمرة الإسبانية، ثم جاء الفرنسيون ليحرقوا المركز التجاري الإنكليزي، حتى عاد البريطانيون ليحرقوا حصنهم ويهجروه أثناء الثورة، وفي النهاية أحرقها اليانكي عام 1864. ولو نظرت إلى المكان اليوم لتساءلت لم كانت كل الجلبة حوله. على أية حال، لديهم اليوم مركز إطفاء تطوعي جيد على نحو ما.

وصلت إلى الطريق السريع المتاخم لكل من (فورت هادلي) و(ميدلاند)، ثم اتجهت شمالاً، عابراً الريف المفتوح صوب موقف مقطورات مهجور، حيث كنت أسكن بصفة مؤقتة، وحيث وجدت العزلة مناسبة تماماً لمقتضيات وظيفتي.

وظيفتي.. أنا ضابط في جيش الولايات المتحدة الأميركية. رتبتي غير مهمة، كما أنها أمر سريّ وفقاً لطبيعة عملي. أعمل في قسم التحقيق الجنائي، ومعروف في الجيش - حيث للرتبة أهميتها - أن أعلى رتبة هي ألا يُطلق عليك رتبة بعينها. ولكن حقيقة الأمر هي أنني - مثلي في هذا مثل جميع العاملين في قسم التحقيقات - برتبة "ضابط صف"، وهي رتبة تقع بين الضباط المكلّفين وغير المكلفين. وهي في الواقع رتبة جيدة، حيث إن لها معظم امتيازات الضباط ولكن بدون الكثير من المسؤوليات القيادية، أو صور الكاريكاتير الهزلية الشائعة عن قادة الجيش. ويُخاطب ضباط الصف بلقب "سيدي"، وغالباً ما يرتدي المحققون الجنائيون ملابسَ مدنية، تماماً كما كان حالي تلك الأمسية، بل وأكاد أتوهم أحياناً أني مدنيٌّ بحق.

غير أن هناك مناسبات تقتضي مني ارتداء الزي العسكري، وعندها تصدر لي الإدارة المختصة أوامرها تحت اسم جديد، ورتبة وزي يتناسبان والقضية التي نحقق فيها. عندئذ، أتقدم بتقاريري إلى الوحدة التابع لها التحقيق، وبينما أقوم بمهامي في القضية، أتولى جمع الأدلة وتقديمها إلى ممثل النيابة.

وحينما يتطلب عملك السرية، فإن عليك أن تتصف بمهارات وحيل عدة؛ فقد تنكرت في كل الشخصيات بدءاً من الطاهي وحتى أخصائي الحروب الكيماوية - مع أن هذا لا يشكل فارقاً كبيراً داخل الجيش. ومن الصعب أحياناً أن تنجح في مواصلة هذا التنكر وإقناع الآخرين به، إلا أني أعتمد في هذا على سحري الخاص. فالأمر في نهاية المطاف وهم في وهم، وكذلك الحال مع سحري الخاص هذا.

وهناك أربع درجات في ضباط الصف، وأنتمي أنا إلى أعلى درجاتها، وجميع من بهذه الدرجة يحبس أنفاسه انتظاراً لتلك اللحظة التي سيقر فيها الكونغرس درجة خامسة وسادسة. ويبدو أن البعض لقوا حتفهم مختنقين في انتظارهم هذا.

على كلٍ، أنا عضو في فريق خاص للتحقيقات الجنائية، يمكن القول بأنه وحدة رفيعة المستوى، رغم تحفظي على هذا الوصف. ووجه تميزنا يكمن في أننا جميعاً محاربون قدامى ذوو سجلات اتهام وتوقيف نظيفة. كما تميزنا قدراتي غير العادية على كسر كافة القواعد العسكرية، وهو أمر له سحره الخاص داخل المؤسسة العسكرية. ومن بين السلطات الرائعة، حقي في أن ألقي القبض على أي شخص عسكري في أي مكان بالعالم، بغض النظر عن رتبته. غير أني لست من التهور الذي قد يجعلني ألقي القبض على أحد أعضاء هيئة الأركان المشتركة، إلا أني رغبت دوماً في معرفة إلى أي مدى أستطيع الذهاب... وكنت على وشك اكتشاف ذلك.

ومقر عملي الدائم هو قسم التحقيق الجنائي، الواقع في مدينة (فولز تشيرش) بولاية فيرجينيا. إلا أن القضايا التي تسند إليَّ تأخذني إلى كافة بقاع العالم، حيث السفر، والمغامرة، وحرية الوقت، والتحديات العقلية والبدنية، ورؤساء يدعونني وشأني.. أيمكن للمرء أن يحلم بأكثر من هذا؟.. آه.. نسيت المرأة، ولكن هناك بعض من هذا أيضاً، ولم تكن بروكسل المرة الأخيرة التي حظيت فيها بامرأة، لكنها كانت آخر مرة عنى لي فيها الأمر شيئاً.

وللأسف هناك رجال يحصلون على استمتاعهم وتحدياتهم بسبل أخرى؛ الاعتداء الجنسي، والقتل. وهذا ما حدث في ليلة آب/أغسطس الحارة تلك في (فورت هادلي) بجورجيا. كانت الضحية هي النقيب (آن كامبيل)، ابنة الجنرال (جوزيف كامبيل)، الشهير بلقب "جو المقاتل". وزاد الأمر سوءاً أنها كانت شابة جميلة، وموهوبة، ولامعة. كانت خريجة أكاديمية (ويست بوينت)، وكانت فخراً لـ (فورت هادلي)، والمحبوبة لدى أفراد إدارة العلاقات العامة بالجيش، ونموذجاً تحتذي به الطامحات إلى الالتحاق بالسلك العسكري. وكانت المتحدثة الرسمية باسم التيار الجديد غير المجحف بحقوق المرأة، في الجيش، كما أنها خاضت حرب الخليج، ويمكن للمرء أن يستفيض في وصفها إلى ما لانهاية. لذا لم أكن مندهشاً حينما وصلني نبأ اغتصابها ومقتلها. قد يرى المرء أنها هي التي جلبت ذلك لنفسها، أليس كذلك؟ إلا أن هذا ليس صحيحاً.

لكني لم أعلم بأي من هذا أثناء "جلسة الأنس بعد العمل" في نادي الضباط. فالحقيقة أنني أثناء حديثي إلى (سينثيا)، وأثناء ذاك الحديث الذكوري مع ذلك الكولونيل لدى البار، كانت المقدم (آن كامبيل) لم تزل على قيد الحياة، بل وعلى بُعد خمسين قدماً فقط داخل غرفة الطعام بالنادي، تُنهي وجبتها المكونة من السلطة والدجاج والأرز، مع المشروب المفضل والقهوة؛ كان هذا ما علمته خلال ما تلى الواقعة من تحقيقات.

وصلت إلى موقف المقطورات المهجور، بين أشجار الصنوبر، وأوقفت سيارتي على مسافة من منزلي المتحرك. ثم مشيت في الظلام عبر ممر من ألواح الأخشاب

المتعفـنة. كـان هـناك عدد من العربات المهجورة المبعثرة حول المساحة الواسعة التي اقـتلعت أشـجارها، إلا أن الغالبية كانت للمساحات الفارغة المحددة بالقوالب الإسمنتية، والتي طالما استقرت فوقها المئات من المنازل المتحركة.

كانـت خـدمات الكهرباء والهاتف ما تزال متوفرة، وبئر يوفر مياه جارية، إلا أني أضيف إليه بعض المشروب المفضل كي أستسيغه.

فـتحت باب العربة التي أسكنها، ثم دخلت وأضأت النور، ليكشف عن مكان يجمع بين المطبخ وغرفة الطعام وحجرة المعيشة.

كـنت أنظر إلى تلك العربة على أنها آلة زمنية لم يتغير بداخلها شيء منذ عام 1970 فـيما يـبدو. كـان الأثاث من البلاستيك، وذو لون أخضر باهت، بينما كانت أدوات المطـبخ ذات لـون أشـبه بلون الخردل. أما الجدران فمغطاة برقائق الخشب الداكن، وغطت الأرضية سجادة ذات نقوش حمراء وسوداء. فلو دخل العربة شخص ذو حساسية خاصة تجاه الألوان، لتولدت لديه نوبات عارمة من الاكتئاب والرغبة في الانتحار.

خلعت سترتي وربطة العنق، وأدرت المذياع، ثم أخرجت زجاجة المشروب المفضل من الثلاجة، ثم جلست إلى المقعد ذي المسند المثبت في الأرض. كان هناك ثلاث لوحات مثبـتة على الجدار، إحداها لمصارع ثيران، والأخرى لمنظر بحري، أما الثالثة فمحاكاة للوحة رامبرانت المسماة "تأمل أرسطو في تمثال نصفي لهوميروس". ارتشفت المشروب المفضل متأملاً في أرسطو المتأمل في تمثال هوميروس النصفي.

وموقـف المقطـورات المهجور هذا على وجه التحديد، والذي يطلق عليه اسم (ويـسبيرينج باينـــز) – إذا كـان هذا أمراً جديراً بالاهتمام – قد تم إنشاؤه من قِبل بعـض رقباء الجيش المتقاعدين في أواخر ستينيات القرن العشرين، حينما بدا للجميع أن تلـك الحرب بآسيا لن تنتهي أبداً. آنذاك، كانت (فورت هادلي) – بوصفها مركز تـدريب لقـوات المـشاة – تعج بالجنود وأسرهم، وأتذكر أن منطقة العربات هذه – (ويسبيرينج باينــز) – كانت تمتلئ بالجنود الشباب المتزوجين الذين كان مسموحاً لهم – بـل وشجّعهم الجيش – أن يتخذوا مساكنَ خارج القاعدة. وكان هناك حمام سباحة فوق سطح الأرض، دائم الازدحام بالصبية والشابات من زوجات هؤلاء الجنود. وكان هـناك الكثيـر مـن الشراب، والكثير من الملل، والقليل جداً من المال، وكان ضباب الحرب يغيم على ملامح المستقبل.

لـم يكن هذا ما تصوره الناس عن الحلم الأميركي، وحينما كان الرجال يذهبون إلى الحرب، كان غيرهم يتسلل ليلاً إلى داخل حجرات النوم في مؤخرة تلك العربات الطويلة

الـضيقة. والحقـيقة أنني قد عشت هنا وقتذاك؛ ذهبت إلى الحرب، فحلّ أحدهم محلي في الفراش ليسلبني زوجتي الشابة. إلا أن هذا كان منذ بضع سنوات مضت، وقد حدثت أمور كثيـرة منذئذ، حتى إن ما تبقى لديَّ من مرارة تجاه ما حدث هو أن هذا الوغد قد سلبني كلبي أيضاً.

طالعـت بعض المجلات، وتناولت المزيد من المشروب المفضل، وطافت (سينثيا) بأفكاري، إلا أني لم أفكر فيها حقاً.

عـادةً مـا أسـتمتع بوقتـي أكثر من هذا، إلا أنه كان من المتوجب عليَّ أن أكون متواجداً داخل مستودع أسلحة القاعدة في تمام الساعة 5:00، أي الخامسة فجراً.

الفصل الثاني

مستودع الأسلحة والذخيرة. كمية هائلة من الأسلحة الأميركية الفائقة تقنياً – تلك الأشياء التي تُخترع وتتطور تحت ستر الليل.

كنت في مهمة سرية داخل المستودع في ساعات الصباح الأولى، حينما قتلت (آن كامبيل)، ومن هنا علمت بالأمر. كنت منذ عدة أسابيع مضت أنتحل مهام ومظهر رقيب إمدادات رث إلى حدٍّ ما، اسمه (فرانكلين وايت)، وحيث بصحبة رقيب إمدادات حقيقي وقذر حقاً، اسمه (ديلبرت إيلكينز)، كنا على وشك إتمام صفقة بيع بضع مئات من البنادق طراز إم 16، ومنصات قاذفات، وغير ذلك من الأسلحة المختلفة من داخل المستودع، إلى مجموعة من المتمردين الكوبيين الذين أرادوا الإطاحة بالسيد (فيديل كاسترو)، والذي أطلقوا عليه اسم "عدو المسيح". وحقيقة الأمر هي أن هؤلاء الرجال لم يكونوا سوى تجار مخدرات كولومبيين، إلا أنهم كانوا يرغبون في استمالتنا نحو هذه الصفقة. وأنا على كل حال كنت قابعاً بالمستودع في الساعة 6:00، أثرثر مع رفيقي المتآمر، الرقيب إيلكينز. كنا نتحدث عما سنفعله بمبلغ المائتي ألف دولار الذي سنتقاسمه كنصيب لنا في هذه الصفقة. كان السجن مدى الحياة بطبيعة الحال هو المصير المنتظر للرقيب إيلكينز، إلا أنه بالطبع لم يكن يعلم ذلك، وللمرء الحق في أن يحلم، بينما كان من واجبي الثقيل على النفس أن أكون أسوأ كوابيسهم.

رنَّ جرس الهاتف، والتقطت السماعة قبل أن يلتقطها صديقي الجديد، وأجبت الهاتف قائلاً: "مستودع القاعدة، الرقيب وايت يتحدث".

جاوبني الكولونيل (ويليام كينت) – قائد الشرطة العسكرية بالمستودع، وأهم رجال شرطة فورت هادلي – بقوله: "آه ها أنت ذا.. أنا سعيد لتوصلي إليك".

أجبته: "لم أكن أعلم أنني كنت تائهاً". فقبل مقابلتي لسينثيا بالصدفة، كان الكولونيل كينت هو الشخص الوحيد الذي كان يعلم بحقيقتي، والسبب الوحيد الذي قد يدفعه للاتصال بي هو أن ينبهني أنني على وشك الوقوع في خطر كشف هويتي. وهكذا أبقيت عين على الرقيب إيلكينز والأخرى على الباب.

ولكن، لم يكن الأمر على هذا القدر من البساطة، فقد تابع الكولونيل ليبلغني بما لديه: "لقد حدثت جريمة قتل. فتاة برتبة مقدم. وربما تكون قد اغتصبت أيضاً. هل بوسعك أن تتحدث بحرية؟".

"كلا".

"هل لك أن تقابلني؟".

"ربما." كان (كينت) شخصاً حلو المعشر، إلا أنه لم يكن يتصف بسعة الحيلة شأنه شأن جميع القادة الإداريين، كما أن إدارة التحقيقات العسكرية أكسبته نوعاً من العصبية والتوتر. أردفت قائلاً: "فأنا في عمل الآن".

"إن لهذه الجريمة الأولوية سيد (برينير). إنها جريمة كبرى".

"وهكذا الحال هنا أيضاً" نظرت إلى الرقيب (إيلكينز) الذي كان يرمقني في حرص.

ردَّ (كينت): "إنها ابنة الجنرال (كامبيل)".

قلت في نفسي للحظة:"يا إلهي". فقد كان أشد ما أخشاه أن تسند إليَّ ذات يوم مهمة التحقيق في جريمة اغتصاب وقتل ابنة أحد الجنرالات، فهو موقف خاسر في كل الأحوال. وقد أكّد لي حدسي المهني والأخلاقي أنه لا بد من أن هناك مغفل آخر في وحدة التحقيق الجنائي يمكنه القيام بهذه المهمة، أحد من هؤلاء ذوي المهام الحقيرة. بل وقد بدأت بعض الأسماء المناسبة لبعض المرشحين ترد إلى ذهني. ولكن بغض النظر عن ذاك الحدس، إلا أن فضولي الطبيعي كان قد أثير بالفعل. فسألت الكولونيل:

"أين يمكن أن ألتقيك؟".

"عند موقف السيارات الخاص بمبنى القيادة، وسآخذك إلى موقع الجريمة".

ولكوني في مهمة سرية، فإنه من المنطقي ألا أتواجد في أي مكان قريب من مكتب قائد المنطقة، إلا أن (كينت) ثقيل لدرجة محنقة. فقلت له: "ليس في مقرك".

"أوه... ما رأيك إذن في أن نلتقي عند ثكنات المشاة؟ عند مبنى الكتيبة الثالثة. فهو في طريقنا".

كان (إيلكينز) قد بدأ التململ من فرط ما أصابه من توتر وشك. فقلت لـ (كينت): "حسناً يا عزيزتي. امنحيني عشر دقائق"، ثم أنهيت المكالمة، وقلت للرقيب (إيلكينز) ممازحاً: "إنها فتاتي. تحتاج إلى بعض العشق".

نظر (إيلكينز) في ساعته وقال: "ولكني أظن أن الوقت متأخر.. أو مبكر...".

"ليس لتلك الفتاة".

فابتسم (إيلكينز).

وحسبما تقتضي قواعد مستودع الذخيرة، كنت أضع سلاحاً جانبياً صغيراً. فما أن اطمأنيت إلى اقتناع (إيلكينز) بقصتي الملفقة، حتى نزعت حزام المسدس وتركته داخل

المستودع حسب تعليمات القاعدة. ولم أكن أعلم بأني سوف أحتاج إلى سلاح فيما بعد. وقلت لـ (إيلكينز) بينما أغادر المكان: "قد أعود إليك".

"لا بأس... أعطها قبلة من أجلي يا فتى".

"سأفعل بالتأكيد".

كنت قد تركت سيارتي الخاصة عند العربة المتنقلة، وكانت الإدارة قد خصصت لي داخل القاعدة عربة نقل من طراز فورد لتتناسب مع مهمتي الحالية. وكانت مزودة برف للبندقية، وغطاء من شعر الكلب على المقاعد المنجدة، وزوج من الأحذية العالية الرقبة في مؤخرة السيارة.

وهكذا انطلقت عبر القاعدة الرئيسية، وخلال دقائق كنت داخل لواء تدريب المشاة، وهو عبارة عن ثكنات خشبية ترجع إلى أيام الحرب العالمية الثانية، أغلبها مهجور الآن فبدت مظلمة مقفرة. فلقد انتهت الحرب الباردة، والجيش، الذي لم يكن يذوي تماماً، كان بالتأكيد يتقلص، حيث كانت الاستقطاعات الكبرى من نصيب أقسام الجيش المقاتلة: المشاة، والمدرعات، والمدفعية، برغم كونها أساس وجود الجيش في المقام الأول. إلا أن قسم التحقيقات الجنائية، في تعامله مع الجريمة، يُعد مؤسسة متنامية.

ولقد تخرجت كمجند شاب في المدرسة المتقدمة لتدريب أفراد المشاة هنا في (فورت هادلي) منذ عدة سنوات مضت، ثم التحقت بمدرسة تدريب المظليين ومدرسة تدريب القوات الخاصة بقاعدة (فورت بينينج)، والتي ليست على مسافة بعيدة من هنا. فأنا إذاً جندي مقاتل من المظليين – أي آلة قتل متحركة، ماكر وخبيث، موت يهبط من السموات... وغير ذلك من التعبيرات. إلا أنني تقدمت في السن الآن، ومن ثم يناسبني العمل مع إدارة التحقيقات الجنائية.

في النهاية، حتى المؤسسات الحكومية يجب عليها أن تبرر الغرض من وجودها، وقد أبلى الجيش بلاءً حسنا بأن وجد لنفسه دوراً جديداً متمثلاً في ردع الدول التافهة التي تخرج عن الخط. ولكني لاحظت أن الحماس قد خفَّ بين صفوف الضباط والرجال الذين كانوا يشعرون على الدوام بأنهم الحاجز الوحيد الذي يقف بين الجحافل الروسية وأحبائهم. فهم أشبه بالملاكم الذي تدرب لسنوات من أجل مباراة اللقب، ليجد في نهاية الأمر أن خصمه قد سقط ميتاً وحده. فهناك شعور بالارتياح، إلا أنه مشوب بخيبة الأمل؛خواء يحل محل ذاك النشاط الجم.

كنا في تلك الساعة من اليوم التي يسميها العسكريون بأول ضوء، وكانت سماء جورجيا تتحول إلى اللون الوردي، بينما هواؤها ثقيل رطب، تستطيع من خلاله أن تتوقع طقساً تصل فيه درجة الحرارة إلى 90 فهرنهايت (32 درجة مئوية). كنت أشم رائحة طين جورجيا الرطب، وأشجار الصنوبر، وشذا قهوة الجيش يفوح من عنبر الطعام المجاور.

خرجت من الطريق المرصوف إلى داخل الأرض المعشبة أمام مقر الكتيبة القديمة. تــرجل الكولونيل (كينت) من سيارته العسكرية الزيتونية اللون، بينما ترجّلت من شاحنتي الصغيرة.

كــان كينت يناهز الخمسين، طويل القامة، متوسط البنية، ذا وجه ينم عن إصابة قديمة بالجدري، وعينين زرقاوين باردتين. أحياناً ما يتصف بالصرامة، وهو كما قلت لــيس علــى تلــك البراعة، إلا أنه ضابط مجد وكفء. فمنصبه يماثل منصب رئيس الشرطة، فهو قائد الشرطة العسكرية في (فورت هادلي). وهو شديد الالتزام بالقوانين والــنظم، ولن تجد له أصدقاء أعزاء بين مرؤوسيه، على الرغم من أنه ليس مكروهاً من أحد.

بدا (كينت) أنيقاً في بزة القائد والخوذة البيضاء، وحزام المسدس الأبيض، مع حذاء ثقيل شديد اللمعان. بادرني بالقول: "هناك ستة من أفراد الشرطة العسكرية يحرسون موقع الجريمة. لم يمس أحد أي شيء داخل الموقع".

"هــذه بدايــة جيدة". كنا نعرف بعضنا البعض منذ حوالى عشر سنوات، فنمت بيننا علاقــة عمــل قــوية، رغم أني لا أراه سوى مرة واحدة في العام حال وجود قضية ما تــستدعي حــضوري إلى قاعدة فورت هادلي. ويفوقني (كينت) رتبة، لكنني أكون على ســجيتي معــه، بــل إنه يعاني مني كثيراً طالما كنت أمثل منصبي كضابط تحقيقات في القضية. وقد شاهدته وهو يلقي بشهادته في قاعات المحاكم العسكرية؛ تجسيد حي لكل ما يحلم به المدعي في الشرطي: مقنع، منطقي، محايد، ومنظم في شهادته التي يدليها. إلا أن فيه أمر يبقى غير متسقٍ مع شخصه، ولطالما شعرت أن المدعين يتنفسون الصعداء فور رحــيله عــن منصة الشهادة بسبب ذاك الشيء؛ ربما لأنه صارم وعديم الشفقة. فعادة ما تعــرف المحاكم العسكرية بعضاً من التعاطف – أو على الأقل بعض الاهتمام – بوضع المــتهم إذا كان منتمياً إلى الجيش. إلا أن (كينت) كان واحداً من أولئك الضباط الذين لا يعــرفون سوى الأبيض والأسود من الألوان، ويجد أن كل من يخالف القانون في (فورت هادلــي) قد وجه له إهانة شخصية. بالكاد أذكر أني رأيته يبتسم ذات مرة حينما قام مجنّد جديــد تحت نوبة سكر بالتسبب في إحراق ثكنة عسكرية مهجورة، فعوقب بالسجن لعشر سنوات بتهمة الإحراق العمد. ولكن أفترض أن القانون هو القانون، وفي هذا وجد (ويليام كيــنت) – بشخــصيته الهشة – شعاراً في الحياة. ولأجل كل هذا كنت مدهوشاً لما رأيته متوتراً بسبب ما وقع هذا الصباح. فسألته: "هل أبلغت الجنرال (كامبيل)؟".

"كلا".

"ربما كان من المناسب أن تذهب إلى منــزله".

أومأ (كينت)، ولكن بلا حماس. بدا لي مستاءً، واستنتجت أنه قد رأى موقع الجريمة بنفسه. قلت له: "سوف يلومك الجنرال لأنك قد تأخرت في إبلاغه".

فأوضح لي الأمر قائلاً: "لم أستطع أن أتأكد سوى من خلال رؤيتي للجثة بنفسي. أعني أنه لم يكن بوسعي أن أتوجه إلى منزله لأقول له إن ابنتك...".

"من قام بالفحص المبدأي؟".

"الرقيب (ساينت جون). وهو الذي وجد الجثة".

"أكان يعرفها؟".

"كانا في الخدمة معاً".

"إذاً لا جدال في أنها هي. وهل تأكدت أنت أيضاً؟".

"أجل، بالطبع. ولقد تعرفت عليها بكل تأكيد".

"ناهيك عن السلسلة والاسم على الزي الخاص بها".

"لم أجد أي منهما".

"اختفت جميعها؟".

"أجل... من ارتكب الجريمة قام بنزع السلسلة والاسم...".

هنا يلعب الحدس دوره، أو ربما كان ذلك نتاج تراكم كل تلك القضايا التي صادفتني، وحينما ترى الأدلة وموقع الجريمة تقول لنفسك: "ما الخطأ في هذا المشهد؟" سألت الكولونيل: "ماذا عن ملابسها الداخلية؟".

"ماذا؟ أوه... كانت هناك... عادة ما يأخذون الملابس الداخلية، أليس كذلك؟ هذا غريب".

"هل الرقيب (ساينت جون) من بين المشتبه بهم؟".

فهزّ كتفيه قائلاً: "هذه مهمتك أنت".

"حسناً.. على الأقل مع اسم مثل ساينت جون، ستمنحه حق الإفادة من الشك حتى الآن". تطلعت إلى الثكنات المهجورة من حولي، ومقر الكتيبة، وعنبر الطعام، ومناطق تجمع فرقتي التي أصبحت الحشائش تغطيها الآن. وفي ضوء الفجر الرمادي، كدت أرى كل تلك القوات الشابة وهي تستحث الخطى لتلبية النداء. فلا زلت أذكر ذلك الإحساس الدائم بالتعب والبرد والجوع قبل التوجه للإفطار. كما أتذكر مدى ما كنت أعانيه من خوف، لعلمي أن تسعين بالمائة من هؤلاء الواقفين بالتشكيل سوف يتوجهون إلى فيتنام، خاصة مع علمي بأن معدل الضحايا بين قوات الجبهة من الدرجة التي لا تجعل أحداً يتوقع أن تعود من هناك على النحو الذي غادرت هذا المكان عليه. قلت لـ (كينت): "هناك كان مقر فرقتي. فرقة دلتا".

"لم أكن أعلم أنك كنت من قوات المشاة".

"كان هذا منذ زمن طويل، قبل أن ألتحق بالمباحث العسكرية. وأنت؟".

"كنت دوماً فرداً في الشرطة العسكرية. إلا أنني كنت شاهداً على الكثير في فيتنام. كنت بالسفارة الأميركية حينما اقتحمها الثوار في ذلك الوقت؛ كانون الثاني/يناير عام 1968". وأضاف "لقد قتلت واحداً منهم".

أومأت وأنا أقول: "أحياناً أجد أن قوات المشاة أفضل من مهامي الحالية، فلا يمكن أن يكون المجرم واحداً منا. أما عملي هذا فمختلف".

علق (كينت) قائلاً: "الأشرار هم أشرار في كل الأحوال، والجيش هو الجيش، والأوامر هي الأوامر".

"طبعاً". وهنا يكمن جوهر العقلية العسكرية، فليس لنا أن نفكر في السبب، كما أنه لا عذر للفشل. وهو أمر له فعاليته في المواجهات الحربية ومعظم المواقف العسكرية الأخرى، إلا في إدارة التحقيقات الجنائية، حيث عليك في الواقع أن تعصي الأوامر، وأن تفكر في نفسك، وأن تتجاهل كبار الضباط، وقبل كل ذلك أن تكتشف الحقيقة. وهي أمور لا تتفق مع الجيش، والذي يعتبره أفراده عائلة كبيرة، حيث لا يزال أعضاؤها يعتقدون أن "كل الأخوة بواسل، وكل الأخوات فاضلات".

قال (كينت) وكأنما كان يقرأ أفكاري: "أعلم بأنها قد تكون قضية شائكة، إلا أن هناك احتمالاً ألا تكون كذلك. فربما ارتكب الجريمة أحد المدنيين، وربما أمكن إتمام التحقيق في وقت قصير".

"أوه.. إنني متأكد من هذا. وعندها سنتلقى أنا وأنت رسائل تقدير لتوضع في ملفينا الدائمين، وبعدها يدعونا الجنرال (كامبيل) لحفلة كوكتيل".

هنا بدا الاضطراب على (كينت)، فقال: "اسمع، إن مستقبلي الوظيفي على المحك، فهذه القاعدة تابعة لي. يمكنك أن تتنحى عن القضية إن أردت وسيرسلون محققاً آخر. لكن ما حدث هو أنك موجود هنا الآن، وأنك من وحدة خاصة، وقد عملنا معاً من قبل، وأود أن يذكر اسمانا معاً في التقرير المبدأي لهذا التحقيق".

"إنك حتى لم تجلب لي قدحاً من القهوة".

ابتسم ابتسامة واسعة وقال: "قهوة؟.. تباً، إنني بحاجة إلى شراب. أتعلم أنك قد تحظى بترقية لو نجحت في هذا التحقيق؟".

"قد تكون محقاً إن عنيت خفض رتبتي، أما عن الترقية، فقد وصلت إلى الحد الأعلى".

"آسف فقد نسيت. يا لها من منظومة سيئة".

سألته: "هل تهدف إلى نيل رتبة أعلى؟".

"ربمــا".. قــال وقد بدا عليه القلق وقال وكأنما النجمة التي حلم بها قد انطفأت في أحلامه.

"هل أبلغت الإدارة المحلية للتحقيقات الجنائية؟".

"كلا".

"لماذا لم تفعل بحق السماء؟".

"حــسناً... إنهم لن يتولوا هذه القضية بأي حال... أعني.. يا إلهي... إنها ابنة قائد القاعــدة، كمــا أن قائد إدارة التحقيقات الجنائية هنا، الرائد (باويس)، كان يعرفها، وكما يعــرفها جميع من هنا، لذا يجب أن نظهر للجنرال أننا قد أتينا بأمهر المحققين من المقر الرئيسي للتحقيقات العسكرية..".

"إن (كبش فداء) هو الوصف المناسب الذي تبحث عنه. لا بأس. سأخبر رؤسائي في (فولــز تشيرش) أن من الأفضل أن يتولى هذه القضية محقق خاص، ولست متأكداً أنني الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة".

"لنذهب أولاً لرؤية الجثة، وبعدها قرر ما تراه".

ومــا أن هممــنا بالــتوجه نحو سيارته، حتى سمعنا صوت طلقة مدفع – وهو في الحقيقة صوت مسجل صادر من آلة مدفعية منذ زمن طويل – فتوقفنا وتطلعنا نحو اتجاه الــصوت. أدينا التحية العسكرية فيما كانت المكبرات المثبتة فوق الثكنات المهجورة تبث صوت الاستعداد لإطلاق طلقة أخرى. فوقفنا في ضوء الغسق؛ شاهدان وحيدان على حياة كاملة من التكيف، وقرون من العادات والطقوس العسكرية.

كــان ذلك الصوت المسجل العتيق، والذي يعود إلى عصر الحملات، يتردد أصداؤه عبــر شــوارع مجمع الفرقة القديم، وفيما بين الثكنات، وعلى امتداد الأراضي المعشبة، وكانت الأعلام ترتفع في مكان ما.

مــرت ســنوات منذ آخر مرة كنت فيها بالخارج وقت نداء الإيقاظ، ولكن يبدو أني أســتمتع بهــذا الطقس الاحتفائي من وقت إلى آخر، حيث الجمع بين الأحياء والأموات، وفكرة أن هناك كياناً أكبر وأهم مني، وأنني جزء من هذا الكيان.

ولن تجد طقساً مدنياً يماثله، ما لم تعد مشاهدة "صباح الخير يا أميركا" طقساً يشترك فــيه الجمــيع، ومع أني لست منغمساً جداً في الحياة العسكرية، إلا أنني لست متيقناً من كونــي مهــيأ للانــتقال إلى الحياة المدنية بعد. ولكن ربما كنت أفكر فعلاً في اتخاذ هذا القرار. فأحياناً تشعر عندما يُفتح الستار للفصل الأخير.

تضاءلت آخر أصوات النفير، وتابعت أنا و(كينت) سيرنا نحو سيارته. وقال معلقاً: "ها هو يوم جديد يأتي على (فورت هادلي)، إلا أن إحدى مجنداته لن تراه".

الفصل الثالث

توجهنا جنوباً بسيارة (كينت) نحو أقاصي القاعدة. بادرني الكولونيل قائلاً: "كان النقيب (آن كامبيل) والرقيب (هارولد ساينت جون) في نوبة الخدمة في مقر القاعدة".

"هل كانا على معرفة ببعضهما البعض؟".

هزّ (كينت) كتفيه قائلاً: "ربما معرفة عابرة. فلم يكونا يعملان معاً من قبل. فهو في فرقة المحركات. بينما كانت هي مدربة في مدرسة العمليات الخاصة. فقد كانا ينفذان مهمة تصادف أن جمعتهما معاً".

"ما الذي تدربه؟".

تابع قائلاً: "الحرب النفسية... إنها حاصلة... كانت حاصلة على درجة الماجستير في علم النفس".

سألته: "هل يقوم المعلمون عادةً بهذه النوعية من نوبات الخدمات؟".

"كلا، ليس في المعتاد. إلا أن (آن) كانت تدرج اسمها في كشوفات خدمات من الممكن ألا تقوم بها أصلاً... فقد كانت تحاول أن تقدم نموذجاً يحتذى به، بوصفها ابنة الجنرال".

"فهمت". يقوم الجيش بإدارة مهام خدمية خاصة بالضباط والضباط الاحتياط، والمدرجين من المجندين والمجندات. وهي عبارة عن قوائم عشوائية، بحيث تضمن أن يقوم الكل بدور في تأدية تلك الخدمات. وفي السابق لم تكن المجندات تدرج في كافة تلك القوائم، حيث لم تكن تدرج في قوائم مهام الحراسة، إلا أن الزمن تغير. أما الذي لم يتغير فهو أن الفتاة الشابة التي تتجول وحدها ليلاً تكون معرضة للخطر. فلم تتغير قلوب الأشرار؛ كما أن تلك الغريزة الجنسية لم تزل تستعصي على التنظيمات العسكرية.

سألته: "هل كان معها سلاح؟".

"أجل. كان معها مسدسها".

"أكمل تقريرك إذن".

"حسناً.. في حوالى الساعة 1:00 قالت (كامبيل) لـ (ساينت جون) أنها ستستقل السيارة الجيب لتمر على نقاط الحراسة..".

"لماذا؟ أليست هذه مهمة رقيب الحراسة أو ضابط الحراسة؟ وعلى الضابط المناوب أن يبقى لدى الهاتف".

رد (كيــنت): "قال (ساينت جون) بأن ضابط الحرس كان ملازماً صغير السن، قدم للــتو من (ويست بوينت). كما أن (كامبيل) متحمسة وتريد أن تذهب هناك لتعاين الأمور بنفــسها. وهكــذا قررت الذهاب". اتخذ (كينت) طريق رايفل رينج. ثم تابع كلامه: "وفي حوالى الساعة 3:00 كما يقول (ساينت جون) بدأ يقلق نوعاً ما...".

"ما سبب قلقه؟".

"لا أعلــم... حــسناً.. أنت تعلم أنها امرأة، وربما كان قد شعر بأنها تركته بالخدمة وذهبت للتسلية في مكان ما، فلم يكن يستطيع أن يبارح مكانه بجوار الهواتف".

سألته: "كم عمر هذا الرجل؟".

"يقارب الخمسين. متزوج. سجله جيد".

"وأين هو الآن؟".

"عاد إلى مبنى قيادة الشرطة العسكرية ليرتاح، وقد طلبت منه أن يبقى مستيقظاً".

كــنا قد تجاوزنا ساحات الرماية الأربع، جميعها تقع على يمين الطريق، عبارة عن مــساحات هائلة من الأرض المسطحة المفتوحة. أنا لم آتِ إلى هنا منذ ما يفوق العشرين عاماً، لكنني لا زلت أذكر المكان.

تابــع (كيــنت) قراءة التقرير: "وهكذا اتصل (ساينت جون) بالحراسة، لكنه لم يجد (كامبــيل) هــناك. فطلب من رقيب الحرس أن يتصل بمواقع الحراسة ليرى ما إذا كانت (كامبــيل) قــد مرت عليهم. فرد رقيب الحرس عليه بعد قليل ليؤكد بأنها لم تمر. وهكذا طلب (ساينت جون) من رقيب الحرس أن يرسل فرداً لمقر القيادة لأجل مراقبة الهواتف، وحيــنما حضر أحد الحرس، استقل (ساينت جون) سيارته وهرع بها بحثاً عنها. بدأ بحث المواقع على الترتيب... نادي الضباط ونادي الاحتياط وهكذا.. إلا أن أحداً من الحراس لم يــرها. وحيــنما حلــت الساعة 4:00 توجه نحو آخر نقاط الحراسة، وهي أحد مخازن الذخيرة، وفي طريقه وعند ساحة الرماية رقم 6 لمح سيارتها الجيب... ها نحن ذا عندها الآن".

فهــناك، وعلى يمين الطريق الضيق، كانت تقبع السيارة الجيب، والتي يفترض أن (آن كامبيل) قادتها حتى موعدها مع الموت. وإلى جوار الجيب كانت هناك سيارة فان - موستانج حمراء. سألت (كينت): "أين نقطة الحراسة والحرس؟".

"نقطة الحراس على بعد مسافة قصيرة من هنا. أما الحارس المناوب - (روبينــز) - فلم تسمع شيئاً، لكنها رأت مصابيح أمامية".

"هل استجوبته؟".

"تقصد استجوبتها. فاسمها (ماري روبينز)" كان كينت يبتسم لأول مرة. "ألا تعلم أن كلمة حارس كلمة محايدة تصلح للجنسين؟".

"أشكرك على هذه المعلومة؟ وأين هي الآن إذن؟".

"هي الآن في مقر قيادة الشرطة العسكرية".

"يبدو أن المكان قد ازدحم هناك الآن. لكن حسناً ما فعلت".

أوقف (كينت) سيارته بالقرب من السيارتين. كانت الشمس قد بزغت، واستطعت أن أتبين أفراد الشرطة العسكرية الستة – وكانوا أربعة رجال وسيدتين – يقفون في مواضع متفرقة حول المنطقة. كان بكل ساحات الرماية مقاعد على الجانب الأيسر من الطريق بحيث تواجه الساحة، وحيث تتلقى القوات الدروس النظرية قبل التدريبات العملية. وبالمقاعد التي إلى جواري على الجانب الأيسر جلست سيدة ترتدي الجينز وسترة ثقيلة، كانت تدون شيئاً ما في مفكرتها. خرجت أنا و(كينت) من السيارة، وقال لي: "هذه هي الآنسة (صنهيل)".

كنت أعرف هذا. سألت (كينت) "ما الذي أتى بها إلى هنا؟".

"لقد استدعيتها".

"لماذا؟".

"إنها خبيرة في جرائم الاغتصاب".

"إن الضحية لا تحتاج إلى خبيرة، فلقد ماتت بالفعل".

أومأ كينت قائلاً: "أجل، لكن الآنسة (صنهيل) محققة أيضاً في جرائم الاغتصاب".

"هل هذا صحيح؟ ما الذي تفعله في (هادلي) إذن؟".

"ألا تعرف بقصة تلك الممرضة، الملازم (نيلي)؟".

"لا أعرف سوى ما قرأته في الصحف. هل يمكن أن تكون هناك صلة بين الجريمتين؟".

"كلا. فقد ألقينا القبض على مرتكب الجريمة الأولى بالأمس".

"في أي وقت بالأمس تحديداً؟".

"حوالي الساعة الرابعة عصراً. فقد ألقت الآنسة (صنهيل) القبض عليه وبحلول الساعة الخامسة كان قد اعترف بجرمه".

أومأت متفهماً. وفي السادسة عصراً كانت الآنسة (صنهيل) تتناول شراباً في نادي الضباط. لقد كانت تحتفل بنجاحها في صمت إذن، وكانت (آن كامبيل) حية تتناول

عشاءها هناك، بينما كنت لدى البار أراقب (سينثيا) محاولاً أن أتشجع حتى أتقرب منها أو أن أنسحب بكرامتي.

أضاف (كينت): "كان من المفترض أن ترحل (صنهيل) في مهمة جديدة هذا اليوم. إلا أنها أعربت عن رغبتها في التحقيق في هذه القضية".

"كم نحن محظوظون إذن".

"أجـل، فمـن الجيد أن تكون هناك سيدة في مثل هذه النوعية من القضايا. كما أنها بارعة. فلقد راقبت عملها".

"بالطـبع" لاحظت أن الموستانج الحمراء، والتي كانت في الأغلب سيارة (سينثيا)، تحمل لوحات ولاية فيرجينيا، تماماً كسيارتي، بما بين لي أنها كانت تعمل بعيداً عن (فولز تـشيرش)، كمـا هو حالي أنا. إلا أن الأقدار حددت أن نلتقي هنا بعيداً عن مقر الإدارة العامة. كان أمراً لا مفر منه إذن.

تطلعـت عبـر ساحة الرماية، حيث كان ضباب الصباح لم ينقشع بعد. كانت الأهداف منتصبة، بزوايا ومسافات مختلفة، على شكل أشرار مسلحين. لقد حلت تلك الأهداف المجسمة للبـشر محل الشكل القديم للأهداف القائمة، وأعتقد أن القصد من هذا هو أنك لو تدربت على قتل البشر، فإن من المفيد أن يبادلك الهدف النظر. على أنه بوسعي من خبرات سابقة أن أعتقد أن لا شـيء يهيئ المقاتل للقتل سوى أن يقتل فعلاً. على كل فها هو الطير قد حط على تلك التماثيل، مما أفقدها أثرها المطلوب، على الأقل حتى يبدأ أفراد الكتيبة في التدريب.

كانـت سـاحات الرماية – حينما كنت ضمن قوات المشاة – خالية من أية خضرة، عبارة عن مساحات شاسعة من الأرض البور، بحيث لم تكن تشبه أي من ظروف أرض المعركة التي يمكن للمقاتل أن يتعرض لها، إلا ظروف الصحراء فقط. أما الآن فإن العديد مـن ساحات الرماية – مثل هذه الساحة التي أمامي – مزروعة بأنواع عديدة من النباتات حتى تخفي الأهداف عن مرمى النيران. فعلى بعد حوالى الخمسين متراً من موضعي كان أحـد الأهـداف مختفياً جزئياً وراء الحشائش الطويلة والشجيرات الخضراء. وهناك كان يقـف جـنديان من الشرطة العسكرية، رجل وامرأة. وعند قاعدة الهدف أمكنني أن أتبين شيئاً جاثماً على الأرض بدا غريباً على المكان.

قـال الكولونيل (كينت): "يبدو أن المجرم مهووس عقلياً" وأضاف وكأني لم أفهم ما يعنـيه "أقـصد أنه قد ارتكب فعلته هناك في ساحة الرماية، بحيث بدا ذلك الهدف ناظراً للأسفل إليها".

تمنـيت لو استطاع هذا الهدف أن ينطق. استدرت لأمعن النظر في المنطقة. وعلى البعد فيما هو خلف مدرجات المقاعد وأبراج التحكم في إطلاق النار كان هناك صف من

الأشـجار أمكنني أن أرى بها دورات المياه الصغيرة المساحة. وجهت سؤالي للكولونيل قائلاً: "هل بحثتم في المنطقة عن ضحايا آخرين؟".

"كلا... إننا... لم نرد أن نفسد الأدلة".

"ولكـن قد يكون هناك ضحية أخرى أو ضحايا ميتون، أو أحياء بحاجة إلى الغوث. إن إغاثة الضحايا لها الأولوية على جمع الأدلة. هكذا تقول بديهيات عملنا".

"أنت محق" ثم نظر حوله واستدعى رقيب من الشرطة العسكرية قائلاً له: "استدعي عبر الراديو فرقة الملازم (فولهام) ومعها كلاب الحراسة".

وقبل أن يهرع الرقيب لتنفيذ الأمر علا صوت من أعلى مدرجات المقاعد قائلاً: "لقد قمت بهذا البحث بالفعل".

نظرت إلى حيث الآنسة (صنهيل) وقلت: "شكراً".

"العفو".

رغبت في تجاهلها، إلا أنني أيقنت من أن هذا محال. كان جنديا الشرطة العسكرية يقفان في وضع استرخاء وهما ينظران بعيداً عن موضع جثة (آن كامبيل).

وقفـت بعيداً عن الجثة – التي كانت راقدة على ظهرها – ببضعة أقدام. كانت عاريـة كما بين (كينت) من قبل، إلا من ساعة رياضية على معصمها الأيسر. وعلى بعـد بـضعة أقدام من الجثة كانت حمالة صدرها. وكما كان قد أخبرني (كينت)، فلم يكـن زيهـا العـسكري موجـوداً في موقع الجريمة. وكذلك حذاءها الثقيل وجوربها وخوذتها وحزام المسدس وجرابه. الغريب في المشهد هو أن (آن كامبيل) كانت راقدة علـى ظهرها فاردة ذراعيها وساقيها على اتساعهما، مقيدة اليدين والقدمين إلى أربعة أوتاد. كانت الأوتاد من البلاستيك الأخضر اللون، كما كان القيد أخضر من النايلون، وكلاهما من عتاد الجيش.

كانـت (آن كامبـيل) فـي العقـد الثالث من عمرها، قوية البنيان، أشبه في قوامها بمـدربات تمارين الآيروبكس المفتولات عضلات الساقين والذراعين بلا أي وزن زائد. وعلـى الـرغم من حالتها الراهنة، إلا أنني تعرفت على وجهها الذي كنت قد شاهدته في ملـصقات دعايـة الجيش. كانت جميلة دقيقة التقاطيع، وشعرها الأشقر بالكاد يصل إلى كتفيها، إلا أن كل هذا لم يكن له معنى الآن.

كان هناك حبل طويل من نفس النايلون ملتفاً حول معصمها وكاحلها، وأسفل الحبل كـان سـروالها الداخلي، والذي كان المجرم قد غطى به رأسها، بحيث أدخل رقبتها في إحدى فتحتيه، فكان الحبل لا يؤثر مباشرة على رقبتها، بل يمر فوق السروال. كنت أعلم معنى هذه الفعلة، لكنني لا أعتقد أن أحد غيري قد فهم.

اقتربت (سينثيا) إلى جانبي من دون أن تنبس ببنت شفة.

انحنيت إلى جوار الجثة ملاحظاً أن بشرتها بدت شمعية شبه شفافة، حتى إن حمرة وجنتـيها بدت صارخة التفاوت مع بقية بشرتها. أما أناملها وأصابع ساقيها – والمطليتان طـلاءً خفـيفاً – ففقدت لونها الوردي. لم يكن بوجهها أي سحجات أو كدمات، ولم يكن ببـشرتها تهتكات أو علامات عض، وكذا حال بقية أجزاء جسدها التي أمكنني أن أراها. وبخـلاف الوضـع المقـزز لجـسدها، فإنه لم تكن هناك أية علامات ظاهرة على أنها اغتصبت، فلم يكن هناك سائل منوي حول عضوها التناسلي أو فخذيها أو على بطنها، كما لم تكن هناك أية دلائل على شجار أو مقاومة في المنطقة المحيطة، فلم أجد آثار عشب أو رمـال علـى جلدها، أو دم، أو غبار، أو بقايا جلد تحت أظافرها، كما كان شعرها غير أشعث تقريباً.

اقتربت من الجثة لأتحسس وجهها ورقبتها، حيث يبدأ تيبس الموت عادةً. إلا أنه لـم تكن هناك علامات له، وتحسست إبطيها، فكانا لا يزالان دافئين. كان هناك شيءٌ مـن الـزرقة فـي فخـذيها وردفـيها، وكانت تميل إلى الدُكنة، وهو أمر يحدث مع الاختـناق، وهو ما يتسق مع وجود الحبل حول رقبتها. ضغطت بإصبعي على الجلد المزرق في المنطقة فوق الردفين فابيضت المنطقة التي ضغطت عليها. وحينما رفعت إصبعي عادت الزرقة من جديد، وهكذا كنت متأكداً من أن الوفاة قد حدثت في غضون الأربع ساعات الأخيرة.

مـن بين الأشياء التي تعلمتها منذ وقت طويل ألا تأخذ أقوال الشاهد على أنها حقيقة لا جـدال فيها. إلا أن شهادة الرقيب (ساينت جون) تبدو صادقة من الناحية الزمنية حتى الآن.

ازددت ميلاً على الجثة وحدقت في عيني (آن كامبيل) الزرقاوين الكبيرتين، واللتين كانتا تحدقان بدورهما في الشمس ولكن من دون أن ترمش. لم تكن قد غامتا بعد، مما زاد مـن تأكـدي من أن وفاتها حدثت منذ وقت قصير. جذبت أحد جفنيها لأتطلع في المنطقة حـول العين. كانت هناك تجمعات دموية صغيرة تنم عن الموت بالاختناق. وكل ما رأيته حتى الآن يتماشى مع ما أخبرني به (كينت).

فككت الحبل من حول رقبة (آن كامبيل) وتفحصت السروال الداخلي أسفل الحبل. لم يكـن ممـزقاً ولم يكن ملوثاً بشيء من الجسد أو أي مادة غريبة. لم تكن سلسلة تعريف الجـندي موجودة. وفي موضع التفاف الحبل حول العنق لم يكن هناك سوى أثر ضعيف لكدمة، لا يكاد يرى لو أنك لم تمعن النظر فيه. ومع هذا فقد حدث الموت خنقاً، وقد خفف السروال الداخلي من تأثير الحبل المعتاد على الرقبة والحلق.

نهضت ودرت حول الجثة، فلاحظت أن باطن قدميها ملوثتان بالتراب والعشب، مما يعني أنها قد مشت حافية القدمين لبضعة أمتار على الأقل. ملت لأتفحص باطن القدمين، فاكتشفت على قدمها اليمنى بقعة سوداء على إصبع القدم الكبيرة. يبدو أنها قد مشت حافية أيضاً فوق الإسفلت، مما يعني أنها قد تكون خلعت ملابسها، أو على الأقل حذاءها وجوربها، بالقرب من السيارة الجيب ثم أجبرت على السير إلى هنا، على بعد خمسين متراً، حافية القدمين أو ربما عارية، مع أن سروالها الداخلي وحمالة صدرها كانتا بالقرب من الجثة. تفحصت حمالة صدرها وتبين لي أن المشبك الأمامي سليم، فلم يكن معوجاً أو مكسوراً، ولم تكن هناك علامات أتربة أو ضغط على النسيج.

لم ينبس أحد بكلمة واحدة طيلة هذا الوقت، بحيث كان يمكنك أن تسمع صوت الطير فوق الأشجار، وكانت الشمس قد أشرقت فوق صف أشجار الصنوبر، لتمتد ظلال الصباح عبر ساحات الرماية.

خاطبت الكولونيل (كينت) قائلاً: "من كان أول من حضر إلى هنا من الشرطة العسكرية؟".

نادى (كينت) على إحدى المجندات التي كانت تقف على القرب، وأمرها قائلاً: "قدمي تقريرك إلى هذا الرجل".

نظرت إليَّ المجندة – واسمها المنقوش على زيها هو (كاسي) – وقالت: "تلقيت استدعاء الراديو في الساعة 4:52 يخبرني بأن جثة أنثى قد وجدت في ساحة الرماية رقم ستة، على بعد خمسين متراً تقريباً غربي سيارة جيب متوقفة على الطريق. هرعت إلى هذه المنطقة لأصل في الساعة 5:01 ورأيت السيارة. فأوقفت سيارتي وأمنتها، وأخذت مسدسي طراز إم 16 وتقدمت إلى داخل ساحة الرماية، حيث وجدت الجثة. تحسست النبض وحاولت سماع أي نبض من قلبها، أو أن أتبين التنفس، وسلطت ضوء الكشاف على عينيها، إلا أنهما لم تستجيبا للضوء. فقررت أن الضحية قد ماتت".

سألتها: "وماذا فعلتِ بعد ذلك؟".

"عدت إلى عربتي لأطلب العون".

"هل اتخذتِ نفس المسار من وإلى الجثة؟".

"أجل سيدي".

"هل لامستِ أي شيء عدا الجثة؟ كالحبال أو الأوتاد أو الملابس الداخلية؟".

"كلا سيدي".

"هل لامستِ سيارة الضحية؟".

"كلا سيدي. لم ألمس الأدلة إلا جثة الضحية حتى أحدد الوفاة من عدمها".

"هل لديكِ ما يمكن أن تضيفيه؟".

"كلا سيدي".

"شكراً لك".

أدّت المجندة (كاسي) التحية العسكرية ثم استدارت على عقبيها لتعد إلى موقعها.

كنا أنا و(كينت) و(سينثيا) نتطلع إلى بعضنا البعض، كما لو أننا نحاول سبر أغوار تفكير أو مشاعر بعضنا البعض. فلحظات كهذه تمثل المحك للنفس ومن الصعب أن تمحى من الذاكرة. فأنا لم أنسَ أبداً أي موقع جريمة قتل، ولن أرغب في هذا أبداً.

عـدت أحـدق فـي وجه (آن كامبيل) لدقيقة كاملة، وكنت أعلم بأني لن أراها مرة أخـرى. وهذا أمر مهم في رأيي، حيث إنه يرسخ لعلاقة تواصل بين الحي والميت، بين المحقِّق والضحية. وهو أمر يساعدني أنا أحياناً وليس هي بطبيعة الحال.

أخذنا طريقنا عائدين إلى الطريق بالقرب من سيارة الجيب التي قادتها (آن كامبيل)، لننظر في داخلها عبر نافذة مفتوحة. العديد من العربات العسكرية لا تحوي مفتاح تشغيل، فقـط مكـبس زر، وكان هذا الزر داخل العربة في وضعية الإغلاق. وكان على المقعد الأمامـي المجاور للسائق حقيبة يد جلدية سوداء مدنية الطراز. قالت لي (سينثيا): "كنت أريد فحص الحقيبة لكنني لم أفعل انتظاراً لأخذ التصريح منك".

"بداية طيبة إذن. هلمي وافحصي الحقيبة".

دارت حـول العربة متجهة إلى باب الراكب الأمامي، واستخدمت منديلاً في فتحه، والـتقطت الحقيـبة بالمنديل، ثم جلست على الصف السفلي من مدرجات المقاعد لتبدأ في فرز محتويات الحقيبة.

دنـوت من أرضية الطريق لأنسل أسفل العربة إلا أنني لم أجد شيئاً غريباً. تلمست أنابيب العادم في عدة مواضع لأجدها دافئة قليلاً.

وقفت ليبادرني الكولونيل (كينت) بقوله: "هل لديك أفكار محددة؟".

"يـبدو أن عقلي قد خطر له عدة سيناريوهات محتملة. إلا أن عليَّ أن أنتظر انتهاء البحث الجنائي الميداني. هل استدعيتهم؟".

"بالطبع، وهم قادمون من (جيليم)".

"جيد". تقع قاعدة (فورت جيليم) خارج أطلانطا، على بعد حوالى مائتي ميل شمالي (هادلـي)، ومختبـر البحث الجنائي التابع للتحقيقات العسكرية هناك يتميز بأنه أفضل من يتولـى العملـيات هـذه عبـر أرجـاء أميركا الشمالية. كما أن العاملين هناك بارعون، ويتميـزون مثلـي بحـرية الحركة. ومع أنه لا يزال من النادر أن يشهد الجيش جريمة كبـرى، إلا أن المختبـر يمتلك الإمكانيات التي تؤهله للتعامل مع هذه الجرائم إن حدثت.

ومن المؤكد أن يأتوا إلى هنا بعربة كارافان لأجل سبر أغوار هذه الجريمة. قلت للكولونيل: "أطلب منهم حين قدومهم أن يهتموا ببقعة سوداء في باطن القدم الأيمن للجثة. أريد أن أعرف ما هي هذه البقعة".

أومأ (كينت) متفهماً. ربما كان يسخر مني في نفسه. وقد يكون محقاً في سخريته من طلبي هذا.

"كما أريد منك أن تقوم ببحث مكثف. في دائرة قطرها مائتي متر حول الضحية، مستثنياً دائرة قطرها خمسين متراً حولها". قد يضيع هذا البحث أية آثار للأقدام، إلا أنه قد كانت هناك مئات الآثار لأحذية الجنود في ساحة الرماية على أية حال، أما الآثار التي تهمني فلن تتعدى دائرة الخمسين متراً. قلت للكولونيل: "أريد من رجالك أن يجمعوا أي شيء - أعقاب السجائر، الأزرار، الورق، القنينات، وكل ما هو من هذا القبيل، مع تسجيل الموضع الذي وجدت فيه. هل هذا مفهوم؟".

"لا مشكلة. إلا أنني أظن أن ذلك المجرم لم يخلف أي أثر. وربما كانت معه عربته مثله مثل الضحية".

"أشاركك الرأي، إلا أننا لا بد من أن نجمع ما يفيد ملفات التحقيق".

"تقصد أننا نخلي مسؤوليتنا".

"أجل، نسير وفقاً للتعليمات" وفي هذا أمان بل وأحياناً ما يكون فعالاً. إلا أن غرضي كان أن أتحلى بشيء من الإبداع في هذه القضية، حتى أبهر أشخاصاً بعينهم.

بادرت (كينت) قائلاً: "أريد ملف النقيب (كامبيل) في الخدمة وملفها الطبي، في مكتبك عند الظهر، على أن يكون هذا سرياً".

"لك هذا".

"أريد مكتباً في مقرك، وموظفاً مساعداً".

"مكتب أم مكتبان إذن؟".

رمقت (سينثيا) ثم تابعت "أعتقد أنهما مكتبان. إلا أنني غير ملزم بذلك حتى الآن".

"لا تحنقني يا (بول). هل ستقبل القضية أم لا؟".

"سأتبين رأيهم في الإدارة الرئيسية. عليك أن تؤخر تعريف ضابط العلاقات العامة بما حدث حتى الساعة 10:00 وأرسل جنديين إلى مكتب النقيب (كامبيل) لينقلا مكتبها وأثاثها وكافة متعلقاتها الشخصية، وحرز كل هذا لديك في غرفة الأحراز. واطلب من الرقيب (ساينت جون) ومن (ماري روبينز) أن يبقيا في حجرة القيادة إلى أن أقابلهما. وأريد أن يبقى كل هذا سراً إلى أن أتحدث إليهما. كما أن عليك يا كولونيل أن تزور الجنرال والسيدة كامبيل بمنزلهما بشكل رسمي. واصطحب معك قس عسكري وضابط

طبيب في حال الاحتياج إليه. وعليهم ألا يطالعوا الجثة كما وجدناها ميدانياً. هل هذا واضح؟".

أومأ (كينت) متنهداً وهو يقول: "يا إلهي...".

"أنا أقدر ما أنت فيه. أما الآن فعليك أن تأمر جنودك بألا يبوحوا بكلمة عما وجدناه هنا، وقدم لفريق البحث الجنائي مجموعة من الأدلة تتمثل في بصمات أصابع (كاسي) وآثار الأحذية المتواجدة هنا بالموقع، بما فيها حذاؤك أنت أيضاً يا (كينت)".

"حسناً".

"كما أن عليك أن تسيج الموقع وأن تمنع استخدامه مطلقاً. فريق البحث الجنائي هم فقط المسموح لهم بالدخول إليه".

"حسناً".

اتجهت إلى (سينثيا)، والتي كانت ترجع كل محتويات الحقيبة إلى داخلها، وهي لا تزال تستخدم في هذا منديلاً. "هل وجدت شيئاً مهماً؟".

"لا شيء. مجرد أشياء معتادة. محفظة ونقود ومفاتيح وكل شيء يبدو في محله. وهذه فاتورة من نادي الضباط. لقد تناولت العشاء هناك في الليلة الماضية. مكون من سلطة ودجاج ومشروب مفضل وقهوة" ثم أضافت "ربما كانت في غرفة الطعام في ذات الوقت الذي كنا فيه نتناول شراباً معاً".

انضم إلينا (كينت) وسألنا: "هل تناولتما الشراب معاً؟ هل تعرفان بعضكما بعضاً من قبل؟".

أجبته قائلاً: "كنا نتناول شرابنا كلاً على حدة. نحن بالكاد نعرف بعضنا البعض".

سألت (سينثيا): "ماذا عن عنوان (كامبيل)؟".

"للأسف فهو خارج القاعدة. العنوان هو متنزهات فيكتوري على طريق فيكتوري درايف في ميدلاند. الوحدة 45". وأضافت: "أعتقد أني أعرف المكان – فهو عبارة عن تجمع لعدة منازل ريفية".

قال (كينت): "سوف أستدعي (ياردلي) رئيس شرطة ميدلاند، وسوف يحصل على أمر محكمة ثم يلتقينا هناك".

"كلا. سنبقي هذا التحقيق عسكرياً فقط يا (بيل)".

"لا يمكنك أن تفتش منزلها خارج القاعدة من دون تصريح تفتيش مدني...".

ناولتني (سينثيا) المفاتيح من حقيبة (آن كامبيل) وقالت: "سوف أقود أنا".

اعترض (كينت) بقوله: "لا يمكنكم التفتيش خارج القاعدة من دون صحبة سلطة مدنية".

نـــزعت مفاتيح سيارة (آن كامبيل) من سلسلة المفاتيح وأعطيتها لكينت، بالإضافة إلى حقيبة يد الضحية. "ابحث عن سيارتها واسترجعها".

وبيــنما اتجهــنا إلى سيارة (سينثيا) الموستانج، قلت لكينت: "لا بد من أن تبقى هنا حتـــى تشرف على مجرى الأمور. وعندما تكتب تقريرك بوسعك أن تكتب أني قلت بأني ذاهب إلى شرطة ميدلاند. وسوف أتحمل حينئذٍ مسؤولية تغييري لرأيي".

"إن (ياردلي) رجل فظ ووغد صعب المراس. وسوف ينال منك لأجل ما ستفعله".

"عليه إذن أن يدخل في صف المنتقمين لينتظر دوره". ولكي أحزم أمري مع (كينت) وأضــمن ألا يتــصرف بحماقة قلت له: "اسمع يا بيل، عليَّ أن أكون أول من يبحث في منـــزل (آن كامبيل). عليَّ أن أمحو أثر كل ما يمكن أن يشينها أو يشين عائلتها أو الجيش أو زملاءها وأصدقاءها المجندين. أفهمت؟ وبعدها سنتيح للقائد (ياردلي) أن يفعل ما يشاء في المنـــزل".

بدا لي أنه فهم وأومأ إليَّ علامة على ذلك.

استقلت (سينثيا) السيارة وجلست إلى جوارها. قلت لكينت: "قد أتصل بك من هناك. عليك أن تفكر بشكل عملي".

انطلقــت (سينثيا) بسيارتها الموستانج بتمهل حتى استدارت ثم انطلقت بسرعة 60 ميلاً عبر الطريق الوحيد الذي يخترق ساحة الرماية.

ظللــت أســتمع إلى صوت المحرك لبرهة لم يتحدث خلالها أيٌّ منا بكلمة، ثم قالت (سينثيا): "أشعر بالغثيان".

وافقتها الرأي: "كان منظراً مريعاً".

حدقت فيَّ وهي تقول: "مقرف بالفعل... هل أنت معتاد على مثل ذلك؟".

تابعت كلامي بالقول: "كلا بطبيعة الحال. لم أرَ الكثير من جرائم القتل. كما أن قليلاً مما شاهدته كان على مثل هذه الصورة".

أومـــأت ثم تنهدت في عمق، وقالت: "أعتقد أني بوسعي مساعدتك في هذه القضية. إلا أنني لا أود أن تكون تجربة مريعة".

قلت: "لا مشكلة. ولكن ما حدث في بروكسل سيظل قائماً بيننا".

"أين؟".

"بلجيكا. العاصمة" يا للنساء.

جلسنا في صمت، ثم سألتني (سينثيا): "لماذا؟".

"لماذا بروكسل هي العاصمة أم لماذا سيبقى ما بيننا قائماً؟".

"كلا يا (بول)، لماذا قتلت؟".

أجبتها مستطرداً: "قد تكون الدوافع المفترضة في جرائم القتل.. المال أو الانتقام أو الغيــرة أو إخفاء جريمة ما لتفادي الفضيحة أو ربما كان سفاحاً. هذا هو تعريف الدوافع لدينا".

"وما رأيك أنت؟".

"حيــنما يــسبق الاغتصاب القتل، فإن الأمر عادةً ما يكون دافعه هو الغيرة أو ربما إخفــاء هوية المغتصب. ربما كانت تعرفه، أو يمكنها أن تتعرف عليه فيما بعد لو لم يكن مــرتدياً قــناعاً أو متنكراً... ومن ناحية أخرى، فالجريمة تبدو جريمة شخص مضطرب جنسياً، فهي تنم عن مغتصب قاتل – أي شخص لا ينال متعته الجنسية في ذروتها إلا من خــلال القتل ذاته، وربما لا يحتاج هنا إلى أن يعاشرها بشكل تام. هذا ما يبدو حتى الآن، لكننا لا نعلم حقيقة ما حدث حتى الآن".

أومأت (سينثيا) لكنها لم تعلق.

بادرتها بالسؤال: "وما رأيك أنت؟".

تمهلــت للحظات، ثم ردت قائلة: "من الواضح أن بالجريمة سبق إصرار وترصد. فقد كان معه أدواته للاغتصاب – من قبيل تلك الأوتاد والحبل وربما شيء دق به الأوتاد في الأرض. ومن المؤكد أن المجرم كان مسلحاً حتى يتغلب على سلاح المجني عليها".

"تابعي كلامك".

"فــتغلب الجانــي عليها، ثم أجبرها على رمي سلاحها بعيداً، وبعد ذلك أمرها بأن تتخلص من ملابسها وتمشي إلى داخل ساحة الرماية".

"حسناً إنني أحاول أن أتخيل كيف استطاع أن يجبرها على الخروج من السيارة مع استمرار سيطرته على أفعالها. فأنا لا أعتقد أنها من النوع الخضوع".

ردت علــيَّ (سينثيا) قائلةً: "ولا أنا أيضاً. ولكن ربما كانا جانيين وليس واحداً. كما أنني لن أفترض أن الجاني أو الجناة ذكور حتى تكون معنا نتائج المعمل".

مــن الواضــح أننــي سأواجه المزيد من المتاعب مع المذكر والمؤنث خلال هذه القــضية. "حــسناً. لمــاذا لم تكن هناك أية علامة تدل على المقاومة من جانبها، أو على الوحشية من جانب الجاني أو الجناة؟".

هــزّت رأسها في حيرة: "لا أدري. في العادة ما يكون هناك بعض الوحشية... كما أن تلك القيود ليست علامة على الرقة أبداً".

أجبتها: كلا. لكن هذا الجاني لم يكن يكرهها".

"وكذلك لم يكن يحبها كثيراً أيضاً".

"قــد يكون الأمر كذلك. اسمعي يا (سينثيا) فأنتِ الخبيرة في هذه الجرائم، هل تشبه هذه الجريمة أي جريمة اغتصاب رأيتيها أو سمعتِ بها؟".

أمعــنت التفكيــر فـــي هذا، ثم قالت: "إن بها عناصر ما نسميه بجريمة الاغتصاب المنظمة، حيث يخطط الجاني لجريمته. إلا أنني لا أعلم عما إذا كان هذا الجاني يعرفها أم لا، أو إذا ما كانت الجريمة قد وقعت صدفة من دون ترصد مسبق".

كـــنت أفكـــر معها بصوت عالٍ: "قد يكون الجاني مرتدياً زياً عسكرياً، لذلك لم تكن متنبهة له".

"أمر ممكن".

تطلعـــت عبـــر النافذة المفتوحة، تنسمت ندى الصباح المنبعث من أشجار الصنوبر العملاقة، وشعرت بوهج الشمس المشرقة على وجهي. أغلقت النافذة وغصت في مقعدي، محاولاً تخيل ما سبق أن رأيته للتو. بدا الأمر وكأني أرجع بشريط سينمائي لنقطة مضت؛ فهـــا هـــي (آن كامبيل) تجبر على النـــزول من سيارتها، ثم تقف عارية، وبعدها تمشي مبتعدة عن الجيب، إلى آخر الشريط. بدت لي التفاصيل غير متناسقة.

اقـــتحمت (ســـينثيا) أفكـــاري بقولها: "ألم تلاحظ يا (بول) أن زيها العسكري يحمل اسمها وكذلك سلسلة التعريف، وربما كانت خوذتها وحذاؤها يحملان الاسم كذلك. فما هو القاسم المشترك بين كل هذه الأشياء المفقودة؟ إنه اسمها، أليس كذلك؟".

"صـــحيح". يقولون إن النساء دوماً ما يأتون بالجديد إلى الحفلة. وها نحن أمام فكرة صائبة ولا بأس بها حقاً.

تابعـــت كلامهـــا: "إذن فهـــذا الجاني يبحث عن... ماذا؟ غنيمة؟ إثبات لشيء ما؟ تـــذكارات؟ هذه أمور تتسق مع شخصية وتكوين مرتكب جريمة الاغتصاب المخطط لها مسبقاً".

أضـــفت قـــائلاً: "ولكـــنه ترك سروالها الداخلي وحقيبة يدها. في الحقيقة أن القاسم المـــشترك بـــين كـــل المفقودات هو أنها متعلقات عسكرية، بما في ذلك جراب المسدس وســـلاحها، وهي مما لا يحمل اسمها. بل لقد ترك الأغراض المدنية، بما في ذلك ساعتها وحقيبة يدها، والتي تحوي جميع ما يحمل اسمها. أليس هذا صحيح؟".

"هل نحن في حالة تنافس أم ماذا؟".

"كلا يا (سينثيا). بل هو تحقيق في جريمة قتل. فنحن نتبادل الأفكار ليس إلا".

"حـــسناً. لـــم أكن أعلم بأن هذا ما يتوجب على الشركاء القيام به أثناء التحقيق في جرائم القتل".

"أجل بالطبع" شريكة؟!.

بقت (سينثيا) صامتة للحظة، ثم قالت: "أنت أدرى بهذه الأمور".

"آمل في هذا".

"لماذا إذن لم يأخذ سوى متعلقاتها العسكرية؟".

"كـــان المحاربـــون القـــدماء يجـــردون أعداءهم القتلى من أسلحتهم ودروعهم، ولا يتركون لهم سوى ما يستر عورتهم".

"ألهذا سلبها متعلقاتها العسكرية؟".

"ربمـــا. يبقى الأمر مجرد خاطر. ربما كان قد فعل ذلك لأجل تشتيت انتباهنا ليس إلا. وقد يكون نوعاً من الاختلال العقلي الذي لم أعتده من قبل".

رمقتني وهي تواصل القيادة.

تابعت كلامي مستطرداً: "بل ربما لا يكون قد اغتصبها من الأصل. ولكنه أوثقها في هـــذه الوضعية حتى يجتذب الانتباه إلى الطبيعة الجنسية لجريمته، أو ربما كنوع من إبداء الاحتقار لجسدها، ولكي يكشف عن عريها للعالم كله".

"والسبب؟".

"لم أعرفه بعد".

"ربما تعرفه".

"علـــيّ أن أفكر في الأمر. لقد بدأت أشك في أنه كان يعرفها من قبل". بل إنني أكاد أتـــيقن من أنه كان يعرفها. غلفنا الصمت لبرهة أخرى، ثم قلت لسينثيا: "أنا لا أعلم سبب الجريمة: فها هي (آن كامبيل) تغادر مقر القاعدة لتتجه مباشرةً إلى ساحة الرماية، وتقف على مسافة بعيدة من نقطة حراسة (روبينـــز). لقد كان لديها موعد سابق مع حبيب. فهما اعـــتادا هذا كثيراً. ويقنعها بأن تشاركه بعض الطقوس الجنسية الشاذة والتي تشتمل على توثيق الجسد بالحبال. تعرفين ما أقصد؟" كنت أرمقها وأنا أسرد هذه الأفكار.

"ليست لي دراية بالخيالات الجنسية المريضة. فذلك تخصصك".

"ونعم القول".

ثـــم تابعت قائلةً: "يبدو هذا السيناريو كفانتازيا (مُخيّلة) ذكورية. أقصد أنه ما الذي يجبـــر امرأة على أن تعاني كل هذه المعاناة بحيث يتم تقييدها على الأرض الباردة، فتجد في هذا متعة؟".

كانـــت تباشـــير اليوم تدل على أنه سيكون طويلاً جداً، وأنا لم أتناول إفطاري بعد. فقلت: "أتعلمين لماذا كان سروالها الداخلي أسفل الحبل حول عنقها؟".

"كلا. قل لي أنت؟".

"راجعي دليل جرائم القتل، باب إسفكسيا (اختناق) الجنس".

"حسناً".

"وهــذه واحــدة أخــرى، ألــم تلاحظي أنه كان هناك بقعة سوداء في باطن قدمها اليمنى؟".

"كلا لم ألاحظ".

"فلو كان مصدرها الطريق، فما السبب الذي دفعها إذن إلى أن تمشي حافية القدمين عليه؟".

"لقد أجبرها على أن تخلع جميع ملابسها في سيارة الجيب، أو بالمقربة منها".

"فما الذي أتى بسروالها الداخلي إلى أرض ساحة الرماية؟".

ردت (سينثيا): "ربما أجبرت على خلع ملابسها عند الجيب أو بداخلها، ثم حملتها أو حملها الجاني حتى مكان توثيقها بالحبال".

"والسبب؟".

"هــذا جــزء من السيناريو يا (بول)، حيث إن المغتصب دوماً ما يحمل في مخيلته تخــيلات مريــضة تمثل معنىً جنسياً قوياً لديه ولا يوجد نظير لها لدى غيره. كأن يجبر امــرأة على أن تتعرى، ثم تمشي عارية وهي تحمل ملابسها إلى مكان ينوي أن يغتصبها عنده".

"إذن فأنــت علــى درايــة بهذه الأمور، أليس كذلك؟ فلست وحدي إذن ذا الخيالات المريضة".

"إننــي علــى دراية بالأفعال الجنسية المريضة والانحرافات الإجرامية. إلا أنني لا أعلم الكثير عن الممارسات الجنسية الشاذة".

فبادرتها بالقول: "إن الفارق بين الاثنين ضئيل ويكاد يختفي أحياناً".

"أنا لا أؤيد فكرة أن تكون (آن كامبيل) شريكة في هذه الممارسات. ومن المؤكد أنها لم تشترك في فعل يودي بحياتها".

كنت أفكر بصوت عالٍ: "هناك عدة احتمالات، ومن المفيد ألا نتبنى أحداً منها".

"نحــن نحتاج إلى البحث الجنائي، وإلى تقرير تشريح الجثة، وإلى استجواب كل من له صلة بالجريمة".

نحــن؟ كنت أتطلع إلى الريف والسيارة تمضي بنا في صمت. حاولت أن أتذكر ما أعــرفه عــن (سينثيا). إنها أصلاً من ولاية (أيوا)، خريجة جامعة تلك الولاية، وحاصلة علــى درجــة الماجستير في علم الإجرام، وهي الدرجة التي نالتها من جامعة مدنية عبر

برنامج عسكري لتطوير التكنولوجيا. وهي ككثير من النساء – وكذلك الأقليات الذين أعرفهم في الجيش – وجدت أن الجيش يقدم الكثير من المال، والتعليم، والوضع الاجتماعي المميز، وفرص الترقي المهني، بشكل يخرجها مما كانت عاشته في المزرعة أو الجيتو أو أي من المناطق المتدنية اجتماعياً. وقد عبرت (سينثيا) – فيما أذكر – عن آراء إيجابية تجاه الجيش – فقد وجدت فيه فرص الترحال والمتعة والأمان وتحقيق الذات وغير ذلك. وهو أمر ممتاز بالنسبة لفتاة ريفية. قلت لها: "كنت أفكر فيكِ".

لم ترد.

سألتها: "كيف حال أبويك؟" مع أنني لم ألتقِ بهما من قبل.

"بخير حال. وأبواك؟".

"بخير. لا زالا ينتظران مني أن أنضج لأتزوج وأنجب لهما أحفاداً".

"عليك أن تنضج أولاً".

"ونعم النصيحة". تتحلى (سينثيا) بروح السخرية أحياناً، إلا أن ذلك يعكس دوماً توتراً داخلياً. إن من كانا قد ارتبطا بعلاقة جنسية في السابق يحترمان ما قام بينهما من علاقة – هذا إذا كانا من البشر الحساسين – بل وربما يشعران بالحنو على الشريك السابق. إلا أن هناك دوماً ذلك الإحساس بالغرابة – حتى مع جلوسهما إلى جوار بعضهما البعض – لدرجة يصعب معها تحديد نوعية الحوار ونبراته بينهما. قلت لها مجدداً: "لقد فكرت فيكِ. أود أن أسمع رأيك".

جاوبتني قائلة: "لقد فكرت فيك أيضاً"، وسرعان ما غلفنا الصمت الطويل وهي تقود السيارة، وعيناها ورأسها صوب الطريق.

أقول كتعريف بنفسي – (بول برينير) – بأنني من جنوبي بوسطن، إيرلندي كاثوليكي، لا أستطيع أن أميز البقرة حينما أراها، خريج المدرسة الثانوية، من عائلة عاملة. لم أنضم للجيش حتى أهرب من جنوبي بوسطن؛ بل لقد كان الجيش هو من أتاني لأنهم تورطوا في حرب كبيرة بآسيا، وأخبرهم أحدهم بأن أبناء الطبقة العاملة مهيأون ليكونوا جنود مشاة ممتازين.

لا بد من أنني كنت جندي مشاة بارعاً، لكوني نجوت بحياتي طيلة عام هناك. ومنذئذٍ تلقيت دروساً جامعية، تحت رعاية الجيش، بالإضافة إلى دراسات علم الإجرام. ولقد تحولت شخصيتي لدرجة أنني لم أعد أتوق أبداً إلى العيش في جنوبي بوسطن، إلا أنني لا أشعر كذلك بالراحة بمنزل الكولونيل، أو لكوني أبالغ في الشراب والثرثرة مع زوجات الضباط اللاتي هن إما قبيحات لدرجة يصعب معها الثرثرة معهن، أو جميلات لدرجة لا تسمح بالاكتفاء بمجرد الكلام.

فهـا نحن ذا - (سينثيا صنهيل) و(بول برينير) - من طرفيْ نقيض جغرافي بقارة أميركا الشمالية، ومن عالمين مختلفين، كنا حبيبين في بروكسل، وجمعنا الشمل في (ديب ســاوذ)، وخرجنا للتو من تجربة فحص الجثمان العاري لابنة الجنرال. فهل يمكن للحب والصداقة أن يزدهرا في ظل تلك الظروف؟ أنا لا أعتقد هذا.

قالت لي: "لقد فوجئت برؤيتك في الليلة الماضية. وأبدي أسفي عن فظاظتي معك".

"هذا مؤكد".

"حسناً، أنا أبدي أسفي إذن. لكنني لا زلت على كراهيتي لك".

ابتسمت وقلت: "ولكنك تميلين إلى الاستمرار في هذه القضية".

"سأحاول أن أكون لطيفة معك".

"ستكونين لطيفة معي لأني رئيسك المباشر. ولو لم تكوني لطيفة، فسوف أعيدك إلى الإدارة".

"توقــف عن التفاخر يا (بول). إنك لن ترسل بي إلى أي مكان، كما أنني لن أذهب إلـى أي مكـان... لديـنا قضية يتوجب علينا حل لغزها، وعلاقة شخصية لا بد من أن نقويها".

"الأمر على هذا الترتيب".

"أجل، على هذا الترتيب".

الفصل الرابع

تمت إعادة تسمية طريق فيكتوري درايف – والذي كان اسمه في السابق طريق (باين هولو) – خلال الحرب العالمية الثانية خلال فترة سادت فيها موضة تغيير مسميات الأماكن. الطريق في السابق كان ريفياً ذا اتجاهين يتجه جنوباً من (ميدلاند)، إلا أنني حينما رأيت المنطقة لأول مرة عام 1971 كانت قد أصبحت مزيجاً من المباني السكنية ذات الحدائق والبنايات التجارية. ولكن الآن وبعد حوالى الربع قرن لم يعد هناك أي ذكر لطريق (باين هولو).

دوماً ما يكون هناك شيء فريدٌ ومسببٌ للإحباط في المناطق التجارية بالجنوب القديم، حيث المساحات الواسعة من مواقف السيارات والموتيلات ومطاعم الوجبات السريعة ومتاجر التخفيضات وتجار السيارات المستعملة والنوادي الليلية. لم تكن تلك المنطقة – على ما أذكر – على هذا القدر من الرخاء، إلا أنها كانت فاتنة المنظر بما حوته من محطات صغيرة للبنزين والتي يلاصقها دوماً ثلاجات المياه الغازية، هذا إضافةً إلى المنازل المصنوعة من خشب الصنوبر، والمحال الريفية، وأجولة القطن المخزنة على امتداد خط السكة الحديد. تلك هي الأشياء التي انتمت أصلاً إلى المكان، حيث الخشب من الغابات، وحصباء الطريق من المحاجر المجاورة، بل أن الناس أنفسهم كانوا نتاج بيئتهم. أما هذه الأشياء الجديدة فتبدو مصطنعة، مقحمة على المكان. فتلك المحال والمتاجر ذات لافتات بلاستيكية ضخمة والتي لا صلة لها بأهل المنطقة أو تاريخها أو عاداتها المتأصلة.

وبطبيعة الحال فقد احتوى "الجنوب الجديد" على كافة تلك العناصر، وإن كان الإيقاع بطيئاً مقارنة بما حدث في الشمال، إلا أنه احتواها في نهاية الأمر، حتى أصبحت هذه البهرجة التجارية البالغة علامة على الجنوب بأكثر من أية منطقة أخرى في البلاد. فقد كانت الغلبة للدخلاء في نهاية المطاف.

بعد خمس عشرة دقيقة من مغادرة القاعدة، وصلنا إلى (فيكتوريا جاردينز) ثم أوقفنا الموستانج بالقرب من الوحدة خمسة وأربعين.

بدت (فيكتوريا جاردينز) منطقة لطيفة، تتألف من حوالى خمسين منزلاً ريفياً متجاوراً حول ساحة البلدة، مع العديد من المتنزهات الطبيعية. لم تكن هناك لافتات تنم

عن تحذير من قبيل "للضباط فقط"، إلا أن الجو العسكري كان يتبدى في المكان، وربما كان أصحاب المنازل مرتاحين لتأجيرها لضباط الجيش. فبعيداً عن المال تجد أن هناك قانون غير مكتوب يحدد أماكن معيشة الضباط بعيداً عن الموقع العسكري، وهكذا لم تتخذ (آن كامبيل) – ولكونها ابنة جنرال وجندية مثالية – مسكنها في مكان فاخر من البلدة أو في بناية باهظة الإيجار، وهو أمر يعني في هذا البلدة أن هذا المستأجر الذي يعيش وحده ليس على خلق قويم. كما أنها لم تعش في منزل أبويها الفخم والذي خصصته لهم القوات المسلحة داخل القاعدة، مما يوحي بأن لها حياتها الخاصة، وأنا على وشك أن أكتشف خبايا تلك الحياة الخاصة.

أخذت أنا و(سينثيا) نمعن النظر في المكان من حولنا. فبالرغم من أن يوم العمل بالجيش يبدأ مبكراً، إلا أنه لم تزل هناك بعض السيارات قابعة أمام الوحدات السكنية. كانت على معظم السيارات ملصقات تنم عن أنها سيارات خاصة بضباط الجيش، بينما تميزت سيارات المدنيين بملصقات خضراء. إلا أن المكان كان بوجه عام مهجوراً كالثكنات بعد إطلاق نداء الإفطار الصباحي.

كنت لا أزال مرتدياً اللباس العسكري الذي كنت أرتديه داخل مستودع الأسلحة، بينما كانت (سينثيا) – كما قلت – مرتدية للجينز وسترة ثقيلة. وحينما اقتربنا من الباب الأمامي للوحدة رقم 45 عبر السور القرميدي، قلت لها: "هل معك سلاح؟".

أومأت بالإيجاب.

"حسناً. انتظريني هنا. سوف أدخل من خلف المنزل. ولو هرب أحد من الباب الأمامي، أوقفيه في مكانه".

"حسناً".

درت حول مجموعة الوحدات حتى وصلت إلى خلف المنزل. كانت الباحة الخلفية معشوشبة، إلا أن لكل وحدة فناء مرصوفاً يفصله عن الفناء المجاور سور خشبي يتيح الخصوصية لكل ساكن. ووجدت في فناء (كامبيل) بعض الأثاث التقليدي المخصص لجلسات الشواء، بما في ذلك أريكة عليها علبة كريم واقٍ للبشرة ومجلة سياحية.

وفي مواجهة الفناء بابان زجاجيان منزلقان، وكان بوسعي أن أتبين من خلال الستائر الرأسية حجرة الطعام وجزء من حجرة المعيشة. بدا لي أن لا أحد بداخل المنزل. وبالطبع فلم تكن (آن كامبيل) بالمنزل، ولم يكن من المتصور أن يكون لابنة جنرال عشيق مقيم داخل المنزل، أو حتى صديقة تقيم معها بصفة مستديمة، مما يحرمها الخصوصية. كما أنك لن تتيقن ممن بداخل أي منزل إلا بدخوله، مع كل الاحتراز.

وفـــي نقطة التقاء الفناء بالجدار الخلفي للمنـــزل توجد نافذة القبو، وهو ما يعني أن تلك الـــوحدات بهـــا أقبية، كما يعني أيضاً أن عليَّ استكشاف تلك الأماكن. وربما أرسل صاحبتنا المتحمـــسة إلـــى الأسفل، فهذا أفضل لها ولي. على كلٍّ، وجدت أن نافذة القبو مغطاة بفقاعة بلورية مثبتة إلى الجدار الخارجي، بحيث لا يمكن لأحد أن يخرج من القبو من الداخل.

وعلـــى يمـــين الـــباب المنـــزلق باب ينفتح على المطبخ. وهناك كان زر جرس، فضغطت عليه. انتظرت ثم ضغطته ثانيةً، ثم جربت أن أقرع الباب، وهي فكرة جيدة قبل أن أقتحم المكان وأدخل.

كـــان مـــن المفـــروض أن أتـــوجه مباشرةً إلى شرطة مدينة (ميدلاند)، كما اقترح الكولونيل (كينت)، وكانت الشرطة سترتاح لاستخراج تصريح بالتفتيش، بل ستسعد لكونها ستـــشارك فـــي الـــبحث داخل منـــزل المجني عليها. إلا أنني لم أرد أن أقحمهم في هذا الأمـــر، وهكذا بحثت حتى وجدت مفتاح المنـــزل في سلسلة مفاتيح (كامبيل) وبه فتحت الباب. دخلت المطبخ، ثم أغلقت الباب من خلفي وبالمفتاح.

وعلـــى الجانب القصي من المطبخ يوجد باب ربما كان يقود إلى القبو. وكان للباب مزلاج، قمت بإغلاقه حتى أحبس من قد يكون بداخله أياً كان.

وبعـــد أن أمـــنت نفسي، أو ربما بعد أن قطعت عليها خط الرجعة، تحركت أعزلَ وبحذر عبر أرجاء المنـــزل حتى الباب الأمامي وفتحته، لتدخل (سينثيا). وقفنا في الردهة المكيفة الباردة للحظات، نتطلع في المكان، ونتنصت لأي صوت. أشرت لسينثيا أن تسحب مـــسدسها، فأخـــرجت سلاحها طراز سميث آند ويسون 38. وعندها صحت عبر أرجاء المكان: "شرطة! ابقَ مكانك وصرح عن هويتك!" إلا أنني لم أجد أية إجابة. فقلت لسينثيا: "ابقي هنا وكوني متأهبة لاستخدام السلاح".

"ولماذا تظنني أحمله إذن؟!".

"وجهة نظر في محلها"، يا للنساء. اتجهت أولاً إلى خزانة المعاطف وجذبت الباب، إلا أننـــي لـــم أجد شخصاً يقف بداخله وفي يده أوتاد خيمة كما رسمت بذهني. انتقلت من حجرة لحجرة في الدور الأرضي، وأنا متيقن بنسبة تسعة وتسعين بالمائة من أن المنـــزل خاوٍ، إلا أنني دوماً ما أتذكر أن هناك احتمال واحد في المائة باقياً.

كـــان هناك سلم يربط بين الردهة والطابق الثاني، وكما أشرت فإن السلالم خطرة، خاصـــةً لـــو كانت تحدث صريراً. أخذت سينثيا موضعها عند أسفل السلم، بينما صعدته متواثباً ثلاث عتبات في كل مرة وأنا ملاصق للجدار. كانت هناك ثلاثة أبواب عبر ردهة الطابق العلوي، أحدهما مفتوح، والآخران مغلقان. فرددت الأمر السابق بصوت عالٍ، إلا أنني لم ألقَ جواباً.

نادت (سينثيا) عليَّ، فتطلعت إلى أسفل السلم. كانت قد صعدت في السلم قليلاً حتى يمكـــنها أن تلقـــي إليَّ بالمسدس. التقطته وأشرت إليها بأن تبقى حيث هي. اقتحمت أحد البابين المغلقين، وأنا أصيح "توقف مكانك!" إلا أن كل هذه الصرامة لم تلقَ أي رد. أخذت أحـــدق فـــي الغرفة المظلمة لأتبين ما يبدو أنه فراش خاوٍ، ولكنه منمق. أغلقت الباب ثم كـــررت العملـــية مـــع الباب الثاني المغلق، والذي تبين لي أنها خزانة مفارش ضخمة. وبالرغم من كل الحركات الأكروباتية التي كنت أقوم بها، إلا أنني أعلم بأنه لو كان هناك أي أحد مسلح في تلك الأماكن لأمكنه قتلي بكل سهولة. إلا أن عليك أن تخاطر في نهاية المطاف. وهكذا التصقت بجدار الردهة وتطلعت إلى داخل الحجرة التي كان بابها مفتوح. أمكنني أن أرى غرفة نوم ضخمة وباباً آخرَ بالداخل يؤدي إلى حمام. ناديت على (سينثيا) أن تصعد ثم سلمتها مسدسها. "غطي ظهري"، ثم دخلت حجرة النوم الرئيسية، وأنا أرقب بابـــا الخزانة، والحمام المفتوح. التقطت زجاجة عطر من على منضدة الزينة وألقيت بها تجاه الحمام، حيث تهشمت. إلا أنني لم أجد أي رد فعل من أي شخص كان.

ألقـــيت نظرة سريعة على غرفة النوم والحمام، ثم عدت إلى (سينثيا)، والتي كانت تـــتخذ وضـــعية إطلاق النار إلى جوار الباب، بحيث ترقب كل الأبواب. كنت أجمع بين التوقع والرغبة في أن أجد أحداً في المنـــزل – أياً كان شخصه – حتى ألقي القبض عليه، وأغلق ملف هذه القضية، ومن ثم أعود إلى فيرجينيا بأسرع وقت. إلا أن أملي قد خاب.

كانت (سينيا) تتأمل الغرفة الكبيرة وعلقت قائلةً: "لقد هندمت فراشها".

"تعلمين كم هن منظمات هؤلاء المجندات".

"يا للأسى. لقد كانت غاية في التنظيم والدقة. وهي الآن ميتة وستحل الفوضى بهذا المكان".

رمقت (سينثيا) وأنا أقول: "حسناً، لنستطلع المطبخ إذن".

الفصل الخامس

لا شك في أن شعوراً عجيباً محزناً يراود المرء حينما يتجول خلسة داخل منزل شخص ميت، ويتنقل عبر الغرف التي لن يراها أصحابها بعد ذلك أبداً، فيفتح دواليبهم وأدراجهم وخزاناتهم، ويقلب في ممتلكاتهم، ويقرأ بريدهم، بل ويستمع إلى الرسائل التي وردتهم على جهاز تسجيل المكالمات. كتب وملابس وأشرطة فيديو وأطعمة ومشروبات وأدوات تجميل وفواتير وأدوية... حياة كاملة انتهت فجأة بعيداً عن المنزل، ولم يبقَ أحد، وأصبح هذا المنزل الذي يعج بسبل الحياة المترفة بلا صاحب يضيفك عبر أرجاءه، فيشير إليك تجاه لوحته المفضلة المعلقة على الجدار، ويستعرض معك ألبوم صوره، أو يقدم لك شراباً، أو يخبرك بالسبب الذي جعل هذه النباتات جافة ذابلة.

وفي المطبخ لمحت (سينثيا) الباب المغلق بالمزلاج، فأخبرتها بأنه "يؤدي إلى القبو. والقبو مؤمن، وسوف نستكشفه في النهاية".

أومأت متفهمة.

لم نخرج من تفتيشنا للمطبخ بالكثير، فيما عدا أن (آن كامبيل) منظمة جداً وتتناول الطعام الصحي فقط – كالزبادي والبقوليات ومخبوزات الردة وخلاف ذلك – وهو طعام لا تستسيغه معدتي. كما أن الثلاجة وخزائن المطبخ لم تحوِ سوى العديد من قنينات المشروبات المفضلة الممتازة الأصناف.

ووجدنا أن أحدها مليء بالمشروبات المفضلة القوية الباهظة الثمن، حتى بالنسبة لأسعارها داخل الجيش. والحقيقة أنني تبينت من خلال ملصقات السعر على بعض القنينات أنها لم تأتِ من منافذ بيع تخص الجيش. فسألتها: "لماذا كان عليها أن تشتري هذه المشروبات بالأسعار الخاصة بالمدنيين؟".

أجابتني (سينثيا) في كآبة: "ربما لم ترغب في أن يراها أحد وهي تبتاعها من متاجر الجيش. فهي فتاة تعيش وحدها، كما أنها ابنة الجنرال. أما الرجال فلن يهتموا بذلك".

قلت: "بل تقلقنا مثل هذه الأمور. فذات مرة رآني زملائي وأنا أبتاع قنينة حليب وثلاث علب من اللبن الزبادي, فلم أستطع الذهاب إلى نادي الضباط لمدة أسابيع".

لم تعلق (سينثيا)، إلا أنها اكتفت بتقليب عينيها في ملل من سخريتي فيما يبدو. من الواضح أنها لم تعد تطيق تعليقاتي.

فلقـــد بـــدا لـــي أنه لو كان معي في هذه القضية شاب أو فتاة غيرها لكنت قد لقيت احتـــراماً أكثر من هذا. ويبدو أن السبب فيما نحن عليه هو أننا قد مارسنا الحب معاً ذات مرة من قبل. لذا كان عليَّ أن أتعامل مع هذه النقطة تحديداً.

علقت قائلة: "هلم لنرى بقية الغرف الأخرى".

وهكذا فعلنا. كانت الغرف بالطابق الأرضية مرتبة، ولكني لاحظت أن مقعد الحمام كـــان مرفوعاً، ومن خلال ما تعلمته من ذلك الكولونيل الذي قابلته في نادي الضباط، فقد اســـتنتجت أن رجـــلاً كان في زيارة لهذا المنـــزل مؤخراً. بل أن (سينثيا) قد علقت هي الأخرى على ذلك: "على الأقل فهو لم يلوث المكان كما تفعلون أنتم يا كبار السن".

ها نحن ذا نعود إلى الجدال حول الأجناس والأجيال من جديد، وكان لديَّ ما أرد به عليها، إلا أن الوقت غير مناسب لهذا، فيمكن لشرطة (ميدلاند) أن تحضر في أية لحظة، وهـــو ما سيؤدي إلى وجود المزيد من الاختلاف في الرأي بأكثر مما هو قائم بيني وبين الآنسة (صنهيل).

على أية حال، انتقلنا للبحث في حجرة المعيشة والطعام، واللتين كانتا فيما يبدو هي المكان الوحيد المخصص لمكوث من يدخل إلى هذا المنـــزل. كان الديكور حديثاً ولكنه - مثلما هو حال معظم منازل الضباط - حافل بالعديد من التذكارات من مختلف أنحاء العالم - فهذه مشروبات يابانية، وأوانٍ قصديرية بافارية، ومشغولات بلورية إيطالية، وغير هذا. أمـــا تلك اللوحات المعلقة على الحائط فتجعل المكان أشبه بحجرة الهندسة بأية مدرسة - مكعـــبات ودوائر وخطوط وأشكال بيضاوية، وجميع الأنماط الهندسية، وجميعها بالألوان الأساســـية. وحتى الآن لم أتمكن من أن أضع يدي على ما ينم عن شخصية (آن كامبيل). فأنـــا أتذكر أنني قمت ذات مرة بتفتيش منـــزل قاتل، وخلال عشر دقائق كنت قد عرفت كـــل شـــيء عنه. وأحياناً ما يكون ذلك من خلال ما يستمع إليه من أغانٍ، أو من خلال لـــوحات عـــن القطـــط يعلقهـــا على الجدران، أو حتى ملابس داخلية متسخة ملقاة على الأرض. وكثيـــراً مـــا تكون الكتب على الرفوف أو حتى عدم وجود أية كتب دليلاً على شخـــصية صاحب المكان، أو من ألبوم صوره، أو مفكرته الشخصية. إلا أن هذا المكان يجعلني أشعر حتى الآن بأني قد اقتحمت منـــزلاً نمقه صاحبه لأجل أن يبيعه لأي مشتري يأتي به سمسار.

أمـــا آخـــر حجرة في الطابق الأرضي فكانت حجرة مكتب تحتوي على الكثير من الكـــتب، وبهـــا مكـــتب، وأريكة، ومقعد. كما كانت هناك وحدة ترفيه تشتمل على جهاز تلفـــزيون وســـتيريو. وعلـــى المكتب يوجد جهاز تلقي للمكالمات الواردة على الهاتف به مصباح يومض، إلا أننا لن نبحث في محتوياته الآن.

بحثنا بشكل جدي في حجرة المكتب، قلبنا الكتب، وبحثنا في أدراج المكتب وأسفلها، وقمنا في النهاية بقراءة عناوين الكتب وأسطوانات الأغاني. كانت مهتمة بالقراءات العسكرية، وهناك بعض من كتب الطهو والصحة والعناية بالجسد، ولم نجد روايات أو أي نوع آخر من الأدب. إلا أنه كان هناك المجموعة الكاملة لكتب (فريدريش نيتشه)، ومجموعة كبيرة من الكتب في علم النفس، وهو ما ذكرني بأننا لا نتعامل فقط مع خبيرة في علم النفس بل ومتخصصة بالذات في مجال الحرب النفسية. وقد يكون هذا من أهم الجوانب التي لها صلة بقضيتنا، أو على الأقل وثيقة الصلة بها.

لو نحينا كلاً من القلب والهرمونات جانباً، لوجدنا أن منبع السلوك الإجرامي هو العقل، فهو الذي يتولى إصدار الأمر بالفعل، كما أن عملية إخفاء الجريمة تشغل العقل بعد ذلك كليةً. فعلينا في نهاية المطاف أن نقتحم عقول الكثير من البشر، ومن هنا سنحصل على ما نريد حول حياة ابنة الجنرال، ونعرف سبب مقتلها. فمعرفة الأسباب في مثل هذه القضايا تقود إلى معرفة الجاني.

كانت (سينثيا) تقلب في الأسطوانات المدمجة وبعدها قالت: "موسيقى كلاسيكية وقديمة متنوعة، بعضها لفرقة البيتلز والآخر لمغنيين إيطاليين".

"مثل فرويد الذي كان يستمع إلى عزف شتراوس على المزمار؟".

"شيء شبيه بذلك".

شغلت جهاز التلفزيون، متوقعاً أن يبث لي إحدى القنوات الرياضية أو الإخبارية. ولكنه بدلاً من ذلك كان على قناة جهاز الفيديو. أخذت أقلب في مجموعة أشرطة الفيديو، والتي اشتملت على بعض الأفلام الكلاسيكية بالأبيض والأسود، وأخرى لتدريبات رياضية، ومجموعة ثالثة تحت عنوان "محاضرات عملية في علم النفس".

وضعت أحدها داخل جهاز الفيديو ثم ضغطت زر التشغيل قائلاً: "أنظري".

استدارت (سينثيا) وشاهدنا معاً صورة النقيب (آن كامبيل) تملأ الشاشة، وهي مرتدية زي الجيش واقفة إلى منصة خطابة. لقد كانت فتاة جميلة جداً، كما أن عينيها كانتا تلمعان في يقظة وهي تحدق في عدسات الكاميرا لبضع ثوانٍ قبل أن تبتسم وتبدأ كلامها: "صباح الخير أيها السادة. سوف نناقش اليوم الأساليب العديدة التي يمكن بها للعمليات السيكولوجية، أو الحرب النفسية كما تودون تسميتها، أن تساعد قائد سلاح المشاة في ساحة المعركة على خفض الروح المعنوية والفعالية القتالية للعدو. فالهدف الأسمى لتلك العمليات هو تسهيل مهمة قادة سلاح المشاة. إن مهمتكم – والمتعلقة بمجابهة العدو والقضاء عليه – مهمة عسيرة، وهناك من أسلحة الجيش الأخرى مثل المدفعية والطيران

والمدرعات والمخابرات ما يمثل لكم خط الإمداد والعون. على أن في يدكم سلاحاً قلما يستخدم وقلما نجد من يفهمه، ألا وهو العمليات السيكولوجية".

واستطردت قائلة: "ربما كانت الإرادة القتالية لدى العدو هي العنصر الأهم والذي لا بد من أن تضعوه في الاعتبار عند التخطيط للمعركة. أما أسلحته ومدرعاته ومدفعيته وتدريباته وأفراده فتمثل جميعها عناصر ثانوية مقارنةً بإرادته القتالية". ثم صمتت وهي تتطلع إلى جمع الحاضرين مما لم تظهرهم الكاميرا. ثم تابعت كلامها: "لا أحد لديه الرغبة في الموت. إلا أن كثيرين يمكن أن يتم شحذ حماسهم لدرجة أن يضحوا بحياتهم دفاعاً عن بلدانهم، عائلاتهم، بل وربما لأجل فلسفة أو مبدأ. ومن بين المحفزات التاريخية لأفراد الجيش نجد الديموقراطية والدين والتباهي بالعنصر البشري وشرف الفرد والولاء للجماعة وطلباً للغنائم، بل والمرأة واغتصابها أثناء الحروب".

وبينما كانت تتحدث كانت شاشة عرض من خلفها تعرض صوراً خاطفة لمشاهد الحروب القديمة والمأخوذة عن الكتب واللوحات القديمة. ومن بينها ميزت لوحة "اغتصاب السابينز" التي رسمها (دا بولونيا)، وهي من بين قلائل اللوحات الكلاسيكية التي أعرفها. بل أنني أتعجب أحياناً من تمكني من معرفة مثل تلك المعلومات.

استطردت النقيب (كامبيل) في الشرح: "إن هدف الحرب النفسية هو التأثير في هذه الدوافع، ولكن ليس بالتعامل المباشر معها، حيث إنها عادةً ما تكون أقوى من أن تغيرها الدعاية المضادة أو العمليات النفسية المباشرة. فأفضل ما يمكن أن نصل إليه هو زرع بذور الشك في نفوس أفراد العدو. على أن هذا لا يكفي لتحطيم الروح المعنوية مما يؤدي إلى استسلام جماعي. بل هو تمهيد للمرحلة الثانية من العمليات النفسية، وهي تتمثل في زرع الخوف والفزع بين صفوف قوات العدو. الخوف من الموت، الخوف من إصابات فادحة، بل الخوف من الخوف نفسه. أما الفزع – وهو من الحالات النفسية التي لم تزل على غموضها – فهو القلق الشديد والذي لا سبب ظاهر له. ولقد كان القدماء يستخدمون طبول الحرب وأبواقها، والصرخات التي تجمد الدم في العروق، والصياح بل والدق على الصدور مع الصرخات حتى يوقعوا الفزع في صفوف العدو".

بدت الصورة على الشاشة وراءها تصور جيشاً رومانياً في كامل عتاده، وعدداً كبيراً من البرابرة يركضون مطاردين إياهم.

تابعت حديثها: "لقد نسينا أثناء سعينا للتفوق التقني والحلول التكنولوجية لمشاكل القوات خلال الحرب الأثر الذي يحدثه الشكل البدائي للصراخ". ضغطت (آن كامبيل) زراً على المنضدة لتنطلق صرخةً عالية الذبذبة لتملأ أرجاء المكان. وهنا ابتسمت قائلة: "هذا كفيل بأن يفكك أعصابكم". بدرت ضحكات من بعض الرجال الحاضرين، والتقط الميكروفون صوت أحدهم يعلق ساخراً: "إنه أشبه بصوت زوجتي حينما تكون مستمتعة".

هنا علت الضحكات ومعها ضحكت النقيب (كامبيل) ضحكة بدت متناقضة مع شخصيتها. ثـم بدت وكأنما تراجع أوراقها، وحينما رفعت عينيها إلى الحضور ثانيةً كانت الجدية قد عادت للارتسام على محياها.

تـولد لديَّ انطباع بأنها تتلاعب بالحضور، وتكسبهم في صفها بالطريقة التي يتبعها معظم المعلمين الرجال في الجيش من خلال دعابة أو تعليق شخصي من حين لآخر. ومن الواضح أنها قد أثرت في الحضور، فقد شاركتهم لحظة تواطؤ جنسية لتكشف الغطاء عما يخفيه الزي العسكري. أغلقت جهاز الفيديو وأنا أعلق بالقول: "محاضرة شيقة".

قالـت (سينثيا): "من يرغب في قتل امرأة مثلها؟ أقصد أنها كانت مفعمة بالحيوية. نشيطة وواثقة من نفسها...".

ربمـا لهذا كانت رغبة أحدهم هي أن يقتلها. وقفنا في صمت لبرهة، بدت نوعاً من الاحتـرام فـيما يـبدو، وكأنما كانت (آن كامبيل) لم تزل حاضرة بجسدها وروحها في الغـرفة. وللحق فقد أخذت بشخصية (آن كامبيل). فلقد كانت من نوع النساء الذي ما أن تلحظـه ولـو لمـرة واحـدة لا تنساه ما حييت. ليس الأمر يتعلق بنظراتها التي تجتذب انتـباهك، إلا أنـه شـيء في شخصيتها ككل. كما أنها تتصف بصوت آمر قوي، عميق مميـز، إلا أنـه مغلف بالطابع الأنثوي الجذاب جنسياً في ذات الوقت. وكانت لهجتها من النوع الذي أسميه العسكرية الصبيانية – وهي لهجة لا يكتسبها العسكري إلا بخبرة لا تقل عن عشرة إلى عشرين سنة في الخدمة في مختلف القواعد العسكرية حول العالم، ويبزغ مـنها بين الحين والآخر نطق مدهش جنوبي الطابع. فتلك امرأة يمكنها أن تكتسب احترام وانتباه الرجال، أو أن تشتت انتباههم.

أمـا (سينثيا) فكانت معجبة بالطريقة التي تجتذب بها ولاء المجندات، إلا أنني أشك فـي أن تجد إحداهن فيها مصدر خطر عليها، وخاصة لو كان أزواجهن أو رفاقهن على صـلة بـآن كامبيل. أما بالنسبة لنظرة (آن كامبيل) للمجندات الأخريات فهو أمر لا يزال مبهماً. ولكي أكسر حاجز الصمت قلت لها: "هلم لننهي هذا الأمر".

واصـلنا بحثنا في حجرة المكتب. تفحصت مع (سينثيا) ألبوماً للصور وجدناه على الرف. بدت جميع الصور عائلية: الجنرال وزوجته السيدة كامبيل، شاب قد يكون ابنهما، لقطـات لـلأب مـع آن بالـزي العسكري، وصور للأقارب، ولمنطقة (ويست بوينت)، ولرحلات، ولعيد ديني، وعيد الشكر، وكل ما هو من هذا القبيل، وأعتقد أن الأم قد رتبت هـذا الألبوم لأجل ابنتها. كان هذا دليلاً موثقاً في صالح القول بأن عائلة كامبيل كانت من بـين العائلات الأسعد والأكثر بهجة وقوة في العلاقات بين أفرادها وتواصلاً اجتماعياً مع العائلات الأخرى. قلت: "لا فائدة عملية منها، إلا أننا تكهنّا بشيء واحد، أليس كذلك؟".

سألتني (سينثيا): "ما هو؟".

"أنهم في الأغلب يكرهون بعضهم البعض".

"هل هذه سخرية أم غيرة من أن كلينا ليس لديه مثل هذه العائلة المتماسكة؟".

أغلقت الألبوم قائلاً: "سرعان ما سنرى ما تخفيه وراءها تلك الابتسامات".

وهنا بدت (سينثيا) تكتشف فداحة ما نقوم به في حق تلك العائلة، فقالت: "بول.. علينا أن نستجوب الجنرال (كامبيل)... والسيدة (كامبيل) كذلك...".

رددت بقولي: "يكفيهما فداحة جريمة القتل. فحينما يجتمع الاغتصاب بالقتل لا تكون الجريمة عشوائيةً أبداً، كما أن والد المجني عليها بطل قومي، ومن ثم فإن على البلهاء أمثالنا ممن يحاولون البحث في حياة المجني عليها أن يدركوا طبيعة ما يقومون به. أتفهمين؟".

تأملت كلامي للحظة ثم قالت: "إنني مصممة على تولي هذه القضية. إنني أشعر بـ... أوه... ببعض التشارك الوجداني معها. إنني لا أعرفها، إلا أنني أعلم أن الحياة العسكرية كانت صعبة عليها وسط كل هؤلاء الرجال".

"دعك من هذا الكلام يا (سينثيا)".

"حقاً.. وكيف عرفت يا (بول)؟".

"جربي أن تضعي نفسك في موضع الرجال هذه الأيام".

"ها قد عدنا ثانيةً".

"تذكرت الآن ما كنا نتجادل حوله".

"الرؤى المحايدة".

انتقلنا إلى الجانب المقابل في الغرفة، وتابعنا بحثنا. تأملت الإطارات المعلقة على الجدار – شهادة الدبلومة من (ويست بوينت) باسم (آن كامبيل)، شهادة الالتحاق بالجيش، شهادات تدريبية، شهادات تقدير، وبعض شهادات أخرى من وزارة الدفاع والقوات المسلحة، من بينها واحدة تعبر عن التقدير لدورها في حرب عاصفة الصحراء. تنحنحت لأقول للآنسة (صنهيل): "هل سبق لكِ أن سمعتِ عن العملية المسماة (الهوس الجنسي) خلال حرب عاصفة الصحراء؟".

ردّت: "لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل".

"لقد كان لدى البعض من القائمين على الحرب النفسية فكرة وهي أن يلقوا بصور بورنو على المواقع العسكرية العراقية. فمعظم هؤلاء الجنود المساكين لم يكن قد رأى على الطبيعة امرأة على مدى أشهر أو سنوات، لذا فقد رغب هؤلاء الخبراء الساديون في أن يغمروهم بصور النساء الخمريات المثيرات، مما سيحولهم إلى مجموعة من المهووسين جنسياً. وصلت الفكرة إلى القيادة المشتركة، وكانت فكرة ممتازة، حتى سمع

بهـــا السعوديون وأبدوا غضبهم الشديد من هذه الفكرة. فهم ليسوا على نفس تحررنا تجاه مـــثل هذه الأفكار. وهكذا تم إلغاء الفكرة من أساسها، إلا أن المقصود هو أن الفكرة كانت رائعـــة وكـــان يمكـــن لها أن تختصر مدة الحرب البرية من أربعة أيام إلى خمسة عشر دقيقة". قلت العبارة الأخيرة وعلى وجهي ابتسامة.

ردّت (سينثيا) ببرود: "هذا أمر مقزز".

"في الحقيقة أنا أوافقك على هذا من الناحية النظرية. ولكن إن كان لمثل هذه الفكرة أن تحفظ دماء الجنود فإن هذا يكفيها كمبرر".

"إن الغاية لا تبرر الوسيلة. فما جدوى هذا المقصد إذن؟".

"هل سيكون هذا رأيك لو كانت فكرة صور البورنو هذه قد أتت من سيدة وليس من رجل؟".

"أتقصد النقيب (آن كامبيل)؟".

"مـــن المؤكد أن مصدر هذه الفكرة كان إدارة (الحرب النفسية) هنا. لنتأكد من هذا الأمر".

استغرقت (سينثيا) في أحد تأملاتها، ثم نظرت إليّ قائلة: "هل كنت تعرفها؟".

"بل كنت أسمع عنها".

"ما الذي سمعته عنها؟".

"ســـمعت عـــنها كما سمع الجميع يا (سينثيا). لقد كانت مثالية في كل شيء، رمزاً لأميركا، وساهم في تضخيم صورتها هذه إدارة العلاقات العامة".

"وأنت لا تصدق أنها كانت على هذه المثالية".

"كلا. لا أصدق. ولكن لو اكتشفنا أني كنت على خطأ فإني مستعد أن أستقيل".

"لا تتعجل فقد تستقيل في جميع الحالات".

أضـــفت قـــائلاً: "هـــذا محتمل على كل حال. لنتذكر فقط كيف لقت مصرعها، تلك الطـــريقة غـــريبة الأطـــوار، مع إضافة ضعف احتمال أن يرتكب هذه الفعلة غريب عن المجنـــي علـــيها التـــي كانـــت في قمة تأهبها العسكري، ويقظتها، واستعدادها لاستخدام سلاحها".

أومـــأت برأســـها، ثـــم قالت وكأنما تحدث نفسها: "لقد فكرت في تلك الأمور التي تطـــرحها الآن. ولـــيس من المستبعد على ضابط أنثى أن تحيا بأسلوبين – أحدهما للعامة والآخر شخصي خاص بها.. أياً كانت طبيعة كل من الأسلوبين. إلا أنني شاهدت من قبل نـــساءً، ضحايا اغتصاب – متزوجات أو غير متزوجات – كن يعشن حياة خاصة مثالية

ليـصبحن مـن الضحايا بالصدفة البحتة. كما رأيت من قبل نساءً كن يعشن حياتهن على عواهـنها، إلا أن اغتـصابهن لم يكن له علاقة بمن كن على صلة بهن من أشخاص. بل كان الأمر من قبيل الصدفة البحتة".

"تلك احتمالات لا أستبعدها".

"وعليك ألا تحكم على المظاهر يا (بول)".

"أنا لست كذلك. كما أنني لست قديساً. وماذا عنك أنت؟".

"تعرف عني ما لا يجعلك تسأل هذا السؤال" اقتربت مني ووضعت يدها على كتفي، وهو ما فاجأني. قالت: "هل يمكننا إنجاز هذه المهمة؟ أقصد معاً؟ أم سوف نفشل؟".

"لا. بل سنحل القضية معاً".

وخـزت (سـينثيا) بطنـي بإصبعها، وكأنها تضع علامة استفهام في نهاية عبارتي الأخيرة. واستدارت عائدة إلى مكتب (آن كامبيل).

حـولت انتباهي مجدداً إلى الجدار ولاحظت الآن بروازاً يحمل شهادة تقدير من الـصليب الأحمـر الأميركي، تقديراً لعملها المخلص في حملة التبرع بالدم، وشهادة تقدير أخرى من مستشفى محلي يشكرها على رعايتها الأطفال من أصحاب الأمراض الخطيـرة، وشهادة تقدير تدريسية من هيئة متطوعي محو الأمية. من أين لتلك الفتاة بالوقت الكافي لكل هذه الأنشطة؟ هذا بالإضافة إلى عملها الأساسي، والتطوع لفترات خدمـة إضـافية، والجـوانب الاجتماعـية داخل القوات المسلحة، هذا بجانب حياتها الخاصة؟ هل من الممكن تحقيق كل هذا، وهل يمكن ألا تكون هناك حياة خاصة لمثل هذه الفتاة الفائقة الجمال؟ هل يمكن لي أنا أن أبالغ في حياتي العملية لدرجة ألا تكون لديَّ أية حياة خاصة؟

نادتني (سينثيا) معلقة: "ها هي مفكرة العناوين خاصتها".

"ذكرتنـي الآن. هل وصلتك البطاقة التي أرسلتها في العيد الديني؟ أودّ أن أعلم أين تعيشين هذه الأيام؟".

"اسـمع يا (بول). أنا متأكدة من أن أصدقاءك في مقر إدارتنا قد تجسسوا على ملفي وأخبروك بكل شيء حدث لي خلال العام الماضي".

"لست أنا الذي يفعل هذا يا (سينثيا). فهو أمر غير أخلاقي أو مهني".

رمقتنـي ثـم قالت: "آسفة". وضعت مفكرة العناوين في حقيبة يدها، ثم اتجهت إلى جهاز الرد الآلي على الهاتف، وضغطت زر التشغيل.

سـمعا صـوتاً يقول: "(آن)، هذا الكولونيل (فاولر). كان من المفترض أن تزوري منـزل والـدك هذا الصباح بعد انتهائك من نوبة الخدمة". كانت نبرة صوت الكولونيل

مقتــضبة. "لقد أعدت لكِ السيدة (كامبيل) الإفطار من أجلك. حسناً، ربما كنت نائمة الآن. فأرجو أن تتصلي بالجنرال حينما تستيقظي، أو اتصلي بالسيدة (كامبيل)" ثم أغلق الخط.

قلت: "لو كنت مكانها لقتلت نفسي".

علقت (سينثيا): "من المؤكد أن كونها ابنة الجنرال لم يكن أمراً سهلاً. من الكولونيل (فاولر) هذا؟".

"أعتقد أنه مساعد الجنرال... ما رأيك في هذه الرسالة؟".

"رسالة رسمية. توحي نبرته ببعض الاعتيادية بينهما، ولكن ليس إلى درجة حميمية. وكأنما يقوم بواجبه فقط وهو أن يتصل بابنة رئيسه ليذكرها بشيء نسيته، فمع أنه يفوقها رتبة إلا أنها في النهاية ابنة رئيسه. وما رأيك أنت؟".

فكرت للحظة ثم قلت لها: "بدت لي مختلقة".

"أوه... تقصد مكالمة وهمية لتغطية موقف ما؟".

ضــغطت زر التشغيل مجدداً، وأنصتنا. ثم قلت: "ربما بدأت أتوهم أشياءَ لا أساس لها".

"وقد تكون محقاً".

رفعــت ســماعة الهاتــف واتــصلت بمكتب القيادة العامة. كان الكولونيل (كينت) موجوداً. أخبرته قائلاً: "لا زلنا في منــزل المجني عليها. ألم تتحدث مع الجنرال بعد؟".

"كلا... لم أتحدث معه... أنا في انتظار أن يحضر القس..".

"بــيل. إن النــبأ سيُذاع في كافة أرجاء القاعدة خلال ساعات. عليك أن تبلغ عائلة المتوفاة. ولا ترسل لها خطاباً أو برقية".

"اسمع يا (بول) إن موقفي حساس وهو ما يصيبني بالتوتر الآن، ولقد اتصلت بالقس العسكري وهو في طريقه إلى هنا...".

"حسناً. هل نقلت مكتبها؟".

"أجل. لقد وضعت كل شيء في هانجر غير مستخدم في (جوردان فيلد)".

"جــيد. علــيك أن ترســل مجموعة من عربات النقل إلى هنا مع فرقة من الشرطة العــسكرية تكــون على استعداد لأداء عمل شاق مع الاحتفاظ بسرية مهمتهم، حتى نفرغ منــــزلها هــنا. سوف ننقل كل شيء، الأثاث والسجاد وحتى مصابيح الإضاءة، ومقاعد الحمام، والثلاجة، والأطعمة. وسنلتقط صوراً للمكان، ثم نضع كل شيء في المخزن بنفس الترتيب الذي كانت عليه. موافق؟".

"هل جننت؟".

"بالفعل. وتأكد من أن يرتدي جميع الأفراد قفازات واطلب من رجال البحث الجنائي أن يرفعوا جميع البصمات".

"ولماذا تريد أن تنقل المنـــزل بأكمله؟".

"نحـــن ليس لدينا سلطة قضائية هنا، وأنا لا أثق في رغبة شرطة هذه البلدة في أن تساعدنا. لذلك فحينما يصلون إلى هنا، فلا بد من ألا يجدوا سوى ورق الحائط. ثق في ما أطلبه منك. فموقع الجريمة تابع لجيش الولايات المتحدة. فما نفعله قانوني تماماً".

"كلا. هو ليس كذلك".

"إما أن تفعل ما أطلبه منك أو أن أتنحى عن هذه المهمة أيها الكولونيل".

حل صمت طويل، ولكنه وافق في النهاية بكل حنق.

"وعلـــيك أن ترســـل ضابطاً إلى شركة (ديكسي بيل) في هذه البلدة لكي يتم تحويل المكالمات الواردة على هاتف (آن كامبيل) إلى هاتف بالقاعدة. والأفضل أن يكون إلى خطٍ في نفس ذلك الهانجر. كما عليه أن يوصل به جهاز الرد الآلي، وأن يضع بالجهاز شريطَ تسجيل جديد، مع وضع علامة على الشريط القديم بصفته دليلاً".

"مـــن تظـــنه يتـــصل علـــى ذلك الرقم بعد أن تتصدر أنباء الجريمة جميع صحف الولاية؟".

"من يدري. هل حضر رجال البحث الجنائي؟".

"أجل. إنهم في موقع الجريمة. وكذلك الجثة".

"والرقيب (ساينت جون) و(ماري روبينـــز)؟".

"لا يزالان نائمين. لقد وضعتهما في زنـــزانتين منفصلتين. مفتوحتين. هل تريد مني أن أقرأ عليهما حقوقهما القانونية؟".

"كـــلا. إنهما ليسا من بين المشتبه بهم. لكننا نوقفهما بصفتهما شاهدين، فليبقيا حتى آتي إليهما".

نبهنـــي (كيـــنت) قائلاً: "للجنود بعض الحقوق. ولدى (ساينت جون) زوجة، وربما تعتقد سرية (روبنـــز) أنها متغيبة من دون إذن".

"علـــيك إذن أن تجري المكالمات الضرورية لتسوية أمورهما. فهما الآن ممنوعان عن ممارسة أي شيء. ماذا عن الملف الشخصي والطبي للنقيب (كامبيل)؟".

"لقد أحضرتهما".

"هل هناك ما نسيناه يا بيل؟".

"لم يبقَ سوى الدستور نفسه".

"لا تهزل في الجد أرجوك".

"أتعـــرف يا (بول)، إنني أتعامل بصفة مستمرة مع (ياردلي) رئيس الشرطة. وأنتم المحققون تجيئون وتذهبون. وتبقى مشاكلي معه...".

"لقد قلت لك أني أتحمل المسؤولية".

سألني: "بالتأكيد... هل وجدت أي شيء جذب انتباهك؟".

"ليس بعد. وأنت؟".

"لم ينتج عن البحث الدقيق لمكان الجريمة أياً مما يستحق الذكر".

"هل وجدت الكلاب شيئاً؟".

"لم تجد مزيداً من الضحايا. وقد تركناها تتشمم داخل الجيب، وبعدها تشممت الجثة. ثم عادت الكلاب إلى الجيب، عبر الطريق، فيما وراء مدرجات المقاعد، وحتى الحمامات وسط الأشجار. وبعدها فقدت الرائحة فعادت إلى السيارة الجيب". ثم تابع قائلاً: "لم نستطع التحقق مما إذا كانت الكلاب قد التقطت رائحة الجاني أم أنها كانت رائحة المجني عليها. إلا أن أحـــدهما – الجاني والمجني عليها معاً أو أحدهما بشكل منفصل – قد ذهب بالتأكيد إلى الحمامات". بدا على صوته التردد ولكنه تابع كلامه: "يراودني شعور بأن الجاني كان يـــستقل سيارته الخاصة، وبما أننا لم نجد أية آثار لإطارات على التراب، فإن سيارته لم تغادر الطريق المسفلتة أبداً. لذا فقد توقف على الطريق قبل أو بعد أن توقفت هي. وترجل كلاهما من سيارتيهما، وبعدها سيطر عليها واقتادها إلى ساحة الرماية حتى ارتكب فعلته. وبعدها عاد إلى الطريق...".

"حاملاً ملابسها معه".

"أجل. وضع ملابسها في السيارة، ثم...".

"ذهـــب إلـــى الحمامـــات، واغتسل، ومشط شعره، ثم عاد إلى السيارة وابتعد عن المكان".

قال (كينت): "قد يكون هذا ما حدث. إلا أنه مجرد افتراض".

"يـــبدو لـــي أن النظـــريات من الكثرة بحيث سنحتاج معها إلى أن نخصص مخزناً خاصاً لها. حسناً، احتاج هنا إلى ست عربات نقل، وأرسل معها ضابط سيدة حتى تشرف علـــى تلـــك العملـــية. وأرسل شخصاً من الشؤون الاجتماعية ليعمل على إخماد فضول الجيران فيما تُفرغ الشرطة العسكرية المكان. أراك فيما بعد". وأغلقت الخط.

قالت (سينثيا): "تتمتع بعقل تحليلي سريع يا (بول)".

"أشكرك".

"ولو أنك تحليت بالقليل من الرحمة والعطف لكنت شخصاً مثالياً".

علقت قائلاً: "لا أود أن أكون شخصاً مثالياً. ثم أني مندهش! ألم أكن شخصياً جذاباً ونحن في (بروكسل)؟ ألم أبتع لكِ شوكولاته بلجيكية؟".

لـم تعلق على الفور، ولكنها ردت قائلة: "أجل، أنت محق. أليس من المتوجب علينا أن نصعد للطابق العلوي، قبل أن ينقلوه إلى (جوردان فيلد)".

"فكرة جيدة".

الفصل السادس

كمـــا وصفت من قبل، فإن الغرفة الرئيسية بدت مرتبة وغاية في التنظيم، فيما عدا زجاجـــة العطـــر التي هشمتها على أرضية الحمام والتي تعبق رائحتها المكان الآن. كان الأثـــاث حديـــثاً وعملـــياً، ويـــدا لي من الطراز الإسكندنافي، والذي لا يتصف باللمسات الـــناعمة، أي أنه لا يوجد ما يوحي بأنها حجرة سيدة. وأعتقد أني لم أكن لأرغب في أن أمـــارس الحب في هذه الغرفة. كما أن السجادة لم تكن متناسبة مع غرفة نوم، حيث إنها من النوع العتيق المغزول والذي لا يبين أية آثار للأقدام. على أنه كان هناك شيء مميز: فهناك عشرون زجاجة عطر – قالت لي (سينثيا) إنها من الأصناف الغالية جداً – وكذلك الملابـــس المدنية في الخزانة، والتي كانت باهظة الثمن كذلك. أما الخزانة الثانية الأصغر – والتي كان يمكن أن تصبح خزانة زوجها أو صديقها – فكانت تحوي الكثير من الأزياء العسكرية الصيفية، بما فيها الأردية الخضراء، والقتالية المموهة، وأحذية التدريب الثقيلة، إضـــافةً إلى كافة المستلزمات الضرورية. أما الأكثر إثارة للفضول فهو أنني وجدت في الـــركن البعيد من الخزانة مسدساً من طراز إم 16 وكانت خزانته محشوة وجاهزة. قلت لها: "هذا سلاح عسكري – آلي تماماً".

علقت (سينثيا): "ومحظور استخدامه خارج القاعدة".

"يا إلهي". تجولنا في المكان لمدة أطول، وكنت أقلب في درج الملابس الداخلية لآن كامبيل، حينما قالت لي (سينثيا): "لقد بحثت هنا من قبل يا (بول). لا تجعلني أشعر بالريبة فيك".

رددت في فروغ صبر: "إنني أبحث عن خاتمها العسكري. لم يكن في إصبعها، كما لم أجده في صندوق مجوهراتها".

"لقد أخذ من إصبعها. لقد رأيت علامة مكانه في إصبعها".

أغلقـــت الدرج في ضيق وأنا أقول: "عليكِ أن تخبريني بكل شيء". باغتتني بقولها: "وأنت أيضاً".

كـــان الحمام في قمة نظافته ورونقه: وكأنما هو أحد حمامات الجيش، بل أن حوض الاســـتحمام نظـــيف جـــاف حسب التعليمات، ولم يكن هناك أي شعر على الأرضية، لا لصاحبة المكان، أو شعر جسد لأي شخص غريب.

فتحنا خزانة الإسعافات، والتي حوت على ما هو معتاد من أدوات للتجميل، ومنتجات نسائية، وغير هذا. لم تكن هناك أدوية، أو أدوات حلاقة رجالية، فقط فرشاة أسنان واحدة، وأسبيرين. سألت زميلتي الأنثى: "ما الذي تستدلين عليه من هذا؟".

"لم تكن مصابة بوسواس نظافة مرضي، كما أنها لم تكن ذات بشرة جافة أو دهنية، ولم تكن تصبغ شعرها، أما لو كانت تتناول أقراص منع الحمل فقد دستها في مكان آخر".

قلت: "ربما كانت تطلب من الرجل أن يرتدي واقياً ذكرياً. قد تكوني سمعتِ بأن هناك عودة لاستخدامها من جديد بسبب تفشي الأمراض. فلا بد هذه الأيام من أن تغلي شريكك في الماء قبل أن تتقبلي ممارسة الحب معه".

تجاهلت (سينثيا) تعليقي هذا وقالت: "وإما أنها كانت عفيفة عذراء".

"لم يخطر هذا ببالي. أهذا ممكن؟".

"لا أحد يمكنه أن يتيقن من مثل هذه الأمور يا (بول). لا يمكن أبداً".

"أو قد تكون... أوه.. كيف يقولونها هذه الأيام؟ شاذة؟ سحاقية؟ ما هو التعبير المناسب؟".

"وهل يهمك هذا الأمر؟".

"لأجل التقرير الرسمي فقط. فلا أريد أن أدخل في مشاكل مع الشرطة حال كان لها توجهات نسوية".

"هون عليك يا (بول)".

خرجنا من الحمام، وقالت (سينثيا): "لنتفحص الحمام الآخر".

عبرنا الردهة العلوية تجاه الغرفة الصغيرة. وحتى هذه اللحظة لم أكن أتوقع أن أواجه أي أحد، إلا أن (سينثيا) سحبت مسدسها وحمت ظهري وأنا أنظر أسفل الفراش. ولم تكن الغرفة تحوي بخلاف الفراش سوى مرآة الزينة ومنضدة صغيرة ومصباح فوقها. وكان هناك باب مفتوح يؤدي إلى حمام صغير، بدا لنا وكأنه لم يستخدم من قبل. ومن الواضح أن الغرفة بأكملها لم تستخدم من قبل، إلا أن (آن كامبيل) كانت قد جهزتها لأي ضيف طارئ.

جذبت (سينثيا) مفرش الفراش، لتكشف عن مرتبة بلا غطاء. فقالت: "لم ينم أحد هنا من قبل".

فتحت خزانة الملابس فوجدتها فارغة وأنا أقول: "هذا واضح".

أشارت (سينثيا) ناحية مجموعة من الأبواب المزدوجة الكبيرة عند الجدار البعيد. فوقفت إلى جانب الجدار وفتحت أحدها في سرعة. وعندها أضيء الداخل بشكل آلي، وهو أمر أدهشني أنا و(سينثيا) كذلك، فقد جثمت سريعاً على الأرض مصوبةً مسدسها.

وبعــد ثانية أو اثنتين، وقفت واقتربت مما بدا أنها خزانة خشبية متسعة للداخل. دخلنا في الخزانة. كانت ذات رائحة عذبة، ذكرتني برائحة كولونيا كنت أضعها لتبعد عني كلاً من الحــشرات والنــساء. كـــان هناك حمالتان أفقيتان تتدلى منهما ملابس مدنية تتراوح بين الــصيفية والــشتوية وما بين ذلك، وكانت موضوعة في أكياس، مع المزيد من الملابس العــسكرية، والتي تتراوح بين ملابس (ويست بوينت)، والملابس الميدانية القتالية، وحتى ملابــس المــناطق القطبية، والملابس العسكرية البيضاء، وتلك الزرقاء الخاصة للحفلات الرسمية، وأطقم أخرى متفرقة مخصصة لبعض الفعاليات العسكرية النادرة، هذا بالإضافة إلـــى الــسيف العسكري. أما الرف العلوي فاشتمل على أغطية الرأس العسكرية المختلفة الاستخدامات، أما الأرضية فحوت مختلف أنواع الأحذية العسكرية.

قلـــت: "لقد كانت مجندة مثالية. فها هي مستعدة لأي نداء، سواءٌ أكان حفلاً عسكرياً أو حرباً في الأدغال".

"ألا تشبه خزانة ملابسك العسكرية هذه الخزانة؟".

"بـــل هـــي أشبه بمتجر ملابس بعد ثالث أيام التصفيات". بل هي أسوأ من ذلك في الحقـــيقة. إنني قد أكون متصفاً بعقل منظم، إلا أن هذا غاية المراد بالنسبة لي. بينما كانت النقـــيب (كامبـــيل)، نظيفة ومرتبة ومنظمة في كافة شؤون حياتها. ولهذا السبب يراودني الــشك في أن عقلها كان على نقيض كل هذا النظام الظاهري. وربما أكون مخطئاً. كانت هذه المرأة محيرة.

خرجنا من الخزانة وغرفة الضيوف.

وفـــي طـــريقنا إلـــى الطابق الأرضي قلت لسينثيا: "قبل أن ألتحق بإدارة التحقيقات العـــسكرية، لـــم أكـــن أتصور أن يأتي وقت لا أستطيع فيه التوصل إلى أي خيط في أية قضية".

"والآن؟".

"والآن أجد خيطاً في كل شيء من حولي. فالافتقار إلى الخيط يعد في حد ذاته خيطاً يمكن إتباعه".

"هل الأمر كذلك إذن؟ إنني لم أصل إلى كل هذه الحكمة بعد".

"إنـــي أنظر للأمر نظرة شيرلوك هولمز. من المؤكد أنك تعرفين بقصته مع الكلب الذي لم يكن ينبح ليلاً". كنا قد دخلنا إلى المطبخ، "ما الذي كان يمنع الكلب من النباح؟".

"أنه كان قد مات".

إن مـــن الصعب عليَّ أن أعتاد على شريك جديد في قضاياي. فأنا لا أحب الشبان المولعـــين بالتحليل النفسي، والذين يعلقون على كل كلمة تقولها. إلا أنني أمقت المتذاكين

والمتذاكيات كذلك. فأنا الآن في سن ورتبة تقتضي من الآخرين إبداء الاحترام لي، إلا أنني لا زلت متفهماً لواقع الأمور على أية حال.

أمعنا النظر في باب القبو الموصد بالمزلاج. قلت معلقاً لا على الباب ولكن على الحياة: "لقد تركت زوجتي أدلة عليها في كل مكان".

لم تعلق (سينثيا).

"إلا أنني لم أرَ أبداً تلك الأدلة".

"هذا مؤكد".

"حسناً... لو تأملنا الأمر الآن لكان هذا صحيحاً. ولكن حينما يكون المرء شاباً لا ينتبه لمثل هذه الأشياء، حيث يكون منشغلاً بنفسه، ولو فهم الناس جيداً، لما كان ضحية للكذب والغش والخداع، وسيفتقر إلى الحكمة والشك اللذين يجعلان منه محققاً جيداً".

"المحقق الجيد يا (بول) هو من يستطيع الفصل بين حياته المهنية وحياته الشخصية. فأنا لا أريد رجلاً يرغب في التجسّس عليّ".

"هذا واضح، بالنظر لماضيكِ".

"توقف عن هذا".

ها أنذا أسجل نقطة في صالحي. فتحت مزلاج الباب قائلاً: "دورك".

سلمتني مسدسها وفتحت باب القبو وهي تقول: "حسناً. كم أتمنى لو كان مسدسك معك".

قلت في براءة: "ربما كان عليَّ أن أذهب لإحضار ذلك المسدس طراز إم 16 من الطابق العلوي".

"لا تعتمد أبداً على مسدس وجدته للتو ولم تجربه. هكذا تعلمنا. قم فقط بتغطية ظهري".

صحت عبر السلم المؤدي للأسفل: "شرطة! اصعد السلم ويداك على رأسك!" هذا هو المقابل العسكري لما تأمر به الشرطة المدنية المتهم بأن يرفع يديه لأعلى، كما أنها عبارة منطقية لو فكرت فيها. على كلٍ لم يصعد أحد لأعلى، لذا كان على (سينثيا) أن تهبط. قالت لي بصوت خافت: "دع الأضواء مطفأة. سأقتحم المكان من اليمين. انتظر خمس ثوانٍ".

"انتظري أنت ثانية واحدة"، ثم أخذت أبحث عن شيء مناسب مما يمكن إلقاؤه إلى الأسفل حتى لمحت جهاز الخبز المحمص، إلا أن (سينثيا) كانت قد ركضت هبوطاً في السلم بخطوات واسعة تكاد لا تلامس الدرج. فبالكاد لمحت كتفها وهي تتخذ طريقها يميناً قبل أن تختفي في الظلام. تبعتها متخذاً طريقي إلى اليسار، في وضعية إطلاق النار، وأنا

أحـــدق فـــي الظـــلام. انتظرنا في الظلام لعشر ثوانٍ كاملة، ثم صحت: "إد، جون، قوما بتغطيتـــنا!" كم رغبت في أن يكون هناك حقاً إد وجون هذان ليقوما بتغطيتنا فعلاً، ولكن كما قد تقول النقيب (كامبيل): "اصنع فرقاً شبحية في مخيلة العدو".

تيقـــنت الآن من أنه لو كان هناك أحد بالأسفل فإنه ليس شخصاً كامناً في تحفز، بل صاحبكم الرابض على ركبتاه الآن.

عـــادت (سينثيا)، التي لم تستمع لتحذيراتي، بخطوات سريعة إلى أعلى الدرج حتى تـــضغط مفاتيح الإضاءة لتنير المكان بالأسفل. ومضت مصابيح الفلوريسينت عبر أرجاء سقف القبو، حتى ثبتت لتضفي هذا الضوء الأبيض والذي دوماً ما أربط بينه وبين الأماكن التي أنفر منها.

عـــادت (سينثيا) وأخذنا نفحص المكان. كان مكاناً نموذجياً لغسل الملابس وتجفيفها، وبه طاولة أدوات ومخزن، ونظام التدفئة والتكييف، وغير ذلك. كانت الأرضية والجدران مـــن الإســـمنت غيـــر المطلي، أما السقف فكان كاشفاً عن توصيلات الكهرباء والصرف الصحي.

تفحصنا الطاولة والأركان المعتمة بالمكان، فلم يكن بها ما يثير الانتباه سوى أن (آن كامبيل) كانت تمتلك العديد من الأدوات الرياضية. والحقيقة أن الجدار الأيمن بالكامل كان عـــبارة عـــن مكـــان تعليق لجميع الأدوات الرياضية – مثل مضارب التنس والإسكواش والبيـــسبول وغيرها – والأربطة التي تمثل دعامات أثناء التدريب. كانت كالعادة غاية في التنظيم. كما كانت هناك – مثبتةً إلى الجدار بمسامير – صورة مكبرة لآن كامبيل بالرداء العـــسكري، مع عتادها بالكامل، ومسدس طراز إم 16 معلق أسفل ذراعها الأيمن، ووحدة الراديو معلقة عند أذنها، بينما تبتسم وهي تنظر إلى خريطة ميدانية وتتحقق من الوقت في ســـاعة يـــدها. كان وجهها ملطخاً بأصباغ التمويه والتنكر، إلا أن الصبغة الجنسية كانت واضحة على هذه الصورة. كان هناك تعليق فوقها يقول: "حان وقت تنظيم حياتك" وأسفلها آخـــر يقول: "اذهب اليوم إلى مركز التجنيد". أما ما بين السطور فرسالة تقول: "هلمّ قابل الجـــنس الآخـــر وعاشرهم عن قرب، مارس الحب معهم في الغابات، واستحم معهم في مجاري الأنهار، وشاركهم التمتع بحرية الأماكن الحميمة".

ربما كنت أوعز بما في عقلي الباطن من تخيلات جنسية فأسقطه على هذه الصورة، إلا أننـــي أتصور أن هذا الجانب كان مقصوداً ممن صمموا هذه اللوحة الدعائية. أشرت برأسي نحو الصورة قائلاً لسينثيا: "ما رأيك؟".

هزّت كتفيها قائلة: "صورة دعائية جيدة".

"ألم تتبيني الرسالة الجنسية الطاغية عليها؟".

"كلا. أشر أنت نحوها حتى أراها".

"حسناً... إنها تخاطب العقل الباطن. فكيف أشير لكِ إليها على الصورة؟".

"حدثني عنها إذن".

راودني شعور بأنها تلقي لي بطعم ما، لذا قلت لها: "هذه امرأة معها مسدس. والمسدس رمز للعضو الذكري، أو البديل له. والخريطة مع الساعة تمثل الرغبة الجنسية الكامنة في اللاوعي، ولكن حسب الزمان والمكان الذي تقرره هي. كما أنها تحادث رجلاً عبر جهاز الراديو، لتخبره بإحداثيات موقعها وبأن أمامها 15 دقيقة حتى يبحث عنها ويجدها".

نظرت (سينثيا) إلى ساعتها وقالت لي: "أعتقد أنه قد حان وقت الانصراف يا (بول)".

"معكِ حق".

هممنا بصعود السلم لأعلى، لكني تطلعت ورائي إلى القبو وقلت: "أشعر أن مساحة أرضية القبو لا تتناسب مع مساحة أرضية المنزل فوقه".

استدرنا في آن واحد متجهين صوب الجدار الذي ثبتت به اللوحة بالمسامير، وهو الجدار الوحيد الذي لم يظهر أنه إسمنتي. دققت على الجدار، وضغطت على الصورة التي تبلغ مساحتها أربعة أقدام (120 سم) في ثمانية أقدام (240 سم)، إلا أنهما كانا ثابتين، ومتمسمرين في الجدار بإحكام. وجدت مفكاً طويلاً على المنضدة، ودسسته في إحدى فتحات المسامير، فاصطدم بجسم صلب على بعد بوصتين (5 سم). دفعته أكثر فدخل سن المفك في شيء رخو غير إسمنتي. قلت لسينثيا: "إنه جدار مزيف. فلا توجد خرسانة خلفه".

لم تجبني، فنظرت إلى يساري حيث تقف (سينثيا) مواجهة الصورة الدعائية. قبضت على الإطار الخشبي للصورة بأطراف أصابعها، ثم جذبته لتنفصل الصورة كاشفةً عن حيِّزٍ مفتوحٍ معتمٍ. وسرعان ما وقفت بسرعة إلى جانبها، وفي ظهرنا الإضاءة الفلوريسنتية للقبو.

بعد بضع لحظات لم يحدث خلالها ما توقعناه من أن نلقى مصرعنا الآن رمياً بالرصاص، بعدها اعتادت عيناي على عتمة المكان الذي أمامنا، وأمكنني أن أميز بعض الأجسام في الغرفة بدت لي قطع أثاث. كما أمكنني أيضاً أن أميز بريق ساعة رقمية توجد بالداخل، وقدرت أن مساحة الغرفة تبلغ خمسة عشر قدماً (4.5 متر) عرضاً وربما أربعين أو خمسين قدماً (12 أو 15 متراً) طولاً، وهو نفس مساحة المنزل من الأمام للخلف.

ناولـــت (سينثيا) مسدسها وأخذت أبحث على الجدار الداخلي عن مصدر إضاءة وأنا أعلــق ساخراً: "إذن فهذا هو المكان الذي تسجن فيه عائلة كامبيل مجنون العائلة". وجدت مفتاح الإضاءة فأشعلته، لينير مصباح منضدة، كشف عن غرفة مؤثثة بالكامل. تقدمت في حذر، وبجانب عيني لمحت (سينثيا) تتقدم وهي تتخذ وضع إطلاق النار وتجول بيدها التي تحمل المسدس أرجاء الغرفة.

انحنـــيت وألقـــيت نظرة أسفل الفراش ثم وقفت واتجهت نحو الخزانة، ثم إلى حمام صغير على يمين الغرفة، بينما كانت (سينثيا) تغطيني.

وقفت أنا و(سينثيا) في مواجهة بعضنا البعض، وقلت لها: "ها نحن ذا إذن".

كانـــت مفاجـــأة بالفعل. فقد كان هناك فراش مزدوج، ومصباح مضيء على منضدة، وأدراج، وطاولـــة عريضة عليها جهاز ستيريو وتلفزيون وجهاز فيديو، وكاميرا فيديو مجهزة للتـــصوير المنـــزلي الثابت، كل هذا فوق سجادة بيضاء، لم تكن نظيفة مقارنة بما رأيناه من قـــبل من سجاد. كانت الجدران مغطاة بألواح الخشب الخفيف الفاتح اللون. وفي أقصى يسار الغـــرفة تـــوجد منـــضدة من الطراز الذي يتم عليه نقل المرضى بالمستشفيات، وهي تناسب المـــساج أو مـــا شـــابه ذلك. ولاحظت وجود مرآة ممتدة من فوق السرير وحتى السقف، أما الخـــزانة المفـــتوحة فأظهـــرت مجموعة من الملابس الداخلية النسائية التي تجعل تصميمات (فيكتوريا سيكريت) الجريئة تتوارى خجلاً. كما كان هناك زي ممرضة جميل ومهندم، مما لا أعـــتقد أن من الممكن أن ترتديه أي ممرضة في أي من المستشفيات، وهناك تنورة من الجلد الأسود وصديرية، رداء أحمر لا ترتديه سوى العاهرات، أما الأكثر إثارة للفضول وجود زي عسكري قتالي من النوع الذي كانت لترتديه وقت قيامها بالخدمة ساعة أن قتلت.

أمـــا (سينثيا) الطيبة القلب فكانت تحدق في ما هو حولها بالغرفة في إحباط، وكأنما قد خيبت (آن كامبيل) بعد موتها جميع توقعاتها. "يا إلهي...".

قلـــت لهـــا: "إن الكيفية التي لقت بها مصرعها مرتبطة بشدة بأسلوب حياتها، ولكن علينا ألا نستبق النتائج".

ولـــم يكن الحمام بدوره بالغ النظافة كنظيريه بالأعلى، وحوت خزانة الأدوية أشياء مـــن قبـــيل عـــوازل، وواقيات ذكرية، وإسفنجات مانعة للحمل، و... غير ذلك: فجميعها موانع للحمل تكفي سكان شبه القارة الهندية. سألتها: "أليس من المفروض أن تكتفي المرأة باستخدام وسيلة واحدة؟".

ردت (سينثيا) قائلة: "هذا يعتمد على مزاجها العام".

"فهمـــت". وهـــناك إلى جوار موانع الحمل يوجد غسول للفم، وفراش أسنان مختلفة الأنـــواع، ومعجـــون أسنان، وجهاز تنظيف للأمعاء الشرجية. وأنا لا أعتقد أن من يتبع

نظامها الغذائي سيعاني من أية مشكلات هضمية، إلا إذا كان لهذا استخدام آخر. "يا إلهي" رددت ذلـــك وأنا ألتقط زجاجة سائل حقن شرجي كانت تفوح منها رائحة الفراولة، وهي ليست رائحتي المفضلة على أية حال.

غـــادرت (سينثيا) الحمام، وألقيت نظرة على حوض الاستحمام. وكان غير نظيف، كما أن المثير أن المنشفة كانت لم تزل مبتلة.

عــدت إلـــى (سينثيا) في غرفة النوم، حيث كانت تفحص محتويات درج المنضدة المجاورة للفراش: ها هو كريم KY الشهير، وزيت معدني، كتيبات جنسية، وجهاز هزّاز، وغير ذلك من أدوات جنسية غريبة الأطوار.

وعلـــى الجـــدار الزائف الذي يفصل الغرفة عن القبو وجدنا مجموعة من الأصفاد الجلديـــة، وعلـــى الأرض حزام جلدي، وعصا، ومن الغريب - إن كان كل ما سبق ليس غـــريباً - أننا وجدنا ريشة نعامة طويلة على الأرض أيضاً. أخذ عقلي يقلب مخيلته بين خيالات أنا نفسي خجلت منها: "أتساءل عما تستخدم فيه هذه الأشياء؟".

لم تعلق (سينثيا)، إلا أنها بدت ترسم تصورات لتلك الأصفاد.

جـــذبت مفـــارش الفراش، وبدا غطاء الفراش مستعملاً. فعليه بقايا شعر بشري وغيـــر ذلـــك مـــن البقع والبقايا الكافية بأن ينشغل بها معمل التحليلات الجنائية لمدة أسبوع.

لاحظـــت أن (سينثيا) تمعن النظر في الغطاء فتساءلت عما قد تكون تفكر فيه الآن. وقاومـــت رغـــبة ملحة في أن أقول لها ساخراً: "لقد قلت لك هذا من قبل"، هذا لأني من ناحـــية كنت آمل في ألا نجد أي شيء، لأنني - كما بينت من قبل - كنت قد تعاطفت مع (آن كامبـــيل) وبينما لست أتصف بإطلاق الأحكام على عواهنها في المسائل الجنسية، إلا أن بوسعي تخيل أن الناس قد يكونون كذلك. قلت لها: "أتعلمين، لقد ارتحت حقيقةً لأنها لم تكن تلك الفتاة الباردة جنسياً كما تصورناها في الجيش".

رمقتني (سينثيا) بنوع من موافقتي الرأي.

قلـــت: "قـــد يجد الطبيب النفسي في مثل هذه الشخصية فرصة للدراسة المستفيضة. ولكنـــي أرى أن جميعـــنا يعـــيش حـــياته بجانبين أو أكثر". ولكن الحال لن يصل بنا إلى تخصيص غرفة بالكامل لمخيلاتنا الغريبة الأطوار. "ألم تكن طبيبة نفسية؟".

وهكـــذا انتقلـــنا إلـــى فحص التلفزيون، فاخترت شريطاً عشوائياً وأدخلته في جهاز الفيديو لعرضه.

أضـــاءت الـــشاشة لنرى (آن كامبيل) - مرتدية ذلك الزي الأحمر وحذاء عالي الكعـــب ومجوهـــرات - وهي تقف في نفس الغرفة. كان هناك ما يشبه العنوان لهذا

العـرض باسـم "استربتيز" ورأيناها تبدأ في خلع جميع أجزاء ملابسها. بينما سمعنا صـوت رجل – هو المصور فيما يبدو – يقول مازحاً: "هل تقومين بذلك في الحفلات التي يقيمها الجنرال؟".

ابتـسمت (آن كامبـيل) وهزّت ردفيها للكاميرا. لم تكن ترتدي الآن سوى سروالها الداخلي، وحمالة صدر فرنسية التصميم، وكانت تهم بخلعها حينما بادرت بإيقاف العرض، بدافع من الشعور ببعض المسؤولية.

تفحصت بقية الأشرطة فوجدتها لم تكن تختلف في عناوينها عن الأول، حيث تصف ممارسـات مخـتلفة قامـت بهـا مع أناس مختلفين... "ممارسة... مع..."، "تفتيش ذاتي لـ..."، "فحص..."، "ممارسة... مع...".

قالت (سينثيا): "أعتقد أننا قد رأينا كفايتنا الآن".

قلـت لهـا وأنـا أفتح الرف العلوي للخزانة "كدنا ننتهي"، وجدت كومة من صور الـبولارويد الفورية الفوتوغرافية، ظننت أنني سأجد صوراً لأصحابها، فقلبتها سريعاً، إلا أنها كانت جميعاً لها في أوضاع جنسية مختلفة. "أين ذهب الرجال إذن؟".

"كانوا خلف الكاميرا".

"كلامك صحيح...". إلا أنني وجدت بين كومة من الصور الأخرى لقطة لرجل عارٍ قـوي البنـيان يمـسك حـزاماً، إلا أنـه يـرتدي غطـاء رأس جلدي أسود. ثم لقطة أخـرى..........، فإما أنها التقطت ذاتياً أو أن هناك من التقطها لهما، وثالثة لرجل عارٍ ومقـيد فـي الأصفاد الجلدية، وظهره للكاميرا. والحقيقة أن جميع الرجال في الصور – وكانـوا اثني عشر رجلاً على الأقل – كانوا إما يواجهون الكاميرا بظهورهم أو يغطون وجوههم بغطاء رأس جلدي. فمن الواضح أنهم مصرون على عدم الكشف عن هويتهم أو أن تمـتلك آن صوراً لهم. فأغلب الرجال يتصفون بالحذر تجاه مثل هذه الصور، خاصة حينما يكون لديهم ما يخشون أن يخسروه. فلا ضير من الحب والثقة، إلا أن ما يحدث هنا دافعـه الأساسـي فيما أرى هو الشهوة والجنس فقط، كما أنها لو امتلكت صديقاً فعلاً لما كانت لتجلبه إلى هنا. وهذا واضح.

كانـت (سـينثيا) تطالع الصور هي أيضاً، إلا أنها كانت تحملها وكأنما هي مصدر ناقل للعدوى الجنسية..

سـايرتني (سينثيا) معلقة: "سيكون تصنيفاً مثيراً". ثم ألقت الصور إلى داخل الدرج من جديد. "ربما كان من الأفضل ألا يرى أفراد الشرطة العسكرية هذه الغرفة".

"بالطبع. آمل ألا يجدوها".

"هيا بنا إذن".

"انتظــري لحظــة". فــتحت الأدراج الثلاثة السفلية، لأجد المزيد من هذه الألعاب الجنــسية البلاســتيكية، بالإضــافة إلى سراويل داخلية، وأحزمة، وأربطة جلدية للإثارة الجنــسية، وغيــر ذلك من الأشياء التي أقسم بأني لم أستطع أن أميز ما هي أو ما الذي تــستخدم لأجله. وللحق فقد كنت مرتبكاً وأنا أتفحص هذه الأشياء أمام الآنسة (صنهيل)، وربما ارتابت فيَّ الآن، فقد قالت: "هل تبقى شيئاً لم نره؟".

"الحبل".

"الحبل؟.. أوه..".

وها هو ذا: حبل من النايلون، ملفوف أسفل الدرج. التقطته وأخذت أفحصه.

قالت لي: "أهو من نفس النوع؟".

"محــتمل، فهــو يــبدو شبيهاً بذلك الحبل في موقع الجريمة - حبل خيام عسكرية أخضر، ورغم أن هذا ليس بالدليل القوي، إلا أنه يظل خيطاً قوياً في القضية". نظرت إلى الفــراش، والــذي كــان مــن الطراز القديم ذي القوائم الأربعة، مما يجعله مناسباً لربط الأطــراف إليه. إنني لست خبيراً في تلك الخيالات الجنسية المنحرفة فيما عدا ما تعلمناه فــي إدارة التحقيقات العسكرية، إلا أنني أعلم أن عملية الربط هذه تنطوي على مخاطرة. أي أن فــتاة قــوية مــثل (آن كامبيل) بوسعها أن تدافع عن نفسها لو خرجت الأمور عن الــنحو الــذي تتوقعه. ولكنك لو كنت مشدوداً إلى الفراش أو الأرض مع ربط المعصمين والقدمــين إلى شيء ثابت، فإن من الأفضل أن تكون وثيق المعرفة بالشخص الآخر، وإلا يمكن أن يحدث ما يسوء. تماماً كما هو الحال في قضيتنا.

أطفأت الأنوار وغادرنا المكان. أعادت (سينثيا) الصورة إلى مكانها. ووجدت أنبوب لاصــق للخشب على المنضدة، فقمت بلصق البرواز الخشبي به. وأعتقد أن هذا كافياً، ما لم ينتبه أحد إلى مثل ما انتبهت إليه من تفاوت مساحة الأرضية. قلت لسينثيا: "إلى أي حد يصل ذكاء أفراد الشرطة العسكرية؟".

"الأمر يتعلق بالإدراك الحسي للفراغ وليس بالذكاء في المقام الأول. ولو لم يتبينوه، فقــد تتبيــنه الــشرطة حينما يصلون إلى هنا" ثم أضافت: "قد يرغب أحدهم في الاحتفاظ بالصورة. فإما أن نطلب من أفراد الشرطة العسكرية أن يفرغوا الغرفة لنقلها لأجل معمل البحث الجنائي، أو أن نتعاون مع الشرطة المدنية قبل أن يصلوا إلى هذه الغرفة".

"أرى أن نــتجاهل هذين الاحتمالين، وأن نعتمد على حظنا في ألا يكشف أحد سرنا الصغير. ما رأيك؟".

أومأت قائلةً: "حسناً يا (بول) ربما كان حدسك قوياً في هذا الصدد".

صعدنا عبر سلم القبو، وأطفأنا الأنوار، ثم أغلقنا الباب.

وعـــند الـــردهة الأمامـــية قالـــت لي (سينثيا): "أعتقد أن حدسك كان سليماً بالنسبة لشخصية (آن كامبيل)".

"لقـــد اعـــتقدت بأننا سنكون محظوظين لو وجدنا مفكرة شخصية مع بعض رسائل الحب الملتهبة. لكنني لم أتوقع أن نضع يدنا على باب سري يفضي إلى غرفة تعد نموذجاً يحتذى لمدام بوفاري والماركيز دي ساد" واستطردت قائلاً: "إلا أنني أعتقد أن كل شخص يحـــتاج إلى مساحة خصوصية في منـــزله. فعندها سيكون العالم أفضل حالاً لو كان لكل إنسان غرفة يخصصها لشطحات خياله".

"هذا يعتمد على نوع الخيال".

"بالتأكيد".

غادرنـــا مـــن الباب الأمامي، لنستقل سيارة (سينثيا) الموستانج، عائدين عبر طريق فيكتوري، مارين على قافلة من عربات الجيش المغادرة ونحن نقترب من القاعدة.

وبيـــنما كانـــت (سينثيا) تقود السيارة كنت أتطلع عبر النافذة الجانبية، مستغرقاً في أفكـــاري. كم من الأشياء الغريبة موجودة في الجانب الآخر من الصورة المترسخة لتلك الجـــندية المتحمسة. بدا الأمر بالنسبة لي رمزاً مجازياً للقضية ككل: فأنت أمام العسكرية النظامـــية بكـــل ما فيها من حسن هندام ونظام وشرف وسمعة طيبة، ولكن ما أن تغوص قلـــيلاً في خباياها، وتقصد المدخل السليم حتى تجد أمامك فساداً متأصلاً وعميقاً يصل بك حتى فراش (آن كامبيل).

الفصل السابع

رغم أن (سينثيا) كانت هي التي تقود السيارة إلا أنها كانت مستغرقة تماماً في فحص المفكرة الخاصة بآن كامبيل. فقلت لها: "أعطني إياها".

فرمتها في حنق ناحيتي بشكل عدواني واضح.

قلبت صفحات المفكرة. إنها كانت من النوع الفخم غالي الثمن، والكتابة فيها بخط يد منمق. كانت الصفحات مليئة بالأسماء والأرقام، وعدد كبير منها مشطوب عليه، لتعاد كتابته من جديد حسب تغير المعلومات الخاصة به، كالعناوين أو المنطقة التي يخدم بها عسكرياً، وكذلك الأزواج والزوجات، والبلدان، وبالطبع من فارق منهم هذه الحياة. ولقد وجدت أنها مفكرة عناوين مثالية بالنسبة لشخص عسكري جم النشاط مثلها، حيث تغطي سنوات خدمتها والبلدان التي خدمت بها، وفي حين أني أعلم بأنها ليست في الأغلب المفكرة الأساسية التي نبحث عنها وليست المفكرة الصغيرة السوداء التي لم نجدها بعد، إلا أنني لا زلت متيقناً من أننا سنخرج من هذه بشخص يعرف شيئاً ما. مع أن استجواب جميع من بها سيتطلب وقتاً طويلاً جداً. فمن الواضح أنه سيتوجب عليَّ أن أسلم هذه المفكرة إلى الإدارة في (فولز تشيرش) بفيرجينيا، حيث سيتولى أمر التوصل إلى كل شخص فيها الكولونيل (كارل جوستاف هيلمان) حتى لو تطلب ذلك البحث عبر العالم كله. وربما يحلو له أن يستغرق في البحث فيها فينشغل عن قضيتي بعض الوقت.

وبمناسبة الحديث عن رئيسي في العمل الكولونيل (كارل هيلمان)، أقول إنه كان في الأصل مواطناً ألمانياً يعيش بالقرب من منطقة عسكرية أميركية في (فرانكفورت)، ومثله مثل غيره من الأطفال الجائعين الذين دمرت الحرب عائلاتهم، فإنه قد نجح في التواصل مع القوات الأميركية هناك حتى التحق في النهاية بالجيش الأميركي لأجل أن يدعم عائلته. فقد كان هناك عدد كبير من الألمان الأميركيين داخل القوات المسلحة في ذلك الوقت، والعديد منهم وصل إلى رتبة ضابط، وبعضهم لا يزال يشغل مناصب عسكرية رفيعة. وهم في المجمل ضباط ممتازون، وقد أفادوا الجيش كثيراً. أما من كان يعمل تحت إمرتهم فلم يكن ممن يوصف بحسن الحظ. ولكني مللت الشكوى. فكارل ضابط كفوء ومخلص وذو ولاء صادق. أما خطأه الوحيد فكان حينما ظن أني أحبه. كم أنت مخطئ في هذا يا كارل. إلا أنني أحترمه، وأثق فيه جداً.

مـــن الواضـــح أن قضيتنا هذه تحتاج إلى خيط يوصلنا إلى نهايتها بسرعة، قبل أن تـــؤدي إلـــى تدمير الحياة المهنية وسمعة كثيرين ممن وجدنا أنهم مرتبطون بها. فالجندي يلقـــى التـــشجيع على أن يمارس القتل في ساحات المعارك، أما أن يقتل وهو في الخدمة بالوطن فإن هذا أشد إهانة للنظام والشرف العسكري. وهذا أمر يثير الكثير من التساؤلات حـــول ذلك الخيط الرفيع بين مهام الجندي في وقت الحرب ومهامه في وقت السلم، حيث إن الجـــندي المثالي هو من يبدي دوماً الاحترام للرتبة العسكرية والنوع البشري والسن. هكذا مكتوب في دليل الجندي المثالي!

فأقصى ما آمله في هذه القضية هو أن تكون الجريمة قد ارتكبت على يد مدني ذي ســـجل إجرامي طويل. أما أسوأ تخيلاتي فهو أن يصح جميع ما راود عقلي منذ أن بدأت هذه القضية.

قالت (سينثيا) منوهة إلى المفكرة: "إن لديها الكثير من الأصدقاء والمعارف".

"ألست أنت أيضاً هكذا؟".

"ليس في مجال العمل".

"هـــذا صحيح". الحقيقة أن كلينا بعيد عن الالتزام بالخط العسكري الصرف، لذا فإن عدد أصدقائنا وزملائنا قليل. فهذا طبع أفراد الشرطة في العالم كله، فهم يبقون على دائرة ضـــيقة مـــن الأصدقاء، وحينما تكون من المباحث العسكرية وتؤدي مهام قصيرة الأجل، فإنـــك لا تكـــوّن صـــداقات كثيرة، كما أن العلاقة مع الجنس الآخر تتصف بقصر العمر والتوتر، فهي أشبه بالمهمة المؤقتة ذاتها.

تـــبعد (ميدلاند) ستة أميال عن (فورت هادلي)، ولكن البلدة قد تنامت تجاه الجنوب علـــى امـــتداد طـــريق فيكـــتوري، فهناك الكثير من المتاجر، والوحدات السكنية، وتجار السيارات، بحيث أصبح المدخل الرئيسي أشبه ببوابة (براندين بيرج)، يفصل بين فوضى المنطقة التجارية وبين بقية البلدة.

ســـمحت الـــشرطة العسكرية بدخول سيارة (سينثيا) الموستانج - والتي لاحظت أن علـــيها ملصق "زائر" - وخلال بضع دقائق كنا في وسط القاعدة، حيث المرور ومواقف السيارات في حال أفضل قليلاً من تلك التي كانت في وسط بلدة ميدلاند.

تـــوقفت بالـــسيارة عـــند مكتب مبنى قيادة الشرطة العسكرية، وهو مبنى قديم من القـــرميد يعـــد مـــن أوائل المباني التي بنيت في هذه القاعدة، حينما كانت تسمى بمعسكر هادلـــي خـــلال الحرب العالمية الأولى. فالقواعد العسكرية لا تختلف عن المدن في كون إنـــشاؤها يـــبدأ بالمبانـــي الأساسية، ثم يتبع ذلك الأماكن السكنية، والسجن، والمستشفى، والكنيسة، مع اختلاف الترتيب السابق من حالة لأخرى.

كنا نتوقع أن يكون في انتظارنا أحد، إلا أننا انتظرنا بعض الوقت ونحن بملابسنا هذه - جندي برتبة رقيب وإحدى المدنيات - أن يتعطف ويدخلنا إلى مكتب جلالته. لم أكن راضياً عن أداء (كينت) في القضية وافتقاره إلى سرعة البديهة حتى الآن. فعندما التحقت بأكاديمية القيادة علمونا أن الافتقار إلى التخطيط المسبق ينتج عنه ضعف عام في الأداء. أما الآن فهم يقولون إن عليك أن تأخذ أنت زمام المبادرة، لا أن تكتفي برد الفعل. ولميزة أني درست وفقاً للمدرسة القديمة في الأداء، فكنت أعلم ما يقصدونه بمفهوم زمام المبادرة. قلت لكينت - بمكتبه -: "هل أنت مسيطر على هذه القضية يا كولونيل؟".

"بصراحة... لا".

كينت أيضاً من المدرسة القديمة، وأنا أحترم فيه هذا. فسألته:

"والسبب؟".

"لأنك تديرها بطريقتك، وأكتفي أنا بتقديم الخدمة والمدد اللوجيستي".

"قم بإدارتها أنت إذن".

"لا تحاول أن تربكني يا (بول)".

وهكذا دخلنا في نقاش امتد دقيقة أو دقيقتين بين شرطي عسكري بزيه الصريح وآخر متنكر في غير شخصيته.

استمعت (سينثيا) لنا في صبر، ثم قالت: "كولونيل (كينت)، سيد (برينير)، أود أن ألفت نظركما إلى أن هناك سيدة مقتولة ترقد في ساحة الرماية. قتلت وربما اغتصبت. والمجرم لا يزال هارباً".

كان هذا كافياً ليصمت كلانا في حنق.

قال لي (كينت): "سوف أذهب إلى مكتب الجنرال (كامبيل) في غضون خمس دقائق بصحبة القس وضابط من الوحدة الطبية. كما قمت بتحويل المكالمات التي سترد إلى هاتف المجني عليها ليتم تلقيها في (جوردان فيلد)، كما أن البحث الجنائي لم ينهِ عمله بعد بموقع الجريمة. وها هي الملفات الطبية والشخصية للنقيب (كامبيل). ملف علاج الأسنان مع المأمور المكلف بالتحقيق الجنائي داخل القاعدة، وهو يريد ملفها الطبي أيضاً، لذا أريدك أن تعيده إليّ".

"قم بنسخه، وأنا مسؤول عن هذا".

كادت هذه العبارة تثير الجدل بيننا من جديد، إلا أن حمامة السلام - الآنسة (صنهيل) - تدخلت ثانيةً لتقول: "سوف أنسخ أنا هذا الملف اللعين".

كان هذا كفيلاً بأن نعود إلى تناول القضية بجدية، حيث أدخلنا (كينت) حجرة التحقيقات - والتي تسمى الآن في داخل الجيش بحجرة المقابلة الشخصية - وسألنا: "من تودان لقاءه أولاً؟".

قلت: "الرقيب (ساينت جون)". للرتبة ميزتها أحياناً!.

وهكذا أدخل الرقيب (هارولد ساينت جون) إلى الحجرة، فأشرت إليه أن يجلس على مقعـد مقابـل لنا حول منضدة صغيرة. قدمت له أنفسنا: "هذه الآنسة (صنهيل) وأنا السيد (برينير)".

لمـح اسـمي المكتوب على الزي العسكري - (وايت) - وأشرطة الرتبة الخاصة بالرقيب، ولم يفهم الأمر في البداية، قبل أن يبادر بالقول: "أوه... التحقيقات العسكرية".

تابعت كلامي قائلاً: "هذا لا يهم... فأنت لست متهماً في القضية التي نحقق فيها، لذا لن أقرأ عليك حقوقك التي كفلتها المادة رقم 31 بميثاق العدالة العسكرية. لذا أنت مطالب بأن تجيب عن جميع الأسئلة بصراحة وصدق. وبالطبع فإن تعاونك الطوعي معنا سيكون أفـضل من الأمر المباشر. ولو حدث خلال هذا الحوار أن قلت شيئاً نعتقد فيه أنه يجعل منك متهماً، فإني عندها سأتلو عليك حقوقك، وسيكون لديك الحق في عدم الكلام حينها... هل فهمتني؟".

"أجل سيدي".

"جـيد". تبادلنا الحوار حول أمور لا أهمية لها طيلة خمس دقائق انتهزتها لأسبر غـور هـذا الرجل الأصلع الذي يناهز الخامسة والخمسين عاماً، ذي القسمات القاتمة التـي أظن أنها نتاج تعاطي الكثير من الكافيين والنيكوتين والشراب المفضل. وربما كـان طول الفترة التي قضاها في وحدة المحركات سبباً في أن ينظر إلى الدنيا على أنهـا مشكلة صيانة يكمن حلها في جزء ما من "دليل الصيانة". وقد لا يكون قد خطر بـباله أن هناك من هم بحاجة إلى أكثر من مجرد تغيير الزيت أو إعادة ضبط زوايا لكي يعودوا إلى المسار السليم.

كانـت (سينثيا) تدون بعض الملحوظات بينما يتحدث (ساينت جون)، وأثناء كلامي المتودد فوجئت به ينفعل قائلاً: "اسمع يا سيدي، أعلم أني كنت آخر شخص رآها على قيد الحـياة، وأعلـم أن هذا لا يعني شيئاً في القضية، لكني إن كنت قد قتلتها، فلم أكن لأبادر بالإبلاغ عن أني قد وجدتها مقتولة. أليس كذلك؟".

بدا منطقه مقبولاً. فقلت له: "إن آخر من رآها حية هو الشخص الذي قتلها. كما أن الـشخص الذي قتلها هو أول من رآها مقتولة. فأنت إذن ثاني شخص يراها مقتولة. أليس هذا صحيحاً؟".

"أجل.. معك حق يا سيدي... ولكن ما قصدته هو أن...".

"أيها الرقيب، أود أن ألفت نظرك إلى أن عليك ألا تستبق الأسئلة. رجاءً. اتفقنا؟".

"أجل سيدي".

قالت زميلتي الرقيقة: "أيها الرقيب، أعلم أن هذا مرهق جداً لك، كما أن اكتشافك لجريمة مثل هذه تجربة مؤلمة، حتى في سنك الكبيرة هذه - هل سبق وخضت حروباً من قبل؟".

"أجل سيدتي. كنت في فيتنام، ورأيت الكثير من القتلى، ولكن لا شيء يماثل ما رأيت في هذه الجريمة".

"إذن فأنت لم تصدق عينيك حينما اكتشفت الجثة، أليس كذلك؟".

أومأ متشجعاً: "لم يسعني هذا، لم أصدق عينيَّ. بل لم أفكر للحظة في أن تكون الجثة لآن التي أعرفها. فلم أتعرف عليها في البداية لأني... لم أرها أبداً أبداً على هذه الحال... بحق الإله، إنني لم أرَ من قبل جثة على هذه الوضعية. إن البدر كان مكتملاً في الليلة الماضية، ورأيت السيارة الجيب، فخرجت من سيارتي، وفي طريقي إليها رأيت.. ذلك الشيء مسجى على أرض ساحة الرماية، فاقتربت أكثر، وعندها أيقنت أنها هي، فهرعت نحوها لأتبين ما إذا كانت على قيد الحياة أم لا".

"هل جثمت بجوار الجثة؟".

"كلا بالطبع يا سيدتي، فقد هرعت بعيداً عن المكان، ودخلت سيارتي، متجهاً بأقصى سرعة إلى مكتب القائد".

"هل كنت متأكداً من وفاتها؟".

"بكل تأكيد".

"متى غادرت مقر الخدمة؟".

"في حوالى الساعة 4:00".

"كم كانت الساعة حينما وجدت الجثة؟".

"لا بد من أن هذا كان بعد مرور عشرين أو ثلاثين دقيقة من مغادرتي المكتب".

"وهل توقفت عند نقاط الحراسة الأخرى؟".

"بعضها. ولم يرَها أحد. وعندها قلت لنفسي ربما تكون قد اتجهت مباشرةً إلى آخر نقاط الحراسة لتبدأ بها. وهكذا تجاهلت بعض نقاط الحراسة متجهاً إلى هناك مباشرةً".

"ألم يخطر ببالك أنها قد لا تكون قصدت نقاط الحراسة من الأصل؟".

"كلا".

"فكر من جديد أيها الرقيب".

"لم تكن من هذه النوعية. ولكن قد يكون هذا قد خطر ببالي. وأتذكر أني فكرت في أنها قد تكون قد ضلت الطريق بين الثكنات. وهو أمر محتمل ليلاً".

"هل فكرت في أنها قد تتعرض لحادث بسيارتها؟".

"فكرت في ذلك يا سيدتي".

"لذا فحينما وجدتها لم يكن الأمر مفاجئاً تماماً لك، أليس كذلك؟".

كـــان يبحث في جيوبه عن سيجارة وهو يرد: "ربما لم أكن متفاجئاً تماماً... هل من المسموح أن أدخن؟".

"بالتأكيد. ولكن لا تخرج الدخان".

ابتـــسم لدعابتـــي وأشـــعل واحدة، ونفث دخانها بعيداً عنا، معتذراً للآنسة (صنهيل) لكـــونه قـــد لـــوث هواء المكان. ربما كان أكثر ما يميز العادات القديمة للجيش هي تلك الـــسجائر الرخيصة، التي كانت تغلف كل مكان بسحابة زرقاء، فيما عدا مخازن الذخيرة والوقود.

تركته يستمتع بسيجارته قليلاً، قبل أن أسأله: "هل خطر ببالك أثناء بحثك عنها أنها قد تكون تعرضت للاغتصاب؟".

أومأ بالإيجاب.

قلت: "إنني لا أعرفها. هل كانت جميلة؟".

نظر إلى (سينثيا) ثم إليّ قائلاً: "كانت غاية في الجمال".

"أهي من النوع الذي يمكن أن نصفه بأنه فريسة لأي مغتصب؟".

لم يكن راغباً في الاستفاضة في هذا الموضوع، إلا أنه ردّ قائلاً: "لم تكن تسمح لمن تـــتعامل معـــه بأن يفكر في مثل هذه الأمور. وكل ما عرفته عنها يثبت أنها سيدة حسنة السمعة. فهي ابنة الجنرال".

ســـيعلم (هـــاري) إن عـــاجلاً أو آجلاً بأنها كانت نقيض كل هذا، إلا أن من المثير للانتباه أن هناك إجماع على أنها سيدة غاية في الذوق والاحترام.

أضـــاف (ســـاينت جون) قائلاً: "على بعض السيدات من مهن معينة، كالممرضات مثلاً... أن... تعلمون مقصدي... أليس كذلك؟".

كنت أشعر أن مجرى الحديث لم يعد يروق (سينثيا) الجالسة إلى جواري. ولو كنت جريئاً لقلت له أن سيدات إدارة التحقيقات العسكرية أسوأ مما يظنه عن تلك النسوة. إلا أنه يكفينـــي أني نجوت من حرب فيتنام، فلا داعي لأن أجلب المتاعب لنفسي. لنعد الآن إلى الجـــد. ســـألته: "بعد أن وجدت الجثة، لماذا لم تتجه إلى أقرب نقطة حراسة، حيث كانت (روبينـــز) هناك، لكي تستخدم الهاتف؟".

"لم أفكر أبداً في هذا".

"ولم تفكر في أن تطلب من (روبينــز) أن تحرس موقع الجريمة؟".

"كلا يا سيدي. لقد كنت مرتبكاً فعلاً وقتها".

"ما الذي دفعك من الأساس إلى أن تخرج لتبحث عن النقيب (كامبيل)؟".

"كانت قد خرجت منذ فترة طويلة، ولم أكن أعلم مكانها تحديداً".

سألته: "هل من المعتاد أن تبحث عن رؤسائك؟".

"كلا يا سيدي. إلا أنني أحسست أن هناك خطباً ما".

لم يكن عليَّ أن أفوت هذه الفرصة. "والسبب؟".

"لقد... لقد كانت.. متوترة... متوترة طيلة تلك الليلة...".

هنا جاء دور (سينثيا). "هل يمكن أن تصف لنا سلوكها ليلتها؟".

"أجل... حسناً.. كما قلت فقد كانت متوترة. لم تكن في مزاجها الطبيعي. ربما كانت قلقة لأجل أمر ما".

"هل كنت تعرفها من قبل تلك الليلة؟".

"أجــل.. ليــست تلك المعرفة القوية. إلا أنني كنت أعرفها كما يعرفها الجميع. فهي ابنة الجنرال. كما كانت تقدم فقرة دعائية عسكرية تعرض على شاشات التلفزيون".

سألته: "هل سبق لك أن تحدثت معها قبل تلك الليلة؟".

"كلا سيدي".

"هل سبق لك أن رأيتها خلال الخدمة؟".

"أجل سيدي".

"وخارج فترات الخدمة؟".

"كلا سيدي".

"إذن فأنت لا تستطيع أن تقارن بين سلوكها الطبيعي وسلوكها خلال تلك الليلة؟".

"كلا لا أستطيع يا سيدي. إلا أن بوسعي أن أميز الشخص القلق من غيره" ثم أضاف بما بدا لي أنها لحظة إلهام حلت عليه: "بوسعي أن أقول بأنها رابطة الجأش في المعتاد، وذلك من أســلوب ممارستها لعملها تلك الليلة، فقد كانت تمارسه ببرودة أعصاب وبكفاءة، إلا أنها كانت تصمت بين الحين والآخر بطريقة جعلتني أتيقن من أن هناك شيء ما يدور في عقلها".

"هل علقت لها بما أحسست به؟".

"كــلا يا سيدي. لم يكن بوسعي أن أقوم بهذا وإلا كانت عنفتني بشدة". كان قد ألحق العبارة السابقة ببعض الألفاظ التي لا يصح ذكرها هنا ولكنه ابتسم في حياء من (سينثيا)، ليكشف عن أسنان تنم عن ما عاناه طيلة عقدين من رعاية أطباء الأسنان العسكريين.

"تحــدث بحــرية ولا تخجل" كانت (سينثيا) تبادله ابتسامة كشفت عن أسنان تنم عن مدى التقدم والتحضر الذي أصبحت الأسنان تعامل به لدى الأطباء المدنيين.

وفي الحقيقة فقد كانت (سينثيا) على حق. فقرابة نصف هذا النمط من العسكريين لا يمكــنه أن يتحدث من دون اللجوء للسباب والألفاظ المنحطة والشتائم الأجنبية، مع لهجة جنوبية علقت بالمكان رغم أن المتحدث قد لا يكون منتمياً له.

سألته (سينثيا): "هل أجرت أو تلقت أية مكالمات هاتفية خلال الليلة؟".

يا له من سؤال ذكي!، إلا أنني كنت أعرف الإجابة حتى قبل أن يرد (ساينت جون) قائلاً: "لم تجرِ أية مكالمات هاتفية أثناء ما كنت بالحجرة. ولكن قد يكون هذا حدث خلال فتــرات غيابــي عــن الحجرة. ومع هذا فقد تلقت مكالمة، وعندها طلبت مني أن أغادر الحجرة".

"كم كانت الساعة وقت تلك المكالمة؟".

"آه.. حوالى... أظن أنها كانت قبل أن تغادر المكان بعشر دقائق".

سألته: "هل تبادر إلى سمعك شيء من تلك المكالمة؟".

هزّ رأسه بصدق وهو يقول: "كلا سيدي".

"حسناً.. أخبرني أيها الرقيب. إلى أي مدى اقتربت من الجثة؟".

"بضعة أقدام..".

"فكيف عرفت أنها ماتت؟".

"لقــد.. خمــنت أنهــا قــد ماتــت... فقد كانت عيناها مفتوحتين.. كما أنني ناديت عليها...".

"هل كان معك سلاح؟".

"كلا سيدي".

"أليس من المفترض أن تحمل سلاحاً أثناء الخدمة؟".

"أعتقد أني نسيت أن أجلبه معي".

"فقد رأيت الجثة إذن، ثم خمنت أنها ماتت، ثم فارقت المكان بأسرع ما أمكنك".

"أجل سيدي... أظن الآن أنه كان عليَّ أن أتفحصها عن قرب".

"أيهــا الرقيب... هل تريد أن تقنعني بأنك وجدت امرأة عارية جاثمة على الأرض بالقــرب مــنك، وهــي فــي نفس الوقت تفوقك رتبة، وتعرفها، ومع هذا فلم تبادر حتى بالاقتراب منها بحيث تتأكد من أنها ماتت أو لم تزل حية؟!".

وكزتني (سينثيا) بخفة من أسفل المنضدة.

بعـد أن رسمت أمامه صورة الشرطي السيئ، كان عليَّ أن أخلي الساحة للشرطي الطـيب. لذا نهضت قائلاً: "واصلي التحقيق معه. قد أعود لاحقاً". غادرت الحجرة متجهاً إلـى زنـزانة الحجز، حيث وجدت (روبينـز) ممددة على فراش صغير، مرتدية زيها العـسكري، لكـنها حافـية القدمـين. كانت تقرأ الجريدة الخاصة بالقاعدة، وهي إصدار أسـبوعي لإدارة العلاقـات العامة والاستعلامات، وتتناول في العادة منجزات الجيش مع أخـبار مـصطنعة أخرى، مما حدا بي إلى أن أتساءل عن الأسلوب الذي ستتعامل به مع أنـباء جـريمة الاغتـصاب والقتل هذه وبالأخص أن الضحية هي ابنة قائد القاعدة. هل سيكون العنوان هو: "جثة امرأة مجهولة في ساحة الرماية".

فـتحت باب الزنـزانة ودخلتها. حدقت فيَّ (روبينـز) للحظة ثم وضعت الجريدة جانباً ونهضت تجاه الجدار.

قـدمت لها نفسي: "صباح الخير. اسمي (برينير)... من إدارة التحقيقات العسكرية. أودّ أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة بخصوص الليلة الماضية".

تطلعت فيّ ثم قالت: "الاسم على زيك العسكري هو (وايت)".

قلت لها في سخرية: "هذا الزي الخاص بعمتي" ثم جلست على مقعد بلاستيكي وأنا أتابـع: "أنـتِ لست متهمة في هذه القضية..." ها أنذا أعيد نفس الكلام. ولكنها لم تبدِ أي انفعال.

بـدأت أتحـاور معها، ولم تكن ترد سوى بكلمة واحدة فقط في كل مرة. كانت في العقـد الثاني من عمرها، ذات شعر أشقر قصير، ومظهر جذّاب، وعينين يقظتين، بالنظر إلـى الوقت الذي قضته هنا. كانت ذات لهجة جنوبية أصيلة، تنم عن أن موطنها لا يبعد كثيـراً عن هنا، كما تنم عن وضاعة مكانتها الاجتماعية قبل أن تلتحق بالجيش. أما الآن فهي لا تقل في شيء عن أي ممن هن في مثل رتبتها.

بدأت سلسلة الأسئلة بقولي: "هل رأيتِ النقيب (كامبيل) في تلك الليلة؟".

"لقـد حـضرت إلـى مركز الحراسة حوالى الساعة 22:00. وتحدثت إلى ضابط الحرس".

"هل تعرفتِ عليها بوصفها النقيب (كامبيل)؟".

"الكل يعرف مَن هي النقيب (كامبيل)".

"هل رأيتها بعد ذلك في نفس الليلة؟".

"كلا".

"ألم تحضر إلى نقطة الحراسة خاصتك؟".

"كلا".

"ما الوقت الذي استلمتِ فيه مهام الحراسة عند مخزن الذخيرة؟".

"الساعة 1:00، على أن تنتهي الخدمة في الساعة 5:30".

"وهل مرّ أحد على نقطتك فيما بين وقت استلام الخدمة ووقت وصول أفراد الشرطة العسكرية؟".

"كلا".

"هل سمعتِ شيئاً غير طبيعي؟".

"أجل".

"ما هو؟".

"زعقة بومة. والبوم نادر في هذه المنطقة".

"حسناً... هل رأيتِ شيئاً غير معتادٍ؟".

"رأيت أضواء مصابيح كاشفة".

"أية أضواء كاشفة؟".

"ربما كان مصدرها السيارة الجيب التي أتت بها".

"كم كانت الساعة؟".

"في الساعة 2:17".

"صفي لي ما رأيتِ".

"رأيت تلك الأضواء. توقفت على مقربة من نقطتي. ثم انطفأت".

"هل انطفأت بعد أن توقفت السيارة مباشرةً، أم بعد هذا بقليل؟".

"بعدها مباشرةً. فقد كانت الأضواء تتراقص بفعل سير العربة، ثم ثبتت، بعدها انطفأت".

"وما الذي فكرتِ فيه وقتها؟".

"ظننت أن أحداً آتٍ إليَّ".

"ولكنه توقف".

"أجل، ولم أكن أفهم ذلك وقتها".

"ألم تفكري في الإبلاغ عما يحدث؟".

"بلى. وقمت بالإبلاغ عن هذا هاتفياً".

"من هو الذي أبلغتيه؟".

"الرقيب (هاييز). رقيب الحرس".

"وماذا قال لك؟".

"أخبرني بأن ليس هناك ما يخشى سرقته في تلك المنطقة، عدا مخزن الذخيرة الذي أحرسه. فأمرني بأن أبقى في موضعي".

"وهل رددت عليه؟".

"أخبرته بأن هناك ما يجعلني أشك فيما يحدث".

"وبماذا أجابك؟".

"قــال إن هناك دورات مياه بالقرب من منطقتي. وربما توقف ذلك الشخص ليقضي حاجته. وقد يكون هذا الشخص أحد الضباط، ثم أمرني بأن أبقى على انتباهي" ترددت ثم تابعــت كلامها قائلةً: "لقد أخبرني بأن البعض يذهب إلى تلك المنطقة خلال ليالي الصيف ليمارس شيئاً ما. هذا ما قاله حرفياً".

"هذا أمر بديهي".

"إنني لم أحب استخدامه لهذه الكلمات".

"ولا أنــا أيــضاً". أمعنت النظر فيها للحظات. كانت مجندة عادية صريحة: نموذج للــشاهد الــذي يتمتع بحسن الملاحظة، إما بالطبع أو التطبع. إلا أنه من الواضح أنها لم تــرتح إلــيَّ، لذا فهي تخفي عني شيئاً ما. قلت لها: "اسمعيني جيداً أيتها المجندة... أنت تعلمين طبعاً بما حل بالنقيب (كامبيل)، أليس كذلك؟".

أومأت بالعلم.

"لقد توليت مهمة القبض على القاتل".

"لقد سمعت بأنها اغتصبت أيضاً".

"محتمل. لذا أحتاج منك إلى أن تصاريحيني، وأن تبوحي لي بأشياء لم أسأل عنها. أخبريني عن... عن مشاعرك وانطباعاتك عما حدث".

بدا على وجهها التأثر، وعضت على شفتها السفلى، ودمعت عينها اليمنى. وقالت: "كان علــيَّ الــذهاب لأتحقق مما يجري. كان يمكن أن أمنع حدوثه. ذلك الرقيب الغبي (هاييز)..." انتحــبت في هدوء لمدة دقيقة أو دقيقتين، بقيت خلالها أحدق في حذائي. وفي النهاية قلت لها: "كانت الأوامر هي أن تبقي في موقعك حتى إشعار آخر. فقد أطعت الأوامر".

اســتعادت السيطرة على نفسها وقالت: "أجل، ولكن كل ذو عقل سليم مكاني لم يكن ليتوانــى عن حمل سلاحه والذهاب للتحقق مما يجري. أما أنا فوقفت في مكاني كالبلهاء، وكنت خائفة من أن أتصل مجدداً. ثم رأيت الأضواء الأخرى تقترب وتتوقف، ثم سرعان ما استدارت تلك السيارة بكل سرعة وانطلقت عبر الطريق كالصاروخ، وحينئذٍ تيقنت من أن خطب ما قد وقع".

"كم كان الوقت ساعتها؟".

"في الساعة 4:25".

وهو ما يتطابق مع الوقت الذي ذكره (ساينت جون) حينما وجد الجثة. سألتها: "ولم تري أية أضواء بين الساعة 2:17 و4:25؟".

"كلا، لكنني رأيت أضواء سيارة بعد ذلك. في الساعة 5:00. كانوا أفراد الشرطة العسكرية الذين وجدوا الجثة. وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى أتاني فرد من الشرطة العسكرية وأخبرني بما حدث".

"هل كان بوسعك أن تسمعي صوت أي من تلك السيارات من على البعد؟".

"كلا".

"هل سمعت صوت فتح وغلق أبوابها؟".

"لو كانت الريح في اتجاهي لكان يمكن أن أسمعها، إلا أنها كانت تهب بشكل معاكس".

"هل تمارسين الصيد؟".

"أجل".

"ما الذي تصيدينه عادةً".

"السناجب والأرانب.. والبوسوم".

"هل تصطادين الطيور؟".

"كلا. فأنا أحب أن أنظر إليها في السماء".

نهضت قائلاً: "أشكرك. لقد كنتِ متعاونة جداً".

"لا أعتقد ذلك".

"أنا أعتقد". اتجهت نحو باب الزنزانة، ثم التفت إليها. "لو تركتك تعودين إلى ثكنتك، هل تعديني بأن لا تبوحي بالحوار الذي جرى بيننا الآن لأحد؟".

"هل يمكن أن أتعرف على من أعده بذلك؟".

"أنا ضابط بالقوات المسلحة الأميركية".

"أنت تحمل رتبة رقيب، ولا أعرف اسمك... وأنت أيضاً لا تعرفه فيما يبدو".

"من أين أنت؟".

"من مقاطعة (لي) بألاباما".

"سآمر لك بإجازة لمدة أسبوع. أبلغي بها قيادتك".

عدت إلى حجرة الاستجواب، حيث وجدت (سينثيا) وحدها، ورأسها بين يديها، تقرأ في ما دونته أو تفكر.

تبادلـــنا مجريات الاستجوابين، وخلصنا إلى أن وقت حدوث الجريمة كان فيما بين الـساعة 2:17 و4:25. وخمـــنا أن القاتـــل أو القـــتلة إما كانوا بصحبة (آن كامبيل) في ســيارتها الجـــيب أو أنهم كانوا في موقع الجريمة قبل قدومها. ولو أن القاتل قد استخدم سيارته، لما كان قد استخدم أضواءها أو كان سيوقفها على البعد من نقطة الحراسة. وهنا كنت أميل إلى نظرية أن (آن كامبيل) قد أقلته أو أقلتهم في سيارتها وحتى موقع الجريمة، إلا أننـــي لم أستبعد احتمال أن يكون هناك موعد غرامي مسبق في ذلك المكان. وبدا لي مـــن المـــستبعد أن يكون الحادث عشوائياً أو محض صدفة، وذلك بالنظر إلى أن أضواء الـــسيارة قـــد انطفأت ما أن توقفت بسيارتها في المكان، فلو أن هناك من ينتظر ليباغتها لكان هناك بعض الوقت بين توقف السيارة وبين انطفاء الأنوار. سألتني (سينثيا): "لو كان هذا موعداً غرامياً سرياً، فلماذا استخدمت أنوار سيارتها من الأصل؟".

"ربما فعلت هذا لكي لا تجذب الانتباه. فقد كانت تمارس مهام عملها هناك، ولكن لو أن أحـــد أفراد الدوريات التابعة للشرطة العسكرية رأى أنها تقود سيارتها من دون تشغيل الإضاءة، لكان قد أوقفها ليستفهم منها عن السبب".

"هـــذا صـــحيح. ولكن الأضواء قد جذبت انتباه (روبينـــز)، فلماذا لم تقم (كامبيل) بالمرور على نقطة حراستها أولاً، حتى تنفي الشكوك عنها، ومن ثم تذهب إلى موعدها؟".

"سؤالك في محله".

"وما الداعي إلى تحديد المكان بالقرب من نقطة حراسة؟ فهناك قرابة المائة ألف من الأفدنة غير المأهولة".

"أجل. ولكن لا تنسي أن المكان قريب من دورات المياه، وحسبما ذكرت (روبينـــز) عن ذلك الرقيب، فإن هناك من اعتاد الذهاب إلى هناك لممارسة الجنس. فمن المنطقي أن يحتاجوا إلى المياه هناك".

"حـــسناً، يظل هناك احتمال أن هناك من كان يتربص بها، ولم يدرك أنه كان قريباً جداً من نقطة حراسة".

"ممكن. لكن الأدلة تثبت عكس ذلك الفرض".

"وما الداعي إلى تلك الممارسة في ليلة خدمتها بالذات؟".

"هذا جزء من طبيعتها التواقة إلى كل ما هو غريب".

"ولكـــن المعـــروف عـــنها الالتـــزام بـــأداء واجبها العسكري على أكمل وجه. أما ممارساتها الأخرى فكانت في حياتها الخاصة".

وافقتها قائلاً: "ملحوظة جيدة... هل تعتقدين أن (ساينت جون) يخفي عنا شيئاً ما؟".

"إنه على الأقل لم يخفِ عنا آراءه. كما أنني أرى أنه أخبرنا بكل ما يعرفه. ماذا عن (روبينز)؟".

"لقد أخبرتني بكمٍّ من المعلومات أدهشها هي شخصياً. كما أنها فتاة جيدة المظهر وصريحة. إنها من الاباما".

"إنها في سن حفيداتك".

"ربما كانت عذراء".

"عندها ستسبق أقاربها في طلب الانتقام منك".

"ألسنا غريبي الأطوار بعض الشيء".

فركت خدها قائلة: "آسفة، ولكنك تستفزني".

"ما رأيك إذن في أن تخرجي لتناول الغداء، بينما أذهب للاتصال بكارل جوستاف قبل أن يسمع بهذه الأخبار من شخص آخر فيطلق عليَّ النار".

نهضت قائلة: "حسناً. أرجو أن أبقى معك في هذه القضية يا (بول)".

"هذا القرار متروك للهر (هيلمان)".

وكزتني في بطني مجدداً وقالت: "بل هو قرارك أنت. أخبره بأنك تحتاج إليَّ في القضية".

"وماذا لو لم أفعل؟".

"ستفعل".

صحبتها حتى سيارتها، واستقلتها وأنا أقول لها: "لقد استمتعت بالعمل معك خلال الست الساعات والاثنين وعشرين دقيقة الأخيرة".

ابتسمت وردت: "أشكرك. أما أنا فلم أستمتع سوى بأربع عشرة دقيقة منها. أين ومتى ألتقيك ثانيةً؟".

"هنا في نفس المكان. في الساعة 14:00".

خرجت من موقف السيارات، وراقبت الموستانج وهي تبتعد في زحام الظهيرة.

عدت إلى مكتب القيادة ووجدت المكتب المخصص لي. لقد خصص (كينت) لنا غرفة بلا نافذة، وبها مكتبان ومقعدان، وخزانة ملفات واحدة، ومساحة أخرى بالكاد تكفي لسلة المهملات.

جلست إلى أحد المكتبين ورمقت المفكرة الجلدية، ثم نحيتها جانباً وحاولت أن أفكر في الأمر كله - ليست القضية وحدها، بل كافة ما صاحب هذه القضية، والعلاقات

المتداخلة المرتبطة بها، وأفضل سبيل لأن أحمي نفسي من عواقبها. ومن بعد ذلك فكرت في القضية ذاتها.

كـــان عليَّ قبل أن أتصل بهيلمان أن أحدد كل ما توصلت إليه من حقائق، على أن أبقي آرائي ونظرياتي لنفسي. فكارل يتعامل مع الحقائق ولكنه لن يهتم بالتقييمات الشخـــصية إلا حيـــنما يمكـــن أن تستخدم ضد متهم بعينه. لا يهتم (كارل) بالسياسة، وبالتالـــي فلـــن يحـــرك شعرة تجاه تبعات هذه القضية. فهو يفترض أن إدارة الأفراد تقتـــضي أن يقوم كل فرد بعمله بإتقان ما أن يطلب منه ذلك. ولقد طلبت منه في العام الماضـــي ونحـــن فـــي بروكـــسل ألا يسند إليَّ أية قضية تعمل بها (سينثيا صنهيل). وأوضحت له بأن هناك ضغائنَ شخصية بيننا. ولم يفهم ما أقصده، ولكنه طمأنني بأنه سيراعي هذا الأمر.

وهكـــذا التقطت سماعة الهاتف لأتصل بالقيادة في (فولز تشيرش)، وأنا أجد سعادة في أني سأفسد على كارل يومه.

الفصل الثامن

كان "الأوبر فوهرر" - كما اعتدت أن أسميه ساخراً - موجوداً وقامت سكرتيرته (دايان) بتوصيل مكالمتي به. "مرحباً كارل". رد بلكنته الألمانية: "مرحباً (بول)". وبعد هذه المجاملات الباردة عرفته مباشرة بالقصة: "لقد حدثت جريمة قتل هنا".

"ماذا؟".

"المجني عليها هي ابنة الجنرال (كامبيل)، النقيب (آن كامبيل)".

صمت تام.

تابعت قائلاً: "من المحتمل أن تكون قد اغتصبت، ومن المؤكد أنها تعرضت لتعذيب جنسي".

"في القاعدة؟".

"أجل. في إحدى ساحات الرماية".

"متى؟".

"هذا الصباح. فيما بين الساعة 2:17 والساعة 4:25".

ها قد أكملت له جميع استفساراته. وبقي السؤال عن السبب.

سألني عن السبب: "وما الدافع؟".

"لا أعرف".

"والمتهمون؟".

"لا أحد".

"وملابسات الجريمة؟".

"لقد كانت في أثناء الخدمة حينما خرجت للمرور على نقاط الحراسة". أخبرته بجميع تفصيلات الجريمة وأضفت أن الكولونيل (كينت) هو من أمرني بتولي المهمة، وأخبرته بلقائي (سينثيا صنهيل)، وتفحصنا لموقع الجريمة ولمحل سكنها. وبالطبع فلم أذكر أي شيء عن تلك الغرفة بالقبو، لعلمي أن المحادثة قد تكون مسجلة، كما أنها لم تكن معلومات ذات أهمية بالنسبة له. فلماذا أسبب له الحرج؟

بقـــي صـــامتاً لبرهة، ثم قال: "أريد منك أن تعود إلى موقع الجريمة بعد أن تم نقل الجثة، وأن تقوم باستخدام أوتاد الخيام في تقييد الآنسة (سينثيا) إلى الأرض".

"معذرةً؟".

"أنـــا فقـــط أتساءل عن السبب الذي يعيق امرأة بصحة جيدة عن أن تحاول تخليص نفسها من تلك القيود".

"أنـــا أقول لك يا سيدي. الحقيقة أن الأوتاد كانت بعيدة عن الجسد، ولم يكن بوسعها أن تطالها، ومن المفترض أن الجاني كان أمامها وهو يلف الحبل حول رقبتها، وأظن أن الأمر كان في بدايته لعبة...".

"ربما هذا وربما لا. ولكنها أدركت عند مرحلة ما أن الأمر لم يعد لعبة. ونعرف من خبرات سابقة مدى قوة المرأة حينما تتعرض حياتها لخطر. ربما كانت تحت تأثير المخدر وقتها. فاعمل على أن يفحص خبير المخدرات عما إذا كان بجسدها آثار مخدر أم لا. أما الآن فعليك أنت والآنسة (صنهيل) أن تعيدا تمثيل الجريمة من البداية إلى النهاية".

"أنت تتحدث عن محاكاة افتراضية إذن".

"بالطبع. فأنا لا أطلب منك أن تغتصبها أو تخنقها".

"يا لك من رقيق القلب يا كارل. حسناً سأعتمد على اقتراحك هذا".

"إنه ليس اقتراحاً. إنه أمر. والآن أخبرني بالتفصيل عما وجدتماه في منـــزل النقيب (كامبيل)".

أخبـــرته بذلك، ولم يعلق على عدم إبلاغي السلطات المدنية. لذا سألته: "بالمناسبة، هل لديك تعليق على دخولي المنـــزل ونقلي لمحتوياته؟".

"بالمناســـبة، فأنت قد أبلغت قائدها، الذي وافق بل اقترح القيام بهذا. تعلم ألا تورط نفـــسك في المشاكل يا (بول). فأنا لست باقٍ في هذا المنصب للأبد حتى تضمن مساندتي. والآن أمامك خمس ثوانٍ لتشفي غليلك بأن تتخيل أنك تقتلني...".

وبالفعـــل انتهـــزت فرصة الخمس دقائق في تخيل نفسي وأنا أحكم يدي حول رقبة (كارل) لأقتله، فيخرج لسانه وتجحظ عيناه، و...

"هاه... هل عدت للواقع؟".

"أعطني ثانية أخرى..." ها هو جلده يتحول للأزرق، وفي النهاية... "لقد عدت".

"جيد... هل تريد مساعدة المباحث الفيدرالية؟".

"كلا".

"هل تريد مساعدة محقق آخر من إدارتنا، أو من ملحقيتنا في (هادلي)؟".

"إنني في الحقيقة لا أرغب في هذه القضية أصلاً".

"لماذا؟".

"لأن لديّ بالفعل قضية لم تنتهي بعد هنا".

"أنهِها إذن".

"هل تعرف يا (كارل) أن هذه الجريمة بالغة الحساسية وبالغة الـ...".

"هل لك علاقة شخصية بالمجني عليها؟".

"كلا".

"إذن ابعث لي تقريراً بالفاكس عن هذه القضية على أن يكون فوق مكتبي قبل الساعة 17:00 اليوم حتى تبوب (دايان) هذه القضية لديها. هل تريد شيئاً آخر؟".

"أجل. هناك وسائل الإعلام، والتقرير الرسمي من إدارة القوات المسلحة، والمدعي العام، ووزارة العدل، والبيان الخاص والشخصي للجنرال وزوجته، ومواصلة الجنرال لمهامه هنا، و...".

"لا تشغل بالك سوى بالتحقيق في القضية".

"هذا ما كنت أود سماعه منك".

"ها قد سمعته. هل هناك شيء آخر؟".

"أجل. لا أريد أن تشاركني الآنسة (صنهيل) هذه القضية".

"أنا لم آمرها بتولي القضية. ما الذي أقحمها في القضية؟".

"إنه نفس السبب الذي أقحمني فيها. لقد كنا هنا من الأصل. ونحن لا صلة لنا بالهيكل الوظيفي القائم هنا، إلا أن (كينت) طلب منا أن نساعده حتى تقوم أنت رسمياً بإسناد المهمة لفريق تحقيق".

"إذن فقد أسندتها لك رسمياً. فلماذا لا تريدها معك إذن؟".

"نحن لا نستسيغ بعضنا البعض".

"أنتما لم تعملا أبداً مع بعضكما بعضاً من قبل. فما هو أساس هذه الكراهية؟".

"لقد كان بيننا ضغينة شخصية. كما أنني لست على دراية بقدراتها الشخصية".

"لكنها كفؤة جداً".

"ليس لديها خبرة بجرائم القتل".

"وأنت خبرتك بجرائم الاغتصاب قليلة. ونحن هنا أمام جريمة قتل واغتصاب، وبالتالي فكلٌ منكما يكمل الآخر".

"أعتقد أننا قد تناولنا هذا من قبل. فقد وعدتني ألا تجمعنا في نفس المهمة وفي نفس الوقت. فلماذا هي هنا إذن؟".

"أنا لم أقم بهذا الوعد أبداً. فالأولوية لاحتياجات الجيش".

"حسناً. إن احتياجات الجيش ستستوفى إذا ما أبعدتها عن هذه القضية اليوم. فمهمتها في هذه القضية قد انتهت".

"أجل. فقد وصلني تقريرها".

"إذن؟".

"انتظر".

طلب مني أن أنتظر على الخط. كان كارل في مزاج يصعب التعامل معه فيه، وهذا أسلوبه حينما يود أن يخبرني بأنه واثق جداً في قدرتي على التعامل مع المهام الصعبة. إلا أنه سيكون من اللطيف أحياناً أن أسمع منه كلمات الشكر والتقدير. كأن يقول لي: أجل يا (بول).. هذه مهمة حساسة صعبة، وربما تضر بسجلك المهني. إلا أنني سأساندك على طول الخط. وربما يذكر بعض الكلمات عن الضحية وعائلتها. أمر مأساوي.. أجل مأساوي. فقد كانت شابة جميلة وذكية. لا بد من أن أبويها ملتاعان. فعليك أن تكون أكثر إنسانية يا (كارل).

"أأنت معي يا (بول)؟".

"معك".

"لقد كانت الآنسة (صنهيل) معي على الهاتف".

كنت قد خمنت ذلك. فقلت: "ليس من شأنها أن تتدخل في..".

"لقد عنفتها بالطبع".

"هذا حسن. أرأيت السبب في أني...".

"وأخبرتها بأنك لا ترغب في العمل معها، فأخبرتني بأنك لا تريد ذلك لكونها امرأة، وبسبب سنها، بل ودينها".

"ماذا؟ إنني حتى لا أعرف ما هي ديانتها".

"مدونة على سلسلة هويتها".

"هل تقوم باستفزازي يا (كارل)؟".

"بل هي تهمة جادة ضدك".

"لقد أخبرتك بأن الأمر شخصي. نحن لا نتوافق مع بعضنا البعض".

"لقد كنتما غاية في التوافق هناك في بروكسل، هذا ما قيل لي عنكما".

تباً لك يا (كارل). "اسمع، هل تريد مني أن أخبرك بالتفاصيل؟".

"كلا. فقد علمت بالفعل من خلال شخص في بروكسل في العام الماضي ومن الآنسة (صنهيل) منذ دقيقة واحدة. وأنا أثق في أن ضباطي يتصرفون بما يليق في حياتهم الخاصة، وفي حين أنني لا أصر على أن تكونوا عزاباً، إلا أنني أشترط أن تكونوا راشدين، وأن لا تهدروا حقوقكم، أو حقوق الجيش، أو مهماتكم".

"لم يحدث مني هذا أبداً".

"ولكن لو كان خطيب الآنسة (صنهيل) قد قتلك وقتها، لكانت مهمتك قد فشلت".

"كان هذا الأمر سيمثل آخر ما أكون قد فكرت به قبل مصرعي".

"جيد. فأنت محترف إذاً، وقادر دوماً على المحافظة على علاقة مهنية مع الآنسة (صنهيل). انتهت المناقشة".

سألته: "حسناً سيدي. هل هي متزوجة؟".

"وما الفارق بالنسبة لك؟".

"هناك اعتبارات شخصية".

"إن كليكما بعيد عن حياته الشخصية إلى أن تنتهيا من هذه المهمة. هل هناك أسئلة أخرى؟".

"هل أخبرت الآنسة (صنهيل) عن تجربتك القديمة؟".

"تلك هي مهمتك" وهنا أنهى (كارل جوستاف) المكالمة، وبقيت أفكر برهة من الوقت، في الخيارات المتاحة أمامي، والتي تضاءلت إلى خيارين: إما أن أتنحى عن المهمة أو أن أستكملها. والحقيقة أنه يكفيني ما قضيته من مدة تبلغ الأعوام العشرين، وبوسعي أن أنهي خدمتي، وأتقاضى معاشاً يكفيني للاستمتاع بما تبقى من حياتي.

هناك سبل مختلفة يمكن للمرء أن ينهي بها خدمته في الجيش. ومعظم الرجال والنساء يقضون السنة الأخيرة في الخدمة في مهام مريحة حتى آخر يوم لهم داخل الجيش. وهناك بعض الضباط الذين تطول مدة خدمتهم، فلا يستطيعون أن ينتقلوا بأنفسهم إلى المرحلة الأخرى من حياتهم، حتى يؤمروا بأن يتقاعدوا. والقلة هم من يخرجون من الخدمة وهم في قمة المجد. وهناك من يخرج مكللاً بالغار. فالتوقيت هو أهم ما في الموضوع.

ومع تنحية الاعتبارات المهنية، فإني أعلم بأنني لو انسحبت من هذه القضية فإنها ستبقى تلاحقني للأبد. فقد علقت بي. والحقيقة أنني لم أكن سأسعد لو أن (كارل) كان قد نحاني عنها. إلا أن (كارل) اللعين قد قام بعكس ما توقعته منه، فحينما بينت له أنني لا أريد القضية علم أنني لن أتركها، لكنني حينما أبلغته بأني لا أريد (سينثيا)، أصر على أن تكون معي في القضية.

كـــان فـــوق مكتبي الجديد الملفان الشخصي والطبي للنقيب (آن كامبيل)، وقلبت صـــفحات الملـــف الأول. تحوي أمثال هذا الملف السيرة المهنية الكاملة لأي جندي، ويمكـــن أن تحـــوي الكثيـــر من المعلومات والأمور التي تجتذب الانتباه. فمن خلال التسلـــسل التاريخـــي وجدت أن (آن كامبيل) قد التحقت بأكاديمية (ويست بوينت) منذ اثني عشر عاماً، وتخرجت ضمن أفضل عشرة في المائة من دفعتها، فتم منحها إجازة التخرج التقليدية والتي تبلغ شهراً، وتم إلحاقها بالموقع الذي طلبته، وهو مركز تدريب المخابـــرات العـــسكرية في (فورت هونتشوسا) بولاية أريزونا. ومن هناك انتقلت إلى المدرســـة العـــسكرية العليا في (جورج تاون) لتنال شهادة الماجستير في علم النفس. وكانت خطوتها التالية هي التقدم لما نسميه بالمنطقة الميدانية، والتي كانت في حالتها هذه هي عمليات الحرب النفسية (الحرب المعنوية). وأتمت الدورة التدريبية المطلوبة بأكاديمـــية (جـــون كينـــيدي) لأساليب الحرب الخاصة في (فورت براج)، ثم التحقت بالفرقة الرابعة للحرب النفسية، والقائمة في (براج) أيضاً. ثم منها إلى الخليج العربي، والبنتاغون، وفي النهاية إلى (فورت هادلي).

وبـــدا للـــوهلة الأولـــى أن ملف خدمتها متميز، إلا أن هذا كان أمراً متوقعاً. قرأت تقريـــر الاختبارات العسكرية ولاحظت أن معدل ذكائها يضعها في مصاف العباقرة، وهو معـــدل لـــم يـــصل إليه سوى اثنين بالمائة من جميع الأميركيين. ومن خبرتي الشخصية وجدت أن عدداً يفوق في نسبته الاثنين بالمائة منهم ينتهي به الحال على مكتبي كاسم بين المتهمين، وفي جرائم القتل على وجه الخصوص. فيبدو أن العباقرة لا يحتملون أن يجدوا مـــن يمـــثل لهـــم مـــصدر إزعاج أو إعاقة نحو هدف ما، ويميلون إلى الاعتقاد أنهم لا يخضعون لنفس القواعد السلوكية التي تنطبق على بقية البشر. وغالباً ما يتصفون بالتعاسة وفـــروغ الصبر، كما أنهم قد يصبحون أشخاصاً مضطربي النفس، بل وأحياناً يصل بهم الاضطراب العقلي إلى أن يكونوا القاضي والحكم والجلاد في ذات الوقت، وهنا يصبحون رقماً بين الحالات التي أتولى شأنها.

إلا أنـــه لم يكن هناك هذه المرة متهماً، بل ضحية عبقرية، وهي قد تكون حقيقة لا أهمـــية لها في القضية. إلا أن حدسي أخبرني بأن (آن كامبيل) كانت قد ارتكبت شيئاً ما قبل أن تكون ضحية هذا الشيء.

فـــتحت الملـــف الطبـــي قاصداً آخره مباشرةً، حيث توجد المعلومات السيكولوجية. ووجـــدت تقرير التقييم النفسي القديم، والذي كان من متطلبات الالتحاق بأكاديمية (ويست بوينت). كتب الخبير النفسي:

هـــذه شخصية ذكية، نشيطة، متحمسة، كما أنها متسقة مع ذاتها. ووفقاً للمقابلة التي دامـــت ساعتين ومع ما ألحق بهذا التقرير من نتائج للاختبارات، فإنني لم أجد بها طباعاً

سلطوية، ولا اضطرابات إيهامية، أو اضطرابات في المزاج العام أو في حالات قلق مزمنة، أو خللاً في الشخصية، أو اضطرابات جنسية.

واستطرد التقرير ليبين أنه لم تكن هناك أية مشكلات نفسية ظاهرية يمكن أن تمنعها من أداء مهامها بأكاديمية القوات المسلحة الأميركية. فقد كانت (آن كامبيل) فتاة أميركية عادية في الثامنة عشرة من عمرها، وهو ما يعني أن كل شيء بالنسبة لها يسير على ما يرام.

إلا أنه كان هناك بضع صفحات إضافية في القسم النفسي، عبارة عن تقرير مختصر يعود إلى ما قد يكون الفصل الدراسي الخريفي من السنة الثالثة لها بالأكاديمية. فقد طلب من (آن كامبيل) أن تتوجه لمقابلة الطبيب النفسي بالأكاديمية، ولم يظهر لي من الذي أمر بذلك، أو سبب هذا الأمر. وكان الطبيب هو د. ويلز، الذي كتب:

تم طلب المستجدة (كامبيل) للخضوع للعلاج والتقييم النفسي. وتقول المستجدة بأن "لا شيء أعاني منه". إلا أنها غير متعاونة، ولكن ليس للدرجة التي تمنعني عن تقديم تقرير وافٍ حولها لعناية ضابطها المباشر. ومن خلال أربع مقابلات – دامت كل منها قرابة الساعتين – كانت تقرر باستمرار أنها تشعر فقط بالإنهاك، والتوتر بسبب البرنامج الأكاديمي التعليمي والتدريبي، والقلق حول أدائها وتقديراتها، والإجهاد العام. وفي حين أن هذه الشكاوى شائعة بين طلبة الصفين الأول والثاني، إلا أنه من النادر بالنسبة لي أن أرى هذه الدرجة من التوتر الذهني والبدني والإنهاك لدى طلبة الصف الثالث. وقد اعتقدت أن هناك سبباً آخر لما هي عليه من توتر وقلق، ربما علاقة حب أو مشاكل أسرية. إلا أنها أكدت لي أن لا مشاكل أسرية هناك وأنها ليست على علاقة حب داخل الأكاديمية أو في أي مكان آخر.

لقد رأيت أمامي شابة نحيفة بشكل ملحوظ، ومشتتة الذهن، ومضطربة ومكتئبة بشكل عام. بكت عدة مرات خلال المقابلات، إلا أنها سرعان ما كانت تتحكم في عواطفها وتعتذر لي عن بكائها.

وفي أوقات بدت لي على وشك أن تكشف عن أشياء خلال الشكاوى العامة للمستجدين، إلا أنها كانت تتراجع عن هذا دوماً. على أنها قالت لي ذات مرة: "لا يهم إن ذهبت للفصل أم لا، ولا يهم ما أقوم به هنا. فسوف أنجح في كل الأحوال حسب رغبتهم". فسألتها عما إذا كانت تعتقد أن السبب في ذلك هو كونها ابنة الجنرال، فردت بقولها: "كلا. فسوف ينجحونني لأنهم يدينون لي بمعروف".

وحينما سألتها عما تعنيه بالضمير "هم"؛ ردت: "القدامى". أما بقية الاستفسارات فلم تلقَ جواباً.

أعـتقد أنـنا كنا على وشك أن نضع يدنا على العلاج، إلا أن مواعيدها اللاحقة – والتي حددها قائدها – قد ألغيت من دون توضيح من قبل سلطة عليا لم أعلم باسمها حتى الآن.

وأعـتقد أن المستجدة (كامبيل) بحاجة إلى المزيد من التقييم والعلاج النفسي، طوعاً أو كـرهاً. وأنـا أنصح بعقد لجنة بحث نفسي لكي تحدد ما إذا كانت المستجدة (كامبيل) تحـتاج إلـى العـزل عن الأكاديمية لأسباب نفسية أم لا. كما أنصح بفحص وتقييم طبي شامل.

أخـذت أعيد وأعيد قراءة هذا التقرير الموجز حتى أستوعبه، وأنا أتساءل طبعاً عن الـسبب الذي يجعل شابة متحمسة في الثامنة عشرة من عمرها تنقلب إلى شابة مكتئبة في العـشرين مـن عمـرها. بوسع إدارة (ويست بوينت) أن تجيب عن ذلك بسهولة، إلا أن الإجابة لم تقنع الدكتور (ويلز)، ولن تقنعني أنا أيضاً فيما يبدو.

قلـبت فـي الملـف، قاصداً أن أقرأ التقرير بالكامل. وبينما كنت أهم بغلق الملف، جذبت عيناي قصاصة ورقية فقرأت ما كتب عليها بخط اليد: إن من يقاتل الوحوش عليه أن يحـذر مـن ألا ينقلب بدوره إلى وحش. وحينما تطيل النظر إلى الهاوية، فإن الهاوية تنظر إليك بدورها – نيتشه.

أمـا عن سبب وجود هذه المقولة بين أوراق الملف فهو أمر لا علم لي به، إلا أنها تتناسـب مـع ملـف ضابط بسلاح الحرب النفسية، كما قد يكون مناسباً لملف ضابط في التحقيقات العسكرية كذلك.

الفصل التاسع

قــررت أن الــوقت المــتاح لشخـصية الرقيب (فرانكلين وايت) قد انتهى، خاصةً والــرقيب وايت مضطر إلى أن يلقي التحية على كل ملازم متغطرس يمر به. لذا قررت لأن أتجه إلى لواء تدريب المشاة وأستعيد عربتي، ثم أقودها إلى (وايسبرينج باينــز) حتى أغير ملابسي بأخرى مدنية.

اجتــزت بعربتي مخزن أسلحة القاعدة، إلا أنني لم أرَ عربة الرقيب (إيلكينــز) في موقــف الــسيارات. فغمرني هذا الشعور المحنق من أن (إيلكينــز) في طريقه إلى إتمام الصفقة من خلف ظهري ومن ثم الهرب إلى حيث لا يعرف مكانه أحد، ليدعني أحاول أن أوضـــح الــسبب الــذي جعلنــي أسمح بوصول بضعة مئات من الأسلحة طراز إم 16 والقاذفات إلى أيدي العصابات الكولومبية.

علـــى أن هناك أولويات لكل شيء. وهكذا غادرت القاعدة لأقصد الطريق السريع. تــبعد (ويسبيرينج باينــز) عن القاعدة مدة 20 دقيقة بالسيارة، وخلال ذلك الوقت أخذت أعـيد تنــسيق الأحــداث التــي جــرت هذا الصباح، منذ أن جاءتني تلك المكالمة داخل المستودع. وقد اعتدت هذا بسبب إصرار الجيش الشديد على إتباع التسلسل الزمني الدقيق فـــي سرد الأحداث. إلا أن ما تراه ووقت رؤيتك له لا يمثل أهمية كبيرة أثناء التحقيق في جريمة قتل، فبسبب طبيعة جريمة القتل فإن الأشياء المهمة تحدث قبل وصولك إلى موقع الحـــدث. إن هــناك عالمـــاً روحانياً من نوع ما يتشارك في الوجود مع عالم الملاحظة التجــريبية هذا، وعليك أن تتواصل مع ذلك العالم عبر وسيلة سحرية ما. أنت لا تستخدم بلورة سحرية – هذا رغم توقي لهذا – إلا أنك تعمل على أن يكون عقلك صافياً وتنصت إلى كل ما لم يقال وترى ما هو ليس بموجود.

كمـــا أن (كـــارل) بحاجـــة إلى تقرير مكتوب، لذا فقد حررت مسودة منه في داخل عقلـــي: بخصوص محادثتنا الهاتفية، فإني أحب أن أوضح أن ابنة الجنرال كانت عاهرة، ويـــا لها من عاهرة باهرة. لا يمكنني أن أبعدها عن تفكيري. ولو كنت مشغوفاً بحبها، ثم وجـــدت أنهـــا تخوننـــي مع الجميع، لكنت أنا نفسي قتلتها. لكنني سألقي القبض على ذلك الـــوغد الذي قتلها وأبذل ما في وسعي حتى يتم إعدامه. أشكرك على هذه القضية. توقيع: برينير.

تحتاج هذه المهمة إلى القليل من الجهد. إلا أن من المهم في رأيي أن يقر المرء بحقيقة ما يشعر به تجاه من يتعامل معه. لأن الجميع سيكذب ويعمل على تعميتك عن الحقيقة.

وهـنا خطرت (سينثيا) ببالي. والحقيقة أنها لم تفارق عقلي أصلاً. فوجهها وصوتها يطاردني دوماً، وكنت أفتقدها حينذاك. وهو دليل على ذلك الرابط الوجداني المتين، وربما كـان هـو ولع جنسي بها، أو هو الحب لا سمح الله. وقد أقلقني ذلك، ليس فقط لكوني لم أكـن جاهزاً لأمر كهذا، بل لكوني لم أكن متأكداً كذلك من حقيقة شعورها نحوي. كما أن هناك قاتلاً طليقاً. وحينما يكون عليك أن تلقي القبض على قاتل، يكون من الضروري أن تخـصص لذلك كل جهدك، ولو لم يبقَ الكثير من الجهد، فإنك تسحب من رصيد طاقتك النفـسية التي تختزنها لأجل مثل تلك الظروف. وفي النهاية لن يتبقى لديك رصيد تسحب مـنه، وأشـخاص من أمثال (سينثيا) – فتيات وشباب مفعمين بحس الواجب والحماسة – سيرون فيك عندئذٍ شخصاً بارداً، متبجحاً لا يطاق. وبالطبع فإني أتمرد على هذه النظرة، لعلمـي بأنـي قـادر على امتلاك المشاعر والأحاسيس، وعلى التعبير عن الحب ودفء المـشاعر. ولقد عبرت عن هذا في بروكسل خلال العام الماضي، وهذه هي تبعة تعبيري هذا. على كلٍ، فإن جريمة القتل تستحق كل تركيزي وانتباهي.

تطلعـت عبـر نافذة عربتي وأنا أقترب من منطقة العربات المتنقلة في (ويسبيرينج باينـز). هناك على اليسار رأيت طاقم صيانة طرق ريفي يقوم بوضع طبقة من الإسفلت فوق جزء معطوب من الطريق، تداعت إلى عقلي ذكريات مشاهدتي لأول مرة منذ قرابة عقـدين لأفراد عصابة مصفدين إلى بعضهما البعض بسلسلة في (جورجيا). أنا لا أعتقد أنهـم لا زالوا يستغلون أفراد تلك العصابات في رصف الطرق هذه الأيام، والحق أني لا آمـل في أن يكون هذا هو الحال. إلا أنني لا زلت أتذكر المنظر بكل وضوح، السجناء، القـذرين المنحنـين تجاه الأرض، والقيود على أقدامهم، خلفهم الحراس في زيهم المبتل عرقاً، وهم يحملون بنادقهم ومسدساتهم. لم يسعني أن أصدق في البداية ما كنت أراه. فلم يسع (بول برينير) – القادم من جنوبي بوسطن – أن يفهم أن هؤلاء مصفدون إلى بعضهم الـبعض، يعملـون كالعبيد تحت الشمس الحارقة، هنا في أميركا. شعرت وقتها بانقباض وغصة في معدتي وكأنما تلقت لكمة مفاجأة.

إلا أن ذاك الـــ (بـول برينيـر) لم يعد له وجود. فالعالم أصبح أكثر رحمة، بينما أصبحت أنا أشد قسوة. لقد كانت هناك فترة من تناغم بيني والعالم لعام أو عامين، إلا أنه سرعان ما افترق كلاً منا في مساره. ربما كانت مشكلتي أن العالم قد تغير كثيراً عن ذي قبل: سواءٌ كنت في (جورجيا) اليوم، أو في (بروكسل) العام الماضي، أو في (باجو باجو) الأسبوع القادم. كنت بحاجة إلى أن أقبع في مكان ما لفترة من الوقت، وأن أقيم علاقة مع امرأة تطول لأكثر من مجرد ليلة أو أسبوع أو حتى الشهر.

عبــرت بــين شجرتي صنوبر تربط بينهما لافتة تشير بقايا الكلمات فوقها إلى أنك قد وصــلت إلى (ويسبيرينج باينــز). أوقفت العربة إلى جوار منــزل المالك المتحرك وقصدت عربتي المتنقلة. أعتقد أني كنت أحب المناطق الجنوبية الفقيرة حينما كانت المنازل عبارة عن أكواخ خشبية ليس بها سوى مقعد هزّاز وقدر لا تطهو بها سوى الذرة.

قمــت بجــولة حول العربة لأتأكد من أن النوافذ مغلقة، ومن عدم وجود آثار أقدام، وغيــر ذلــك مــن الآثار التي تدل على أن شخص ما قد مر من هنا. عدت إلى المدخل وتأكــدت من وجود ذلك الخيط الذي وضعته عمداً بين الباب وإطاره، فوجدته على حاله. لــست متأثراً بتلك الأفلام التي يعود فيها المحقق إلى منــزله ليتلقى ضربة على أم رأسه من قبل مجهول. إلا أنني قضيت خمس سنوات في سلاح المشاة، وإحدى تلك السنوات في فيتــنام، وحوالــى العــشر ســنوات في أوروبا وآسيا، أتعامل مع الجميع، بدءاً من تجار المخــدرات، وحتى مهربي الأسلحة، وصولاً إلى القتلة المحترفين، وأنا أعرف السبب في كوني حياً حتى الآن، فأنا أتميز باليقظة والحذر.

ولجــت إلــى منــزلــي المتــنقل وتركت الباب مفتوحاً وأنا أتأكد من أني وحدي بالمنــزل. فبدا لي أن كل شيء ظل كما تركته.

قــصدت غرفة النوم الخلفية. تلك هي الغرفة التي أستخدمها كمكتب لي حيث أحتفظ بمــسدساتي، ودفاتــر ملاحظاتــي وتقاريري وكتب فك الشفرة، وغير ذلك من متطلبات المهــنة. وقــد أغلقــتها بمزلاج وقفل حتى لا يستطيع أن يدخلها أحد، بما في ذلك مالك المــنطقة، كمــا قــد أحكمت سد النافذة الوحيدة بها بالغراء، وهكذا فتحت القفل لألج إلى الداخل.

يتناســب أثــاث غرفة النوم مع المكان، إلا أنني أضفت إليه مكتب عسكري ومقعد كــنت قد أحضرتهما من مقر القاعدة، وعلى المكتب رأيت وميض جهاز الرد الآلي على الهاتــف. ضغطت زر الرسائل، لأسمع صوتاً مسجلاً لرجل لديه مشكلة أنفية يقول: "لديك رســالة واحدة". ثم صوت رجالي آخر قال: "سيد (برينير)، هذا الكولونيل (فاولر)، أركان حرب القاعدة. إن الجنرال (كامبيل) يرغب في رؤيتك. أرجو الاتصال بمنــزله في أسرع وقت ممكن. سلام".

كــل مــا يمكننــي استنتاجه من هذه الرسالة هو أن الكولونيل (كينت) قد قام أخيراً بإبلاغ والد المجني عليها أن من يقوم بالتحقيق هو الضابط (برينير) من (فولز تشيرش)، كما أنه قد أعطى الكولونيل (فاولر) رقم هاتفي. كم أشكرك يا (كينت).

لــم يكــن لــديَّ في هذه اللحظة أي وقت للجنرال أو السيدة (كامبيل)، لذا مسحت الرسالة من على الشريط المسجل، ومن عقلي أيضاً.

ذهبت إلى خزانة الملابس وأخرجت مسدسي الآلي من طراز جلوك 9 ملم، ثم خرجت من الغرفة، مغلقاً إياها خلفي.

دخلت إلى غرفة النوم الرئيسية، حيث أبدلت ملابسي لأرتدي حلة مدنية زرقاء، وعدلت من وضع حزام المسدس تحت إبطي، ثم ذهبت إلى المطبخ، لأفتح زجاجة من المشروب المفضل مثلجة، وبعدها خرجت من العربة. تركت عربة النقل رابضة في مكانها لأستقل سيارتي البليزر. وبعد أن اكتمل تحولي هذا، أصبحت ظاهرياً مستعداً للتعامل مع جريمة الاغتصاب والقتل هذه، إلا أنني من الداخل كنت أحتاج إلى المزيد من الوقت حتى أكون مستعداً.

أخذت أجرع من الزجاجة جرعات كبيرة. لقد جرى العرف في هذه الولاية على أن كل من يفتح زجاجة مشروب مفضل لا بد من أن يشربها بالكامل قبل أن يلقيها.

كانت وجهتي هي ضاحية فقيرة منعزلة تتكون من بعض البيوت وتسمى (إنديان سبرينجز). لم يكن بالمنطقة أي هنود كما قد يدل اسمها، إلا أنه هناك الكثير من رعاة البقر، وهذا ما استنتجته من نوعية العربات الموجودة في طرق المنطقة. اقتربت من أحد المنازل المتواضعة ثم ضغطت على آلة التنبيه عدة مرات. كان هذا بديلاً عن مغادرة السيارة ودق الجرس، والأهم أنه ليس بالأمر المستهجن في هذه الضاحية. فتحت الباب امرأة بدينة، رأتني فحيتني، ثم دخلت ثانيةً. وبعد بضع دقائق خرج الرقيب (دلبيرت إيلكينز) من المنزل. فمن بين ميزات مهمات الليل أنك تنال إجازة في اليوم التالي، وكان من الواضح أن إيلكينز يستمتع بيومه، فقد ارتدى الشورت وقميصاً قطنياً قصيراً، وصندلاً، وبكل يد علبة مشروب مفضل. ناديت عليه قائلاً: "اركب. علينا أن نذهب لمقابلة رجل في القاعدة".

"تباً".

"هيا اركب. سوف أعيدك إلى هنا في أسرع وقت ممكن".

صاح تجاه داخل المنزل قائلاً: "أنا ذاهب!". ثم دلف إلى المقعد المجاور مناولاً إياي إحدى علبتي المشروب المفضل.

تناولتها، واتجهت صوب الطريق الرئيسي. كان لدى الرقيب (إيلكينز) أربعة أسئلة: من أين لك بمثل هذه السيارة؟ من أين لك بهذه الحلة المدنية؟ كيف قضيت الليلة الماضية مع تلك الفتاة؟ من هو الشخص الذي سنلتقيه؟

وكان ردي أنني استعرت السيارة، والحلة هذه مصنوعة في هونغ كونغ، والفتاة كانت ممتازة، وعلينا أن نلتقي شخصاً موجوداً بالسجن الحربي.

"في السجن؟".

"إنـــه شـــخص طـــيب، محتجز في مكتب القيادة. وعليّ أن أراه قبل أن يأخذوه إلى السجن الرئيسي".

"لماذا؟ ما السبب؟".

"لقـــد قبـــضوا عليه. وكان عليَّ أن أعيد سيارته إلى محل سكنه. فزوجته حامل في شـــهرها التاســـع وتحـــتاج إلى السيارة. إنهم يعيشون بمقربة منك. وعليك أن تعود معي بسيارتي هذه في طريق العودة".

أومأ الرقيب (إيلكينـــز) موافقاً وكأنما قد قام بهذه المهمة من قبل. "أخبرني عن تلك الفتاة إذن".

عملـــت على استثارته كنوع من جلب السعادة إلى نفسه ليس إلا: "لقد أمتعتني جداً، بشكل لن تتخيله".

أطلـــق (إيلكينـــــز) صـــيحات تجمع بين المرح والغيرة والاستثارة. ولم أكن أجد غضاضة في ذلك، طالما لن يمكنه أن يعرف حقيقة شخصيتي.

أخـــذنا نثرثر ونشرب المشروب المفضل. وحينما دخلنا منطقة القاعدة، خبأنا علب المـــشروب المفـــضل ونحـــن نمر أمام الشرطة العسكرية، ثم دسسناهما أسفل المقعدين. انطلقت حتى توقفت عند مقر القيادة، ثم غادرنا السيارة لندلف إلى داخل المبنى.

انتـــبه الـــرقيب المـــناوب فأظهرت له بادج إدارة التحقيقات العسكرية ثم واصلت سيري. فإما أن الرقيب (إيلكينـــز) لم يلحظ ما قمت به أو أنني فعلت ذلك بسرعة شديدة. مشينا عبر ممر يقود إلى الزنـــزانات. وجدت إحداها فارغة في ركن من المكان، وكانت مفـــتوحة الباب، وحثثت الرقيب (إيلكينـــز) على الدخول. بدا مرتبكاً وقلقاً بعض الشيء. سألني: "أين رفيقك؟ ...".

"أنا رفيقك". ثم أغلقت باب الزنـــزانة بالمفتاح. قلت له وهو خلف القضبان. "لقد تم إلقـــاء القبض عليك" ثم أريته البادج العسكري قائلاً: "التهمة هي التآمر لأجل بيع ممتلكات الجـــيش خـــارج الـــولايات المتحدة، ومن دون سلطة تخول لك هذا، بالإضافة إلى تهمة الاحتيال على الولايات المتحدة" ثم أضفت ساخراً: "كما أنك لم ترتدِ حزام الأمان".

"يا إلهي... يا إلهي...".

من المثير أن تنظر إلى وجه أي رجل يتلقى خبر إلقاء القبض عليه، ومن تعبيرات وجهه يمكنك أن تحدد الكيفية التي تتعامل بها معه. لقد بدا لي أن (إيلكينـــز) قد رأى للتو نتاج صنيعه. أبلغته قائلاً: "سوف أترك لك فرصة للراحة الآن. وعليك أن تكتب بخط يدك اعترافاً كاملاً، ثم توقعه. ومن ثم سوف تتعاون مع الحكومة في النيل من الرجل الذي كنا نـــتحدث عـــنه. ولو فعلت هذا، فسأضمن لك ألا تمكث كثيراً في السجن. أنت تواجه تهماً

مـــشينة للشرف ولقد تم عزلك من جميع رتبك، وإيقاف مرتبك وتأميناتك ومزاياك. ولكن يمكن أن تعود إلى حياتك لو تعاونت معنا. هل اتفقنا؟".

بدأ في البكاء، أعلم أن العرض سخي جداً، ولكن ليس لدرجة البكاء، ولو كان بيدي لكـــنت صـــفعته حتى يستفيق. لكنني أحاول أن أكتسب المزيد من الحساسية تجاه كل ما يطلـــبه ويحـــتاج إليه المجرمون، ولقد حاولت ألا أفكر في كمية الأسلحة وفي قيمتها وما يمكـــن أن تلحقه من أذى بأفراد الشرطة والأناس العاديين في كولومبيا. هذا مع بديهية أن نقول إن الرقيب (إيلكينـــز) قد انتهك قاعدة الثقة العسكرية المقدسة. فقلت لإيلكينـــز ثانيةً: "اتفقنا؟".

فأومأ لي بالإيجاب.

"حـــسناً فعلـــت يا (ديلبيرت)" بحثت في جيبي حتى وجدت البطاقة الخاصة بحقوق المـــتهم. فأعطيـــتها له وناولته قلماً "ها هي ذي. اقرأها ووقعها". مسح دموعه وهو يقرأ حقوقه كمتهم. قلت له: "وقع على الورقة يا ديلبريت".

وقعهـــا وسلّم لي البطاقة والقلم. ولقد بلغ الحنق بكارل مبلغه حينما أخبرته بأني قد حـــولت إيلكينـــــز إلـــى شاهد ملك. ففلسفة (كارل) هي أن على كل مجرم أن يودع في الـــسجن، وألا يعقد أحد معه أية صفقة. فالمحكمة العسكرية لا تحبذ الحديث عن صفقات. إلا أنه كان من الضروري بالنسبة لي أن أغلق ملف هذه القضية بأسرع وقت حتى أركز جهـــودي علـــى القـــضية التي ستؤثر بشدة على مستقبلي. وطالما طلب مني (كارل) أن أنهيها، فسوف أنهيها.

اقترب مني ملازم بالشرطة العسكرية وطلب مني أن أعرف له نفسي وأوضح سبب وجـــودي هـــنا. فأظهرت له بطاقة هويتي التابعة للتحقيقات العسكرية قائلاً: "احضر لهذا الـــرجل بعض الأوراق وقلم ليسجل اعترافه، ثم اقتده إلى مقر التحقيقات العسكرية وسلمه لهم لإتمام التحقيق".

كان الرقيب (إيلكينـــز) جالساً في استكانة الآن، وهو لا يزال مرتدياً قميصه القطني والشورت والصندل. كنت قد اعتدت رؤية الكثير من أمثاله وراء القضبان.

غـــادرت زنـــــزانة الحجـــز مـــتجهاً إلى مكتبي حيث أخذت أقلب في مفكرة (آن كامبيل)، والتي كانت تحوي مئات الأسماء، وليس من بينها اسمي بطبيعة الحال. لم أجدها تميـــز الأســـماء برسومات قلوب أو نجوم أو أي من هذا القبيل لتبيان شيء من الاهتمام الرومانسي أو درجة صداقتها بصاحب الاسم، ولكن من المؤكد كما قلت من قبل أن هناك قائمـــة أخـــرى بأسماء وأرقام هواتف في مكان ما، ربما كانت في تلك الغرفة بالقبو، أو بملف خفي في جهاز الكومبيوتر الخاص بها.

قمـــت بكتابة تقرير شديد الإيجاز لكارل – ليس ذاك الذي كنت أنوي كتابته، إلا أنه مستوفٍ لمتطلبات المدعي العام والدفاع على حدٍّ سواء. فلم يعد هناك مستند يمكن أن يعد فـــي مـــأمن في هذه البلاد، فحتى لو تم تصنيفه تحت مسمى "سري للغاية" فإن هذا لم يعد يعني في الحقيقة سوى "لأجل أقصى علانية ممكنة".

وبعدما أتممت التقرير، ضغطت على زر الاتصال الداخلي في جهاز الهاتف وقلت: "ابعثي لي بأحد الموظفين".

إن موظفي الجيش أشبه بأطقم السكرتارية المدنية، فيما عدا أن أغلبيتهم من الرجال، هذا بالرغم من أن كل من صادفتهن كن من النساء. وفي كلتا الحالتين فإنهم – كنظرائهم المدنيين – يعدون أساس نجاح أو فشل رؤسائهم. أما من حضرت إليَّ فكانت فتاة، ترتدي الزي العسكري الأخضر غير المموه، مكون من تنورة وقميص طويل الأكمام، متلائم مع طبيعة الطقس. وقد أدت لي التحية العسكرية قائلةً: "الأخصائية (بيكر) يا سيدي".

وقفـــت – رغم أن هذا لا يصح مني – لأمد يدي لها بالتحية. "أنا المساعد (بيرنير) من إدارة التحقيقات العسكرية. ولقد توليت قضية (كامبيل). هل تعلمين عنها شيئاً؟".

"أجل سيدي".

رمقت الأخصائية (بيكر) للحظات. كانت في بدايات العقد العشرين من عمرها، تبدو نـــشيطة، ولكـــنها متوســـطة الجمال، مرحة وذكية. وقد تكون لطيفة. سألتها: "هل تودين معرفة تفاصيل هذه القضية؟".

"إنني أعمل مع النقيب (ريدينج) في إدارة المرور العسكرية".

"تريدين أم لا تريدين؟".

"بل أريد يا سيدي".

"حـــسناً. أنتِ من الآن فصاعداً ستكونين تابعة لي وللآنسة (صنهيل) – والتي تتولى هي أيضاً التحقيق في نفس القضية – ولن تتحدثي عما تعرفينه إلى أي شخص آخر. وكل ما سوف ترينه أو تسمعينه يعد تحت بند السرية التامة".

"أفهم هذا".

"حـــسناً. قومي بنسخ هذا التقرير على الكومبيوتر، وتصوير هذه المفكرة، وأرسلي النـــسخ علـــى رقـــم الفاكس هذا إلى (فولز تشيرش)، ثم ضعي المستندات الأصلية على مكتبي".

"أجل سيدي".

"ضـــعي لافتة على الباب تقول (ممنوع الدخول لغير العاملين)، حيث إنني والآنسة (صنهيل) وأنتِ فقط هم من يصرح بدخولهم المكان".

"أجل سيدي".

أنــتِ لا تحتاجــين في القوات المسلحة - حيث لا يزال للشرف والأمانة والطاعة العامة مكانتها السامية - إلى أن تضعي أقفالاً على الأبواب، ورغم هذا فقد زادت الأقفال على الأبواب في هذه الأيام. إلا أنني كنت من المدرسة القديمة التي لا تعترف بوجود هذه الأقفــال. على أنني قلت للأخصائية (بيكر): "عليكِ أن تفرغي سلال المهملات كل مساء، وأن تضعي محتوياتها في آلة تقطيع الورق".

"أجل سيدي".

"هل لديك أسئلة أخرى؟".

"من سيتصل بالنقيب (ريدينج)؟".

"سوف أحادث الكولونيل (كينت) في هذا الشأن. هل هناك أسئلة أخرى؟".

"كلا سيدي".

"يمكنك الانصراف".

تناولت المفكرة وتقريري المكتوب بخط اليد، ودارت على عقبيها منصرفة.

مــن الــصعب أن تكون مصدر إزعاج لغيرك خارج عقر دارك. فمن السهولة أن تفعل هذا في عقر دارك، أما أن تأتي إلى مقر غيرك لتمارس هذا الدور التسلطي فإن هذا أمــرٌ يتطلب أن تكون متفرد الشخصية. ولو لم تكن لك اليد العليا منذ البداية، فلن تسيطر على الأمور أبداً، وسوف يستهينون بك حتى تفقد الثقة في نفسك.

فلقد تعلمت أن المرء يستمد سلطته من خلال العديد من الطرق المشروعة. ولكن إن لــم تــدعمك إدارتك بالكامل، رغم أنها أسندت لك مهمة ثقيلة على نفسك، فإن عليك أن تــستمد بنفــسك السلطة التي تحتاج إليها لإتمام المهمة. وأنا أعتقد أن الجيش يتوقع هذا، ويــتوقع مــنك أن تتحلــى بروح المبادرة، وهذا ما يلحون عليك به على الدوام. على أن الحــرص مطلــوب، لأن الأمــور تسير كما تريد إذا أنهيت مهمتك بنجاح، أما لو فشلت فسوف ينالون منك حتماً. والأسوأ من هذا أنه لو تمت المهمة بنجاح، فإنهم سيربتون على رأســك ككلب مطيع نال منه الإرهاق، ثم ينالون منك بطريقة أو بأخرى، وهذا هو السبب في أني أسارع بمبارحة موقع المهمة طالما أنجزتها. يقول عني (كارل) بأني أتوارى عن الأعــين لمــدة طويلة، إلا أن هذا ليس صحيحاً، فالمعروف عني أني أقضي تلك الإجازة علناً في سويسرا.

كانــت الــساعة 14:00 ولم تحضر المساعد (صنهيل) بعد، لذا غادرت مقر القيادة لأستقل سيارتي لأكتشف أنها قد أوقفت سيارتها أمام البوابة الرئيسية، غافية وراء المقود، بينما تصدح أغنية Grateful Dead من مشغل الأسطوانات، فبدت لي ملائمة للموقف.

دلفت إلى السيارة وأغلقت الباب بشدة، متعمداً أن أوقظها. "أكنتِ نائمة؟".

"بل أريح عيني قليلاً".

كانـــت هذه مقولتها المعتادة، فتبادلنا ابتسامة تنم عن التقدير. وقلت لها: "إلى ساحة الرماية رقم ستة لو سمحتِ".

الفصل العاشر

زادت (سينثيا) من سرعة السيارة ونحن نخرج من مقر القيادة إلى ناحية الثكنات الخشبية. علقت قائلةً: "حُلَّة جميلة".

"أشكرك" كانت الأغنية لا تزال تصدح وأنا أتابع قائلاً: "لمسة من اللون الرمادي". أغلقت مشغل الأسطوانات.

تساءلت: "هل تناولت الغداء؟".

"كلا".

"هل قمت بشيء ذي بال خلال الفترة التي مضت؟".

"لا أظن".

"هل هناك ما يشغل بالك؟".

"أجل".

"لا بد من أن (كارل) كان مصدر إزعاج".

"لو قمت مرةً ثانية بالاتصال به حول هذه القضية فإني لن أتردد عن معاقبتك. فهمت؟".

"أجل سيدي".

قادت السيارة في صمت لبرهة من الوقت، ثم قالت: "أريد رقم هاتفك وعنوانك".

أعطيتهما لها وقالت: "إنني أمكث في استراحة الضباط الزائرين. ما رأيك في أن تنتقل للإقامة هناك؟ أعني بتلك الاستراحة. فهي أكثر راحة".

"أنا أفضل منطقة العربات في (ويسبيرينج باينز)".

"إنها منطقة مريبة".

"ليس للرجال الحقيقيين".

"أهناك من يعيش برفقتك هناك؟" وجدت في السؤال دعابة جعلتها تضحك لمزحتها هذه، ثم غطت فمها بحركة مسرحية وقالت: "أوووه... آسفة، كان عليَّ أن أكون برفقتك".

"لا تضيعي وقتك".

لم تكن (سينثيا) من النوع الذي قد ينجح في التلاعب بالرجال. فهي تتميز بالأساس بكـونها صريحة وصادقة، ولو أنها وجدت في رجل ما يعجبها في تصرفاته أو هيئته لما تـرددت عـن إخباره على الفور بحقيقة مشاعرها. ولقد أخبرتها بأن عليها أن تكون أقل صـدقاً من ذلك، وأن الرجل قد يجد في تصرفها مغزىً معاكساً لما تراه هي. إلا أنها لم تفهم ما أقصده، ومع هذا فهي الخبيرة في جرائم الاغتصاب!.

قلت لها: "ستعمل معنا سكرتيرة، هي الأخصائية (بيكر)".

"ذكر أو أنثى؟".

"لا أهتم بهذه الأشياء. وبالمناسبة ما هي ديانتك؟".

ابتـسمت وجـذبت سلـسلة الهوية التي ترتديها حول رقبتها: "لنرى... مكتوب هنا أنني... (أب).. أوه.. هذه فصيلة الدم.. ها هي خانة الديانة... (مسيحية مشيخية)".

"لست مندهشاً من هذا".

"آسفة على تلك المحادثة. كان (كارل) يعلم أنها مزحة".

"لا يميز (كارل) المزحة إلا حينما يضحك من هم حوله".

"هـون علـيك يا (بول). أنت في العادة لا تتعامل مع مثل هذه المواضيع الحساسة بجديـة على أية حال. ولو كان لي أن أسدي إليك نصيحة فهي أن تكون على حذر. فليس علـيك أن تتحدث بأسلوب مبهم، أو أن تسخر من كل جديد. فلا ضير من هذا مهنياً على الأقل".

"أنت منظرة أيديولوجية إذن".

"كلا، أنا زميلتك في هذه المهمة" ثم وكزتني في ذراعي مضيفةً: "لا تصطنع الحكمة تجاهي".

"حـسناً". من الواضح أن (سينثيا) قررت أن تكون أقل تحفزاً تجاهي الآن. فإما أن هناك أمراً جيداً قد حدث خلال الساعتين اللتين غابت فيهما عني، أو أنها تذكرت الجوانب الطيـبة في (بول بيرنير). قررت أن من الأفضل حالياً أن نركز في مهمتنا، فسألتها: "هل بحثتِ في حالات الاختناق الجنسية؟".

"أجل. ووجدت أن هذا الموضوع غريب الأطوار جداً".

"إن الجنس غريب الأطوار بوجه عام".

"ربما كانت هذه نظرتك له".

"أخبريني بما تعرفين عن اختناق الجنس إذن".

"حـسناً... إن تعـريفه الأساسـي هو إحكام وثاق حبل حول العنق أثناء الاستثارة

الجنسية. وفي العادة فإن الرجال يقومون بذلك أثناء ممارسة العادة السرية. كنوع من الاستثارة الذاتية. إلا أن النساء يقمن أيضاً بأمرٍ مماثل لذلك. وأحياناً ما يقوم به طرفا العملية الجنسية سواءٌ أكانا من الشواذ أو كانا رجلاً وامرأة. وهذا الأسلوب يتم بالرضا من الطرفين، إلا أنه يكون إجباراً أحياناً، وقد يفضي إلى الموت إما بالخطأ أو عمداً. وهنا يصبح جريمة".

"هذا صحيح. هل سبق لكِ أن رأيته عياناً؟".

"كلا. وأنت؟".

"هل قمتِ به من قبل؟".

"كلا يا (بول)... هل قمت أنت بمثل هذا؟".

"كلا. إلا أنني رأيته ذات مرة، حيث نصب رجل لنفسه مشنقة ووضع رقبته بها أثناء ممارسته للعادة السرية، وهو يشاهد فيلم بورنو. وهو لم يكن يقصد الانتحار، لكن المقعد الذي كان يقف عليه انزلق فهوى ليلقى مصرعه بالخطأ. هذه حالة موت خلال استثارة جنسية حسبما أعتقد. وقد ظن أفراد الشرطة العسكرية وقتها أن الأمر انتحار. ولكن حينما وجدت أن الرجل عارياً هذا إضافةً إلى الجو الجنسي من حوله، علمت أن الحادث قد وقع بالخطأ. وكان من المدهش لي أنني نجحت في تفسير الأمر لعائلته!".

هزّت رأسها وهي تقول: "يمكنني تصور هذا... أنا لا أدري ما هي المتعة في مثل هذه الممارسة. فهي ممارسة غريبة في كل الأحوال".

"أرى أن المتعة تكمن في أن الممارس يحدث من خلالها اضطراباً في نسبة الدم والأكسجين الواصل إلى المخ، وهنا تتم استثارة أحاسيس معينة، ومنها ما هو ناتج عن اضمحلال التحكم في النفس، حيث إن النقص المؤقت في الأكسجين يسبب الغثيان والدوار، بل وشعور بالبهجة. فهو قريب من مفعول المخدر أو الشراب. وخلال تلك الحالة يزداد الشعور بالمتعة والإثارة الجنسية... وقمة إثارتها أن من يبلغ ذروة النشوة يحقق أقصى درجاتها... أما لو حدث خطأ فإنه يكون ميتاً لا محالة.. فيلقى الممارس مصرعه".

"لا أجد أية متعة في كل هذا".

"ولا أنا. كما أن هناك جانباً سيكولوجياً في التجربة، حيث إن هناك طقساً يصاحب اختناق الجنس هذه – وهو العري أو ارتداء ملابس غريبة، واستخدام أدوات الإثارة الجنسية الشاذة، ومحاولة تجسيد خيالات مريضة، وبالطبع محاولة الوصول إلى شفا الخطر".

"من هو مبتكر هذه الطريقة؟".

"ممـــا لا شك فيه أن الأمر قد تحقق بالمصادفة في البداية. وربما بالبحث يمكن أن نجد تصويراً له في الآثار المصرية القديمة. فالبشر عباقرة حينما يتعلق الأمر بسبل إشباع الذات".

بقـــيت صـــامتة وهي تقود السيارة، ثم رمقتني وسألت في النهاية: "أتعتقد أن هذا ما حدث مع (آن كامبيل)؟".

"فـــي الحقيقة... إن الطريقة التي تم بها لف سروالها الداخلي حول رقبتها بحيث لا يتـــرك الحـــبل علامـــات علـــيها تجعلني أجد أن هذا لأجل ألا تؤدي اختناق الجنس إلى الموت... فتلك محاولة من جانبي لتفسير المنظر الذي شاهدناه في موقع الجريمة، إلا أن علينا أن ننتظر تقارير البحث الجنائي".

"أين ذهبت ملابسها إذن؟".

"لا بد من أنها قد تخلصت منها في مكان ما".

"والسبب؟".

"إنـــه جزء من المخاطرة وتجسيد خيالات معينة. فكما ذكرتِ فإن لا سبيل لدينا لمعرفة ما يمثل لديها خصوصية جنسية، أو ما هي الخيالات التي تصورتها في عقلها. جربي أن تفكري في ما يدور في عقلك من خيالات تولد المتعة، ثم حاولي أن تتخيلي كـــيف لشخص آخر أن ينظر إلى تلك الخيالات". وأضفت لأقطع هذا الصمت المخيم علـــى السيارة: "إن هذا النمط من الأشخاص لا يصل إلى الإشباع إلا من خلال تحقيق خـــيالاته الجنـــسية، ســـواءً أكان هناك من يشاركه الممارسة الجنسية أم لم يكن هناك طـــرف آخـــر. وأنـــا بـــدأت أظن أن ما رأيناه في ساحة الرماية كان وليد أفكار (آن كامبـــيل) ومحاولة منها لتجسيد خيالاتها على أرض الواقع، وليس من صنع رفيقها أو المعتدي عليها".

لم تعلق (سينثيا) على كلامي هذا، فتابعت قائلاً: "ومن المحتمل أنها ممارسة جنسية اشـــتملت على تجربة اختناق الجنس، إلا أن رفيقها قد قام بالخطأ بخنقها حتى الموت، أو عمـــداً – لا أدري – لو كان قد مرّ بلحظة غضب. فلو أن هناك من تربص بها ليغتصبها ويقـــتلها لمـــا عمد إلى أن يضع سروالها الداخلي حول رقبتها لكي يخفف من أثر ضغط الحبل على رقبتها".

"كلا. ولكن علينا أن نبحث في أن رفيقها ربما لم يقتلها في لحظة غضب. فيمكن أن الحاصل هو أن رفيقها قد تعمد أن يقتلها، ولكنه جعلها تظن أن في الأمر لعبة مشوقة".

"ذلك احتمال قائم".

قالــت (سينثيا): "لم أزل أفكر في تلك الغرفة في القبو. فربما كان هناك من الرجال من يرغب في قتلها غيرةً أو انتقاماً، أو قد تكون حاولت أن تبتز شخصاً ما".

"معكِ حق. فتصرفاتها كانت ستقودها عاجلاً أو آجلاً إلى أن تلقى حتفها. إلا أننا بحاجــة للمــزيد مــن المعلــومات. هل ستدونين كل مناقشاتنا هذه في تقاريرك عن القضية؟".

أومــأت مــن دون كلام. من الواضح أن (سينثيا) التي تعاملت مع العديد من قضايا الاغتــصاب العادية تجد صعوبة في تقبل هذه الطبيعة الإنسانية التي قد تقتل بدافع جنسي. إلا أننـــي كـــنت واثقاً من أنها كانت شاهدةً على مدى تعذيب الرجال للنساء المغتصبات، لكـــنها لم تعتقد يوماً أن هذه الفئة من الجرائم التي تتعامل معها يمكن أن تصل إلى القتل. فلم يبدُ لي أنها تكره جميع الرجال - فأنا أرى أنها معجبة بهم - إلا أنني أرى بوادر نفور منهم تتبدى عليها. سألتها: "بالنسبة لقضية (نيلي) من كان الجاني؟".

"أوه... لقــد كـــان أحد المستجدين في مدرسة تدريب المشاة. لقد وقع في غرام تلك الممرضـــة وتـــبعها حتـــى سيارتها ذات ليلة وهي تهم بمغادرة المستشفى. ولقد اعترف بجـــريمته تفصيلاً كما أبدى اعتذاره وأسفه أمام جميع أفراد أسرتها على ما اقترفه، ثم تم الحكم عليه".

أومأت متفهماً. لم تكن هذه هي سياسة الجيش، إلا أنه أصبح من المعتاد الآن أن يتم دفع المتهم أو الجاني إلى الاعتذار إلى الضحية أو عائلتها، وكذلك الاعتذار لقائده المباشر. يـــبدو لـــي ذلك طقساً يابانياً أكثر منه غربياً، إلا أنه أمر لا بأس به. ومن المفارقات أن الجنـــرال (كامبـــيل) كان هو من تبنى هذا الأسلوب هنا في (فورت هادلي). قلت لها: "يا الله.. لا يمكـــن أن أتخيل نفسي في مكان ذلك الشاب الذي سيضطر إلى الاعتذار للجنرال عن جريمة اغتصابه وقتله لابنته".

وافقتنـــي (ســـينثيا) الـــرأي قائلةً: "سيكون من الصعب عليه حتى أن يجد الكلمات المناسبة... هل يمكن أن نعود لمناقشة الجريمة.. أظن أن هذا أفضل؟".

"بالطبع... ولكن أيمكن أن تكون جريمة قتل ثم اغتصاب؟... أقصد حالة نيكروفيليا (اشتهاء الموتى)؟".

"كلا. وأرجوك ألا تستطرد في هذه الموضوعات".

"لـــكِ هـــذا". أمكننـــي أن أرى أمامنا على البعد خيمة خضراء كبيرة مفتوحة، أشبه بالـــسرادق الذي يقام في الحفلات بالأماكن المفتوحة، حيث ينصب رجال البحث الجنائي هذه الخيام عادةً فوق مسرح الجريمة لو كانت في مكان مفتوح، حتى يحفظوا الأدلة بعيداً عن تقلبات الطقس.

قالت لي (سينثيا): "أنا ممتنة لمدحك لي لدى (كارل)".

أنا لم أذكر أنني قد قلت شيئاً من هذا لكارل، إلا أنني فضلت أن أتجاوز هذه النقطة قائلاً: "يرغب (كارل) منا أن نعيد تمثيل الجريمة بالكامل، وبكل تفاصيلها، حيث ستقومين أنت بدور (آن كامبيل)".

فكرت في الأمر للحظة ثم قالت: "حسناً... لقد قمت بذلك من قبل".

"جيد. وأنا متشوق لهذه التجربة أيضاً".

كنا قد وصلنا إلى موقع الجريمة، وأوقفت (سينثيا) سيارتها خلف عربة الفان الخاصة بوحدة البحث الجنائي. وقالت: "هل سنعاين الجثة ثانيةً؟".

"كلا". فالجثة قد انتفخت بطبيعة الحال، ولن نتحمل رائحتها، ومع أنني رجل عقلاني وعملي، إلا أنني راغب في أن تبقى صورة (آن كامبيل) في مخيلتي كما هي.

الفصل الحادي عشر

عشرات العربات الفان والسيارات كانت قابعة على الطريق الضيق، لوحاتها تبين تبعيتها لمختبر البحث الجنائي بإدارة التحقيقات العسكرية وكذلك الشرطة العسكرية بالقاعدة.

أخذت طريقي أنا وسينثيا إلى الخيمة المفتوحة.

كانت ظهيرة حارة معتادة في جورجيا في هذا الوقت من العام، مع هبات من النسيم بين الحين والآخر تحمل معها شذا الصنوبر عبر هذا الجو الرطب.

إن الموت لا يوقف الأنشطة العسكرية، حيث كانت ساحتا الرماية على يسارنا ويميننا مشغولتين بالتدريبات بالرغم من المشكلة القائمة في ساحة الرماية رقم 6. فبوسعي أن أسمع وابل الرصاص المنطلق من الأسلحة طراز إم 16، وهي أصوات طالما أثارت في نفسي ذكريات مريرة. إلا أن لتلك الذكريات أثرها في أن أضع الأمور في نصابها الصحيح. أعني أن هذه القضية أمر لا يطيب لنفس المرء، ولكنها لا تقارن بالقتال وسط الأدغال مثلاً. فها أنذا حي، بينما هناك جثة فتاة تبعد عني ما لا يزيد عن خمسين متراً.

كان حول ذلك السرادق قرابة الثلاثين رجلاً وامرأة، منهمكين في عملهم.

إن علم البحث عن الأدلة الجنائية يعتمد على نظرية التحول والتبادل. فمن يعمل بالبحث الجنائي موقن بأن الجاني دوماً ما يعمل على محو آثار الجريمة عن الضحية وعن موقعها، ولكنه سيخلف وراءه آثاراً تدل عليه هو وذلك على ضحيته أو في موقع الجريمة. وهذا ينطبق أشد ما ينطبق على جرائم التعدي الجنسي، وذلك بسبب الطابع الحميمي لتلك الجرائم.

على أن هناك حالات يتصف فيها الجاني بالحصافة والذكاء، فلا يخلف وراءه أي من الأدلة المعتادة في هذه الجرائم: كالشعر أو السائل المنوي أو اللعاب أو حتى آثار كريم البشرة الذي يضعه على ذقنه. وحسب خبرتي، فإني ألاحظ هنا أننا أمام إحدى هذه الحالات النادرة. ولو تيقنت من ذلك فإنه لن يكون أمامي سوى أن أتبع الأسلوب القديم والقائم على الاستجواب، والحدس، والعمل الميداني. ولكني حتى لو وضعت يدي على الجاني، فإن الحصول على أي اعتراف منه من دون ما يدعمه من أدلة جنائية سيكون أمراً صعباً.

توقفت قبل الدخول إلى السرادق، فتقدم نحونا رجل قصير أصلع مفارقاً ذلك الحشد الملـــتف حول الجثة. هو كبير المساعدين كال زايفر، والذي بدا لي أنه الضابط المسؤول عن البحث الجنائي ورئيس كل هذا الفريق. وهو رجل محترف ذو حدس مميز في مجال الأدلـــة الجنائـــية. إلا أنه – كغيره من التقنيين – لا يركز إلا على أدق الأمور لدرجة أن أوضـــح الأمور الظاهرة قد تفوته. ولا بأس في ذلك طالما كان ناجحاً في تخصصه، أما الأمور الكبيرة فهي تخصصي أنا. فأنا لا أميل إلى رجال الأدلة الجنائية الذين يلعبون دور المحقق.

كـــان كـــال شاحباً كعادته كلما عاين جثة. تصافحنا وعرفته بسينثيا، إلا أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض. وقال: "إن الأمر يبدو وكأن العالم كله قد خلف آثار أقدامه حول هذه الجثة يا بول".

كلما قابلني قال لي هذه العبارة. فقلت له: "لم يتعلم البشر التحليق فوق الأرض بعد".

"أنتم تفسدون عملنا بتلك الآثار".

"هل وجدتم أية آثار لأحذية غير عسكرية؟".

"أجـــل، هـــناك آثار لحذاء رياضي" ولكنه سرعان ما انتبه لحذاء سينثيا، فقال: "هل قمتِ بـــ...".

"بلـــى. وســـوف أعطـــيك آثـــار هـــذا الحذاء. وهل وجدتم أية آثار لأقدام بخلاف الأحذية؟".

"أجـــل. فقد رفعنا آثار جزئية لقدم حافية، من المحتمل أنها للمجني عليها، أما البقية فهي لأحذية عسكرية ثقيلة، هذا مع اختلاف أنماط آثارها".

ذكرته بأنه يكرر كلامه، "أعتقد أنك قد أخبرتني بهذا من قبل".

"أجـــل. فعليـــنا أن نرفع بصمات باطن القدم من الجميع، ولكن عليَّ أن أخبرك بأن المنطقة بها آلاف البصمات لأقدام، كما أن هذه الساحة مغطاة بالشجيرات والعشب".

"أرى ذلك".

"كم أكره أن تقع الجريمة في مكان مفتوح". أخرج منديله ورفع قبعته العسكرية حتى يمسح العرق عن صلعته الناصعة.

نبهـــته مداعـــباً: "هناك مذكرة جديدة من البنتاغون يا كال. تقول بأنك لست قصيراً أصلع، بل رجلاً يلاقي تحديات مع المسطحات الرأسية".

فنظر إلى سينثيا قائلاً: "هل عليكِ أن تعملي مع هذا الرجل؟".

"إنـــه يحاول أن يغيظني أنا وليس أنت، حيث إنني قد ألقيت عليه تواً محاضرة في التحلي بالإحساس".

"حقاً؟ لا تضيعي وقتك معه إذن".

وافقته سينثيا قائلة: "تمام. هل وصلك ما أرسلته لك بخصوص قضية نيلي؟".

"أجـل. وأجرينا تحليل الحامض النووي دي إن إيه للسائل المنوي الذي وجدناه في عضوها التناسلي، وقارناه بما أرسلتيه من ذلك المغتصب. والنتيجة إيجابية، فاعترافه سليم إذن. تهانئي لك".

هنأتها أنا أيضاً وسألت كال: "هل من آثار منوية على هذه الضحية؟".

"لقـد أجريت مسحاً بالأشعة فوق البنفسجية على الجثة، ولم نجد أية آثار منوية. كما أخـذنا عينات من العضو التناسلي والفم والشرج، وستظهر النتائج خلال نصف ساعة... كمـا قام المختصون برفع كل ما يمكن أن يوجد من آثار على الجثة والجيب وحقيبة اليد وأوتاد الخيمة والحبال. وانتهت عملية التصوير الفوتوغرافي، ومختصو تحليل عينات الدم يفحصون عينات الدم وكذلك اللعاب. بينما يبحث خبراء الكيمياء عن أية آثار على الجثة، إلا أنـي لا بد من أن أعلمك بأني لم أجد أية شعرة على الجثة. كما قمت بإحضار فريق لفحص الأوتاد والحبل، إلا أن من الواضح أن كليهما مستعمل من قبل. وبإيجاز أقول بأننا لم نتوصل إلى أي دليل مادي بعد".

دوماً ما يتصف كال بهذه النظرة التشاؤمية. وبعدها يأتي ليخبرك بأنه قد توصل إلى شـيء ما بعد ساعات من العمل المعملي الفذ. فسر النجاح والتقدير أن تجعل عملك يبدو للناظـر إلـيه أصـعب مما هو في واقع الأمر. وأنا نفسي ألجأ لذلك أحياناً. ولم يبدُ على سينثيا أنها قد فهمت أسلوبه هذا. فسألت كال: "هل قمتم بإزالة الأوتاد؟".

"أزلـنا فقط الوتد المجاور للقدم اليسرى لأجل أن نحصل على عينة شرجية، ولكي نحدد إمكانية أن يكون قد علق بالوتد نوع من التربة مخالف للتربة بموقع الجريمة. إلا أننا لم نجد شيئاً مختلفاً عن طين جورجيا الأحمر".

"أريـد مـنك أن تحدد ما إذا كان أيٌّ من الأوتاد المجاورة للمعصمين قابلاً لأن يتم الـتخلص مـنه لـو كانت المجني عليها تريد القيام بهذا. وكذلك ما إذا كانت القيود على المعـصمين عبارة عن عقدة منـزلقة أم لا. وأود أيضاً أن تخبرني عما إذا كنت ترى أن المجني عليها قد أمسكت أو كان بوسعها أن تمسك بطرف من القيد بيدها".

"كل هذا الآن؟".

"لو سمحت".

دار كال على عقبيه وانصرف.

قالـت لـي سـينثيا: "لو أن أي من هذه الاحتمالات لم يحدث أو كان محالاً، فإننا سنستبعد أي احتمال لفكرة اختناق الجنس، أليس كذلك؟".

"أجل".

"إذن فنحن نبحث عن جانٍ".

"إمـــا جانٍ أو شريك متواطئ. فلا زلت أرى أن الأمر كان مجرد لعبة في البداية... وأفضل أن تبقى هذه المعلومة سراً".

"بالتأكـــيد... أنـــا لا أمانـــع في أن نرى الجثة ثانيةً. فأنا أعرف ما نبحث عنه". ثم اتجهـــت صـــوب السرادق حيث سرعان ما اختفت وسط الحشد وهي تنحني على الجثة. ســـرت عائـــداً إلى الطريق لأقف بجوار السيارة الجيب. تطلعت عبر الطريق تجاه موقع الحراســـة حيث كانت تقف روبينـــز إلا أنني لم أستطع أن أتبين مخزن الذخيرة من على بعـــد يـــبلغ الكيلومتر. فاستدرت وأمعنت النظر في الطريق ناحية الاتجاه الذي قدمنا منه لأرى أن الطريق يتخذ منحنى ناحية اليمين، فلو أن هناك سيارة توقفت على بعد مائة متر – عند ساحة الرماية رقم خمسة – فإن أضواءها لن ترى من حيث كانت روبينـــز تقف. إنننـــي لا زلـــت أشـــك فـــي مسألة توقيتات رؤية أضواء السيارة، وكان عليّ أن آخذ في الاعتبار احتمال ألا تكون تلك الأضواء التي رأتها روبينـــز في البداية هي أضواء سيارة آن كامبيل الجيب – فلو كان هذا صحيحاً فإنه أمر يدعو إلى التساؤل عما كانت تفعله آن كامبـــيل فيما بين الوقت الذي غادرت فيه القيادة في الساعة 1:00 ووقت رؤية روبينـــز لأول أضواء كاشفة في الساعة 2:17؟

اقتـــربت مني سينثيا ومعها كال، وقال لي كال: "إن الأوتاد ثابتة جداً في الطين. ولم يـــستطع أحـــد رجالنا اقتلاع واحدة رغم كل ما بذل من جهد. كما أن القيود بالغة الإحكام ولـــم يـــسعنا فكها حتى باستخدام بعض الأدوات. أما بالنسبة لأطراف القيود فإنها بالفعل تصل إلى راحة يدها، إلا أنني أرى أنه كان بوسعها أن تجذبها. هل تظن أن الأمر عبارة عن لعبة جنسية؟".

"ذلك مجرد خاطر. وأن أريده أن يبقى في السر".

"أجل. لكن يبدو أن كان هناك من هو برفقتها في الليلة الماضية، مع أننا لم نجد أي دليل على هذا حتى الآن".

"أين كان موضع أثر القدم الحافية؟".

"عـــند قرابة منتصف المسافة بين الطريق والجثة. هناك". أشار إلى حيث يقف أحد رجاله يعاين موقع الأثر.

"كيف تم قطع الحبل؟".

أجابني كال: "ربما ببلطة أو شيء من هذا القبيل. وعلى سطح خشبي. وربما لم يتم هذا هنا – ويقوم المختصون بفحص مقاعد تلك المدرجات بحثاً عن علامات شبيهة بذلك.

والأغلـب أن أطوال الحبال كانت مقطعة مسبقاً بعيداً عن هنا... فيبدو أنها كانت من عتاد المغتـصب الـذي جهز له مسبقاً". كم أحب الأشخاص الذين لا يتعدون على تخصصات غيـرهم. والحقـيقة أن ما بدا أنه جزء من عتاد الجاني كان في الواقع جزءاً من أدوات تمتلكها الضحية لكي تحقق بها خيالاتها الجنسية. إلا أنني وجدت أن من الأفضل أن يبقى الجميع متصوراً أنها جريمة اغتصاب.

قال لي كال: "أنت أردت أن تعرف معلومات عن البقعة السوداء التي بباطن قدمها".

"أجل".

"هـناك احـتمال تسع وتسعين بالمائة أن تكون مادة الإسفلت. إلا أننا سنتأكد تماماً خلال ساعة، حيث سأقارن بينها وبين الطريق هنا، إلا أنها لن تكون مقارنة جازمة".

"تمام".

سألني: "كيف توليت هذه القضية؟".

"لقد توسلت إليهم ليسندوها إليَّ".

ضحك ثم قال: "إنني لا أتمنى أن أكون في موضعك".

"ولا أنا".

ضحك، وبدا لي أنه يستمتع بصحبتي، فأردت أن أنبهه قائلاً: "لو لم تقم بعملك على أكمل وجه فسوف تلقى التوبيخ الملائم على هذا".

"مهلك... فلو حدث هذا، فإني أعرف كيف أحمي نفسي. أما أنت ففشلك سيودي بك. سيفترسك الكولونيل هيلمان افتراساً".

كانـت هـذه الحقيقة للأسف. "لقد قمنا بنقل مكتب المجني عليها، وجميع متعلقاتها المنـزلية، وكذلك الشخصية في جوردان فيلد، فحينما تنتهون من هذا الموقع توجهوا إلى هناك".

"أعلم هذا. ولسوف ننتهي من هذا الموقع مع حلول الظلام، ثم سننتقل ليلاً إلى هناك".

"هل أتى الكولونيل كينت إلى هنا؟".

"بلى. لبضع دقائق فقط".

"ما الذي كان يريده؟".

"نفـس استفـسارا‌تك، ولكـن مـن دون حصافتك طبعاً... وهو يريد منك أن تقابل الجنرال. هل وصلت الرسالة؟".

"كـلا لـم تصل. حسناً يا كال، أنا في مقر القيادة. وأعمل على أن يتم إرسال جميع التقارير والاستفسارات إليَّ مباشرة أو إلى سينثيا، تحت عنوان"سري للغاية". أو يمكن أن

تبلغـــنا بالهاتـــف أو بحـــضورك شخصياً. سكرتيرتي اسمها بيكر. وعليك ألا تتحدث عن مجـــريات القـــضية مع أحد. ولا حتى القائد العام هنا. ولو سألك عن أي شيء فعليك أن تطلب منه أن يتصل بي أو بسينثيا. وأخبر رجالك بنفس هذه الأوامر. فهمت؟".

أومأ بالإيجاب، ثم سألني: "ولا حتى الكولونيل كينت؟".

"بل ولا حتى الجنرال نفسه".

هزّ كتفيه قائلاً: "حسناً".

"هلمّ بنا نفحص دورات المياه. ومن بعدها يمكن لرجالك أن يتابعوا عملهم".

"حسناً".

وبينما نحن في طريقنا سألت سينثيا كال: "متى سترسلون الجثة للتشريح؟".

فرك كال رأسه الصلعاء قائلاً: "أوه... أعتقد بعد حوالى ثلاث ساعات".

فقالـــت: "حـــسناً.. لماذا لا تتصل بمستشفى القاعدة حتى يرسلوا بأخصائي التشريح لـــيعاين الجثة هنا؟ ثم تخبره بضرورة أن يتم عملية التشريح بأسرع وقت ممكن، حتى لو تطلـــب منه ذلك العمل حتى وقت متأخر، كما نرغب في الحصول على تقرير حول سبب الـــوفاة الجنائي في وقت ما هذه الليلة. وأخبره بأن الجنرال سيقدر له جهده هذا، حيث إنه وزوجته يودون إتمام مراسم الدفن والجنازة".

"حسناً".

لقد اندمجت سينثيا مع مهامها أخيراً. يبدو أن تعليمي سيأتي بفوائده.

اجتـــزنا ثلاثتنا المدرجات – القائمة على مساحة منبسطة من العشب – ووصلنا إلى صـــف الأشجار حيث توجد دورتا مياه. لقد قام كينت بتسوير المنطقة بالكامل، فكان علينا أن نتخطى الشريط الأصفر. كانت دورة المياه الأقدم هي المخصصة للرجال، أما الأحدث فللنـــساء. فدخلـــنا دورة مياه الرجال وقمت بإشعال الضوء مستخدماً منديلاً لتفادي إتلاف البصمات.

كانـــت الأرضية خرسانية، أما الجدران فمن الخشب، وكانت هناك ستائر عند نقطة تلاقـــي السقف بالجدران. هناك أيضاً ثلاثة أحواض وثلاثة مقاعد حمام، وثلاث مبولات، وجمـــيعها نظيف. وافترضت أنه لو كان هناك تدريب على إطلاق النار لإحدى الوحدات بـــالأمس فلـــم يكونوا لينهوا التدريب قبل الساعة 17:00، وكانوا سيتولون مهمة تنظيف دورة المياه. بل أن سلال المهملات كانت فارغة كما أن المكان ينم عن نظافة تامة.

لفـــتت سينثيا انتباهي إلى أحد الأحواض، حيث كان هناك بعض الشعر. فقلت لكال: "ها هو شيء يستحق التحليل".

فاقتــرب وأمعــن النظــر في الشعر ليقول: "شعر رأس بشري، قوقازي الأصل... متساقط وربما مقصوص، إلا أنه ليس نتاج الجذب الشديد، حيث لا توجد جذور له. لا يعد عينة، إلا أن من الممكن أن نحصل على فصيلة دم صاحبه، وربما نتوصل إلى إذا ما كان ذكراً أم أنثى، إلا أن التأكيد الجيني غير ممكن لعدم وجود جذور بهذا الشعر".

"هل يمكن أن نعرف اسم صاحبه أو صاحبته؟".

لــم يندهش كال. فقد استطلع دورة المياه وقال: "سأولي هذا أولوية ما أن ننتهي من مهمتنا هنا".

"وعليك أن تفحص أنابيب الأحواض كذلك".

"هل عليك أن تخبرني بذلك؟".

"لا أعتقد ذلك".

توجهــنا إلى دورة مياه السيدات، والتي كانت نظيفة كنظيرتها الذكرية. كانت توجد ســتة مقاعــد حمام، ووجدنا أن أغطية تلك المقاعد مرفوعة، حيث إن هذه هي تعليمات الجــيش، بغض النظر عن مدى التزام المجندات بها. قلت لكال: "أود منك أن تخبرني ما إذا كانت النقيب كامبيل قد استخدمت دورة المياه هذه أم لا".

رد بقوله: "لو لم نتأكد من ذلك، فسوف نتمكن من أن نتوصل إلى آثار لها من قبيل عرق أو زيت استحمام أو خلايا جلدية في أنابيب الحوض. سأبذل ما في وسعي".

"ولا تنسَ رفع البصمات. خاصة عند مفاتيح الكهرباء".

"هل تنسى أنت أن تتنفس؟".

"أحياناً".

"أما أنا فلا أنسى شيئاً".

"ممــتاز". تجولــنا في المكان، إلا أنه لم يكن هناك دليل ظاهر يمكن أن نربط بينه وبين الضحية، أو موقع الجريمة أو الجاني. ولكن لو كنت تؤمن بنظرية التحول والتبديل مثلي فحينها ستتبين أن المكان يعج بأنواع الأدلة.

خرجنا إلى الضوء الطبيعي عائدين إلى الطريق. قلت لكال: "لا تغضب مني، ولكن لا بــد من أن أذكرك بأن تضع سلسلة سليمة من الحراسة على الأدلة، كما عليك أن توثق كل دليل".

"لا تقلــق. عليك فقط أن تلقي القبض على متهم وعندها سنسلخ جلده، ونمتص دمه، ونقتلع شعره، ونجعله يعترف بكل ما اقترفه، تماماً كما فعلت سينثيا مع ذلك الشخص في قضيتها السابقة".

"آمل فقط في أن نجد هنا شيئاً يقودنا إلى ذلك المتهم".

"دوماً ما تكون هناك أدلة. بالمناسبة، أين ملابس المجني عليها؟".

"لقد اختفت. كانت ترتدي زي الخدمة العسكرية".

"إذن فلو نجحنا في التوصل إليه فإنه سيكون بلا جدوى منه".

"أجل".

"لا يـــرتاح رجال البحث الجنائي حينما يكون كل من هم حولهم مرتدين لنفس الزي والأحذية".

"هذا صحيح. هل أخذت بصمات أحذية كل أفراد الشرطة العسكرية هنا بالموقع؟".

"أجل".

"بما في ذلك الكولونيل كينت؟".

"أجل".

عدنا إلى الطريق وتوقفنا. قالت سينثيا: "تذكر يا كال أن الضغط الوحيد الواقع عليك منبعه نحن. أما الباقون فأمرهم لا يهمك".

كـــان يحـــدق تجاه الجثة وهو يقول: "إني منصت لك، لقد كانت جميلة جداً. ولدينا إحدى صورها الدعائية بالمختبر". ثم نظر إلى سينثيا وإليَّ وقال: "أتمنى لكما حظاً سعيداً".

ردت سينثيا: "وأنت أيضاً".

تركنا كال زايفر متجهاً بتؤدة إلى حيث الجثة.

أما نحن فاستقلينا السيارة، بينما تسألني سينثيا: "إلى أين؟".

"جوردان فيلد".

الفصل الثاني عشر

السرعة ثم السرعة ثم السرعة. فكلما طالت مدة البحث كلما كان إلقاء القبض على المجرم أصعب. والعكس بالعكس.

أما عن مفهوم "التحول والتبديل" فهو مرتبط بالدليل الجنائي، أي جميع الأدلة المادية صغرت أم كبرت. أما بالنسبة للمحقق فهو مفهوم غيبي في الأغلب. فمن خلال الاستفادة من ما لدينا من سجلات وتحليلات لجرائم العنف، يمكنك أن تعرف كل شيء عن المجرم من دون أن تلتقيه. وعن طريق تحليل ما نعرفه من معلومات عن سلوكيات المجني عليه في مثل تلك الجرائم، والتشريح السيكولوجي له، تكتسب من المعرفة عن المجني عليه ما يفوق ما سيخبرك الناس به عنه. وفي النهاية فقد تخمن طبيعة العلاقة بين المجني عليه والجاني وتستدل على أنهما يعرفان بعضهما البعض، وهذا هو حال أغلب القضايا. ولو سايرت نظرية أن هناك علاقة تبديل وتحول وجدانية وسيكولوجية بين المقتول والقاتل، يكون بوسعك أن تقلل عدد المشتبه بهم في القضية. ومع هذا فأنا سأسعد طبعاً بأي مما يأتيني به كال زايفر من أدلة.

اتجهنا شمالاً نحو مقر القاعدة الرئيسية ثم انحرفنا يساراً عند لافتة تشير إلى جوردان فيلد. قلت لسينثيا: "حسبما توصل إليه كال بالنسبة للأوتاد والحبل فإنني لا أعتقد أن عليَّ أن أقيدك".

ردت قائلةً: "إن كارل محقق مكتبي نموذجي".

"هذا صحيح". فمن بين خصال كارل التي تثير الحنق ما اعتاد عليه من التوصل إلى أفكار ذكية، حيث يجلس في مكتبه في فولز تشيرش ليقرأ تقارير المختبرات، وشهادات الشهود، والنظر في الصور، ومن ثم يصيغ النظريات حول السبل المثالية للبحث والتحقيق في هذه القضايا. وكل من يعمل في هذا المجال يحب هذه الطريقة، حيث يتخيل كارل أنه ذلك العلامة الأوروبي الذي لا غنى عنه، هذا بغض النظر عن نجاحه أو فشله.

إلا أن كارل قائد قدير، حيث يتولى مهام صعبة، ولا ينافق أحداً، كما أنه يقف دوماً في صف من يعمل معه. ولا شك في أن الكولونيل كارل جوستاف سيجد نفسه في هذه القضية بالذات مضطراً إلى أن يلبي استدعاء البنتاغون. وربما يقف أمام وزير الدفاع ورئيس المباحث الفيدرالية، والمدعي العام، وغير هؤلاء لكي يبين لهم أن "أفضل رجل

لدينا – المساعد بول برينير – هو الذي يتولى هذه القضية، وقد أخبرني بأنه ليس بحاجة إلى أية مساعدة خارجية، وقد طمأنني بأنه سيغلق ملف هذه القضية بنجاح في غضون أيام. ومن المؤكد أنه سيلقي القبض على الجاني". أنت محق يا كارل، فقد أكون أنا الذي من سيلقى القبض عليه في نهاية الأمر.

رمقتني سينثيا وقالت: "تبدو شاحب الوجه".

"مرهق فحسب".

اقتربنا من جوردان فيلد، وهي جزء من فورت هادلي، حيث إن معظم مساحة هادلي مفتوحة، وهناك حرية حركة كبيرة، لكن جوردان فيلد تعد منطقة أمنية، لذا أوقفتنا الشرطة العسكرية عند البوابة. وتقدم أحد أفرادها لينظر في بطاقة الهوية الخاصة بسينثيا، وسألها: "هل أنت من يحقق في قضية القتل يا سيدتي؟".

"أجل... وهذا والدي".

ابتسم المجند وهو يقول: "الهانجر رقم ثلاثة، سيدتي".

انطلقت سينثيا بالسيارة تجاه الهانجر رقم ثلاثة. لقد كانت جوردان فيلد في الأصل منطقة خاصة بسلاح الجو – الذي ألغيت تسميته هذه – خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، وتبدو أشبه بديكور مجهز لتصوير أحد أفلام الحرب العالمية الثانية. فقد كانت أصغر من أن تناسب سلاح الطيران في مرحلة ما بعد الحرب العالمية، وفي نفس الوقت فهي أكبر كثيراً من احتياجات الجيش هنا مع محدودية سلاح الطيران به. والحقيقة أنه لو كانت كل هذه المساحة – التي تشمل هادلي وجوردان – ملكاً لشركة جنرال موتورز، لكان نصفها قد نقل إلى المكسيك بينما سيتم إغلاق النصف الآخر. لكن القوات المسلحة لا تصدر بطبيعة الحال أية تقارير بالأرباح والخسائر، أما منتجها النهائي – الدفاع عن الوطن – فهو منتج تجريدي نوعاً ما، مثله مثل راحة البال، وبالتالي فهو لا يقدر بمال. على أنه في أرض الواقع لا تمثل هادلي وجوردان أكثر من مجرد مشروعين حكوميين يهدفان لصالح الاقتصادي المحلي. فما تصنعه الحرب، تحافظ عليه مكاسب السلام.

وصلنا إلى الهانجر رقم ثلاثة، حيث وجدنا هناك سيارة كينت العسكرية، وسيارة شرطة من طراز فورد. وكانت النقوش على الدرع الذهبي في باب سيارة الشرطة تبين أنها تابعة لـ "رئيس شرطة ميدلاند".

قالت سينثيا: "تلك هي سيارة ياردلي رئيس الشرطة. لقد تعاملت معه مرة. هل سبق لك التعامل معه؟".

"كلا، كما لا أنوي أن أتعامل معه الآن".

مشينا إلى داخل الهانجر، حيث لاحظت في البداية وجود سيارة بيضاء من طراز بي إم دبليو 325 ذات السقف المتحرك، وهي كما أظن سيارة آن كامبيل. وفي نهاية الهانجر توجد جميع متعلقات منزل آن كامبيل، وقد تم إعادة ترتيبها على شكل حجرات منفصلة، بل وحتى السجاد تم فرشه كما كان بالمنزل تماماً. وحينما اقتربت لاحظت وجود أثاثها المكتبي كذلك. ومع اقترابنا أكثر لاحظت طاولة عريضة عليها مجموعة من الصور الفورية لمنزلها ومكتبها. وهناك كان عدد من أفراد الشرطة العسكرية، والكولونيل كينت، ورجل يرتدي قبعة كاوبوي، فحدست أنه ياردلي رئيس الشرطة. كان ضخم الجثة، أحمر الوجه، لا تكاد الملابس تسع حجم جسده، وخمنت أن حمرة وجهه هذه تعود إلى ارتفاع في ضغط الدم، أو أنه غاضب منا في هذه اللحظة بالذات.

كان ياردلي يتحدث مع كينت وهما يرمقاننا ونحن نقترب. وفي النهاية التفت إلينا ياردلي وأنا أقترب منه. وحياني بهذه الكلمات: "عليك أن تفسر لي وبالتفصيل ما قمت به هنا، يا بني".

لم أكن لأفعل هذا، فقلت له: "لو لامست أي شيء أو اقتربت من أي مما هو موجود هنا، فسيتعين عليَّ أن آخذ بصماتك، وقطعة نسيج من ملابسك كذلك".

توقف ياردلي على بعد خطوة مني، وحدق فيَّ لبرهة من الوقت، ثم ضحك قائلاً: "أيها الوغد" ثم التفت قائلاً لكينت: "أسمعت هذا؟".

أجبر كينت نفسه على الابتسام، إلا أنه لم يكن سعيداً بما يجري.

تابعت كلامي قائلاً: "أرجو ألا تنسى أنك بداخل منطقة عسكرية وأنني المسؤول الوحيد عن هذه القضية".

فقال كينت بنبرة بطيئة: "أقدم لك أيها القائد ياردلي كلاً من السيد برينير والآنسة صنهيل".

"لست سعيداً برؤيتهما على أية حال".

ربما تكون قد خمنت أن ياردلي ذا لكنة جورجية ريفية، وهي لكنة تثير أعصابي دوماً. وبوسعي أن أتصور مدى تأثير لكنتي الجنوبية عليه.

التفت ياردلي إلى سينثيا ملامساً بأصابعه طرف قبعته، وهي الطريقة الجنوبية للاحترام، وقال لها: "أعتقد أننا قد التقينا من قبل يا سيدتي". كان يقصد بالطبع أن يتجاهلني، فسألته: "هل يمكن أن تخبرني بالصفة الرسمية التي تجعلك متواجد هنا؟".

ابتسم من جديد، فيبدو أنني أثير إعجابه المتواصل، ثم قال: "إن صفتي الرسمية هي أن أسأل عن الكيفية التي وصلت بها كل هذه المتعلقات إلى هنا".

وحيث إنني أتذكر نصيحة كارل وأرغب في رحيل هذا الرجل من هنا، فقد قلت له: "لقد طلبت عائلة القتيلة مني أن أتولى مهمة نقل كافة هذه المتعلقات إلى هنا".

قلب هذه الكلمات في عقله قليلاً ثم قال: "تفكير جيد أيها الصبي. لقد أفحمتني".

"أشكرك". يبدو أنني قد أعجبت بشخصيته، فأنا دوماً ما أميل إلى الحمقى.

ردّ ياردلـي بقـوله: "سـأعرض علـيك عرضاً – أن تتيح لرجال البحث الجنائي بالشرطة فحص هذه الأشياء، وعندها سأعتبر أن شيئاً لم يكن".

"سأفكر في الأمر بعد أن ينتهي رجال البحث الجنائي هنا من عملهم".

"لا تتلاعب بي أيها الصبي".

"أنا لم أفكر في ذلك مطلقاً".

"جيد. كما أنك لو أتحت لرجالي فحص هذه الأشياء سأسمح لك بالرجوع لفحص منـزل القتـيلة، والذي يقبع الآن تحت حراسة رجالي وممنوع دخوله على أي أحد كان".

"لا يهمنـي أن أعود لفحص المنـزل الآن". فيما عدا القبو بالطبع. إن لدى الرجل ورقة رابحة لا يعلم عنها أي شيء.

"حسناً، لقد حصلت على بعض الملفات الرسمية الخاصة بالقتيلة".

إن الصفقة تسير في صالحي، إلا أنني قلت: "لو أنني أريد تلك الملفات لطلبتها بشكل قانوني".

فالتفت ياردلي إلى كينت قائلاً: "من الصعب التفاوض مع هذا الرجل". ثم عاد ليقول لـي وهـو يـشير إلـى رأسه التي بدت لي فارغة: "لديَّ هنا أشياءُ لن يمكنك أن تنالها بالقانون..".

"هل كنت على معرفة بالقتيلة؟".

"بالطبع يا بني. وأنت؟".

قلت له محاولاً أن أستشف المغزى من كلامه: "لم يكن لي الشرف".

فتابع كلامه بلهجة تثير الحنق: "كما أنني أعرف والدها أيضاً. اسمع... احضر إلى مكتبي وسنصفي جميع هذه الأمور".

فقلـت له وأنا أستحضر صورة المسكين ديلبيرت إيلكينـز في الزنـزانة: "لو كان لنا أن نتكلم، فإن ذلك سيكون في مقر قائد الشرطة العسكرية".

كـان لذكر لقب كينت أثرٌ في إثارة غضبه فاندفع قائلاً: "سنتشارك جميعنا في بحث الملفات والأدلة وتقارير البحث الجنائي".

وهنا تكلمت سينثيا لأول مرة: "سيدي القائد، إنني أتفهم شعورك تجاه تصرفنا غير المناسب هذا، على أن من المفترض ألا تأخذ ذلك على محمل شخصي، أو أن تراه تعدّياً على اختصاصاتك. فلو كانت المجني عليها أية شخصية أخرى، لكنا قد طلبنا منك أن تصحبنا في الدخول إلى المنزل، ولكنا قد تناقشنا معاً في أنسب وسيلة للقيام بهذه المهمة".

انقبضت شفتا ياردلي وكأنما يتأمل في كلماتها أو أنه بصدد أن يعبر بوقاحة عن رأيه في هذا الكلام.

تابعت سينثيا كلامها قائلةً: "إننا نغضب مثلك تماماً حينما يتم إلقاء القبض على جندي داخل أية بلدة لمجرد ارتكابه لأي شيء تافه مما قد لا يعاقب عليه أي مدني".

كدت أهم بأن أقول أن الحالة الوحيدة التي يعاقب فيها المدني على أي شيء فعله هي أن يكون زنجياً.

واصلت سينثيا كلامها الهادئ: "لذا، علينا أن نجلس معاً في الوقت الذي يناسب كلينا غداً لكي نصيغ علاقة عمل مفيدة".

أومأ ياردلي متفهماً، إلا أن عقله كان في وادٍ آخر. ولكنه رد في النهاية قائلاً: "هذا عرض منطقي". ثم قال لكينت: "أشكرك أيها الكولونيل. هاتفني هذه الليلة أرجوك". بعدها التفت إليَّ ليربت على كتفي قائلاً: "لقد أفحمتني أيها الصبي". ثم انصرف عبر الممر الطويل للهانجر، وهو ينوي العودة لينتقم.

وبعد أن خرج من البوابة الصغيرة، قال كينت: "أخبرتكم من قبل بأنه سينتقم مما فعلتماه".

قلت: "لا يهمنا أياً مما يقوم به".

فردّ كينت بقوله: "لا أود أن أدخل في ترهات مع هذا الرجل. فالحقيقة أنه قد يمثل عوناً كبيراً لنا، حيث إن نصف أفراد هذه القاعدة يعيش في بلدته، وكذلك تسعون بالمائة من الموظفين المدنيين يعيشون في ميدلاند. فسنحتاج حتماً إلى مساعدته حينما نكوّن قائمة بالمشتبه بهم".

"ربما. ولكن أي من المشتبه بهم سوف يلجأ إلى مكان هو في النهاية تابع للحكومة. وهنا سنعتقله مهما كلف الأمر".

هزّ رأسه كينت في غير اقتناع، وبدا لي أنه يحاول الخروج من دائرة الحوار هذه، وقال: "هل التقيت الجنرال؟".

"لا. وهل يفترض بي أن ألتقيه؟".

"هو من يريد أن يلقاك في أسرع وقت ممكن. إنه بمنزله".

"حــسناً.. فليكن". أفهم أن يكون من في مثل مصابه مشغولاً بالعديد من الأمور، إلا أنني لا أفهم أن يكون من بينها أن يطلب لقاء ضابط التحقيقات. لكن أي جنرال – وخاصة الجنــرال كامبيل – ينظر إلى الأمور نظرة عملية، ومن المؤكد أن لديه ما يحرص على تنفــيذه، حتى يظهر أنه لا يزال مسيطراً على الأمور. فقلت لكينت: "لقد التقيت للتو كال زايفر، المسؤول عن فريق البحث الجنائي. هل التقيته؟".

"أجل... إنه مسيطر على مجريات البحث. هل توصل إلى شيء ذي بال؟".

"ليس بعد".

"وأنت؟".

"لديَّ قائمة مبدأية بمن يمكن أن يمثلوا بعض المشتبه بهم".

بدا كينت مندهشاً من ذلك: "بهذه السرعة؟ من هم؟".

"أنت منهم على سبيل المثال".

"ماذا؟... ما الذي تقوله بحق السماء يا برينير؟".

"إن من أشتبه فيهم يمثلون كل من له صلة بموقع الجريمة ومنــزل الضحية، حيث ســيلتقط فريق البحث الجنائي جميع الآثار، والبصمات، وبصمات الأحذية لجميع من كان بهاتين المنطقتين، ولا سبيل لي أن أعرف ما إذا كانت هذه الآثار قد تم تركها قبل أو أثناء أو بعــد وقــوع الجــريمة... ومن ثم فإن المشتبه فيهم مبدئياً هم: الرقيب ساينت جون، الرقيب كاسي – التي ردت على المكالمة – وأنت، وأي من أفراد الشرطة العسكرية الذين وصــلوا إلى مسرح الجريمة، وسينثيا، بالإضافة إليَّ أنا. وهؤلاء ليسوا بالمتهمين بطبيعة الحال، إلا أن عليَّ أن أتعامل بشكل محايد مع أدلة البحث الجنائي".

فقال كينت: "فمن الأفضل إذن أن تبدأ في جمع الإثباتات الخاصة بعدم وجود هؤلاء في مسرح الجريمة وقت وقوعها".

"حسناً... أخبرني أنت بإثباتك".

"جــيد... لقد كنت بالمنــزل داخل فراشي حينما تلقيت مكالمةً من الرقيب المناوب بمكتبي".

"أنت تقطن داخل القاعدة، أليس كذلك؟".

"أجل".

"متى أدركت منــزلك؟".

"عند منتصف الليل. فقد تناولت العشاء في البلدة، ثم ذهبت إلى المكتب، حيث ظللت أنهي بعض أمور العمل حتى وقت متأخر، وبعدها عدت للمنــزل".

"هل يمكن لزوجتك أن تشهد بذلك؟".

"في الحقيقة... كلا، حيث إنها تزور والديها في أوهايو".

"آه".

"أوه... توقف عن هذا يا بول. توقف عما تحاول القيام به".

"هون عليك أيها الكولونيل".

"تظن أنك خفيف الدم؟ إلا أنك لست كذلك مطلقاً. فليس هناك ما يدعوك إلى التسلي بجريمة قتل وبالمشتبه بهم فيها".

تأملته فوجدته مغتاظاً فعلاً.

وتابع كلامه: "ستجد الكثير مما يشبع رغبتك هذه. هناك الكثير من الشائعات، والاتهامات والشكوك. فليس عليك أن تزيد الطين بلة".

قلت له: "حسناً... إني أعتذر. إلا أنني افترضت أن بوسع ثلاثتنا التحدث بكل صراحة. فلن يبارح كلامنا هذه الهانجر يا بيل. وأي مما نفكر فيه أو نتأمله بصوت مسموع سيظل بيننا نحن الثلاثة. هل فهمتني؟".

لم يبدُ لي أنه على استعداد لهذا، فقد باغتني بقوله: "أين كنت أنت في الليلة الماضية؟".

"وحدي بالمنزل في عربتي المتنقلة حتى الساعة 4:30. ثم ذهبت إلى مخزن الذخيرة حوالى الساعة 5:00. لم يكن هناك شهود على ذلك".

سخر مني كينت قائلاً وهو يبدو لي سعيداً لعدم وجود من يشهد على كلامي: "لم تختلف كثيراً عن قصتي". ثم التفت إلى سينثيا قائلاً: "وأنت؟".

"ذهبت إلى مقر القيادة حوالى الساعة 19:00 حيث كتبت تقريري عن قضية نيلي، وانتهيت منه في منتصف الليل، وبعدها ذهبت للنوم، وحدي، حتى أيقظني أحد أفراد الشرطة العسكرية في حوالى الساعة 5:30".

علقت بقولي: "لم أسمع من قبل ثلاث قصص ليس لها إثبات مثل هذه القصص. ليكن، سنصدقها على أية حال في الوقت الراهن. ما أقصده هو أن هذه القاعدة أشبه ببلدة صغيرة، وأن دائرة أصدقاء وأفراد عائلة ومعارف المجني عليها تشتمل على أشهر الأشخاص وأرفع الرتب في هذه القاعدة". ثم وجهت كلامي إلى كينت قائلاً: "أنت تميل إلى أن يكون الجاني من خارج هذه الدائرة يا كينت، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح. ولكن لا تركز على هذه النقطة يا بول".

"لماذا طلبت استدعاء سينثيا لهذه القضية؟".

"نفس السبب الذي جعلني أطلب منك التواجد في هذه القضية. أنكما لستما منتمين للمكان".

بدا لي أنه يقصد رغبته في أن يتولى الأمر محققان لا دراية لهما بخبايا ما يجري داخل القاعدة من أمور يعرفها كل شخص. فسألته: "ما مدى معرفتك بآن كامبيل؟".

تردد لحظات قبل أن يقول: "معرفة جيدة نوعاً ما".

"هل يمكن أن توضح أكثر؟".

كان من الواضح أن الكولونيل كينت – الذي يفوقني رتبة – لم يكن مرتاحاً للهجتي هذه. إلا أن خبرته جعلته على دراية بأن عليه أن يتجاوب معي. وهكذا قال لي ممازحاً: "أعتقد أن من الضروري أن يتلو كل منا على الآخر حقوقه قبل هذا الاستجواب".

ابتسمت بدوري. كان حوارنا غريباً، إلا أنه كان لازماً.

تنحنح ثم تابع كلامه: "كانت النقيب كامبيل هنا منذ عامين. وكنت هنا عندما جاءت، وكذلك أبوها الجنرال وزوجته السيدة كامبيل. ولقد دعتني العائلة لمنزلهما مع بعض الضباط القلائل حتى تعرفنا بابنتهما. لم تكن هناك صلة بيننا من الناحية المهنية، ولكن تخصصها النفسي جعلها مهتمة بالسلوك الإجرامي، كما كنت أنا مهتماً بالعقلية الإجرامية. فكان من الطبيعي أن توجد صيغة علاقة مشتركة بين مهنتي كممثل للقانون وبين مهنتها كخبيرة نفسية".

"وهكذا أصبحتما صديقين".

"نوعاً ما".

"تتناولان الغداء سوياً؟".

"أحياناً".

"والشراب؟ والعشاء؟".

"بين الحين والآخر".

"وحدكما؟".

"حدث هذا مرة أو مرتين".

"لكنك لم تكن تعلم أين تعيش".

"كنت أعلم أنها تعيش خارج القاعدة. إلا أنني لم أذهب أبداً إلى مسكنها من قبل".

"وهل أتت هي إلى مسكنك؟".

"أجل. عدة مرات. زيارات اجتماعية".

"هل كانت زوجتك تحبها؟".

"كلا".

"والسبب؟".

"يمكنك أن تخمن أنت السبب يا برينير".

"حسناً، لقد فهمت". كانت سينثيا من الذكاء الذي يجعلها لا تشترك في هذا الاستجواب لضابط عالي الرتبة، لذا فقد التفت إليها قائلاً: "هل لديكِ أية أسئلة للكولونيل؟".

ردت قائلةً: "فقط سؤال مباشر واضح". كانت تنظر إلى كينت.

فقال: "لم أكن على علاقة حميمية بها. ولو كنت كذلك لأخبرتكم منذ البداية".

قلت: "هذا ما نأمله منك... هل كان لديها رفيق دائم؟".

"لا أعلم شيئاً عن هذا".

"هل كان لها أعداء؟".

فكر في السؤال قليلاً، ثم قال: "كان هناك من يكرهها من بعض الضباط النساء. فقد وجدوا فيها مصدراً لتهديد مستقبلهن المهني. كما كان هناك من لم يحبها من الرجال، فقد شعروا...".

"بأنها غير ذات مؤهلات؟" هكذا باغتته سينثيا.

"أجل. شيء من هذا القبيل. أو ربما كانت منطلقة بعض الشيء مع بعض الضباط الشباب العزاب والذين انبهروا بها. أما لو قصدنا أعداءً حقيقيين فلا علم لي بأحد من هذا القبيل". تردد قليلاً، ثم قال: "ولكن بالنظر للطريقة التي لقيت بها مصرعها، فإني أرى أن دافع القاتل كان الرغبة الجنسية. أقصد، أن هناك من النساء من يمكن للمرء أن يتخيل أو يتصور وبشكل طبيعي إمكانية إقامة علاقة جنسية معها، إلا أنني أرى أن أسلوب حياة آن كامبيل كان يثير بعض الرجال فيتصورون بخيالات مريضة الرغبة في اغتصابها. وأرى أن أحدهم قد بلغ به الأمر تطبيق هذا في أرض الواقع. وبعدما نال ما أراد، تبينت له فداحة ما فعل، وربما كان ضحية لعقوبة ما من آن، فلا علم لي بتفاصيل ما تقوم به في وظيفتها. إلا أن الجاني قد تصور أنه هالك لا محالة، فقتلها". نظر كينت إليَّ وإلى سينثيا. ثم تابع كلامه: "إن هناك الكثير ممن ينساقون وراء شهواتهم، حتى تقودهم إلى التهلكة. كم من جريمة مرت بي على هذه الشاكلة. ومن المؤكد أنكما تتفقان معي في هذا".

كان ما يقوله صحيحاً. إلا أنني كنت أركز في هذه القضية على سبب الجريمة. فسألت كينت: "هل كان لك علم ما إذا كانت تواعد الرجال؟ أقصد هل كانت لها علاقات جنسية؟".

"لا علم لي بهذا الجانب من حياتها. ولكني عرفت أن هناك أحد الضباط من غير المتزوجين يواعدها – هو الملازم إيلبي، أحد مساعدي الجنرال. إلا أنها لم تكن تخبرني

بتفاصـــيل حياتها الخاصة أبداً، كما أن سلوكياتها لم تكن بالتي تثير في الظنون من الناحية المهنية. كما أن عليك أن تبحث في المجالات التي كانت تقضي فيها وقت فراغها".

"هل لديك تصور لطبيعتها؟".

"لـــو كـــنت فـــي مكانها لكنت فصلت بين حياتي المهنية وحياتي الاجتماعية وسط المدنيين".

"ما هي نوعية الملفات التي لدى ياردلي مما يتعلق بها؟".

"في الحقيقة... أعتقد أنه يشير إلى إلقاء القبض عليها في ميدلاند منذ عام. وقبل أي تحقيقات كنت قد ذهبت لاصطحابها من مقر الشرطة بناءً على اتصال من ياردلي".

"ومن هنا اهتممت بحياتها بطبيعة مهمتك المهنية".

"نوعاً ما... وهذا الاهتمام لم يأخذ الطابع الرسمي. وقد قال لي ياردلي بأنه سيسقط التهمة حتى لا يكون لها ملف بالشرطة".

"من الواضح أنه قد كذب عليك. ما هو سبب إلقاء القبض عليها؟".

"لقد قال ياردلي أنها كانت تقوم بما يعكر الصفو العام".

"وما الذي كانت تقوم به مما يعكر صفو ميدلاند؟".

"لقد تشاجرت مع أحدهم بالطريق".

"هل من تفاصيل حول المشاجرة؟".

"كلا. لم يخبرني ياردلي بشيء. طلب فقط منها أن تعود لمنـــزلها".

"وهكذا صحبتها إلى منـــزلها".

"كلا. لقد أخبرتك من قبل أني لا أعرف أين تقطن تحديداً. لا تحاول أن تتذاكى عليَّ يا برينير. لقد صحبتها عائداً إلى القاعدة. كان ذلك حوالى الساعة 23:00. لم تكن سكرانة بالمناســـبة. وتوجهنا إلى نادي الضباط لتناول شراب. لم تخبرني أبداً بتفاصيل المشاجرة، كما أنني لم أسألها. استدعيت لها سيارة أجرة وغادرت القاعدة عند منتصف الليل".

"ألم تعلم باسم الطرف الآخر في المشاجرة، أو اسم ضابط الشرطة الذي ألقى القبض عليها؟".

"كلا. إلا أنني متيقن من أن هذه المعلومة لدى ياردلي. عليك أن تسأله" – هنا ابتسم كينت – "فأنت الآن ستنال تعاونه التام معك. هل من أسئلة أخرى؟".

قالت له سينثيا: "ما هو شعورك حينما علمت بأنها قد لقيت مصرعها؟".

"فوجئت".

"هل حزنت؟".

"بالطبع. كما كنت حزيناً لأجل الجنرال والسيدة كامبيل. كما شعرت بالغضب الشديد، مع الأسف لكون هذا الجرم قد وقع في منطقتي. لقد كنت معجباً بها، إلا أننا لم نكن بهذا القرب الذي يجعلني أشعر بالأسى الشديد لأجلها. فقد كان مصدر حزني مهنياً أكثر منه شخصياً".

علقت بقولي: "أقدر لك صراحتك".

"ستقدران ذلك أكثر مع بداية سماعكما لهراء الآخرين".

سألته: "هل لديك أسئلة لي؟".

ابتسم وقال: "كم من الوقت تستغرقه بالسيارة من القاعدة وحتى ويسبيرينج باينز؟".

"نصف الساعة. أو أقل في ساعات الصباح المبكرة".

أومأ برأسه ثم أخذ يتطلع في الأثاث والمتعلقات في الهانجر: "هل يبدو لكما هذا الترتيب جيداً؟".

"لا بأس به. عمل جيد. ولكن ينقصه بعض التقسيمات، وتعليق الصور، وكذلك الملابس في الأماكن التي يفترض أنها مكان خزاناتها" ثم سألته: "هل أخرجوا الأشياء التي بالقبو؟" سألته وأنا أرمق سينثيا.

أجاب كينت: "أجل، ها هي هناك. لا تزال في صناديقها. سوف نأتي ببعض الطاولات والرفوف لكي تحاكي منطقة القبو". ثم سكت لحظة، ليعلق بعدها قائلاً: "لقد ظننت أنه سوف يكون هناك... أشياء أكثر. ألم تلاحظا مثلاً أنه لا توجد... أشياء خصوصية؟".

"أتعني أشياء من قبيل حبوب منع الحمل؟ أو خطابات من رجال، وصور لأصدقاء حميمين، وأدوات جنسية وغير هذا؟".

"أنا لا أعلم ما إذا ما كانت المرأة تحتفظ بمثل هذه الأشياء أم لا... كما أنني لم أبحث بدقة عن خطابات وغير ذلك.. كنت أعني فقط حبوب منع الحمل أو أشياء من هذا القبيل".

"هل لمست أي شيء هنا يا بيل؟".

"كلا". وأخرج من جيب سرواله قفازين من النوع الذي يستخدمه الأطباء. "ولكن من الممكن أن أكون قد لامست شيئاً بيدي سهواً أثناء عملية إفراغ العربات هنا". لمس ياردلي أيضاً بعض الأشياء مصادفة.

"أو عمداً".

أومأ كينت موافقاً: "أو عمداً. فعليك أن تضيفني إلى قائمة المشتبه بهم".

"لقد أضفتك بالفعل". ثم مشيت إلى حيث أثاث مكتب آن كامبيل. كان من الطراز الإسبرطي الذي يميل الجيش إلى اقتنائه، مع أنهم في ذات الوقت يهاجمون الكونغرس إذا حاول تقليل الميزانية العسكرية.

تتألف الحجرة من مكتب معدني، وكرسي على عجل، ومقعدين، ورف للكتب، وخزانتي ملفات، وجهاز كومبيوتر. كانت الكتب على الرفوف متخصصة في علم النفس، إضافة إلى إصدارات عسكرية حول الموضوع نفسه، وأخرى عن الحرب النفسية، ودراسات عن عمليات الحروب النفسية، وغير ذلك من الموضوعات ذات الصلة.

فتحت أحد أدراج الملفات وقرأت عناوينها، والتي بدت تشير إلى ملحوظات عن المحاضرات. أما الدرج الثاني فكان معنون بكلمة "سري للغاية"، لذا فتحته لأتبين أن ملفاته لم تكن معنونة بل مرقمة. سحبت أحد الملفات وتصفحت صفحاته. اتضح أن الصفحات تسجيل نصي لحوار مع شخص لم يرمز له سوى بحرفي "ر ج". أما المحاور فكان رمزه "س"، بمعنى سؤال. وبدا لي الحوار نموذجاً لمحاورة أو جلسة نفسية، إلا أن الشخص الذي تم محاورته كان - كما تذكر الصفحة الأولى - متهماً بجريمة اغتصاب. وكانت الأسئلة من قبيل: "كيف تختار ضحيتك؟" و"ما الذي قالته لك حينما أخبرتها بأن عليها أن تمارس الجنس الفموي معك؟" أغلقت الملف. لقد كانت هذه أشياء معتادة في أي مكتب لمعالج (لعالِم) نفسي بالسجن أو الشرطة، إلا أنني لا أعلم شيئاً عن علاقته بالحرب النفسية. فمن الواضح أن هذه من بين الاهتمامات الخاصة لآن كامبيل.

أغلقت الدرج واتجهت إلى جهاز الكومبيوتر. إنني لا أعرف حتى كيفية تشغيل هذه الأجهزة، لكنني قلت لكينت: "هناك خبيرة في فولز تشيرش تعرف كيف تخرج خبايا أي جهاز كومبيوتر. سوف أستدعيها إلى هنا، فلا أود أن يعبث أي أحد هنا بهذا الجهاز".

كانت سينثيا قد اتجهت إلى حجرة المكتب الأخرى لتبحث في محتويات جهاز الرد الآلي على الهاتف. "وجدت مكالمة هنا".

أومأ كينت قائلاً: "لقد أتت خلال الظهر، بعد دقائق من تحويل المكالمات إلى هنا".

ضغطت سينثيا زر التشغيل ليأتي صوت رجل يقول: "آن، هذا تشارلز يتحدث. لقد حاولت أن أتصل بك باكراً، إلا أن هاتفك كان معطلاً. علمت أنك لست بالمكتب اليوم، إلا أنني أود أن تعرفي أن مجموعة من أفراد الشرطة العسكرية كانوا هنا وقد نقلوا مكتبك بالكامل. ولم يخبروني بالسبب. أرجو أن تتصلي بي، أو أن تلاقيني في نادي الضباط لتناول الغداء والحديث. هذا أمر غريب حقاً. كنت سأتصل بالشرطة، ولكنهم هم الشرطة" قال العبارة الأخيرة مازحاً، إلا أنها لم تكن بالدعابة الجيدة. وتابع كلامه: "آمل ألا يكون هناك خطب ما. اتصلي بي".

سألت كينت: "من هذا؟".

"إنه الكولونيل تشارلز مور. قائد آن في مدرسة التدريب على الحرب النفسية".

"ما الذي تعرفه عنه؟".

"إنـــه بدوره طبيب نفسي. نال درجة الدكتوراه. ويعيش في برجه العاجي. أحياناً ما تشعر أنهم جميعاً كذلك".

سألته سينثيا: "أكانا صديقين؟".

أومـــأ كينت بالإيجاب ثم عقب قائلاً: "بدا لي أن صداقتهما قوية. كان مثلها الأعلى نوعاً ما، في نظرها هي على الأقل. وأرجو المعذرة".

قلـــت لـــه: "ليس علينا الحرص على ما نقوله عن القتيلة في هذه التحقيقات، فلا بأس".

"أجل، ولكنني قد تجاوزت حدودي" ثم فرك عينيه قائلاً: "إنني فقط متعب قليلاً".

عقبت سينثيا بدورها: "لقد كان يوماً متوتراً بالنسبة لك. كما أنني أفترض أنه قد كان من الصعب عليك أن تقوم بإخبار عائلة كامبيل بوفاة ابنتهم".

"كـــلا. فقـــد اتصلت بمنـــزلهم وردت عليَّ السيدة كامبيل. فطلبت منها أن تستدعي زوجهـــا لمحادثتي، وأبديت لهما رغبتي في أن أقابلهما بالمنـــزل... كانت تعلم أن هناك خطـــب ما. وهكذا حضرت إليهما ومعي كبير القساوسة – الرائد إيمز – وضابط طبيب وهو النقيب سويك. وحينما رأونا... أقصد.. أنني قد قمت بهذا كثيراً من قبل؟ ولكن حينما يـــتعلق الأمـــر بمقتل جندي في الحرب، فإن المرء يجد ما يمكن أن يقوله. إلا أن جريمة القتل لا تعطي للمرء الكثير من الخيارات".

سألتني سينثيا: "كيف تلقيا الخبر؟".

"بكـــل شـــجاعة. وهو ما تتوقعه من جندي محترف وزوجته. لم أمكث سوى بضع دقائق، ثم غادرتهما ومعي القس".

سألته: "هل أخبرتهما الأمر بالتفصيل؟".

"كلا. لم أخبرهما سوى بأننا قد وجدنا جثة آن في ساحة الرماية، وأنها على الأرجح قد قتلت".

"وماذا قال؟".

"قـــال... لقد ماتت وهي تقوم بواجبها" وتوقف كينت عن الكلام لحظة ثم تابع: "وهو أمر نجد فيه العزاء بعض الشيء".

"ألم تدخل في تفاصيل حول حالة الجثة، واحتمال أن تكون قد اغتصبت؟".

"كـــلا... لقد سألني عن الكيفية التي ماتت بها، فقلت أن من الواضح أن أحداً قد قام بخنقها".

"وماذا كان تعليقه؟".

"لا شيء".

"هل أعطيته اسمي ورقم هاتفي؟".

"أجل. لقد سألني عما إذا كانت التحقيقات العسكرية تقوم بعملها أم لا. فأخبرته بأنني انتهــزت فرصة حضورك هنا، وحضور الآنسة صنهيل في القاعدة، فطلبت منكما تولي القضية".

"وماذا كان رأيه؟".

"لقد أعرب عن رغبته في أن يتولى القضية الرائد بويس – قائد التحقيقات العسكرية في هذه القاعدة، وأنكما معفيان من هذه المسؤولية".

"وبما رددت عليه؟".

"لم أرغب في التجادل معه، إلا أنه كان يفهم بأن القرار ليس بيده هو".

"هذا صحيح بالفعل".

سألته سينثيا: "وهل تقبلت السيدة كامبيل النبأ؟".

"كانـــت هادئـــة، إلا أنها كانت على شفا الانهيار. إن المظاهر ذات أهمية بين كبار القادة وزوجاتهم، كما كان كلاهما من المدرسة القديمة".

"حـــسناً يا بيل. سوف يصل رجال البحث الجنائي إلى هنا بعد حلول الظلام، حيث سيعملون طوال الليل. فأخبر رجالك بأن من غير المسموح دخول غيرهم، فيما عدانا".

قـــال: "أنت محق" ثم تابع كلامه: "ولا تنسَ أن الجنرال راغبٌ في رؤيتك بمنـــزله في أقرب وقت".

"لماذا؟".

"ربمـــا يود أن يعرف تفاصيل الجريمة، وأن يطلب منك أن تقدم تقريراً عنها للرائد بويس، ومن ثم أن تتنحى أنت".

"هذه مقابلة مثمرة إذن، وسوف أنهي تفاصيلها على الهاتف".

"بالفعل، لقد تلقيت مكالمة من البنتاغون. ووجدت أن المدعي العام يتفق مع ما يراه رئيسك في العمل من أنك أنت وسينثيا تمثلان مجموعة ليست من أفراد القاعدة، كما أنكما أكثر خبرة من ضباط التحقيقات العسكرية في هادلي. وهذه هي كلمتهم الأخيرة. وبوسعك أن تناقش الأمر مع الجنرال كامبيل حينما تلاقيه. وأنا أقترح عليك القيام بهذا الآن".

"بل سأتحدث مع تشارلز مور الآن".

"عليك هذه المرة أن تنهي الجانب السياسي أولاً".

نظرت إلى سينثيا فوجدتها تهزّ كتفها بعدم مبالاة، فتنهدت قائلاً: "حسنا إلى الجنرال كامبيل وزوجته إذن".

رافقنا كينت عبر الهانجر. وقال: "تعرفون أن من المفارقات أن... لدى آن تعبير مفضل، نوع من الشعار الشخصي الذي أخذته عن... فيلسوف ما... أجل إنه نيتشه، وكان تعبيره هو: "ما لا يميتك يقويك". ثم عقب بقوله: "أما فهي فقد دمرت تدميراً".

الفصل الثالث عشر

اتجهـنا صوب مقر الجنرال بالمبنى الرئيسي للقاعدة. وفي الطريق قالت لي سينثيا: "بدأت أرسم ملامح صورة لامرأة معذبة تعيسة".

"عليك إذن أن تعدلي من وضع مرآتك".

"توقف عن هذا يا بول".

"آسف".

ولا بد من أنني بعدها قد غفوت قليلاً، لأن آخر ما أذكره هو أن سينثيا كانت تلكزني قائلةً: "هل سمعت ما قلته؟".

"أجل... توقف عن هذا".

"لقد قلت بأنني أظن أن الكولونيل كينت يعرف أشياءَ لم يخبرنا بها".

عدلت من جلستي وأنا أتثاءب: "هذا هو الانطباع الذي تولد لديَّ كذلك... هل يمكننا التوقف في أي مكان لكي نشرب بعض القهوة؟".

"كلا. أخبرني.. هل كينت من المشتبه بهم فعلاً؟".

"هو كذلك من الناحية النظرية. لم تعجبني حجة غيابه الخاصة بوجود زوجته خارج المدينـة، وبأنـه لـم يكـن هـناك من العسكريين من يثبت وجوده في منـزله. فمعظم المتـزوجين يكونون - خلال ساعات الصباح الأولى - في الفراش مع زوجاتهم. وحينما لا تكون الزوجات في البيت - وهذا قد يحدث - فإن على المرء أن يتساءل عما إذا كان هذا بسبب حظه السيئ أم أن هناك سبباً آخر".

"وبالنسبة لقائد الشرطة ياردلي؟".

"ليس بالغباء الذي يبدو عليه، أليس كذلك؟".

وافقتني سينثيا قائلةً: "كلا. هو ليس كذلك. فلقد عملت على قضية اغتصاب بالتعاون معـه منذ عام مضى حينما عدت من أوروبا. كان المتهم عسكرياً، إلا أن الضحية كانت فتاة من ميدلاند، لذا فقد كان عليَّ أن أتعاون مع ياردلي".

"هل هو محنك في عمله؟".

"إن خبـرته طـويلة. وكما أخبرني وقتها، فإن الضباط والجنود يأتون وينتقلون من

هادلـــي، إلا أنـــه بقى شرطياً في ميدلاند على مدار 30 عاماً، فهو يعلم بكل جزء بالبلدة، وكذلك داخل القاعدة وخارجها. فهو ذكي وقدير جداً في عمله إن أراد هذا".

"كمـــا أنـــه يخلف بصمات أصابعه في الأماكن التي يشك أنها كانت موجودة عليها قبلاً".

"وكذلك فعل كينت، وكذلك فعلنا نحن".

"هذا صحيح. لكنني أعلم بأني لم أقتل آن كامبيل. فماذا عنكِ؟".

فقالت سينثيا في برود: "لقد كنت نائمة".

"وحـــدكِ. يا له من حظ سيئ. كان عليكِ أن تدعوني إلى غرفتك ليلتها. كنا بالتالي سنمتلك حجة غياب مشتركة".

"إنني أفضل أن أكون متهمة في جريمة قتل على أن أفعل هذا".

كان الطريق طويلاً، مباشراً، ضيقاً، فبدا وكأنما هو شقّ أسود بين أشجار الصنوبر الـــشاهقة، ولفحات الحر تشوي هذا الإسفلت الأسود. "هل تصل الحرارة إلى هذا الحد في آيوا؟".

"أجل... ولكن الجو أشد جفافاً هناك".

"ألم تفكري مطلقاً في العودة إلى الديار؟".

"أحياناً... ماذا عنك أنت؟".

"إننـــي أعـــود إليها كثيراً. إلا أنني في كل مرة أذهب فيها إلى هناك أجد أشياءَ قد تغيرت. إن جنوب بوسطن في حالة تغير مستمر".

"آيوا لم تتغير... بل أنا التي تغيرت".

"أنتِ صغيرة بما يكفي لأن تتركي وظيفتك هذه لتبدأي حياة مهنية مدنية".

"إنني أحب ما أقوم به".

"قومي به في آيوا إذن. التحقي بشرطة المقاطعة. فسيرحبون بخبرتك".

"إن آخـــر ضحية في تلك المقاطعة وجدوه ميتاً من الملل منذ عشرة أعوام. إن قوة الشرطة هناك لا تتعدى عشرة أشخاص. فلن يحتاجون إليَّ إلا في صنع القهوة".

"أنتِ على الأقل تصنعين قهوة جيدة".

"تباً لك يا بول".

أقـــول لك أن من الصعب أن تظل محافظاً على نفس نبرة الحوار مع شخص رأيته عاريـــاً مـــن قبل، بل ومارست الجنس معه، ونمت إلى جواره، وحادثته طوال الليل. لن يكـــون بوســـعك التحدث معه وكأن كل هذا لم يكن، ومع هذا فلن تستطيع تجاوز الحدود

لأنك تعلم أن هذا لن يحدث ثانيةً. فسيكون عليك أن تنتبه للسانك وليديك. فلن تستطيع أن تـــربت علـــى هذا الطرف الآخر حتى لو رغبت في ذلك. ولكن قد تكون المصافحة أمراً مطلـــوباً، وكذلك التربيت على الكتف، أو أن توكزه بإصبعك كما فعلت سينثيا معي. لا بد من أن يكون لدى المرء دليلٌ يبين له ما يصح وما لا يصح، أو قانونٌ ينص على أن على المحبـــين السابقين ألا يقتربا من بعضهما البعض مسافة مائة ياردة (91 متراً)على الأقل. هـــذا مـــا لـــم يكونا في محاولة لإعادة الأمور إلى نصابها من جديد بالطبع. قلت لها: "لم يفارقني إحساس بأننا تركنا رباطاً واهناً بيننا".

"لـــم يفارقني إحساس بأنك قد اخترت أن تتفادى المواجهة مع... مع خطيبي وتركته ومضيت.. فأنا لم أكن أستحق أن تدخل من أجله في مشكلات".

"هذا هراء. لقد هددني الرجل بالقتل. فكان في تصرفي هذا حصافة".

"ربما. ولكن على المرء أحياناً أن يقاتل لأجل ما يرغب فيه. هذا إذا كان يرغب حقاً فيه. أليس كذلك؟".

كـــنت قد بدأت أغضب. هذا بسبب أنها تشكك في رجولتي. فقلت لها بغضب: "لقد نلت نجمة برونـــزية لأجل جرأتي يا آنسة صنهيل، ولأني أقبلت على تحدٍّ لم أكن أرغب فيه أو بحاجة إليه. ولكنني كنت سأخسر لو كان عليَّ أن أستعرض هذا لأجل نيل إعجابك فقط... وعلى كلٍّ فأنا لم أرَ منكِ أية بوادر شجاعة".

"لم أكن متأكدة من حقيقة مشاعري تجاه أيٍّ منكما، لذا قررت أن أبقى مع من سيبقى منكما".

حدقت فيها فرمقتني، وتبين لي أنها تبتسم. فقلت: "لستِ بخفيفة الدم يا سينثيا".

ربتت على ركبتي قائلةً: "آسفة. فأنا أحبك حينما تكون غضباناً".

لم أرد، وبقينا في صمت.

دخلنا في أطراف القاعدة الرئيسية، ورأيت مجموعة من المباني العتيقة وفوقها لافتة تقول: "مدرسة تدريب القوات المسلحة الأميركية – الحرب النفسية – مسموح للأشخاص المصرح بهم فقط".

فعلقت سينثيا بقولها: "هل يمكننا أن نـــزور هذا المكان بعد أن نلتقي الجنرال؟".

نظـــرت إلى ساعتي وقلت: "سنحاول". المطلوب فقط هو السرعة. فبخلاف مشكلة ضـــياع خـــيوط القـــضية، فإننـــي أشعر بأنني لو تركت مجالاً لأولئك الذين في واشنطن وفـــورت هادلـــي لأن يفكروا في شخصي فإن من المحتمل أن يبدأوا في تدمير وظيفتي ســـريعاً. ففي غضون اثنتين وسبعين ساعة ستغص هذه القاعدة برجال المباحث الفيدرالية وضباط التحقيقات العسكرية محاولين أن يسبقوني إلى الغنيمة، ناهيك عن وسائل الإعلام،

والتـــي حتى في هذه اللحظة ربما تكون في أطلانطا تحاول أن تتبين كيفية الوصول إلى هنا.

سألتني سينثيا: "ما الذي سنفعله بالنسبة لتلك الأشياء التي في القبو؟".

"لا أعــرف. ربمـــا لن نكون بحاجة إليها. وهذا ما أعول عليه. لتبقى في موضعها لبضعة أيام أخرى".

"وماذا إن وجد ياردلي تلك الغرفة؟".

"عـندها سيكون عليه عبء تحديد كيفية التصرف في ذلك الكم من المعلومات. فلقد عرفنا ما بها بالفعل".

"قد يكون الخيط المؤدي إلى قاتلها في تلك الغرفة".

تطلعت عبر النافذة الجنوبية لأرى أننا قد اجتزنا القاعدة. قلت لها بعد برهة: "إن ما في الغرفة لا يعدو أن يكون دليلاً يمكن أن يدمر سمعة وحياة الكثيرين، بما في ذلك حياة والديها، ناهيك عن سمعة القتيلة نفسها. وأنا لست على يقين من أننا سنحتاج إلى شيء مما في تلك الغرفة".

"هل هذا هو بول برينير الذي أعرفه؟".

"هذا هو الضابط المكلف بول برينير الذي يتحدث. وليس بول برينير المحقق".

"لا بأس. لقد فهمت قصدك".

"أكيد... فأنا كذلك أفهم قصدك".

"أشكرك.. إلا أن ليس لديَّ ما أخفيه فعلاً".

"هل أنتِ متزوجة؟".

"ليس هذا من شأنك".

"صحيح".

وصلنا إلى مقر قيادة الجنرال، والذي يسمونه بيومونت، عبارة عن مبنى ضخم من القــرميد ذي أعمـــدة بيـــضاء. يشغل المبنى مساحة بضعة أفدنة في الحافة الجنوبية من القاعـــدة، وســـط واحة من نباتات الماجنوليا وأشجار البلوط، والأزهار وغير ذلك، بينما تحيط به الصحراء العسكرية العادية.

ولبيومونت تاريخ عتيق، فقد كانت منـــزل عصابة بيومونت القديمة، والتي لم تزل موجـــودة في المقاطعة. ولقد نجا هذا المبنى من زحف قوات شيرمان تجاه البحر، إلا أن اليانكي سكنوه. وسيقول لك أهل البلد أنهم قد اغتصبوا كل امرأة وجدوها داخل المبنى، إلا أن الرواية الرسمية تقول بأن ساكني المكان قد تركوه قبيل دخول اليانكي إليه.

فاستغلته قوات الاتحاد كمقر للقيادة، إلا أنه عاد في وقت ما إلى أصحابه الحقيقيين، ومن ثم تم بيعه في العام 1916 هو ومساحة الأرض من حوله إلى الحكومة الفيدرالية، والتي خصصته لمعسكر الجيش هادلي. فمن المفارقات أنه قد عاد ثانيةً للجيش، وتحولت حقول القطن حول المبنى إلى قاعدة عسكرية، بينما أصبحت منطقة الأشجار التي تبلغ مساحتها 100 ألف فدان إلى منطقة تدريبات.

ومن الصعب أن نخمن مدى تأثير التاريخ على سكان البلدة، إلا أنني أجد أن تأثيره هنا أكبر من أن يفهمه صبي من بوسطن أو فتاة ريفية من آيوا. وفي النهاية أجد أنه حينما يلتقي شخص مثلي بشخص مثل ياردلي، فإن لقاء الروح بالجسد يكاد ألا يتحقق.

ترجلنا من السيارة وسينثيا تقول لي: "إن ركبتي ترتجفان".

"تمشي حول هذه الحدائق. وسوف ألتقيه أنا وحدي".

"كلا.. سأكون بخير".

صعدنا السلالم تجاه المدخل ذي الأعمدة، وقمت بدق الجرس. ففتح الباب شاب بزي رسمي. كان برتبة ملازم، واسمه على الزي إيلبي. فقلت له: "أنا المساعد برينير وهذه المساعد صنهيل حضرنا للقاء الجنرال والسيدة كامبيل حسب طلب الجنرال".

"آه... أجل". كان ينظر إلى زي سينثيا العسكري، ثم تنحى جانباً، فدخلنا. قال إيلبي: "أنا المساعد الشخصي للجنرال. والكولونيل فاولر - المساعد العام للجنرال - يرغب في الحديث معكما".

"إنني هنا بناءً على طلب الجنرال لرؤية الجنرال".

"أعلم هذا يا سيد برينير. ولكن أرجو أن تلتقي الكولونيل فاولر أولاً".

تبعته أنا وسينثيا إلى ردهة كبيرة يعود طرازها إلى العصر الذي أنشئ فيه هذا المبنى، إلا أنني أشك في أن تكون تلك الديكورات أصلية، إلا أنها تعود إلى فترات زمنية متفاوتة. أوصلنا الملازم إيلبي إلى غرفة أمامية صغيرة، بدت غرفة انتظار صغيرة. إن حياة صاحب المزرعة تختلف طبعاً عن حياة الجنرال العصري، إلا أنني أجد أن القاسم المشترك بينهم هو كثرة عدد الزوار لدواعي العمل. وأمثال هؤلاء ينتظرون مثلنا في هذه الغرفة الصغيرة، إلى أن يتخذ قرار بشأنهم.

استأذن إيلبي في الانصراف، وظللت أنا وسينثيا واقفين. قالت لي: "ذلك هو الشاب الذي قال الكولونيل كينت أنه واعد آن كامبيل. إنه وسيم بالفعل".

"يبدو لي مخنثاً".

وبالطبع كان عليها أن تغير الموضوع، فقالت: "هل حلمت يوماً ما في أن تكون جنرالاً؟".

"أود فقط أن أحافظ على وظيفتي هذه الأيام".

حاولت أن تبتسم، إلا أنها كانت متوترة جداً. أنا نفسي لم أكن مرتاحاً. ولكي أزيل هذا القلق قلت لها مداعباً: "تذكري أن الجنرال بشر مثلنا تماماً".

"ربما أمكننا أن نتحدث مع مساعده ومن ثم نرحل".

"سيكون الجنرال غاية في الذوق. هم جميعاً كذلك".

"سبب توتري هو أنني سألتقي زوجته. ربما كان عليَّ أن أرتدي ملابساً مدنية".

لماذا يتوجب عليَّ أن أسبر غور كل من أتعامل معهم؟

تابعت سينثيا قائلةً: "ستسيء هذه الجريمة إلى سيرته المهنية، أليس كذلك؟".

"هذا يعتمد على ما سنتوصل إليه في النهاية. فإن لم نتوصل إلى القاتل، ولو لم يصل أحدهم إلى تلك الغرفة بالقبو، وإن لم ينتج عن كل هذا الكثير من الأسرار التي يكشف عنها النقاب، فإنه لن يتأثر بتلك الواقعة. بل سيجد تعاطفاً من الجميع. أما لو خرجت الأمور عما هو متصور لها، فسيكون عليه أن يستقيل".

"وبالتالي ينتهي طموحه السياسي".

"لست متأكداً من كونه يحمل طموحات سياسية أم لا".

"هذا ما تقوله الصحف".

"ليست هذه مشكلتي". والحقيقة أنها قد تكون فعلاً مشكلتي. فقد جاء ذكر الجنرال جوزيف أيان كامبيل أكثر من مرة كمرشح لمنصب نائب الرئيس، كما أن هناك من يرشحه ليكون السناتور عن ولاية ميتشيغان، أو كمرشح ليكون حاكماً للولاية. إضافة إلى أن اسمه من بين المتوقع أن يخلفوا أركان حرب الجيش، وهو ما يعني أن ينال نجمة رابعة، أو أن يحصل في نهاية المطاف على منصب المستشار العسكري لرئيس الولايات المتحدة.

كان هذا كله نتاج أداء الجنرال كامبيل المتميز خلال حرب الخليج، فمن قبلها لم يكن أحد قد سمع به. على أنه مع زوال غبار تلك الحرب خفت ذكره بين أوساط العامة. فإما أن تكون هذه خطة بارعة من جانبه هو، أو أنه بالفعل زاهد عن كل هذا.

أما عن الكيفية التي تم بها إلحاقه بهذه القاعدة المغمورة فورت هادلي فإنها تبقى لغزاً من ألغاز البنتاغون لا يسع أحداً أن يفسره سوى من اتخذوا هذا القرار. إلا أنه قد واتتني فكرة مفادها أن مراكز القوى في البنتاغون عرفوا أن هناك نقطة ضعف في حياة الجنرال كامبيل ألا وهي ابنته آن. أيكون هذا صحيحاً؟

دخل علينا رجل طويل القامة، يرتدي الزي العسكري الأخضر، من الدرجة أ المزينة بنسري رتبة الكولونيل مساعد القائد العام. كان اسمه على الزي فاولر. قدم لنا

نفسه بصفته العسكرية. من المعتاد داخل الجيش أن يعرف المرء نفسه باسمه ورتبته، إلا أن البعض يقدر لك أن تكتفي بذكر رتبتك مع توصيف موجز لها، حتى يعلموا مدى تعاونك معهم من عدمه.

تصافحنا، ثم قال الكولونيل فاولر: "إن الجنرال راغب في مقابلتكما، إلا أنني أود الحديث معكما أولاً. تفضلا بالجلوس".

جلسنا جميعاً، وأمعنت النظر في الكولونيل فاولر. كان أسود البشرة، وبوسعي أن أتخيل مدى فخر الأجيال السابقة من العبيد وهي تختال بما وصل إليه نسلها. على كل، فإنني أجد أن فاولر واثق في نفسه، لبق في حديثه، ويدرك قدر رتبته العسكرية. بدا لي مثل الضابط المساعد للقائد الأمثل في منصبه، أي الوظيفة التي تجمع بين كونه قائداً لأفراد الجيش وبين المساعدة وتقديم الاستشارة وتلقي الأوامر وتنفيذها، وغير ذلك من المهام. فهو ليس مثل نائب القائد، والذي، مثل منصب نائب الرئيس، لا يمتلك وظيفة حقيقية.

ساقا فاولر طويلتان، وقد لا يبدو لهذا أهمية، إلا أن على الضابط المساعد للقائد أن يتحلى بمشية المساعد، أي تلك الخطوات الواسعة أثناء التردد بين الجنرال ومرؤوسيه لأجل توصيل الأوامر أو جلب التقارير. وهنا ليس من المفترض أن تسير مهرولاً، بل أن تخطو بشكل مثالي، وخاصة في القاعات الواسعة. أي أن فاولر كان نموذجاً للضابط والرجل المهذب. فعلى نقيض الضباط البيض البشرة الذين يرتكبون الكثير من الزلات، فإن الضابط الأسود، مثله مثل الضابط الأنثى، لديه طموح إثبات الذات. ومن المثير للفضول أن كلاً من السود والنساء لا يزالون يستخدمون المعايير التي وضعها الضابط الأبيض كنموذج يحتذون به، بالرغم من أن هذه المعايير وهذه المثل محض خرافات لا أساس لها. إلا أن لا بأس بها طالما حفظت الضبط والربط داخل الجيش. فمن المعروف أن نصف معايير ونظم الجيش تعتمد على فرض التوهُّم بها.

قال الكولونيل فاولر: "يمكنكما التدخين إن رغبتما في ذلك. هل ترغبان في مشروب؟".

قلت: "كلا يا سيدي".

ربت فاولر على مسند مقعده عدة مرات، ثم بدأ كلامه: "من المؤكد أن ما حدث مأساة للجنرال والسيدة كامبيل. إلا أننا لا نرغب في أن يصبح مأساة للجيش كله".

"أجل سيدي". كلما قللت من كلامي كلما كان هذا أفضل حيث إنه كان راغباً في الحديث.

تابع كلامه قائلاً: "إن مقتل النقيب كامبيل والذي حدث داخل القاعدة التي يقودها والدها، وبالطريقة التي تمت بها الجريمة لأمر يثير مختلف الأحاسيس".

"أجل سيدي".

"أظن أن من البديهي ألا تتحدثا عنه إلى الصحافة".

"بالطبع".

ثم نظر فاولر إلى سينثيا قائلاً: "أعرف أنك قد توصلتِ إلى الجاني في جريمة الاغتصاب تلك. فهل تعتقدين أن هناك صلة بين الجريمتين؟ هل يمكن أن يكونا مجرمين على ارتباط ببعضهما البعض؟ أم أنك قد ألقيت القبض على بريء في القضية الأولى؟".

"لا يمكن أن يكون هذا ما قد حدث أيها الكولونيل".

"إلا أنه محتمل. فهل يمكن أن تتيقني من هذا الفرض؟".

"كلا يا سيدي. فهما قضيتان مختلفتان".

من الواضح أن كلامه كان نتاج اجتماع لطاقم الجنرال، وهذه هي الفكرة التي توصلوا إليها، أو رغبوا في التوصل إليها، لتكون هي القصة الرسمية؛ أي أن هناك عصابة من المستجدين الشبان تقوم بارتكاب جرائم اغتصاب عشوائية. فقلت للكولونيل فاولر: "إن هذا غير منطقي".

تحول انتباهه إليَّ وقال: "هل لديك إذن أي من المشتبه بهم؟".

"كلا يا سيدي".

"أو خيوط للبحث؟".

"ليس حتى الآن".

"ولكن لا بد من أن لديك فرضية أو فرضيتين يا سيد برينير".

"بالفعل سيدي الكولونيل. إلا أنها لم تتعد كونها فرضيات، وكلها يمكن أن تصيبك بالغضب".

مال إلى الأمام، وقد بدا عدم الارتياح على محياه. "إن ما يثير غضبي هو أن ضابطة شابة تم اغتصابها وقتلها ولم يتم القبض على الفاعل حتى الآن. أما أية تفاصيل أخرى فلا يمكن أن تثير غضبي".

"أتراهن؟". قلت له: "لقد علمت أن الجنرال راغب في تنحيتي وزميلتي عن هذه القضية".

"أعتقد أن هذا كان رد فعله في البداية. إلا أنه قد تحدث مع أشخاص في وزارة الدفاع، فأعاد النظر في رغبته تلك. لذا طلب مقابلتكما".

"فهمت. هي مقابلة عمل وتعرف على قدراتنا إذن".

فأضاف: "ربما.. ما لم تكونا غير راغبين في الاستمرار بالقضية. فلو كانت هذه هي رغبتكما فأنا أؤكد لكما أنها لن تنعكس سلباً على سجلكما المهني. والحقيقة أننا سنندرج

فـــي ملفيكما خطابا تقدير لما بذلتماه من جهد في هذه القضية. كما سنقدم لكما إجازة لمدة ثلاثين يوماً، وهذا عرض مبدأي". انتقل بنظره بيني وبين سينثيا، ثم عاد ليقول لي: "ومن ثم فلن يكون هناك داعٍ لمقابلة الجنرال، وسيكون بوسعكما أن ترحلا الآن".

لــو فكــرنا في الأمر لما وجدنا الصفقة خاسرة. ولكن الأساس هو أنه ليس من الطبيعي أن نفكر فيها. فقلت له: "لقد قام رئيسي المباشر – الكولونيل هيلمان – بإسناد هــذه القــضية لــي وللآنسة صنهيل، وقد قبلنا المهمة. وهو أمر لا نقاش فيه سيدي الكولونيل".

أومــأ مــتفهماً. لم يسعني أن أعرف حقيقة مشاعر فاولر. فقد غلف جميع انفعالاته بــوجه صارم محايد. فلا شك في أنه مؤهل للحفاظ على منصبه هذا. ومن الواضح أنه لا يكتفي بمنصبه، بل يخطط لأن يكون هو الجنرال يوماً ما.

كان فاولر مستغرقاً في التفكير، وعمَّ الصمت الغرفة. فبعد أن قلت ما لديَّ كان عليَّ أن أنتظــر رده. لقد اعتاد الضباط من أصحاب مثل هذه الرتب الفخمة أن يغلفوا وجودهم بالــصمت، أمــا صــغار الــضباط فيعانون كثيراً من اندفاعهم في الكلام غير المحسوب العــواقب. فالأمــر أشبه بخطة لعب خادعة، أو مناورة في الحرب، فعلى الرغم من عدم ســابق معرفتي بالكولونيل فاولر، إلا أنني أعرف هذا النمط من الضباط. لقد كان الرجل يقلــب شخصيتي في عقله، ويختبر أعصابي وتفكيري، ربما لكي يتبين ما إذا كان يتعامل مــع أحمــق مندفع أم شخص يماثله في العقل والتفكير. ومن المؤكد أن سينثيا قد أحسنت صنعاً بالتزامها الصمت هي الأخرى.

إلا أنه وجّه كلامه لي في النهاية قائلاً: "إنني أعلم الداعي إلى وجود الآنسة صنهيل هــنا في فورت هادلي. ولكن ما الداعي إلى استدعاء محقق خاص من المباحث العسكرية هنا في قاعدتنا؟".

"لقــد كــنت فـــي مهمة سرية داخل القاعدة، حيث إن أحد الضباط المسؤولين عن مــستودع الأســلحة كان يعقد صفقات سرية لنفسه. عليكم أن تزيدوا من السيطرة الأمنية علـــى مستودعات الأسلحة والذخيرة هنا، ويجب أن تعلموا بأني قد أنقذتكم من موقف لن تحسدوا عليه... وأنا متيقن من أن قائد الموقع قد أعطاكم فكرة عن مهمتي".

"لقد فعل. منذ عدة أسابيع حينما حضرت أنت إلى القاعدة".

"فأنتم تعلمون بوجودي إذن".

"إلا أننا لم نكن نعلم سبب وجودك".

"لماذا تعتقد في رأيك أن الكولونيل كينت قد طلب مني تولي هذه القضية خاصةً وأن أحداً لم يكن راغباً في توليها؟".

فكــر للحظـــة، ثم قال: "سأصارحك القول بأن الكولونيل كينت ليس على وفاق مع ضـــابط التحقيقات هنا – الرائد بويس – على أن الإدارة الرئيسية للتحقيقات العسكرية قد أولت المهمة لك على الفور. فقد فعل الكولونيل كينت ما رأى أنه في صالح الجميع".

"بمـــا فـــي ذلك صالح الكولونيل كينت نفسه. ما هي المشكلة التي بينه وبين الرائد بويس؟".

هزّ كتفيه قائلاً: "ربما مشكلة إجرائية فقط. ليست بالكبيرة".

"أليست شخصية؟".

"لا أدري. اسأله هو".

"ســوف أســأله". ولكننــي ســألت فاولر: "هل كنت على معرفة شخصية بالنقيب كامبيل؟".

حدق فيَّ للحظة ثم قال: "أجل. بل أن الجنرال طلب مني أن ألقي كلمة الرثاء خلال التأبين".

"فهمت. هل كنت مع الجنرال كامبيل قبل توليه منصبه هذا؟".

"بلـــى. لقد كنت مع الجنرال كامبيل منذ أن كان قائد قطاع الأسلحة في ألمانيا. ولقد خدمنا معاً خلال حرب الخليج، ثم انتقلنا إلى هنا".

"هل هو من طلب توليك هذا المنصب؟".

"لا أرى لهذا صلة بما نتحدث فيه هنا".

"أرى أنك عرفت آن كامبيل قبل مجيئك إلى فورت هادلي، أليس كذلك؟".

"أجل".

"فهل يمكن أن تعطيني فكرة عن طبيعة علاقتكما؟ هل كانت جيدة؟".

مـــال فاولـــر إلـــى الأمام ونظر إلى عيني مباشرةً: "معذرة يا سيد برينير. هل هذا استجواب؟".

"أجل سيدي".

"تباً لي إذن".

"لا تقل هذا يا سيدي".

ضحك ثم نهض من مقعده. "سيكون بوسعكما استكماله في مكتبي غداً. اطلبا موعداً بالهاتف قبل الحضور. أما الآن فاتبعاني من فضلكما".

تبعـــنا الكولونيل فاولر عائدين على الردهة الرئيسية، ثم تجاه نهاية المنـــزل، حتى وصـــلنا إلـــى بـــاب مغلـــق. هنا قال لنا الكولونيل فاولر: "لستما بحاجة إلى تأدية التحية

العسكرية، فقط قدما تعازيكما سريعاً، وسيطلب منكما الجلوس. لن تكون السيدة كامبيل موجودة. فهي نائمة تحت تأثير المهدئات. فأرجو ألا تطول المقابلة عن خمس دقائق". دق على الباب مستئذناً، ثم فتحه، ودخل منادياً لنا بصفتنا المهنية. مما ذكرني بمسلسلات التلفزيون.

دلفت أنا وسينثيا للداخل، لنجد أنفسنا داخل مكتب فخم. كانت الحجرة معتمة، والستائر مسدلة، والضوء الوحيد منبعث من مصباح مكتب ذي ضوء يميل إلى الخضرة. وخلف المكتب وقف الجنرال جوزيف كامبيل، مرتدياً زيه العسكري الأخضر المزدان بالعديد من النياشين. وأول ما لفت انتباهك فيه هو ضخامة جثته، فلم يكن طويل القامة فقط بل وعظيم الهيئة، أشبه بزعماء العصابات الأسكتلدنيين الذين تعود أصوله إليهم بالتأكيد، كما أنني ميزت رائحة المشروب المفضل القوية التي تعبق في المكان.

مدَّ الجنرال يده مصافحاً سينثيا، والتي بادرت بالقول: "تعازي الحارة سيدي".

"أشكرك".

وصافحته بدوري. كانت يده ضخمة. قدمت له التعازي، ثم أضفت: "أنا متأسف لإزعاجك في ظرف كهذا"، كما لو أن هذا اللقاء طلبي أنا.

"مطلقاً". جلس ثم دعانا للجلوس.

جلسنا على المقعدين الجلديين المواجهين لمكتبه. أمعنت النظر في وجهه في هذا الضوء الخافت. كانت رأسه شيباء الشعر مع شقرة، وعيناه زرقاوين لامعتين، وتقاطيع وجهه صارمة دقيقة، مع فك قوي. كان وسيماً، إلا أن من الواضح لي أن جمال ابنته كان نابعاً من أمها، فيما عدا زرقة عيني أبيها.

لا يسع المرء أن يبادر بالحديث في حضرة الجنرال، ما لم يحادثك هو أولاً. إلا أنه كان صامتاً. كان يحدق في نقطة ما خلفي أنا وسينثيا. أومأ برأسه – إلى فاولر كما أفترض – ثم سمعت صوت إغلاق الباب وراءنا، فقد غادر الكولونيل.

نظر الجنرال كامبيل الآن إلى سينثيا، ثم إليَّ، ثم خاطبنا بصوت هادئ، كنت قد سمعته قبلاً عبر الراديو والتلفزيون، فوجدته هنا على غير عادته. قال: "لقد علمت أنكما ترغبان في مواصلة التحقيق في القضية".

أومأنا برأسينا، ثم قلت: "أجل سيدي".

فنظر إليَّ. "هل بوسعي أن أقنعك بأنه في مصلحة الجميع أن توكل مهمة التحقيق في هذه القضية إلى الرائد بويس في فورت هادلي؟".

أجبته: "متأسف سيدي الجنرال. فهذه المسألة تتعدى فورت هادلي وتتعدى حزنك الشخصي. ولا يسع أيٌّ منا أن يحدث فيها تغييراً".

أومأ الجنرال برأسه. "سأقدم لكما إذن تعاوني الكامل وأعدك أن الجميع هنا سيكون متعاوناً معكما".

"أشكرك يا سيدي".

"هل لديك أية فكرة حول من يكون مرتكباً هذه الجريمة؟".

"كلا يا سيدي". هل لديك أنت تصور معين؟

"هل تعداني بأن تنجزا المهمة سريعاً، على أن تتعاونا معنا في أن تقللا الجوانب العاطفية لهذه الجريمة وألا تتسببا في ما يضر بهذه القاعدة؟".

"أطمأنك يا سيدي بأن هدفنا الوحيد هو إلقاء القبض على الجاني في أسرع وقت ممكن".

ثم أضافت سينثيا قائلة: "لقد قمنا يا سيدي الجنرال باتخاذ خطوات منذ البداية تضمن عدم تدخل أي عنصر خارجي. ولقد قمنا بنقل كافة محتويات منزل النقيب كامبيل إلى القاعدة. ولقد أغضب هذا ياردلي رئيس الشرطة، وأعتقد أنه سيتصل بك في هذا الشأن. فنرجو أن تتكرم فتخبره بأنك من أمرت بهذا. أما بالنسبة لتقليل حجم الضرر المعنوي داخل القاعدة وبين أفراد الجيش، فإن محادثتك مع القائد ياردلي كفيلة بتحقيق هذا الهدف".

أمعن الجنرال النظر إلى سينثيا لثوان. ومما لا شك فيه أنه لم يكن لينظر إلى امرأة شابة جميلة من دون أن تخطر ابنته بباله. أما ما يدور بعقله تجاه ابنته فهو الأمر الذي لا يسعني معرفته. قال لسينثيا: "تأكدي من أنني سأفعل هذا".

"أشكرك سيدي الجنرال".

قلت له: "أتفهم سيدي الجنرال أنه كان من المفترض أن تلتقي ابنتك هذا الصباح بعد انتهاء نوبة خدمتها".

"أجل... كنا سنتناول الإفطار سوياً. وحينما لم تأتِ هاتفت الكولونيل فاولر بمقر القيادة، إلا أنه أخبرني بأنها غير موجودة. وأعتقد أنه قد اتصل بمقر خدمتها وبمنزلها".

"كم كان الوقت ساعتها يا سيدي؟".

"لست متأكداً. كان من المفروض أن تأتي لمنزلي عند الساعة 7:00. وربما كانت مخابرتي التلفونية للقيادة في الساعة 7:30".

لم ألحّ على هذه النقطة، لكن قلت له: "سيدي الجنرال، نحن نقدر لك عرضك المساعدة والتعاون الكامل. وأود عند أول فرصة متاحة لكم أن تسمحوا بقدومي لطرح بعض الأسئلة عليكم وعلى السيدة كامبيل. ربما غداً".

"أخشى أنه سيتوجب علينا إتمام إجراءات الجنازة غداً وإتمام بعض الأمور الشخصية الأخرى. قد يكون من المناسب أن نلتقي في اليوم التالي للجنازة".

"أشـــكرك، حيث إن العائلة في الغالب تمتلك من المعلومات ما يكون عنصراً حاسماً في أية قضية".

"أفهـــم هذا". سكت للحظة ثم سأل: "هل تعتقد أن الـــ... كان شخصاً تعرفه هي من قبل؟".

"هذا محتمل لحد بعيد". كنا ننظر إلى بعضنا بشكل مباشر.

ظل ينظر إلى عيني وهو يقول: "لديَّ أنا أيضاً هذا الشعور".

سألته: "هل تحدث معك أي أحد – بخلاف الكولونيل كينت – عن ظروف مقتل ابنتك؟".

"كلا. ولكن الكولونيل فاولر هو الذي تحدث معي. وبشكل موجز".

"حول احتمال الاغتصاب، وعن الكيفية التي وجدناها عليها؟".

"هذا صحيح".

خـــيم صـــمت طويل، وأعلم من خبراتي السابقة مع أقرانه بأنه لم يكن ينتظرني أن أتكلم، بل أن هذه هي نهاية المقابلة. فقلت: "هل من خدمة يمكن أن نقدمها لكم الآن؟".

"كـــلا... علـــيكم فقط أن تلقيا القبض على هذا الوغد". ثم وقف ضاغطاً زراً على سطح مكتبه، ثم قال لنا: "أشكركما على هذا اللقاء".

وقفت أنا وسينثيا، وقلت: "شكراً سيدي الجنرال". صافحته وتابعت: "وأعبر لكم ثانية عن أحر التعازي لكم وللأسرة".

صافح سينثيا، وربما تخيلت أنه قبض على يدها لفترة أطول وهو ينظر إلى عينيها. ثم قال: "أعلم أنك ستبذلين ما في وسعك. أؤكد لك أن ابنتي كانت ستعجب بك. فهي تشجع أمثالكن الواثقات في أنفسهن".

"أشكرك سيدي الجنرال. أعدك بأن أبذل جهدي، كما أود أن أعبر لكم ثانيةً عن أحر التعازي".

فتح الباب خلفنا، وصحبنا الكولونيل فاولر إلى الخارج، عبر الردهة الرئيسية وحتى الـــباب الأمامي. قال لي: "أعلم أن لكم صلاحيات خاصة بإلقاء القبض على من تشتبهون به. إلا أني أطلب منكما أن تبلغاني أولاً قبل أن تلقيا القبض على أحد".

"لماذا؟".

رد بـــشيء من الصرامة: "لأننا لا نفضل أن يتم القبض على أحد أفراد هذه القاعدة على يد غرباء عنها من دون علمنا".

"هـــذا أمـــر يحدث كثيراً. والحقيقة – كما تعلم – فقد أودعت رقيب مخزن الأسلحة ذاك في السجن منذ عدة ساعات مضت. ولكني سوف أحيطك علماً كما ترغب".

"أشكرك سيد برينير... وكما تعلم فإن هناك ثلاث طرق لتأدية المهام – الطريقة الصحيحة، والطريقة الخطأ، والطريقة العسكرية".

"أعرف هذا سيدي الكولونيل".

ثم نظر إلى سينثيا قائلاً: "لو غيرت رأيك بالنسبة لإجازة الشهر، فلا تترددي في إخباري. أما لو لم تغيري رأيك فأرجو أن نكون على اتصال. فيبدو لي أن السيد برينير من النوع الذي ينغمس في عمله لدرجة أن ينسى البروتوكول".

"مؤكد سيدي. وأرجو أن تحاول أن تحدد لنا موعداً مبكراً مع الجنرال والسيدة كامبيل. سنحتاج إلى أن تكون مدته ساعةً على الأقل. كما نرجو أن تتصل بنا بمكتب القائد عند توافر أية معلومة هامة لديك مما يفيدنا".

فتح الباب وخرجنا. وقبل أن يغلقه التفت نحوه وقلت له: "بالمناسبة لقد سمعنا رسالتك التي تركتها على جهاز الرد الآلي لهاتف النقيب كامبيل".

"أوه... يبدو أنها بدت حمقاء بعدما حدث".

"كم كان الوقت حينما أجريت هذا الاتصال سيدي الكولونيل؟".

"حوالى الساعة 8:00. فقد كان الجنرال وزوجته ينتظران ابنتهما في حوالى الساعة 7:00".

"من أين هاتفتها سيدي؟".

"كنت بالمكتب – بمقر القيادة".

"هل سألت بمقر القيادة لتتبين ما إذا كانت النقيب كامبيل قد تأخرت في خدمتها؟".

"كلا.. لقد افترضت أنها نسيت موعدها وعادت إلى منزلها... لم تكن المرة الأولى التي تنسى فيها هذا الموعد".

"هل تحققت من وجود سيارتها في موقف السيارات التابع للقيادة؟".

"كلا... يبدو أنه قد كان من المفروض أن أفعل هذا".

"من أخبرك بتفاصيل مصرع النقيب كامبيل؟".

"لقد حادثت قائد الشرطة العسكرية".

"وأخبرك بالكيفية التي وجدوا جثتها عليها؟".

"هذا صحيح".

"إذن فقد علمت وعلم الجنرال بأنها كانت مقيدة، مختنقة، ومغتصبة؟".

"أجل. وهل هناك شيء آخر يتوجب أن نعرفه؟".

"كلا سيدي... كيف يمكن أن أتصل بك في ساعات عطلتك من العمل؟".

"إنني أقطن في مساكن الضباط داخل القاعدة. في بيثاني هيل. هل تعلم مكانها؟".

"أجل. إنها إلى الجنوب من هنا، في الطريق إلى ساحات الرماية".

"بالضبط. كما أن هاتفي موجود في دليل القاعدة".

"نشكرك سيدي الكولونيل".

"طاب يومكما سيد برينير أنت والآنسة صنهيل".

أغلق الباب، واتجهنا إلى السيارة. سألتني: "ما رأيك في الكولونيل فاولر؟".

"لا يختلف كثيراً عن رأيه في نفسه".

"لا شك في أن له حضوراً قوياً. ربما يعود في معظمة إلى الهالة التي يغلف بها منصبه، لكنني أشك في أنه يتصف بالفعل بكل هذا الهدوء والثقة والكفاءة التي يحاول أن يبدو عليها".

"لا صلة لهذا بقضيتنا. فولاؤه للجنرال، والجنرال فقط، حيث إن مصيره مرتبط بمصير الجنرال، ولن ينال النجمة الفضية التي يصبو إليها إلا حينما يكون جنراله بعيداً عن المشاكل".

"أي أنه مستعد لأن يكذب حتى يحمي الجنرال".

"من دون تردد. والحقيقة أنه قد كذب بالفعل عندما أجاب عن مكالمته لمنزل آن كامبيل. فقد كنا هناك قبل الساعة 8:00، ووجدنا الرسالة على الجهاز ساعتها".

"أعلم هذا... هناك شيء غامض في هذه المكالمة".

"وهكذا أصبح لدينا مشتبه به جديد".

الفصل الرابع عشر

سألتني سينثيا: "هل نذهب إلى مدرسة الحرب النفسية؟".

كانـــت ساعتي المدنية تشير إلى الخامسة والنصف مساءً، حيث من المعتاد أن تبدأ ساعة راحة جديدة. "كلا. أوصليني فقط إلى نادي الضباط".

فاتجهنا صوب نادي الضباط، والواقع فوق تلة، تنأى عن بقية أبنية القاعدة، إلا أنها قريبة بحيث لا يعد الذهاب إليها شاقاً.

"ما مدى تقدمنا؟" كانت سينثيا هي من يتساءل.

"هل تعنين من الناحية الشخصية أم المهنية؟".

"كلاهما".

"في الواقع فإن تقدمنا المهني كبير. ما رأيك أنت؟".

"أنا التي أسألك".

"لا شك في أنك محترفة. ولقد أعجبت بأدائك".

"أشكرك. وبالنسبة للناحية الشخصية؟".

"أنا مستمتع بصحبتك".

"وأنا كذلك".

خـــيم الصمت المليء بالكلمات لبضع ثوانٍ، ثم غيرت هي الموضوع حينما سألتني: "ما رأيك في الجنرال كامبيل؟".

فكـــرت للحظـــة. من المهم أن تخمن رد فعل الأصدقاء والعائلة والزملاء تجاه نبأ الوفاة حالما تقع هذه الوفاة. ولقد نجحت في حل أكثر من قضية قتل لمجرد أن نجحت في تحديد الشخص الذي لم يكن رد فعله مناسباً لمثل هذا النبأ. فقلت لسينثيا: "لم يبدُ لي أنه في حالة من الأسى وألم الفقد التي يكون عليها الأب عندما يعلم بموت طفلته. كما أنني بالرغم من هذا لا يجب أن أنسى مكانته ووضعه".

فسألتني: "ولكن ما هي تلك المكانة؟".

"جـــندي، بطل، قائد. أعلى قمة سلم السلطة هنا، وهي كلها أمور تجعل المرء بعيداً بمشاعره".

"ربمـــا... بالنظـــر إلــى الطريقة التي ماتت بها آن كامبيل... أقصد، كيف عثروا عليها... ومن المؤكد أنني لا أعتقد أن والدها هو القاتل".

"نحـــن لا نعلـــم ما إذا كانت قد قتلت في المكان الذي وجدناها فيه، أو إذا ما كانت قـــتلت وهـــي بملابـــسها أم لا. فأحياناً ما تكون حقيقة الأشياء على نقيض ما تبدو عليه. فالقاتل البارع هو الذي يجعلك ترى ما يريدك هو أن تراه".

"ولكنني لا يمكن أن أصدق أن بوسعه أن يخنق ابنته".

"قـــد يكـــون الأمـــر شاذاً، إلا أنه حدث من قبل... فلو كانت ابنتي، ونما إلى علمي نشاطها الجنسي ذاك، فربما يعميني الغضب".

"إلا أنه لن يصل بك إلى أن تقتل ابنتك".

"كـــلا، لـــم أكن لأفعل ذلك. ولكن تلك أمور يصعب التيقن منها. وأنا أحدد الدوافع فقط".

أوقفـــنا السيارة عند نادي الضباط، والذي – كما قلت قبلاً – يتخذ الطراز الإسباني فـــي بنائه. ربما كان هذا هو الطراز الشائع في العشرينيات من القرن الماضي، حينما تم بـــناء هـــذا النادي وغيره من الأبنية هنا بعد أن تحول معسكر هادلي إلى فورت هادلي. كانت أميركا قد انتصرت في الحرب التي ستنهي كل الحروب، إلا أنه لم يكن هناك إيمان بأنهـــا بالفعـــل الحرب التي ستنهي كل الحروب، وهكذا تم التوسع في أبنية هذه القاعدة، تماماً كما أن لديَّ شك الآن في أن سياسة التقليل الحالي في النفقات العسكرية لا تعدو أن تكون حالة مؤقتة سرعان ما ستزول.

فـــتحت الـــباب وأنا أقول لسينثيا: "أنت لا ترتدين الزي العسكري وإلا كنت دعوتك لتناول العشاء".

"حسناً سأغير ملابسي إن أردت. هذا إن لم تكن تود أن تتناول العشاء وحدك".

"سألتقيكِ عند المطعم إذن". خرجت من السيارة وبعدها انطلقت هي بها.

دلفت إلى النادي بينما كان تنبيه الراحة ينطلق عبر مكبرات الصوت بالقاعدة. بحثت عـــن مكتب السكرتيرة، حيث أريتها بطاقتي الرسمية، وطلبت منها الهاتف ودليل القاعدة. لـــم يكـــن للكولونـــيل تشارلز مور تسجيل بالدليل لعنوان منـــزلي داخل القاعدة، لذا فقد اتصلت بمدرسة الحرب النفسية. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل، إلا أن ما يميز الجـــيش أن هـــناك دومـــاً شخصاً مناوباً في أية نقطة داخله. فنحن لا ننام. أجابني رقيب مـــناوب وقـــام بـــتحويل المكالمـــة إلى مكتب الكولونيل تشارلز مور. "الحرب النفسية، الكولونيل مور يتحدث".

"سيدي الكولونيل مور، هذا هو المساعد برينير. أنا صحفي من جريدة أخبار الجيش".

"أوه...".

"بخصوص مقتل النقيب كامبيل".

"أجل... أوه، يا إلهي.. لقد كانت جريمة مأساوية".

"بالفعل يا سيدي. هل يمكن أن أحصل منك على تعليق؟".

"بالطبع... لقد كنت القائد المباشر للنقيب كامبيل".

"أجل سيدي. أعلم هذا. فهل سيكون من المناسب لك أن تلتقيني في نادي الضباط الآن؟ لن يدوم اللقاء أكثر من عشر دقائق" هذا إن لم أجد لديك ما يفيد أيها الكولونيل.

"حسناً...".

"إن من المفترض أن أسلم تحقيقي هذا في غضون ساعتين، وأود أن أحصل على بضع كلمات منك بصفتك قائدها".

"لا مشكلة. أين ألاقيك؟".

"عند المطعم. إنني أرتدي حلة زرقاء اللون. أشكرك سيدي الكولونيل". أغلقت الخط. إن معظم الأميركيين يعلمون بأن ليس عليهم الحديث إلى الشرطة ما لم تكن لديهم الرغبة في ذلك، إلا أنهم يجدون دوماً في أنفسهم الرغبة في التحدث إلى الصحافة. ومهما كان السبب في هذا، إلا أنني كنت قد قضيت أغلب اليوم بصفتي بول برينير المحقق العسكري، وآن لي أن أمارس بعض الخداع.

جذبت دليل هاتف ميدلاند تجاهي وبحثت عن اسم تشارلز مور، لأجد أنه يقطن في نفس المربع السكني الذي كانت تقطنه آن كامبيل. وهو أمر لا شيء فيه، على الرغم من أن منطقة فيكتوري جاردينز ليست بتلك التي تناسب معيشة كولونيل بالجيش. ولكن ربما كان يعاني من ضائقة مالية، أو لكونه خبيراً نفسياً فإنه لم يكن يجد غضاضة في مقابلة الملازمين والرتب الأقل منه. وإلا فإنه كان راغباً في أن يكون إلى جوار آن كامبيل.

دونت عنوانه ورقم هاتفه في مفكرتي، ثم هاتفت سينثيا في مقر القيادة لأجد أنها قد دخلت غرفتها للتو. "سنلتقي والكولونيل مور. ونحن صحفيان من أخبار الجيش. كما أود أن تبحثي عما إذا كانت هناك غرفة لديك يمكن أن تخصص لي. فلا يمكن أن أعود الآن إلى ويسبيرينج باينز في ظل هذا التحفز من القائد ياردلي. وأرجو أن تبتاعي لي فرشاة أسنان وشفرة حلاقة وكافة هذه الأغراض. كما أرجو أن تبتاعي لي سروالاً قصيراً متوسط القياس، وجوارب. وربما تتمكنين من ابتياع قميص جديد أيضاً - مقاس 15 - كما تأكدي من أن تضعي في سيارتك حذاءً رياضياً لكِ، حتى يناسب ذهابنا إلى ساحة الرماية، وكذلك كشافاً ضوئياً. آلو؟ هل أنتِ معي يا سينثيا؟".

أعتقد أن هناك مشكلات في الخط. فأغلقت الخط وهبطت إلى حيث حجرة المطعم، والتي ليست بنفس الطابع الرسمي الذي كانت عليه غرفة الطعام الرئيسية. طلبت المشروب المفضل وتناولت إلى جانبه رقائق البطاطس وبعض المقرمشات، وأنا أستمع إلى الحوارات الدائرة من حولي. كانت تدور حول آن كامبيل، وبأصوات خافتة حذرة. فهي في نهاية المطاف ابنة الجنرال. وستجد أن هذا هو الموضوع السائد في بارات ميدلاند كذلك، مع المزيد من الحرية في الرأي.

رأيت رجلاً في منتصف عمره يرتدي زي الكولونيل الأخضر يدلف إلى المطعم، وأخذ يجول بنظره عبر أرجاء الحجرة. أخذت أراقبه لدقيقة كاملة، ملاحظاً أن أحداً لم يلوح له أو يحييه. فإما أنه مغمور أو أن أحداً لا يحبه. فوقفت واقتربت منه. رآني فابتسم متسائلاً: "السيد برينير؟".

صافحته وأنا أرد: "أجل سيدي". كان زي الكولونيل مور مجعداً سيئ التطريز، وهي علامة فيما يبدو لي على أن الضابط ينتمي إلى أحد أفرع الجيش المتخصصة. قلت له: "أشكرك للحضور". كان الكولونيل مور في العقد الخامس من عمره، ذو شعر أسود مجعد بدا لي طويلاً، ووجدت فيه ما ولد لديَّ انطباعاً بأنه أشبه بخبير نفسي مدني تمَّ إلحاقه بالجيش قبل هذا اليوم. وهكذا همَّ الضباط الأطباء والمحامون والنفسيون وأطباء الأسنان. فلا يمكنني أبداً أن أحدد ما إذا كانوا قد التحقوا بالجيش بسبب تهمة مدنية بممارسة المهنة بصفة غير مشروعة أو أنهم وطنيون مخلصون ليس إلا. قدته إلى طاولة في الركن البعيد من الحجرة، وجلسنا.

"شراب؟".

"لا مانع".

ناديت النادل، وطلب الكولونيل مور كأساً من المشروب المفضل.

حدق الكولونيل مور فيَّ وكأنما يحاول أن يخمن ما يكمن بداخلي من اضطرابات عقلية. وحيث إنني لم أكن لأخيب ظنه فقد تطوعت بالقول: "يبدو لي أنها قد وقعت ضحية مختل عقلي. أو ربما سفاح".

ولكونه مخلصاً لمهنته، فقد رد لي العبارة بسؤال: "لماذا ترى هذا؟".

"مجرد تخمين".

"لم تحدث حالات اغتصاب أو قتل على هذه الشاكلة بهذه المنطقة".

"مشابهة لأية جريمة؟".

"لما حدث للنقيب كامبيل".

لم يكن ما حدث للنقيب كامبيل من الأمور التي يعلمها الجميع حتى هذه المرحلة من القضية، إلا أن المرء لا يمكنه أن يفلح بالشائعات. فكل ما عرفه الكولونيل مور

والكولونيل فاولر والجنرال كامبيل ووقت معرفتهم به والكيفية التي عرفوه بها، كان محض تخمين حتى الآن. فسألته: "ما الذي حدث لها تحديداً؟".

"لقد اغتصبت وقتلت، عند ساحة الرماية".

أخرجت مفكرتي وأنا أرتشف من كوب المشروب المفضل. "لقد أتيت للتو من العاصمة. وليس لديَّ الكثير من المعلومات. سمعت أنها وجدت عارية، موثقة بالحبال".

فكّر في الإجابة، ثم قال: "من الأفضل أن تتأكد من الشرطة العسكرية حول هذه التفاصيل".

"معك حق. منذ متى وأنت قائدها المباشر؟".

"منذ أن أتت إلى فورت هادلي، أي منذ عامين".

"فأنت على معرفة جيدة بها إذن؟".

"بلى. فالمدرسة التدريبية صغيرة. وليس بها سوى حوالى العشرين ضابطاً وثلاثين مجند ومجندة".

"فهمت. ما هو شعورك حينما سمعت بنبأ مقتلها؟".

قال لي: "أصبت بصدمة شديدة. وأنا لا زلت غير مصدق لما حدث". كان يبدو لي صريحاً فيما عدا تلك الصدمة الشديدة. فأنا أحتك بين الحين والآخر بالأطباء والخبراء النفسيين، وأعلم أنهم أميل إلى ممارسة سلوكيات غير مناسبة، إلا أن كلامهم يتسم بالدقة الشديدة. كما أنني مؤمن بأن المهن تنادي أصحابها. وبالأخص حينما يتعلق الأمر بالجيش. فتجد ضابط سلاح المشاة مثلاً فظاً متبجحاً، واثقاً جداً من نفسه. أما ضباط التحقيقات العسكرية فماكرون ساخرون، متوقدو الذهن. أما الخبير النفسي فقد اختار أن يقضي حياته وسط العقول المضطربة، حتى إن بعضهم قد يصل به الحال إلى نفس الاضطراب العقلي. وبالنسبة للكولونيل تشارلز مور – الخبير في الحرب النفسية – والذي عمل على إصابة عقول العدو بالعطب، فإنه أشبه بالطبيب الذي عمل على تنمية جراثيم التيفوس لأجل خبراء الحرب البيولوجية.

هكذا كنت أرى أن هناك شيئاً على غير ما يرام بالنسبة لتشارلز مور. بدا لي أنه مشتت الذهن، ثم أنه يحدق فيَّ كما لو كان يحاول قراءة ما يدور داخل عقلي أو يستشف خلجات وجهي. فهو يجعلني أشعر بعدم الارتياح، وهو أمر يزيد مما هو واقع عليَّ من جهد. كما أنه – علاوة على غرابة أطواره – ذو عينين داكنتين عميقتين نافذتين، يلوح منهما الشر. ولصوته نبرة بطيئة عميقة منومة، ربما كانت نتاج تدريبات تلك المدرسة.

سألته: "هل كنت على صلة بالنقيب كامبيل قبل المدرسة؟".

"أجل. فقد كان أول لقاء لي بها منذ ستة أعوام حينما التحقت بمدرسة فورت براج، حيث كنت مدربها".

"كانت قد نالت للتو درجة الماجستير في علم النفس من جورج تاون".

حـدق فـيَّ بالطـريقة التـي يفعلها شخص يجدك تعلم شيئاً لا يتوقع أن تعلمه من الأصل. وقال: "أجل. أعتقد هذا".

"وهل كنتما معاً في براج حينما التحقت بتخصص الحرب النفسية؟".

"كـنت بالمدرسة – وكانت هي مع زملائها في الوحدة الرابعة من وحدات الحرب النفسية".

"ثم؟".

"ذهبنا إلى ألمانيا. كنا هناك معاً في نفس التوقيت تقريباً. بعدها عدنا إلى مدرسة جي إف كي في براج، حيث قمنا بالتدريس لفترة، بعدها تم إرسالنا إلى الخليج معاً، ومن بعدها إلـى البنـتاغون لمـدة قـصيرة، وقـد أتينا هنا معاً منذ عامين. هل كل تلك المعلومات ضرورية؟".

"ما الذي تقوم به في فورت هادلي سيدي الكولونيل؟".

"تلك أمور سرية".

"آه". أومـأت وأنا أكتب بسرعة ما يقول. فليس من المعتاد لشخصين أن يشتركا في الكثيـر من المهام، حتى في مجال متخصص مثل الحرب النفسية. فأنا أعرف أزواجاً من العسكريين لم يحظيا بمثل هذا الحظ الطيب. فسينثيا المسكينة مثلاً والتي، رغم أنها لم تكن متـزوجة إلـى ذلك الضابط في القوات الخاصة إلا أنها كانت مخطوبة له، ومع هذا فقد كانت في بروكسل بينما كان هو في منطقة قناة بنما. علقت قائلاً للكولونيل: "كانت بينكما علاقة عمل متميزة".

"أجل. فقد كانت النقيب كامبيل متحمسة جداً، وذكية، ولبقة، وموضع ثقة".

بدا لي هذا مماثلاً لما كتبه عنها في التقرير التقييمي الذي يقدمه كل ستة أشهر. فمن الواضح أنهما كانا يكونان ثنائياً ممتازاً. سألته: "هل كنت تسدي عليها حمايتك؟".

حـدق فيَّ وكأنما يحاول أن يستشف السبب في هذا الأسلوب المباشر. ولكنه أجاب: "بل كانت تحت إمرتي".

"حـسناً". دونت هذا رغم علمي أنه هراء. ولقد تولد لديَّ شعور غريب بالانـزعاج لعلمـي أن هذا الرجل صاحب آن كامبيل عبر جميع أرجاء العالم وقضى معها العديد من السنوات. كدت أقول له: "اسمع يا مور. أنت لا تستحق حتى أن تكون في نفس الدنيا التي

تعـيش فيها هذه الفاتنة. أنا الذي كنت أستحق هذا. أيها المختل". إلا أنني اكتفيت بسؤاله: "أكنت على صلة بوالدها؟".

"أجل. ولكنها لم تكن صلة قوية".

"هل التقيته قبل حضورك إلى فورت هادلي؟".

"أجل. بين الحين والآخر. فقد التقيناه عدة مرات في الخليج العربي".

"التقيتماه؟".

"أنا وآن".

"آه". دونت هذه المعلومة أيضاً.

ســألته عــدة أســئلة أخــرى، إلا أنه من الواضح أن أياً منا لم يكن يجد طائلاً من ورائها. فقد كان غرضي من هذا اللقاء هو أن أصل إلى انطباع عنه قبل أن يعرف حقيقة شخـصيتي. فهـم لن يخبروك بأي شيء ذي بال ما أن يدركوا أنك محقق. لكن صحفيي أخـبار الجـيش لن يسعهم أن يسألوا أسئلةً من قبيل: "هل كنت على علاقة جنسية معها؟" فهي أسئلة متروكة لمحققي المباحث، لذا لم يسعني سوى أن أسأله: "هل كنت على علاقة جنسية معها؟".

فوقف غاضباً. "أي سؤال هذا بحق السماء؟ لسوف أتقدم بشكوى رسمية و...".

وهنا أخرجت بطاقة هويتي الحقيقية قائلاً: "أنا من المباحث العسكرية أيها الكولونيل. تفضل بالجلوس".

حدق في البطاقة للحظة، ثم إليَّ، فشعرت وكأنما تبث عيناه أشعة من نوع ما، تماماً كما في أفلام الرعب الرخيصة.

قلت له مجدداً: "تفضل بالجلوس أيها الكولونيل".

أخذ يجول بناظريه عبر أرجاء الحجرة نصف الشاغرة، وكأنما يتساءل عما إذا كان هناك من سيلقي القبض عليه. وفي النهاية جلس.

هـناك أنـواع مختلفة ممن يحملون رتبة كولونيل. ومن الناحية النظرية فإن الرتبة تـسمو بمن يحملها من رجال أو نساء، وعليك أن تحترمها. أما في الواقع فنجد أن الأمر مختلف. فالكولونيل فاولر مثلاً يمتلك السلطة والقدرة، فعليك أن تتوخى الحرص معه. أما الكولونـيل مور فلم يكن يمتلك – حسب معلوماتي – أية سلطة. قلت له: "إنني أحقق في قـضية مصرع النقيب كامبيل. وأنت لست مشتبهاً به في هذه القضية، وأنا لن أتلو عليك حقـوقك تمهـيداً للقبض عليك. لذا، فعليك أن تجيب على أسئلتي بكل صدق وبالتفصيل. اتفقنا؟".

"ليس من حقك أن تخدعني و...".

"هذا شأني أنا. مفهوم؟ والآن إلى السؤال الأول...".

"إنني أرفض أن أتحدث معك من دون محامٍ".

"أرى أنك تشاهد الكثير من أفلام المدنيين. أقول لك أن هذه حقوق المشتبه فيهم. أما لو رفضت أن تتعاون معي طوعاً، فسوف أعتبرك مشتبهاً به وعندها سأتلو عليك حقوقك وأقتادك إلى مكتب القائد العام، وأعلن له أن لديَّ مشتبه به يصر على وجود محامٍ معه. فما رأيك إذن؟".

فكر في الأمر للحظة، ثم قال: "ليس لديَّ أي مما أخفيه، كما أنني لم أستسغ أن تضعني في موقف دفاعي كهذا".

"هذا صحيح. السؤال الأول: متى كانت آخر مرة رأيت فيها النقيب كامبيل؟".

تنحنح وعدل من جلسته، ثم قال: "كانت آخر مرة رأيتها فيها حوالى الساعة 16:30 بمكتبي. قالت لي بأنها ستذهب للنادي لتناول الطعام، ثم سيكون لديها نوبة خدمة".

"ما السبب في تطوعها للقيام بالخدمة في الليلة الماضية؟".

"لا أعرف".

"هل اتصلت بك من مقر القيادة خلال المساء، أو هل اتصلت أنت بها؟".

"دعني أتذكر...".

"يمكننا تتبع جميع المكالمات الواردة والصادرة من مقر القيادة، كما أن هناك سجل الخدمة نفسه". والحقيقة أنه لم يكن بوسعنا تتبع المكالمات التي تتم داخل القاعدة، كما أنه لا وجود لسجل خدمة تلك الليلة.

أجابني مور: "أجل، لقد اتصلت بها...".

"ما الوقت تحديداً؟".

"حوالى الساعة 23:00".

"ما الداعي إلى الاتصال في هذا الوقت المتأخر؟".

"كان لدينا ما نناقشه بشأن العمل الخاص باليوم التالي، فأردت أن أنتهز فرصة الهدوء ليلتها".

"من أين كنت تتصل بها هاتفياً؟".

"من خارج القاعدة. من فيكتوري درايف".

"أليست تلك هي نفس المنطقة التي تقطنها المجني عليها؟".

"بلى".

"هل حدث أن ذهبت إلى منزلها؟".

"بالطبع. عدة مرات".

عندها حاولت أن أتخيل منظر هذا الرجل وهو عارٍ وظهره للكاميرا، أو وهو مرتدٍ لقناع جلدي. كما كنت أتساءل عما إذا كان لدى رجال البحث الجنائي طريقة يحددون بها الشخص الذي يظهر جسده العاري في كل صورة من تلك الصور التي وجدناها. على أنني سألته: "هل قامت بينكما علاقة جنسية؟".

"كلا. ولكن من المؤكد أنك ستسمع شائعات من هذا القبيل. فالشائعات أحاطت بنا دوماً..".

"هل أنت متزوج؟".

"كنت. وقد طلقتها منذ سبع سنوات".

"هل تواعد النساء؟".

"بين الحين والآخر".

"هل أعجبت بجمال آن كامبيل؟".

"في الحقيقة... أعجبت بعقليتها".

"هل حدث أن أعجبت بجسدها؟".

"لا أميل إلى هذه النوعية من الأسئلة".

"ولا أنا. هل أعجبت بها من الناحية الجنسية؟".

"لقد كنت قائدها المباشر، كما أنني أكبرها بعشرين عاماً، وهي ابنة الجنرال. فلم يبدر مني تجاهها أي مما يستدل على كونه ميلاً جنسياً تجاهها".

"إنني لست أحقق في تهمة تحرش جنسي. بل أحقق في جريمة اغتصاب وقتل... ما سبب وجود شائعات حول علاقتكما؟".

"يرجع هذا لعقليات الناس المريضة. وهذا يشمل حتى ضباط الجيش".

فابتسمت معلقاً: "مثلك أنت".

وهنا طلبت من النادل كأسا شراب آخرين؛ شراب المشروب المفضل لكي أزيد من صراحته، وقدح آخر من المشروب المفضل حتى أمتلك شجاعة استفزازه.

حينها وصلت سينثيا، وهي ترتدي سروالاً أسود فوقه قميص أبيض. عرّفتها بالكولونيل مور، ثم قلت لها: "لم نعد نمثل جريدة أخبار الجيش. بل لقد كشفت له عن حقيقة شخصيتنا كمحققين عسكريين. وكنت أسأل الكولونيل مور عما إذا كان قد سبق له إقامة علاقة جنسية مع المجني عليها، ولكنه نفى لي هذا. ونحن حتى هذه اللحظة على طرفي نقيض".

ابتسمت سينثيا قائلةً لمور: "إن السيد برينير يعاني من التوتر والإجهاد الشديد". جلست وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث لبعض دقائق عرفت خلالها سينثيا بما فاتها. طلبت سينثيا شراب الكوكا مع شطيرة وطلبت لي شطيرة لحم بالجبن. تعرف أنني أحب هذه الشطائر. أما الكولونيل مور فقد اعتذر عن تناول الطعام معنا، معللاً ذلك بأنه لا يزال حزيناً وليست لديه رغبة في الطعام. فسألته سينثيا: "هل تعرف - كونك صديقها - أحداً قد تكون على علاقة حميمة معه؟".

"هل تقصدين علاقة جنسية؟".

"أعتقد أن هذا ما نتحدث عنه الآن".

"في الحقيقة أن... لقد كانت تواعد شاباً... مدنياً. ومن النادر أن تواعد أحداً من أفراد الجيش".

"من كان هذا المدني؟".

"شخصاً يدعى ويس ياردلي".

"ياردلي؟ هل هو رئيس الشرطة؟".

"كلا. إنه ويس ياردلي، أحد أبناء بيرت ياردلي".

رمقتني سينثيا، ثم سألته: "هل تعرف وقت بداية تلك العلاقة؟".

"منذ أن وصلت إلى هنا. وقد كانت علاقتهما متقلبة. هناك من يمكن أن تسأليه عن هذا".

"لماذا؟".

"لماذا؟ السبب واضح. فهما طرفا علاقة. وهذه العلاقة متقلبة".

"وما سبب الخلافات بينهما؟".

"لقد... لقد أخبرتني بأنه يسيء معاملتها".

تفاجأت بهذا الرد. فسألته: "كان يسيء معاملتها؟".

"أجل. فلم يكن يتصل بها، وكان يواعد نساء أخريات، ولم يكن يراها إلا حسب مزاجه".

لم يكن هذا منطقياً. فلو كنت أحب آن كامبيل فما الذي لا يجعلني أتبعها في كل مكان؟. فقلت لمور: "ولماذا ارتضت هذا؟.. أقصد أنها كانت.. جذابة.. ويرغب فيها أي رجل.." كما أنها مثيرة، ولديها جسد يمكن أن يدفع أي رجل أي ثمن كان لأجل أن يناله. بل وأن يقتل لأجله". هكذا قلت لنفسي.

ابتسم مور وقد فهم قصدي. أجد في هذا الرجل ما يبعث على عدم الارتياح. قال لي: "هذا يعود إلى نمط كل شخصية. أي أن آن كامبيل كانت تميل إلى ذوي السلوك غير

القويم. أما من يبدي إعجابه بها بأي شكل كان، فإنها تعتبره ضعيفاً وغير جذاب في نظرها. وكان هذا يشمل أغلب الرجال. فقد كانت تنجذب إلى الرجال الذي يسيئون معاملتها. وكان ياردلي من هذه النوعية. فهو شرطي من ميدلاند مثله مثل أبيه، كما أنه دون جوان تلك البلدة ولديه العديد من الصديقات، فهو وسيم ويتمتع بسحر الرجل الجنوبي وفظاظته. يمكن أن نسميه بالوغد إن شئتما".

لم أكن أستسيغ كل هذا الكلام، فقلت له: "وظلت آن كامبيل على علاقة به طيلة عامين؟".

"كانت هناك فترات هجر بينهما".

فبادرته سينثيا: "هل ناقشت كل هذه الأمور معك؟".

"أجل".

"بصفتك المهنية؟".

أومأ وقد فهم مغزى السؤال. "لقد كنت المعالج النفسي لها".

لم أكن لأضاهي سينثيا في حذقها، ربما لأن عقلي كان مشوشاً. فلقد أصبت بخيبة أمل كبيرة في آن كامبيل. ربما لم تغضبني الصور أو ما وجدته في تلك الغرفة، لعلمي أنها لم ترَ في هؤلاء سوى أدوات لإشباع شهوتها. إلا أن فكرة وجود عشيق، يسيء معاملتها، بالإضافة إلى كونه ابناً لبيرت ياردلي، هو ما أثار غيظي.

قالت له سينثيا: "إنك على علم بأغلب أسرارها إذن".

"أعتقد هذا".

"سنطلب منك إذن أن تساعدنا في التحليل النفسي".

"أساعدكما؟ لن أبوح بأي شيء لكما آنسة صنهيل".

استجمعت شجاعتي وقلت له: "سأحتاج إلى كافة الملاحظات والتقارير الخاصة بجلساتك معها".

"لم أدوّن أية ملحوظات أبداً. كان هذا اتفاقنا".

فقالت سينثيا: "إلا أنك ستساعدنا على أية حال، أليس كذلك؟".

"ولماذا أفعل؟ فلقد ماتت".

ردت سينثيا: "أحياناً ما يساعدنا التحليل النفسي في التوصل إلى تشخيص نفسي للقاتل. وأنا أفترض أنك تعلم هذه الحقيقة".

"لقد سمعت بها. فعلمي قليل بعلم النفس الإجرامي. ولو أردتما رأيي، فإن هذا هراء. فنحن جميعاً نمتلك جزءاً من العقلية الإجرامية، إلا أن لمعظمنا سيطرة جيدة على هذا

داخلـياً وخارجياً. ولو أوقف المرء هذه السيطرة لما كان هناك فارق بينه وبين أي قاتل. ولقد كنت شاهداً على عقلاء في فيتنام لا يترددون عن قتل الرضع".

خيم الصمت بعدها لبرهة، أخذ كل منا يقلب خلالها الأفكار داخل عقله.

ثـم قالت سينثيا في النهاية: "إلا أننا نأمل أن تخبرنا - بصفتك كنت موضع ثقتها - بكل ما تعرفه عنها..، أصدقائها وأعدائها وعقليتها".

"أرى أنني لا أملك خياراً".

طمأنـته سـينثيا بردها: "كلا. إلا أننا نود أن يكون تعاونك هذا طواعيةً، إن لم يكن متصفاً بالحماس للكشف عن القاتل. ألا تود أن يتم إلقاء القبض عليه؟".

"أنـا راغـب في هذا لأنني متلهف لأن أعرف من هو. أما بالنسبة لتطبيق العدالة، فإني متأكد من أن هذا القاتل كان يرى أنه يطبق العدالة".

سألته سينثيا: "ما الذي تقصده بهذا؟".

"أقصد أنه عندما يتم اغتصاب وقتل امرأة مثل آن كامبيل تحت أنف والدها، فمن المؤكد أن هـذا القاتل يكنُّ ضغينةً ما تجاههما أو تجاه أحدهما. وربما وجد أن ما يفعله هو الصواب، في نظره على الأقل". عندها نهض، ثم تابع كلامه قائلاً: "هذا أمر يحزنني جداً. أشعر بخسارة كبيرة. ولسوف أفتقد صحبتها. أرجو أن تعذراني لأني مضطر لأن أنصرف".

وقفـت أنا وسينثيا بدورنا. فهو في النهاية برتبة كولونيل. وقلت له: "أود أن أتصل بك غداً. فأرجو أن تتيح لي وقتاً سيدي الكولونيل. فأنا مهتم بالحديث معك".

غادرنا، فعدنا لمقعدينا.

أتى الطعام، فتناولت شطيرتي. وقالت لي سينثيا: "هل أنت على ما يرام؟".

"أجل".

"أرى أن أسـلوب اختـيار آن كامبيل لعشاقها قد أغضبك. قد بدا هذا واضحاً عليك حينما تحدث عن ذلك".

نظـرت إلـيها وقلـت: "يقولون إن عليك ألا تتعاطف مع الشاهد أو المشتبه به أو المجني عليه. إلا أن المرء لا يسعه هذا أحياناً".

"لطالما تعاطفت مع ضحايا جرائم الاغتصاب. إلا أنهن يبقين أحياء. أما آن كامبيل فماتت".

لم أعلق على كلامها.

فتابعت سينثيا كلامها: "أكره أن أقول لك هذا، إلا أنني أعرف من هنَّ على شاكلتها. فهـي تجـد مـتعة سادية في تعذيب من لا يستطيعون أن يخفوا إعجابهم بها، ومن ناحية

أخرى فإنها تمنح جسدها في ماسوشية للرجل الذي تعلم هي أنه سوف يعاملها بكل قذارة. وفـي الأغلـب فإن ويس ياردلي كان مدركاً لدوره هذا، وكان يلعبه ببراعة. وقد أصيبت هـي بالغيـرة من النساء الأخريات، أما هو فلم يبالِ في الأغلب بتهديداتها أن تجد عشيقاً غيـره. فعلاقتهما جيدة في إطار ما وضعاه من أسس لعلاقتهما. وربما كان ويس ياردلي آخر من يمكن أن نوجه إليه أي اتهام".

"وكيف تتيقنين من ذلك؟".

"في الحقيقة.. أنني قابلت في عملي الكثيرات ممن هن على هذه الشاكلة".

"حقاً؟".

"بالتأكيد. هناك رجال يعجبهم ذلك أيضاً".

"ربما".

"الإرهاق بادٍ عليك بشدة. وبدأت تصاب بالملل والخمول العقلي. اذهب لتأخذ قسطاً من النوم، ولسوف أوقظك لاحقاً".

"أنا بخير. هل حصلتِ لي على غرفة؟".

فـتحت حقيـبة يدها وهي تجيب: "أجل. ها هي المفاتيح. أما الأغراض التي طلبتها فهي داخل سيارتي، وبابها مفتوح".

"أشكرك. بكم هذه الأغراض؟".

"سـوف ألحقهـا بحـسابك لـديّ. لسوف يسخر كارل من شرائي لملابس داخلية رجالـية... بوسـعك أن تمـشي من هنا حتى مقر الاستراحة، إلا إذا رغبت في استعارة سيارتي".

نهضت قائلاً: "لا هذا ولا ذاك. هلم بنا إلى مقر القيادة".

"بوسعك أن تذهب لتستحم على الأقل يا بول".

"هل رائحتي كريهة إلى هذا الحد؟".

"حتى الوسيمون أمثالك يعرقون في ظل حر جورجيا هذا".

"حسناً.. سوف أذهب لأستحم وأستريح قليلاً... أيقظيني عند الساعة 21:00".

"بالتأكيد".

مـشيت لعدة خطوات مبتعداً، ثم عدت لأقول لها: "لو لم يكن بينها وبين ضباط هذه القاعدة أية علاقة، وكانت مولعة بذلك الشرطي، فمن هؤلاء الرجال الذين بالصور إذن؟".

تركت سينثيا شطيرتها وتطلعت إليّ قائلةً: "اذهب لتنام يا بول".

الفصل الخامس عشر

رنّ جـــرس الهاتف في غرفتي عند الساعة 21:00، ليوقظني من نوم متقطع. أتاني صوتها: "سأنتظرك بالأسفل".

"أمهلينـــي عشر دقائق". أغلقت الخط، ثم ذهبت إلى الحمام، وغسلت وجهي. تتكون استراحة الضباط الزائرين في فورت هادلي من طابقين، في بناء قرميدي يشبه بالكاد أبنية تلـــك الحانـــات الرخيـــصة. والمقـــر جيد، فالحجرات نظيفة، لكنها على النمط العسكري الـــصرف، حيث لا توجد أجهزة تكييف، كما أن الحمام مشترك بين كل غرفتين، هذا لكي لا تنسى أن حياة الجيش قاسية. وحينما تستخدم الحمام يجب أن تقفل الباب الذي يقود إلى الغـــرفة الأخرى، ثم عليك أن تفتحه عندما تترك بحيث يمكن أن يدخل الزميل في البيت المجاور. وهو أمر غالباً ما يُنجز بطريقة صحيحة.

فرشـــت أسناني، ثم ذهبت إلى غرفة النوم لكي أرتدي القميص الجديد، وأنا أتساءل عن الكيفية التي سأحضر بها حاجياتي من منـــزلي المتنقل إلى هنا من دون أن ينتبه إليّ أفـــراد الشرطة المحلية هناك. لم تكن هي أول مرة أكون فيها الشخص غير المرحب به داخـــل بلدة ما، كما أنها لن تكون الأخيرة. وفي العادة ما أتمكن من تسوية الأمور بحيث يمكننـــي مغادرة المنطقة كلها بعد أن أنهي القضية. إلا أنني ذات مرة – في فورت بليس بولاية تكساس – اضطررت إلى استدعاء طائرة هليوكوبتر للخروج بها من المنطقة، ولم يرسلوا إليّ بسيارتي إلا بعد بضعة أسابيع.

وجدت أن السروال الداخلي من المقاس الصغير وليس المتوسط. يا للنساء. ارتديت ملابسي، وبصحبتها مسدسي الجلوك عيار 9 ملم، واتجهت إلى الردهة، حيث رأيت سينثيا تخرج من الحجرة المجاورة لحجرتي. سألتها: "هل هذه حجرتك؟".

"لا بل أقوم بتنظيفها لأجل من ينـــزل بها".

"ألم تستطيعي أن تحصلي لي على حجرة بالطابق الأرضي؟".

"إن المكـــان مليء بالضباط الاحتياط الذين يأتون في الصيف تلبيةً للاستدعاء الذي يـــستغرق أســـبوعين. وكان عليّ أن أستخدم صلاحياتي كمحققة عسكرية... كما أنني لم أمانع في مشاركتك الحمام".

خرجنا لنستقل سيارتها الموستانج. قالت: "هل سنذهب إلى ساحة الرماية رقم ستة؟".

"أجـل". كانـت لا تزال مرتدية لسروالها الأسود وقميصها الأبيض، إلا أنها ارتدت حـذاءً رياضـياً وسـترة بيـضاء. كان الكشاف الذي طلبت منها أن تجلبه موجوداً بين المقعدين. فسألتها: "هل معك سلاحك؟".

"أجل. لماذا؟ هل تتوقع حدوث مشكلات؟".

"إن المجرم يظل يحوم حول موقع جريمته".

"هراء لا يصدق".

كانـت الـشمس قـد غـربت، تاركة مكانها لبدر مكتمل، وكنت آمل في أن تكون الظروف في هذه الساعة مماثلة لساعات الصباح الأولى بساحات الرماية، هذا لكي نحصل على إحساس بما قد يكون قد حدث، وبالتالي أستوحي أية أفكار.

اجتزنا مبنى السينما، حيث كان حشد في طريقه للخارج، ثم مررنا على نادي ضباط الصف، حيث نوعية الشراب أفضل من مثيلتها في نادي الضباط، كما أن الطعام أرخص ثمناً، والنساء أكثر تودداً.

قالت لي سينثيا: "لقد ذهبت لمقر القيادة وقابلت الكولونيل كينت".

"مبادرة جيدة. هل هناك جديد؟".

"بعـض الأمـور. فهو يرغب أولاً في ألا نضيق الخناق على الكولونيل مور، فقد اشتكى مور من سلوكنا نحوه".

"إنني أصبحت أتساءل عن الشخص الذي يشتكي إليه كينت نفسه".

"هناك أنباء طيبة أخرى. أتت رسالة من كارل، فاتصلت به في المنـزل نيابة عنك، لأجـده غاضـباً جـداً مـن شخص يدعى ديلبريت إيلكينـز، والذي يقول إنك قد حولت وضعيته القانونية من مجرم إلى شاهد ملك ذي حصانة".

آمل أن يقوم أحدهم بنفس الشيء معي يوماً ما. "هل من شيء آخر؟".

"كارل من جديد. كان عليه أن يبلغ المدعي العام بالبنتاغون تقريره عما حدث، وهو يرغب في أن تقدم له تقريراً شاملاً كبديل عن ذلك الذي قدمته له هذا الصباح".

"ليقم بهذا إذن، أنا مشغول".

"لقد قمت بكتابة التقرير، وأرسلته إلى منـزله بالفاكس".

"أشكرك. ماذا كتبتِ في التقرير؟".

"هناك نسخة منه على مكتبتك. ألا تثق بي؟".

"بالطبع أثق بكِ. كنت فقط أتأكد من أنه لو ساءت الأمور أن تكوني أنتِ في مأمن، وألا يرد اسمك في المواضع التي تثير الجدل".

"أنت محق، لذا فقد وقعت باسمك أنت".

"ماذا؟".

"أمازحك فقط. دعني أهتم أنا بشؤوني".

"حسناً... هل ورد شيء من البحث الجنائي؟".

"أجل. فقد أرسل المستشفى البروتوكول الابتدائي إلى مكتب قائد الشرطة العسكرية. وفيه أن الوفاة حدثت بين منتصف الليل والساعة 4:00".

"أعلم هذا". إن تقرير تشريح الجثة – والذي يسمى لسبب أجهله بالبروتوكول – بدأ من حيث انتهى تقرير البحث الجنائي، ولكن من دون أي تداخل بينهما، وهو أمر جيد، حيث يعضدان بعضهما البعض.

"كما أوضح أن الوفاة كانت نتيجة للاختناق، حيث وجدت ثلاث تجمعات دموية بالعنق والترقوة، كما أنها عضّت على لسانها. وهذا كله مما ينتج عن الخنق".

لقد رأيت عمليات تشريح، وكما قد تتخيل، فهي ليست بالعمليات التي يحب المرء أن يشاهدها. فقد كنت أجد أنه قد كفى الجثة ما صادفته من قتل وتعرية، ولكن أن يتم تقطيعها إلى شرائح أيضاً على يد مجموعة من الخبراء فذلك هو التعدي المطلق. "وماذا بعد؟".

"تتسق زرقة وتيبس الموت مع الوضع الذي وجدنا عليه الجثة، وهكذا بدا أن الوفاة حدثت على هذا الوضع، ولم يتم نقل الجثة من مكان غيره. كما لم توجد جراح أخرى بخلاف تلك السحجات عند الرقبة، فلا توجد تجمعات دموية أو جروح عند العظام أو المخ أو العضو التناسلي أو الشرج أو الفم وغير ذلك".

أومأت برأسي من دون تعليق. "وماذا بعد؟".

فصلت لي سينثيا التقرير الخاص بمحتويات المعدة، ومحتويات المثانة والأمعاء الغليظة، وحالات الأعضاء الداخلية، وما وجدوه في الأمعاء الشرجية. حتى حمدت الله أنني لم آتِ على شطيرة اللحم بالكامل، فقد بدأت أشعر بالرغبة في التقيؤ فعلاً. تابعت سينثيا قائلةً: "كان هناك في الرحم ما يدل على حدوث عملية إجهاض من قبل، أو مرض سابق، أو ربما إدخال لأجسام كبيرة".

"حسناً... هل هذا كل شيء؟".

"حتى الآن. فلم ينتهِ بعد الفحص المجهري للأنسجة، وكذلك سوائل الجسم، وهو ما يريد فريق التشريح أن يقوم به بشكل مستقل عن البحث الجنائي والطب الشرعي... أرى أن المسؤولة عن التشريح لا تود أن تعرفهم بكل شيء، أتظن هذا؟".

"ترغب في الاحتفاظ بسر واحد".

"أنت على حق. كما أن هناك ملحوظات ابتدائية قدمها كال، حيث إنهم أنهوا اختبارات ما تـم رفعه من آثار لسوائل ودم ولم يجدوا آثار لمخدرات أو سموم، ولكن بعض أثر للكحول. كما وجدوا آثار لعاب عند أركان فمها، تتجه من أعلى لأسفل، بشكل يتفق مع وضعية جسدها. كمـا وجـدوا آثـار عرق في مواضع مختلفة، ودموعاً جافة مصدرها عيناها، ويتفق اتجاه انحدارها مع وضعية الجثة. وجميعها تعود إلى المجني عليها".

"دموع؟".

قالت سينثيا: "أجل... الكثير من الدموع. فقد كانت تبكي".

"لقد فاتني أن...".

"أجل.. ولكنه أمر لم يفت فريق رفع الآثار".

"هـذا صـحيح... لكـن الدمـوع لا تتفق مع عدم وجود جروح، كما أنها لا تتفق بالضرورة مع قيام القاتل بخنقها".

وافقتني سينثيا الرأي قائلةً: "بالطبع. إلا أنها تتسق مع أن يقوم مجنون بتقييدها وهو يخبـرها بأنها ستموت... أما الذي لا يتسق مع هذا فهي نظريتك حول أن الأمر كان في البداية برغبتها هي. فربما أصبح عليك أن تعدل من نظريتك".

"إنهـا ليـست الصياغة الأخيرة لها". ثم سكت لحظة لأتأمل الأمر وبعدها أضفت: "بصفتك امرأة مثلها، ما الذي يمكن أن يكون سبباً في بكائها؟".

"لا أدري يا بول، فلم أكن هناك".

"عليـنا أن نتخـيل وجودنا هناك ساعة الجريمة. فأياً ما كان سبب بكائها فهو سبب وجداني".

"أنت محق. فنحن أمام شخص سبب بكاءها من دون حتى أن يلمسها".

"ربما. ولكن قد تكون أجبرت نفسها على البكاء. لسبب لم نعرفه بعد".

"صـحيح". كـان هذا الدليل الجنائي موضوعي. وهو أن هناك دموعاً قد انهمرت بغزارة. وأن هذه الدموع خاصة بالمجني عليها. وقد انهمرت من العينين تجاه الأذنين، بما يـدل على أن هذا قد حدث بعدما كان قد تم تقييدها. إلا هنا ينتهي التقرير. وينتهي بالتالي دور كـال زايفـر، ليـبدأ دور بول برينير. تدل الدموع على بكاء. فمن الذي تسبب في بكائها؟ ولماذا بكت؟ ومتى بكت؟ وهل يمثل هذا أهمية بالنسبة للتحقيق؟ كنت أرى أنه مهم نوعاً ما.

قالـت لـي سـينثيا: "أمـا ألياف الأنسجة فتعود إلى سروالها الداخلي وكذلك زيها العسكري. ولم نجد أنسجة ملابس أخرى. كما أن الشعر الموجود حول الجثة كان شعرها هي فقط".

"وماذا عن الشعر الذي وجدناه في دورة المياه؟".

"لم يكن يخصها. فقد كان أسودَ غير مصبوغ، قوقازي النوع، وهو شعر رأس، ومن المؤكد أنه قد سقط بصورة طبيعية ولم يتم جذبه أو قصه، وقد تم تحديد فصيلته وهي أو. لم يكن هناك علامات جينية مميزة، وبالتالي فلا يمكن تحديد جنس صاحب أو صاحبة هذا الشعر، إلا أن كال يخمن – اعتماداً على طوله وعدم صبغه وكذلك طريقة تصفيفه – أنه شعر لرجل. كما أنه مجعد وليس منسدلاً أو متموجاً".

"لقد التقيت للتو رجلاً شعره من هذه النوعية".

"أجل. لذا علينا أن نحصل على شعرة من الكولونيل مور للمقارنة المجهرية".

"وماذا بعد؟".

"لم يتم العثور على آثار منوية على جسدها أو أي من أجزاء جسدها الأخرى. كما لم يتم العثور على آثار لأي مادة عند عضوها التناسلي أو فتحة الشرج، وبالتالي يتم استبعاد إدخال أي جسم غريب بهما، أو استخدام واقٍ ذكري مثلاً".

أومأت متفهماً "أي أنه لم يحدث أي اتصال جنسي".

"الحالة الوحيدة التي قد يكون قد حدث فيها هذا هي أن يكون المغتصب قد ارتدى نفس الزي العسكري حينما وقع عليها، ولم يترك أثراً لشعره، أو لعابه، أو عرقه عليها. وأنه قد استخدم الواقي من دون مادة ملينة، أو أن يكون قد مارس الجنس من دون قذف ومن دون واقٍ ذكري. هنا يمكن أن يستقيم هذا مع الأدلة".

"إلا أن هذا لم يحدث. إذن لم يحدث اتصال جنسي. إلا أنه لا بد من وجود أثر لهذه الحالة الجنسية، حتى ولو كان أثراً مجهرياً".

"قد أوافقك الرأي. إلا أننا لا يمكن أن نستبعد حدوث نوع من الاستثارة للأعضاء التناسلية. فلو كان الغرض من لف الحبل على عنقها هو إحداث حالة اختناق الجنس كما تقترح، فإن هذا يعني حدوث تحفيز جنسي من نوع ما".

هذا منطقي. إلا أنني قد تخليت عن إتباع المنطق في هذه القضية. "وماذا وجدتم حول البصمات؟".

"لا توجد بصمات على جسدها، حيث لم يتمكنوا من العثور على أية بصمات كاملة أو جزئية على الحبل، إلا أنهم عثروا على عدة بصمات على الأوتاد".

"هل هي جيدة بحيث يمكن أن نبحث عنها ضمن الملفات الفيدرالية؟".

"كلا. إلا أنها تكفي لكي نقارنها ببصمات نعرفها. والحقيقة أن بعضها كان لآن كامبيل. أما البعض الآخر فيعود إلى أشخاص آخرين".

"آمل في هذا".

تابعــت كلامهــا: "هذا يعني أنها قد لامست الأوتاد، مما يعني أن الجاني قد أجبرها على أن تتعاون معه، كما لو أنه يطبق تخيل جنسي معين".

"وأنا أميل إلى هذا الفرض الأخير".

"وأنا كذلك، فيما عدا أنه لا يتفق مع بكائها؟".

"الــسعادة. المــتعة الطاغــية. أمران يمكن أن يسببا البكاء وذلك ثابت بالتجارب. فأســباب البكاء تتسع لتأويلات مختلفة متفاوتة... بل أن هناك من يبكون بعد الوصول إلى ذروة الشهوة الجنسية".

"لقد سمعت بمثل هذا. وعلى كل حال فقد أصبحنا نمتلك من المعلومات الكثير مما لم يكن لدينا صباح هذا اليوم، إلا أنه لا يزال أمامنا الكثير مما يجب أن نحصل عليه. كما أن هناك من المعلومات ما لا يتفق مع بعضه البعض".

"هل وجدوا بصمات على السيارة الجيب؟".

"الكثيــر مــنها. ولكنهم لا يزالون يفحصونها هي وتلك الموجودة في دورات المياه. ولقــد نقــل كال السيارة الجيب وكذلك المقاعد السفلى في المدرجات إلى الهانجر، حيث نصب مركز الفحص هناك".

"جــيد... هنالك قضيتان مرتا عليَّ خلال عملي قمت بالتوصل فيهما إلى الجاني من دون أن أحــصل علــى دلــيل يثبت ما توصلت إليه. وفي كلتا القضيتين كان الجاني من الــذكاء الــذي يجعلــه لا يترك أية آثار خلفه في مسرح الجريمة. وأنا أود ألا تكون هذه القضية كمثيلتيها".

"إنهــم يقولــون إن الاعتــراف أقدم تاريخياً من أسلوب البحث عن الأدلة الجنائية. وغالباً ما يكون الجاني بحاجة نفسية ملحة إلى أن يعترف بجريمته، إلا أنه ينتظر فقط أن يطلب منه ذلك".

"هــذا مــا يقولــونه خــلال تعذيب المتهمين ليعترفوا، وهو ما حدث أثناء محاكمة ساحرات سالم، وكذلك محاكمات موسكو العلنية. أما أنا فأميل إلى الحصول على أدلة".

عبرنا بالسيارة أطراف القاعدة الرئيسية من دون أن نتبادل أية كلمات. فتحت نافذتي حتى أدخل هواء الليل البارد. "هل أحببتِ جورجيا؟".

رمقتني قائلةً: "لم يحدث أن خدمت فيها من قبل بصفة دائمة. كانت مهام مؤقتة. إلا أنها تعجبني. ماذا عنك أنت؟".

"إنها تستدعي لديَّ بعض الذكريات".

فارقنا القاعدة، ولم تجد سينثيا صعوبة في التوصل إلى الطريق المفضي إلى ساحات الرماية. كان القمر ما يزال متوارياً خلف الأشجار، ولم يبدد الظلام سوى أعمدة الإنارة على الطريق. وكان بوسعنا سماع صراصير الليل والضفادع والجراد وجميع أنواع الحشرات ذات الأصوات الغريبة، كما كان عبق الصنوبر طاغياً، يذكرني بمنطقة ويسبيرينج باينز منذ عدة سنوات: حيث كنت أجلس خارج العربة ليلاً على المقعد الهزّاز، أحتسي المشروب المفضل بصحبة الجنود الشبان الآخرين وزوجاتهم، ونستمع إلى جيمي هيندريكس منتظرين سماع الجريدة الصوتية، التي كانت تبدأ يوماً بعبارة: "ومن هنا يكون عليك أن...".

سألتني سينثيا: "ما رأيك في الكولونيل مور؟".

"ربما لا يختلف عن رأيك. فهو يشعر بالاضطهاد".

"أجل، لكني أرى أنه مدخلنا إلى السبب الذي أدى إلى مصرع آن كامبيل".

"ربما". ثم سألتها: "هل تعتقدين أنه من بين المشتبه بهم؟".

"لو كان هذا من الناحية الرسمية فهو ليس من بينهم. إلا أن علينا أن نستخلص منه كل ما لديه. أما لو كان رأيي بيني وبينك فإني أعتقد أنه مشتبه به".

فألمحت قائلاً: "خاصةً لو كان ذلك الشعر في الحمامات هو شعره".

"ترى ما هي دوافعه لو كان هو القاتل؟".

"لم تكن الجريمة نتاج تلك الغيرة الجنسية المعروفة على أية حال".

"هل تصدقه في كونه لم يمارس الجنس معها أبداً، أو أنه حتى لم يعرض عليها هذا؟".

"أجل. فهذا يظهر مقدار الاضطراب الذي يعاني منه".

"تلك ملحوظة هامة. ويبدو أنني أتعلم الكثير من تعاملي من الرجال".

"هذا لمصلحتك. قولي لي أنت عن دوافعه في نظرك؟".

"إنني أتفق معك في كون الكولونيل مور مضطرباً جنسياً. ولكنها ربما تكون هددته بقطع علاقتها الأفلاطونية أو المرضية هذه معه، فلم يسعه أن يدعها تفعل هذا".

"فلماذا قتلها بهذه الصورة إذن؟".

"كيف لي أن أعرف؟ فنحن نتعامل هنا مع اثنين من الخبراء النفسيين".

"أنت على حق. إلا أنني أراهن على أن مور يعلم سبب مصرعها. فهو يعلم بالكيفية التي تم بها تقييدها إلى الأرض، حتى ولو لم يقتلها هو بنفسه. فنحن نعلم بأنه قد أخبرها بأن من مصلحتها أن تمارس الجنس في الهواء الطلق مع الغرباء. لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل".

أومأت سينثيا قائلةً: "أنت تحاول التيقن من شيء ما".

"مجرد نظرية أخرى".

خيم الصمت لدقيقة، ثم قلت لها قاصداً الإشارة إلى حياتي: "هل تزوجتِ ذلك الرائد الذي... نسيت اسمه؟".

ردت بلامبالاة – أو هكذا أحسست – "أجل".

"مبروك إذن. أنا في غاية السعادة لأجلك يا سينثيا، وأتمنى لكما حياةً سعيدة".

"لكنني قد طلبت الطلاق".

"هذا جيد أيضاً".

خيم الصمت من جديد، ثم قالت: "لقد شعرت بالذنب بعدما حدث في بروكسل، لذا قبلت عرضه بالزواج. فلقد رأيت أن من الطبيعي أن أتزوجه طالما كنا مخطوبين. إلا أنه كان يذكرني في كل لحظة أنه لم يعد يثق بي. وقد ذكر اسمك مرة أو مرتين".

"هل يفترض بي أن أشعر بالذنب لأجل هذا؟ حقيقة لا أشعر بأي ذنب".

"ليس عليك هذا. فقد تبين لي أنه محب للتملك ليس إلا".

"ألم تتبيني ذلك قبلاً؟".

"كلا. فدوماً ما تكون العلاقات على البعد سبباً في ألا تعرف الطرف الآخر على نحو جيد. كانت علاقة رومانسية جداً. أما العيش والعشرة فهو أمر آخر مختلف".

"أنا متأكد من أنك قدمت تنازلات لأجله".

"لو كنت تسخر مني فأنت مخطئ. لقد قدمت تنازلات. ولكن في كل مرة تسدى إليَّ مهمة يصاب هو بالجنون، وما أن أعود منها حتى يبدأ في استجوابي. وأنا لا أحب أن يستجوبني أحد".

"لم يستجوبك أحد".

"كما أنني لم أخدعه أبداً".

"بل خدعته لمرة واحدة".

"أنت تفهم مقصدي. لذا فقد بدأت أفكر في أن الحياة العسكرية والحياة الزوجية مساران لا يتداخلان. فقد كان راغباً في أن أستقيل. وقد رفضت ذلك. فأصبح عنيفاً معي، لدرجة أنني اضطررت إلى أن أصوب إليه مسدسي".

"يا الله. أنتِ محظوظة إذن لكونه لم يصوب إليك سلاحه الآلي الذي صوبه تجاهي".

"بل لقد فعلها. إلا أنني كنت قد أخذت زناد سلاحه هذا منذ أشهر. كانت علاقة مريعة، لدرجة أنني أشعر بالحرج لمجرد الحديث عنها. إلا أنني أرى أنني مدينة لك على الأقل بتوضيح مجريات حياتي منذ أن افترقنا في بروكسل وحتى الآن".

"أشكرك. إلا أنني أتساءل عما إذا كان قد استعاد زناد سلاحه هذا؟".

ضحكت وقالت: "إنه على ما يرام. وقد تقبل الأمر في رزانة. فقد تعبت أعصابه من غيرته عليّ. وقد عاد لحياته المهنية، بل ووجد رفيقة جديدة أيضاً".

"وأين يخدم الآن هذا السيكوباتي السعيد؟".

"إنه في مدرسة تدريب القوات الخاصة في بينينج".

"إنه ليس على مبعدة من هنا".

"إنه لا يعلم بمكاني. هل أنت قلق؟".

"كلا. أحتاج فقط إلى أن أتيقن مما أتعامل معه. هذا ما اعتدته من عملي في الاستخبارات العسكرية".

"وما هو هذا الذي تتعامل معه؟".

"الماضي، والحاضر، والمستقبل. أي أبعاد علاقتنا هذه".

"أيمكن أن نبقى أصدقاء فقط؟".

"بالطبع. عليَّ فقط أن أسأل الكولونيل مور عن المكان الذي أجرى فيه عملية التعقيم".

فكرت في كلامي للحظات ثم قالت: "أنت نمطي جداً. وأنا لا أرغب في وجود آخر في حياتي ممن تصيبه الغيرة بالجنون".

"دعينا نتحدث في ذلك في الغد، أو في الأسبوع القادم".

"حسناً".

وبعد برهة من الصمت سألتها: "هل أنتِ على علاقة مع شخص لا أعرفه؟".

"هل وصلنا إلى الأسبوع القادم بهذه السرعة؟".

"أود فقط ألا أتفاجأ ليس إلا".

"كلا. لست على علاقة بأحد".

"هذا جيد، فأنا لا أود أن ألقى مصرعي برصاصة".

"أسكت يا بول وإلا أطلقت أنا عليك النار. فأنت تثير أعصابي".

قلت في ارتياع زائف "لا تطلقي النار".

ضحكت "توقف عن هذا إذن".

قطعنا الميل المتبقية في صمت، ثم قلت لها: "توقفي هنا وأطفئي الأنوار والمحرك".

كانت السماء صافية ينيرها البدر، كما انخفضت الحرارة بشكل ملحوظ، إلا أن الحرارة كانت محتملة فيما عدا نسبة الرطوبة. أي أن الأمسية كانت لطيفة، تناسب النزهات الرومانسية في وسط الريف. أنصت إلى تغريد طيور الليل وشممت عبق أشجار الصنوبر. قلت لسينثيا: "إنني لم أفكر فيكِ فقط، بل لقد كنت مشتاقاً إليكِ".

"أعلم هذا، فقد اشتقت إليك أنا أيضاً".

"فما الذي جرى إذن؟ ما الذي أدى إلى ما نحن عليه الآن؟".

هزّت كتفيها وقالت: "ربما أفسدنا الأمر بشكل أو بآخر. لقد كنت أريد منك أن... حسناً لم يعد هذا مهماً الآن".

"ما الذي كنتِ تريدين مني؟".

"كنت أريد منك ألا تقبل بقراري أن أقطع علاقتي بك. كنت أنتظر منك أن تخطفني بعيداً عنه".

"لم أكن لأفعل ذلك يا سينثيا. فأنت صاحبة القرار. وأنا احترمت قرارك".

"أوه.. يا إلهي.. أنت محقق بارع يا بول، تشعر بالقاتل على بعد مئات الأمتار، وتعرف الكاذب في لمح البصر. ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تتبين ما يعتمل داخل نفسك أنت، كما أنك لا تعرف طبائع النساء كما يجب".

جلست في مكاني، مدركاً كم كنت أحمق، وكم هي محقة، ولم أجد ما أستطيع أن أعبر عنه من كلمات، مدركاً لما أشعر به في داخلي، إلا أنني عاجز عن أن أعبر عنه أو غير مستعد لأن أربط بين ما أشعر به وكلمات محددة. فكنت أود أن أقول لها: "إنني أحبك يا سينثيا، ولطالما أحببتك. وسأظل على حبي لك. فما الذي يمنعك أن تهربي معي". إلا أنني لم أستطع هذا، لذا قلت لها، ضاغطاً على كل كلمة من كلماتي: "أعلم ما تقصدينه بكلماتك، وأوافقك على كل ما قلتيه، ولسوف أصر على ما أريد، حتى نصل إلى شكل ما لعلاقتنا هذه".

أخذت يدي في يدها للحظات، ثم قالت: "يا لك من مسكين. هل وترت أعصابك؟".

"أجل".

"وأنت لا تحب هذا الشعور، أليس كذلك؟".

"كلا".

ضغطت على يدي قائلةً: "إلا أنني ألحظ اختلافاً للأفضل منذ أن كنا سوياً في بروكسل".

"إنني أحاول أن أحسن من نفسي".

"هل تحاول احتمال صبري".

"سوف نكون بأفضل حال".

"جيد". مالت نحوي وقبلتني في خفة، ثم تركت يدي. "ماذا الآن؟".

فتحت باب السيارة وأنا أقول: "لنعد إلى العمل".

نبهتني قائلةً: "هذه ليست ساحة الرماية رقم ستة".

"كلا، فهذه الساحة رقم خمسة".

"فلماذا توقفنا هنا إذن؟".

"اصطحبي معكِ الكشاف". ترجلت من السيارة وتبعتني هي.

الفصل السادس عشر

بقيـــنا واقفين وبيننا عدة أقدام نستمع لما حولنا لبرهة من الوقت، ولكي تعتاد أعيننا على ظلمة وأجواء الليل، فهكذا تعلمنا في الأكاديمية.

وفـــي النهاية كنت أنا من بدأ الكلام: "إنني لا زلت أشك في أن أضواء السيارة التي رأتهـــا روبينـــز في الساعة 2:17 لم تكن لسيارة آن كامبيل الجيب. فلقد قادت سيارتها – كما هو رأيك – من دون أن تضيء كشافاتها حتى ساحة الرماية رقم 6. وهي تعلم بالطبع أمـــاكن تمركز الحرس، فلم تكن تريد أن تلفت إليها الأنظار. وقد أطفأت كشافاتها في هذه المـــنطقة تقريباً لتقود السيارة من دون أضواء لبقية المسافة، وهو أمر ليس بالصعب في ظل وجود نور البدر هذا. فقد وصلت إلى هنا مباشرةً لكي تلتقي شخص ما بعد أن فارقت ســـاينت جون بمقر القيادة في الساعة 1:00. ومن هنا لم يكن لأحد من أفراد الحرس أن يراها. أليس هذا منطقياً؟".

"لـــو كـــنت تفترض أن هذا قد كان موعداً غرامياً محدداً مسبقاً، فإن كلامك سيكون منطقياً حتى الآن".

"لنفترض هذا. ومن ثم فقد كان بوسعها أن تصل إلى هنا قبل الساعة 1:15".

"هذا ممكن".

قلـــت وأنا أحاول التفكير في الأمر: "حسناً.. فمن المفروض أن الشخص الذي كانت ستلتقيه قد حضر إلى هنا أولاً".

"لماذا؟".

"لأنهـــا أخبـــرته بذلك. فقد كانت تعلم أنها قد تتأخر في مقر القيادة. فاتصلت بذلك الشخص من هناك لتقول له أن يحضر إلى هنا بعد منتصف الليل وأن ينتظرها هنا".

"وبعد؟".

"قد يكون الشخص المفترض أن تلتقيه لا صلة له بهذا المكان، وقد يكون أتى بسيارة عـــسكرية. لـــذا فلكي لا يجذب الانتباه، وحتى لا يلتقي أية حراسة، فقد قاد سيارته حتى ســـاحة الرماية رقم خمسة، ثم انعطف يساراً خارج الطريق". ومن ثم فقد سرنا بعيداً عن الطريق في منطقة مكسوة بالحصى.

قلــت لها: "هذه المساحة تابعة لكلتا ساحتي الرماية رقم أربعة ورقم ستة. وهنا تقف حــاملات الجــنود، ليغادرها الجنود إلى الساحات الثلاث، ومن ثم تعود من حيث جاءت، وبعدها يسير الجنود كل إلى ساحته. إنني أذكر هذا منذ أيام تدريبي هنا".

"فيما عدا أنهم كانوا على أيامك يستخدمون البنادق".

"أنــت على حق. ومن هنا فإن الشخص الذي يفترض أن يلاقيها هنا يدرك أن عليه أن يدخل بسيارته في هذه المنطقة الحصباء حتى لا يترك أثراً للإطارات. اتبعيني". سرنا عبر المنطقة، والتي كانت آثار العديد من مسارات الإطارات المتقاطعة واضحة عليها، لم يكــن أيــاً مــنها بالوضوح الذي يستحق معه التقاط صوراً فوتوغرافية لها. ولكن ما أن اجتــزنا مــدرجات جلــوس الساحة رقم خمسة، حتى أصبح الحصى أقل كثافة، وأصبح بإمكانــنا عبــر تــسليط أضواء الكشاف أن نميز علامات الإطارات وفي منطقة ليس من المتوجب أن تجتازها سيارة أو ناقلة جنود. تواصلت علامات الإطارات وصولاً إلى صف من أشجار الصنوبر، وعندها توقفت. فقلت: "إن أي سيارة تقف هنا لن يراها أحد يمر في الطريق، إلا أنه قد ترك وراءه آثار الإطارات".

"هذا أمر مدهش يا بول. فيمكن أن تكون هذه هي آثار إطارات سيارة الجاني".

"ربما كانت هذه هي آثار إطارات الشخص الذي التقاها هنا. فلم يرغب هذا الشخص فــي أن يرى أفراد دوريات الشرطة العسكرية أو قادة ناقلات الحرس سيارته، حيث إنه كان يعلم أنها ستمر به في حوالى الساعة 1:00 لكي توصل الحراس إلى مخزن الذخيرة علــى بعــد كيلومتــر من هنا. فقد وصل هذا الشخص إلى هنا قبل ذلك الموعد وأوقف ســيارته، ثــم مشى على الممشى الخلفي حتى ساحة الرماية رقم ستة ومنها إلى دورات المــياه وانتظر هناك. وفي هذه الأثناء استخدم فيما يبدو دورة المياه وغسل وجهه ويديه، حيث خلف وراءه بقعة ماء وبعضاً من شعره. أليس هذا منطقياً حتى الآن؟".

"حتى الآن".

"لنــتابع المشي إذن". وجدنا الممشى الخلفي، والمصنوع من ألواح خشبية تم رصها إلــى جوار بعضها البعض لكي تشكل طريقاً أو ممراً يلائم كل تقلبات الطقس، وهو مما يــسميه العــسكريون سطحاً خشبياً. وهذا السطح لا يظهر أية آثار للأحذية. مشيناه حتى وصلنا إلى المنطقة التي خلف دورات مياه ساحة الرماية رقم ستة. "ها هنا انتظر الرجل، فــي دورة المــياه أو إلى جوارها. وكان أول ما رآه هو ناقلة أفراد الحراسة إلى مخزن الذخيرة، وبعد قليل عادت الناقلة بعد أن أقلت الحرس الذين انتهت نوبتهم. والناقلة لم تأخذ طريقها إلى القاعدة الرئيسية، وإلا كانت قد قابلت سيارة آن كامبيل وهي قادمة من الاتجاه المعــاكس. بل قد أخذت طريقها إلى جوردان فيلد لكي تستبدل نوبة الحراسة في الهانجر،

وهو أمر يستغرق وقتاً. وأنا أذكر هذا منذ أن كنت أخدم في هذا المكان. لذا فربما لم تعبر آن كامبيل مسار ناقلة الحرس واتجهت مباشرةً إلى ساحة الرماية رقم ستة. وقد أطفأت كشافات سياراتها عند نقطة معينة وأوقفت سيارتها الجيب حيث وجدناها على الطريق. ما رأيك؟".

"لا بأس حتى الآن. إلا أنها كلها توقعات".

"صحيح. وهذا هو الفرض الجدلي. فنحن هنا لكي نصل إلى أية ثغرة، لا أن نختلق كل ذلك".

"حسناً. تابع كلامك".

"رآها الشخص المنتظر إلى جوار الحمامات وهي توقف الجيب على الطريق، فمشى عبر هذه المنطقة المفتوحة..." بدأت في المشي نحو الطريق، وتبعتني سينثيا. "اقترب من آن كامبيل، والتي كانت في سيارتها أو بالقرب منها، وأخبرها بأن ناقلة الحرس قد حضرت ثم غادرت المكان، كما هو مفترض في هذا الوقت، وأن لا شيء يمكن أن يقلقهما الآن، إلا إذا مرت دورية حراسة من الشرطة العسكرية بالصدفة. إلا أن هذا أمر مستبعد في هذه المنطقة، حيث إن الطريق ينتهي عند ساحة الرماية رقم عشرة، ولن يكون هناك احتمال لمرور سيارات. أما من يحتمل أن يمروا بسياراتهم فهم ضباط الحرس أو رقيب الحرس، وهم لن يمروا من هنا إلا بعيد تغيير طاقم الحراسة، والأغلب أنهم لن يهتموا بالمرور أصلاً. أما من يمكن حقاً أن يمر بالمنطقة فهو الضابط المناوب، وفي تلك الليلة كان الضابط المناوب هو النقيب آن كامبيل. هل تتابعين تسلسل الفرضيات؟".

"عندي سؤال. ما الداعي إلى أن توقف سيارتها هنا؟ لماذا لم تخفيها لو أنها كانت هنا لأجل موعد غرامي؟ وما الداعي أصلاً إلى أن يكون هذا الموعد عند ساحة الرماية رقم ستة، القريبة من الطريق؟".

"لست أعلم السبب يقيناً. إلا أنني أعلم أنه أيٌّ ما قامت فقد قامت به لأجل نزوة تنتابها. ولم يكن أي من هذه الخطوات عشوائياً، فكان كل شيء مخططاً له، بما في ذلك ما أبدته من تطوع بالقيام بالخدمة كضابط مناوب في هذه الليلة المقمرة. لذا فقد كان لديها سبب يتيح لها ترك سيارتها هنا، وسبب لاختيار هذه البقعة التي تبعد خمسين متراً من الطريق".

"حسناً... لنتجاوز هذه النقطة".

"أتابع فأقول بأن لا فكرة لديَّ حول ما خطر لها وللشخص الذي التقته، إلا أنها قامت عند نقطة ما على الطريق بالتخلي عن مسدسها، وجميع ملابسها، فيما عدا حمالة الصدر

والسروال الداخلي. فقد كانت هناك بقعة من أثر الإسفلت في باطن قدمها. فهي وهذا الشخص مشيا على الممر فيما بين نقطتي إطلاق النار. من المؤكد أن ملابسها ومسدسها كانا في سيارتها. وكانت هي، أو الشخص الآخر، تحمل الأوتاد، والحبل، ومطرقة صغيرة. وقد تخيرا الموقع عند قاعدة ذلك التمثال الهدف هناك". نظر كلانا عبر الساحة. كان السرادق لا يزال منصوباً، والممشى التابع له لا يزال يؤدي إلى البقعة التي كانت الجثة بها. سألت سينثيا: "ما رأيك في هذا الاستنتاج حتى الآن؟".

"له منطقه الخاص بهذين الشخصين. إلا أنني لم أفهم الداعي إلى كل ذلك".

"ولا أنا. إلا أن هذا هو ما حدث... دعينا نكمل المسير". تتبعنا أثر الممشى حتى وقفنا عند السرادق. أضاءت سينثيا كشافها على البقعة التي رقدت فيها آن كامبيل، لتكشف عن تحديد فريق البحث الجنائي لوضعية جسدها على الأرض بالطبشور. بينما تم وضع أعلام صفراء صغيرة في مكان الثقوب التي خلفتها الأوتاد في الأرض.

قالت سينثيا: "أليس من الواجب أن يتواجد هنا أفراد الشرطة العسكرية؟".

"يبدو أن كينت قد نسي أن يأمر بهذا". نظرت عبر الساحة التي ينيرها ضوء القمر، حيث ينتصب ما يزيد على الخمسين هدفاً على شاكلة البشر، وكأنهم جنود مشاة يتقدمون عبر الشجيرات. وقلت لسينثيا: "من الواضح أن هذا المشهد يرمز لشيء ما لدى آن كامبيل – جنود مسلحين أتوا لكي يتناوبوا اغتصابها، أو لكي يشاهدوها وهي مقيدة عارية إلى الأرض – فلا أحد يعلم ما الذي كانت تحاول أن تجسده أو تعبر عنه".

قالت سينثيا: "لنتخيل الأمر إذن. ها هما يقفان هناك. آن كامبيل عاريةٌ إلا من حمالة الصدر والسروال الداخلي، بينما ذلك الرجل يحمل أدوات الاغتصاب أو أدوات الاستثارة الجنسية إن كانت ترغب في تنفيذ أوامره. لم يكن مسلحاً، وكانت هي تسايره في كل ما يفعله".

"وهكذا قاما معاً بلف طرف من كل حبل حول المعصمين والكاحلين. وعند هذه النقطة، قامت بخلع حمالة صدرها وسروالها الداخلي، ووضعت السروال حول رقبتها، حيث إننا لم نجد أية آثار عليه".

"لماذا كانت ترتدي حمالة صدر من الأصل؟".

"لا أستطيع أن أحدد السبب، فربما لم تكن تفكر في عدم ارتدائها، ومن ثم ألقتها أرضاً حيث وجدناها. فلقد خططا لذلك، إلا أنهما كانا متوترين بطبيعة الحال. هل لديكِ تعليق؟".

"حقاً. فأنا متوترة لمجرد التفكير في ذلك المشهد".

"وهكذا تخيرا مكانهما عند ذلك الهدف، ورقدت على الأرض، مباعدة بين ساقيها وذراعيها، ثم قام هو بتثبيت الأوتاد الأربعة في الأرض".

"ألم يصدر صوت عن هذا؟".

"لقد كانت الأوتاد من البولي فينيل. وربما قام بلف منديلٍ حول المطرقة ليكتم الصوت. كما أن الريح كانت تهب من اتجاه نقطة الحراسة، ولم يكن من الممكن لأحد في ظل هذه الرياح المعاكسة أن يسمع صوت غلق باب سيارة حتى".

"حسناً... ها قد تم تثبيت الأوتاد، وربط كاحليها ورسغيها إلى تلك الأوتاد".

"صحيح. ثم لفّ الحبل الطويل حول رقبتها، فوق السروال الداخلي".

"فهي الآن على الوضع الذي وجدناها عليه".

"أجل. هي على نفس الوضع، فيما عدا أنها كانت حية - حتى تلك اللحظة".

كانت سينثيا تضع يدها في جيب سروالها وهي تحدق في النقطة التي يضيئها كشافها على الأرض، وكان الاستغراق في التفكير بادياً عليها. ثم قالت في النهاية: "لقد جلس إلى جانبها وقام بشد وثاق الحبل حول رقبتها، ليحدث ذلك الاختناق الجنسي. ربما فعل هذا بأصابعه أو بأداة ما، حتى يستثيرها. وهنا انتابتها رعشة الجماع... وربما كان يستمني إلى جوارها إلا أننا لم نجد أي أثر لسائل منوي عليها، أو ربما كان يلتقط صوراً لها، وهو أمر منطقي بعد كل هذا التخطيط. فلقد صادفتني جرائم تم فيها استخدام جهاز التسجيل، وأخرى تم فيها التصوير بالفيديو..." توقفت لحظة ثم تابعت: "حسناً.. انتهى كلاهما من تلك النزوة، وهي الآن تنتظر منه أن يفك رباطها. إلا أنه ولسبب ما أصيب بهيجان دفعه إلى أن يخنقها حتى الموت، أو أنه كان قد خطط لذلك منذ البداية، أو أنه قد خنقها حتى الموت محض صدفة". نظرت إليّ ثم علقت: "هذا كل شيء، أليس كذلك؟".

"أجل. أظن هذا".

"إلا أن هناك ثغرات في هذه الفرضية، فأين ملابسها، وأين سلسلة تعريف هويتها، وأين الخاتم الخاص بويست بوينت، كما أن مسدسها أيضاً مفقود".

"أعلم هذا. وتلك مشكلة. عدنا إلى افتراض أنه قد احتفظ بكل هذا".

"صحيح أن المغتصب يحتفظ بتذكارات. ولكن لو أنه قد قام للتو بقتل ابنة الجنرال وفي ساحة الرماية، سواءً عمداً أو بالخطأ، إلا أنني لا أعتقد أني لو كنت مكانه كنت سأضع ملابسها في سيارتي ثم أقودها حاملاً معي دليلاً يقودني مباشرة إلى كتيبة الإعدام".

"أمر مستبعد أليس كذلك؟ ولكن تذكري أنها قد بقت مرتديةً لساعتها. فما السبب؟".

"لا أعلم. وقد لا يكون لهذا أية أهمية".

"قد يكون الأمر كذلك. هلم بنا". عدنا أدراجنا إلى الطريق حيث كانت تقف سيارة آن كامبيل. قلت لها: "حسناً. لقد عاد إلى هنا حيث السيارة. وقد أخذ ملابسها العسكرية،

وقبعتها، وسلسلة التعريف، والجورب، والحذاء، وغير ذلك، إلا أنه ترك حقيبة يدها على المقعد المجاور لمقعد السائق".

"يمكن أن يكون قد نسي الحقيبة. فعادةً ما ينساها الرجال. فقد لاحظت هذا من قبل".

التفت إلى حيث الحمامات. "قام بحمل هذه الأشياء ثم اجتاز المنطقة المعشبة، وعبر مدرجات الرماية، وكذلك الحمامات، حتى الممشى الخشبي. فلم يكن يمكنه أن يمشي على الطريق".

"كلا بالطبع".

"لـــو أنهما بدءا كل هذا في حوالى الساعة 1:15، فإنها الآن الساعة 2:15، هذا مع الأخـــذ فـــي الاعتبار الزيادة أو النقص في التوقيت. أو قد يكونان قد مكثا أطول قليلاً من ذلك، لأن روبينـــز رأت أضواء السيارة في الساعة 2:17".

"وأنت متأكد من أنها ليست أضواء سيارة آن كامبيل؟".

"إننـــي أفتـــرض وبـــشدة أنها قد وصلت إلى هنا مبكراً، ثم قادت سيارتها من دون أضواء. هذا لكي تأتي هذه السيارة الأخرى، فترى الجيب واقفة، فتتوقف بدورها، وتطفئ أنـــوار كشافاتها، ثم يخرج أو تخرج صاحبة السيارة منها. وهذا هو ما رأته روبينـــز في الساعة 2:17".

"وكيف أمكن له أو لها أن يرى آن كامبيل من عند الطريق؟".

"لقـــد أمكـــن للرقيب ساينت جون ذلك. فقد كان القمر بدراً. وكل من سيرى الجيب مـــتوقفة سينظر حوله بشكل غريزي. لقد رأى ذلك الشخص شيئاً في ساحة الرماية على بعـــد خمسين متراً. فمن الطبيعي أن يتبين حينها أي جسم بشري، خاصة لو كان عارياً. وكلانا قد سمع قصصاً متشابهة – حول شخص يمشي في الغابات فيرى شيئاً جاثماً على الأرض، إلى آخر تلك القصص".

"حسناً... فما هو دور هذا الشخص؟".

"يقتـــرب هـــذا الـــشخص منها ويتبين أنها ميتة، فيتراجع إلى سيارته أو سيارتها، ويستدير بها، ويندفع هارباً من المكان فزعاً".

"من دون أن يعيد إنارة مصابيح سيارته؟".

"مـــن الواضـــح أن روبينـــز قد علقت نظرها بأضواء السيارة إلى أنها لم ترها تنير أبداً من جديد. أما الأضواء التي تلت هذا فكانت لسيارة الرقيب ساينت جون في الساعة 4:25".

"ومـــا الذي منع هذا الشخص من أن يعيد إنارة مصابيح سيارته؟ ولماذا أطفأها من الأصل؟ إن الأمر شديد التعقيد هنا يا بول. فإنني لو كنت مكانه لتركت الأضواء لتنير لي

المكـــان وأنـــا أترجل من السيارة. ومن هو هذا الشخص الجديد الذي أقحمته في نظريتك هذه؟ ولماذا لم يتقدم بتقريره حول ما رأى؟".

"إن الإجابة الوحيدة التي توصلت إليها هي أن آن كامبيل لم تعاني كل هذه المتاعب لأجــل شــخص واحد فقط. بل أنها كانت تتخيل أن تتعرض للاغتصاب على يد أكثر من شخص واحد. لذا فقد تكون حددت عدة مواعيد".

"هذا أمر غريب جداً... إلا أنه ممكن".

قلت: "لنتبع المسار الذي اتخذه مساعد آن على تحقيق نـزواتها أو ذلك الذي اعتدى علــيها". قمنا بتتبع خطواتنا حتى وصلنا للممشى الخشبي وراء ساحة الرماية، ثم انعطفنا يــساراً لنمشي عليه عائدين إلى ساحة الرماية رقم خمسة. فقلت: "ها نحن ذا، ففي وسط تلك الشجيرات سنجد في الغالب كيساً بلاستيكياً يحوي ملابسها".

نظرت سينثيا إليَّ وقالت: "هل أصابك الجنون أنت أيضاً؟".

"إن مــنطقة البحث الجنائي لم يكن بها شيئاً، كما أن الكلاب لم تجد شيئاً، لذا فلا بد مــن أن تلك الملابس قد وضعت في كيس من البلاستيك، من النوع الذي يحبس الرائحة، تمامــاً كأكياس القمامة، ولا بد من أنها بعيدة عن منطقة البحث. فعليكِ عندما نقترب أكثر مــن الساحة رقم خمسة أن تسلطي ضوء الكشاف على الشجيرات. وقد يتوجب علينا أن نعود غداً...".

توقفت سينثيا وهي تقول: "انتظر".

"ماذا هناك؟".

"دورات المياه".

"تباً. أنتِ على حق".

وهكــذا هــرعنا عائــدين إلى دورات المياه، حيث كان هناك صف من صفائح القمامة بين مبنيي دورات المياه، وقمت بقلب إحداها وصعدت فوقه لأقفز فوق السطح لأتبــين مـــا إذا كان هناك من هو مختبئ بالأعلى. لم يكن هناك أحد فوق السطح، إلا أننــي وجــدت حينما اعتدلت واقفاً فوق السطح أن هناك كيس قمامة بلاستيكياً ظاهراً تحــت ضوء القمر. فعدوت حتى مكانه، وركلت الكيس فسقط من فوق السطح وتبعته أنـــا نحـــو الأرض. وتذكــرت وأنـــا أهــوي تلك التمارين التي مارسناها أثناء فرقة المظليــين، فقمت بثني ركبتي حتى كتفي، لأتدحرج ما أن ارتطمت بالأرض، وبعدها انتصبت واقفاً على قدمي.

سألتني سينثيا: "هل أنت بخير؟".

"أنا بخير. أعطيني منديلاً".

أخــرجت منديلاً من جيبها، ثم انحنت لتفك رباط عنق الكيس، وبعدها فتحت الكيس في حــرص وأنــارت ضوء كشافها مسلطة إياه على محتويات الكيس. فرأينا بالداخل كومة من الملابــس، وحــذاءً عسكرياً ثقيلاً، وجورباً أبيض. أخرجت سينثيا في حرص – ويدها تمسك بمــنديل – محــتويات الكيس، ومنها حزام المسدس والمسدس نفسه محشواً بالرصاص، ومن بعــدها سلــسلة تعــريف الهوية، والتي أمسكتها لتقرأ في ضوء الكشاف. "كامبيل، آن لويز". تركت السلسلة تسقط ثانيةً داخل الكيس ونهضت. تطلعت إلى أعلى سقف دورة المياه. "كانت حيلة قديمة إلا أنها ذكية، ولكن لماذا يتكبد كل هذا العناء لإخفاء ملابسها؟".

فكرت للحظات ثم قلت: "يبدو أن من المفترض أن يعود أحدهم ليستعيد تلك الملابس فيما بعد".

"من هو هذا؟ الجاني؟ أم شخص ثالث؟".

"لا أعلم. إلا أنني أميل إلى فكرة وجود شخص ثالث".

هــنا أضــاءت مــصابيح سيارة الطريق، ثم سمعت صوت محركها، وبعدها رأيت السيارة، سيارة عسكرية زيتونية اللون، توقفت حيث كنا. بقي المحرك دائراً، وكذلك أنوار السيارة. تحسست مسدسي وكذلك فعلت سينثيا.

فــتح باب قائد السيارة، وكشفت أنوارها الداخلية عن شخص بيل كينت وهو يترجل وبيده مسدسه وهو ينظر ناحية الكشاف الذي معنا. أغلق الباب بقوة وهو يصيح في تحدٍّ: "اكشفا عن هويتكما".

أجبته بصوت عال: "هذا برينير وهذه صنهيل أيها الكولونيل". كانت لهجتي رسمية، فلا يجب أن تمازح متحدياً شخصاً مسلحاً.

بقينا بلا حراك حتى قال: "أنا آتٍ إليكما".

ظللنا واقفين حتى اقترب، ثم رأيناه يغمد مسدسه في جرابه وهو يقول: "تم التعرف على الهوية".

كان الموقف الرسمي هذا بأكمله سخيفاً، فيما عدا أن المرء يحتاج بين الحين والآخر إلى أن يتذكر مثل هذه المواقف. سألنا كينت: "ما الذي تفعلانه هنا؟".

قلــت لــه: "هذا هو مسرح الجريمة يا بيل، وأنت تعلم أن كلاً من المحقق والمجرم دوماً ما يحوم حول مسرح الجريمة. وأنت، ما الذي تفعله هنا؟".

"إننــي ممتعض مما تحاول أن توحي به أيها المتحذلق. وأنا هنا لنفس السبب الذي جاء بكما – أنا أحاول أن أستشعر الإحساس بموقع الجريمة ليلاً".

"أود أن أقول لك أيها الكولونيل أنني قد توقعت أن أجد أفراداً من الشرطة العسكرية في حراسة هذا المكان".

"أعتقد بأني قد عينت بعضاً منهم لحراسة المكان. إلا أنني أصدرت أمراً بخروج دوريات الشرطة العسكرية".

"لم أرَ أياً منها. هل يمكنك أن تأتي باثنين منهم لحراسة هذا المكان؟".

"لك هذا". ثم سأل سينثيا: "لماذا أوقفتِ سيارتك بعيداً عن هنا؟".

"أردنا أن نتريض في ضوء القمر".

كاد يسألها عن السبب، ثم لاحظ الكيس. "ما هذا؟".

ردت سينثيا: "هذه هي الأشياء المفقودة".

"أية أشياء؟".

"ملابسها".

راقبت ملامح وجه كينت وهو يتلقى هذه المعلومة. لقد ارتأيت أنه لم يبالِ بهذا. سألنا: "أين وجدتما تلك الأشياء؟".

"فوق دورة مياه السيدات. لقد نسيتم أن تفتشوا فوق السطح". "أعتقد أن هذا ما حدث... لماذا اعتقدتم أن ملابسها ستكون موجودة هنا؟".

"مجرد تخمين".

"هل أنهيتم مهمتكم؟".

"أنهينا ما يتوجب القيام به اليوم".

"وماذا بعد؟".

"كنا سنلتقيك في جوردان فيلد بعد ساعة".

"حسناً... فالكولونيل مور غاضب جداً منك".

"فعليه إذن أن يصدر ضدنا تهماً رسمية بدلاً من أن يظل يبكي على كتفك. هل تعرف ذلك الرجل؟".

"أعرفه عن طريق آن فقط. أمامكما ساعةٌ واحدة".

"صحيح".

تركنا وعاد إلى سيارته القابعة على الطريق، أما نحن فعدنا عبر الممشى الخشبي، وكنت أحمل الكيس البلاستيكي.

قالت لي سينثيا: "أنت لا تثق به، أليس كذلك؟".

"بل أثق فيه... فأنا على صلة به منذ سنوات عشر. ولكن الآن... لا أعرف حقيقةً ما أقول. إلا أنني لا أعتقد في كونه مشتبهاً به، لكن لا شك لديَّ في أنه يخفي عني شيئاً ما، مثله مثل كل شخص قابلناه هنا".

"أعلم هذا. فلديّ هذا الإحساس أيضاً. فالأمر أشبه بكوننا قد وصلنا إلى بلدة صغيرة يعلم فيها كل من يقطنها أدق أسرار بعضهم البعض، ونحن نعلم أن هناك هيكلاً عظمياً في خزانة أحدهم، إلا أنه ليس بوسعنا أن نجد تلك الخزانة".

"هذا بالفعل ما هو قائم هنا".

وصلنا السيارة، ووضعت الكيس في الحقيبة الخلفية.

ركبت السيارة مع سينثيا، وأدارت المحرك، ثم مسحت شيئاً ما من فوق كتفي. "هل انكسر بجسدك شيء ما أيها الجندي؟ هل تود أن آخذك إلى المستشفى؟".

"كلا. لكني أود أن أجري فحصاً على عقلي. بمدرسة الحرب النفسية".

الفصل السابع عشر

وصلنا إلى مقر مدرسة التدريب على الحرب النفسية حوالى الساعة 23:00، وأوقفت سينثيا سيارتها بالقرب من مقر المدرسة. تتكون هذه المدرسة من ثلاثين مبنى خرساني، جميعها من الطراز الرمادي الكئيب، المشابه لما هو موجود في سياتيل.

لم يكن هناك الكثير من العشب، وبعض الأشجار، كما كانت الإضاءة الخارجية من النوع الذي لا يتناسب مع مباني الجيش.

كانت معظم المباني مظلمة، ما عدا مبنيين بدا أنهما سكنيان، وكان بأحد المقرات القريبة نافذة مضاءة بالطابق الأرضي.

اتجهنا صوب المقر وسألتني سينثيا: "ما الذي يجري هنا تحديداً؟".

"هذا مقر قيادة فرعي لأكاديمية جي إف كينيدي لأساليب الحرب الخاصة في براج. وهو في حقيقة الأمر لا يعد مدرسة تدريبية على الإطلاق، فهو مجرد غطاء لنشاط مختلف".

"أي نشاط؟".

"إنه مركز أبحاث، حيث لا يقوم أحد بالتدريس، بل يتعلمون فقط".

"ما الذي يتعلمونه؟".

"أعتقد أنهم يتعلمون أساليب التحكم في الأفراد لأجل القيام بأغراضهم، ومن ثم إيقاف هذا التحكم من دون الاضطرار إلى سفك الدماء... الموضوع لم يخرج عن نطاق التجارب حتى الآن".

"هذا شيء غامض بالفعل".

"معك حق. إلا أنني أرى أن الأسلحة التقليدية ستظل لها الكلمة العليا، حيث إنها تنشر الفزع والهلع لدى العدو".

شاهدنا سيارة جيب تنعطف من شارع فرعي متجهة نحونا. توقفت وترجل منها أحد أفراد الشرطة العسكرية، بينما بقى السائق في مقعده، وهو يسلط مصابيح السيارة علينا. أدى الشرطي العسكري – اسمه على الزي العريف ستروود – التحية العسكرية كما هو معتاد، ثم سألنا: "هل من سبب لوجودكما هنا؟".

قلـــت: "أجـــل. نحن من التحقيقات العسكرية". أظهرت له بطاقة هويتي، فتفحصها مـــستخدماً الكشاف، ثم تفحص بطاقة سينثيا، وأبعد الكشاف عنا. "هل أتيت لمقابلة شخص بعينه؟".

"الرقيب المناوب. لم لا تصحبنا إلى هناك؟".

"أجـــل ســـيدي". صـــاحبنا إلى المقر الرئيسي وسألنا: "هل للأمر صلة بجريمة قتل كامبيل؟".

"بالفعل".

"إن هذه الجريمة عار علينا".

فسألته سينثيا: "هل كنت تعرفها؟".

"أجـــل يا سيدتي، لكنها لم تكن معرفة قوية، إلا أنني كنت أراها أثناء الخدمة الليلية أحـــياناً، حـــيث إن هذا المكان لا ينشط إلا ليلاً... لقد كانت فتاة لطيفة. هل توصلتما إلى شيء؟".

قلت له: "ليس بعد".

"أنا سعيد لسهركم على هذه القضية".

دلفـــنا إلى مبنى المقر الرئيسي، حيث كان هناك رقيب يجلس إلى مكتب على يمين الردهة الصغيرة. فوقف حينما رآنا ندخل إلى المبنى. وبعد التحية العسكرية، قلت للرقيب المـــناوب – وكـــان اســـمه كورمان –: "أود أن تصحبني إلى مكتب الكولونيل مور أيها الرقيب".

هنا تطلع الرقيب إلى العريف سترود قائلاً: "لا يمكنني أن أفعل هذا يا سيدي".

"بل يمكنك. هيا بنا".

إلا أنه أصر على موقفه: "لا يمكنني أن أفعل هذا من دون أمر مناسب. فهذه منطقة خاصة بالعاملين بها فقط".

تحتاج داخل الجيش إلى سبب مقنع أو تصريح مكتوب بالتفتيش، ولو توفر لك هذا، فـــإن التصريح لن يصدره القاضي العسكري، حيث إن لا سلطة لهم خارج نطاق المحكمة العسكرية. لذا كنت بحاجة إلى الاتصال بأحد من القادة. فسألت الرقيب كورمان: "هل لدى الكولونيل مور خزانة شخصية داخل مكتبه؟".

تردد ثم قال: "أجل سيدي".

"حسناً. اذهب فأحضر لي فرشاة شعره أو مشطه الخاص".

"سيدي؟".

"من المؤكد أنه يمشط شعره. ولسوف نبقى هنا محلك".

"سيدي، هذه منطقة خاصة. وأنا أجد نفسي مضطراً لأن أطلب منك مغادرة المكان".

"هل يمكنني أن أستخدم الهاتف؟".

"أجل سيدي".

"في مكالمة خاصة".

"لا يمكنني أن أبارح مكاني...".

"سيبقى العريف سترود هنا. أشكرك".

تردد ثم ابتعد عن المكتب. فقلت لسترود "إن أي مما ستسمعه سيبقى سراً، مفهوم؟".

"أجل سيدي".

بحثت عن رقم الهاتف الخاص بمنزل الكولونيل فاولر في دليل هاتف القاعدة، وطلبت الرقم. أجاب فاولر بعد الجرس الثالث. قلت: "سيدي الكولونيل، معك برينير. آسف لإزعاجي لك في هذه الساعة... لكني بحاجة إلى أمر منك يتيح لي أخذ شيء ما في مكتب الكولونيل مور".

بدا لي أن مكالمتي قد أيقظته من النوم وهو يقول: "أين أنت بحق السماء يا برينير؟".

"بمدرسة تدريبات الحرب النفسية، سيدي الكولونيل".

"في هذه الساعة؟".

"لا بد من أنني لا أعلم كم الساعة الآن".

"وما هو الشيء الذي تريد أن تأخذه من مكتب الكولونيل مور؟".

"في الحقيقة فإني أود أن أنقل المكتب بالكامل إلى جوردان فيلد".

"لا أستطيع أن آمر لك بهذا، حيث إن قيادة تلك المدرسة في فورت براج، كما أنها تعد منطقة محظورة على غير العاملين دخولها. فمكتب الكولونيل مور مليء بالوثائق السرية. إلا أنني سأتصل ببراج صباحاً لأرى ما يمكنني أن أقوم به".

لم أذكر له أنني قد نقلت من قبل مكتب آن كامبيل بالكامل إلى جوردان فيلد. فما ردَّ به أمر متوقع حينما تطلب تصريحاً بأي شيء في الجيش. فهم دائماً ما يرفضون، وبعدها يفاوضونك على ما يمكنك أن تناله. فقلت له: "حسناً أود على الأقل أن تعطيني تصريحاً بغلق المكتب بالشمع الأحمر".

"تريد أن تشمع المكتب؟ ما الذي يجري عندك بحق السماء؟".

"تحقيق في جريمة قتل".

"لا تتحدث معي بوقاحة يا سيد برينير".

"حاضر سيدي".

"سوف أتصل ببراج صباحاً. هذا كل ما يسعني أن أقوم به".

"لا يكفي هذا سيدي الكولونيل".

"إنني أقدر عملك الجاد ومبادرتك هذه يا سيد برينير، إلا أنه لا يمكنك أن تتصرف من تلقاء نفسك هكذا، وأن تثير الفوضى في كل مكان تذهب إليه. فهو قاتل واحد الذي نبحث عنه، فعليك أن تراعي مشاعر بقية العاملين في هذه القاعدة. وفي أثناء هذا لا بد من أن تراعي نظم وتقاليد وبروتوكولات القوات المسلحة. هل تسمعني يا سيد برينير؟".

"أجل سيدي. لكن كل ما أحتاج إليه في هذه اللحظة هو عينة من شعر الكولونيل مور حتى أضاهيها بما وجدناه في مسرح الجريمة. وبوسعك أن تهاتف الكولونيل مور بمنزله، فتأمره بأن يحضر إلى معمل البحث الجنائي في جوردان فيلد للمضاهاة، أو أن نحصل على العينة من مشطه أو فرشاته هنا، وهو ما أفضله، حيث إن الوقت لا يسعفنا. كما أنني أفضل ألا يعلم الكولونيل مور بأنه من بين المشتبه بهم حتى هذه اللحظة". وهنا لم يفتني اتساع عيني العريف سترود في دهشة.

هنا خيم صمت طويل، بعدها قال الكولونيل فاولر: "حسناً، سوف أسمح لك بأن تأخذ فرشاته أو مشطه، إلا أنني سوف أوجه لك تهمة التعدي لو أنك لمست شيئاً آخر داخل المكتب".

"حسناً سيدي. هل يمكن أن تأمر الرقيب المناوب بهذا؟".

"أعطه السماعة".

"حاضر سيدي". أشرت إلى العريف سترود حتى يخرج ليستدعي الرقيب كورمان. ثم قلت له: "معك الكولونيل فاولر، مساعد الجنرال، يرغب في التحدث إليك".

أخذ السماعة مني في لامبالاة، إلا أن نهاية المكالمة لم تخرج عن: "أجل سيدي... أجل سيدي.. أجل سيدي". أغلق السماعة ثم قال لي: "أرجو أن تراقب الهاتف، حتى أذهب لأحضر لك مشطه أو فرشاته".

"جيد.. ولكن لفها بمنديل".

أخذ معه مجموعة من المفاتيح وغادر مكتبه وسمعت صوت خطواته تبتعد عبر الردهة.

قلت لسترود: "سنكون بالخارج. فابقى هنا حتى تأخذ منه هذا الدليل".

"حاضر سيدي".

بـدا العريف سترود سعيداً لمشاركته في هذه القضية بأي شكل. خرجت أنا وسينثيا ووقفنا في مواجهة أنوار مصابيح سيارة الشرطة العسكرية.

قالت لي سينثيا: "هذا المكان غامض".

"لـو أنـك تجرين أبحاثاً خاصة بعمليات غسل المخ، وأساليب الاستجواب، وتحطيم الـروح المعنوية، وإشاعة الخوف والفزع، فسيكون عليكِ أن تمنعي تدخل أي فضولي في تلك التجارب".

"هل هذا ما كانت تقوم به هنا إذن، أليس كذلك؟".

"أعـتقد هذا... فهم يحتفظون هنا بمتطوعين للتجارب، كما أن لديهم معسكراً كاملاً مزيفاً لأسرى الحرب".

"وكيف علمت بكل هذا؟".

"لقد عملت من قبل في قضية مع خبير نفسي منذ عام هنا في القاعدة. وقد تقدم فيما بعد بطلب لنقله".

"أعتقد أنهم قد ينالون منك".

"أعلـم هـذا. فلقـد وجدت قصاصة ورق في الملف الشخصي لآن كامبيل - كانت مقولة لنيتشه، تقول على كل من يصارع الوحوش أن يحذر ألا يتحول بدوره إلى وحش. وحينما تمعن النظر في الهاوية فإنك تجد أنها تنظر إليك بدورها".

"كيف وصلت تلك القصاصة إلى داخل الملف بحق السماء؟".

"لا أدري، لكنني فهمت مغزاها".

"أجـل.. كلانـا يفهم مغزاها". صمتت ثم تابعت كلامها: "فأحياناً ما أرغب في أن أتـرك هذه المهنة لأمارس مهنة أخرى. فقد مللت من فحص الأعضاء التناسلية وفحص الحمض النووي لتلك العينات المنوية، واستجواب المجرمين والضحايا".

"أنـت علـى حق. فإني أرى أن عشر سنوات تكفي في مهنتنا هذه. أما أنا فقضيت عشرين عاماً حتى الآن. وقد قررت أن هذه هي قضيتي الأخيرة".

"هل تقرر ذلك مع كل قضية جديدة؟".

"أجل".

خـرج العريف سترود من المبنى قابضاً على شيء في يده، وحينما اقترب وجدناه يبتسم قائلاً بحماس: "لقد وجدها".

لاقيـناه عـند الرصيف فأعطاني فرشاة الشعر ملفوفةً في منديل عسكري زيتي اللون.

فقلت له: "سأحتاج إلى أن تقدم لي تقريراً تصف فيه كيف وأين وجدت هذه، وتحدد فيه كذلك الوقت وصاحبها وغير هذا من المعلومات".

"أجل سيدي".

"قـم بتوقـيعه، وضعه في مظروف ثم سلمه عناية برينير إلى مكتب قائد الشرطة العسكرية قبل الساعة 6:00".

"نعم، سيدي".

سألته سينثيا: "هل تعرف نوع السيارة التي يقودها الكولونيل مور؟".

فكـر للحظـات، ثم قال: "أظن أنها... سيارة قديمة.. متهالكة... رمادية... ما هو نوعها بحق السماء؟ آه.. إنها من طراز فورد فيرلين، موديل 85 أو 86".

قالـت لـه سينثيا: "لقد ساعدتنا كثيراً. أرجو أن تعلم أن كل هذا يندرج تحت إطار السرية التامة".

أومـأ العريف سترود قائلاً: "هل لديكما ما تودان معرفته أيضاً عن الكولونيل مور؟ ولو لم أكن أعرفه فإنني قادر على معرفته".

قلت له: "أشكرك". أرى أن هناك من يود أن يتم إعدام الكولونيل مور.

تبادلنا التحية العسكرية وعاد كلاً منا إلى سيارته.

أدارت سينثيا المحرك وهي تقول: "إلى جوردان فيلد؟".

"أجل".

فارقنا القاعدة مرة أخرى لنتخذ طريقنا عبر الثكنات العسكرية. إن هذه المساحة من الأراضي الحكومية التي تبلغ 100 ألف فدان تساوي تقريباً مائة وخمسين ميلاً مربعاً من الأراضي غير المأهولة. على أن هناك من يمر بها بين الحين والآخر من سكان المناطق النائـية المجاورة، والصيادين. كما أن هناك منذ أيام كامب هادلي قرىً مهجورة، ومدافن قديمة، وكنائس بلدية، ومحاجر لم تعد تعمل بالإضافة إلى معسكرات تقطيع الأخشاب، هذا إلـى جانـب أطلال ما كان يسمى بيو مونت. كانت المنطقة متفردة، وكأنما توقف عندها الزمن، إلى أن مارست الحكومة حقها في السيطرة التامة عليها حتى تواجه حالة الطوارئ أثناء تلك الحرب العظمى التي ستكون آخر الحروب، كما كان يقال.

وكمـا ذكرت، فقد أديت تدريبات سلاح المشاة الأساسية والمتقدمة في هذا المكان، ولا زلـت أذكـر تـضاريس المكـان: فهي أراضٍ قاسية يعمها الهدوء الغريب وتتخللها المرتفعات ذات الأشجار الكثيفة، والبحيرات والبرك، والمستنقعات، وبها أنواع غريبة من الطحالب المتألقة التي تسبب ارتباك في الرؤية أثناء الليل.

أما التدريبات نفسها فكانت برنامجاً منهكاً هدفه تحويل الصبية الأميركيين المدللين إلى جنود أكفاء مخلصين، لديهم الحافز القوي والرغبة في القتال لأجل الوطن. لم تستغرق عملية التدريبات هذه إلا أربعة أشهر، بدت بالنسبة لنا طويلة ولا ضرورة لها. ومع محدودية أوقات الإجازة فإنك تلتحق بالجيش في حزيران/يونيو، بعد الدراسة الثانوية – كما هو حالي – لتجد نفسك داخل الأدغال مع سلاح من طراز إم 16 هذا قبل أن تحل نهاية العام نفسه، مرتدياً زياً جديداً وقد اختلف تفكيرك بالكلية. كم هذا مدهش.

قالت سينثيا لتقطع الصمت: "هل تحاول أن تحل لغز هذه القضية؟".

"كلا، لقد كنت أتذكر أيام تدريباتي في هذه المنطقة".

"هل كان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية، أم الحرب الكورية؟".

"أنتِ تستدرجينني للحديث عن سني، فعليك بالانتباه لكلامك".

"نعم، سيدي".

قلت: "هل حدث يوماً أن توغلت في هذه المنطقة؟".

"كلا. فأبعد مكان ذهبت إليه هنا هو ساحة الرماية رقم ستة".

"أنتِ إذن لم تفارقي سطح المكان. فلو أنك دخلتِ في الطريق القادم على اليسار – والمسمى طريق الجنرال بيرشينج – لوجدته يؤدي إلى مواقع التدريبات الرئيسية، حيث تجدين ساحات تدريبات أسلحة المدفعية وكذلك سلاح القوات الخاصة".

"ألا توجد أماكن بها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع؟".

"ليس مما أتذكره. كما أن هناك معسكر قديم للقوات الخاصة، ومحاكاة لأماكن مثل القرى الأوروبية وفيتنام وذلك لتدريب الجنود عليها، ولقد لقيت مصرعي في تلك التدريبات ست مرات، محاكاةً بالطبع".

"ولا بد من أنك قد تعلمت الدرس".

"من الواضح هذا. كما ستجدين محاكاة لمعسكر أسرى الحرب، والذي يتولى الإشراف عليه مدرسة الحرب النفسية. وهذا المعسكر لا يزال تحت التشغيل، كما أنه منطقة محظورة".

"فهمت". فكرت للحظات ثم قالت: "فأنا الآن لا أجد سبباً – مع كل هذه المساحة هناك والتي تبلغ مائة ألف فدان – يدفع آن كامبيل إلى اختيار ساحة رماية قريبة لا تزال تحت الاستخدام، لا يفصل بينها وبين الطريق سوى خمسين متراً، وهو طريق تمر به على مدار الساعة ناقلات الجنود، ودوريات الشرطة العسكرية، هذا بالإضافة إلى نقطة حراسة لا تبعد سوى كيلومترٍ واحدٍ".

"لقــد فكرت في ذلك بدوري. وهنا خطر لي ثلاثة أسباب: أولاً أجد أن الجميع يرى أن مـــن الواضـــح أنها كانت في نوبة خدمة في المنطقة عندما تعرضت لاعتداء. فهي لم تختر تلك المنطقة، بل هو الذي فعل. وهو الأمر الذي يعتقده الجميع هنا، إلا أننا لا نضعه في الاعتبار من الأصل".

"أجــل. فلــو أنها هي التي اختارت المكان، فهي قد اختارت مكاناً يجدها فيه رفيقها بسهولة، فلو أنها حددت الموعد في وسط الغابات مثلاً لما أمكنه التوصل إليها إلا إذا كان من القوات الخاصة".

"هــذا صـــحيح، وتلــك كانت فكرتي الثانية. وهي أن هذا الشخص لم يكن مرتاحاً لمنطقة الغابات ليلاً... انعطفي هنا حتى نتجه إلى جوردان فيلد".

انعطفت في الطريق، ثم سألتني: "وماذا عن خاطرك الثالث؟".

"أرى أنهـــا قـــد اختارت هذه المنطقة التي لا تعد نائيةً لأنها مثلت لها عنصراً من عناصــــر المخاطرة. أي جزء من إثارة هذه الممارسة، فهي كانت تقول لنفسها: لنرى ما الذي يمكن أن نفعله في أرض يحكمها أبي، من دون أن يستطيع أن يحاسبنا". نظرت إلى سينثيا فوجدتها متفقة معي في هذا الرأي.

قالت: "لسوف تجد ما يدل على هذه التهمة، لتواجه به أبيها".

"بلى. لكن هذا بافتراض أن آن ووالديها كانا يكرهان بعضهما البعض".

"أنت كنت من قال بهذا حينما كنا نفتش منـــزلها".

"أجـــل. لكنني لم أبنِ رأيي هذا على أساس ملموس. كنت أرى فقط أن من الصعب أن يكون المرء ابناً لشخص ذي سلطة، وأن يعيش في ظله. فهذه حالة شائعة وليست خاصة".

"أجــل... فأنـــا ليس لديَّ من المعلومات ما يؤكد هذا، فلماذا في رأيكِ اعتقدت هذا الاعتقاد؟".

"هذا بسبب أن ما لا يقال قد يكشف أحياناً عما قد يقال. فهل قال أحد بأن الجنرال وابنته على علاقة ممتازة، وأن كليهما يكن الحب للآخر، أو حتى إن بينهما صداقة من نوع ما؟".

"في الحقيقة أن الجنرال قد ذكر أن ابنته كانت لتعجب بي لو كانت على قيد الحياة".

"لا يهمنـــي ما قاله الجنرال. فلم يقل أحد بهذا سواه – بمن فيهم كينت وفاولر ومور وياردلي، بل وحتى الجنرال كامبيل نفسه. فعلينا الآن أن نكشف النقاب عن رأي كل منهما في الآخر".

فأومـــأت برأسها قائلةً: "لديَّ شعور بأنه لم يبقَ لدينا الكثير من الأدلة، فمن الأفضل أن تـــستغل مـــا عثـــرنا عليه في التوصل إلى الفاعل، قبل أن نضطر إلى إفساح المجال وإخلاء الساحة للمباحث الفيدرالية".

"أنـــتِ محقة في هذا الشأن. فقد قررت أن أنهي هذه القضية خلال يومين أو ثلاثة. بعدها سنلجأ إلى أسلوب آخر. فنحن نمتلك ميزة تتمثل في عنصر المفاجأة وحرية الحركة والصلاحيات. فعلينا أن نضرب كل من يعرقلوننا في مقتل".

"فننال منهم قبل أن ينالوا هم منا".

"بالضبط".

توقفنا عند نقطة تفتيش خاصة بالشرطة العسكرية، حيث عرفنا أنفسنا لهم، فسمحوا لنا بالمرور.

أوقفــت ســينثيا ســيارتها بــين السيارات والناقلات الأخرى عند معمل البحث الجنائـــي، وأخرجت كيس الملابس من حقيبة السيارة، ممسكاً إياه بمنديل، بينما كانت الفرشـــاة مع سينثيا التي قالت: "لو أنها خلعت ملابسها، وأمسك هو بالكيس، فلن نجد ســوى بصماتهما فقط على حزام السلاح والحذاء والحزام أو أي شيء آخر. هذا فيما عدا الكيس نفسه".

"سرعان ما سنتحقق من هذا".

مــشينا حتى الهانجر حيث تابعت كلامها: "أنت حاد الذكاء يا برينير. ويبدو أنني قد بدأت أعجب بك".

"ولكن هل تميلين إليَّ؟".

"كلا".

"هل تحبيني إذن؟".

"لا أعلم".

"لقد صارحتني بهذا في بروكسل".

"أجـل، ولكــن في بروكسل. يمكن أن نتحدث في هذا الأمر في الأسبوع القادم، أو ربما الليلة".

الفصل الثامن عشر

كان الهانجر رقم ثلاثة يسبح في أضواء الكشافات ويعج بالنشاط الجم لوحدات البحث الجنائي التي تم إرسالها إلى هذا المكان. ولم يكن الكولونيل كينت قد وصل بعد، وهو أمر جيد على كل حال.

أعطيت كيس القمامة البلاستيكي وفرشاة الشعر لكال زايفر، والذي لم يكن ينتظر أن أوضح له طبيعة هذه الأشياء. وبدوره أعطى الكيس والفرشاة لأخصائي رفع البصمات وطلب منه أن يسلمها بعد أن ينتهي منها إلى قسم تتبع الأثر.

ومع وصول كيس الملابس هذا أصبح الهانجر رقم ثلاثة حاوياً لكافة متعلقات آن كامبيل المعروفة، فيما عدا جثتها ذاتها، ولكننا أحضرنا إلى هنا سيارتها ومكتبها ومنزلها. كما لاحظت أنهم قد أحضروا سيارتها الجيب التي استخدمتها ليلتها. ومع اقترابنا من مؤخرة تلك الجيب، رأيت الصور التي تم التقاطها لمسرح الجريمة، فجميعها كانت معلقة على لوح للعرض، هذا إلى جوار رسومات متخصصة لنفس المكان، وتقارير هذا المعمل، والتجسيمات البلاستيكية لآثار الأقدام، وعبوات السيلوفان التي تحوي على أدلة، ومعدات المعمل، وحوالى ثلاثين شخصاً بين رجال ونساء.

هناك في ركن المكان يقبع حوالى عشرين فراشاً صغيراً، وفي الركن الآخر مكان لتناول القهوة. من المعروف أن مصادر وإمكانيات الجيش هائلة وكذلك أفراده، كما أن العمل هنا لا يتعلق بالأجر، هذا بالإضافة إلى عدم وجود جريمة أخرى في نفس التوقيت مما قد يشتت تلك المصادر والأفراد. وأحياناً ما أندهش أنا نفسي من كم القوة التي يتم تجميعها لتنفذ الأوامر المتمثلة في بضع كلمات، هذا أمر شبيه بقول روزفلت لآيزنهاور: "اجمع لي قوة فأغزو بها أوروبا". فهذا أمر بسيط مباشر إلى أقصى حد. لكن أسوأ شيء أن يحاول العسكري لعب دور السياسي أو أن يحاول السياسي لعب دور العسكري. وهو أمر قد يحدث خلال التحقيقات في أية جريمة، تماماً كما يحدث أثناء الحروب، وهو ما يجعلني أعلم أن فترة عملي بكل حرية لن تتعدى أيام أو ساعات.

أراني كال زايفر نسخة من الجريدة المحلية لميدلاند، والتي نشرت مانشيتاً عنوانه: "العثور على جثة ابنة جنرال في القاعدة العسكرية".

قــرأت مع سينثيا المقال، والذي كان موجزه أن النقيب آن كامبيل وجدت عارية، مقيدة، مخــنوقة، وربما مغتصبة، في ساحة من ساحات الرماية داخل القاعدة. كان التحقيق الصحفي يتـصف بنصف القدر من الدقة، أما التصريح المباشر من المتواجدين في القاعدة فكان للنقيب هيلاري بارنــز، وهي ضابط علاقات عامة، والتي صرحت بأنها لا تمتلك تعليقاً رسمياً فيما عدا أن هناك تحقيقاً يجري حول الجريمة من قبل إدارة المباحث الجنائية بالقوات المسلحة.

على أن هناك تصريح لرئيس شرطة ميدلاند برت ياردلي، والذي قال: "لقد عرضت المـساعدة علــى الكولونيل كينت – قائد الشرطة العسكرية لفورت هادلي – ونحن على اتصال دائم".

إلا أنــه لم يذكر أي شيء عن مشكلة دخول المنــزل أو أنه يريد النيل مني، إلا أنه قد يبدأ في الشكوى مني في الصحف بعد أن ألتقيه في المرة التالية.

سأل كال سينثيا: "هل هذا هو الحذاء الرياضي الذي ارتديته في موقع الجريمة؟".

"أجل. هل تريد الحذاء فقط، أم قدميَّ معه؟".

"فقط الحذاء، لو تفضلت".

فجلـست سـينثيا على مقعد صغير، لتخلع حذاءها، ثم أعطته لكال. فقال لي: "أين الحذاء العسكري الذي كنت ترتديه في موقع الجريمة؟".

"في مقر إقامتي خارج القاعدة. لقد نسيت أن أجلبه معي".

"هل يمكنك أن تجلبه لي؟".

"بالطبع. لكنني سأمكث داخل القاعدة لفترة".

"هــل فعلــت هــذا ثانيةً يا برينير؟!. ففي كل مرة أعمل معك في قضية تعمد إلى إغضاب الشرطة المدنية".

"مبدئــياً أقول إن هذا لا يحدث في كل مرة. والآن أود منك يا كال أن ترسل فريقاً إلــى ساحة الرماية رقم خمسة حتى يرفعوا بعض الآثار لإطارات سيارات". أرشدته إلى موضع تلك الآثار، فأخذ يدون ما أقوله سريعاً حتى يهتم بذلك الأمر. أضفت قائلاً: "هناك شــيء أخيــر. أطلــب مــن فريقك بعد أن ينتهي من رفع الآثار أن يتجه إلى فيكتوري جاردينــز الواقعة على طريق فيكتوري درايف لكي يرفعوا آثار مجموعة من الإطارات لــسيارة مــن طــراز فورد فيرلين، ربما كانت رمادية اللون، موديل 1985 أو 1986، وعلــيها ملصق خاص بضابط. ليس معي رقم لوحة السيارة، ولكن عليهم أن يبحثوا فيما هو حول الوحدة السكنية رقم تسعة وثلاثين".

نظــر إلــيَّ للحظة ثم قال: "لو كان صاحب السيارة عسكرياً فإن بوسعنا أن ننتظر حتى تأتي السيارة إلى القاعدة".

"بل أريدها الليلة".

"مهــلاً يا برينير، فليس بوسعي أن أجمع الأدلة من خارج منطقة تابعة للحكومة من دون تصريح من السلطات المحلية، وأنت لست على علاقة جيدة مع هؤلاء".

"حــسناً، لا تستخدم سيارة عسكرية. إن الوحدة السكنية رقم خمسة وأربعين – مقر ســكن المجنــي عليها – هي التي تلقى حراسة من شرطة ميدلاند، ولكن أفراد الحراسة ســيكونون فــي الغالــب داخــل المسكن. فعليك أن تطلب من رجالك أن يلتزموا الحذر والسرعة".

"يمكن أن ننتظر حتى تأتي السيارة إلى داخل القاعدة".

فوضــعت يــدي على كتفه قائلاً: "حسناً... أنا متفهم لقصدك. إلا أنني آمل في ألا تختفــي تلــك الإطارات من السيارة مع حلول الصباح. بل أنني أخشى أن تختفي السيارة بأكملها هذه الليلة. لكن لا يهم، فلننتظر حتى الصباح إذن".

"حــسناً حسناً، سيذهبون إلى هناك. لاحظ أنك تستغلني". ثم اتجه إلى مجموعة من الــرجال كانــوا يقومون بتصنيف آثار الأقدام ويرسمونها على لوحة تبين موقع الجريمة. ســلمهم كــال حذاء سينثيا وتحدث إليهم، ربما عن مهمتهم هذه الليلة، حيث إنه ظل يشير بإصبعه إليَّ، كما أنهم كانوا ينظرون إليَّ في حنق.

جلبت قدحاً من القهوة لي وآخر لسينثيا، والتي كانت تقرأ في تقارير المعمل. أخذت منــي القدح ثم قالت: "شكراً. أُنظر إلى هذا". أرتني تقريراً من أخصائي رفع آثار الأقدام. "لقــد وجــدوا أثراً لحذاء ناعم النعل، مقاس سبعة، ربما كان حذاءً مدنياً لامرأة. هذا أمر نادر الوجود في ساحة رماية عسكرية، أليس كذلك؟".

"ليس بالأمر النادر".

"ما الذي يوحي به هذا التقرير؟".

أمعــنت النظر فيه، فوجدت أنه يبين أن الأثر حديث. قلت: "هو تقرير لافت للنظر. إلا أن مــن الممكن أن يعود الأثر إلى عدة أيام مضت، حيث إن السماء لم تمطر هنا منذ حوالى أسبوع".

"هذا صحيح. إلا أن من الضروري أن نفكّر في هذا الدليل".

تــصفحنا تقاريرَ من مختلف الوحدات الجنائية هنا على مدى خمس عشرة دقيقة، ثم نادانــا كال من موضعه في أحد مناطق المعمل، حيث هرعنا إليه عند طاولة عليها مجهر كانــت إحــدى الأخصائيات تحدق في عدساته. قال لنا كال: "ربما أصبتم بإحضاركم هذه الفرشاة. من أين أتيتم بها؟".

ربت على صلعته قائلاً: "ليست تخصك على الأقل".

ضحكت الأخصائية ولكنها أخفت وجهها في المجهر.

لم يندهش كال من ردي، وقال لسينثيا: "بما أنك العاقلة الوحيدة في هذا المكان فإني أود أن تنظري في المجهر".

تنحت الأخصائية، وجلست سينثيا إلى الطاولة. فقالت الأخصائية – واسمها لابيك –: "تلك الشعرة على اليمين مأخوذة من حوض الحمام في دورة مياه الرجال بساحة الرماية رقم ستة. أما تلك التي على اليسار فمأخوذة من فرشاة الشعر".

نظرت سينثيا في المجهر مع متابعة الأخصائية لابيك لكلامها: "لقد قمت بفحص عشرين شعرة مأخوذة من الفرشاة حتى أتيقن من أن شعر الفرشاة تنتمي كلها لنفس الشخص. وأنا أرى أنها كذلك، وأنه من الناحية المنطقية والبيانية لا يوجد شعر لأي شخص آخر في هذه الفرشاة، إلا أن عليَّ أن أفحص كل منها حتى أعد التقرير النهائي".

كدت أن أصيح فيها أن تصل إلى المهم في هذا الكلام، إلا أنني أعلم أن عليَّ الصبر على هذا النمط الفني حتى لا أستفزها.

تابعت كلامها فقالت: "يوجد بالشعر ما نسميه بخصائص الفئة. أي أن من المحال أن تتم مضاهاتها بعينة معطاة. بل يمكن أن تستخدم في استبعاد بعض المشتبه بهم، وليس في تحديد شخصية متهم بعينه، هذا إلا إذا كان للعينتين جذور بحيث نتمكن من أن نحدد جنس الفرد ومميزاته الجينية".

قال لها كال: "أعتقد أنهما يعلمان هذا".

"حسناً سيدي. إن العينة المأخوذة من الحمامات ليس لها جذور، إلا أنني حددت بفحص الجذع فصيلة دم صاحبها وهي "أو"، كما أن الشخص صاحب الشعر الذي في الفرشاة له نفس فصيلة الدم. هذا بالإضافة إلى كلتا العينتين من النوع القوقازي، وهما متشابهان في الشكل واللون وعدم وجود معالجة صناعية، كما أنهما يبينان عدم شكوى صاحبهما من المرض".

رفعت سينثيا عينيها عن المجهر وهي تقول: "بلى. إنهما متشابهان".

وصلت الأخصائية لابيك إلى استنتاجها قائلةً: "رأيي أنهما لنفس الشخص، مع أن العينة المأخوذة من حوض الحمام أصغر من أن تخضع لاختبارات أخرى مثل التحليل الطيفي والذي يمكن أن يوضح أوجه تشابه أخرى. كما أن أية اختبارات أخرى قد تفسد هذه العينة الصغيرة المأخوذة من الحمام... وبعض الشعر الموجود في الفرشاة به جذور، ويمكنني في غضون ساعة أن أخبركم بجنس الشخص وأن أحصل على خصائص الحمض النووي".

أومأت برأسي قائلاً: "فهمت".

نهضت سينثيا وقالت للأخصائية: "أرجو أن تغلفي هذه العينات وأن تصنفيها وترفقيها بالتقرير".

"حسناً سيدتي".

"أشكرك".

سألني زايفر: "هل هذا يكفي لإصدار أمر باعتقاله؟".

"كلا، لكنه يكفي لأن نراقب هذا الشخص عن كثب".

"من هو هذا الشخص؟".

أخذته جانباً، بعيداً عن الفنيين، وقلت له: "هو شخص اسمه الكولونيل تشارلز مور وهو صاحب السيارة التي سيذهب فريقك لرفع آثارها. مكتبه في مدرسة الحرب النفسية. وهو القائد المباشر للمجني عليها. وأنا أحاول أن أصدر أمراً بتشميع مكتبه إلى أن نستطيع الحصول على أمر بإحضار جميع متعلقات المكتب إلى هنا".

انضمت سينثيا إلينا وقالت: "عليك الآن يا كال أن تضاهي بصمات الكولونيل مور على الفرشاة بتلك المرفوعة من الجيب، كما عليك أن تضاهيها بأي بصمات توجد على كيس القمامة والأشياء الموجودة بداخله".

"بالتأكيد". ثم فكر للحظة وتابع كلامه: "إلا أن هذه المضاهاة لا تثبت شيئاً يدل على أن الكولونيل مور هو الفاعل خاصةً وهو على علاقة قوية بالمجني عليها. فلديه سبب معقول يعلل به وجود تلك البصمات، سواءً على جراب مسدسها أو على سيارتها الجيب".

فقلت له: "أعلم هذا، إلا أنه سيلاقي صعوبة في تفسير وجود بصماته على كيس القمامة، أو سبب وجود آثار لإطاراته في ساحة الرماية رقم خمسة".

أومأ كال معلقاً: "يبقى أن تربط بين وجوده في تلك المنطقة وزمن وقوع الجريمة".

"صحيح. لذا أود أن تضاهي بين البصمات على الفرشاة وتلك الموجودة على الأوتاد. فلو أن لدينا آثار الإطارات مع البصمات فإن هذا يكفينا لإثبات التهمة على هذا الوغد، أليس كذلك؟".

"أنت المحقق هنا وليس أنا. لكنني لست متيقناً من كل هذا". ثم استدار مبتعداً صوب وحدة فحص البصمات.

قالت لي سينثيا: "لو أننا استجوبنا مور وواجهناه بالأدلة فإن فرصة اعترافه قوية".

"صحيح. أو أنه قد ينكر أن يكون الجاني. وعندها سيكون علينا أن نحاكمه عسكرياً، ليرى الجميع ما ستقرره المحكمة بصدد كولونيل في جيش الولايات المتحدة متهم بخنق ابنة الجنرال كامبيل حتى الموت، أو أن كلاً من المساعد برينير والمساعد صنهيل قد ألقيا

القبض على الشخص الخطأ، وتركا الجاني الحقيقي مطلق السراح، وبالتالي فقد تسببا في إحراج أنفسهما والجيش ككل".

تأملت سينثيا في كلامي للحظات ثم قالت: "لو أن كافة الأدلة الجنائية تشير بأصابع الاتهام إلى مور، فهل سيبقى لديك شك في أنه هو المجرم؟".

"هل لديكِ أنتِ شك؟".

"من ناحية الشك فنعم، حيث إنني لم أستطع أن أتصور أن تقوم آن كامبيل بمثل ما قامت به هناك مع شخص كهذا، كما أنني لا أتصور أنه يستطيع خنقها. إنه من النوع الذي قد يعمد إلى وضع السم في قهوتك، ولكنه ليس بمن يمتلك جرأة القتل بيديه".

"هذا ما يشغل بالي. ولكن من يدري... فربما تكون هي من طلبت منه أن يفعل بها هذا. أي أنها توسلت له كي يقتلها. لقد حققت في جريمة حدثت هكذا. كما قد يكون مور قد وقع تحت تأثير المخدر. أو استخدم شيئاً مما يجري عليه تجارب غسيل المخ".

"هذا ممكن".

تطلعت إلى ما وراء كتف سينثيا. "أما الآن فها قد أتانا القانون".

كان الكولونيل كينت قادماً صوبنا، فاتجهنا ناحيته لنلاقيه في منتصف المسافة. سألنا: "هل من جديد هنا؟".

"لقد اقتربنا من وضع يدنا على طرف خيط مهم. وأنا بانتظار تقرير البصمات وآثار الإطارات".

اتسعت عيناه في دهشة: "ألَنت محق؟ من هو؟".

"الكولونيل مور".

قلب الأمر في ذهنه ثم قال موافقاً: "هذا معقول".

"ما الذي تقصده؟".

"في الحقيقة... فلقد كانا على علاقة وثيقة ببعضهما البعض، وبالتالي فقد كانت لديه الفرصة، كما أنني أجد منطقيةً في هذا الاتهام. فلقد كان غريب الأطوار، لكنني لست متيقناً من دوافعه".

سألته: "ولا أنا أيضاً. أود أن أسألك بعض الأسئلة حول الجنرال كامبيل وابنته".

"ما الذي تود أن تعرفه عنهما؟".

"هل كانا على علاقة قوية ببعضهما بعضاً؟".

نظر إلى عينيَّ مباشرةً، ثم قال: "لم يكونا على علاقة قوية".

"واصل كلامك".

"... ربما كان من الأفضل أن نناقش هذا الأمر في وقت آخر".

"ربما ناقشناه في فولز تشيرش إذن".

"أتهددني؟".

"اسمع سيدي الكولونيل، أنا هنا أحقق في جريمة قتل. قد تضع في اعتبارك بعض الجوانب الاجتماعية والمهنية المرتبطة بما ستقوله لي، إلا أن واجبك يقتضي منك أن تجيب أسئلتي".

لم يبدُ لي أن كينت مرتاحاً لهذا الحوار، إلا أنه كان في نفس الوقت مقتنعاً بأن عليه ألا يشغل باله بتلك الجوانب. فاتجه إلى قلب المكان وتبعناه، حيث قال: "إن الجنرال كامبيل لم يكن موافقاً على خيار ابنته بأن تنخرط في هذا التخصص بالذات من السلك العسكري، وكذلك لم يرضَ عن من تختارهم كأصدقاء من الرجال، وعن قرارها بأن تسكن في منطقة بعيدة عن القاعدة، وارتباطها المهني بأشخاص من قبيل تشارلز مور، وربما عن العديد والعديد من الأمور الأخرى التي لا أعلمها".

سألته سينثيا: "ألم يكن فخوراً بها؟".

"لا أعتقد هذا".

فقالت سينثيا ملمحةً: "ولكن الجيش كان فخوراً بها".

فأجاب: "لكن آن كامبيل كان لديها من المعلومات ما تفرض به على والدها وكذلك على الجيش أن ينصاع لرغباتها، ها قد قلتها بصراحة".

فبادرت سينثيا بسؤاله: "ما الذي تقصده بهذا؟".

"أقصد أنها بوصفها مجندة وفي نفس الوقت ابنة للجنرال، وخريجة أكاديمية ويست بوينتر، وبالتالي فإنها تكاد تكون شخصية عامة، فإنها قد حظيت بشعبية داخل الجيش وعبر وسائل الإعلام، هذا حتى قبل أن يدرك الجنرال حقيقة ما يدور من حوله، فقد وجدها قد أصبحت من دعاة نيل المرأة لحقوقها داخل الجيش. فقد كان الجميع معجباً بها. إلا أن الجيش لم يكن يعنيها في شيء. بل كانت ترغب فقط في أن تكتسب تلك الحصانة التي تتولد من الشهرة والتقدم في السلك العسكري معاً".

سألته سينثيا: "والسبب؟".

"في الحقيقة أنه بقدر رفض الجنرال لما يجري فإنها كانت تكرهه أضعافاً مضاعفة. فقد فعلت كل ما في وسعها لأجل إحراجه، ولم يسعه بعدها أن يفعل شيئاً يضرها من دون أن يدمر سيرته العسكرية نفسها".

علقت قائلاً: "يا الله... تلك معلومات مهمة جداً. لا بد من أنك قد نسيت أن تنبئنا بهذا أثناء ما كنا نفكر في الطريقة التي نبلغ الجنرال بخبر مصرعها".

تلفت كينت حوله، ثم قال بصوت خفيض: "ما سأقوله هنا سيبقى سراً بيننا. فهما كانا يبديان الحب تجاه بعضهما البعض علانيةً أمام الجميع". وتردد ثم تابع كلامه: "والحقيقة أن الجنرال قد يكون رافضاً لتصرفاتها، إلا أنه لم يكن يكرهها... اسمعا، كل ما ذكرته هو ما تبادر إليَّ من معلومات غير مؤكدة، لكنني ذكرته لكما لأني أثق بكما، ذلك حتى تدركان حقيقة ما يجري خلف الكواليس. وأنتما لم تسمعا به مني، ولكن من الممكن أن تتبعا هذا المسار".

أومأت له قائلاً: "أشكرك يا بيل. هل من شيء آخر؟".

"كلا".

ولكن بالطبع كان هناك شيء آخر. فسألته: "من هؤلاء الرجال الذين لم يكن الجنرال راضياً عن علاقتهم بابنته، عدا الكولونيل مور؟".

"لا أعلم".

"هل كان ويس ياردلي أحدهم؟".

حدق فيَّ لبرهة ثم أضاف: "أعتقد هذا".

"هل كان ويس ياردلي هو الشخص الذي تشاجرت معه في ميدلاند؟".

"محتمل".

"لماذا كانت تود أن تحرج والدها؟".

"لا علم لي بالسبب".

"لماذا تكرهه؟".

"أرجو أن تعرفني بالسبب عندما تعرفه. إلا أن من المؤكد أنه سبب مقنع".

"كيف كانت علاقتها بوالدتها؟".

"متوترة. فقد كانت السيدة كامبيل مشتتة بين دورها كزوجة للجنرال وكأم لبنت متحررة".

"أي أن السيدة كامبيل ليست لها تلك السيطرة على ابنتها، كما أن الجنرال يعمل على تهميشها، وهو الأمر الذي كانت آن تحاول أن تنبه أمها إليه".

"قد تكون على صواب. إلا أن الأمر أشد تعقيداً من هذا".

"وكيف ذلك؟".

"عليك أن تتحدث مع السيدة كامبيل".

قلت له: "إنني أنوي هذا بالفعل. إلا أنني أود أن تؤكد لي أنك لم تذهب أبداً إلى منزل آن كامبيل، حتى أستطيع أن أعلل في تقريري للسبب في وجود بصماتك على زجاجة من زجاجات الشراب خاصتها".

"لقد أخبرتك يا برينير بأنني قد لامست بضعة أشياء".

"لقد تم تحريز الزجاجة في صندوق من قبل أفراد الشرطة العسكرية التابعين لك ولم يتم فتحه إلا منذ حوالى الساعة".

"لا يمكنك أن تمارس معي هذا الأسلوب يا بول. فأنا شرطي مثلك. فلو كان لديك دليل، فاطلب من زايفر أن يريه لي".

"اسمع يا بيل، لنوضح الأمور بيننا حتى نستطيع الاهتمام بالأولويات، ومنها الكولونيل مور. أنا أسألك، وتذكر أن من واجبك أن تجيب بكل صدق، وتذكر كذلك بأني قد أكشف النقاب عن الحقيقة بنفسي. هل اتفقنا؟ إليك السؤال المهم: هل كنت على علاقة حميمية معها؟".

"أجل".

خيم الصمت بيننا لثوانٍ طويلة، لاحظت خلالها أن كينت قد بدا مرتاحاً لهذا الاعتراف. إنني لم أذكره بأنه قد قال لي سابقاً أنه لو كانت هناك علاقة لكان قد صارحني بها منذ البداية، فقد كان من الأفضل أن يتفق كلانا على أن هذا الأمر محدود الأهمية وأن التقارير السابقة لم تحوِ أية أكاذيب.

وفي النهاية قالت سينثيا: "هل كان هذا من بين ما كانت آن تعمد إليه لأجل إحراج والدها؟".

ردَّ كينت: "بلى... وأنا قد نظرت إلى الموضوع من هذه الزاوية. والجنرال يعرف – فقد كانت تعمد إلى تعريفه بهذا بالذات. إلا أن زوجتي لا تعلم بالطبع. لذلك لم أصرح لكما بهذه الحقيقة من قبل".

أدهشتني الأمور التي قد يخبرني بها الآخرون ليلاً، وفي ظل الضغط الشديد، وهم يحاولون ترتيب حياتهم التي سادتها الفوضى، وكذلك العمل على إنقاذ ما تبقى من حياتهم المهنية وعلاقتهم الزوجية. ومن الواضح أن الكولونيل ويليام كينت يحتاج إلى مساعدتنا. فقلت له: "سوف نعمل على ألا ندرج هذا الأمر في التقرير الرسمي".

فأومأ قائلاً: "أشكرك. ولكن رحيل آن سيفسح المجال للجنرال حتى ينتقم ممن ارتبطت بهم. ولن يكون أمامي سوى أن أستقيل حرصاً على مصلحة القاعدة. بل وقد أتمكن من إنقاذ حياتي الزوجية".

فقالت سينثيا: "سوف نفعل ما نستطيعه في هذا الشأن".

"أقدر لكما هذا".

سألته: "من هم الذين سيعمل الجنرال على الانتقام منهم؟".

ابتسم كينت قائلاً: "لقد مارست ... مع جميع أفراد طاقم الإدارة لدى الجنرال".

"ماذا؟".

"الجميع، أو لنقل معظمهم. الجميع بدءاً من ذلك الملازم الشاب - إيلبي - وحتى أقرب المقربين إليه، والمدعي العام، وجميع من هم في مناصب رئيسية مثلي".

قالت سينثيا: "يا إلهي... هل أنت جاد؟".

"أخشى أن هذا هو الواقع".

"ولكن لماذا؟".

"لقد قلت لكما بأنها تمقت أباها".

علقت سينثيا: "يبدو أنها لم تكن هي بدورها تخشى على سمعتها".

"بالطبع لا. ومن رأيي أن جميع من مارسوا معها... لم تهمهم سمعتهم هم أيضاً... إلا أنه لم يكن من السهل رفض مثل هذه العلاقة". ثم نظر إليَّ وحاول أن يبتسم وهو يقول: "يمكنك أن تتخيل هذا سيد برينير، أليس كذلك؟".

لم أشعر بالارتياح لهذا السؤال، إلا أنني أجبته بصدق: "أنا أفهم ذلك. إلا أنني لست متزوجاً، كما أنني لا أعمل تحت إمرة الجنرال كامبيل".

فاتسعت ابتسامته وهو يقول: "لم تكن لتصبح أحد المرشحين لتلك العلاقة، ولم تكن هي لتسعى إليك".

"في الحقيقة...".

فبادر هو بالقول: "فهي لا تعطي نفسها إلا لمن بيده سلطة".

تدخلت سينثيا لتسأله: "وهل أخبرتك هي - وأخبرت الجميع - بمن كانوا على علاقة بها؟".

"أعتقد هذا. فأرى أن هذا هو جزء من مخططها أن تنشر الفساد وانعدام الثقة والخوف والقلق وغير هذا. إلا أنني أعتقد أنها كانت أحياناً ما تكذب وهي تدعي علاقتها بالبعض تحديداً".

سألته: "لذا فأنت لا تستطيع أن تؤكد ما إذا كانت على علاقة بالقس الخاص بهذه القاعدة - الميجور إيمس - أو بمساعد الجنرال، الكولونيل فاولر؟".

"لا أستطيع أن أؤكد ذلك. فقد زعمت لي بأنها قد أغوت كليهما - مثلاً - إلا أنني أظن أن الكولونيل فاولر على الأقل لم يكن من بين من أقاموا معها علاقة جنس. فلقد أخبرني فاولر ذات مرة بأنه على علم بكل ما يجري وبأنني أحد أطراف الموضوع. فأرى أنه كان يبعد عن نفسه الشبهات. فهو الوحيد الذي يثق فيه الجنرال بصفة تامة، وربما كان دافعه هو ألا يخسر ثقة الجنرال".

أومـــأت مـــتفهماً. أستطيع أن أتخيل فاولر وهو يخبر آن بشيء من هذا القبيل: "لا تحاولي إغوائي، أيتها الصغيرة. فأنا لا أريدك".

قالت سينثيا لكينت: "كم هذا غريب... بل مقزز".

وافقها كينت قائلاً: "لقد أخبرتني آن ذات مرة بأنها تجري تجربة ميدانية في الحرب النفـــسية، وأنهـــا وضـــعت والدها نموذجاً للعدو". ضحك على تعليقه هذا، إلا أنها لم تكن ضـــحكة نابعة عن سعادة. وقال: "لقد كانت تكرهه. كانت تمقته من أعماق قلبها. لم تكن تستطيع تحطيم سمعته، إلا أنها كانت تبذل جهدها لتنال منه".

خيم الصمت لبرهة من الوقت، قبل أن تقطعه سينثيا قائلةً – وكأنما تحدث نفسها – "ولكن لماذا؟".

ردَّ كينت: "لم تخبرني أبداً عن السبب. وأظن أنها لم تبح به لأحد. فهي كانت تعلم، وهـــو كان يعلم، وربما كانت السيدة كامبيل هي الأخرى تعلم. فلم تكن عائلة سعيدة على الإطلاق".

قلت: "وربما كان تشارلز مور يعلم هو الآخر".

"لا أشـــك فـــي هذا. إلا أننا قد لا نعلم هذه الحقيقة أبداً. لكنني سأخبركما بشيء. إن مور هو القوة المحركة لكل ما جرى. فقد أخبرها مور بكيفية الانتقام من والدها لأي ما قد يكون فعله بها من قبل".

رأيـــت في هذا الكلام كثيراً من المنطق. إلا أن هذا لا يمثل حافزاً يدفعه إلى قتلها. بـــل ربمـــا على العكس سيحاول أن يحميها. فلقد كانت بالتالي بمثابة الدليل العملي على نجـــاح تجاربـــه، كما أنها درع يحميه من غضب الجنرال. لقد كانت تلك السافلة تستحق الموت، إلا أنه يستحق هو بدوره الموت ولكن لسبب وجيه. سألت كينت: "وأين كنت تلتقي ابنة الجنرال؟".

"كيفما اتفق. وكثيراً ما كنا نلتقي في موتيلات على الطرق السريعة، إلا أنها لم تكن تخجل من القيام بها داخل القاعدة ذاتها، بمكتبي أو بمكتبها".

"وفي منـــزلها؟".

"بـــين الحين والآخر. وأعتقد أنني قد ضللتك في هذه النقطة من قبل. إلا أنها كانت تود ألا يعرف أحد بما تقوم به داخل منـــزلها".

إما أنه لا يعرف شيئاً عن تلك الغرفة التي في القبو، أو أنه لا يعلم بأنني أعلم، ولو أنه كان من بين من التقطت لهم تلك الصور فلم يكن ليتطوع بمنحي هذه المعلومات.

قـــال كينت لنا: "فإذا كان مور هو القاتل، فسوف تنهون القضية من دون الإضرار كثيراً بسمعة الجيش وبأفراده في هادلي. أما لو لم يكن مور هو القاتل، وأصبحتم تبحثون

عـــن متهمـــين جدد، فسيكون عليكم أن تستجوبوا كثيرين هنا يا بول. ولقد كنت صريحاً معكـــم، وعلـــيكم أن تجبروهم على أن يكونوا بدورهم صرحاء معكم. فهذه جريمة قتل، وعندها لا أهمية للمناصب أو السمعة أو النظام والضبط والربط... ألا تتخيلان ما ستكتبه الـــصحف بحـــق السماء؟. طاقم كامل من الضباط الذين يعملون تحت إمرة جنرال قاعدة عسكرية تفسدهم وتدمر سمعتهم مجرد ضابط أنثى. إن هذا كفيل بأن تفقد القوات المسلحة ما بنته من سمعة على مدى عقود... إني أتمنى أن يكون مور هو الجاني، فهذا هو الشيء الوحيد الذي سيحفظ للجميع ماء الوجه".

قلت له: "لو كنت تلمح إلى أن من الأفضل أن يتم إلصاق التهمة بمور، فإن عليَّ أن أذكرك بالقسم الذي أقسمته".

"أود فقـــط أن أذكـــركما بأن عليكما ألا تبحثا في موضع لا يتوجب لكما البحث فيه. ولـــو كان مور هو الجاني، فلا تسمحا له بأن يدمر سمعة الجميع مع سمعته. فلو كان هو القاتل، فلا أهمية عندئذٍ لإفشاء ما ارتكبه غيره من ممارسات تسيء إلى سمعتهم كضباط. فهذا هو القانون. فلتكن محاكمة عسكرية واحدة فقط".

لـــم أكن أتصور أن كينت يمكن أن يمثل مصدراً لكل هذه الإثارة. فمن المدهش أن تجـــد أحـــدهم وقـــد أصـــيب بالقلق الشديد لو تعلق الأمر بنـــزاهته أو سمعته أو بحياته الـــزوجية. فـــلا زال الجـــيش يعاقب قانوناً على السلوك المشين لأفراده، ومن المؤكد أن ســـلوك الكولونيل كينت كان مشيناً. إني أحياناً ما أهاب تلك القوة الجارفة للجنس في حياة الـــرجل، بحـــيث يمكـــنه أن يجازف بكل ما لديه من شرف وثروة بل وحياته ذاتها لأجل قضاء ساعة من المتعة. ولو كانت هذه الساعة مع آن كامبيل بالذات فتلك مجازفة مميتة.

قلـــت لـــه: "أقـــدر لـــك صدقك معنا سيدي الكولونيل. فحينما يبادر الرجل بالبوح بالحقيقة، فإن على الآخرين أن يتبنوا نفس المبادرة".

"قد تكون محقاً... إلا أنني سأكون ممتناً لو أنكما أبعدتما اسمي عن القضية".

"لسوف أفعل، إلا أن هذا لا يهم على المدى الطويل".

"أعلـــم أن هذا لن يجدي. فقد دمرت حياتي، وكنت أعلم هذا منذ اللحظة التي أقمت علاقـــة معهـــا". ثـــم أضاف بكل صدق: "فلا بد من أنها كانت تعرف كيف ترضي الكل بانـــتظام، فكلما ظننت بأن علاقتنا انتهت إلى غير رجعة، وجدتها تطرق مكتبي لتدعوني إلى تناول الشراب معها".

سألته سينثيا: "ألم تفكر أبداً في أن ترفض عرضها لك؟".

فابتسم لها مجيباً: "هل سبق أن طلبتي من رجل أن يطارحك الغرام فرفض أن يلبي طلبك؟".

بدا لي أن إجابته قد استفزتها حيث بادرته: "لم يسبق لي أن فعلت هذا".

فنصحها ساخراً: "جرّبي إذن. تخيري أي رجل متزوج واطلبي منه أن يطارحك الغرام".

ردت سينثيا في برود: "لست أنا القضية هنا أيها الكولونيل".

"حسناً. أنا أعتذر. ولكنني سأجيبك عن سؤالك، حيث إن آن كامبيل لم تكن لتقبل بأي رفض. ولن أقول بأنها كانت تبتزني، فلم يحدث أن قامت بهذا، إلا أن هناك نوع من التلميح بذلك أحياناً. كما أنها كانت تتوقع مني أن أقدم لها دوماً الهدايا الغالية الثمن، من عطور وملابس وتذاكر طيران، غير هذا. أما الشيء الغريب حقاً فهو أنها لم تكن تبدي اهتماماً كبيراً بتلك الهدايا. بل كانت تريدني أنا فقط، وأعتقد أن هذا هو حالها مع الجميع، فقد بدا لي أنها واقعة تحت سيطرة غريزتها". ثم تابع قائلاً: "أتذكر أنها قد طلبت مني ذات مرة أن أجلب لها قنينة عطر باهظة الثمن. لا أذكر نوعها الآن، إلا أنها كلفتني أربعمائة دولار، حتى إنني اضطررت للاقتراض حتى أغطي هذا المبلغ فلا يعرف أحد بالبيت، كما ظللت أتناول الغداء في مطعم الجنود لمدة شهر بسبب هذا". ضحك حينما تداعت له تلك الذكريات، ثم قال: "كم أنا سعيد لزوال هذا الكابوس".

نبهته قائلاً: "لكنه لم يزل بعد".

"بالنسبة لي على الأقل".

"آمل هذا يا بيل... هل حدث أن طلبت منك يوماً أن تتنازل عن شيء من واجباتك؟".

تردد قليلاً ثم أجاب: "مجرد التوافه منها. كأن ألغي بعض المخالفات المرورية لأجل أصدقائها، ومخالفة سرعة باسمها هي ذات مرة. فلا شيء مهم على ما أذكر... إلا أنني لا أجد عذراً لذلك التصرف على أية حال".

هذا تحديداً ما كان سيقوله أمام أية لجنة تحقيق، وهو الشيء المناسب والوحيد الذي يسعه أن يقر به. وإني لأتساءل عن الطريقة التي كانت تؤثر بها على الآخرين، بخلاف الجنس بطبيعة الحال. فتلبية مصلحة هنا وإسداء جميل هناك، ومن يدري ما كانت تريده بخلاف ذلك ومن ثم حصلت عليه؟ وخلال خدمتي بالجيش التي تقارب العشرين عاماً – منها خمسة عشر عاماً في إدارة المباحث العسكرية – لم أرَ أو أسمع عن مثل هذا الكم من الفساد في قاعدة عسكرية.

سألته سينثيا: "ولم يستطع الجنرال أن يوقفها عند حدها أو أن يتخلص منها؟".

"كلا. ليس من دون أن يظهر نفسه كقائد ضعيف الشخصية. فعندما يدرك أن ابنته التي يتفاخر الجيش بها ليست في الحقيقة سوى أداة لاستغلال واستنزاف كل من هم

حـــوله، فـــإن الوقت حينها سيكون قد فات لأخذ أي تصرف رسمي. وكان السبيل الوحيد لتـــصحيح الوضع هو أن يخبر رؤساءه في البنتاغون بكل ما يجري، وأن يجبر من حوله علـــى الاستقالة، ومن ثم يتقدم هو بدوره بالاستقالة... ولو كنت مكانه لانتحرت بطلقة من مسدسي".

"أو أن يقتلها" باغتته سينثيا بهذا التعليق.

إلا أنه اكتفى بهزّ كتفيه قائلاً: "ربما. ولكن ليس على الطريقة التي قتلت بها".

فقلـــت: "لو لم يكن لدينا بالفعل مشتبه رئيسي به، لكنت أنت واحداً من بين كثيرين أيها الكولونيل".

"أنت محق. إلا أنني لم أتورط كما تورط غيري. بل أن بعضهم قد وقع في هواها، وتملكـــت عقله، بل وأصبح مستعداً لأن يقتلها بدافع الغيرة. ومنهم ذلك الشاب إيلبي. فقد كـــان يفقد أعصابه ولأسابيع لو أنها تجاهلته. فعليك أن تستجوب مور، ولو تبين لك أنه لم يقـــتلها، فعليك أن تسأله عن رأيه في من يكون من بين المشتبه بهم. فلقد كان هذا الوغد يعلم كل شيء عنها، ولو باح لك بمعلومة فتيقن من أنها موثوق بها، وعندها فأنا كفيل بأن أجعله يحتفظ بسره معه في قبره".

"قد أكون أذكى منك في هذا. فأنا أحاول أن أُقفل محتويات مكتب مور حتى أحصل على تصريح بنقلها إلى هنا".

"لكـــن عليك أن توجه له اتهاماً رسمياً... هل فهمت السبب في أني لم أرغب في أن يتولى التحقيق ضباط المباحث العسكرية ممن يخدمون هنا".

"أعتقد هذا. هل أحدهم متورط معها؟".

فكر للحظة، ثم رد: "أعتقد أن من الممكن أن يكون قائد المباحث العسكرية الميجور بويس".

"هل أنت متأكد من هذا؟".

"اسأله. فهو ممن قد يتورطون في مثل ذلك".

"هل أنتما على وفاق؟".

"نحاول هذا".

"ما هي مشكلتكما؟".

"بيننا مشاكل قضائية. لماذا تسأل عن هذا؟".

"هل تعني بالقضائية تلك القضايا التي يتم التحقيق فيها، أم شيء غير ذلك؟".

نظر إليّ ثم رد: "في الحقيقة... فإن الميجور بويس قد أصابه جنون تملكها وحدها".

"لم يحب أن يشاركه أحدٌ فيها".

أومــأ كيــنت برأســه مــوافقاً. "قليل من عشاقها وصلوا إلى هذا الحد. ذلك حينما هجــرتهم... إن المتزوجين كانوا الأكثر هياجاً... عليك ألا تثق بأحد ممن في هذه القاعدة يا بول".

"بمن فيهم أنت؟".

"بمــن فيهم أنا" ثم نظر في ساعته. "هل هذا كل شيء؟ أم أن هناك شيئاً آخر كنت تريدني من أجله؟".

"أياً ما كان ذلك فهو لن يماثل في أهميته ما أخبرتنا به".

"حــسناً. ســوف أعود للمنــزل الآن. يمكنك أن تجدني هناك حتى السابعة صباحاً، بعدها سأكون في مكتبي. أين يمكن أن أجدك في هذه الليلة لو وقعت على شيء هام؟".

ردت سينثيا: "كلانا سيكون في مقر استراحة الضباط".

"حسناً. ربما كانت زوجتي تحاول أن تتصل بي من أوهايو. ولا بد من أن الشكوك تراودها في أني بدأت أخونها. عمتم مساءً". ثم تركنا وانصرف، بخطوات واسعة هادئة.

علقــت سينثيا بقولها: "لا يمكن أن أصدق هذا. لقد أخبرنا للتو بأن آن كامبيل على علاقة جنسية بمعظم ضباط هذه القاعدة".

"الآن عرفنا من كانوا بكل هذه الصور".

"وأدركنا الآن السبب في غرابة هذا المكان".

"لقد أصبحت قائمة المشتبه بهم طويلةً جداً".

كــان رأيــي أن الكولونــيل كينت الذي يحاول أن يجعل من نفسه مثالاً للنــزاهة والــصدق وفــرض القانون والنظام قد انتهك بنفسه جميع القواعد والقوانين. فهذا الرجل الهــش يعاني من فرط شهوته الجنسية، وهو ما حدا به مباشرةً إلى هذه الورطة التي هو فــيها الآن. قلــت لــسينثيا: "هل يمكن لنبيل كينت أن يرتكب جريمة قتل لأجل أن يحمي سمعته؟".

"هــذا احــتمال ممكن. إلا أنني أرى أنه يشير إلى أن سره قد شاع وأنه أصبح في انتظار ما سوف يفعله الجنرال بمستقبله في الجيش".

"لــو قلــنا أنــه لن يرتكب جريمته حتى يتفادى المهانة والعار العسكري، فماذا عن الغيرة؟".

فكــرت في كلماتي قليلاً، ثم قالت: "إن كينت كان يشير كذلك إلى أن علاقته مع آن كامبــيل كانــت مجــرد تسلية بالنسبة له. دافعها الشهوة فقط، ولكنها لم تصل إلى درجة

الحب. وأنا أعتقد أن هذا صحيح". كانت تعلم أنني أريد منها رأياً أعمق من هذا، لذا أضافت بعد قليل: "كما أن الدافع الذي ألصقه بالميجور بويس - وهو الرغبة في تملكها وعدم مشاركة الغير فيها كنوع من الغيرة قد لا يكون صحيحاً وقد يمثل تلك الرغبة الدفينة لدى كينت ذاته. وتذكر أن هذا الرجل محققٌ في الأصل، ويعلم بالوسائل التي يمكن أن يضللنا بها. فهو يعرف أسلوب تفكيرنا".

"بالضبط. ومع هذا فإني أجد أن من الصعب أن أتصور هذا الرجل واقعاً في الحب أو الغيرة أو غرام أي امرأة".

"أعلم ذلك. ولكن الخبرة علمتنا أن مثله قد يفاجئنا بالكثير. فأمثاله كثيرون، من محبي السلطة والتحكم في الغير، والذين يبدون محافظين وشديدي الالتزام بالقواعد والنظم. فهي مجرد آلية يتبنونها لأنهم يخشون مواجهة كوامن أنفسهم، ومتيقنون مما يختفي أسفل زيهم العسكري. فهم في الواقع فاقدو السيطرة على سلوكياتهم، وحينما يخرجون عن نطاق السيطرة، يصبحون قادرين على فعل أي شيء".

"ربما كنا مبالغين في تلك النواحي السيكولوجية".

هزّت كتفيها قائلةً: "ربما. ولكن علينا أن نراقب تصرفاته. فلديه مخطط يختلف عن مخططنا، وهو ينوي تنفيذه".

الفصل التاسع عشر

أخبرني كال زايفر بأنه قد انتهى من فحص غرفة مكتب آن كامبيل، أو بالأصح ما كان مكتبها، لذا جلست على أريكتها وأدرت شريط فيديو آخر من سلسلة محاضراتها عن عمليات الحرب النفسية. كان رجال وسيدات البحث الجنائي يغدون ويروحون من حولي منشغلين بمهامهم الخاصة بالفحص المجهري لكافة تلك المتعلقات، من أتربة وشعر وأنسجة وبصمات وبقع وغير هذا.

قد تكون هذه الأشياء عديمة النفع في حد ذاتها، ولكن لو قلنا مثلاً بأن هناك بصمات أصابع على زجاجة شراب في خزانة آن كامبيل، ولو أن فحص تلك البصمات قد أظهر أن صاحبها هو الكولونيل جورج فاولر مثلاً، فإن هناك احتمالين ينتجان من ذلك: أن يكون أعطاها الزجاجة فأخذتها للمنزل، أو أنه كان في منزلها. ولكن لو كانت بصمات فاولر موجودة مثلاً على المرآة بحمامها، فإن هذا يعد دليلاً على أنه كان بالحمام. على أن وحدة رفع البصمات لم تستطع حتى الآن أن تضاهي أي من البصمات التي لدينا مع تلك التي تم رفعها، فيما عدا بصماتي أنا وسينثيا وآن كامبيل وكينت – وهذه الأخيرة قابلة لتطبيق كلا التفسيرين عليها. وقد يجدون بصمات لياردلي، ولكنه يمتلك تعليلاً لهذا، لكونه أحد من قاموا بلمس تلك المتعلقات سهواً. وقد يجدون بصمات لمور، ولكن كونه جارها بالمكتب وقائدها المباشر ينفي أية أهمية عن تلك البصمات. وبما أننا لا نملك أن نتعامل من جديد مع متعلقات من قبيل مرآة حمام آن كامبيل أو حوض استحمامها، فإننا لن نستطيع رفع تلك البصمات ذات الدلالة القوية، ولكن ياردلي رئيس الشرطة هو الذي سيمتلك تلك الأدلة الآن. وأي من البصمات التي ستثير الشبهات – ومنها بصمات ابنه – لن يصبح لها أثر.

ومن المتصور أن تؤدي المعرفة الكاملة بمن كان يتردد على منزلها إلى الكشف عن هوية قاتلها، وهو الأسلوب النمطي للتحقيق في جرائم القتل، أما معرفة أصحاب البصمات داخل حوض استحمامها فهو أمر يحدد لنا قائمة بمن كان لديهم الكثير مما سيخسرونه ما لم يبدوا تعاوناً تاماً. إلا أن الحمام مغلق الآن تحت حماية الشرطة، حتى أصبح من غير ذي جدوى أن نتبع مثل هذا الخيط.

إن معرفة من كان بموقع الجريمة هو الخيط المباشر، ولقد أصبحنا قريبين من التأكد مـن أن الكولونـيل تـشارلز مور كان هناك، إلا أننا لم نتيقن بعد من وقت وجوده هناك وسبب وجوده وماذا كان يفعل.

أمـا الكولونيل كينت فأراه رجلاً أصبح متوجباً عليه أن يحافظ باستماتة على سمعته العسكرية، وغني عن الذكر أنه سيواجه بالطبع مشكلة في حياته الزوجية. وأحمد الله أني لست واقعاً في مثل ما هو فيه من مشكلات.

لقـد صـدر عـن كيـنت ما يصل إلى مرتبة الاعتراف بانحراف سلوكه الجنسي، والتقصير في أداء مهامه العسكرية، وارتكاب أفعال لا تليق بضابط في الجيش، تلك مجرد ثـلاث تهم ستوجه إليه من قبل أية لجنة استجواب عسكرية. فذلك أمر معتاد في تحقيقات جرائم القتل، وكأنما هي قربان يقدم لأجل العدالة، حتى تقبل أن تأخذ مجراها.

كـان تقدير سينثيا لموقف كينت لافتاً للنظر، لأن من غير المتصور أن أحداً سيفكر في أن ويليام كينت كان رجلاً تحركه العواطف والغيرة. إلا أنها قد تكون حدست شيئاً لم ألحظـه أنـا. فما نعلمه الآن هو أن كينت كان على علاقة جنسية مع آن كامبيل. وأنا لا أعتقد أن هذه العلاقة لم تكن علاقة حب. أي أن كينت كان واقعاً في غرامها، وقتلها بدافع الغيرة. إلا أنني لا أمتلك دليلاً على هذا، وهناك الكثير من الفرضيات.

مـن بـين مزايا كثرة أفراد البحث الجنائي أن يكون بوسعك أن تكذب على المشتبه بهـم. فأنـا عليَّ أن أعرف ما إذا كان ذلك الشخص متواجداً هنا أو هناك، أو قام بهذا أو ذاك، قـبل أن أعمل على التلاعب به وخداعه. وأحياناً ما يسلك أحدهم نفس السلوك الذي سلكه كينت. إلا أنني لم أتخلَّ بعد عن وضعه بين أقوى المشتبه بهم.

عدت إلى التركيز في ما تعرضه شاشة التلفزيون وركزت انتباهي على آن كامبيل. فتخيلـتها تقف أمامي مباشرةً، تتحدث إليَّ مباشرةً، تنظر إلى عيني مباشرةً. كانت ترتدي الـزي العسكري الصيفي الأخضر، وتتحرك أثناء حديثها بين الحين والآخر على المسرح بعيداً عن منصة الخطاب، متصفةً بهدوء الأعصاب، والاعتماد على لغة الجسد وتعبيرات الوجه.

وقد بدت لي – رغم ما قيل عن برودها – منفتحة على الحضور خلال المحاضرة. فكانـت تبتـسم وهـي تنظر إلى أي سائل من بين الحضور، وتضحك على ما تقوله من دعابات بين الحين والآخر أو بسبب تعليقات تصدر من بين مئات الرجال الحاضرين. كما أن لـديها تلك العادة ذات الرمز الجنسي، حيث ترجع رأسها للخلف مع إزاحتها لخصلات شـعرها عـن وجههـا. وتجدها بين الحين والآخر وهي تعض شفتها أثناء استغراقها في التفكيـر أو تتسع عيناها لو أن أحد قدامى المحاربين قص نادرة مشوقة، ومن بعدها تسأله

أسـئلة تنم عن ذكاء. فليست محاضراتها بالمحاضرات الأكاديمية التقليدية التي لا يتحرك فـيها المحاضـر أبـداً عـن منصة الخطابة إلا لو أنهى المحاضرة. وأنا متيقن من أن محاضرات الكولونيل مور من هذا القبيل. فنحن أمام سيدة ذات عقل تأملي، وتعلم بالفطرة متـى تتكلم ومتى تنصت، إضافةً إلى غزارة معلوماتها حول موضوعاتها الشديدة التعقيد والـتطور. وكانـت الكاميرا تتحول بين الحين والآخر عنها، فتقوم باستعراض الحضور المتيقظـين لكل كلمة تلقيها، مستمتعين بما يسمعونه بقدر استمتاعهم بما يرونه أمامهم من جمال.

كانت آن كامبيل تتحدث عن عمليات الحرب النفسية الموجهة إلى أشخاص معينين، فأخذت أنصت بشدة لما كانت تقوله: "لقد تحدثنا عن عمليات الحرب النفسية الموجهة إلى جنود العدو، أو من يقدمون إليهم الدعم والمؤن، وإلى الشعب ككل. والآن أود أن أتحدث عـن العمليات المـوجهة إلـى الأفراد، وخاصة القادة العسكريين والزعماء السياسيين المعادين".

جلست سينثيا إلى جواري وبيدها قدح ساخن من القهوة وصحن من الكعك المحلى. سألتني: "هل هو فيلم جيد؟".

"أجل".

"أيمكن أن تغلق هذا التلفزيون؟".

"كلا".

"لماذا لا تذهب لتنال قسطاً من النوم يا بول؟".

"اصمتي".

وقفـت سـينثيا وابتعدت. بينما تابعت آن كامبيل كلامها، "إن آخر مرة استعملنا فـيها اسـتخدام هـذا السلاح كانت أثناء الحرب العالمية الثانية ضد القادة السياسيين والعسكريين للنازي. فلقد كنا نتميز عنهم بأننا نعرف تفصيلات في حياتهم الشخصية، ومـا يتخوفون منه، وما يميلون إليه جنسياً، وعن اعتقادهم في الحظ والتمائم، وغير ذلـك من التفصيلات الصغيرة. أما ما لم نكن نعرفه فكنا نتوصل إليه عبر ما تجمعه مـصادر مخابـراتنا. وبالتالـي فقد تكونت لدينا بيانات كاملة من الناحيتين الشخصية والنفسية عن العديد من أولئك الرجال، وأصبحنا قادرين على التحكم في نقاط ضعفهم، والتقلـيل من نقاط قوتهم، وأن نقحم عناصرَ زائفة في عملية صنع القرار فيما بينهم. أي أن الهـدف كان أن نقلل من ثقتهم في أنفسهم، وأن نجعل تقديرهم لذاتهم في أدنى درجة ممكنة، وأن نثبط عزيمتهم من خلال التلاعب بعقولهم، أو بالأحرى اغتصابها. وأرجو المعذرة على هذا التعبير".

انتظرت حتى تخافت التصفيق الذي صاحب الضحكات، ثم تابعت، "ومن الممكن أن نسمي هذه العملية بعملية تفريغ العقول. فكيف يكون بوسعك أن تفرغ أو تغتصب عقلاً على بعد آلاف الأميال منك، في قلب معسكر العدو؟. في الحقيقة فإن الأمر لا يختلف عما تقوم به في حياتك أثناء تعاملك مع زوجتك، أو صديقتك، أو قائدك، أو حتى جارك الذي يثير حنقك. فعليك أولاً أن تكون واعياً بأن الأمر يقوم على رغبتك أنت في ذلك، وضرورة أن تقوم به. ثم أن عليك أن تعلم خبايا عقل الشخص الآخر – أي ما يقلق هذا الشخص، وما يثير غضبه، أو يولد المخاوف لديه. فلا يمكنك أن تحوز السيطرة عليه إلا إذا تمكنت من كل أدوات تشغيل وتفعيل ذلك العقل. وأخيراً عليك أن تكون على اتصال بذلك الشخص. ويتم هذا التواصل على عدة مستويات – التواصل الشخصي، أو التواصل عن طريق طرف ثالث، أو التواصل كتابةً من خلال الوثائق والصحف والخطابات والمنشورات التي تلقى جواً – ولكن هذه الأخيرة لا تصلح مع زوجتك أو قائدك – والتواصل من خلال البث الإذاعي الدعائي، أو بث الأخبار المفخخة غير الصحيحة، وغير ذلك".

أخذت تستفيض في هذه النقطة لفترة، حتى قالت: "أما بخصوص التواصل الشخصي، فأقول بأنه أكثر أنواع التواصل مع قائد العدو فعاليةً وقدماً. فنوعية التواصل هذه تفاعلية، وبالرغم من صعوبة تحققها، فإن نتائجها هائلة. ومن أنواع التواصل الشخصي مع العدو التي لا نقرها في قواتنا المسلحة الأميركية، أو نستخدمها، التواصل الجنسي – وهنا تتبادر إلى الأذهان أسماء من قبيل ماتا هاري ودليلة، وغيرهن من المغويات، ومحترفات التلاعب بالرجال".

"فلو حدث وأصبحت النساء قائدات في ميدان الحرب، فعندها سنحتاج إلى رجال من أمثالكم كي يتسللوا إلى خيامهن ليلاً".

صدرت ضحكة صغيرة، وعلق أحدهم بسخرية عن الكيفية التي قد يتواصل بها مع إحدى تلك القائدات.

ثم سألها أحدهم: "لو كان لنا أن نقترب إلى هذا الحد من قائد العدو، فما المانع أن نقتله؟".

"ما المانع فعلاً؟ أقول بأنه بخلاف الاعتبارات الأخلاقية والقانونية فإن النجاح في التوصل إلى القائد الذي تستطيع أن تزرع في داخله من الخوف والاضطراب النفسي القدر الذي يمنعه من أداء مهامه واتخاذ القرار السليم – من قبيل ما حدث مع هتلر وصدام حسين– وهو أمر يماثل أن تكون لديك ثلاث كتائب من قوات المشاة هناك فيما وراء الجبهة. فلا يمكنك أن تتخيل قدر الضرر الذي يحدثه قائد – تم تحييده– في العمليات

العسكرية الخاصة به. فعلينا هنا أن نعاود تعلم دروس الماضي - وما تلقنته الجيوش الميدانية طيلة التاريخ، وهو يتمثل في الحقيقة التالية: إن القوات العسكرية تكون من الأصل مشحونة بالشكوك والحنين إلى الأهل والوطن وبالمخاوف غير المنطقية. فكل ما عليك هو أن تزرع نفس هذه الأشياء داخل عقول قادتهم".

هنا انتهى الشريط، فنهضت مغلقاً التلفزيون. بدا لي الأمر واضحاً منطقياً وفاعلاً جداً، تماماً كما شرحته هي. من الواضح أنها كانت تؤدي أثناءها تجربة ميدانية، تماماً كما قال كينت. ولو صدقت كينت، فإن آن كامبيل كانت تقود حملة مخططة ومتعمدة ضد عدوها، وهو لم يكن سوى أبيها. ولكن ماذا لو كان يستحق تلك الحملة؟ ما الذي قاله مور عن القاتل؟ لقد قال بأنه أياً من كان هو فإن لديه مبرراته. وبالمثل فإن آن كامبيل كانت تجد تبريراً منطقياً لما تقوم به ضد أبيها. فمن المؤكد أنه اقترف فعلاً ما ضدها، وأياً ما كان هذا الفعل فإنه قد جعلها تسعى للانتقام وتدمير ذاتها. وهنا خطر ببالي الفعلة التي قد تدفع ابنة إلى أن تفعل هذا بأبيها، وبنفسها، وهي تتمثل في أن يكون قد اعتدى عليها...

هذا ما قد يخبرني به الخبراء النفسيون لو أني سألتهم، كما أنه يتوافق مع ما وصل إلى علمي من قضايا مشابهة. ولكنه لو كان صحيحاً فإن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يؤكد هذا - آن كامبيل - قد لقي مصرعه. ويمكن للجنرال نفسه أن يقر به، ولكن من يجرؤ على أن يتناول معه مثل هذا الموضوع أو حتى يلمح إليه. على أن من الممكن أن نستدرج السيدة كامبيل إلى أن تتحدث عن علاقة ابنتها بأبيها. وأنا على كل حال أراهن على هذه القضية بعشرين عاماً قضيتها في الجيش.

ويبقى الداعي إلى أن ننبش في خبايا لا علاقة لها بالقضية التي نحقق فيها، وهذا ما قاله كينت؟ ولكن من يعرف بالمفيد من هذه الخبايا وما هو غير مفيد منها؟

فهل قتل الجنرال ابنته لكي يضع حداً لغضبها، أم لكي يسكتها؟ أم أن السيدة كامبيل هي التي فعلتها للسبب نفسه؟ وما هو دور الكولونيل مور في كل هذا؟ فالحقيقة أنني كلما نقبت في الأمر يزداد عدد من يتلوثون برذاذ تنقيبي هذا.

أتت سينثيا إلى جانبي وأقحمت قطعة من الدونتس في فمي لآكلها. من الواضح أننا على وشك الدخول في علاقة مشتركة أكثر حميمية من مجرد أننا نستقل نفس السيارة أو نتشارك في الحمام نفسه، أو حتى في قطعة الدونتس هذه ذاتها. ولكن الحق أقول أنه في سني هذه، وفي الساعة الثانية صباحاً، فإني لا أجد في نفسي أية رغبة في النساء. قالت سينثيا: "ربما يعطيك المكتب أشرطة الفيديو هذه عندما ننتهي من هذه القضية".

"وربما أحصل كذلك على أشرطة الفيديو التي بالقبو".

"لا تكن مقززاً يا بول" ثم تابعت الكلام في نفس الموضوع، مثلها مثل أي امرأة، "فهي ضارة بالصحة كما تعلم".

رفضت أن أعلق.

"عندما كنت مراهقة وقعت في غرام النجم جيمس دين. وكنت كثيراً ما أشاهد فيلميه متمرد بلا قضية والعملاق عندما كانا يعرضان في ساعات متأخرة على شاشة التلفزيون، وكنت أبكي حتى أنام".

"يا له من اعتراف جريء بحالة صريحة من الوقوع في حب الموتى. ما الذي تقصدينه من هذا الكلام؟".

"انسَ الأمر. معي أخبار جيدة. آثار الإطارات التي وجدناها في ساحة الرماية رقم خمسة تخص سيارة مور أو ما نحن متأكدون جداً من كونها سيارته. أما البصمات على فرشاته، والتي نفترض أنها تتبعه، تتطابق مع بصمتين على الأوتاد، وست بصمات على السيارة الجيب، وبصمة في دورة مياه الرجال؛ كما وجدنا بدورة المياه وبالحوض شعراً آخر يتطابق مع شعر مور. بالإضافة إلى أن جميع البصمات على كيس القمامة تعود إلى مور وآن كامبيل، ونفس الشيء على الحذاء وحزام المسدس والقبعة، مما يوحي بأن كليهما قد تعامل مع هذه الأدلة. لذا فيبدو لي أن فرضياتك حول مجريات أحداث تلك الجريمة تتماشى مع الأدلة المادية. تهانئي لك".

"أشكرك".

"هل تعتقد أنه القاتل إذن، أي أنه سيستحق حبل المشنقة؟".

"أعتقد أنهم في الجيش ينفذون الأحكام بالرصاص. إلا أنني سأتأكد من ذلك قبل أن أواجه الكولونيل مور".

"هل أغلقت القضية إذن؟".

"سوف أواجه الكولونيل مور بكل هذا".

"وإن لم يعترف، فهل ستتوجه إلى المدعي العام بما توصلنا إليه؟".

"أنا لا أدري. فلم تستكمل جوانب القضية بعد".

وافقتني الرأي قائلةً: "كلا بالفعل. فلدينا نظريتك حول الخطأ في تحديد توقيتات أضواء السيارات. فبوسعنا أن نجبر مور على محاكاة الجريمة، إلا أننا لم نستطع أن نحدد وقت الوفاة بعد. كما أننا لم نعرف دوافعه بعد".

"حقاً. ومن دون الدوافع سيكون من الصعب إقناع هيئة المحلفين. كما أن من المحتمل أن يكون القتل قد حدث بالخطأ، فهذه أحد الاحتمالات".

"أجل، فهذا ما سيدعيه، إن كان لديه ما يقوله".

"بالفعــل. فــسيكون لديــه عشرة من خبرائه النفسيين ليفسروا لهيئة المحكمة عملية اختــناق الجــنس هذه، وكيف أنها فعلة تتم بتراضي الطرفين ورغبتهما، وكيف أنه أساء تقديــر قوتها البدنية أثناء وصولها إلى ذروة النشوة مع استثارته لها. وعندها ستسود هيئة المحكمــة مــشاعر الدهشة. وعندها سيتولد لديهم الشك، ولن يجدوا مفراً من الاقتناع بأن الدلــيل المادي لا ينم عن جريمة اغتصاب تمت بالقوة وبالغصب. وسيرون أنه سوء في التوقــيت فقــط. ولا أرى أنهــم ســيفكرون في كونها جريمة قتل من الأصل. فأنتِ أمام شخصين بالغين ناضجين يمارسان الجنس بطريقة شاذة، وتسبب أحدهما بالخطأ في موت الآخــر. فستكون التهمة هي فعل خطر أدى إلى وفاة بالخطأ، هذا إذا لم نكن مبالغين من الأصل".

علقــت ســينثيا بقولها: "إن جرائم الجنس صعبة. لأن هناك الكثير من العوامل التي تندرج تحتها".

أومــأت مــوافقاً، وأنا أتذكر قضية مرت علينا في الإدارة، وهي لم تكن تخصني، حــيث كــان الضحية رجل كان يتم له عملية تنظيف للشرج بسائل وأفرطت المرأة التي تتولى العملية في كمية مادة التنظيف، حتى انفجرت أمعاء الرجل وتوفي بسبب النــزيف الداخلــي والعدوى. ولقد عانى فريق التحقيق الأمرين في تلك القضية، إلا أنهم في النهاية قرروا ألا يصلوا بالقضية إلى المحكمة. وتم إجبار المرأة، والتي كانت شابة برتبة ملازم، على أن تستقيل، أما الرجل القتيل – وقد كان ميجور قيادة أول صدره مرصع بالعديد من الأوسمة – فتم ترتيب جنازة عسكرية مشرفة له. وذلك لأجل سمعة الجيش.

إن تــسعين بالمائــة مــن الرغبة الجنسية بين البشر منبعها العقل، وحينما ينحرف العقــل، تنحرف تلك الرغبة الجنسية بدورها. فأنت هنا أمام خيارين: إما أن ما حدث كان بالتراضــي والاتفاق، فهنا لن تكون لديك حالة اغتصاب؛ وإما أن يكون القتل غير متعمد، وهنا لن تكون أمام جريمة من الأصل. بل سيتم تحويله إلى الفحص العقلي والنفسي.

سألتني سينثيا: "إذن؟ هل يجب أن نصدر أمراً بالاعتقال؟".

هززت رأسي بالرفض.

"أنا أرى أن هذا هو القرار المناسب في الوقت الحالي".

رفعــت سماعة الهاتف واتصلت برقم الكولونيل فاولر. أجابني صوت نائم لامرأة. عــرفتها بنفــسي، وهنا تناول فاولر الخط. "أجل سيد برينير؟" بدا لي أنه متضايق بعض الشيء.

"لقد قررت، سيدي الكولونيل، أن لا حاجة إلى إقفال محتويات مكتب الكولونيل مور الآن. وأردت أن أعرفك بهذا".

"أتقول لي هذا لي الآن في هذه الساعة".

"لقد طلبت مني أن أعرفك ما إذا كان هناك أمر بالاعتقال، وقد راودتني فكرة أن أعتقله بدلاً من ذلك".

"لم أعلم بأنك تنوي اعتقاله يا سيد برينير، ولكنك لو فكرت في الأمر مجدداً، فأرجو أن توقظني في وقت مناسب حتى أستطيع التفكير".

"بالطبع... لكني قد اتصلت لأطلب منك ألا تذكر هذه المعلومة لأحد. فهذا قد يبطل القضية من أساسها".

"أفهم هذا. إلا أنني سوف أحيط الجنرال علماً بذلك".

"أعتقد أنه ليس أمامك خيار سوى هذا".

تنحنح ثم قال: "هل لديك آخرون ممن تشتبه فيهم؟".

"ليس حتى الآن. إلا أن لديَّ بعض الخيوط".

"هذا أمر مشجع، هل من جديد إذن؟".

"لقد بدأت في التوصل إلى أدلة على أن النقيب كامبيل... كيف أعبر عن هذا...؟ أنها كانت تعيش حياةً اجتماعية حميمية حافلة".

وهنا خيم صمت مطبق.

لذا فقد واصلت كلامي: "كان من المحتم أن نتوصل إلى هذا. وأنا لا أعلم إن كان لهذا الأمر صلة بالجريمة أم لا، إلا أنني سأبذل قصارى جهدي حتى أبقي هذا الأمر في إطاره السليم وأن أقلل الضرر الذي قد يلحق بالقاعدة وبالجيش من جراء الإعلان عن هذه المعلومات، أو شيء من هذا القبيل".

"ما رأيك في أن نلتقي في الساعة 7:00 مثلاً بمنزلي لتناول القهوة؟".

"أنا في الحقيقة لا أود أن أزعجك بمنزلك في مثل تلك الساعة".

"لقد أزعجتني بالفعل يا سيد بيرنير. فلا ضرر إذن من أن تكون هنا في السابعة تماماً".

"نعم، سيدي". هنا إما أن الاتصال قد انقطع أو أنه قد أغلق الخط دون انتظار ردي. فقلت لسينثيا ساخراً: "عليَّ أن أهاتف سلاح الإشارة لأعلمهم بمدى سوء الخدمة الهاتفية في هذه القاعدة".

"ما الذي قاله لك؟".

"طلب منا أن نلتقيه بمنزله في الساعة 7:00 لتناول القهوة".

نظرت إلى ساعتها وقالت: "يمكننا أن ننام لبعض الوقت على الأقل. هل أنت مستعد؟".

نظـرت حولـي. كـان الهانجر قد عمه الظلام الآن، وكانت الأسرة تعج بالرجال والنساء النائمين، إلا أن البعض كان لا يزال يعمل في عناد، سواءً على الآلة الكاتبة أو مع أنابيب التحليل أو محدقاً في عدسات المجهر. "حسناً. هيا بنا".

سـألتني سينثيا أثناء خروجنا من الهانجر: "هل وجدوا خاتم أكاديمية ويست بوينت في كيس الملابس؟".

"كلا، لم يجدوه".

"كما أنه لم يكن موجوداً بين متعلقات منـزلها، أليس كذلك؟".

"لا. فقد سألت كال عن هذا".

"هذا محير".

تابعت سينثيا قائلةً: "ربما تكون قد فقدته، أو ربما أرسلته للتلميع".

"محتمل".

قالـت لـي: "بول... لو أننا قد نجحنا في إنقاذ حياتها وهي مقيدة في ساحة الرماية تلك، وكانت بيننا الآن، ما الذي كنت تود أن تقوله لها؟".

"ما الذي كنتِ ستقولينه أنت لها؟ ستقولين لها أنكِ خبيرة في الاغتصاب؟".

"أنا أسألك أنت".

"حـسناً. كنت سأقول لها أنه أياً كان ما حدث في الماضي فلا بد من أن يتم التعامل معـه بطـريقة سليمة، وليس بأسلوب هدام. وأنها بحاجة إلى علاج نفسي إيجابي، وليس سـلبي، وأن تحـاول أن تـبحث عن إجابة روحانية لآلامها، وأن تحاول الصفح عن الـشخص أو الأشـخاص الـذين تـسببوا في... إساءة معاملتها أو استغلالها. وكنت سأعرفها بأنها إنسانة لها قيمتها وأهميتها في هذه الدنيا مما يدعوها إلى أن تبحث عن رسـالة تحققهـا فـي الحياة، وأن الناس سيهتمون بها ويرعونها لو أنها بدأت تراعي ذاتها. هذا ما كنت سأقوله لها".

"أجل. فهذا ما كان على المرء أن يقوله لها. وربما قال لها أحدهم هذا. إلا أن هناك مـا حـل بهـا، ومـا نراه ونسمعه عنها الآن كان رد فعلها على هذا الكلام. فهذا النمط الـسلوكي لـدى امـرأة ذكية ومتعلمة وجميلة وناجحة في عملها يكون في العادة نتاج... تجربة مؤلمة مرت بها في الماضي".

"من قبيل ماذا؟".

غادرنـا الهانجر إلى الخارج حيث كان المساء قد حل مع بعض البرودة في الجو. كان البدر بادياً ومن حوله مليارات النجوم التي ترصع سماء جورجيا. تطلعت تجاه ظلمة

جـــوردان فيلد، متذكراً أيام ما كانت تشع بالضياء كل ليلة، وتلك الطائرة التي كانت تحط بالمكـــان عند منتصف الليل كل يومين أو ثلاثة أيام. سألت سينثيا: "لقد كنت أشرف على توصيل جثامين قتلى فيتنام إلى هنا".

لم تجبني.

فقلت: "إن لم يقوموا بدفنها هنا في ميدلاند، فإن هذا هو المكان الذي يتجمع فيه الكل بعد طقوس الكنيسة حتى يلقوا عليها النظرة الأخيرة. غداً أو بعد غد في الأغلب".

"هل سنحضر الجنازة؟".

"أنا أنوي هذا".

اتجهـــنا إلى سيارتها وهي تقول لي: "إجابةً على سؤالك... فإنني أعتقد أن أباها هو المـــدخل إلـــى سلوكها هذا. أقصد أنه قام كشخصية متسلطة بدفعها إلى الالتحاق بالجيش، وحـــاول أن يسيطر على حياتها، هذا مع ضعف الأم، وغياباته لفترات طوال، والانعزال عـــن العالم، واعتمادها الكامل على ميزة أنها ابنته. فإنها لم تجد طريقة للتمرد سوى تلك التي تعرفها جيداً. فقد طبقت ما تعلمته في مهنتها".

دلفـــنا إلـــى داخـــل السيارة وأنا أقول: "هذا صحيح. إلا أن هناك كثيراً من الفتيات اللاتي التحقن بالجيش على خلفيات مشابهة لذلك، ومع هذا فإنهن لم يسلكن نفس السلوك".

"أعلم هذا، لكن الفارق يكمن في أسلوب التحكم في مثل هذه الظروف".

"بل إنني أفكر في وجود علاقة غير معتادة بينها وبين أبيها، مما يفسر لنا سبب كل هذه الكراهية".

اتجهـــنا صـــوب بوابات منطقة هبوط الطائرات. وقالت: "أنا أعلم ما تقصده، ولقد فكـــرت فيه بدوري. ولكن إن كنت ترى أن من الصعب إثبات الاغتصاب والقتل، فجرب أن تثبت وجود علاقة زنا بين المحارم. ولو كنت محلك لما فتحت هذا الموضوع يا بول. فقد يضرك هذا".

"أنـــتِ على حق. فقد كانت أول قضية توليتها تتعلق بلص لثكنات الجنود. فانظري إلى أين وصل الحال بي. فأعتقد أن الهاوية هي الخطوة التالية... والأخيرة".

الفصل العشرون

أوقفت سينثيا السيارة عند مقر استراحة الضباط، وصعدنا السلالم إلى الطابق الثاني حيث غرفتانا. قالت لي: "تصبح على خير إذن". قلت: "في الحقيقة أني لا أشعر بالرغبة في النوم الآن، فيبدو أن مفعول الادرينالين داخلي لا يزال قائماً. ما رأيك في أن نشاهد التلفزيون معاً مع تناول شراب؟".

"لا أعتقد هذا".

"أرى أن من الأفضل ألا ننام من الأصل في هذا الوقت المتأخر، فستشعرين بتعب شديد عندما تستيقظين مبكراً. علينا فقط أن نسترخي، ونأخذ حماماً، ونبدل ملابسنا، ومن ثم نتوجه إلى منزل الكولونيل فاولر".

"في الحقيقة... ربما... لكن...".

"تعالي". فتحت باب الغرفة، فتبعتني إلى الداخل. التقطت سماعة الهاتف واتصلت بالجندي المناوب وطلبت منه أن يوقظنا في الساعة 5:30. ثم قالت لي: "هذا احتياطاً إن حدث وغفونا".

"فكرة جيدة... وفي الحقيقة فإنه لا يوجد مشروب أقدمه لكِ، كما أنني لا أجد جهاز تلفزيون هنا. ما رأيك في أن نلعب لعبة الألغاز إذن؟".

"بول...".

"ما المانع؟".

"لا أجيد هذا".

"إذن لنتسلى بلعبة أخرى... الحجر والمقص والورقة، هل تعرفين كيفية لعبها؟ إنها سهلة...".

"لا يمكنني أن أبقى هنا. فلقد كان اليوم مرهقاً جداً. ولن يكون من المفيد أن أبقى معك الآن".

"أنا أتفهم هذا. اذهبي لتأخذي قسطاً من النوم. وسوف أوقظك حينما أتلقى مكالمة الإيقاظ".

"حسناً... أنا آسفة.. سوف أترك باب الحمام مغلقاً بدون مزلاج".

"لا بأس. أراكِ بعد ساعات".

"تـصبح علــى خير". اتجهت صوب باب الحمام، ثم استدارت إليَّ وعادت، قبلتني بخفة على شفتاي، ثم انخرطت في البكاء، بعدها عادت حزينة إلى الحمام. سمعت صوت جريان الماء، ثم سمعت صوت بابها الآخر يفتح، بعدها ساد الصمت.

خلعــت ملابسي وعلقتها ثم دخلت في الفراش. ويبدو أني سقطت أسير النوم خلال ثوانٍ، حيث إني لم أتذكر سوى انتباهي على صوت جرس الهاتف. أجبت المكالمة، متوقعاً أن تكــون مكالمة الإيقاظ التي طلبناها، أو أن أسمع صوت سينثيا تطلب مني أن آتي إلى غرفتها. ولكنها لم تكن هذه أو تلك، بل حملت صوت الكولونيل فاولر العميق وهو يقول: "برينير؟".

"معك سيدي".

"هل أنت نائم؟".

"كلا سيدي".

"جيد. هل تتناول الحليب؟".

"معذرةً؟".

"ليس لديَّ هنا أي حليب أو قشدة يا برينير".

"لا بأس...".

"كنت فقط أود أن أحيطك علماً بهذا".

"أشكرك سيدي الكولونيل".

أظـــن أننـــي سمعت صوت ضحكة قبل أن يتم إنهاء المكالمة. كانت الساعة تقارب الخامسة فجراً، لذا نهضت، واتجهت وأنا أتخبط في مشيتي إلى الحمام، وأخذت حماماً. يا لـــه من يوم. مر نصفه وكأنما هو الخيال. أحارب على جبهتين، حتى أفرغت كل ما في جعبتـــي. إلا أنني أحتاج إلى أن يكون اليوم ثمانية وأربعين ساعةً أو أكثر حتى أنتهي من مهمتي في أسرع وقت، بعدها سأخرج من هذا المكان مكللاً بالمجد، أو محترقاً بلهيب هذه القضية.

ولـــو نحينا الاعتبارات الشخصية والمهنية جانباً، لتبين لنا أن هناك شيئاً ما خطأ في فـــورت هادلـــي، أشبه بالجرح المتقيح، مما يلزم معه التطهير. وهو ما أتصور أني قادر على فعله.

رأيت عبر الزجاج المغبش والبخار المتصاعد داخل غرفة الاستحمام خيال شخص يقف عند مدخل حجرة سينثيا.

"هل يضايقك أن أدخل؟".

"تفضلي".

كانت ترتدي شيئاً أبيضَ، ربما كان رداء نوم، وسرعان ما اختفت عن ناظري عند الركن الذي به مقعد الحمام. وبعدها ببضع دقائق عادت لتقف عند المغسلة، وظهرها لي. غسلت وجهها ونادتني بصوت يعلو على صوت الماء المنهمر على جسدي: "هل زال عنك الإرهاق؟".

"نوعاً ما. وماذا عنكِ أنتِ؟".

"قليلاً. هل كنت تتحدث في الهاتف منذ قليل؟".

"أجل. إنه الكولونيل فاولر. لم تكن المكالمة سوى مقلب يرده لي".

ضحكت وقالت: "تستحقه بالفعل". وبدأت تفرك أسنانها.

رنَّ جرس الهاتف مجدداً، فقلت: "هذه مكالمة الإيقاظ. ردي عليها من فضلك".

غسلت فمها. "بالطبع". دلفت إلى حجرتي وعادت بعد ثوانٍ. "إنها الخامسة والنصف". عاودت الوقوف عند المغسلة، لتتغرغر، ثم سألتني: "هل ستطول فترة استحمامك هذه؟".

"أجل. هل أنتِ على عجلة من أمرك؟".

لم يجبني سوى الصمت. ربما أدهشها ردي هذا. "سينثيا؟".

التفتت ناحيتي وسمعتها تقول لنفسها: "تباً".

رأيتها تخلع عنها رداء النوم، ثم فتحت باب حوض الاستحمام ودلفت إلى الداخل. قالت: "دلك لي ظهري".

وهكذا فعلت. وكان الماء ينهمر على جسدينا، وأعتقد أن جسدي قد تذكر ذلك الحب القديم، فاستعاد جم نشاطه فتذكرت بدوري تلك الليلة في بروكسل.

"بول... لا بأس... لن أمانع هذه المرة".

لم يكن الحظ ليبقى حليفاً لي إلى النهاية، فسرعان ما رن جرس الهاتف، فقالت: "من الأفضل أن تجيب على الهاتف".

"اللعنة!"، قلتها وأنا أنفصل عنها، وغطتني سينثيا بالمنشفة وهي تضحك.

ألقيت المنشفة جانباً آمراً إياها: "لا تذهبي إلى أي مكان". خرجت لأجيب الهاتف، والتقطت منشفة في طريقي. "هذا برينير من يتحدث".

"أخيراً... إن من الصعب أن نجدك أيها الرجل".

"من معي؟".

"لست أمك على الأقل يا بني".

"أوه...".

كان هو قائد الشرطة ياردلي: "لقد أخبرني بيل كينت للتو أنك قررت أن تبقى داخل القاعدة. فلماذا لا تعود للمبيت في عربتك المتنقلة؟".

"ماذا؟".

"لقد قضيت اليوم طوله أحاول أن أحدد مكان مبيتك هذا، حتى أتيت إليه ولم أجدك. يا بني... عد إلى منــزلك".

"وما شأنك أنت... هل أنت هناك الآن؟".

"بالطبع يا بول. ولكنك لست به".

"أخبرني بشكل مباشر عما تخبئه عني أيها الرئيس".

ضحك وقال: "إنني أتولى عنك مهمة تنظيف هذا المكان. كما أن لا حاجة بك إلا أن تواصل دفع إيجار مكان لن تراه بعد الآن".

"ليس لك الحق في...".

"تمهــل يــا بني. ربما نعود إلى ذلك لاحقاً. أما الآن فإن عليك أن تأتي إلى مكتبي حتى تستعيد حاجياتك".

"هذه منطقة حكومية أيها الرئيس...".

"أجــل لقــد رأيــت اللافــتة. وكان عليَّ أن أكسر القفل. لديك هنا مسدسٌ، وبعض المــستندات الرسمية، وكتب غريبة أعتقد أنها خاصة بالشفرات أو شيء من هذا القبيل... ومــاذا لدينا أيضاً؟ قيود، وبعض الأزياء العسكرية، وبطاقة هوية لشخص يدعى وايت... هل أنت على علاقة غرامية برجل؟".

دلفــت سينثيا إلى الحجرة وهي تلف نفسها في منشفة وجلست على طرف الفراش. قلت لياردلي: "حسناً... لقد استفزيتني بما فيه الكفاية".

"ومــا هــذا... صــندوق بــه عوازل طبية وسراويل داخلية قصيرة.. أهي لك أم لرفيقك؟".

"أيها الرئيس...".

"لــيس لديَّ ما أقوله سوى أن تأتيني إلى مقر الشرطة هنا لتستعيد هذه الحاجيات... سأكون بانتظارك".

"أنت من سيأتي بها إلى هنا في مقر القيادة. سألتقيك عند الظهر".

"سأفكر في الأمر".

"بل ستفعل. وستصطحب معك ويس. فأود أن أتحدث معه".

خيم الصمت لوقت قصير. ثم قال: "يمكنك أن تتحدث إليه في مكتبي".

"سأنتظر أن أراه خلال الجنازة هنا. فأنا أتوقع أن يحضر".

"أعتقد هذا. إلا أننا لا نسوي أية أعمال أثناء الجنازات".

"بل من الأفضل أن تفعل. فهذا المكان هو الذي يجمع دوماً كل من له صلة بأية جريمة قتل".

"اسمع... إنني سأسمح لك بأن تتحدث معه، هذا لأني أرغب في أن أتعرف على شخصية الوغد الذي فعل هذه الفعلة. ولكن عليك أن تعلم أن ابني كان في الخدمة أثناء وقت تلك الجريمة، وسوف يشهد زميله بذلك، كما أن لدينا تسجيلات نداءات وإشارات الراديو طيلة تلك الليلة".

"أنا متأكد من هذا. أما الآن فمسموح لك أن تدخل الهانجر الآن كيف تشاء. وأنا في المقابل أريد أن أرسل رجال المعمل الجنائي إلى منزل النقيب كامبيل".

"ولماذا؟ فلقد نقلتم كل شيء به. لدرجة أن رجالي لم يجدوا بالحمام أوراق تواليت".

"أراك مع ويس عند الظهر. وعليك أن تحضر معك حاجياتي والأغراض الحكومية".

"مهلك يا بني".

أغلق الخط، ونهضت وأنا ألف المنشفة حول جسدي. فسألتني سينثيا: "هل كان بيرت ياردلي؟".

"بالتأكيد".

"ما الذي يريده؟".

"يريد أن ينال مني. لقد أفرغ الوغد عربتي المتنقلة من محتوياتها". ضحكت وأنا أواصل كلامي: "كم يعجبني هذا الرجل. لقد كثر أمثاله هذه الأيام. وغد عبقري".

"ستكون أنت في نفس وضعيته العام القادم".

"آمل هذا". نظرت إلى ساعتي جوار مصباح الفراش. "إنها السادسة وعشر دقائق. هل لدينا وقت كاف؟".

نهضت: "عليَّ أن أجفف شعري، ثم أرتدي ملابسي، و...".

"حسناً، هل تعديني بتكرار ما حاولناه؟".

"بالتأكيد". اتجهت إلى الحمام ثم التفتت إليَّ لتسألني: "هل لديك أية مواعيد اليوم؟".

"أجل. سألتقي الكولونيل فاولر في السابعة، ثم مور في الثامنة...".

"لقد نسيت – قد لا يعجبك هذا السؤال – ولكن هل أنت على علاقة غرامية مع إحداهن؟".

"كلا. فقط علاقات منفعة حتى الآن. والحقيقة أنني لم أطارح أحد الغرام منذ أن كنا معاً".

"هذا جيد. ويبسط الأمور".

"أجل. إلا بالنسبة للميجور...، ما اسم زوجك، فلقد نسيته؟".

"إنني واضحة جداً معك الآن".

"هذا أمر مشجع. فلا نريد أن يحدث معنا ما حدث في بروكسل، ألست معي في هذا؟".

ضحكت. "آسفة.. لا أعلم لماذا أضحك كلما تناولنا ذلك الموقف؟".

"لأنك لم تكوني أنت من ينظر إلى فوهة المسدس".

"ولكنك لم تكن مضطراً للاستماع إليه. حسناً... أنا مدينة لك يا بول. وسوف أسدد ديني هذه الليلة، وبعدها نقرر مصير هذه العلاقة".

"إنني أتطلع لهذا".

"وأنا أيضاً.." ترددت ثم قالت: "إنك مستغرق جداً في... في هذه القضية. وتحتاج إلى أن تفرغ كل هذا التوتر".

"يا لك من رفيق عمل رقيق حساس".

دلفت إلى الحمام، وبحثت حتى وجدت نفس ما ارتديته بالأمس من سراويل وجوارب. ارتديت ملابسي، وأنا أفكر في أن الحياة عبارة عن سلسلة من التعقيدات، بعضها صغير – مثل أن أفكر في كيفية الحصول على سروال داخلي نظيف – وبعضها ضخم – مثل تلك التي غادرت الغرفة للتو. ويعتمد تحكمك في حياتك على كيفية الإعداد للخطط البديلة تجاهها، هذا إن كان لديك خطط بديلة.

تفحصت سلاحي، وأنا أفكر في أن الوقت قد حان لأن أهدئ من إيقاع حياتي قليلاً.

بلى. فأياً كان ما حدث مع سينثيا هذه الليلة فإنه الشيء الحقيقي. فهناك على الأقل ما هو جيد وسط كل هذه الفوضى.

الفصل الحادي والعشرون

منطقة بيثاني هيل في فورت هادلي أشبه بمنطقة مرتفعات شاكير المعروفة، إلا أن هـذه أصـغر وأقل شهرة. هناك حوالى ثلاثين منـزلاً حجرياً على الطراز الاستيطاني أقيمت على مساحة ستين فداناً تملأها أشجار البلوط والزان وغيرهما من الأشجار، بينما لن تجد بينها أشجار الصنوبر الأقل رتبة. يعود إنشاء كل المنازل إلى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، حينما كان الضباط سادة مهذبين، يجدون أن من الطبيعي أن يسكنوا بالقاعدة التي يخدمون بها، وكان عددهم قليل.

لكن الزمن تغير، وأصبح عدد العسكريين والمدنيين يفوق حاجة الجيش وقدرته على أن يوفر لكل فرد منـزلاً وحصاناً وخادماً. إلا أن هذه المنازل لا تزال حكراً على كبار القادة هنا، هذا إن أرادوها، وأعتقد أن الكولونيل فاولر ربما قد شعر بأن العيش داخل القاعدة من المميزات التي تدفعه إلى الأمام. وربما تكون السيدة فاولر بدورها قد شعرت بأن فورت هادلي منطقة جميلة. ولا أعني بهذا أن ميدلاند تنفر من إقامة السود بها؛ فهي ليست كذلك، حيث إنها تأثرت بعقود من الاحتكاك المباشر بأفراد هذه القاعدة. إلا أن بيثاني هيل – والتي يسمونها أيضاً جيتو الكولونيلات – قد تكون أكثر راحة من الناحية الاجتماعية بشكل يفوق الإقامة في ميدلاند.

أما عيب بيثاني هيل الوحيد فهو قربها من ساحات الرماية، فالساحة رقم واحد تبعد خمسة أميال جنوباً منها. ويمكنني أن أتخيل تأثير تدريبات الذخيرة الحية الليلية – خاصةً حينما تهب الريح من الجنوب – على هذه المنطقة. إلا أن من كان معتاداً على تدريبات المشاة القديمة لن يجد في هذه أي قسوة.

كانت سينثيا ترتدي قميصاً حريرياً أخضر وتنورة حمراء قاتمة، وربما كانت ترتدي ملابسَ داخلية نظيفة. قلت لها: "تبدين جميلة هذا الصباح".

"أشكرك. هل عليَّ أن أراك بهذه الحلة الزرقاء لفترة أطول؟".

"اعتبريها زيي العسكري طيلة هذا الأسبوع. لكن مكياجك لم يخفِ الهالات السوداء أسفل عينيك، واللتين بدورهما محتقنتين بالدم ومنتفختين".

"سيزول كل ذلك بعد ليلة من النوم العميق. وأنت تحتاج إلى من يعتني بك".

"هل تميلين إلى القيام بدور الحنون هذا الصباح؟".

وضعت يدها على ركبتي وقالت: "بلى. آسفة... فليست هذه بأفضل ظروف نجدد فيها علاقتنا".

"كلا. إلا أننا كنا قريبين من ذلك".

وصلنا إلى المنزل، وهو بناية ذات حجم معقول من القرميد، ذات باب أخضر عتيق، ونوافذ وأفاريز خضراء. بالقرب من المنزل سيارتان، واحدة من طراز فورد والأخرى جيب شيروكي. من الجيد إذن لأي ضابط أن يشجع صناعة السيارات في هذه البلاد رغم أنه ليس مجبراً على هذا.

أوقفت سينثيا سيارتها الموستانج عند الشارع، وترجلنا منها، متجهين نحو الممر المؤدي للمنزل. كان الجو لا يزال بارداً في هذه المنطقة المرتفعة عند الساعة 7:00، لكن الشمس كانت قد بزغت من بين الأشجار، لتنذر بيوم حار آخر.

قلت لها: "إن من أمامهم الفرصة والوقت الكافي ليصبحوا جنرالات من أمثال الكولونيل فاولر وكينت يصبحون أشد حساسية تجاه أية مشكلات قد تعيقهم عن تحقيق هذا الهدف".

"ما المشكلة إلا فرصة من نوع ما".

"وأحياناً ما لا تكون المشكلة سوى مجرد مشكلة وحسب. فأنا أرى أن مستقبل كينت – مثلاً – قد انتهى". كانت الساعة السابعة تماماً حينما طرقت ذلك الباب الأخضر.

فتحت الباب سيدة سوداء جذابة؛ ترتدي رداءً لطيفاً صيفياً سماوي اللون، وعلى وجهها شبه ابتسامة. وقالت من قبل أن نعرف أنفسنا: "أوه... هل أنتما الآنسة صنهيل والسيد برينير؟".

"أجل سيدتي". كنت على استعداد لأن أسامحها لكونها أخطأت فبدأت بتعريف من هو أصغر سناً وأقل رتبة. فهذا أمر كثيراً ما يخطئ فيه المدنيون، حتى ولو كن زوجات للكولونيلات، وللأمانة فإن الرتبة بالنسبة للضابط المساعد أمر مبهم لا قيمة له؛ وكأنك تتحقق من عذرية إحدى العاهرات.

وقفنا لبرهة مترددين، بعدها اصطحبتنا إلى الداخل وعبر الردهة الرئيسية.

قالت لها سينثيا: "منزل جميل".

ردت: "أشكرك".

"هل أنت على معرفة بالنقيب كامبيل؟".

"أوه... كلا... لم تكن معرفتي بها قوية".

كان الرد غريباً. فكيف لزوجة مساعد الجنرال كامبيل ألا تعرف ابنة الجنرال؟ من الواضح أن السيدة فاولر مشتتة الذهن، فهي لا تبدو مدركة لأبسط قواعد العلاقات

الاجتماعية التي لا بد من أن تتحلى بها زوجة الكولونيل. سألتها: "هل قابلت السيدة كامبيل منذ أن وقعت هذه المأساة؟".

"السيدة كامبيل؟. كلا... فلقد كنت... حزينة جداً...".

ليس بنفس درجة حزن أم القتيلة، وهو ما كان سيدعوها إلى إبداء التعاطف تجاه تلك الأم.

كنت على وشك أن أطرح سؤالاً آخر، إلا أننا وصلنا إلى ركن زجاجي الجدران في مؤخـرة المنـزل حيث كان الكولونيل فاولر يجري محادثة هاتفية. كان قد ارتدى بالفعل زيـه العـسكري الأخضر، ومغلقاً أزرار قميصه ليحكم فوقها ربطة العنق، إلا أن سترته كانـت موضـوعة علـى أحد المقاعد. أشار لنا بأن نجلس إلى مقعدين من الزان يقابلان مقعده، فجلسنا.

ربمـا كان الجيش هو آخر معقل بأميركا للعادات الاجتماعية الثابتة والراسخة، بما فـي ذلـك من تحمل للمسؤوليات ومراعاة للآداب الاجتماعية واحترام للرتبة، ولو كنت تحـتاج إلى من يرشدك دوماً إلى التصرف السليم، فهناك دليل يبلغ حجمه قرابة الستمائة صـفحة تحدد وتفسر لك ماهية حياتك والسلوك القويم خلالها. لذا ما أن تجد نفسك وسط بعض الفوضى حتى تتخبط.

اسـتأذنتنا السيدة فاولر بالانصراف. كان الكولونيل فاولر ينصت إلى الطرف الآخر مـن المحادثـة الهاتفية، ثم قال: "أفهم هذا سيدي. وسوف أخبرهما". ثم أغلق الخط وهو ينظر إلينا. "صباح الخير".

"صباح الخير سيدي الكولونيل".

"قهوة؟".

"لو تفضلت".

صبَّ لنا قدحين من القهوة ثم قدم لنا السكر. وبدأ حديثه من دون مقدمات: "لم أواجه سـوى القليل من التفرقة العنصرية داخل الجيش، وبوسعي أن أتحدث نيابةً عن الأقليات الأخرى حينما أبين أن الجيش يعد مكاناً لا تفرقة فيه على أساس الدين أو العرق. قد تكون هـناك مـشاكل عنصرية بين المجندين الجدد، إلا أن هذا لا يعني وجود توجه عنصري داخل الجيش".

لـم أكـن على يقين من سبب هذه المقدمة وهدفها، لذا ركزت في وضع السكر في قهوتي.

نظر الكولونيل فاولر إلى سينثيا وهو يقول: "هل حدث أن تعرضتِ إلى تفرقة بسبب كونك أنثى؟".

ترددت سينثيا في الرد، إلا أنها قالت: "ربما... أجل، في بعض مواقف".

"هل تعرضت من قبل للتحرش الجنسي؟".

"أجل".

"هل وقعت ضحية للشائعات أو الأكاذيب؟".

"ربما... هذا إن علمت بها".

هــزّ الكولونيل رأسه قائلاً: "هكذا ترين أنني أنا الرجل الأسود لم ألقَ مثل ما لقيته أنتِ بوصفك سيدة بيضاء البشرة".

ردت سينثيا: "أعلم بأن الجيش أقل تقبلاً لوجود الإناث. ولكنه لا يختلف في هذا عن بقية العالم. فما قصدك سيدي الكولونيل؟".

"قــصدي يا آنسة صنهيل هو أن النقيب آن كامبيل واجهت أوقاتاً عصيبة داخل هذه القاعــدة. فحيث إنها ابنة الجنرال، كما أنها قد قاتلت في الخليج وفي بنما أو في غرينادا، فإن من المنطقي أن يتم تكريمها وتقديمها كرمز لأفراد الجيش، تماماً كما كان حال الكثير مــن أبناء المحاربين على مر العصور. ولكنها وجدت بدلاً من ذلك الكثير من الشائعات التي تقول بأنها على علاقة مع كل ضباط هذه القاعدة. أرجو أن تعذرا لي لغتي".

قلــت: "أمــا لو كانت ابناً وليست بنتاً للجنرال، فسيكون من حقه أن يحتفي به، وأن يمارس هو الجنس مع كل أنثى داخل هذه القاعدة من دون أن يسائله أحد".

حــدق فيّ الكولونيل فاولر. "بالضبط. إننا نعاني من هذا الكيل بمكيالين بين الرجال والنــساء هــنا، وهو أمر ما كنا لنتسامح معه. لذا أقول بأنه إذا كان لديكما معلومات عن تــصرفات النقيب كامبيل الجنسية فإني أود أن أعرفها، ولا يهم إن كانت صحيحة أو غير صحيحة".

قلت: "لست مضطراً لأن أكشف عن مصادري الآن. أما اهتمامي الوحيد في سلوكها هذا فهو مدى صلته بالجريمة التي وقعت. ولست مهتماً بمعرفة تلك المعلومات كنوع من التــسلية البعيدة عن حقيقة اغتصابها أو خنقها على أرض ساحة الرماية ليس إلا". هي لم تغتــصب فــي حقــيقة الأمر، إلا أنني لم أكن على استعداد لأن أقدم له نسخة مجانية من تقرير التشريح.

قــال لــي الكولونيل: "أنا متأكد من هذا يا سيد برينير، ولست أقصد أن أتشكك في أخلاقياتك المهنية. فقط كنت أود التأكيد على ألا يخرج نطاق تحقيقاتك عن مساره، فتهاجم الجميع بريئاً كان أم متهماً".

"اسمع سيدي الكولونيل، إنني أقدر حزنك وحزن عائلة القتيلة. إلا أننا لا نتحدث هنا عــن شائعات كما تقول. بل نتحدث عما لديَّ من حقائق مثبتة. فلم تكن النقيب آن كامبيل

ذات حـــياة جنسية نشطة فقط – والأمر يتعلق أيضاً بالأطراف الأخرى لهذه العلاقة – بل وكانـــت هـــذه الحـــياة الجنسية خطرة تتصف بالشذوذ. وبوسعنا أن نتجادل حول ازدواج المعاييـــر طيلة اليوم، ولكنني عندما أعرف بأن ابنة الجنرال قد مارست الجنس مع نصف الـــضباط المتـــزوجين في هذه القاعدة، فلا بد من أن يثير هذا بداخلي شكوكاً نحو مشتبه بهـــم، ولـــن أفكر حينها في كيفية إزاحة الستار إعلامياً عن هذه المعلومات. فأنا لن أربط بـــين ما عرفته وبين مفاهيم نشر الفضائح ومخالفة الآداب، بل أربط بين هذه المعلومات وبين احتمالات الابتزاز ودوافع القاتل. هل اتضحت الصورة يا سيدي؟".

لا بد من أن هذا ما رآه الكولونيل، حيث إنه كان يومئ برأسه متفهماً، أو ربما كان يوفق بين الكلام وبين بعض مما يدور في ذهنه. قال لي: "لو حدث أن ألقيت القبض على أحدهم، فهل تضمن لي ألا يظهر سوى أقل القليل من هذه المعلومات في تقريرك؟".

لـــم أكن مستعداً لأن أخبره بما في ذلك القبو من أدوات متعة جنسية في منـــزل آن كامبـــيل، وأنني قد أجبرت بالفعل على أن أعمل على تقليل الضرر في كل هذا. فقلت له: "كـــان مـــن المفروض أن يطلع رئيس الشرطة ياردلي على تلك الأدلة في منـــزل النقيب كامبيل. إلا أنني والآنسة صنهيل قد اتخذنا خطوة احترازية تضمن لنا ألا يخرج إلى العلن أي ممـــا يسيء إلى صورة ضابط أنثى جذابة وغير متزوجة مثلها، أو لعائلتها أو للجيش ككل. وهو ما يتضح من خلال أفعالنا، وهذا هو ضماني الوحيد".

هزّ رأسه من جديد، ثم قال بشكل مفاجئ: "إنني سعيد بكما. ولقد اطلعت على ملفي خدمـــتكما، وقـــد كـــان هذا من دواعي تقديري لكما. ومن حسن حظنا أنكما من تتوليان التحقيق في هذه القضية".

تحسست في كلامه نوعاً من التفخيم الخداع، إلا أنني قلت: "تقدر لك هذا سيدي".

صـــبَّ لـــنا المزيد من القهوة وقال: "إذن فالكولونيل مور هو المتهم الرئيسي لديك الآن".

"هذا صحيح".

"لماذا أصبح هو المتهم؟".

قلت: "لوجود أدلة جنائية تشير إلى تواجده في موقع الجريمة".

"أفهم هذا... ولكن أما من دليل على أنه هو من قتلها؟".

"كـــلا. فمـــن الممكن أن يكون قد جاء إلى مكان الجريمة قبيل وقوعها أو بعد ذلك بقليل".

"ولكن ليس لديكما من دليل على أن غيره كان هناك".

"ليس لدينا أية أدلة قوية على هذا".

"ألا يدل هذا على أنه أقوى المتهمين؟".

"حتى الآن".

"ولو لم يعترف، فهل ستوجهان له اتهاماً رسمياً؟".

"إن دوري هنا استشاري، أما القرار الأخير فسيكون لوزارة الدفاع".

"يبدو لي أن تقريرك سيكون هو العامل الحاسم في هذه القضية".

"من المفترض أن يمثل العامل الوحيد، خاصةً وأن لا أحد غيرنا يعلم تفاصيل ما حدث... وعليَّ أن أخبرك يا سيدي بأن تلك الشائعات التي تربط بين آن كامبيل وضباطٍ داخل القاعدة قد تشمل أو لا تشمل أشخاصاً من قبيل المدعي العسكري العام، وغيره ممن قد يرتبط اسمهم بهذه القضية. وأنا لست سعيداً لكوني أنا من زرعت بذور هذه الشكوك، إلا أنني أبين رأيي تجاه ما نما إلى علمنا".

"ممن استقيت معلوماتك؟".

"ليس بوسعي أن أبوح بهذا. إلا أن المصدر قوي، وأنا أرى بأنك تدرك مدى انتشار هذه الشائعات. وأعتقد أنني والآنسة صنهيل القادران على تسوية هذه الأمور هنا وليس أنت يا سيدي، حيث إن أدواتك نفسها فاسدة هنا".

أومأ لي وقال: "في الحقيقة أنني كنت أتحدث بهذا الخصوص مع الجنرال كامبيل عندما وصلتما. فقد حدثت تطورات جديدة".

مقدمة لا تبعث على الارتياح. أنا أكره تلك التطورات الجديدة. "تابع سيدي".

"فلقد قررت وزارة العدل، خلال اجتماع مع رئيسك الكولونيل هيلمان، والمدعي العام العسكري، وغير هؤلاء من الأطراف ذات الصلة، أن تولي مهمة التحقيق في هذه القضية إلى المباحث الفيدرالية".

تباً. قلت للكولونيل فاولر: "إذن فقد خرجت مسؤولية التقليل من حجم الضرر من يدي إذن. هذا ما يجب أن تعلمه أنت وبقية العسكريين هنا".

"أجل. فالبعض محبط. ولا يدرك كل من بالبنتاغون مدى ما يجب من أن يتم من تقليل لحجم الضرر، لذا فقد تخلوا عنها من دون إصرار على هذا. إلا أنهم توصلوا إلى حل وسط".

لم نهتم بسؤاله عما يكونه هذا الحل الوسط، إلا أنه تطوع بتعريفنا به: "لسوف تبقيان مسؤولين عن هذه القضية حتى ظهيرة الغد. ولو لم تتوصلا إلى الجاني بحلول ذلك الوقت، فسوف تعفيان من هذه المهمة. إلا أنكما ستتعاونان مع المباحث الفيدرالية تعاوناً استشارياً".

"فهمت".

"لقـد بـدأ تـشكيل فـريق خاص في أطلانطا لأجل هذه القضية، يتكون من رجال المباحث الفيدرالية، ومكتب المدعي العام ومكتب المدعي العسكري العام، والضباط الكبار في إدارة التحقيقات العسكرية في فولز تشيرش".

"آمل إذن أن يجرب هؤلاء المكوث في استراحة الضباط".

تكلـف الكولونيل فاولر ابتسامة على محياه وهو يرد: "نحن لا نرغب في هذا، كما أنـي أرى أنكمـا بدوركما لا ترغبان في هذا. إلا أنه سيكون أمراً لا مفر منه في نهاية المطاف".

قالـت سينثيا: "سيدي الكولونيل. إن جرائم قتل الضباط لا تحدث كل يوم، إلا أن ما يـتم من إجراءات يبين الأمر كما لو أننا نواجه سفاحاً، كما أنه يبدو حرصاً على الصورة العامة للجيش أكثر منه مراعياً لأصول التحقيق الجنائي".

"لقـد أثيـرت هذه النقطة. على أن واقع الأمر هو أنها كانت ضابطاً أنثى، وأنها قد اغتـصبت، كما أنها كانت ابنة الجنرال كامبيل... إن العدالة متاحة للجميع، إلا أن هناك من يحق له الاستفادة منها بدرجة أكبر".

قلـت: "أدرك أن لا علاقـة لك باتخاذ هذا القرار سيدي الكولونيل، إلا أن عليك أن تتناقش مع الجنرال كامبيل لأجل أن يعكس هذا القرار أو أن يعدل منه على الأقل".

"لقـد فعلت. وهو ما أدى بنا إلى هذا الحل الوسط، حيث كان القرار المبدأي أن يتم إعفاءكما من هذه المهمة في الساعة 23:00 ليلة أمس. إلا أن الجنرال كامبيل والكولونيل هيلمان قد نجحا في أن يوفرا لكما بعض الوقت الإضافي. فهما يريان أنكما على وشك أن تلقـيا القـبض علـى الجاني. ولكونكما قد توصلتما إلى أدلة قوية وشكوك راسخة تجاه الكولونـيل مـور، فإنكمـا على وشك إلقاء القبض عليه. ولكما مطلق الحرية في هذا إن قررتماه".

أخـذت أقلب الأمور للحظات. يبدو لي أن الكولونيل مور هو المرشح الأوفر حظاً للعب دور كبش الفداء. وما المانع؟ فبصرف النظر عن توافر الأدلة، فهو الضابط الغريب الأطـوار الـذي يجري تجاربَ سرية لا علم لأحد بها، كما أن سمعته كعسكري موضع اتهـام، والجنرال كامبيل يمقت – كما قال لي كينت – ما كان بينه وبين ابنته من علاقة، وهـو بـلا شهرة عسكرية أو حياة ملئها الأوسمة والنياشين. فحتى ذلك العريف بالشرطة العـسكرية كـان يكـرهه. فهو يسير إلى الهاوية من دون أن يدرك ذلك. قلت للكولونيل فاولر: "ليس أمامي سوى أن أقبل بهذا الحل، خاصةً وهو يوفر لي ثلاثين ساعة".

بدت خيبة أمل على وجهه، إلا أنه سرعان ما أخفاها وهو يسألني: "ما الذي يمنعكما من استغلال ما لديكما من أدلة؟".

"إنها ليست كافية سيدي الكولونيل".

"تبدو لي كافية".

"هل أخبرك الكولونيل كينت بها؟".

"بلـــى. كما أنكما قد أشرتما إلى أن الأدلة الجنائية توضح أن الكولونيل مور هو من كان بمسرح الجريمة".

"هذا صحيح. إلا أن هناك ما يتعلق بالتوقيتات وبالدافع وطبيعة الجرم نفسه. فلديَّ ما يدفعنـــي إلى الاعتقاد بأن الكولونيل مور متورط بشكل ما فيما حدث، إلا أنني لا أستطيع أن أجزم بأنه كان هو المتورط الوحيد، أو أنه متهم بجريمة قتل من الدرجة الأولى. فأرى بـــأن علـــيَّ أن أستكمل جوانب التهمة الموجهة إليه، بدلاً من أن أكتفي بإلقاء القبض عليه وتحويل القضية إلى المحكمة".

"هل تعتقد بأن من الممكن أن يعترف؟".

"هذا أمر لن نتيقن منه إلا بسؤاله هو".

"ومتى ستسأله؟".

"في العادة ما أقوم بهذا حينما أكون أنا والمتهم على استعداد للدخول في حوار كهذا. وقد أنتظر في حالتنا هذه حتى اللحظة الأخيرة".

"حسناً. هل تحتاج إلى مساعدة من إدارة التحقيقات العسكرية هنا؟".

"لقد علمت بأن الميجور بويس كان من بين عشاق القتيلة".

"مجرد إشاعة".

"صـــحيح. ولكنني لو سألته... لا، لو سألته أنت سيدي الكولونيل على أن يقسم على رده بشرفه العسكري، فربما قال لك الحقيقة. وعلى أية حال - وبما أننا لن نتيقن أبداً من الحقـــيقة - فـــإن عليه أن يبين براءته من هذه الشائعة. وأنا لا أود أن أتعامل مع أحد من مرؤوسيه أيضاً".

"إننـــي حساس تجاه هذه الأمور يا سيد برينير، إلا أن التهمة التي على عواهنها - حتـــى ولـــو وصل الأمر إلى اعتراف بوجود علاقة جنسية بالقتيلة - لن تنأى بالميجور بويس عن مجريات التحقيق".

"أعـــتقد أن اعترافه سيكون كافياً. وأرى أنه سيكون عندها في الفئة الثانية أو الثالثة من بين المشتبه بهم حتى أستمع إلى حجة غيابه عن مسرح الجريمة أو افتقاره إلى الدافع. وبهـــذا الخصوص - سيدي الكولونيل - فهل يمكنني أن أطرح عليك بعض الأسئلة، هذا إن كنت قد انتهيت من كلامك".

صبَّ الكولونيل فاولر لنفسه قدحاً آخر من القهوة بيد ثابتة. كانت الشمس قد علت في السماء لتضفي بعض الضياء على هذا الركن الزجاجي من المنزل. وكانت معدتي قد بدأت تعاني من عدم تناول أي شيء سوى القهوة، كما لم يكن عقلي على صفائه المعهود. رمقت سينثيا فرأيت أنها أفضل حالاً مني، إلا أن هذا الموعد النهائي الجديد لم يكن ليعني شيئاً سوى الاختيار ما بين النوم وممارسة الجنس والطعام والعمل. أي ليس أمامي سوى الخطة البديلة.

سألني الكولونيل فاولر: "هل لي أن أدعوكما إلى الإفطار؟".

"كلا، شكراً سيدي الكولونيل".

فنظر إليَّ مباشرةً وقال: "ابدأ أسئلتك إذن".

"هل كنت على علاقة جنسية بآن كامبيل؟".

"كلا".

"هل تعرف أحداً كان على علاقة جنسية بها؟".

"لقد أخبرني الكولونيل كينت بأنه كان على علاقة بها. ولنا أذكر أية أسماء أخرى حتى لا تدرجها في قائمة المشتبه بهم".

"حسناً. هل تعرف أحداً ممن تراه لديه الدافع لقتلها؟".

"كلا".

"وهل تعرف أن كبير مساعدي الجنرال كامبيل - الملازم إيلبي - كان متيماً بها؟".

"بلى. وهو ليس بالأمر المستغرب، كما أن من الطبيعي أن يبدي اهتماماً بابنة القائد. فكلاهما أعزب وجذاب، كما أن كليهما برتبة ضابط. ومن المعتاد أن تتطور مثل هذه العلاقة إلى الزواج... فأنا أثق بذلك الرجل لكي يبادر إلى مثل هذه علاقة".

"وأنا كذلك. ولكن هل كانت هي تبادله نفس الاهتمام؟".

فكر الكولونيل فاولر للحظات، ثم قال: "لم تكن تبادل أحداً نفس الاهتمام الذي كان يبديه تجاهها. بل هي من كانت تثير الاهتمام بها، كما كانت تنهي هذا حسب ما يتراءى لها".

"يبدو لي هذا تقريراً مدهشاً منك أنت سيدي الكولونيل".

"أوه.. أرجوك يا سيد برينير، فأنت تعلم كل هذه المعلومات قبلاً. وأنا لا أحاول أن أدافع عن سمعتها. فلقد كانت... يا إلهي، كم أرغب في أن أجد الكلمة المناسبة لوصفها... لقد كانت تستثير الغواية، ولم تكن هي التي تسعى إلى هذا... فهي ليست بالعاهرة". نظر إلى سينثيا ثم قال: "هل لديكِ كلمة تصفيها بها".

ردت سـينثيا: "لا أعـتقد أن لديـنا الكلمة التي نصف بها ما كانت عليه، ربما كان الوصف هو أنها كانت تسعى للثأر".

"تسعى للثأر؟".

تابعت كلامها: "لم تكن ضحية للشائعات - كما أوحيت أنت في البداية - كما أنها لم تكـن حـياتها مهرجلة بالمعنى المعتاد للكلمة، كما أنها لم تكن تعاني من شبق جنسي. بل كانـت فـي الواقـع تـستغل سـحرها الجسدي لكي تحقق ثأرها، أنت تعلم قصدي أيها الكولونيل".

لـم يـبدُ لي أن الكولونيل كان سعيداً بهذا التقييم. وأصبحت أشك في أن الكولونيل كينت لم يبح له سوى بقليل مما أخبرنا به ولم يخبره بحقيقة أن سلوك آن كامبيل الجنسي كـان عـن قصد، وأن الغرض منه كان أن تسيء إلى سمعة والدها. قال الكولونيل فاولر لسينثيا: "لقد كانت تمقت الجيش".

ردت بقولها: "بل كانت تمقت والدها".

بـدا عـدم الارتـياح - للمـرة الأولى - على محيا فاولر. فلقد كان الرجل بارد الأعصاب، محنكاً يعرف ما يبديه وما لا يبديه من تعبيرات على وجهه، لكن سينثيا كانت تبين له للتو أن دفاعه قد انكشف. فقال: "لقد كان الجنرال يحب ابنته جداً. أرجو أن تؤمنا بهـذا. إلا أنها قد أبدت تجاهه نفوراً لا سبب له. والحقيقة أنني قد حادثت خبيراً نفسياً لا يعـرفها عن هذه الحالة، وأبدى لي صعوبة أن يقوم بتحليل نفسيتها من على البعد، إلا أنه قـال بأنهـا قـد تكـون تعاني من اضطراب في طريقة تحديد الفواصل بين شخصيتها والشخصيات من حولها".

علقت سينثيا بالقول: "لا يبدو الأمر كذلك، مما توصلت إليه حتى الآن".

"وكـيف لـنا أن نتيقن من قصد ذلك الخبير؟ فأنا لم أستطع أن أفهم كل ما قاله، إلا أنه يتلخص في حقيقة أن أطفال الرجال الأقوياء الشخصية وأصحاب السلطة، والذين يحاولون أن يتتـبعوا نفس مسار أبيهم في الحياة، عادةً ما يصابون بالإحباط، وبعدها يمرون بفترة شك في قيمـتهم الذاتـية، ومـن ثم يحاولون التوصل إلى شيء يمكن أن يحسنوا القيام به، لأجل أن يحافظـوا على كرامتهم، شيء مغاير تماماً عما يقوم به الأب، إلا أنه في نفس الوقت مهم في نظـر المجـتمع. لذا، فهو يرى أن العديد منهم ينخرط في العمل الاجتماعي، أو كمعلمين، أو ممرضات أو غير هذا من مهن تقوم على الاعتناء بالغير... بما في ذلك الطب النفسي".

علقت قائلاً: "لا يمكن أن نربط بين الحرب النفسية ومفهوم العناية بالغير".

"كلا. وهو ما يجعل هذا التحليل يحيد عما هو معتاد. فلقد أخبرني هذا الخبير النفسي بأنه حينما يجد الابن أو الابنة أنه لا يزال واقعاً تحت سيطرة الأب برغم كل هذا، فإن هذا

يكون نتاج رغبة في اللاوعي لإلحاق الأذى بالأب. فهم لا يستطيعون منافسته، كما أنهم لا يستطيعون أن ينفصلوا عنه، وهكذا يبقون على قرب من مصدر هذا الغضب فينخرطون فيما يصل إلى نوع من حروب العصابات، التي تتراوح ما بين تمثيل مصدر ضئيل من الإزعاج وحتى إلحاق التدمير الهائل بحياته".

سكت لحظة، ثم تابع كلامه: "يقومون بذلك لكونها الوسيلة الوحيدة لنيل الثأر – فكما قلتِ من قبل يا آنسة صنهيل فإنهم يحققون ثأرهم مما يتخيلونه ظلماً وقع عليهم أو أياً كان السبب. وفي حالة النقيب كامبيل نجد أنها في موقع متميز يمكنها من القيام بهذا. فوالدها لا يستطيع أن يقيلها من منصبها، كما أنها قد نمت قوتها في مجالها. وكثير من الذين يمتلكون تلك المشاعر تجاه آبائهم يسلكون نفس هذا المسلك، وهذا ما قاله الخبير، فتجدهم يدمنون الشراب والمقامرة وغير هذا من السلوكيات التي يرفضها المجتمع، مما يدركون أنها ستسبب الحرج لسلطة آبائهم. وربما كانت النقيب كامبيل – نتيجة لخبرتها في مجال علم النفس – قد بالغت في سلوكياتها، ومن الواضح أنها تعمدت إغواء الرجال ممن هم حول أبيها".

ثم مال الكولونيل فاولر تجاهنا عبر الطاولة بيننا، وقال: "آمل أن تفهما من أن سلوك آن لم يكن عقلانياً، وأن الأمر ليس له علاقة بسلوك أبيها تجاهها. فلدينا جميعاً أعداء وهميون، وحينما يطفو هذا على السطح، فلن يتمكن أي قدر من الحب الأبوي أو الرعاية من التغلب على ذلك الغضب في عقل الطفل. فقد كانت امرأة مضطربة تحتاج إلى من يساعدها، ولم تجد من يمد لها يد العون. والحقيقة أن هذا الوغد مور كان يعمل على إيقاد نيران الغضب لديها لأجل أغراض مريضة لديه. وأعتقد أنه كان يريد أن يتعرف على المدى الذي يمكنه أن يوصل هذه الحالة إليه وإلى أي درجة يمكن أن يسيطر عليها".

خيم الصمت لدقيقة، ثم سألته سينثيا: "وما الذي منع الجنرال من اتخاذ تصرف حاسم يحل المشكلة من أساسها؟ ألم يكن هو الرجل الذي قاد قواتنا المدرعة إلى نهر الفرات؟".

رد الكولونيل فاولر: "كان من السهل عليه أن يفعل هذا وقتها. أما التعامل مع آن كامبيل فلم يكن هيناً. والحقيقة أنه قد فكر في مثل هذا منذ عام. ولكن ما كنت أتلقاه من استشارة الخبير كان يظهر أن أي قرار من الجنرال بنقل الكولونيل مور مثلاً، أو إخضاع آن للعلاج النفسي – وهو مما هو متاح حسب سلطاته – قد يسهم في جعل الأمر أشد سوءاً. لذا فقد استمع الجنرال للنصيحة ولم يرد التدخل في مجريات تلك الأحداث".

قلت: "كما أن قرارات كهذه قد تسيء إلى سمعة الجنرال كقائد".

رد الكولونيل فاولر: "كان الموقف حساساً. فقد رأت السيدة كامبيل... والدة آن.. أن الوضع سيتحسن إذا ما أتيح لآن أن تفرغ غضبها الذي لا سبب له. وهكذا كان الموقف.

لكن الجنرال قد قرر أن يتخذ تصرفاً ما، منذ أسبوع مضى، إلا أنه كان قراراً متأخراً جداً".

سألته: "ما الذي قرره الجنرال؟".

سكت الكولونيل للحظة، ثم قال: "لا أعتقد أن إخبارك بذلك سيفيد القضية".

"قل لي وأنا الذي سأقرر هذا".

حسناً... لقد قام الجنرال منذ عدة أيام مضت بتوجيه إنذار لابنته. كما قدم لها عدة خيارات. أولها أن تستقيل من منصبها. والثاني أن تتوقف عن عملها بتلك المدرسة وأن توافق على الخضوع إلى العلاج الذي يراه الجنرال سواءٌ رضيت به أم لم ترضَ. أما الخيار الثالث فكان هو – إن رفضت الخيارين السابقين – أن يقوم المدعي العسكري العام بالتحقيق في سلوكياتها المسيئة وأن يوجه إليها التهم التي يراها".

شعرت بأن هذا الإنذار – إن كان صحيحاً – كان له دورٌ مباشرٌ في ما جرى بساحة الرماية رقم ستة. فسألت الكولونيل فاولر: "وماذا كان رد فعلها على هذا الإنذار؟".

"قالت بأنها ستبلغه بقرارها في غضون يومين، إلا أنها لقت مصرعها".

"ربما كان هذا هو ردها".

اندهش الكولونيل فاولر من تعليقي هذا: "ما الذي تقصده بهذا؟".

"فكر في الأمر سيدي الكولونيل".

"أتعني بأنها قد طلبت من الكولونيل مور أن يساعدها في إتمام انتحارها بطريقة غريبة الأطوار؟".

"ربما... ولكن ألا توجد أية واقعة في الماضي تفسر لنا سبب غضب النقيب آن كامبيل من والدها؟".

"مثل ماذا؟".

"مثل... منافسة أمها على حب أبيها مثلاً.. هذا النوع من الأمور".

تأملني الكولونيل فاولر وكأني أصبحت على وشك أن أتخطى ذلك الخط الفاصل بين ما هو مقبول كتحقيق في جريمة قتل وما هو غير معقول كنبش في خبايا السلوكيات الأخلاقية. إلا أنه رد في برود: "لا علم لي بما تحاول الوصول إليه يا سيد برينير، كما أود ألا تحاول حتى أن توضح لي مقصدك".

"حسناً سيدي".

"أهذا كل شيء؟".

"أخشى أننا لم ننتهِ بعد. بل أن الأمر يزداد إلغازاً سيدي الكولونيل. فلقد قلت بأنك لم تكن على علاقة جنسية بها. فما الذي منعك من هذا؟".

"ما الذي تقصده بهذا السؤال؟".

"أقـصد أن أتـساءل عمـا منعها عن أن تحاول إغواءك، وإن كانت قد فعلت فهل رفضت؟".

ألقى نظرة تجاه الباب لثانية، وكأنما يتأكد من عدم وجود السيدة فاولر. ثم قال: "إنها لم تعمد إلى هذا أبداً معي".

"فهمت. أيعود هذا ألا كونك أسود البشرة أم لعلمها أن المحاولة معك لن تجدي؟".

"أعـتقد... أنها... لقد كانت تواعد بعضاً من الضباط السود البشرة... ليس هنا في هادلي، ولكن في الماضي، فأرى أن السبب ليس هذا. فأعتقد أنها قد علمت..." ابتسم للمرة الأولـى ثـم تابـع"... علمت أنني غير قابل للانجرار في هذا المستنقع الفاسد... أو أنها وجدتني قبيح المنظر".

قالـت سـينثيا: "أنت لست كذلك سيدي الكولونيل، وحتى لو كنت كذلك، فإن هذا لم يكـن لـيهم آن كامبـيل. وأنا أعتقد أنها قد حاولت معك، وأنك رفضت بدافع الإخلاص لـزوجتك، ولقائدك، أو بسبب حسك الأخلاقي. ومن هنا أصبحت العدو رقم اثنين بالنسبة لآن كامبيل".

كـان صـبر فاولر قد نفد، فبادر بالقول: "لا أعتقد بأني تعرضت لمحاورة مثل هذه طيلة حياتي".

قلت: "ربما لأنك لم تخضع لاستجواب حول قضية قتل من قبل".

"بالفعل. ولكنكما لو ألقيتما القبض على الجاني لانتهى هذا التحقيق".

"الحقـيقة أنه سيتواصل حتى مع وجود محاكمة. وأنا لا أرتكب الكثير من الأخطاء سيدي الكولونيل، ولكن حينما أرى أنني قد ارتكبت خطأً فإنني لن أمانع في أن أعمل على توضيح أخطائي هذه".

"أقدر لك هذا سيد برينير. ولكن ربما أزال الكولونيل مور عنك كل هذه الشكوك".

"بوسـعه أن يحاول، ولكن ربما وجدنا لديه منظور مغاير لكل ما جرى من أحداث. وأنا أميل إلى معرفة منظور كل شخص حتى أستطيع الوصول إلى تقييم أفضل للموقف".

"كما تحب".

سألته سينثيا: "هل لدى النقيب كامبيل أية أشقاء أو شقيقات؟".

"هناك أخ لها".

"ما الذي يمكن أن تخبرنا من معلومات عنه؟".

"إنه يعيش في الساحل الغربي. في بلدة ذات اسم إسباني لا أذكره".

"أليس عسكرياً؟".

"كلا. فقد انخرط في العديد من المهن".

"هل التقيت به من قبل؟".

"أجل. فهو يأتي إلى منـــزل العائلة في معظم الأعياد".

"هل لاحظت أنه يعاني من نفس المشكلات التي ترى أن أخته تعاني منها؟".

"لدرجـــة ما... إلا أنه قرر أن يبعد نفسه عن الأسرة. وهكذا تعامل مع الأمر. فكان خلال حرب الخليج مثلاً يتهرب من أي طلب يتلقاه لإجراء محاورات مع قنوات كاليفورنيا التلفزيونية".

سألته سينثيا: "هل يمكن أن تعتبره منعزلاً عن أبويه؟".

"كلا. ليس بهذا المعنى... هو بعيداً عنهما فقط. فهما يسعدان لقدومه إلى المنـــزل، ويأسفان حينما تحين ساعة رحيله".

"وكيف كانت العلاقة بين الأخ وأخته؟".

"جيدة جداً، هذا مما كنت أشاهده. فقد كان يبدي ارتياحاً تجاه آن كامبيل".

"بالمناسبة... كيف كان أسلوب حياة... ما اسمه.. نقصد ميوله؟".

"اسمه هو جون كامبيل... لقد كان شاذاً جنسياً".

"هل كان الجنرال كامبيل يقبل بهذا؟".

سكت فاولر للحظة، ثم قال: "أعتقد أنه لم يعترض على هذا، حيث إن جون لم يكن يـصطحب رفـيقاً إلـى المنـــزل كما أن ملابسه لم تخرج عن النطاق العادي. وأرى أن سـلوك ابـنة الجنرال قد أسهم في ألا يبالي الجنرال بشيء من سلوكيات ابنه هو الآخر. ولكن جون - لو قارناه بآن - كان مواطناً صالحاً".

قالـت سـينثيا: "أفهــم هذا. فهل تعتقد أن الجنرال قد دفع ابنته إلى أن تتخذ مسلكاً رجولـياً يعوضـــه عن ابنه - أقصد أن تلتحق بويست بوينت ومن ثم الجيش - كنوع من حفظ ماء الوجه؟".

"هــذا ما يقوله الجميع. ولكن الأمر ليس على هذا الوجه. فالحقيقة أنها كانت شديدة الحماس أثناء دراستها في ويست بوينت. فقد كانت هذه رغبتها وكان أداؤها متميزاً. وبعد أربع سنوات من الدراسة بقيت في نفس السلك العسكري. لذا أعتقد أن الجنرال لم يجبرها علـى أن تنخـــرط في العسكرية، أو أنها لم تكن تود أن تسلك هذا المسار. فلقد كانت آن كامبـيل - كما أتذكرها وقت دراستها الثانوية - شديدة الطموح، وكانت مرشحة جداً لأن تتفوق في المجال العسكري. فلقد كان جدها ضابطاً بالجيش هو الآخر".

فكـــرت ســـينثيا فيما قاله للحظات، ثم ذكرته قائلةً: "لقد قلت من قبل أنها قد كرهت الحياة العسكرية".

"أجل... لقد قلت هذا، لكنّ أباها هو من كانت تكرهه".

"إذن فقد كنت مخطئاً حينما قلت هذا؟".

"في الواقع...".

دومـــاً ما تكمن الإثارة في إلقاء الضوء على كذبة ما – حتى ولو كانت صغيرة– خلال استجواب رسمي، حيث إن هذا يضع المتهم أو الشاهد في موضع دفاعي، كما هو مفترض.

حـــاول الكولونيل فاولر أن يصحح كلامه فقال لسينثيا: "لقد كانت من الأصل شغوفة بالحـــياة العـــسكرية. إلا أنه لا يسعني أن أتيقن من شعورها في الآونة الأخيرة. فلقد كان ينتابها الغضب الشديد، ولكن كان لديها دوافعها لتبقى في مهنتها هذه".

"أعتقد أن الصورة قد اتضحت الآن... هل يمكن أن تعطينا فكرة عن العلاقة بين آن كامبيل وأمها؟".

تأمل فاولر السؤال لحظات، ثم أجاب: "كانت علاقتهما طيبة. فالسيدة كامبيل – على النقيض مما قد يراه البعض – سيدة قوية، إلا أنها اختيرت كي تفعل ما فيه صالح زوجها، وحياته العسكرية التي اقتضت أن يخدم في مناطق عديدة عبر العالم، بما فيها تلك التي لم تستطع هي أن تكون بجانبه خلالها، وأن تبدي قبولاً وترحيباً بمن قد لا تهتم هي شخصياً بهـــم. وقـــد أكـــدت على كلمة اختيرت لأن هذا ما هو حاصل بالفعل. فهي من المدرسة القديمة، وحيث إنها التزمت بعلاقة زوجية، فلسوف تبقى على إخلاصها لها، أو أن تنفصل عـــنه لـــو أنها غيرت تلك الآراء. فلن تظل تتذمر أو تشكو كما تفعل زوجات هذه الأيام، اللاتي يردن كل شيء من دون تعب، بل وأن يستفدن منه أيضاً".

رمـــق سينثيا، ثم قال: "فهي لم تكن لتمثل عاراً لزوجها، ومستعدة لأن تتحمل ما هو حـــسن مع ما هو سيئ، موقنة من دورها كزوجة وشريكة حياة، ولن تسعى لأن تكون لها وظيفتها المستقلة لمجرد أن تثبت استقلالها الذاتي عنه. فهي لا ترتدي نجوم الجنرال، إلا أنهـــا مقتنعة بأنها من الأسباب التي أوصلته إلى هذه المكانة، بما بذلته من ولاء وإخلاص عبـــر الـــسنين. لقد سألتني عن علاقة آن بوالدتها، وقد أخبرتك برأيي في السيدة كامبيل. وبعلاقتها بزوجها، فبوسعكما الآن أن تفهما الإجابة عن سؤالكما".

أومـــأت برأسي متفهماً "بلى. وهل حاولت آن أن تغير من سلوك والدتها أو فلسفتها هذه؟".

"أعتقد أنها قد حاولت في البداية، لكن السيدة كامبيل أخبرتها بالأساس بألا تتدخل في حياتها أو في علاقتها بزوجها".

تابعت سينثيا: "أرى أنها نصيحة جيدة. ولكن هل وتر ذلك من علاقتهما؟".

"لست مطلعاً بشكل جيد على خبايا علاقة الأم بابنتها. فلم يكن بعائلتي سوى أربع صبية، كما أن لديَّ ثلاثة أبناء. فلست على تلك المعرفة بكيفية تعامل الأم مع ابنتها. ولكنني أعلم بأنهما لم يشتركا في أي عمل، كالتسوق أو ممارسة الرياضة أو إقامة الحفلات. إلا أنهما قد يتناولان العشاء معاً، بل ووحدهما أحياناً. هل يكفيكِ أن تعلمي هذا؟".

"هل كانت السيدة فاولر على علاقة جيدة بآن كامبيل؟".

"كانت علاقة جيدة. في الحدود الاجتماعية".

"وبالطبع فإن السيدة فاولر كانت على علاقة بالسيدة كامبيل، فربما أمكنني أن أتحدث مع السيدة فاولر حول علاقة تلك الأم بابنتها".

تردد الكولونيل فاولر، ثم قال: "إن السيدة فاولر في غاية الحزن، كما قد تكونين لاحظتِ. فإنني أرى أن تنتظري لعدة أيام، إلا إذا كان هذا مطلباً ضرورياً".

فسألته سينثيا: "هل ستكون السيدة فاولر موجودة وقتئذٍ؟ أم أنها على درجة من الحزن تستدعي السفر للاستجمام؟".

تطلع الكولونيل فاولر إلى سينثيا، ثم قال: "إن لها حرية الحركة كما تشاء، فهي مدنية، هذا إن كنت قد فهمت ما تقصدينه من كلامك".

"لقد فهمت قصدي، سيدي الكولونيل، لذا أود أن أتحدث معها اليوم. فليس لديَّ كما ترى فرصة الانتظار لعدة أيام".

تنهد الكولونيل فاولر. من الواضح أنه لم يقدرنا حق قدرنا، كما أنه لم يكن معتاداً على هذا النوع من الضغط الذي يفرضه عليه من هم أقل رتبة منه. وأعتقد أن ارتداءنا للزي المدني قد ساعده على أن يتجاهل هذا الشعور، وأن يحتملنا حتى النهاية، ومن هنا كان سبب اختيار المحققين العسكريين ارتداء الملابس المدنية عند التحقيق في القضايا الشائكة. في النهاية أجاب فاولر بقوله: "سأرى إن كان يمكنها أن تلتقيك هذه الظهيرة".

ردت سينثيا: "أشكرك. سيكون من الأفضل أن تتحدث معنا نحن، بدلاً من الحديث مع رجال المباحث الفيدرالية".

وصلته الرسالة بشكل مباشر.

سألته: "بالمناسبة سيدي الكولونيل، هل بوسعك أن تخبرني بمكان تواجدك ليلة مقتل النقيب كامبيل؟".

ابتسم وقال: "لقد كنت أظن أن هذا هو أول سؤال ستوجهه لي. على العموم، لنرى أين كنت.. لقد ظللت بمكتبي حتى حوالى الساعة 19:00، ثم حضرت حفل تكريم لأحد

الـضباط المنتقلين فـي نادي الضباط. وبعدها انصرفت مبكراً لأعود إلى المنـزل في الـساعة 22:00، حيث أنهيت بعض الأوراق، وأجريت بعض المكالمات، بعدها توجهت إلى الفراش مع زوجتي في الساعة 23:00".

سـيكون من الغباء أن أطلب من زوجته أن تؤمن على كلامه هذا، لذا سألته: "ولم يحدث ما هو غير معتاد في تلك الليلة؟".

"كلا".

"ومتى أيقظوك؟".

"في الساعة 6:00".

"وبعدها؟".

"بعـدها أخـذت حماماً، وارتديت ملابسي، حيث كنت بمكتبي في الساعة 7:30... وهو الموعد الذي كان من المفترض أن أكون في مكتبي عنده اليوم".

"وقـد هاتفت منـزل النقيب كامبيل في حوالى الساعة 8:00، ثم تركت رسالة على جهاز الرد الآلي".

"هذا صحيح. فقد هاتفني الجنرال من منـزله وطلب مني أن أفعل هذا".

"ألم يرغب في أن يهاتفها بنفسه؟".

"لقد كان غاضباً، وكان يعلم أن السيد كامبيل كانت حزينة بدورها، لذا طلب مني أن أجري المحادثة".

"على أننا كنا في منـزلها قبل الساعة 8:00، وحينما كنا بالداخل وجدنا أن الرسالة موجودة بالفعل".

خـيمت مـا يمكن أن تسميها دقيقة من صمت، فقد كان الكولونيل فاولر يحاول أن يتبين ما إذا كان هذا فخاً يوشك أن يقع فيه أم لا - وهو بالطبع ما لم أكن أهدف إليه - أو أن لديـه قـصة أفضل. ثم حدق فيَّ وهو يقول: "فقد أخطأت التوقيت إذن. فلا بد من أن المكالمة كانت في وقت أبكر من هذا. ما الوقت الذي كنتما خلالها في المنـزل؟".

"سيكون عليَّ أن أراجع مفكرتي. ولكن هل لي أن أفترض بأنك لم تجرِ المحادثة قبل الساعة 7:00؟ أي لنقل أنها كانت قد تأخرت عن موعد الإفطار عند الساعة 7:00؟".

"هـذا فـرض منطقي يا سيد برينير، إلا أنني كثيراً ما كنت أتصل بها قبل مثل هذا الموعد حتى أذكرها".

"ولكـنك قلـت فـي مكالمتك المسجلة: آن... كان يفترض أن تمري على منـزل الجنـرال هـذا الصباح ثم قلت شيئاً ما عن إفطار، بعدها قلت: ربما تكونين نائمة الآن.

وهكـــذا فلو أنها عادت من الخدمة في الساعة 7:00 مثلاً، وهاتفتها أنت لنقل في الساعة 7:30، فإن من الممكن أن تكون قد وصلت للتو في المنـــزل، دعك من كونها نائمة".

"هـــذا صحيح... وأعتقد بأني لم أكن صافي الفكر وقتها. فربما أكون قد نسيت أنها كانت بالخدمة، واعتقدت أنها لم تكن قد استيقظت بعد".

"ولكـــنك ذكرت أمر الخدمة هذا في كلماتك. فالجملة ككل هي: .. كان يفترض أن تمري على منـــزل الجنرال هذا الصباح بعد عودتك من الخدمة".

"هل قلت أنا هذا؟".

"أجل".

"حـــسناً، لنعتبـــرها نوعاً من الخطأ في التوقيت. فربما أكون قد هاتفتها قبل الساعة 7:30. أنـــا أعلـــم أنـــي قد اتصلت بها بعد أن هاتفني الجنرال مباشرةً. ومن الواضح أن النقـــيب كامبيل قد وافقت على لقاء أبويها عند الساعة 7:00، ورأيت أن من الطبيعي ألا تغادر مقر الخدمة حتى مجيء الضابط المناوب في الساعة 7:00، فليس من غير الطبيعي أن تغادر مقرها تاركة الرقيب وحده... هل لديك مشكلة في هذه الجزئية يا سيد برينير؟".

"لا مـــشكلة لـــدي". لـــيس بالنسبة لي؛ لكنها مشكلة كبرى بالنسبة لك أنت. سألته: "بالنظـــر إلى أن العلاقة كانت سيئة بين النقيب كامبيل وأبيها، فما هو سبب قبولها لتناول الإفطار معه؟".

"إنهما يتناولان الطعام معاً من وقت لآخر. فلقد أخبرتكما بأنها تلتقي والدتها كثيراً".

"أليس هذا اللقاء على الإفطار لأجل أن ترد آن كامبيل على إنذار والدها؟".

فكر فاولر للحظة ثم قال: "أجل، قد يكون الأمر كذلك".

"ألم يثر فضولك أنها قبل أن ترد على هذا الإنذار بساعات كانت قد لقيت مصرعها؟ ألا تجد صلة بين الأمرين؟".

"كلا. بل أعتقد أنها مصادفة".

"وأنـــا لا أعـــتقد في المصادفات. دعني أسألك هذا السؤال سيدي الكولونيل: أهناك خيار آخر طلبه الجنرال من ابنته في هذا الإنذار؟".

"مثل ماذا؟".

"كأن يكون قد طلب منها أسماء من هي على علاقة بهم من بين ضباط هذه القاعدة. هل كان الجنرال ينوي التخلص من الجميع؟".

ســـكت الكولونـــيل فاولر للحظات، ثم أجاب: "هذا محال تماماً. إلا أن آن كامبيل لم تكن ستهتم بعدم ذكر تلك الأسماء، بل سيسعدها أن تخبر بها أباها".

"إلا أن الضباط المتزوجين الذين تورطوا في علاقة معها ما كانوا سيسعدون بأمر كهذا".

"أنا متأكد من أن هذا كان ليمثل مصدر قلق لهم. إلا أن معظمهم - إن لم يكن جميعهم - كان يعلم بأنها قد تفعل هذا في أي وقت... تعلم يا سيد برينير أن معظم الرجال المتزوجين لديهم مشاعر متناقضة تجاه مثل هذه العلاقات الجنسية". نظر إلى سينثيا ثم تابع: "فهم من ناحية مرتاعون من أن تكتشف زوجاتهم تلك العلاقات، أو أن تعرف بها العائلة أو الأصدقاء أو رؤساؤهم. ومن ناحية أخرى فإنهم يتفاخرون بمثل هذه العلاقات ويستغلونها إلى أقصى حد. وحينما يكون الطرف الآخر هو الابنة الجميلة لقائدهم، فإنهم لا يستطيعون كبح جماح الرغبة، مهما كانت المخاطرة. صدقني، فجميعنا قد مر بهذا".

ابتسمت وقلت: "بالفعل. إلا أن هناك فارقاً بين مجرد الكلام وبين وجود صور وقوائم واعترافات بأسماء وغير ذلك. ما أريد الوصول إليه هو أن بعض من عشاقها قد علم - ربما من آن كامبيل نفسها - أن الكيل قد طفح بالجنرال وأنه قد طلب من ابنته أن تقدم له أسماء كل من كانوا على علاقة بها. فقرر أحدهم أن الوقت قد حان للتخلص منها وبالتالي من الدليل".

هزّ رأسه وقال: "لقد خطرت لي هذه الفكرة. والحقيقة أنني كنت أرى أن من قتلها كان على معرفة بها. ولكن كيف تفسر لي السبب في أن يعمد من خطط لقتلها إلى هذه الوسيلة، فيلفت النظر إلى الطبيعة الجنسية لتلك الفعلة؟".

سؤال وجيه. فأجبته: "ربما كان هذا غطاءً يخفي به طبيعة الجريمة. فلقد كان الجاني محتاجاً إلى أن يقتلها ولكنه أضاف الاغتصاب إلى جريمته حتى يربك المحققين. فلقد حققت من قبل في قضيتين لزوجين قتلا زوجتيهما بهذا الأسلوب، حتى يبدو الأمر كما لو كان الجاني غريباً عن المجني عليها".

"هذه خبرتك أنت وليست خبرتي أنا. وأنا أفهم مقصدك، ولكن كيف يتسنى لعدة رجال أن يقتلوا امرأة واحدة لمجرد أن يسكتوها؟ فمواجهة محكمة عسكرية بتهمة الإساءة إلى الرتبة العسكرية أهون بكثير من مواجهتها متهماً بالقتل".

"أتفق معك سيدي الكولونيل، ولكننا عقلانيون وهذه أمور لا تحدث إلا في عالم مثالي عقلاني. أما في عالم الجريمة فنجد أن من بين أهم دوافع جرائم القتل هو تفادي العار والمهانة. وهذا ما تعلمناه".

"أقولها مرة أخرى.. هذه خبرتك أنت وليست خبرتي أنا".

"ولكن علينا أن نفكر في من يمكنه أن يخطط لقتلها - من بين عشاقها - بدافع تفادي العار، أو الطلاق، أو المحاكمة العسكرية، وبالتالي العزل من منصبه وتجريده من رتبته".

"أقول لك يا سيد برينير أن المشتبه به الرئيسي لديك – الكولونيل مور – لم يكن من بين المتورطين في علاقة معها، هذا حسبما فهمت. لذا فلم يكن لديه سبب واضح يدفعه لإسكاتها. إلا أن لديه العديد من الأسباب التي تدفعه إلى اغتصابها ومن ثم قتلها. فعليك أن تركز في دوافعه هو إن كان هذا هو كل ما يمنعك من إلقاء القبض عليه".

"من المؤكد أنني أعمل على هذا سيدي الكولونيل. فأنا أميل إلى أن أقوم بمهام التحقيق بأسلوب أشبه بذلك الذي يتبعه قادة أسلحة المشاة والمدرعات – أي فتح عدة جبهات مقدماً – ومن بعد ذلك القيام بهجوم استفزازي، يليه انسحاب مدروس، ومن ثم اختراق ومحاصرة العدو، ومن ثم إجباره على الاستسلام".

ابتسم في شيء من السخرية، كما كنت أعلم أنه سيفعل، ثم قال: "هذا أسلوب يبدد طاقتك ويفقدك زمام المبادرة. فعليك أن تقتل العدو مباشرة يا سيد بيرنير، وأن تترك تلك الخطط لمن يدرسونها".

"قد تكون على حق سيدي الكولونيل. هل حدث أن قابلت الرقيب المناوب ساينت جون حينما ذهبت إلى مكتبك ذلك الصباح؟".

"كلا. إلا أنني سمعت فيما بعد بأن عريفاً من الحرس كان هو من يدير القاعدة – إذا صح القول – حينما حضر أول ضابط. وقد ذكر العريف أن الرقيب المناوب قد غادر موقعه قبل ذلك بساعات ولم يعد، ولم يكن لديه علم بمكان الرقيب أو أين كان الضابط المناوب. إلا أنني لم أعلم بهذا لأن أحداً لم يذكره لي. ولقد كان الميجور ساندرز – ضابط أركان الحرب – هو من اتخذ القرار باستدعاء أفراد الشرطة العسكرية، حيث أبلغوه بأن الرقيب المناوب – ساينت جون – كان تحت حراستهم، إلا أنهم لم يخبروه بالسبب. وقد عرفت بكل هذا في حوالى الساعة 9:00 ومن ثم أبلغته للجنرال كامبيل، والذي أمرني بأن أتابع الموقف".

"ولم يخطر ببال أحد أن يسأل عن مكان اختفاء النقيب آن كامبيل؟".

"كلا... وبالنظر لتلك الأمور الآن نجد أنها ترتبط كلها ببعضها البعض. إلا أنه قد بدا لي ذلك الصباح أن النقيب كامبيل قد غادرت مبكراً، ووضعت الرقيب المناوب في موقعها، ومن ثم وضع هو العريف في موقعه وانتهز الفرصة ليغادر المكان – كأن يعود للمنزل ليفاجئ زوجته، أو شيء من هذا القبيل – حيث إن الفرد المناوب تنتابه دوماً الشكوك في زوجته، وبالتالي يتسلل من نوبة خدمته لكي يتفقد أحوال منزله. وهي مشكلة من مشاكل الحياة العسكرية".

"أجل، فقد صادفت جريمتي قتل وجريمة إحداث عاهة مستديمة من هذا القبيل".

"فأنت تفهمني إذن. هذا ما قد خطر لي من بين خواطر أخرى. إلا أن ما أعرفه هو أن ساينت جون قد غافل الشرطة العسكرية ولم يعد أبداً إلى مقر القيادة. ولم أبحث كثيراً

فـــي الأمر حيث إن من الواضح أن المغادرة المبكرة للنقيب كامبيل هي ما حدت بساينت جون إلى أن يفعل ما فعل، وكنت على يقين بأن ما يتم اتخاذه في مثل هذه الحالات سيتخذ مساره السليم. لكن آخر ما خطر بالبال أن يكون لإلقاء القبض على ساينت جون صلة بما اكتشفناه فيما بعد".

بـــدا كلامـــه منطقياً في نظري. إلا أن به بعض الثغرات. فذكرته قائلاً: "لقد ذكرت بأنك قد عملت لساعة متأخرة في مقر القيادة في الأمسية السابقة".

"أجل".

"هل رأيت النقيب كامبيل حينما حضرت لتسلم الخدمة مساءً؟".

"كـــلا، حـــيث إن مكتبـــي بالطابق الأول، إلى جوار مكتب الجنرال. بينما يستخدم الـــضابط المـــناوب ورقيـــبه تلك المساحة المخصصة للموظفين في الطابق الثاني، حيث يتوليان دفتر اليومية وتدوين أية أوامر من الضابط، وبعدها يرتاحون إلى أي مكتب طيلة اللـــيلة. وأنـــا فـــي العادة لا أرى أي ضابط يأتي لتسلم الخدمة... هل يكفيك هذا يا سيد برينير؟".

"هـــذا معقـــول يا سيدي. ولن أتأكد من كلامك إلا حينما أتحقق منه. فهذا هو عملي سيدي الكولونيل، ولا يسعني أن أقوم به بطريقة أخرى".

"أنا متأكد من أن لديك بعضاً من مساحة الحركة يا سيد برينير".

"القلـــيل منها. مساحة ضيقة جداً. فأنا بين فكي رئيسي الكولونيل هيلمان، والذي لا يتـــردد فـــي الفتك بالضباط المساعدين الذين يخشون أن يوجهوا الأسئلة إلى من يعلونهم رتبة".

"حقاً؟".

"أجل سيدي".

"سأخبره إذن بأنك قد أبليت بلاءً حسناً ولم يكن لديك أي خوف من أي نوع".

"أشكرك سيدي الكولونيل".

"هل تستمتع بعملك هذا؟".

"لقد اعتدت أن أستمتع به في السابق. أما الآن فقد أصبح مجرد عمل".

"فلدينا شيء مشترك إذن".

"آمل هذا".

جلـــسنا جميعاً في صمت لدقيقة. كانت القهوة قد بردت، إلا أنني لم اهتم بهذا. ثم سألته في النهاية: "هل بوسعك يا سيدي الكولونيل أن تحدد موعداً مع السيدة كامبيل هذا اليوم؟".

"سأفعل ما بوسعي".

قلت له: "لو أنها كما وصفتها لنا فسوف تتفهم الداعي الملح لهذه المقابلة... كما أننا نود أن نلتقي الجنرال كامبيل هذا اليوم أيضاً".

"سوف أرتب لهذا. كيف يمكنني أن أتصل بكما؟".

"أخشى أننا سننتقل عبر أرجاء القاعدة طيلة هذا اليوم. عليك فقط أن تترك رسالة في مقر القيادة. وأين يمكنني الاتصال بك؟".

"في مقر القيادة كذلك".

"هل تمت ترتيبات الجنازة؟".

"أجل. سوف يكون الجثمان في كنيسة القاعدة هذا المساء، وحتى صباح الغد، لأجل من يريد أن يلقي النظرة الأخيرة عليه. ومع تمام الساعة 11:00 غداً، سوف يقام قداس، وبعدها سيتم نقل الجثمان إلى جوردان فيلد لإتمام طقوس الجنازة، ومن ثم ينقل جواً إلى ميتشيغان حيث مدافن عائلة كامبيل".

كنت أعرف أن بملف كل ضابط بالجيش وصيته، وغالباً ما تحوي الوصية تعليمات بمقر الدفن حال الوفاة، لذا سألت الكولونيل فاولر: "هل هذه هي رغبة المتوفاة؟".

"هل لهذا السؤال علاقة بتحقيقك في القضية؟".

"أعتقد أن تاريخ كتابة الوصية وتاريخ تعليمات الدفن مرتبطان بها".

"لقد تم تحديث الوصية وتعليمات الدفن قبل أسبوع من مغادرة النقيب كامبيل للمشاركة في حرب الخليج، وهو أمر عادي. ولعلمك فقد كان طلبها هو أن تدفن في مقابر العائلة، وكان المستفيد الوحيد من وصيتها هو أخوها جون".

قلت له بعد هذه الملحوظة الأخيرة: "أشكرك.. لقد أبديت تعاوناً كبيراً معنا سيدي الكولونيل، ونحن نقدر لك هذا". هذا بخلاف محاولتك تضليلنا بين الحين والآخر.

من المعتاد أن ينهض أولاً الأعلى رتبة، لذا انتظرته حتى يدرك أن مهمتي انتهت، ومن ثم يقف، إلا أنه سألني عوضاً عن هذا: "هل وجدتما بمنزلها أي شيء يسيء لها أو لأي من الضباط بالقاعدة؟".

جاء دوري لأكون مراوغاً، فبادرته بقولي: "مثل ماذا؟".

"أشياء من قبيل... مذكرات، خطابات، صور، أسماء عشاقها، أي من هذا كما تعلم".

"يمكن لخالتي أن تقضي أسبوعاً وحدها تنقب في منزل النقيب كامبيل عن مثل هذا، ولكنها لن تجد شيئاً يمكنها أن تنتقده، بما في ذلك أسطوانات الموسيقى". كان كلامي صحيح، حيث إن تلك الخالة – شديدة الفضول – تفتقر إلى الإدراك الحسي بالمكان ولا يمكنها أن تعثر على غرفة خفية بالقبو كما عثرنا عليها.

نهـض الكولونيل فاولر، فنهضنا بدورنا. وقال لي: "لقد فاتكم شيئاً ما إذن، حيث إن المعـروف عـن آن كامبيـل أنها تقوم بتوثيق كل شيء. فقد كان هذا جزءاً من تدريبها كخبيـرة نفسية، كما قد يمثل هذا رغبة لديها حال فكرت في إفساد كل من يحيط بها، فلم يكن لها أن تعتمد على الذاكرة في مثل هذه الأمور. فعليكما أن تبحثا بشكل أكثر جدية".

"حاضـر سـيدي". عليَّ أن أقر بأني لم أعد أستسيغ أن أستمع إلى هذه النوعية من الملاحظات حول آن كامبيل من كينت أو فاولر. فيبدو لي أن آن كامبيل قد أصبحت تمثل لـي أكثر من مجرد مجني عليها في جريمة قتل. قد ألقي القبض على القاتل، إلا أن على أحد أن يبين لنا السبب في ذلك السلوك الذي سلكته، وعلى أحد أن يفسر الأمر لأناس من أمـثال فاولـر وكينت وغيرهما. فلم تكن حياة آن كامبيل بحاجة إلى من يعتذر عنها، أو يشفق لها؛ بل إلى تفسير عقلاني، وربما إلى تبرير لمسارها.

رافقـنا الكولونـيل فاولـر حتى الباب، وربما كان يتمنى لو أنه لم يكن يتحدث في الهاتـف حتـى يصحبنا هو إلى الداخل بدلاً من أن تعرف زوجته بوجودنا. تصافحنا لدى الـباب، وقلـت لـه: "بالمناسبة، إننا لم نعثر حتى الآن على خاتم أكاديمية ويست بوينت الخاص بآن كامبيل. هل كانت تعتاد ارتداءه؟".

أخذ يفكر للحظات، ثم قال: "لم ألحظ ذلك أبداً".

"لكن كان هناك في إصبعها أثر يدل على أنها ترتديه لفترة طويلة".

"فقد كانت ترتديه إذن".

"أود أن أقول لك يا سيدي أنني لو كنت جنرالاً لما ترددت في أن أعينك مساعداً لي".

"ولـو كـنت أنت الجنرال يا سيد برينير، لكنت ستحتاجني لأكون مساعدك. طاب صباحكما". وأغلق الباب الأخضر من خلفنا، حيث سرنا عبر الممشى إلى الشارع.

قالـت لي سينثيا: "كدنا نقترب أكثر من عتبات السر الدفين بين آن ووالدها، إلا أننا وصلنا إلى طريق مسدود".

"هذا صحيح" وقلت بالرغم من الصورة المجازية التي تقصدها هنا: "إلا أننا أصبحنا علـى يقين من وجود سر ما، ونعلم الآن أن خلفيات من قبيل ما كانت تتصوره من عدالة مفقودة وغضب لا مبرر تجاه والدها أمور لا أساس لها. بالنسبة لي على الأقل".

فتحت سينثيا باب السيارة وهي تقول: "وبالنسبة لي أيضاً".

دلفت إلى جوارها قائلاً: "ألاحظت تلك النظرة في عيني زوجة الكولونيل فاولر؟".

"بلى".

"بالإضافة إلى كون أن الكولونيل فاولر بحاجة إلى ساعة مضبوطة فيما يبدو".

"بالفعل".

الفصل الثاني والعشرين

سألتني سينثيا: "هل نتناول الفطور أم نتجه إلى مدرسة الحرب النفسية؟".

"بل إلى مدرسة الحرب النفسية. وسوف نعتبر أن الكولونيل مور هو فطورنا".

لكل منزل في بيثاني هيل لافتة بيضاء موضوعة على الطريق عليها أحرف سوداء تشير إلى صاحب المنزل، وعلى بعد خمسة منازل من منزل الكولونيل فاولر رأيت لافتة تشير إلى "منزل الكولونيل كينت وحرمه"، فأشرت إليها وأنا أقول لسينثيا: "أتساءل عن المكان الذي سيعيش فيه كينت الشهر القادم".

"آمل ألا يكون ليفينورث في كنساس. وإلا سوف أشعر بالأسى عليه".

"إن الناس هم من يصنعون حظهم التعس".

"عليك أن تتحلى ببعض الرحمة يا بول".

"بالنظر إلى كم الفساد القائم هنا، فسوف يكون هناك كم كبير من الاستقالات، والتقاعدات، والانتقالات، بل وبعض من حالات الطلاق، مع إمكانية تجنب عقد محاكم عسكرية للنظر في تلك الأفعال التي تسيء إلى العسكرية... وعندها سيحتاجون إلى بناية كاملة في سجن ليفينورث، يسمونها بناية عشاق آن كامبيل. هل يمكنك أن تتصوري هذا الأمر؟ قرابة العشرين ضابطاً سابقاً متجاورين في زنازينهم...".

"أعتقد أنك خرجت عن نطاق الرحمة تماماً".

"معكِ حق. أنا آسف".

غادرنا بيثاني هيل لندخل وسط السيارات المنطلقة في الصباح الباكر عبر القاعدة – سيارات الجيب وناقلات الجنود، حافلات المدارس وناقلات المؤن، سيارات مدرعة وسيارات الضباط، بالإضافة إلى الجنود المتنقلين أو الذين يركضون في تشكيلات منتظمة؛ آلاف الرجال والنساء في حال حركة مستمرة، بشكل لا يختلف من الظاهر عن أية بلدة أميركية في الساعة الثامنة صباحاً. وقد تبدو الحياة مملة في القاعدة خلال أوقات السلم، إلا أن مكان مثل فورت هادلي يكون أفضل بأي حال من الأحوال من الجبهة في وقت الحرب.

علقت سينثيا قائلة: "لدى البعض مشكلة في تحديد الوقت بدقة. لقد أوشكت على أن أقتنع بما ذكره الكولونيل فاولر من تسلسل زمني للأحداث، لولا ما اكتشفته من تناقض في التوقيتات".

"أعتقد أنه قد أجرى المكالمة في وقت أبكر من هذا بكثير".

"أتعلم معنى ما تقوله يا بول".

"أقول بأنه كان يعلم بأنها قد لقت مصرعها، ولكن كان عليه أن يجري المكالمة حتى يرسخ في أذهاننا أنه كان يعتقد أنها حية وأنها فقط قد تأخرت عن موعدها. إلا أنه لم يكن يعلم بأننا سنكون في منــزل المجني عليها في ذلك الوقت المبكر".

"هذا أحد التفسيرات، ولكن كيف علم بأنها قد لقيت مصرعها؟".

"لـــيس هناك سوى ثلاثة سبل: أن أحدهم أخبره بهذا، أو أنه قد اكتشف الجثة بشكل ما، أو أنه هو من قتلها".

"إنه لم يقتلها".

فرمقتها وأنا أقول في سخرية: "لقد أعجبك الرجل إذن".

"إنه يعجبني بالفعل. ولكنه بخلاف ذلك ليس هو بالذي يقتل".

"كلنا قتلة يا سينثيا".

"هذا ليس صحيحاً".

"ولكن الدافع متوافر لديه".

"بلـــى. فدافعـــه هـــو أن يحمي الجنرال وأن يتخلص من أحد مصادر الفساد في القاعدة".

أومـــأت مـــوافقاً وقلت: "فهذا من نوعية الدوافع التي تحقق منفعةً للغير، وهذا كافٍ بالنـــسبة لرجل بشخصية الكولونيل فاولر لأن يرتكب جريمة قتل. إلا أن من المؤكد كذلك أن لديه دافعاً شخصياً".

"ربما". انعطفت سينثيا بالسيارة في الطريق المؤدي إلى مدرسة الحرب النفسية.

قلت: "لو لم ننل من الكولونيل مور ذي الشعر الأجعد هذا، فلسوف يكون الكولونيل فاولـــر في مقدمة القائمة والسبب هو تلك المكالمة الهاتفية وحدها، ويمكن أن نضيف تلك النظرة التي كانت على وجه زوجته".

"قد تكون محقاً... إلى أي مدى سنتعامل مع مور؟".

"لن نكشف جميع الأوراق".

"ألا ترى أن الوقت مناسب لأن نكشف له ما لدينا من أدلة تتمثل في شعره وبصماته وآثار إطارات سيارته؟".

"لـــيس بالـــضرورة. فلقد بذلنا جهداً لأجل التوصل إلى تلك الأدلة ومن ثم فلا داعي لأن نطلعه عليها. فأنا أريد أن يحفر لنفسه وبلسانه الهاوية التي سيستقر فيها".

اجتازت سينثيا لافتة تقول: "غير مصرح بالدخول لغير من يسمح لهم". لم تكن هناك نقطة خاصة بالشرطة العسكرية، إلا أن سيارتهم الجيب كانت تلوح من على البعد.

أوقفنا السيارة عند مقر المدرسة. وكانت اللافتة أمام البناية تقول: "موقف خاص بالعاملين"، ورايت هناك السيارة الفورد فيرلين الرمادية والتي يفترض أنها تخص الكولونيل مور.

دلفنا إلى المبنى، حيث كان هناك رقيبٌ يجلس إلى مكتب في الردهة الخالية للمبنى. فوقف قائلاً: "هل يمكنني مساعدتكما؟".

أظهرت له بطاقة الهوية وقلت: "نرجو أن تصحبنا إلى مكتب الكولونيل مور".

"سوف أتصل به سيدي القائد" كان يستخدم النداء الرسمي لمخاطبة ضابط برتبة مساعد. وأنا لا أميل إلى هذا النداء. فقلت له: "أعتقد أنك لم تسمعني أيها الرقيب. قدنا إلى حيث مكتبه".

"حاضر سيدي. اتبعاني".

اجتزنا الممر الطويل ذي الجدران الخرسانية، والمطلية بدرجة من الأخضر الجيري. لم تكن الأرضية مبلطة، بل مسواة بالملاط الإسمنتي الرمادي اللون. الأبواب من الصلب، وجميعها مفتوح، موزعة بحيث تكون المسافة بين كل منها قرابة الاثني عشر قدماً (3.50 متر)، وأمكنني أن أرى المكاتب الصغيرة للملازمين والنقباء، ربما كانوا جميعاً خبراء نفسيين. قلت لسينثيا: "أرجو أن تنسي نيتشه. فهذه منطقة مقتصرة على أتباع كافكا".

رمقني الرقيب، إلا أنه لم يعقب.

سألته: "هل حضر الكولونيل منذ مدة؟".

"منذ عشر دقائق فقط".

"أهي سيارته الفورد الرمادية تلك التي بالخارج؟".

"نعم، سيدي. هل تتعلق الزيارة بجريمة قتل كامبيل؟".

"ليست لأجل مخالفة سير على الأقل".

"حسناً سيدي".

"أين مكتب النقيب كامبيل؟".

"إلى اليمين من مكتب الكولونيل مور... إنه خالٍ الآن".

كنا قد وصلنا إلى نهاية الممر والذي ينتهي بباب مغلق، عليه لافتة تبين أنه "مكتب الكولونيل مور".

سألنا الرقيب قائلاً: "هل يتوجب أن أعلمه بوجودكما مسبقاً؟".

"كلا. نشكرك أيها الرقيب".

تردد ثم قال: "أنا...".

"ماذا؟".

"أنا أدعو الله أن تجدا القاتل". ثم استدار على عقبيه عائداً عبر الممر الطويل.

كـان آخر باب إلى اليمين مغلق بدوره، وتبينا من اللافتة أنه مكتب النقيب كامبيل. فتحت سينثيا الباب ودلفنا إلى الداخل.

كـان المكتب خالياً بالفعل، إلا من باقة زهور وضعت على الأرض. ولم تكن عليها أية بطاقة.

غادرنـا المكـتب وقطعـنا الخطوات القليلة إلى باب الكولونيل مور. دققت الباب، وسمعت مور ينادي من الداخل: "أدخل... أدخل".

دخلت أنا وسينثيا. كان الكولونيل مور منكباً إلى مكتب ولم يرفع عينيه إلينا. المكتب كبيـر، إلا أنـه قميء كبقية المكاتب التي مررنا بها. خزانة الملفات عند الجدار الأيمن، طاولـة اجـتماعات صـغيرة بالقرب من الجدار الأيسر، وخزانة معدنية مفتوحة بركن المكـتب، حيث علق الكولونيل مور سترته. كانت هناك مروحة تبعث الهواء عبر أرجاء المكـتب، متلاعبة بالأوراق المعلقة إلى لوح الجدار. وإلى جوار مكتب مور قبعت رمز الحكومة المطلق: آلة تقطيع الأوراق.

تطلـع الكولونيل مور إلينا. "ما... ما هذا...؟ أوه..." كان يتطلع فيما حوله، وكأنما يحاول أن يعرف الطريقة التي وصلنا بها إلى هنا.

قلـت لـه: "تأسف لدخولنا بهذه الطريقة، سيدي الكولونيل، إلى أننا كنا بالقرب من المكان. هل لنا أن نجلس".

"تفـضلا". أشـار إلى المقعدين أمام مكتبه. "ولو أني سأكون ممتناً لو أنكما حددتما موعداً قبل المجيء إلى مكتبي في المرة القادمة".

"أجل سيدي، ففي المرة القادمة سنحدد موعداً معك كي تأتينا في مبنى القيادة".

"عرفوني بالموعد مسبقاً".

مـثله مثل جميع الأكاديميين، فقد كانت اللهجة الغامضة في عبارتي السابقة قد فاتت الكولونـيل مـور. ولا أعـتقد أنه كان سيفهم مقصدي حتى لو قلت له صراحةً: "ستكون مقابلتنا القادمة في مقر الشرطة".

"هل من خدمة أقدمها لكما؟".

"في الحقيقة أود أن أطمئن مرة أخرى من أنك كنت بالمنــزل مساء الحادث".

"حــسناً.. لقــد كــنت بالمنــزل من الساعة 19:00 وحتى غادرته إلى المكتب في حوالى الساعة 7:30".

وهو تقريباً نفس وقت ذهابي مع سينثيا إلى فيكتوري جاردينــز. سألته: "هل تعيش وحدك؟".

"بلى".

"هل لأحد أن يشهد بأنك كنت بالمنــزل؟".

"لا".

"لقــد أجــريت مكالمــة مع مقر قيادة القاعدة في الساعة 23:00، حيث تحدثت مع النقيب كامبيل. أهذا صحيح؟".

"صحيح".

"هل كان للمحادثة علاقة بالعمل؟".

"أجل".

"ثم هاتفتها ثانيةً عند الظهر، حيث تركت لها رسالة على جهاز الرد الآلي".

"أجل".

"إلا أنك كنت تحاول أن تهاتفها منذ وقت أبكر من هذا، وكان هاتفها لا يستجيب".

"صحيح".

"ما هو الداعي إلى مهاتفتها؟".

"هــو مــا ذكــرته فــي تلك الرسالة... حيث إن أفراد الشرطة العسكرية قد جاؤوا وأفــرغوا مكتبها من محتوياته. وقد تجادلت معهم لأن هناك ملفات مصنفة بطريقة معينة، إلا أنهــم لــم يستمعوا إليَّ... إن الجيش يدار كدولة بوليسية. هل تدرك أنهم لا يحتاجون حتى إلى تصريح بالتفتيش قبل أن يقوموا به؟".

"ســيدي الكولونــيل، لــو أن هذا هو مقر شركة آي بي إم، فستجد أن أفراد الأمن سيقومون بالشيء نفسه وفقاً لأمر صدر من رئيسهم. فالكل من أشياء ومن بشر ملك للعم ســام. ولديك حقوقٌ دستورية خاصة بالتحقيقات الجنائية، إلا أنني لا أنصح بأن تحاول أن تستخدمها ما لم أقم بتكبيل يديك الآن واقتيادك إلى السجن. وعندها سيعمل الجميع – بمن فيهم أنا – على حماية حقوقك. فهل أنت على استعداد لأن تتعاون معنا هذا الصباح سيدي الكولونيل؟".

"كلا. إلا أنني سأتعاون معك وفقاً لشروطي".

"جـيد". تطلعت عبر أرجاء الحجرة. على الرف العلوي للخزانة الحديدية مجموعة أدوات عـناية شخـصية، والتي أفترض أن الفرشاة التي أخذناها كانت من بينها، وعندها تساءلت عما إذا كان مور قد انتبه لعدم وجودها.

نظرت إلى وعاء آلة تقطيع الأوراق، إلا أنه كان فارغاً، وهذه علامة جيدة. فلم يكن مـور بهذا الغباء أو تشتت العقل الذي يميز أمثاله؛ بل كان ذكياً في واقع الأمر. إلا أنه لم يكـن مـن الـنوع الحريص، لدرجة أنني لن أندهش لو وجدت على سطح مكتبه مطرقة وأوتاداً.

"سيد برينير؟ أود أن أعرفك بأني مشغول جداً هذا الصباح".

"بالطبع. فقد قلت لنا أنك ستساعدنا ببعض الأفكار السيكولوجية حول شخصية النقيب كامبيل".

"ما الذي تودان أن تعرفاه؟".

"ما السبب الذي دفعها إلى أن تكره أباها؟".

حـدق فـيَّ لبرهة، ثم قال: "أرى أنكما قد عرفتما بعض الأشياء منذ آخر حوار لنا معاً".

"أجـل سيدي، حيث أجريت مع الآنسة صنهيل الكثير من التحقيقات وقابلنا عدد من الأشخاص، حيث أخبرنا كلاً منهم ببعض الأشياء، ومن ثم قررنا أن نعاود مقابلة البعض، حـيث حـددنا بعدها ما علينا أن نعرفه ومن يتوجب أن نلتقيه، وفي النهاية سنلقي القبض على الجاني. إن عملنا بسيط مقارنةً بعمليات الحرب النفسية".

"أنت متواضع جداً".

"لماذا كانت تكره أباها؟".

تـنهد، وعـاد بظهـره إلى الوراء، ثم قال: "لنقل في البداية بأني أعتقد أن الجنرال كامبيل يعاني مما نسميه حب مرضي للتملك. أي أنه متمحور حول نفسه، محبٌ للسيطرة، ولا يتـسامح مع أي نقد يوجه له، كما أنه يميل إلى الكمال، ومن الصعب أن يظهر حقيقة عواطفه، رغم أنه شديد الكفاءة".

"أنـت بهـذا تـصف قـرابة التسعين بالمائة من جنرالات الجيش. وما علاقة هذا بسؤالي؟".

"فـي الحقـيقة أن آن كامبيل لم تكن تختلف عنه كثيراً، وهو أمر عادي بالنظر إلى الـصلة بيـنهما. وهكذا نجد أن هناك شخصيتين متشابهتين ينضجان في نفس المنـزل، أحـدهما رجـل كبير، وأب، أما الآخر فهي أنثى أصغر منه، ابنته. فبذور بداية المشكلة متوافرة".

"المشكلة تعود إذن إلى طفولة تعسة".

"ليس بالضبط. فقد كانت العلاقة جيدة في البداية. فقد كانت آن تعتبر والدها قدوتها، كما أن والدها رأى فيها تحقيقاً لآماله. فالحقيقة أن آن كانت تصف لي السعادة التي كانت تعيشها خلال طفولتها وعلاقتها القوية بوالدها".

"بعدها ساءت الأمور؟".

"أجل. وكان هذا متوقعاً. فحينما كانت طفلة، عملت على أن تنال رضا والدها. ولم يجد الأب فيها تهديداً لسيادته معتبراً إياها جزءاً من العالم الذي يسيطر عليه. ولكن مع نضجها بدأ الطرفان يريان في بعضهما البعض خصالاً تنفر كل منهما من الآخر. والمفارقة هي أن تلك الخصال كانت أسوأ ما فيهما، إلا أن البشر غير موضوعيين عند تحديد الخصال السيئة لديهم. كما أن كل منهما بدأ يعمد إلى تحقيق سيادته على عالمه، وبالتالي أخذا في انتقاد بعضهما البعض. وحيث إن كلاً منهما بطبعه رافض للنقد، وحيث إن كليهما كان في الواقع يتصف بالكفاءة، فكان من المنطقي أن يصلا إلى ما وصلا إليه".

"هل حديثك هذا عام، أم بالتحديد عن الجنرال والنقيب كامبيل، الأب وابنته؟".

تردد للحظة، ربما لاعتياده هذا قبل أن يبوح بمعلومة هامة. ثم قال: "قد أتحدث في العموميات، إلا أن هذه هي الاستنتاجات التي لا بد من أن تصل أنت إليها".

"حسناً.. لو كنت أنا والآنسة صنهيل نسأل أسئلة محددة، بينما تقدم أنت إجابات عامة، فستكون النتيجة هي تضليلنا".

"لا أعتقد هذا، ولا تحاولا أن تقنعاني بأنكما لم تفهما مقصدي".

"لنعد إلى موضوعنا... لقد قيل لنا أن آن قد شعرت أنها في حالة تنافس مع أبيها، وأدركت أن ليس بوسعها أن تنافسه في عالمه هذا، وبدلاً من أن تحاول الانسحاب من المنافسة، قررت أن تدمر سمعته".

"من أخبرك بذلك؟".

"لقد ذكره لي شخص قام باستشارة خبير نفسي".

"هذا الخبير النفسي مخطئ، حيث إن الشخصية المحبة للتملك والسيطرة دوماً ما تؤمن بقدرتها على المنافسة وسوف تصر على البقاء في حلبتها مع خصمها رأساً برأس".

"فليس هذا إذن هو السبب الحقيقي لكراهية آن لأبيها... فهما لم يجدا غضاضة في منافسة بعضهما البعض".

"هذا صحيح.. حيث إن السبب الحقيقي لمقتها لأبيها كان الخيانة".

"الخيانة؟".

"أجـل. فلـم تكن آن كامبيل لتكتسب مقتاً لا سبب له تجاه والدها بسبب التنافس أو الغيرة أو الشعور بعدم التكافؤ. فبصرف النظر عن القدر المتنامي من التنافس فيما بينهما – وهـو أمر ليس سيئاً بالضرورة – فإنها كانت تحب والدها حباً جماً حتى اللحظة التي خانهـا فيها. ولقد كانت تلك الخيانة من الدرجة التي سببت لها ألماً ودماراً نفسياً. فالرجل الذي أحبته وأعجبت به ووثقت فيه أكثر من أي شخص آخر خانها وكسر قلبها... هل يعد ما قلته محدداً الآن؟".

بعد بضع لحظات من الصمت، مالت سينثيا إلى الأمام وهي تسأله: "كيف خانها؟".

لم يجبها مور، واكتفى بالنظر إلينا.

فسألته سينثيا: "هل اغتصبها؟".

هزّ مور رأسه نافياً ذلك.

"فكيف إذن؟".

"لا تهم الكيفية التي خانها بها. فما يهم هو أن الخيانة كانت من النوع الذي لا يغتفر".

قلت له: "أرجو ألا تحاول التلاعب بنا أيها الكولونيل. ما الذي فعله بها؟".

تفاجـأ مـور بأسـلوبي هذا، لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وهو يقول: "لا أعرف".

فعلقـت سـينثيا قائلةً: "لكنك تعلم بأن الأمر لم يكن اغتصاباً أو ممارسة للجنس مع ابنته".

"أجـل. أعلم هذا لأنها أخبرتني بأن الأمر لم يكن كذلك. فعندما تناقشنا في الأمر لم ترغب سوى في وصف الأمر بأنه خيانة وحسب".

فقلت له ساخراً: "ربما نسي أن يقدم لها هدية عيد ميلادها إذن".

بـدا الكولونيل مور حانقاً من تعليقي، وهو الأمر الذي تعمدته من سخريتي. فقال: "كـلا يا سيد برينير، فعادةً ما لا تكون الأمور بهذه التفاهة. لكنني آمل أن تفهم أنه عندما يحب المرء شخصاً ويثق به، ويقوم ذلك الشخص بخيانته بشكل مفاجئ ومؤلم – أي ليس بصورة يمكن الصفح عنها كما اقترحت، ولكن بشكل شخصي عميق لا يغتفر – فعندها لا يمكـن أن تغفـر لذلك الشخص... ومن أمثلة ذلك تلك الزوجة المحبة التي تقدس زوجها ومن ثم تكتشف أنه على علاقة غرامية بامرأة أخرى".

فكـرت فـي الأمر أنا وسينثيا للحظات، وأعتقد أن نفس الأفكار الشخصية قد مرت بعقلينا، والتزم كلانا الصمت.

وفي الأخير قال مور: "وهاكما مثال آخر: أن تحب شابة ناضجة والدها وتقدس كل أفعالـه. وذات اليوم يصل إلى سمعها كلامه مع صديق أو زميل عمل، ويقول الأب عن

ابنـــته: "إن جين فتاة غريبة الأطوار، فهي تفضل البقاء في المنـــزل، وتسرح بخيالها في الشباب الذين لن تتمكن من مواعدتهم لأنها غير لبقة وشديدة الصراحة. كم آمل أن تخرج مـــن المنــــزل بين الحين والآخر، أو أن تنفصل بحياتها عنا". نظر إلينا، ثم تابع كلامه: "ألـيس هـــذا كافـــياً لأن يحبط فتاةً تجد في والدها مثلاً أعلى؟ أليس كافياً بأن يحطم كل آمالها؟".

لا شـــك في ذلك. فلقد أشفقت أنا نفسي عليها، أنا الذي لا أعد نفسي من بين مرهفي المشاعر. فقلت له: "أتعتقد أن الأمر يتعلق بشيء من هذا القبيل؟".

"ربما".

"إلا أنك لا تعلم يقيناً حقيقة تلك الخيانة. فما السبب في عدم إخبارها لك بحقيقة الأمر؟".

"فـــي الغالب ما يكون من الصعب أن تناقش مثل هذا الأمر، لأن هذا سيستدعي من الخبيـــر النفـــسي أن يسبدي رأيه أو تقييمه للأمر، وهو ما لا يحتمله المريض، حيث إن المـــريض يعلـــم أن الخيانة قد لا تبدو على هذا القدر من القسوة في نظر من يستمع إلى الموضـــوع بشكل محايد. على أن الخيانة أحياناً ما تكون قاسية وفقاً لأية معايير – ومن ذلك زنى المحارم. لم يكن الأمر كذلك، لكني أعتقد أنها كانت خيانة مروعة".

أومـــأت وكأنمـــا أتابع كل ما يقوله، وهو ما أفترض أني كنت أفعله. إلا أن السؤال بقي كما هو، فسألته: "هل تستطيع أن تخمن نوعية تلك الخيانة؟".

"كلا، كما أن ليس عليَّ أن أعلم ما قد يكون والدها اقترفه في حقها. كل ما عليَّ أن أعلمه هو أنه قد خانها، وأن تلك الخيانة مؤلمة. مما أدى لانعدام كامل للثقة، بحيث لم تعد العلاقة أبداً كما كانت بينهما".

حاولت أن أطبق معايير الخاصة على كلامه هذا، إلا أنني فشلت. فيتوجب عليك في عملـــي هـــذا أن تعرف الإجابة على ستة أسئلة: من، ما، أين، متى، كيف، ولماذا. وربما كـــان مـــور يعـــرف الإجابـــة على "متى" على الأقل، لذا سألته: "متى؟ متى حدثت تلك الخيانة؟".

"منذ عشر سنوات".

"لقد كانت في أكاديمية ويست بوينت وقتئذٍ".

"هذا صحيح. كانت في السنة الثانية من دراستها".

"فهمت".

سألته سينثيا: "ومتى بدأت تحاول الثأر منه؟ أعتقد أن هذا لم يحدث فوراً".

"كلا. ليس على الفور. فقد مرت بما هو متوقع من مراحل الصدمة والإنكار ومن ثم الاكتئاب، وفي النهاية الغضب. فقد قررت منذ ست سنوات مضت أن تثأر لنفسها بدلاً من

أن تستسلم للأمر. وقد أصبحت غير مستقرة نفسياً نوعاً ما، وبعدها أصبحت أسيرة لفكرة أن الثأر وحده هو الذي سيصحح لها مسار حياتها".

سألته: "ومن هو الذي وضعها على طريق الانتقام؟ أنت أم نيتشه؟".

"أنـــا أرفض أن أتحمل مسؤولية ما قامت به تجاه والدها يا سيد برينير. أما بوصفي خبيراً نفسياً، فإني قد أديت واجبي بالإنصات لها فقط".

فعلقـــت سينثيا: "كان من الأفضل لها إذن أن تبوح بما في نفسها لأي طائر طالما لم تسدي لها أنت بنصيحة. ألم تنبهها إلى أن ما تقوم به سيدمرها؟".

"بالطبع. فهي من الناحية الطبية ترتكب فعلاً خاطئاً، وقد نبهتها إلى هذا. إلا أنني لم أقم أبداً بالتخطيط لها، كما يوحي السيد برينير".

قلـــت: "لـــو كانت حملة الثأر هذه موجهةً إليك أنت، فمن المؤكد أنك لم تكن لتكتفي بهذا الحياد المهني".

حـــدق فـــيَّ وقال: "أرجوك أن تفهمني، أحياناً ما لا يرغب المريض في أن يبدأ العـــلاج بأســـلوب استشفائي، بل يرغب في أن يسوي الأمر بطريقته هو، وعادةً بما يكون هذا بمفهوم العين بالعين، أي أنك قد خنتني، فسوف أخونك بدوري. أنت أغويت زوجتـــي، إذن فلـــسوف أغوي زوجتك. وعادة ما لا يكون من الواقعي أو الممكن أن تحاول أن تنتقم بنفس الطريقة التي وقع عليك بها الفعل. إلا أنه قد يتحقق أحياناً. فعلم النفس التطبيقي يقول بأن هذا الأسلوب غير صحي نفسياً، إلا أن الشخص العادي يعلم بالفعل أن الانتقام تصرف مريض. فالمشكلة هي أن الانتقام يتخذ منحىً ذهنياً، ويصبح المنتقم أداة تنفيذ ليس إلا".

فقلـــت له: "أفهم ما تقوله، كولونيل مور، على أني أتساءل عن السبب في أنك تصر علـــى الـــتحدث بأســـلوب تخصصي وبشكل تعميمي. هل هذه وسيلة تحاول بها أن تنأى بنفسك عن المأساة؟ أو تفادي تحمل أية مسؤولية شخصية؟".

لم يعجبه كلامي، فقال: "إنني نادم لكوني عجزت عن أن أساعدها، أو أنني قد أكون شجعتها على القيام بما قامت به".

"سواءٌ أكنت نادماً أم لا، فيبدو لي أن هناك كثيراً من الشكوك حولك".

"إننـــي لـــم ألـــقَ أي تقدير في هذه القاعدة على عملي هنا أو على ما تقوم به هذه المدرسة أو في علاقتي مع آن كامبيل، كما لم يفهمني أحد".

"أستطيع أن أتفهم هذا. فلقد شاهدت بعض من محاضرات كامبيل المسجلة بالفيديو، وأرى أنكم تقومون بمهام حيوية. ولكن قد يكون توجهك هو الذي يثير أعصاب الآخرين".

"إن كل ما نقوم به هنا معتمد من قبل القيادة العليا".

"أنـــا ســـعيد لمعرفتي بهذا. إلا أنني أعتقد أن آن كامبيل قد طبقت بعضاً مما تعلمته عند محاولتها الثأر".

لم يرد مور على هذا التعليق.

فسألته: "هل تعلم السبب الذي دفع آن كامبيل إلى الاحتفاظ بملفات الجلسات العلاجية للمجرمين؟ ومن ارتكبوا جرائم جنسية؟".

فكّر للحظات، ثم أجاب: "أنا لم أكن أعلم بهذا. ولكن لو أنها فعلت، فربما كان لسبب يخـصـها. فمـــن المعتاد أن تجد لكل خبير نفسي هنا مشروعه وبحثه الخاص. وعادة ما يكون هذا لأجل نيل درجة الدكتوراه".

"يبدو هذا منطقياً".

سألته سينثيا: "ما هو شعورك تجاه علاقاتها الجنسية مع العديد من الرجال؟".

لم يجبها في البداية، ولكنه قال: "في الحقيقة... من أخبرك بهذه المعلومات؟".

"الجميع ما عداك أنت".

"أنتِ لم تسأليني أبداً عن ذلك".

"هـــا أنـــا أســـألك الآن. ما هو شعورك شخصياً تجاه علاقاتها الجنسية مع الرجال، والتي كان دافعها الوحيد هو النيل من سمعة أبيها؟".

سعل في كفه، ثم أجاب: "كنت أرى أنه تصرف غير حكيم، خاصة للدوافع التي من أجلها أقامت تلك العلاقات..".

"أشعرت بالغيرة؟".

"بالطبع لا.. فأنا...".

"هل شعرت بأنها قد خانتك؟".

"بالطـــبع لا. فعلاقتنا معاً علاقة جيدة، دافعها فكري فقط، كما أنها قامت على الثقة المتبادلة".

وددت أن أسأله عما إذا كانت تلك العلاقة تتضمن أن يقيدها إلى الأرض عاريةً، إلا أننـــي كنت أريد أن أعرف أولاً السبب الذي دفعه إلى ذلك. وأظن أنني بدأت أعلم السبب الآن. وبخلاف البحث عن القاتل، فإني بدأت أرى أن حياة آن كامبيل – طبقاً حول ما قاله مور حتى الآن – وتعاستها موضوع يستحق أن نفهمه.

قـــررت أن أجـــرب حظي معه، فقلت: "أفهم أنك تقدمت أثناء وجودك أنت وآن في الخليج ببرنامج التدريبات على الحرب النفسية".

"لي الحق في ألا أتحدث عن هذا الموضوع".

"لقد كان لدى النقيب كامبيل إيمان قوي في سطوة الجنس كوسيلة لتحقيق أهدافاً قد لا يكون ليس لها صلة مباشرة به. أهذا صحيح؟".

"آ آ... أجل. كانت ترى هذا".

"وكما قلت. فقد شاهدت سلسلة محاضراتها المسجلة، ويمكنني أن أتبين المنهج الذي تتبـناه. وأنا لا يمكن أن أنكر سطوة الجنس، فأنا أراه قوة تدفع للخير، بوصفه تعبيراً عن الحب والحنان. إلا أن آن كامبيل قد حولته بشكل ما إلى المسار الخطأ. هل تتفق معي في هذا؟".

قد يكون متفقاً معي، إلا أنه أجاب: "ليس الجنس خيراً أو شراً في حد ذاته. إلا أنني مـتفق معك في أن البعض – وأغلبهم من النساء – يستغله كأداة، سلاح لتحقيق أغراض ما".

فالتفت إلى سينثيا قائلاً: "هل توافقينه على هذا الكلام؟".

بـدا عليها بعض الامتعاض، إلا أنني لم أكن متيقناً من مصدر هذا الامتعاض، هل كان هو أم أنا. على أنها ردت بقولها: "أتفق معكما على أن بعض النساء يستخدمن الجنس – أحـياناً – كـسلاح، على أن من المفهوم أن هذا سلوك غير مقبول. وبالنسبة لحالة آن كامبـيل فقـد تكون رأت في الجنس سلاحها الوحيد ضد ما شعرت به من ظلم، أو ضد شـعورها بافـتقاد القوة. وأعتقد، كولونيل مور، أنك لو عرفت بأنها كانت تفعل هذا، فإن واجبك الأخلاقي – ولن نتحدث عن كونك قائدها المباشر – كان يحتم عليك أن توقفها عند حدها".

حدق الكولونيل مور في سينثيا بعينيه الضيقتين، وقال: "لم يكن من سلطاتي أن أمنعها".

فـبادرته: "وما السبب؟ ألست ضابطاً؟ ألم تكن صديقها؟ ومن المؤكد – بما أنك لم تقـع فـي غـرامها – أنه كان بوسعك أن تتحدث معها بشكل عقلاني. أم أنك وجدت في تجاربهـا الجنـسية هـذه ما يشبع فضولك العلمي؟ أم أنك كنت تتلذذ بمراقبتك لمغامرتها الجنسية مع العديد من الرجال؟".

فنظـر مـور إلـيَّ قائلاً: "إنني أرفض الإجابة على هذه الأسئلة، أو الكلام مع هذه السيدة".

"لا يمكنك أن تبدي رفضك للأسئلة، ما لم نقرأ عليك حقوقك كمتهم، وهو ما لا أنوي أن أفعله هذه المرة. أعلم أن الأسئلة تثير حنقك، إلا أنني أعدك بأن تتوخى الآنسة صنهيل كلماتها وتصيغ هذه الأسئلة بصورة تمكنك من الإجابة عنها".

بـدا لـي أن الكولونيل مور لم يجد أية ميزة في أن يتبع هذا الأسلوب، لذا فقد هزّ رأسه متفهماً وعاد بظهره إلى الوراء. وكأنما يقول "إنني أستسلم لأسئلتكما".

استعادت سينثيا هدوءها، وسألته بلهجة محايدة: "متى رأت آن كامبيل أنها قد حققت انتقامها؟".

لم ينظر مور إلى أي منا، ولكنه أجاب بلهجة محايدة بدوره: "من المؤسف أنها لم تكن لتصل إلى نقطة تجد فيها أن ما فعلته بوالدها أمر كاف. فالجنرال كامبيل كان يمثل جانباً من جوانب هذه المشكلة". ثم ابتسم قليلاً وهو يتابع "فهو جنرال لن يقر بأن هناك أي ضرر قد لحق به، دعك من أن يقر بهزيمته وأن يرفع الراية البيضاء. وهو لم يحاول على حد علمي أن يطلب هدنة من هذا القتال الشرس، بل ولم يطلب كذلك أية محادثات سلام، هذا إن كنا سنستخدم التعبيرات العسكرية. فقد شعر بأن أياً مما قد كان اقترفه تجاهها قد أصبح بلا أهمية بعد الذي فعلته به".

قالت سينثيا: "بمعنى آخر، أنهما كانا على قدر من العناد الذي يمنعهما من التفاوض. فهو لم يعتذر أبداً عن خيانته لها".

"بل فعل في الواقع، إلا أن من الممكن أن تتخيلا نوعية الاعتذار الذي قد يبدر من مثل هذا الرجل".

فعلقت سينثيا: "من السيئ أن هناك الكثير من الأبرياء الذين تأذت سمعتهم بسبب هذه الحرب الشرسة بينهما".

رد مور بأسلوب عاقل مفاجئ: "هذه هي الحياة، وهذه حرب. فما الذي اختلف؟".

قلت لنفسي، تماماً كما قال أفلاطون: "الأموات فقط هم من عرفوا نهايةً للحروب".

سألته سينثيا: "حينما غادرت المنزل صباح الجريمة، ألم تلاحظ أن سيارة آن كامبيل لم تكن أمام منزلها؟".

فكر للحظة، ثم قال: "قد أكون لاحظت هذا. بشكل لا واعٍ".

"أليس من المعتاد أن تلاحظ وجود سيارتها؟".

"كلا".

"فأنت لم تعلم أبداً ما إذا كانت مرؤوستك، وجارتك، وصديقتك ما تزال في المنزل، أو أنها في الطريق إلى المكتب".

"أعتقد أنني أعلم بهذا في أغلب الأيام".

"هل حدث أن ذهبتما إلى العمل معاً في سيارتها؟".

"أحياناً".

"ألا تعلم بأنه قد كان من المفترض أن تتوجه النقيب كامبيل لتناول الإفطار مع أبويها ذلك الصباح؟".

"كلا... ولكن بما أنكما تعرفان بالأمر، فإني أقول بأنها قد أخبرتني بهذا".

"ما كان الغرض من لقاء الإفطار هذا؟".

"الغرض منه؟".

"هل من المعتاد أن تجتمع أفراد تلك العائلة معاً؟".

"أعتقد أنه لم يكن شيئاً معتاداً".

"لقد علمت، سيدي الكولونيل، أن الجنرال كامبيل قد أنذر ابنته بخصوص سلوكها هذا وطلب منها أن تختار خياراً من بين عدة خيارات، وأن رد آن كامبيل على ذلك كان سيتم أثناء ذلك الإفطار. أهذا صحيح؟".

بدا الاضطراب للمرة الأولى على وجه الكولونيل مور، فربما كان يتساءل عن قدر ما لدينا من معلومات وعن مصادر تلك المعلومات.

"أهذا صحيح؟".

"لقد... لقد أخبرتني بأن أباها يريد أن يسوي المسألة".

بادرته سينثيا بحدة: "سيدي الكولونيل، إما أنها قد أخبرتك بكل شيء أو أنها لم تخبرك بشيء. إما أن تكون قد ذكرت لك أشياء من قبيل إنذار مشروط، ومحاكمة عسكرية، وعلاج نفسي، واستقالة من الخدمة العسكرية أو أنها لم تخبرك بشيء. فهل كانت تثق بك أم لا، وهل طلبت نصيحتك أم لا؟".

من الواضح أن الغضب قد انتاب الكولونيل مور مجدداً بسبب أسلوب سينثيا، إلا أنه كان مضطرباً بسبب تلك المسألة، والتي من الواضح أنها قد لامست وتراً حساساً لديه. فربما لم يكن يتصور أننا سنحصل على هذا الكم المفاجئ من المعلومات، لذا فقد أجابها: "لقد أخبرتكما بكل ما أعرفه. وهي لم تخبرني بما قدمه لها من خيارات، كما أنها لم تطلب نصيحتي أبداً. فقد أخبرتكما بأنني أكتفي بالإنصات لها بوصفي معالجها النفسي، وكنت أحد من قدر أسئلتي لها، ولا أتطوع بالنصيحة إلا حينما تطلبها هي".

فردت سينثيا بالقول: "لا أصدق أن هناك رجلاً قادراً على التحلي بكل رباطة الجأش هذه تجاه امرأة يعرفها منذ ست سنوات".

"فأنتِ لم تفهمي طبيعة العلاج النفسي إذن. فمن المؤكد أنني كنت أقدم لها النصيحة فيما يتعلق بعملها العسكري والمهمات التي تناط بها، وغير هذا، بل وحتى النصائح الشخصية التي تتعلق بالحياة والعطلات، وهذا القبيل. أما مشكلاتها العائلية فلم تكن تناقش سوى خلال جلسات العلاج – وهي جلسات ننفصل بها عن بقية جوانب حياتنا. وهو الأمر الذي كنا نتفهمه ولم نحد عنه أبداً. فتجدين أن الأطباء مثلاً لا يبدون قبولاً للأصدقاء الذين يطلبون منهم تشخيص مرض ما بينما يكونون داخل ملعب الجولف مثلاً، وكذلك المحامي

الذي له دور تقديم المشورة القانونية داخل المحاكم فقط. ونحن لا نختلف في شيء عن هؤلاء".

"أشكرك على هذه المعلومة، سيدي الكولونيل، أرى أن منطقك قوي. فهل لي أن أفترض إذن أن الفرصة لم تتح للقتيلة أن ترتب لموعد جلسة كي تناقش معك أمر هذا الإنذار؟".

"هذا صحيح".

"أتعني أنه بعد كل هذه السنوات من المعاناة والتعاسة والغضب، وبعد أن أصبحت الأمور على وشك أن تتم تسويتها، أصبحتما فجأة على درجة من الانشغال تمنعكما من مناقشة هذا".

"لقد كانت آن هي من قرر ألا نناقش هذا الأمر معي. على أننا قررنا أن نلتقي بعد أن تتحدث مع أبيها. وفي الحقيقة فقد كان من المقرر أن نلتقي ظهيرة اليوم التالي".

قالت سينثيا: "لا أصدقك أيها الكولونيل. فأنا أعتقد أن هناك صلة بين إنذار الجنرال وبين ما حدث لها، وأنت تعلم طبيعة تلك الصلة".

هنا نهض الكولونيل مور قائلاً: "لن أسمح لكِ بأن تنعتيني بالكذب".

نهضت سينثيا بدورها لتنظر إليه في تحدٍ مماثل. "نحن نعلم بالفعل أنك كاذب".

كان هذا صحيحاً. فنحن نعلم بأن مور كان بساحة الرماية رقم ستة مع آن كامبيل، وأعتقد أن مور قد أيقن الآن من أننا نعلم هذا. فكيف لنا من دون هذه الخلفية أن نعمد إلى الإساءة إلى من كان بمثل رتبته؟ أصبحنا الآن عند عتبة إلقاء القبض عليه، وأنا لا أرغب في هذا الآن. لذا نهضت بدوري قائلاً: "نشكرك على وقتك أيها الكولونيل. نرجو ألا تهتم بتقديم شكوى إلى الكولونيل كينت... سوف أطلب من أحد أفراد الشرطة العسكرية أن يقف لدى باب مكتبك يا سيدي، ولو أنك حاولت تمزيق أية ورقة أو أن تحمل أي شيء مما هو هنا إلى الخارج، فلسوف تكون قيد الاحتجاز".

كان يرتجف الآن، إلا أنني لا أعلم إن كان هذا غضباً أم خوفاً، كما أنني لم أهتم بأن أعرف من الأصل. قال: "لسوف أوجه إليكم اتهامات رسمية".

"لو كنت مكانك لما فعلت هذا. فنحن نمثل آخر أمل لك في تفادي الفضيحة – أم سيصل الأمر إلى كتيبة الإعدام؟ لا أدري. فمن النادر أن أتسبب في إعدام أحد. فعليك ألا تثير غضبي، وأنت تعلم مقصدي. طاب يومك أيها الكولونيل".

تركنا مكتبه وهو لا يزال في مكانه واقفاً، يفكر في ما هو متاح أمامه من خيارات، ومن المؤكد أنها لا تشمل أي مما قد يثير غضبي.

الفصل الثالث والعشرون

ركنت سينثيا سيارتها في الموقف الخاص بقيادة الشرطة العسكرية، على بعد بسيط من سيارتي البليزر. وبينما ترجلنا متجهين نحو المبنى، رأينا ثلاث عربات فان خاصة بمحطات إخبارية ومجموعة من المحتشدين عند بوابة المبنى، كان من الواضح أنهم صحفيون. شاهدونا قادمين، ولا بد من أن هناك من دلهم على أوصافنا، لأنهم هرعوا نحونا كسرب من الجراد. كما كنت قد ذكرت من قبل، فإن هادلي قاعدة مفتوحة، وبالتالي فمن الصعب أن تبعد عنها المدنيين، الذين يحق لهم أن يعرفوا كل شيء، حيث إنهم هم من يدفع الضرائب، إلا أن هذا كان آخر شيء أود أن ألاقيه الآن.

اقترب منا صحفي مهندم الملابس والشعر، ومعه ميكروفون، بينما لحق به من يحملون الأوراق والأقلام. وكنت قد لاحظت أن الكاميرات قد تحولت ناحيتنا. سألني: "هل أنت الضابط المساعد برينير؟" ثم قرب الميكروفون إلى فمي حتى لامس أنفي.

"كلا سيدي.. أنا هنا لأجل صيانة آلة تقديم الكولا". بقينا متجهين ناحية المبنى، إلا أن هذا الحشد ظل يحيط بنا حتى وصلنا إلى البوابة.

سألت إحدى الصحفيات سينثيا: "هل أنتِ الضابط المساعد صنهيل؟".

"كلا سيدتي، أنا مساعدة عامل صيانة آلة الكولا".

لم يصدقا ذلك بالطبع، وانهمرت الأسئلة علينا من هذا الحشد، إلى أن وصلنا في النهاية إلى عتبات المبنى، حيث كان يقف فردان ضخما الجثة من أفراد الشرطة العسكرية، مسلحان ببندقيتين من طراز إم 16. صعدت الدرج سريعاً، ثم التفت إلى ذلك الحشد الذي كان قد توقف، وقلت: "صباح الخير".

هنا هدأ حشد الصحفيين، وأمكنني أن أرى ثلاث كاميرات وقرابة عشرة مصورين يلتقطون الصور. قلت لهم: "إن التحقيق في قضية مقتل النقيب آن كامبيل لا يزال متواصلاً. لدينا عدة خيوط، ولكن لم نصل إلى مشتبه بهم بعد. على أننا نستغل جميع إمكانيات قاعدة فورت هادلي وإدارة التحقيقات العسكرية، إضافةً إلى الشرطة المدنية المحلية. ولسوف نحدد موعد مؤتمر صحفي في القريب العاجل".

وفجأةً انهمرت عليَّ الأسئلة، وأمكنني أن أسمع بعضها: "أحقاً تعرضت للاغتصاب؟".. "هل وجدتموها مقيدة وعارية؟"... "هل قتلت خنقاً؟".. "من تعتقد أنه

الفاعل؟"... "أليست هذه جريمة الاغتصاب الثانية هنا وفي غضون أسبوع واحد؟"... ومن بين الأسئلة المثيرة للاهتمام كان هذا السؤال: "هل حققتم مع صديقها، ابن قائد الشرطة؟".

كررت قولي السابق: "سوف تتم الإجابة على جميع أسئلتكم خلال المؤتمر الصحفي".

دلفت مع سينثيا إلى داخل المبنى، حيث وجدنا أنفسنا أمام الكولونيل كينت، الذي بدا غير سعيد. قال لنا: "لم أستطع أن أصرفهم من هنا".

"لا يحق لك هذا. وهذا هو الجميل في هذه البلاد".

"لكنهم سينتشرون عبر أرجاء القاعدة، بما في ذلك بيومونت، فعليّ أن أرسل إلى هناك كثير من أفراد الشرطة العسكرية. ولن يكون مسموحاً لهم الذهاب إلى ساحات الرماية أو إلى جوردان فيلد - فقد وضعت نقاطاً للشرطة العسكرية على الطريق. إلا أنهم سيبقون يتشممون الأخبار عبر جميع أرجاء هذا المكان اللعين".

"ربما كانوا أوفر حظاً منا".

"لا أحب أسلوبك هذا... هل لديك من جديد؟".

"لقد تحدثنا مع الكولونيل فاولر والكولونيل مور. وأريد منك أن ترسل اثنين من أفراد الشرطة العسكرية لحراسة مكتب الكولونيل مور في أسرع وقت ممكن، كما عليهما أن يراقباه كظله. ويحرصا على ألا يستخدم آلة تقطيع الأوراق، أو أن ينقل أي شيء من مكتبه".

"سأفعل. هل ستلقيان القبض على مور؟".

"لا زلنا نحاول أن نحصل على توصيف نفسي للقتيلة منه".

"من هو الذي يهتم بمثل هذا؟".

"أنا والآنسة صنهيل".

"لماذا؟ وما علاقة هذا بالكولونيل مور؟".

"في الحقيقة أننا كلما توصلنا إلى معلومات، كلما وجدنا أن الدافع لدى الكولونيل مور كي يقتل آن ضعيف. كما أنني أصبحت أرى أن هناك من لديهم دوافع أقوى".

بدا السخط على كينت وهو يقول: "اسمع يا بول، إنني أفهم ما تحاول القيام به حتى هذه اللحظة، وكذلك يفهمه الجميع. إلا أنك قد تجاوزت الحد، ولو لم تلقي القبض على مور الآن ومن ثم تبين فيما بعد أنه القاتل، وتم إلقاء القبض عليه من قبل المباحث الفيدرالية، فلسوف تكون في أسوأ موقف".

"أعلم هذا يا بيل. إلا أنني لو ألقيت القبض عليه الآن وتبين لي فيما بعد أنه ليس القاتل، فسوف أكون في موقف أسوأ".

"يا لك من مدعي".

"تباً لك".

"ماذا تقول؟! أنت تتحدث إلى قائدك هنا".

"إذن.. تــباً لـــك يا سيدي". انصرفت متوجهاً إلى مكتبي. وتبعتني سينثيا، أما كينت فلا.

وجـــدنا في مكتبنا مجموعة من الرسائل الهاتفية المدونة في استمارات بيضاء، وكم مـــن التقارير الخاصة بالبحث الجنائي والطب الشرعي، وغير ذلك من الأوراق المتوجب قراءتها، لكن نصفها لا يخصني. إن الجيش يهدر مرتبك، ويشتتك عبر أرجاء العالم، ولا يعتـــرف برصـــيدك من الإجازات - ولكن إن كانت هناك مهمة ستوكل إليك فسرعان ما يـــصبح مكانـــك معـــروفاً لتلقي كل هذه المراسلات، حتى ولو كنت متخفياً في شخصية أخرى، مستعيراً لمكتب لا يخصك.

علقت سينثيا بقولها: "لم يكن هذا الذي حصل ينم عن ذكاء".

"تقصدين نعته لي بالمدعي؟ بالفعل، معك حق".

"هذا أيضاً لم يكن من الذكاء، لكني قصدت سبك له".

"لا تقلقي". أخذت أقلب في مجموعة الرسائل الهاتفية.

بقيت سينثيا صامتة، ثم قالت: "لكنه قد أخطأ. أليس كذلك؟".

"هو يعلم هذا أيضاً".

"ومع هذا فلم يكن عليك أن تثير حنقه. فنحن بحاجة إليه، حتى ولو لم تكن له فائدة".

رفعت عيني ناحيتها وقلت لها: "ليس عليَّ أن أرفق بضابط أفقدني الثقة فيه".

"فيما عدا أن يكون اسمها آن كامبيل".

لم أرغب في الرد عليها.

"ما رأيك في تناول بعض الكعك المحلى مع القهوة؟".

"لا مانع عندي".

ضغطت سينثيا على زر الاستدعاء وطلبت من بيكر أن تحضر.

جلـــست وفـــتحت الملف الطبي لآن كامبيل، والذي كان سميكاً مقارنةً بسنوات خدمـــتها القلـــيلة، ممـــا حداني إلى الاعتقاد بأنها قد لجأت إلى أطباء مدنيين. فها هو تقريـــر مـــن طبـــيب أمراض النساء يعود إلى فترة التحاقها بويست بوينت، وقد دوّن طبيب ملحوظة تقول: "لا تهتك في الغشاء". أريت الملاحظة لسينثيا، وقلت لها: "أهذا يعني سلامة غشاء البكارة؟".

"بلى، سلامته من دون أي فتحة به. إلا أن هذا لا يمثل دليلاً مطلقاً على كونها كانت عذراء وقتها، إلا أن من غير المحتمل أن يكون قد دخل شيء كبير حتى تلك المنطقة".

"وهكذا يمكن أن نستبعد احتمال أن يكون والدها قد اغتصبها وهي صغيرة".

"بالفعل. إلا أن من غير الممكن أن نستبعد أية أنواع أخرى من الاعتداء الجنسي... إلا أنه يبدو لي أن الكولونيل مور كان صادقاً نوعاً ما في بعض ما قاله. فأياً كان ما فعله والدها بها، فقد كان فقط في السنة الثانية من دراستها بالأكاديمية، وأنا أشك في أن يكون بوسعه أن يغتصب ابنته التي تبلغ من العمر اثنتين وعشرين عاماً في ويست بوينت... إلا أن من المهم أن نعلم بأنها كانت عذراء حتى التحاقها بالأكاديمية. هل هناك من تقارير أخرى في هذا المجال؟".

نظرت فلم أجد شيئاً. وقلت: "إنها مفقودة فيما يبدو، وهذا غريب. وأنا أعتقد أنها كانت تتعامل مع أطباء خصوصيين ما أمكنها هذا".

"معك حق. فمن الصعب ألا تكون قد زارت أطباء أمراض نساء طيلة كل هذه الفترة". تأملت الأمر للحظات، ثم تابعت: "ما الذي يجعلني أعتقد أن ما حدث لها في ويست بوينت كان له علاقة بالجنس؟".

"لأنه أمر منطقي. أمر له علاقة بمبدأ العين بالعين".

"نعلم أن للأمر صلة بأبيها... ربما أجبرها على إقامة علاقة مع ضابط يعلوه رتبة، أو ربما...".

"أنت على حق. فنحن نقترب من هدفنا. لكن دعينا ننتظر حتى نعرف المزيد من المعلومات". أعطيتها الملف الطبي، "اقرأي تقرير الطبيب النفسي في آخر الملف".

حضرت بيكر فقدمتها إلى سينثيا. إلا أنني وجدت أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض من قبل. فقلت لبيكر: "ما رأيك؟".

"سيدي؟".

"من فعلها؟".

هزّت كتفيها ولم تجبني.

فرفعت سينثيا عينيها عن الملف وقالت لبيكر: "هل فعلها صديق لها أم غريب عنها؟".

فكرت للحظة، ثم قالت: "بل صديق... إلا أن لديها الكثير من الأصدقاء".

"حقاً.. هل طلب منكِ أحد هنا أو أي شخص من خارج المكان أن تعطيه معلومات عن القضية؟".

"بلى، سيدي".

"من؟".

"لقــد كــنت أتلقى المكالمات التي تأتيكما طيلة الأمس وصباح اليوم، وكان الجميع يــسأل عــنكما بإلحاح. هناك الكولونيل مور – قائد المجني عليها – والكولونيل فاولر – مساعد قائد القاعدة – والميجور بويس – قائد إدارة التحقيقات العسكرية – ورئيس شرطة مــيدلاند ياردلــي، وكثير من الأشخاص الآخرين، بمن فيهم الصحفيون. ولقد دونت لكما جميع الرسائل".

"وهل كانوا يبدون فضولاً لمعرفة معلومات؟".

"أجل سيدي، إلا أنني كنت أطلب منهم أن يأخذوها منكم شخصياً".

"حسناً. أخبريني، هل تحدث أحد بمكتب القائد هنا معك بشيء مما يتوجب أن نعرفه؟".

فهمت المغزى من السؤال، وفكرت فيه، وفي النهاية قالت: "هناك الكثير من الكلام الذي يدور هنا، والكثير من الشائعات وأشياء قد تكون أو لا تكون صحيحة".

"هذا صحيح. لقد اكتشفت هذا بالفعل يا بيكر. وهذه معلومة قيمة، ولسوف أضمن لك ألا أذكــر اســمك كما أن يتم نقلك إلى أي مكان تودين الذهاب إليه، سواءٌ أكان هاواي، اليابان، ألمانيا، كاليفورنيا. ما تختارينه أنت. اتفقنا؟".

"أجل سيدي...".

"أخبريني أولاً عن الكولونيل كينت. ما الذي يدور حوله من كلام؟".

تنحــنحت ثم قالت: "في الحقيقة أن هناك... دوماً شائعات حول أن الكولونيل كينت والنقيب كامبيل.. كانا..".

"على علاقة جنسية... هذه نعرفها، أهناك شيء آخر؟".

"... هذا كل شيء".

"كم لكِ من مدة في هذه القاعدة؟".

"بضعة أشهر فقط".

"أتعتقدين أنه كان يحبها؟".

هــزّت كتفــيها: "لــم يقل أحد هذا. أقصد، إن من الصعب أن تحدد هذا لأنهما كانا يبديان الكثير من الانسجام بينهما. يمكن أن تحدس فقط أن بينهما شيء ما".

"هل كانت تحضر هنا إلى مكتبه؟".

"أحــياناً، ويكون هذا عادةً أثناء النهار. أما في الليل فكان هو من يذهب إلى مكتبها. فقــد كانــت دوريات الشرطة العسكرية ترى سيارته متجهةً نحو مدرسة الحرب النفسية،

وكانـــوا يُعلمون بقية الدوريات بما يجري عبر الراديو وبكلمات مشفرة تعارفوا عليها. لقد تحـــول الأمر إلى نوع من الدعابة في أنحاء القاعدة، بل أن الكولونيل كينت كان كثيراً ما يلـــتقط تلـــك الرسائل الساخرة المشفرة التي يرسلها رجال الشرطة العسكرية فيما بينهم، ويـــدرك أنهـــم يقـــصدونهما، إلا أنهم كانوا دوماً ما يغيرون من أصواتهم أو لا يعرّفون أنفـــسهم، وبالتالي فلم يسعه أن يفعل لهم أي شيء. وأنا أرى أنه لم يكن ليتخذ أي إجراء ضـــدهم علـــى أية حال، فهو أمر كفيل بتحويل الشائعات إلى حقائق يذيع أمرها عبر أرجـــاء القاعـــدة... ومـــن الصعب أن تكتم الأسرار داخل قاعدة صغيرة، والشرطة العـــسكرية شاهد على الكثير من تلك الأمور، إلا أنهم لا يتدخلون طالما لم يكن الأمر مخالفـــاً للقانون أو النظم، خاصةً إن كان الأمر يتعلق برتب كبيرة.. بل ويتعلق بقائد الشرطة العسكرية نفسه".

كنت سعيداً لأني طرحت عليها هذا السؤال. فطرحت سؤالاً آخر عليها. "هل تعرفين يا بيكر أن النقيب كامبيل كانت الضابط المناوب في الليلة التي لقيت خلالها مصرعها؟".

"بلى".

"هل كان من عادة الكولونيل كينت أن يعمل لوقت متأخر في تلك الليالي التي تناوب فيها النقيب كامبيل؟".

"في الحقيقة هذا مما كنت أسمعه يقال".

"هـــل يمكـــن أن تعرفي ما إذا كان الكولونيل كينت موجوداً هنا في الليلة التي لقيت خلالها مصرعها؟".

"لقـــد كـــان هنا. وأنا لم أكن هنا، إلا أنه يقال بأنه قد غادر مكتبه في حوالى الساعة 18:00 ولكنه عاد في الساعة 21:00، ثم ظل بالمكتب حتى منتصف الليل، بعدها غادر. ولقد قال من كان بالخدمة أنه قد شاهده داخل سيارة للجيش يمر بالقرب من مبنى القيادة، ثم اتجه إلى بيثاني هيل حيث يعيش".

"هل كان معروفاً أن السيدة كينت كانت مسافرة خارج البلدة؟".

"أجل سيدي".

"وأنـــا أفترض أن هناك دورية واحدة على الأقل للشرطة العسكرية تمر ببيثاني هيل كل مساء".

"أجل سيدي، واحدة على الأقل".

"وهل سجلت الدوريات أي مقابلة لهما تلك الليلة؟".

كـــادت تبتسم وهي تقول: "في الحقيقة لا... لم يرَ أحد سيارته العسكرية وهي تتجه إلى هناك، لكنه قد يكون غادر في سيارته الجيب الخاصة دون أن يلحظه أحد".

أو قــد يكــون استخدم سيارة زوجته، مع أنني لم أرَ أية سيارة عند منــزله حينما مــررنا به هذا الصباح. إلا أن هناك مرآباً. قلت لبيكر: "هل تفهمين السبب وراء أسئلتي هذه؟".

"أوه... بالطبع".

"لا يفترض بأحد أن يعرف بكلامنا هذا".

"بالطبع سيدي".

"حــسناً، أشكرك. اطلبي من أحدهم أن يأتي لنا بالقهوة وبعض الكعك المحلى أو أي شيء غيره".

"حاضر سيدي". ثم استدارت على عقبيها وانصرفت.

مكثت مع سينثيا في صمت، إلى أن قالت: "كانت لمحة جيدة منك".

"أشكرك، إلا أنني لا أثق كثيراً في من ينقلون الكلام بين الناس".

"لكننا داخل مقر الشرطة العسكرية نفسه".

"صــحيح. أرأيت السبب في غضبي من كينت. لقد أصبح ذلك الوغد أضحوكة بين مرؤوسيه".

"لقد أدركت هذا".

"أقــصد أن علــى المرء أن يكون ملتزماً داخل المكان الذي يعمل به، حتى لا يفقد احترام الآخرين".

"أعتقد أنهم يسخرون منا الآن في بروكسل وفي فولز تشيرش".

"من المؤكد أنهم كذلك".

"إنه لأمر محرج".

"معكِ حق. وأتمنى أن تكوني قد وعيتي الدرس".

ابتــسمت ونظرت إلي: "ما الذي تحاول أن تفعله مع بيكر؟ أن تجعلها تتيقن من أن كينت بالفعل أضحوكة؟".

اكتفيت بالصمت.

فقالت: "إن المسافة من بيثاني هيل وحتى ساحة الرماية رقم ستة تبلغ حوالى خمسة أو ســتة أمــيال. فيمكنك أن تصل إلى هناك في غضون اقل من عشر دقائق، حتى ولو سرت الأميال الأخيرة من دون إضاءة المصابيح، حيث إن الليلة كانت مقمرة".

"لقد خطر لي ذلك. كما أن من الممكن القيادة من بيومونت حتى الساحة رقم ستة في أقل من عشر دقائق، لو أسرع قائد السيارة قليلاً".

"هذه حقائق لا بد من أن نضعها في الاعتبار". دققت النظر في الملف الطبي أمامها قائلةً: "ما الذي تستنتجه من تقرير الطبيب النفسي هذا؟".

"كانــت آن كامبــيل تعاني من صدمة ما، لم ترد أن تطلع الآخرين عليه. وما رأيك أنتِ؟".

"الــشيء نفــسه. فالتقريــر لا يحوي على الكثير من المعلومات، إلا أنني أخمن أن المشكلة لا ترجع إلى التوتر أو الإنهاك البدني، بل إلى حدث واحد سبب لها صدمة، وأدى بشكل ما إلى أن يخونها أبوها. بمعنى أن الأب لم يكن إلى جوارها ساعة أن حدث أياً كان ما حدث لها. هل هذا الكلام متسق؟".

"يــبدو لي كذلك". ثم فكرت للحظات، وقلت: "لا أستطيع أن أبعد ذهني عن التفكير في أن ما حدث لها له صلة بالجنس، وله صلة بشخص يفوق والدها رتبة، وأن والدها قد جبن ولم يقف إلى جانبها ويأخذ لها حقها، بل وأقنع ابنته أن تتخذ المنحى نفسه".

"قد يكون شيئاً من هذا القبيل بالفعل".

"فعليــنا أن نحــصل على ملفها بالأكاديمية، إلا أنني لن أدهش إذا ما وجدنا أنه لا يحوي شيئاً ذا صلة بما قاله مور".

أتتــنا القهــوة ومعهــا الكعــك المحلى. فالتهمته مع سينثيا التهاماً ونحن نثرثر في مواضيع عدة.

كــان جــرس الهاتف يرن بشكل مستمر، إلا أن بيكر أو شخص غيرها قد رد على المكالمــة. وســرعان ما رن جرس الاستدعاء الداخلي، وسمعنا صوت بيكر تقول: "إنه الكولونيل هيلمان".

"حولــي المكالمة". ضغطت زر المحادثة الجماعية حتى تتمكن سينثيا من الاستماع والتحدث، وقلت: "هنا برينير وصنهيل يا سيدي".

"وهل هناك غيركما؟".

بدت السخرية في نبرة صوته، مما أربكني قليلاً. فأجبته: "هل الأمر كذلك؟".

"بلى. هل أنتما بخير؟".

ردت سينثيا: "على خير ما يرام سيدي الكولونيل".

"جيد. فلقد تلقيت بعض الشكاوى من تصرفاتكما".

قلت: "إذاً فأنت تعلم بأننا نقوم بعملنا".

"أعلم أنكما بدأتما في إزعاج الجميع، وهو ما يدل على أنكما تقومان بالمهمة على أكمل وجه. إلا أنني اتصلت لأرى إن كنتما تعلمان بأن القضية سوف تتحول إلى جهة أخرى".

"أجل سيدي، نعلم هذا".

"لقد بذلت ما في وسعي لأجل أن يبقى الأمر في حدود إدارتنا، إلا أن المباحث الفيدرالية كان لها تأثير أقوى من تأثيري".

"قد نستطيع إغلاق ملف القضية في وقت قريب على أية حال".

"حقاً؟ فأنا أتمنى أن تفعلا هذا في غضون الخمس عشرة دقيقة التالية حيث إن فريق المباحث الفيدرالية قد وصل بالفعل إلى فورت هادلي".

"إنهم لن يتدخلوا في عملنا حتى الساعة 12:00 غداً".

"هذا صحيح، إلا أنكما ستعانيان منهم طيلة تلك الفترة".

"لديَّ انطباع بأنك مرتاح لتدخل المباحث الفيدرالية في الأمر".

"ما الذي دعاك إلى هذا القول يا سيد برينير؟".

"نبرة صوتك يا سيدي. تبدو لي سعيداً".

خيّم الصمت للحظة، ثم قال: "عليك أنت أيضاً أن تسعد لهذا. فلا خير في تلك القضية، سواءً بالنسبة لك أو بالنسبة لإدارتنا".

"ليس هذا ما أبني عليه اختياري للقضية". والحقيقة أني أتوخى هذا أحياناً. ولكن المرء أحياناً ما يقبل بقضية لأنه يشعر أن من واجبه أن يفعل هذا، أو لشعوره بميل شخصي تجاهها، أو لمجرد أنه يرغب في أن يكون هو من يلقي القبض على الجاني فيها. قلت لكارل: "لسوف أحل لغز هذه القضية، لنفتخر جميعاً بما حققناه".

"أنا أحترم هذا فيك يا بول. ولكن احتمالات جلب العار لنا أكبر من كل هذا... لقد كسبت المباحث الفيدرالية جولة منا".

"ولكنا لا زلنا من يتولى التحقيق حتى الآن".

غيّر كارل الموضوع قائلاً: "يخبرني رجال البحث الجنائي بأن لديك مشتبه به. اسمه الكولونيل مور".

"بل لدينا شخص كان متواجداً في مسرح الجريمة. وهو بالفعل مشتبه به".

"لكنك لم تلقِ القبض عليه".

"كلا سيدي".

"إنهم يرغبون أن تقوم بإلقاء القبض عليه".

"من هم هؤلاء؟".

"أنت تعلم مقصدي. عليك أن تفعل ما تراه أنت مناسباً. لن أتدخل في عملك أبداً".

"لم يسبق لك أن فعلت".

"هل هناك المزيد من المشتبه بهم؟".

"كلا يا سيدي، لكني كنت على وشك الاتصال بخدمة توصيل المتهمين إلى المنازل قبيل اتصالك هذا".

خـيم الصمت على الطرف الآخر، ثم قطعه هو قائلاً: "آنسة صنهيل، لقد ذكرتِ فـي تقريـرك أن واقعـة الاغتـصاب قـد تكون في الحقيقة تمت برضا من المجني عليها".

"أجل سيدي".

"ألا يشير هذا إلى أن الجاني كان صديقاً للمجني عليها؟".

"بلى سيدي".

"إلا أنــه ليس قائدها المباشر، أقصد الكولونيل مور، الذي كان كما تقولان متواجداً في مسرح الجريمة، أليس كذلك؟".

نظـرت سينثيا إليَّ ثم أجابته: "لقد تعقدت الأمور سيدي الكولونيل.. فلدى النقيب آن كامبيل العديد من العشاق".

"أجـل، فقد علمت هذا". ثم تابع في لحظة نادرة من لحظات الوعي "أعتقد أن الأمر معقد جداً لديكما".

"أجل سيدي".

"بول، ألم تتصل بعد بالميجور بويس؟".

"كلا سيدي. فقد يكون الميجور بويس جزءاً من المشكلة هنا. وهذا مجرد شائعة، إلا أنني أرى أن تستدعيه إلى فولز تشيرش لتناقشه في ذلك".

"فهمت... إلا أن الإدارة لا تحتاج إلى هذا".

"بالفعل".

"هل أنت مشترك في مهمة التقليل من خسائر هذا الحادث؟".

"كـلا، فهذه ليست مهمتي". ثم أضفت ببعض الارتياح "أعتقد أني قد ذكرت لك بأن هذه القضية بالغة الحساسية".

جاوبنـي الصمت، قبل أن يقول: "لا تهمني سوى سمعة الضباط الذين يعملون تحت إمرتي".

"فعليك إذاً أن تبعد بويس من هنا".

"حسناً.. هل يمكنك أن ترسل لي تقريراً بالفاكس قبل الساعة 18:00؟".

"كـــلا سيدي الكولونيل، لن أرسل تقاريرَ أخرى. فنحن في غاية الانشغال لأجل أن نـــضع يدنا على الجاني. ولسوف نقدم لك تقريرنا النهائي بشكل شخصي حالما يطردوننا من هنا".

"حسناً. هل هناك من شيء يمكن أن نقدمه لكما؟".

أجابـــته سينثيا: "أجل سيدي. فلدينا بعض المعلومات التي تبين أن النقيب آن كامبيل وأباها كانا على خلاف عميق عندما كانت في السنة الثانية من دراستها في ويست بوينت. وأعتقد أن أياً كان ما حدث وقتها فإنه على ارتباط قوي بهذه القضية. وربما كان ما حدث أمـــراً معلـــوماً داخـــل الجيش، أو على الأقل داخل تلك الأكاديمية، أو ربما في المجتمع المدني حول الأكاديمية".

"حـــسناً، ســـوف آمر فريق بالبحث في هذا الأمر على الفور. سنبحث في سجلات الأكاديمـــية والـــصحف المحلـــية وكل من كانوا متواجدين في الأكاديمية في ذلك الوقت، وسوف أتصل بأرشيف سجلات المباحث الجنائية في بالتيمور. هل هذا جيد؟".

نبهته سينثيا: "أجل سيدي. كما أن السرعة عامل هام".

قلـــت لـــه: "نحن ندور حول مجموعة من الجوانب الحساسة للقضية، يا كارل، ولكـــن علينا في نهاية الأمر أن نتجه مباشرة إلى لب المشكلة. أنا أقصد الجنرال نفسه بذلك".

"فهمتك. افعل ما تراه مناسباً. وأنا أساندك".

"بالفعل. ما رأيك في أن أساندك أنا؟".

خيم الصمت قبل أن يجيب: "يمكنني أن آتي إليك إن كنت ترغب في هذا".

نظـــرت وســـينثيا كلانا إلى بعضنا البعض، ثم قلت له: "نحن نقدر عرضك هذا يا كارل، ولكننا سنكون أسعد حالاً لو تمكنت من الصمود أمام رغبات رجال البنتاغون".

"سأبذل ما في وسعي".

"نشكرك".

"هل تتعاونان سوياً في هذه القضية؟".

لم يجب أياً منا على الفور، إلا أنها قالت له: "بشكل جيد جداً".

"حسناً. إن حرارة الجو كفيلة بأن تكون منكما فريق عمل متميزاً".

قلـــت لـــسينثيا بـــصوت يسمعه كارل: "أخبريه بأنكِ قد اعتذرت لي عما حدث في بروكسل، وأن الخطأ كان خطأك أنت".

ابتسمت، ثم قالت بالقرب من سماعة الهاتف: "هذا صحيح سيدي الكولونيل".

"ســوف أعود إليكما في أسرع وقت ممكن بالمعلومات التي أتمنى أن نحصل عليها من ويست بوينت".

"جيد".

"كمــا أود أن أقول لك بأني لم أكن سعيداً للطريقة التي تعاملت بها مع قضية صفقة السلاح".

"عليك أن تحولها إذن إلى المباحث الفيدرالية".

ســكت هــو للحظة، ثم قال: "ليس أمامي ملفك الشخصي يا بول، إلا أنني أعلم أنك معنا منذ عشرين عاماً".

"أرجــوك، إننــي لا أستطيع أن أعيش بكامل مرتبكم هذا، فكيف تنوي أن تجعلني أعيش بنصف مرتب؟".

"إننــي مهتم بك، ولا أود أن أخسر كفاءة مثلك، إلا أنني أشعر بأنك قد وصلت إلى درجة من التعب والملل. هل تود أن تتولى منصباً إدارياً هنا في فولز تشيرش؟".

"أتعني أن أكون معك في نفس المبنى؟".

"علــيك أن تفكر في ما هو أمامك من خيارات. وأنا موجود لو أنك تود أن نتحدث. حظ طيب". أغلق الخط وأغلقت أنا زر الاستماع، وقلت لسينثيا: "يبدو لي أكثر إنسانية هذه المرة".

"بل هو قلق يا بول".

"أعتقد أن عليه أن يكون قلقاً بالفعل".

الفصل الرابع والعشرون

قضينا الساعة التالية نقلب في تلك الأوراق على المكتب، ونتلقى المكالمات الهاتفية ونجريها، بما في ذلك محاولة التأكيد على الكولونيل فاولر بخصوص المواعيد مع زوجته والسيدة كامبيل والجنرال كامبيل.

هاتفت جريس ديكسون - خبيرة الكومبيوتر بإدارتنا - والتي وصلت إلى جوردان فيلد بالطائرة، في محاولة لأن نستخرج ما في جهاز آن كامبيل من ملفات. "كيف تجري الأمور يا جريس؟".

"على ما يرام حتى الآن. بعض الملفات مشفر. ولقد نجحنا في التوصل إلى قائمة بكلمات السر كانت موجودة بمكتبها - داخل كتاب للطهو - وأنا أحاول معها الآن".

فأشرت لسينثيا أن تلتقط السماعة الأخرى وأنا أقول لجريس: "ما هي نوعية هذه الملفات؟".

"بعضها عبارة عن خطابات شخصية، وقائمة بأسماء أشخاص وأرقام هواتفهم، إلا أن أهم ملف كان عبارة عن مذكرات. وهي مثيرة جداً يا بول، حيث تحوي أسماءً وتواريخَ وأماكنَ وتوصيفات لممارسات جنسية. أعتقد أن هذا ما كنت تبحث عنه".

"أعتقد هذا. هل يمكن أن تقرأي لي بعض الأسماء يا جريس".

"حسناً... انتظر... الملازم بيتر إيلبي.. الكولونيل ويليام كينت... الميجور تيد بويس..." واصلت قراءة الأسماء، ليصل عددها إلى قرابة العشرين اسماً، بعضها أعرفه، ومنهم الكولونيل مايكل ويمز، المدعي العام، والنقيب فرانك سفيك، المسؤول الطبي، والميجور أرنولد إيمز، كبير القساوسة هنا؛ وبعضها لا أعرفه، إلا أن جميعهم من العسكريين وجميعهم يتلقون أوامر مباشرة من الجنرال بشكل أو بآخر. لكنني سمعتها تقرأ: "ويس ياردلي، بيرت ياردلي..".

"بيرت؟".

"أجل. أعتقد أنها كانت معجبة بالعائلة".

نظرت إلى سينثيا التي كانت تنظر بدورها إليَّ. فقلت لجريس: "حسناً... ألم تصادف اسم فاولر؟".

"ليس بعد".

"أو تشارلز مور؟".

"بلـى. إلا أنـه يظهر كشخص أعتقد أنها تتلقى جلسات علاجية على يده. أعتقد أنه طبـيب نفـسي. إن التواريخ في هذه المذكرات يعود إلى عامين، وأول سطور فيها تقول تقريـر بفتـرة الخدمة داخل قاعدة والدي. بدأت عملية "حصان طروادة" ثم أضافت "هذا جنون يا بول".

"أعطني مثالاً لهذا الجنون لديك".

"حـسناً سـأقرأ لك هذا... وهو آخر ما كتبته.. إنني أقرأ الآن ما هو مكتوب على الـشاشة: 14 آب/أغـسطس.. قمـت بدعـوة ضابط العمليات الجديد لدى والدي، اسمه الكولونـيل سـام دافيز، لأن يتناول الشراب بمنـزلي. سام في الخمسين من عمره، بدين نـوعاً مـا إلا أنه وسيم، متزوج ولديه أولاد كبار، أحدهم لا يزال يعيش معه في بيثاني هـيل. ويـبدو لي أنه مخلص لعائلته، كما أن زوجته سارة - والتي كنت قد التقيتها أثناء حفل الترحيب بالضباط الجدد - جميلة جداً. وصل سام إلى منـزلي عند الساعة 19:00، حـيث تناولنا بعض المشروبات الخفيفة في غرفة المعيشة، بعدها أدرت أسطوانة موسيقى هادئـة وطلبت منه أن يساعدني على أن أتدرب على خطوات رقصة جديدة. كان متوتراً، إلا أنـه كـان قـد تناول قدراً من الشراب يمنحه الشجاعة. كان يرتدي الزي العسكري الـصيفي الأخضر، إلا أنني كنت أرتدي قميصاً أبيض خفيفاً، وحمالة صدر، وكنت حافية القدمين، احتضنني وكان ما كان".

"جريس؟".

"آهـا". كانـت جـريس ديكسون سيدة متوسطة العمر، وهي أم تعمل معنا بصفتها المدنـية مع احتفاظها بحياة أسرية سعيدة، وجميع عملها يتم من خلال وحدة التعاقدات في إدارتنا، فكل عملها يتعلق بخبايا الكومبيوتر. وقد تكون هذه صفة جيدة فيها. "استمري في القراءة".

"حسناً... إلى أين وصلت؟".

"كان ما كان".

"حـسناً... ولقد حرصت على أن أتفحصه بأصابعي، إلى أن قام في النهاية بنـزع حمالـة الصدر عن كتفيّ، وأخذنا نرقص، وأنا لا أرتدي سوى سروالي الداخلي، كان سام واقعـاً فـي منطقة بين النشوة والذعر، إلى أنني قدته من يده إلى القبو. لم يستغرق الأمر سوى عشرين دقيقة، بما في ذلك تناول الشراب. قدته إلى غرفتي بالقبو وخلعت سروالي الداخلي...".

"لا زلت معكِ يا جريس".

"حسناً... يا إلهي... هل هذا حقيقة أم خيال؟".

"أعتقد أن سام قد بدأ الأمر كمغامرة، إلا أن المطاف انتهى به في أرض الخيال".

"إنهـــا تقـــود كل هؤلاء الرجال إلى القبو. يبدو أن لديها غرفة ما هناك، بها أدوات جنسية".

"حقاً؟ استمري في القراءة إذن".

"أوه... لنـــرى.. أدرت الموسيقى في أرجاء الغرفة، ثم جثوت على ركبتيّ. كان الرجل قد وصل إلى قمة الإثارة. طلبت منه أن يجلدني بالسوط وأن يفعل أياً مما يحلو لــه، إلا أنهـــا كانـــت المرة الأولى، ولم يكن متفهماً لاحتياجاتي. وفي النهاية اكتفى بوضــــعي في الفراش، وفي غضون ثانيتين انتهى الأمر... هل أثرتك بقراءتي هذه أم ماذا؟".

قلت لها ساخراً: "بل هي أنفاس سينثيا... هل هذه هي نهاية ما هو مكتوب؟".

"كـــلا.. فهـــي تستطرد لتقول: ثم ذهبا ليستحما، وأنه اعتذر منها لانقضاء الأمر بهـــذه الـــسرعة. إلا أنهـــا جعلته يتمدد عارياً في الفراش، ووضعت على وجهه قناع كاريكاتيـــري لخنـــزيـــر، بعدها التقطت له صورتين فوريتين، وأعطيته واحدة، أخذنا نسخر من الصورة، وكان أدبه يمنعه من أن يطلب مني الصورة الثانية، إلا أنني كنت أدرك أنه كان متوتراً بسبب كل ما حدث. فأخبرته بأني أرغب في أن ألتقيه من جديد، وطمأنـــته بأن ما حدث سيبقى سراً بيننا. فارتدى ملابسه، ورافقته إلى الأعلى ومن ثم إلـــى باب المنـــزل. كنت لا أزال عارية. وكان في غاية الفزع، لدرجة أنه خشي أن يخـــرج مـــن المنـــزل وأن يراه أحد، ومن المؤكد أنه لن يعود مباشرة إلى المنـــزل وهـــو علـــى هذه الحالة. وفي النهاية قال لي بأنه لا يرغب في أن يراني ثانيةً، وأنه يرغب في أن يأخذ الصورة الثانية، وهكذا أخذت أدعي البكاء، فلم يجد أمامه سوى أن يحتضنني ويقبلني، لدرجة أنني اضطررت إلى أن أمسح آثار أحمر الشفاه عن وجهه. وغـــادر وأنا أراقبه من النافذة، كان يخطو في سرعة إلى سيارته وهو يتلفت وراءه. ســـوف أطلـــب منه في المرة القادمة أن يحضر معه حقيبة مليئة بالمشروب المفضل، وعـــندها ســـأرى كـــيف يمكنه أن يخطو بهذه السرعة وهو يحمل تلك الزجاجات بين يديه".

قالت لي جريس: "لا بد من أن كل هذا مختلق".

"أود أن أنـــبهك يا جريس بألا تنطقي بكلمة واحدة من كل هذا إلى أي شخص، وألا تطبعي أي ملف مما لديك على الجهاز. وأن تحمي كلمات السر تلك مهما كلفك الأمر. هل هذا مفهوم؟".

"بالطبع".

فكرت في الأمر للحظة، ثم قلت لها: "لكني أطلب منكِ أن تطبعي لي بعض مما هو مذكـــور عن لقاءاتها مع بيرت ياردلي، وضعي الورقة في مظروف مغلق، وأرسليه إليَّ في أسرع وقت ممكن".

"مفهـــوم. هـــناك ما يزيد على الثلاثين شخصياً مذكورين هنا على مدار عامين. هل يمكـــن لامـــرأة غيـــر متـــزوجة أن تمارس الجنس مع ثلاثين رجلاً مختلفاً خلال أربعة وعشرين شهراً؟".

"كيف لي أن أعرف هذا؟".

"إضـــافةً إلى الأسلوب الذي تصف به تلك اللقاءات... يا إلهي، لا بد من أن لديها – أو كان لديها – مشكلة مع الرجال عموماً. أقصد أنها تدفعهم دفعاً ليعذبوها، لكنها تسيطر عليهم في الوقت ذاته وتراهم مجموعة من المغفلين".

"كانـــت على حق في هذه النقطة الأخيرة. ابحثي عن ما كتبته عن الكولونيل ويمز والميجور بويس وأخبريني عما إذا كان ما كتبته مثيراً".

"حسناً... انتظر... ها هو ويمز، هناك شيء مكتوب في الثلاثين من تموز/يوليو... أجل، ما كتبته عنه بالغ الإثارة. هل تريديني أن أقرأه؟".

"كلا، لا أحتمل أن أستمع إلى المزيد من هذا. وماذا عن بويس؟".

"هناك شيء مكتوب عنه في الرابع من آب/أغسطس، هذا العام... واو.. هذا الرجل غريب الأطوار. من هو هذا الشخص؟".

"إنه ممثلنا في هذه القاعدة؟".

"أوه... لا".

"بل هو كذلك. سوف أتحدث معكِ فيما بعد يا جريس".

وأغلقت الخط.

جلـــسنا فـــي صمت لدقيقة، قبل أن أقول: "حسناً... لو كنت كولونيلاً متزوجاً، وفي منصب ضابط العمليات التابع للجنرال، ودعتني ابنة الجنرال لأتناول الشراب..".

"وبعد؟".

"لكنت ركضت ركضاً".

"في أي اتجاه؟".

ابتسمت، وقلت: "ألم يستطع أن يصمد لأكثر من عشرين دقيقة؟".

"أتعلـــم يـــا بول، إنني قد تعلمت من خبرتي في قضايا الاغتصاب أن بعض الرجال

يجــدون صـــعوبة في التحكم في شهوتهم. فعليكم أيها الرجال أن تستخدموا عقولكم بشكل أكبر من هذا".

"ليس للشهوة عقل يا سينثيا.. وفي حالة كحالة سام ديفز لا بد من ألا نلوم الضحية".

"أنـــت محــق.. إلا أنني أعتقد أنها كانت ضحية هي الأخرى. فلم يكن الأمر يتعلق بالجنس".

"بالطـــبع. فهي عملية تديرها وتسميها حصان طروادة... يمكننا أن نفترض إذن أن بيرت ياردلي يعرف مكان تلك الغرفة بالقبو".

وافقتني سينثيا قائلةً: "ربما... إلا أنني أشك في أن تكون قد قادت ويس ياردلي إلى تلك الغرفة".

"هــذا صـــحيح. فقــد كـــان هو من تحب. وليس بيده سلطة حقيقية داخل أو خارج القاعـــدة، كمـــا أنه غير متزوج، وبالتالي فلا يمكن لها أن تبتزه. إلا أنني أتساءل عما إذا كان ويس يعلم شيئاً عن علاقتها المشينة بأبيه العجوز الذي أغرقته في بحر عسلها".

"لديك تعبيرات عجيبة يا بول".

أتتـــنا بيكر لتقول: "قائد الشرطة ياردلي ومعه ضابط الشرطة ياردلي موجودان من أجل مقابلتكما".

قلت لها: "سأتصل بكِ كي تدخليهما".

"أجل سيدي".

"ســوف يــصلك شـــخص مـــن بعـــثة التحقيقات العسكرية في جوردان فيلد ومعه مظروف. عليكِ أن تحضري إليَّ المظروف ما أن يصلك".

"نعم، سيدي" ثم انصرفت.

قلت لسينثيا: "علينا أن نعمل على الفصل بين بيرت وويس في لحظة ما".

"مفهوم".

نهــضت وأنـــا أقـــول: "سأذهب لأقابل صديقي الذي بالزنـــزانة". غادرت المكتب مـــتوجهاً عبـــر عـــدد من الممرات إلى أن وصلت إلى زنـــزانة الحجز. وجدت ديلبيرت إيلكينــــز قابعـــاً فـــي نفـــس ركن الزنـــزانة الذي تركته فيه. كان مستلقياً على الفراش الـــصغير، يطالـــع مجلـــة عن رياضة الصيد. لم يحضروا له زياً بعد، فكان لا يزال في قميصه القطني وسرواله القصير، والصندل. قلت له: "مرحباً ديلبيرت".

نظر إليَّ من فوق المجلة، ثم سرعان ما نهض واقفاً." أوه... مرحباً".

"هل أحسنوا معاملتك هنا؟".

"بلى".

"تقصد أجل سيدي".

"أجل سيدي".

"هل قمت بكتابة الاعتراف؟".

أومأ برأسه أي أنه فعل. بدا لي أقل خوفاً الآن، كما كان أكثر تبرماً. من المعتاد بين ضباط التحقيقات العسكرية القيام بزيارة من تم إلقاء القبض عليهم. فعليهم أن يتأكدوا من أن أفراد الشرطة العسكرية أو حراس الزنزانة لا يسيئون معاملتهم، وهو الأمر الذي يحدث للأسف في السجون العسكرية بين الحين والآخر. كما علينا أن نتأكد من أن عائلاتهم بخير، وأنه قد تم تقديم مبلغاً من المال لهم كإعانة، بالإضافة إلى توفير الورق والقلم اللازم لإرسال الخطابات، وان تنصت لشكواهم بود. وهكذا سألت إيلكينز عن كل تلك الأشياء، وطمأنني بأنه يلقى معاملة حسنة، كما أن لديه كل ما يحتاج إليه. وسألته: "هل تود أن تبقى هنا، أم تريد أن تذهب إلى السجن الحربي؟".

"بل أن أبقى هنا".

"بوسعك أن تلعب البيسبول في السجن الحربي".

"بل سأبقى هنا".

"هل أبديت تعاوناً مع رجال التحقيق؟".

"أجل سيدي".

"هل تريد محامياً؟".

"في الحقيقة...".

"لديك الحق في هذا، حيث يمكن أن نوكل لك محامياً من دون أن تتكلف أنت شيئاً، أو أن تقوم أنت بتوكيل محام مدني على نفقتك".

"ما رأيك أنت؟".

"أعتقد أنك لو أحضرت محامياً فإنك ستثير غضبي".

"أجل سيدي".

"هل تشعر بالندم على ما فعلت؟".

"أجل سيدي".

"لسوف تصلح من خطأك إذن".

"أجل سيدي".

"بالمناسبة، اسمي الضابط المساعد برينير. أما الرقيب وايت فقد كان الخدعة. ولو احتجت أي شيء، أو أرادت عائلتك أن تتصل بك، فكل ما عليك هو أن تسأل عني. ولو أساء أحدهم معاملتك أخبرهم بأنك تابع لي. اتفقنا؟".

"أجل سيدي... أشكرك".

"لن أبقى في هذه القاعدة لفترة طويلة، إلا أنني سوف أحضر لك شخصاً من التحقيقات العسكرية ليعتني بك. وسوف أحاول أن أجنبك السجن وأن نكتفي بالحبس داخل الثكنات، إلا أنني أقولها لك يا ديلبيرت أنك لو هربت، فلسوف آتي وألقي القبض عليك ثانية، بل وسأقتلك. مفهوم؟".

"أجل سيدي. وأعدك أنك لو أخرجتني من هنا فإني سوف لن أخيب ظنك فيّ".

"وأنا أعدك بأنك لو لم تسلك السلوك القويم فسوف أقتلك".

"أجل سيدي".

عدت إلى مكتبي، حيث كانت سينثيا تقرأ الملف الشخصي لآن كامبيل. هاتفت إدارة التحقيقات العسكرية بالقاعدة لأحادث نقيباً هناك اسمه آندرز. تناقشنا حول ديلبيرت إيلكينز لفترة، وأبديت له رأيي بأن يتم حبسه في الثكنات. كان آندرز متردداً تجاه هذا القرار، إلا أنه وافق على شرط أن أوقع رسمياً على هذا القرار. فقلت له أن لا مانع عندي ثم طلبت منه أن يحولني إلى الميجور بويس. كنت أفكر أثناء انتظاري في السبب الذي يجعلني أتعاطف دوماً مع من ألقي القبض عليهم لجرائم ارتكبوها. ووجدت أن عليَّ أن أبحث عن مجال عمل آخر، يكون أقل إثارة.

وبينما كنت أكتب في عجالة القرار حضر الميجور بويس على الخط: "بويس يتحدث".

"صباح الخير، ميجور".

"من معي، برينير؟".

لم يسبق العمل أو لقاء هذا الرجل، ولا أعلم أي شيء عنه فيما عدا أنه كان قائد إدارة التحقيقات العسكرية في فورت هادلي، كما أن له باعاً في مذكرات آن كامبيل.

"برينير؟".

"أجل سيدي. أردت أن أحادثك".

"ما الذي يمكن أن أقدمه لك؟".

"أعتقد أنك غاضب بسبب طلبي أن تكون بعيداً عن هذه القضية".

"أنت على صواب يا سيد".

"في الحقيقة أن الكولونيل كينت هو من قرر أن يستدعي محققاً من خارج القاعدة". وربما يندم الآن على قراره هذا.

"لا يصدر الكولونيل كينت قرارات يندم عليها، كما كان عليك أن تتصل بي عندئذٍ كنوع من الاستئذان".

"أجل سيدي. لكنني كنت مشغولاً. كما أنه كان من الممكن أن تتصل أنت بي".

"راقب كلامك أيها الضابط".

"كيف حال السيدة بويس؟".

"ماذا؟".

"هل أنت متزوج، ميجور؟".

صمت للحظة ثم قال: "ما سبب هذا السؤال؟".

"هذا استجواب رسمي، يتعلق بالتحقيق في جريمة القتل. فأرجو أن تجيبني عليه".

صمت من جديد، ثم قال: "أجل. أنا متزوج".

"هل تعرف السيدة بويس شيئاً عن النقيب كامبيل؟".

"بحق السماء ما...؟".

انتبهت سينثيا إلى محادثتنا، فتركت ما كانت تقوم به.

قلت له: "ميجور، لديَّ دليل على تورطك في علاقة جنسية مع آن كامبيل، وما يثبت أنك قد قمت بزيارتها بمنزلها وقمتما بعمل شاذ في قبو منزلها، وأنك قمت بممارسات شاذة معها تعد انتهاكاً لميثاق الشرف العسكري، إضافةً إلى كونها مخالفة لقوانين ولاية جورجيا". لم أكن أعلم في واقع الأمر ما الذي يمثل مخالفة للقانون في جورجيا، ولم أكن أعرف بعد طبيعة تلك الممارسات بينهما، ولكن كل هذا لم يعد يهم الآن. فقد قررت أن أهاجم الجميع لأتركهم يحركون بأنفسهم المياه الراكدة في هذه القضية.

التقطت سينثيا السماعة وأخذت تستمع إلى المحادثة. إلا أن بويس كان صامتاً.

خيم الصمت لبرهة، قبل أن يقول بويس: "أرى أن علينا أن نلتقي".

"إنني مشغول للغاية، ميجور. ولسوف يتصل بك شخص من فولز تشيرش، هذا إن لم يكن قد اتصل بك فعلاً. أعد حقائبك. وداعاً".

"انتظر! علينا أن نتحدث حول هذا الأمر. من هو الذي يعلم بهذه المعلومات؟ فأعتقد أنه من الممكن أن أفسر لك هذه...".

"فسر لي تلك الصور التي وجدناها في القبو إذن".

"لا... لا يمكن أن تكون لي صوراً هناك...".

"إن القـناع لم يخفِ بقية جسدك، ميجور. فربما طلبت من زوجتك أن تتعرف عليك من خلال صور الأجزاء الحميمية بجسدك".

"عليك ألا تهددني".

"إنك شرطي بحق السماء. كما أنك ضابط عسكري. ماذا دهاك؟".

أجابني بعد صمت دام خمس ثوانٍ، "لقد تورطت بسبب لحظة طيش".

"من المؤكد أن هذا ما حدث".

"هل يمكن ألا تعلن عن هذه المعلومات؟".

"أرى أن عليك أن تتقدم باعتراف رسمي كامل وأن تترك القرار لرؤسائنا في فولز تشيرش. راوغهم، وهددهم بأن تفضح كل الأمور. وبالتالي تتوصل إلى صفقة ما، تمكنك من أن تتقاعد لتنال معاشك".

"معك حق".

"عليك أن تعلم أنني لست من كان على علاقة معها، بل أنت".

"لو كنت مكاني لتورطت بدورك".

"من البديهيات أيها الميجور ألا يتورط الرجل في علاقة جنسية مع من يعمل معهم".

"هذا يعتمد على الظروف".

"أكان الأمر يستحق إذن؟".

ضحك. "بالطبع... أجل.. ولسوف أخبرك بالتفاصيل يوماً ما".

"سوف أقرأها أنا في مذكراتها. طاب يومك، ميجور".

وأغلقت الخط.

أغلقت سينثيا الخط بدورها وقالت، "ما سبب أسلوبك هذا معه؟ إن هؤلاء لم يرتكبوا جريمة حقيقية يا بول".

"أجل، إلا أنهم حمقى. وقد مللت التعامل مع الحمقى".

"أعتقد أنك قد أصبحت غيوراً".

"احتفظي بآرائك لنفسك".

"نعم، سيدي".

حككت خدي، "أنا آسف. لكنني متعب".

"هل تود أن تقابل عائلة ياردلي الآن؟".

"كــلا. تباً لهما. دعيهما حتى نستدعيهما نحن". التقطت سماعة الهاتف واتصلت بمكــتب المدعي العام العسكري طالباً التحدث مع الكولونيل ويمز. رد عليَّ سكرتيره الــذي كان يريد أن يتعرف على شخصيتي. فقلت له: "أخبره بأن للأمر علاقة بقضية القتل".

"أجل سيدي".

رفعت سينثيا سماعتها وهي تقول لي: "كن لطيفاً معه".

جــاء الكولونــيل ويمــز إلــى الخط وسألني: "هل أنت الضابط الذي يتولى مهمة التحقيق؟".

"أجل سيدي".

"جــيد. لقــد طلــب مني أن أعد صحيفة اتهام موجهة إلى الكولونيل تشارلز مور، فأحتاج إلى بعض المعلومات".

"حــسناً، أول معلومة أقولها لك هي أنه ليست هناك أية صحيفة اتهام ضد الكولونيل تشارلز مور، حتى أقول أنا بذلك".

"المعذرة سيد برينير، لكنني تلقيت تلك التعليمات من البنتاغون".

"لا يهمنــي حتــى أن تــتلقاها من شبح دوغلاس ماك آرثر نفسه". من الممكن ألا تتوخــى لهجــتك وأنــت تتحدث إلى العاملين بالقانون في الجيش – حتى ولو كان برتبة كولونيل – فهم مثل أطباء الجيش وخبرائه النفسيين وغير ذلك، فالرتبة هنا لتحديد المرتب بالأســاس، وهم يعلمون بأن عليهم ألا يأخذوها مأخذ الجد. والحقيقة أن من المفروض ألا يتجاوزوا جميعاً رتبة مساعد – مثلي أنا – وعندها كان الجميع سيكون سعيداً، بما في ذلك هم أنفسهم. فقلت له: "لقد تورط اسمك في هذه القضية".

"معذرةً؟".

"هل أنت متزوج، كولونيل؟".

"نعم".

"هل تريد أن تبقى متزوجاً؟".

"ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟".

"لــديَّ معلومات تقول بتورطك في علاقة جنسية مع المجني عليها، وأنك قد خالفت ميــثاق الــشرف العسكري، وتحديداً المادة رقم 125 والمتعلقة بالممارسات الجنسية غير الطبيعية، والمادة رقم 133 والمتعلقة بالسلوك غير اللائق لضابط عسكري ولرجل مهذب، والمادة رقم 134 والمتعلقة بالإخلال بالنظام العام وتجاهل الأخلاق، والسلوك ذو الطبيعة المسيئة بسمعة القوات المسلحة... ما رأيك سيدي المستشار؟".

"هذا غير صحيح".

"هل تعرف كيف تتيقن من كذب المحامي؟ إن هذا عندما يبدأ في الكلام".

لم تعجبه الدعابة فيما يبدو، فقال: "من الأفضل لك أن يكون هناك دليل على هذا الكلام الذي تقول".

أجده يتحدث كمحامٍ حقيقي، قلت له: "هل تعلم ما الذي يطلقونه على ثلاثمائة محام في قاع المحيط؟ ... أنهم بداية جيدة".

"سيد برينير...".

"هل نسيت ما كان يحدث في تلك الغرفة بالقبو؟ أود أن أعرفك بأني قد وجدت كل شيء، وأنت قد تم تصويرك بالفيديو". هذه لست متيقناً منها.

"لم يحدث أبداً أن...".

"وبالصور الفورية".

"أنا...".

"وفي مذكراتها".

"أوه...".

"اسمع، كولونيل، أنا لا يهمني شيء، ولكن من غير المقبول أن تتورط في مثل هذه القضية. فلا تضخم المشكلة. كل ما عليك هو أن تتصل بالمدعي العام، أو الأفضل أن تطير إلى واشنطن وتطلب إعفاءك من منصبك. أو أن تدون صحيفة اتهام تجاه نفسك. أي أن عليك أن تترك منصبك لمن لا يمكن أن يتورط في فضيحة جنسية كهذه. وما رأيك أن تتركه للسيدة التي تليك رتبة في إدارتك أياً كانت؟ ما اسمها؟".

"أوه... الميجور جودوين...".

"إنها المسؤولة منذ الآن عن قضية كامبيل".

"لا يمكنك أن تلقي عليَّ الأوامر".

"عليك أن تعلم أيها الكولونيل أنك بحلول الشهر القادم سوف يكون عليك أن تبحث عن عمل في شركة صغيرة، أو قد تكون المدعي العام داخل زنزانة في ليفينورث. فعليك ألا تدعي العناد. وحاول أن تصل إلى صفقة ما تحفظ ماء وجهك. وقد تعد شاهداً في هذه القضية".

"أشهد على ماذا؟".

"دعني أفكر في هذا. طاب يومك". وأغلقت الخط.

أغلقت سينثيا السماعة وسألتني: "ألا يكفيك ما سببته من تعاسات حتى الآن؟".

"لقد تمنيت لكل منهم يوماً طيباً في نهاية كلامي".

"لقد بالغت قليلاً يا بول. أعلم أن بطاقات اللعبة قد أصبحت في يدك و...".

"لقد توصلت إلى ما مكنني من النيل منهم جميعاً".

"هذا صحيح. إلا أنك تتجاوز سلطتك".

"ولكني لم أتجاوز قدراتي".

"تمهل قليلاً. فالأمر ليس شخصي بينك وبينهم".

"حسناً... إنني غاضب فقط. أقصد بسبب ما أحدثوه بميثاق الشرف العسكري. لقد أقسمنا على أن نؤدي مهامنا، وأن نتمسك بأعلى معايير الأخلاق، والنزاهة، والسلوك القويم، وآمنا بأن كلمتنا ميثاق شرف وحده. وها نحن نجد أن هناك قرابة الثلاثين شخصاً يضربون بكل ذلك عرض الحائط، ومن أجل ماذا؟".

"ليلةٍ معها".

لم يسعني سوى أن أضحك. "أجل. ليلة معها. إلا أنها ليلةٌ في الجحيم".

"ونحن لسنا أطهار أيضاً".

"إلا أننا لم نسيء إلى العسكرية".

"هذه جريمة قتل، وليست بحثاً في الأخلاق. علينا أن نهتم بالأهم".

"معك حق. أرسلي في طلب هذين المهرجان".

هاتفت سينثيا بيكر وقالت: "أدخلي الـــ... السادة المدنيين".

"نعم، سيدتي".

قالت لي سينثيا: "أرجو أن تهدأ الآن".

"إنني لست غاضباً من هذين الأبلهين. فهما مدنيان".

فتح الباب، وأعلمتنا بيكر: "السيد ياردلي قائد الشرطة والضابط ياردلي".

نهضت وسينثيا بينما دلف آل ياردلي، مرتديان زيهما الرسمي، إلى المكتب. إلا أن ياردلي قال: "إنني أسجل غضبي لأجل انتظارنا كل هذه الفترة. إلا أنني أكتفي بهذا". وتطلع في أرجاء الغرفة الصغيرة معلقاً "ما هذا... إن لديَّ زنازنيْ حجز أكبر وأحسن حالاً من هذا المكتب".

قلت له: "ونحن كذلك... وسوف أريك واحدة فيما بعد".

ضحك وقال: "أقدم لكما ابني ويس. أقدم لك يا ويس كلاً من الآنسة صنهيل والسيد برينير".

كان ويس ياردلي رجلاً طويلاً بادي الرشاقة، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، شعره أسود طويل، من الطراز الذي لا يمكن لأية قوة شرطة أن تسمح له بأن يبقيه، فيما عدا بالطبع تلك التي يعمل بها الآن. لم نتصافح، إلا أنه لمس طرف قبعة الكاوبوي محيياً سينثيا.

فــي العــادة فإن الرجل الجنوبي لا يخلع عنه قبعته داخل مكان مغلق حينما يكون بصحبة غرباء أو أقران له، حيث إن إمساكه القبعة بيده يعد إقراراً منه بأنه في جلسة مع مــن هــو يفوقه مكانة. وهي عادة تعود إلى عصر السادة والعبيد. وأنا لم أتفهم الغرض مــنها، إلا أن الجــيش لديــه هو الآخر قواعده الخاصة بالقبعات، لذا فأنا أحترم العادات المحلية.

كــان عــدد المقاعد لا يكفي، فبقينا جميعاً واقفين. قال لي بيرت: "لقد احتفظت بكل أغراضك بشكل لائق في مكتبي. عليك أن تأتي لتستعيدها في الوقت الذي يناسبك".

"هذه لفتة طيبة منك".

كــنت أتمنى لو أمكنني أن أوجه له لكمة بقبضتي. فلقد كان شديد التململ، حتى بدا أن جسده لا يسكن أبداً.

قلت لبيرت: "هل جلبت معك الأشياء الخاصة بالحكومة؟".

"بالتأكــيد. فأنا لست بحاجة إلى مشاكل معها. ولقد سلمتها لفتاتك التي بالخارج. وأنا أعتبر هذه هدية سلام يا بول. أيمكن أن أناديك باسمك مجرداً".

"بالتأكيد، بيرت".

"جيد، كما أنني أفكر في أن أسمح لك بالدخول إلى منــزل الفقيدة".

"يسعدني هذا يا بيرت".

"أنت تريد أن تتحدث مع ولدي بخصوص القضية؟".

ثم نظر إلى ويس وقال: "أخبرهما عن كل شيء تعرفه عن تلك الفتاة".

قالت سينثيا: "لقد كانت سيدة ناضجة، ضابط في جيش الولايات المتحدة الأميركية. كما أن بيكر التي بالخارج سيدة أيضاً، مجندة في نفس الجيش".

أحنى بيرت رأسه قليلاً ملامساً لحافة القبعة: "آسف، سيدتي".

كدت أخرج مسدسي لأفرغه في هذين المتحذلقين، لأصبغهما بلون الدم في لحظات، لولا أن الوقت المتاح أمامي لإنهاء القضية ضيق.

بــدأ ويــس في إلقاء هرائه: "كنت ألتقي بآن فعلاً بين الحين والآخر، إلا أنني ألتقي نــساءً أخريات أيضاً، كما أنها كانت تلاقي رجالاً آخرين، ولم يجد أيٌّ منا غضاضةً في

هــذا. وكــنت أســتقل دورية في شمال ميدلاند في الليلة التي لقت فيها مصرعها، خلال دوريـــة تستمر من منتصف الليل حتى الثامنة صباحاً، ويشهد على كلامي الكثيرون، بما في ذلك زملائي والعاملون بمحطة وقود، وغيرهم. هذا كل ما لدي".

"أشكرك أيها الضابط ياردلي".

لــم يــتحدث أي مــنا لبضع ثوانٍ، ثم سألت سينثيا ويس، "هل أحزنك مصرع آن كامبيل؟".

بدا أنه يفكر في ما وراء السؤال، ثم أجاب، "أجل سيدتي".

سألته: "هل عليَّ أن أحضر لك دواءً مهدئاً أو شيء من هذا القبيل؟".

ضحك بيرت وقال لولده: "نسيت أن أخبرك يا بني أن صاحبنا هنا خفيف الدم".

فقلت لبيرت: "أود أن أتحدث معك على انفراد".

"على الرحب والسعة، ولكن يمكنك أن تتحدث في أي شيء أمام ابني".

"ليس كل شيء أيها القائد".

نظــر إلــيَّ للحظة، ثم قال: "حسناً..." ووجه كلامه لابنه: "سوف أتركك وحدك مع السيدة، فعليك أن تتحلى بالذوق" وضحك متابعاً "فهي لا تعلم شيئاً عن ألاعيبك".

بعــدها فارقت المكتب مع بيرت، ووجدنا غرفة خاوية لنجلس بها. جلسنا متقابلين، بينــنا طاولــة طــويلة، وقال لي بيرت: "إن هؤلاء الصحفيين الملاعين بالخارج شديدو الفــضول. إنهــم يسألون عن تلك الشائعات التي تقول بأن علاقات ابنة الجنرال الغرامية كثيرة. هل تفهمني؟".

لــم أتذكر أني سمعت أي سؤال من هذا القبيل من أولئك الصحفيين، لكنني قلت له: "لا يميل المحقق إلى الإفصاح عن أفكاره أمام الصحافة".

"بالطــبع. إن علاقتي جيدة بالجنرال، ولذا لم أكن أرغب في أن يتناولوا سمعة ابنته بهذه الطريقة".

"لو كنت تلمح إلى شيء فأرجو أن تفصح عنه مباشرةً".

"لقــد بدا لي أن التحقيقات العسكرية قد فازت بقصب السبق في هذه القضية، وأنكم حينما تلقون القبض على الجاني سوف تتجاهلون أي دور للشرطة المحلية".

هذا الأسلوب يضايقني، إلا أن بيرت ياردلي يضايقني أكثر. قلت: "عليك أن تطمئن أيها القائد من أننا سنثني على إدارتك الثناء الذي تستحقه".

فــضحك، "بالطــبع، وهــذا كــل ما أخشاه يا بني. فنحن نريد أن نشترك الآن في التحقيقات".

"عليك أن تناقش الأمر مع المباحث الفيدرالية. فسوف يتولون المهمة بدءاً من الغد".

"هل أنت جاد؟".

"بالتأكيد".

"حسناً. أرجو إذن أن تكتب في تقريرك الآن شيئاً جيداً عن إدارة شرطة ميدلاند".

"لماذا؟".

"لماذا؟ لأنك نقبت في ملفات العاملين لدي، فها أنت ترى هؤلاء الصحفيين يتساءلون عن مدى تورط ابني في علاقة مع القتيلة، ولأنك تصر على أن تجعلني أبدو مغفلاً لا يعلم ما يدور حوله، ولأنك بحاجة شديدة إلى سلطاتي... فعليك أن تصحح الموقف".

كان الانزعاج بادي الوضوح على الرجل، ولم أكن لألومه على هذا. إن هناك علاقة تكافلية غريبة بين الجيش وما يحيط به من مجتمع مدني، خاصة في الجنوب الأميركي. حتى إنها قد تبدو في أسوأ أحوالها أشبه بعلاقة جيش غازٍ يحتل أرضاً ليست ملكه. أما إذا أدرك الجنوبيون أن أغلب العاملين في القاعدة العسكرية من أهل الجنوب، فإنهم يحولون المكان إلى شيء أشبه بمصنع السيارات، فيتعاملون معه كيف شاؤوا. إلا أن الفارق هو أن للجيش قواعده وقوانينه الخاصة، وهكذا نجد أن الواقع نطاق يتراوح بين هذا وذاك. على أنني قلت متحلياً بروح التعاون: "لسوف أعرفك بمسؤول المباحث الفيدرالية ما أن أتعرف أنا عليه وسوف أحيطه علماً بمدى تعاونك معنا".

"هذا جميل منك يا بول. كما أن عليك أن تكتب تقريراً بهذا أيضاً، حيث إن بيل كينت يقوم بكتابة شيء مشابه الآن. ما المانع في أن نستدعيه إلى هنا ونعقد اجتماعاً".

"ليس لديَّ وقت كافٍ للاجتماعات. وسوف تشترك في التحقيقات المستمرة هذه بكل ما تتيحه سلطاتك. فلا تقلقْ حول هذا".

"ما الذي يجعلني أشعر بأنك تخدعني يا بول؟".

"وكيف لي أن أعرف".

"سأخبرك أنا، هذا لأنك لا تعتقد أن لديَّ ما أمسكه عليك، كما أنك لا يمكن أن تفعل ما أطلبه أنا من دون مقابل. والحقيقة أنني أرى أن لديَّ شيئاً يمكنه أن يجعلك تغلق ملف هذه القضية".

"هل هذه حقيقة؟".

"بالتأكيد. فلقد وجدت بعض الأدلة في منزل القتيلة مما فات عليكما التعرف عليه. على أن الأمر يتطلب تعاوناً بيننا لأجل الاستفادة منها".

"حقاً. أتعني تلك الأشياء الموجودة في غرفة القبو؟".

اتسعت عيناه على آخرها، ولم يستطع الكلام لبرهة من الوقت، ولكنه قال: "لماذا تركتما كل تلك الأشياء وراءكما؟".

"لقد كنت أعتقد أن غباءك سيمنعك من أن تتعرف على مكانها".

ضحك ثم قال: "والآن من تراه الغبي بيننا؟".

"إلا أنني لم أترك كل شيء. فلقد حملنا معناً أكياساً من الصور الفوتوغرافية وأشرطة الفيديو". لم نفعل، ولكن هذا ما كان مفروضاً أن نفعله.

تأملني لدقيقة، وكان القلق قد أصبح بادياً على محياه. قال: "أنت ولد ذكي إذن".

"بالفعل".

"وأين تلك الأشياء؟".

"في عربتي التي أسكنها، ولم تتوصل أنت إليها".

"لا تتلاعب بي يا ولد. لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل".

"وما الذي يهمك في مكانها؟".

"لأنها تخصني".

"هي لا تخصك".

تنحنح ثم قال: "هناك الكثيرون ممن تورطوا في الأمر، وهو ما نسعى إلى التأكد منه من خلال مضاهاة الصور والأفلام مع سماتهم".

"هذا صحيح. ومن بينهم أنت".

حدق فيَّ، فأخذت أنظر إليه في تحدٍ. وقال: "ليس من السهل خداعي".

"اسمع أيها القائد. أنا أعرف أن العلاقة بين ويس وآن لم تكن على النحو الذي ذكره ابنك. قد لا تكون العلاقة بينهما مثالية، إلا أن عمرها عامان، ومعلوماتي تقول بأنها كانت بالغة الحميمية. وسؤالي الآن هو: أكان ابنك يعلم بأنك كنت تضاجع عشيقته؟".

كان الذهول قد بلغ مبلغه به، لذا سألته ثانيةً: "وهل كانت السيدة ياردلي على علم بأنك كنت تضاجع ابنة الجنرال؟ أنا عن نفسي لا أجد ضرورة في أن أذهب لأتناول العشاء بمنزلك الليلة يا بيرت".

كان القائد لا يزال ذاهلاً. لذا قلت له: "إنك لم تعثر على تلك الغرفة صدفةً، إلا أن هذا هو ما أخبرت به ويس. فربما علم ويس بأن صديقته تواعد آخرين بين الحين والآخر، إلا أنه لم يكن يضاجعها سوى في غرفة نومها، لأنه لو علم بأمر تلك الغرفة، لكان قد قطع علاقته بها كتصرف طبيعي من رجل جنوبي محترم. أما أنت فكنت تعلم عنها كل شيء، إلا أنك لم تخبر ابنك أي شيء عنه، لأن آن كامبيل هددتك بألا تفعل.

فهي تميل إلى ويس. أما أنت فكنت مجرد شخص آخر تضاجعه لمجرد أن لك سلطة على ولدك. كما أن سلطتك تتيح لك أن تخرجها من أي مأزق قد تقع فيه داخل بلدتك. فلم تكن بالنسبة لها سوى تأمين إضافي ليس إلا. فها أنت ذا تدرك أن هناك الكثير مما يربطك بابنك بخلاف كونك والده، وأن آن كامبيل قد حولت حياتك إلى جحيم مرعب. وأرى أنها قد أخبرتك ذات يوم بأنها لن تهتم لو قمت باقتحام المكان وأخذ كل ما في تلك الغرفة، وذلك لأن لديها نسخاً منها في مكان آخر. ولم يكن من الصعب التعرّف عليك وسط جميع من قامت بتصويرهم. لذا كان عليك أن تفكر في زوجتك، وابنك، وأبنائك الآخرين، ومكانتك في مجتمعك، وفي ثلاثين سنة قضيتها في الخدمة حتى وصلت إلى القمة، ومن هنا قررت أن تتخلص من هذه القنبلة الموقوتة". تطلعت إليه وأنا أضيف: "فهل هذا صحيح؟".

كنت أتوقع أن يشحب لون وجهه، إلا أنه ازداد احمراراً. وفي الأخير قال: "لم أكن من الغباء الذي يجعلني أتركها تصورني".

"هل أنت متأكد من هذا؟ هل أنت متأكد من أنها لم تسجل صوتك؟".

"لن يكون لأي تسجيل صوتي أية أهمية".

"بل له من الأهمية ما يكفي لتشويه اسمك لدى عمدة البلدة".

مكثنا لبرهة من الوقت في صمت، وكأننا نلعب الداما ونحاول أن نخمن الثلاثة حركات التالية. هزّ بيرت رأسه، ثم قال وهو ينظر إليَّ مباشرةً: "لقد فكرت مرة أو مرتين في أن أقتلها".

"هل أنت جاد؟".

"ولكن من الصعب عليَّ أن أقتل امرأة لشيء اقترفته أنا".

"هذه فروسية إذن".

"يمكنك أن تقول هذا.. على أنني كنت في زيارة عمل لأطلانطا ليلة ذلك الحادث. ولديَّ الكثير من الشهود على هذا".

"سوف أستجوبهم".

"قم بهذا، وسوف تجد أنك قد أصبحت مغفلاً كبيراً".

"لست أنا من لديه دافع للقتل". وللحق فلم أكن أعتقد أن بيرت ياردلي هو القاتل، إلا أن المتهم عادةً ما يصاب بالعصبية إن قلت له بأنك ستتأكد من حجة غيابه، حيث إنه سيكون أمر محرج له أمام الجميع.

قال لي: "لتذهب دوافعك لفعل هذا إلى الجحيم. إلا أنني قد أهتم بما وجدته مما يربط بيني وبين القتيلة".

"قد تهتم؟!. حسناً، وأنا بدوري قد أمتلك صورة لك معها في الفراش".

"وقد لا تملكها".

"فكيف أمكنني إذن أن أربط بين هذا الجسد البدين وتلك الغرفة؟".

"هذا هو السؤال، أليس كذلك؟" وتراجع في مقعده وكأنما يهم بالنهوض والانصراف، "إنك تحاول فقط أن تثير الشبهات من حولي. وليس لديك الوقت الكافي لهذا".

هـــنا طرق أحدهم الباب، ثم فتحه. ودلفت بيكر لتسلمني ظرفاً مغلقاً ثم غادرت الحجرة. فتحت الظرف، الذي احتوى على عشرات الأوراق المطبوعة. فتناولت من بينها ورقة بشكل عشوائي، وبدأت أقرأ، "الثاني والعشرين من نيسان/أبريل... مر بي بيرت ياردلي في الساعة 21:00. كنت مشغولة بكتابة التقارير، إلا أنه كان راغباً في النـــزول إلى القبو. وأحمد الله أن الـــرغبة لا تجتاح هذا الرجل سوى مرة في الشهر. فهبطنا إلى القبو، وأمرني بأن أخلع عني ملابـــسي ليفتـــشني ذاتـــياً. وأعتقد أنه يفتش ذاتياً وبنفسه كل أنثى تعجبه. وهكذا تجردت من ملابـــسي أمامه بينما وقف واضعاً يديه عند خصره يراقبني، ثم أمرني بأن أستدير، وأن أميل بجذعـــي للأمام، مباعدة بين ساقيّ، ففعلت. ... أخبرني أنه يبحث عن مخدرات أو أية رسالة سرية. وبعدها أمرني بأن أستلقي على ظهري حتى يستطيع أن يفحص...".

"حسناً حسناً يا بني".

نظرت إليه من فوق الورقة. "هل يثير هذا ذكرى لديك، أيها القائد؟".

"ليس تماماً... من أين أتيت بهذه الأوراق؟".

"من جهاز الكومبيوتر خاصتها".

"لا يبدو لي أنه دليل مقبول قانونياً".

"إلا أنه من الممكن أن يؤخذ به في حالتنا هذه".

"قد لا يعدو أن يكون مجرد خيال مريض. من قبيل تلك الروايات".

"بالفعل. لذا فسوف أحوله إلى المدعي العام العسكري وللمدعي العام لولاية جورجيا للتقييم من الناحيتين القانونية والعقلية، فربما برأت ساحتك".

"بـــرأتها مـــن ماذا؟ فأنا لم أخرق القانون حتى لو كانت كل كلمة صحيحة في تلك الأوراق".

"لـــست خبيـــراً بقوانين الممارسات الجنسية في جورجيا، إلا أنني أعتقد بأنك بتلك الأفعال قد خرقت ميثاق زواجك".

"توقف عن تلك الحيل. فأنت رجل، وعليك أن تتصرف بما يليق بالرجال وأن تفكر مثلهم. هل أنت شاذ أم ماذا؟ هل أنت متزوج؟".

تجاهلـته وأنـا أقلـب في الأوراق التي بين يداي. "يا الله.. بيرت... لقد استخدمت كـشافك الضوئي لتستكشف... وهنا استخدمت هراوتك... ومسدسك؟. أنت شجاع بالفعل. فأنـت إذا محـب لكل ما هو طويل وقاسٍ كما أرى. إلا أنني لم أجد ذكراً لكونك قد قمت باستخدام الشيء الطبيعي لمثل هكذا استكشاف...".

نهـض قائلاً: "عليك أن تحذرني أيها الولد من الآن فصاعداً". اتجه نحو الباب، إلا أننـي كنت أعلم بأنه لن يجرؤ على مغادرة الحجرة، فلم ألقِ له بالاً. وسرعان ما عاد إلى الطاولة، وجذب المقعد الذي بجانبي وجلس عليه في وضع معاكس، ومال إليَّ وأنا أتساءل عـن معنـى أن يجلس على المقعد بهذه الصورة. ربما كانت وضعية يحمي بها نفسه، أو يقـصد منها التهجم عليّ، فأياً ما كان مقصده، إلا أني أعلم أنه أصبح في حالة شديدة من الفزع. فنهضت لأجلس على ظهر الطاولة. "حسناً يا بيرت، كل ما أريده منك هو أن تعيد إليَّ كل دليل وجدته في تلك الغرفة".

"لن أفعل".

"عـندئذٍ لن يسعني سوى أن أرسل نسخة من هذه المذكرات إلى كل من ورد اسمه في دليل هاتف ميدلاند".

"عندها سأقتلك".

لقد اقتربت من هدفي الآن، لذا قلت له: "فلنتبادل الأدلة إذن".

"محال، فلديَّ من الأدلة ما ينهي الحياة المهنية لأغلب كبار الضباط في هذه القاعدة. هل يسعدك أن يحدث هذا؟".

"ليس لديك سوى صور لوجوه مقنعة. أما أنا فلديَّ المذكرات".

"لـديَّ بصمات أصابع كل من دخل إلى ذلك المكان اللعين. وسوف أقدمها للمباحث الفيدرالية والجيش".

"هل لا تزال تلك المتعلقات في الغرفة؟".

"ليس هذا من شأنك".

"حسناً.. فما رأيك في أن أشعل الأمر؟ وسأبدأ بهذه الصفحات التي تصف شطحاتك الجنسية. فهي وحدها تكفي".

سكت للحظة، ثم قال: "هل يمكنني أن أثق بك؟".

"يمكنك أن تثق في كلمة ضابط بالتأكيد".

"حقاً؟".

"وهل يمكنني أنا أن أثق بك أنت؟".

"كلا، ولكني أطلب منك ألا تخبر زوجتي وابني بهذه الأمور".

وقفت وأخذت أنظر عبر النافذة. لا يزال الصحفيون في موضعهم، إلا أن هناك كوردوناً من الشرطة العسكرية حولهم الآن، حيث أرجعوهم إلى الخلف بعيداً عن المبنى مسافة خمسين متراً، حتى لا يعطلون الدخول والخروج إلى المبنى. كنت أفكر في ما أنا على وشك الدخول فيه من صفقة مع القائد ياردلي. فتدمير الأدلة كفيل بأن يتسبب في سجني. بينما لن يهمني في شيء أن يتم تدمير سمعة أولئك الأشخاص. التفت متجهاً إلى ياردلي وأنا أقول: "اتفقنا".

نهض وصافحني. قلت: "ضع كل شيء في عربة، بما في ذلك الأثاث والمفروشات والسجادة وأشرطة الفيديو والصور وكل تلك الأدوات، وأحضرها إلى محرقة القمامة في البلدة".

"متى؟".

"حينما ألقي القبض على الجاني".

"ومتى سيتم هذا؟".

"قريباً".

"ألا تريد أن تخبرني عن هذا؟".

"كلا".

"أتعلم أن التعامل معك يثيرني".

"أشكرك" سلمته الأوراق المطبوعة قائلاً: "حينما نحرق تلك الأغراض سآمر بأن يتم حذف هذه الكتابات من الكومبيوتر. ويمكنك أن تحضر هذه العملية".

"الآن يمكنني أن أثق بك بعد أن قررت ألا تستغل ما وجدته ضدي، هذا لأنك ضابط ورجل. إلا أنك لو كنت تخدعني، فسوف أقتلك، وليشهد الله على هذا".

"أفهم ذلك. وأنا أقدم لك الوعد نفسه. فنم مطمئناً. فالأمر يكاد أن ينتهي".

مشينا إلى الخارج وعبر الممر حتى عدنا إلى المكتب. وقلت له ونحن في طريقنا: "عليك أن ترسل أغراضي الشخصية إلى استراحة الضباط، اتفقنا؟".

"بالتأكيد يا بني".

كان سينثيا وويس ياردلي يجلسان إلى المكتبين، وتوقفا عن الكلام ما أن دخلنا عليهما.

قال بيرت ضاحكاً: "هل جئنا في وقت غير مناسب؟". نظرت له سينثيا نظرةً تقول: "يا لك من أبله".

نهـض ويس ليقف بالقرب من الباب. ونظر إلى الأوراق التي في يد والده وسأله: "ما هذا؟".

"أوه... مجـرد أوراق عـسكرية لا أهمـية لها ولكن عليَّ أن أقرأها". ثم نظر إلى سـينثيا ملامـساً قبعته." أسعدني لقاؤك سيدتي" ثم قال لي: "أخبرني بالجديد أولاً بأول" ثم انصرف هو وابنه.

سألتني سينثيا: "هل جاءتك بيكر بالأوراق؟".

"أجل".

"هل كان بها ما تريد؟".

"لقد وجدها بيرت محرجة نوعاً ما". أخبرتها بمجريات ما حدث، وقلت لها: "سوف يتم حرق كافة المتعلقات الموجودة في غرفة القبو، وهذا أفضل لنا".

"أنا لا أحب مثل هذا التصرف الدفاعي يا بول".

"كنت لأفعل الشيء نفسه لأجل أي ضابط. سوف يكون علينا أن نلقي بشهادتنا تحت القسم يوماً ما، لذا فلنكون كاذبين وقتها".

"سـوف نناقش هذا فيما بعد. أما الآن فأود أن أخبرك بأنني وجدت أن ويس ياردلي ليس بالفظاظة التي يبدو عليها".

"جميعهم كذلك".

"هـذا صحيح. فهو شديد الحزن على آن كامبيل، وقد قلب ميدلاند رأساً على عقب محاولاً البحث عن الجاني".

"جيد. ألم يراودك شعور بأنه يعتبر أن آن كامبيل حبيبته هو وحده؟".

"نـوعاً ما. فلقد سألته عما إذا كان يسمح لها بأن تواعد رجالاً آخرين، فقال لي بأنه كـان يـسمح لها فقط بأن تتناول معهم الطعام أو الشراب خلال المناسبات الرسمية داخل القاعدة. ولم يكن يرغب في أن يرافقها خلال تلك الحفلات، ومن هنا كان يسمح لها بذلك ومع الحمقى من الضباط بالأخص، هذا ما قاله لي".

"كان يحبها إذن".

"بالتأكـيد. إلا أنه لم يكن يستطيع أن يراقبها طوال الوقت، فمتى كانت هناك رغبة في فعل شيء ما فإن المرء لن يعدم الوسيلة".

"معـكِ حـق. إذن فلـم يكن له علم بكل ما كان يجري، ومن أنها كانت تتوسع في عملياتها بشكل غير تقليدي".

"أشك في أنه كان يعلم".

"ولو أنه اكتشف أن والده متورط معها، فلا بد من أن هذا كان كفيلاً بأن يثير غضبه".

"هذا أقل شيء".

"لم يحدث من قبل أن وقعت يداي على كل هذا الكم من الفضائح".

"هل ترغب في تناول شطيرة طعام؟".

"هل أنت من سيدفع؟".

"لا مانع... إنني بحاجة إلى شيء من الهواء الطلق. سأعرج إلى نادي الضباط".

"سأتناول شطيرة لحم بالجبن مع البطاطس المقلية والكولا".

"حسناً عليك بترتيب هذا المكان حتى أعود".

هاتفت بيكر لتحضر إليّ. فسلمتها ورقة بخط اليد تخص ديلبيرت إيلكينز وطلبت منها أن تكتبها على الكومبيوتر.

فقالت لي: "هل يمكن أن تأمر بنقلي للالتحاق بمدرسة التحقيقات العسكرية؟".

"هي ليست بالدراسة المشوقة التي تتخيلينها يا بيكر".

"إنني أود أن أصبح محققة جنائية".

"والسبب؟".

"إنها مهنة مشوقة".

"لم لا تأخذين رأي الآنسة صنهيل حولها؟".

"لقد فعلت، حينما كانت هنا بالأمس. وقالت لي إنها مهنة مشوقة ومثيرة، تشتمل على الكثير من الأسفار ومقابلة الأشخاص المثيرين للاهتمام".

"وإلقاء القبض عليهم كذلك".

"لقد أخبرتني بأنها التقت بك لأول مرة في بروكسل. وقد أحسست بشيء من الرومانسية في كلامها".

لم أجبها.

"وأخبرتني بأنها ستتوجه لتولي عمل مكتبي في قاعدة بنما حينما تنتهي من هذه القضية".

"هل يمكن أن تحضري لي بعض القهوة الساخنة".

"حاضر سيدي".

"من فضلك".

وانصرفت.

إذن فهي بنما.

الفصل الخامس والعشرون

هاتفني الكولونيل فاولر في الساعة 16:45 فتلقيت الاتصال، وطلبت من سينثيا أن تستمع من السماعة الأخرى.

قال الكولونيل فاولر: "يمكنكما مقابلة زوجتي في الساعة 17:30 بالمنزل، والسيدة كامبيل في الساعة 18:00، في بيومونت، أما الجنرال فسيلقاكما بمكتبه بمبنى القيادة في الساعة 18:30 تماماً".

علقت: "هكذا تكون فترة كل مقابلة ضيقة جداً".

"في الحقيقة أن كل مقابلة ستكون قصيرة".

"هذا ما قصدته".

"إن الثلاثة أطراف الذين تودان لقاءهما واقعان تحت ضغوط كبيرة يا سيد برينير".

"وأنا كذلك، إلا أنني أشكرك على كل حال".

"ألم تنتبه يا سيد برينير أن أسلوبك هذا يثير الغضب؟".

"بلى".

"إن الجنازة – كما كنت قد ذكرت – صباح الغد. فلماذا لا تقوم أنت والآنسة صنهيل بتقديم تقريركما للمباحث الفيدرالية، ثم تحضران الجنازة إذا رغبتما، وبعدها ترحلان. فالتحقيقات ستستمر بشكل جيد من دونكما، وسوف يتم تقديم القاتل للعدالة في الوقت المطلوب. فنحن لسنا في عجالة من أمرنا هنا".

"لم أكن متعجلاً، إلا أن الأغبياء في واشنطن هم من اضطروني لذلك".

"لقد اخترت منذ البداية يا سيد برينير أن تتصرف هنا من دون أية مراعاة للبروتوكول أو أحاسيس الآخرين".

"هذا هو أسلوبي الذي يحقق ما أهدف إليه، سيدي الكولونيل".

"إلا أنه يثير مقت الآخرين تجاهك".

"صحيح. وأنا أعلم منذ البداية أن هذه القضية سوف تسحب مني، ومن إدارة التحقيقات العسكرية. فلقد فعل البنتاغون والبيت الأبيض ما هو منطقي من الناحية

السياسية، هذا بفضل تحكم المدنيين في الجيش. إلا أنني سأستغل كل دقيقة في العشرين ساعة المتبقية أمامي".

"كما ترغب".

"وثق أنني سوف أنهي هذه القضية بطريقة لن تشين القوات المسلحة. ولا تثق في أن المباحث الفيدرالية أو مكتب المدعي العام سيفعلان هذا".

"ليس لي تعليق على كلامك".

"هذا أفضل".

"بالمناسبة يا سيد برينير، فإن طلبك الخاص بالحجز على مكتب الكولونيل مور قد وصل إلى البنتاغون، ورفضوه لأسباب تتعلق بالأمن القومي".

"سبب منطقي يا سيدي. إلا من الغريب أن يطلب مني هؤلاء أن ألقي القبض على مور بتهمة القتل، وفي ذات الوقت لا يمنحوني تصريحاً بفحص أوراقه".

"هذا ما يحدث عادةً حينما نطلب منهم طلباً، وأنت تعلم هذا".

"بالطبع. وهذه هي آخر مرة أتصرف فيها بشكل رسمي".

"هذا متروك لك. إلا أن البنتاغون كان قد ذكر أنك لو ألقيت القبض على الكولونيل مور وقتها، فإنهم كانوا سيرسلون شخصاً إلى هنا مخول له أن يساعدك في فحص ما تختاره من ملفات. إلا أن ذلك كان سيتم وفقاً لشروطهم هم".

"معك حق. لقد مررت بشيء من هذا قبلاً. ولو أني فقط علمت ما الذي أبحث عنه هناك، فربما لا أكون بحاجة إلى فحص تلك الملفات".

"هذا أفضل ما أمكنني أن أساعدك به، كما أنني قررت أن أرسل أشخاصاً من مدرسة الحرب النفسية لكي يستعيدوا محتويات مكتب آن كامبيل. ولن توجه إليك والكولونيل كينت تهمة نقل تلك المتعلقات من دون إذن، إلا أن هناك لفت نظر سيوضع في ملف كلاً منكما... فعليكما أن تحترما القانون مثلنا جميعاً".

"عادة ما أفعل هذا، فقط إن كنت أعلم تلك القوانين".

"أنت تعلم أنه ليس من حقك الاستيلاء على مستندات من دون تصريح رسمي".

"هناك من يحاول أن يعيقني، سيدي الكولونيل".

"بل هناك من يحاول أن يوقع بك، ألا تعلم السبب؟".

"لا أعلم".

"هل قمت بالبحث في ملف النقيب كامبيل أثناء وجودها في ويست بوينت؟".

"هذا صحيح. هل كان هذا خطأ؟".

"هذا واضح".

نظـــرت إلى سينثيا ثم سألته: "هل من الممكن أن تخبرني كل شيء عن الموضوع سيدي الكولونيل؟".

"أنا لا أعلم شيئاً عنه، فيما عدا أنهم سألوني عن سبب طلب هذا".

"من هم؟".

"ليس لي أن أذكر هذا لك. إلا أنك يجب أن تدرك أنك قد أصبت وتراً حساساً يا سيد برينير".

"أشعر أنك تحاول أن تساعدني، سيدي الكولونيل".

"هذا يعتمد على عدة اعتبارات، فأنا أرى أنك والآنسة صنهيل أنسب من يتولى هذه المهمـــة. إلا أنكما لن تنجحا في غلق ملف القضية في الوقت المطلوب. لذا أنصحك بأن تحمي نفسك... عليك أن تهدئ إيقاع اللعبة".

"أنا والآنسة صنهيل لم نرتكب جرماً. بل نحقق في جريمة".

"لم يكن خطاب لفت النظر سوى رسالة تحذير لك. أما الرسالة التالية فستصيبك في مقتل".

"هذا صحيح، لكنني سأكون أنا من يرسلها".

"يـــا لك من متهور. نحن للحق بحاجة للمزيد من أمثالك... تأكد من أن زميلتك تفهم ما هي مقدمة عليه".

"لم أفهمك".

"ولا أنـــا أفهـــم نفسي، إلا أنه من المؤكد أنك قد أخطأت فيما يخص ويست بوينت. طاب يومك". ثم أغلق الخط.

نظرت إلى سينثيا قائلاً: "يا الله".

"من المؤكد أننا لم نخطئ فيما يخص ويست بوينت".

"هـــذا هـــو ظاهر الأمر". هاتفت جوردان فيلد طالباً جريس ديكسون، "جريس، لقد علمت للتو أن هناك أفراداً من مدرسة الحرب النفسية في طريقهم إليك لاستعادة متعلقات مكتب آن كامبيل، ومن المؤكد أن هذا سيشمل جهاز الكومبيوتر".

"أعلم هذا، فهم هنا فعلاً".

"تباً".

"لا تقلـــق، فبعد محادثتي معك قمت بصنع نسخة من كل شيء على أقراص مرنة. وها هم ينقلون الجهاز الآن، إلا أنني لا أعتقد أنهم سينجحون في التوصل إلى كلمات سر الملفات".

"تصرف ذكي منكِ يا جريس... ما هي كلمات السر؟".

"هناك ثلاث منها: واحدة للخطابات الشخصية، وثانية لقائمة أسماء وعناوين وأرقام هواتف عشاقها، والثالثة لمذكراتها... كلمة سر الخطابات هي ملاحظات بذيئة، والثانية أصدقاء أبي، أما الثالثة فهي حصان طروادة".

"حسناً... عليكِ بالاحتفاظ جيداً بذلك القرص".

"إنه قريب إلى قلبي الآن".

"جيد. لا تفارقيه إذن. سوف أتصل بكِ لاحقاً". بعدها هاتفت فولز تشيرش لأتحدث مع كارل. "لقد سمعت بأن طلبي الخاص بويست بوينت قد أغضب أو أرعب البعض".

"من أخبرك بذلك؟".

"سؤالي هو ما الذي وجدته هناك؟".

"لا شيء".

"أرجوك. هذا مهم".

"أنا أبذل قصارى جهدي".

"أخبرني بما قمت به".

"انتبه يا سيد برينير، إنني لا أخبرك بما أقوم به من عمل".

"هذا صحيح. إلا أنني قد طلبت منك أن تستخدم سلطاتك في الحصول على معلومة".

"سأتصل بك حينما أصل لشيء".

دونت سينثيا كلمة على ورقة وأرتني إياها: "هل المكالمة مراقبة؟". أومأت برأسي متفهماً. من المؤكد أن هذا ليس هو كارل الذي أعرفه. فسألته: "هل نالوا منك يا كارل؟".

أجابني بعد ثوانٍ: "لقد أغلقوا جميع الأبواب في وجهي. عليك أن تكمل القضية من دون هذه المعلومة. فلقد تأكد لي أنك لن تحتاج إليها".

"حسناً. أشكرك للمحاولة".

"أراك هنا في الغد أو بعد غد".

"حسناً.. وبما أنك لن تنشغل بطلبي ذاك، فربما تنظر لي في طلب إجازة مدتها ثلاثين يوماً لي وللآنسة صنهيل، وأن تؤكد لنا حجزاً على رحلاتنا لأي مكان نختاره".

"هذا ما يوده البنتاغون فعلاً".

"كما أن عليك أن تنزع ورقة لفت النظر تلك من ملفي".

ثم أغلقت الخط.

قالت لي سينثيا: "ما الذي يحدث هنا بحق السماء؟".

"أعتقد أننا قد فتحنا صندوق باندورا، والتقطنا علبة محشوة بالديدان، لنلقيها في عش الدبور الكبير".

"لم أفهم منك شيئاً".

"لقد انقطع طرف الخيط... إلا أنني أعتقد أن بوسعنا الاستمرار من دونه".

"لا خيار أمامنا. إلا أنني لا زلت أريد أن أعلم ما حدث في ويست بوينت".

"لقد أكد لنا كارل إنه أمر لا يهم قضيتنا هذه".

صـــمتت سينثيا للحظة، لكنها قالت: "لقد خاب ظني في كارل. فلم يخطر ببالي بأنه سيجبن عن القيام ببحث جنائي كهذا".

"ولا أنا".

أخـــذنا نـــتحاور لبـــضع دقائق محاولين أن نتفق على الطريق الذي نسلكه بالنسبة لويست بوينت. ثم نظرت لساعتي وقلت: "هيا بنا إلى بيثاني هيل". نهضنا لنرحل، إلا أننا ســـمعنا أحدهم يطرق الباب، ثم دخلت بيكر ومعها ورقة. جلست إلى مكتبي وهي تتطلع إلى الورقة.

فقلت متهكماً: "تفضلي بالجلوس يا بيكر".

تطلعـــت إليـــنا وقالت في لهجة الواثق: "في الحقيقة أن اسمي هو الضابط المساعد كايفر من التحقيقات العسكرية. ولقد جئت إلى هنا منذ شهرين في مهمة سرية طلبها مني الكولونـــيل هـــيلمان. فأنـــا أحقق في تهم خاصة بالإساءة إلى الشرف العسكري في إدارة المـــرور هنا بالذات - أي أن الأمر لا علاقة له بالكولونيل كينت أو شيء من هذا القبيل. ولقد طلب مني الكولونيل هيلمان أن أحاول الالتحاق بكما كسكرتيرة... وهذا ما قمت به".

قالت سينثيا: "هل أنتِ جادة؟ هل كنتِ تتجسسين علينا لصالح الكولونيل هيلمان؟".

"لم أكن أتجسس. بل أساعدكما. وهذا ما كنت أقوم به".

قلت: "بالفعل، إلا أنني غاضب".

قالـــت: "لا ألـــومك على هذا. لكن هذه القضية بالغة الحساسية، والكولونيل هيلمان مهتم بها".

قلت: "لقد تخلى الكولونيل هيلمان عنا للتو".

لـــم تجب على هذا التعليق، لكنها قالت: "لقد كنت هنا منذ شهرين، ولقد سمعت تلك الـــشائعات المتعلقة بالكولونيل كينت والنقيب كامبيل والتي أخبرتكما عنها. وهي صحيحة، إلا أننـــي لم أبلغ عنه الإدارة لأني لم أعتد هذا. كما أنني لم أجد فيما فعل شيء يشين إلى واجـــبه العسكري، وهي لم تخرج عن نطاق الشائعات في نهاية الأمر. إلا أنني أرى الآن أن جميع الأمور لها صلة بالقضية هذه".

ردت سـينثيا: "بالفعل لها صلة، إلا أنها ليست دليلاً مادياً على أي شيء سوى غباء أطرافها".

هـزّت كتفـيها. وسلمتني الورقة قائلةً: "لقد وصلتني مكالمة من فولز تشيرش منذ بـضع دقائـق تأمرنـي بأن أكشف عن هويتي لكما، وأن أقف عند جهاز الفاكس، حيث أرسلوا لي هذه الورقة".

نظـرت إلى الورقة المرسلة، والتي كانت موجهة إليَّ وإلى سينثيا. وقرأت بصوت عالٍ: "بخصوص طلبك – هاتفياً – بالبحث في ويست بوينت، فلقد وجدنا أن جميع الملفات إمـا مخـتومة أو غير موجودة، أما من سألناهم فلم يجيبونا بشيء. على أنني هاتفت أحد ضباط التحقيقات العسكرية المتقاعدين والذي كان في ويست بوينت خلال الفترة المطلوب الـبحث فيها. فتحدث ذلك الشخص بشرط عدم ذكر اسمه، وأخبرني بالآتي: خلال إجازة الـصيف التي تفصل بين أول وثاني عام للمستجدة كامبيل بالأكاديمية تم إخضاعها للعلاج فـي عـيادة خاصة لبضعة أسابيع. ويبين التقرير الرسمي أنها قد تعرضت لحادث أثناء التدريـبات في معسكر باكنر خلال التدريبات الليلية. ومصادري تؤكد أن الجنرال كامبيل قد جاء خصيصاً من ألمانيا في اليوم التالي للحادث. هذه هي القصة التي جمعها مصدري اعتماداً على ما شاع وقتها: ففي آب/أغسطس، وخلال التدريبات، كان على المستجدين أن يقومـوا بـدوريات ليلـية في منطقة الغابات، وسواءٌ أكان الأمر مصادفةً أو عمداً، فإن المـستجدة كامبـيل قد انفصلت عن المجموعة الأكبر لتجد نفسها مع مجموعة مكونة من خمسة أو ستة ذكور – بينهم مستجدون وآخرون من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً الذين كانوا يشرفون على التدريبات. كانوا يضعون أصباغاً للتمويه، وكانت الليلة مظلمة. ولقـد قام هؤلاء بجذب المستجدة كامبيل عنوةً، وقيدوها إلى الأرض بأوتاد الخيام، ثم تـناوبوا علـيها. ولم يتضح ما حدث بعد ذلك، إلا أن من الواضح أنهم قد هددوها إن هـي أبلغـت عن الواقعة، ثم فكوا قيدها وهربوا. وكان قد تم التبليغ عن اختفائها ولم يجدها أحد حتى الفجر، حينما ظهرت في منطقة التجمع، وهي في حالة هيستيرية. فتم نقلهـا أولاً إلـى المستشفى العسكري، حيث تم علاجها من الجراح والسحجات ومن الإنهـاك. ولم تشر التقارير الطبية إلى تعرضها للاغتصاب والاعتداء الجنسي. وصل الجنـرال كامبيل، وتم نقلها إلى عيادة خاصة. ولم يتهم أحد في الواقعة، ولم يتخذ أي رد فعـل، وتم التستر على الواقعة من أجل سمعة الأكاديمية، وعادت الطالبة كامبيل للدراسـة فـي أيلول/سبتمبر. وتقول الشائعات بأن الجنرال فرض على ابنته ألا تقوم بتصعيد الأمر – وربما كانت هناك ضغوط على الجنرال نفسه من سلطات أعلى منه. هـذا هـو كـل شيء. عليكم بتمزيق هذه الرسالة، ومحو تسجيل الفاكس. حظ سعيد. الكولونيل هيلمان".

ناولت الورقة لسينثيا، فقالت: "لقد اتضح الأمر الآن، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي.

سألتنا كايفر: "هل عرفتما من هو القاتل؟".

قلت: "كلا. لكننا علمنا بسبب وجودها في ساحة الرماية ليلتها".

وضعت سينثيا رسالة كارل في آلة تمزيق الورق وهي تقول لكايفر: "كانت بيكر تود أن تصبح محققة عسكرية".

"أجل سيدتي. إلا أنني سوف أبقي عيني وأذني مفتوحتين".

"عليكِ بهذا".

قلت لها: "أخبري الكولونيل كينت بأن السيد برينير يريد منع الكولونيل مور من مغادرة القاعدة حتى إشعار آخر".

"نعم، سيدي".

غادرت المكتب مع سينثيا، من الباب الخلفي تفادياً للصحفيين، متجهين إلى موقف السيارات. قلت لها: "سأقود أنا السيارة". وهكذا دلفنا إلى سيارتي أنا هذه المرة.

قلت لها ونحن نتجه إلى بيثاني هيل: "لم يكن كارل وغداً".

ابتسمت: "هل تصدق أن يفعل معنا كل هذا؟".

"لقد بدت لي مألوفة الملامح. كما أنني كنت أشعر أن هناك خطأ ما".

"عليك أن تعترف يا بول. فلقد تم خداعك كما خدعت أنا. يا إلهي... إن عليَّ أن أترك هذه المهنة بالفعل".

"وماذا عن بنما؟" رمقتها فوجدتها تنظر إليَّ.

"لقد تقدمت بطلب تولي منصب إداري في القوات الخارجية، لأنني أردت أن أتفادى أن أحمل لقب المحققة السابقة".

"تفكير سليم. ها قد رأينا أن ما حدث في ويست بوينت كان شيئاً بالغ الحساسية وبمثابة نقطة التحول".

"أجل. فلا يمكن أن أصدق أن يشارك أب في عملية التعمية هذه... ولو فكرت في الأمر... أقصد أن ما حدث في تلك الأكاديمية شيء لا يصدق. كما أن الجنرال أراد أن يحفظ منصبه، وربما أراد أن يحافظ على سمعة ومستقبل ابنته في الجيش ففعل ما فعل. إلا أنه لم يعلم أن ما قام به سوف يؤدي إلى نتيجة معاكسة".

"بالفعل".

"إن المــرأة التــي تجبر على كتمان ما تعرضت له من اعتداء جنسي عادةً ما تدفع ثمن هذا فيما بعد".

"أو تجعل الغير يدفع ثمن هذا".

"هذا صحيح. وأحياناً ما يكون الأمران معاً. فما حدث في ساحة الرماية كان محاكاة لواقعة الاغتصاب في ويست بوينت، أليس كذلك؟".

"أخشى أن هذا صحيح".

"فيما عدا أنها قتلت هذه المرة".

"صحيح".

"هل هو والدها؟".

"عليــنا أن نتوصــل إلى المعلومة المتبقية حتى نتمكن من إعادة تمثيل الجريمة من البداية وحتى النهاية".

بقيت صامتة لدقيقة، ثم قالت: "هل تعرفت على من قتلها؟".

"بل عرفت من لم يقتلها".

"لا أحب أن تكون على هذا الغموض يا بول".

"هل توصلتي أنتِ إلى القاتل؟".

"لديَّ بعض ممن أشك فيهم".

"علــيكِ أن تبنــي قــضية تجــاههم، ومن ثم سنحاكمهم الليلة في مقر استراحة الضباط".

"تــبدو لــي فكرة جيدة. كم أتمنى لو ألقينا القبض على الجاني قبل بزوغ صباح الغد".

الفصل السادس والعشرون

وصلنا إلى منـــزل آل فاولر في بيثاني هيل حيث قرعنا الجرس.

حيّتـــنا الـــسيدة فاولر، وقد بدت أقل حزناً مما كانت عليه هذا الصباح. رافقتنا حتى حجـــرة المعيـــشة وعرضـــت علينا القهوة وغيرها، إلا أننا رفضنا شاكرين. جلست على الأريكة، بينما جلسنا على المقعدين المقابلين لها.

كـــنت أنا وسينثيا قد تناقشنا فيما يجب أن نوجهه إليها من أسئلة، وقررنا أن تتولى سينثيا عملية توجيه مسار المقابلة. وهكذا أخذت تتباسط في الحديث مع السيدة فاولر حول الحـــياة والجيش وفورت هادلي وغير ذلك، ثم – وبعدما ارتاحت لنا السيدة فاولر تماماً – قالـــت لها سينثيا: "أرجو أن تطمئني إلى أننا لا نرغب سوى في تحقيق العدل. ولسنا هنا من أجل أن نشوه سمعة أحد. بل لنلقي القبض على القاتل، كما أننا نريد أن نتأكد من عدم تورط أبرياء في هذه القضية".

هزّت السيدة رأسها متفهمة.

تابعت سينثيا كلامها، "تعلمين أن آن كامبيل كانت على علاقة جنسية مع العديد من رجال هذه القاعدة. وأود أن أؤكد لكِ في البداية أن الأدلة التي جمعناها حتى الآن لا تشير إلى أية صلة بين زوجك وآن كامبيل".

هزّت رأسها مجدداً، وخيل لي أنها كانت صارمة قليلاً هذه المرة.

"نحـــن نـــتفهم موقف الكولونيل فاولر بوصفه مساعد الجنرال كامبيل كما أنه – كما أفترض – صديق له. ولقد أبدينا امتناناً لصدق زوجك معنا واستعداده لأن يتيح لنا فرصة التحدث معكِ. وأنا متيقنة من أنه قد أخبرك بأن تكوني صادقةً معنا كما كان هو، وكما كنا نحن معكما".

كانت الإيماءة هذه المرة متحفزة.

واصـــلت ســـينثيا كلامها، وهي تلف وتدور لأجل تخير لحظة توجيه سؤال مباشر، فـــتحاول الحـــديث عـــن الأمـــور الإيجابـــية، وتبدي تعاطفها، وشفقتها، وغير ذلك من الأحاســـيس. لقد تعلمنا أن نقوم بهذا مع الشهود المدنيين، والذين لا يندرجون تحت الأمر القـــضائي بحتمية الخضوع لاستجواب، ووجدت أن سينثيا قد أصبحت أمهر مني في أداء هذا الدور.

إلى أن جاءت اللحظة المناسبة، وسألتها سينثيا: "هل كنتِ في المنزل ليلة الحادثة؟".

"بلى".

"حضر زوجك من نادي الضباط حوالى الساعة العاشرة مساءً".

"هذا صحيح".

"وتوجهتما إلى الفراش في الساعة الحادية عشرة؟".

"أعتقد هذا".

"وفي وقت ما بين الساعة 2:45 و3:00 – أي الثالثة صباحاً – تقيظتما على صوت قرع جرس الباب".

لم ترد.

"فهبط زوجك إلى الدور الأرضي ليفتح الباب. ثم عاد إلى غرفة النوم ليخبرك بأن الجنرال كان هو الطارق، وأن عليه أن يرحل لمهمة عاجلة. وارتدى زوجك ملابسه وطلب منكِ أن تفعلي الشيء نفسه. هل هذا صحيح؟".

لم ترد.

"وبعدها ذهبتِ معه... وأعتقد أنكِ ترتدين حذاءً مقاس سبعة".

هنا أجابتها السيدة فاولر، "أجل، لقد ارتدينا ملابسنا وغادرنا المنزل".

صمت الجميع لبضع ثوانٍ، ثم قالت سينثيا: "ارتديتما ملابسكما وغادرتما. وهل بقي الجنرال كامبيل في المنزل؟".

"أجل".

"وهل كانت السيدة كامبيل معه؟".

"كلا، لم تكن معه".

"وهكذا فإن الجنرال بقي بالمنزل، وصاحبتِ أنتِ زوجك إلى ساحة الرماية رقم ستة، هل هذا صحيح؟".

"أجل. لقد ذكر زوجي أن الجنرال قد أخبره بأن آن كامبيل كانت عارية، وطلب مني أن أحضر معي روباً. وذكر أن آن كامبيل كانت مقيدة، لذا أخذ معه سكيناً ليقطع به الحبال".

"حسناً. قدتما السيارة عبر الطريق المؤدي إلى ساحات الرماية، وعند الميل الأخير، قمتما بقيادة السيارة من دون إضاءة مصابيحها".

"أجل، فلم يكن زوجي يريد أن يجذب انتباه أفراد الحراسة. فلقد ذكر أن هناك حراسة عبر الطريق".

"بالفعل. وتوقفتما لدى السيارة الجيب، كم كان الوقت عندئذٍ؟".

"كانت الساعة... حوالى الثالثة والنصف".

"حوالى الثالثة والنصف. ثم ترجلتما من السيارة و...".

"وأمكنني أن أرى شيئاً ما في ساحة الرماية، وطلب مني زوجي أن أذهب إلى هناك لأقطع ذلك القيد، وأن أساعدها على ارتداء الروب. وطلب مني أن أناديه إن احتجت إلى المساعدة"، ثم صمتت لحظة وبعدها أضافت، "وطلب مني أن أصفعها إن لم تتعاون معي. فلقد كان غاضباً جداً".

أمنت سينثيا على كلامها: "أنا أفهم هذا.. وهكذا اتجهتِ إلى الساحة".

"أجــل. وقرر زوجي أن يتبعني بعد أن كنت قد قطعت قرابة نصف المسافة. فأعتقد أنه كان قلقاً من رد فعل آن. فخشي أن تتعامل معي بعنف".

"واقتربتِ من آن كامبيل. هل قلتِ لها أي شيء؟".

"بلـــى، فقد ناديتها باسمها، إلا أنها لم... لم تجبني. فتوجهت إلى حيث هي مباشرةً. وجلست إلى جوارها، كانت عيناها مفتوحتين، إلا أنني.. صرخت.. فهرع زوجي إليَّ..." وهنا وضعت السيدة فاولر كفيها على وجهها وأخذت تبكي. بدا لي أن سينثيا كانت متوقعة رد الفعــل هــذا، حــيث نهضت مسرعة عن مقعدها لتجلس إلى جوارها على الأريكة، محتضنةً إياها ومقدمةً لها منديلاً.

وبعد دقيقة، قالت لها سينثيا: "أشكرك. ليس عليكِ أن تتابعي سرد الأحداث. ولسوف نستأذن الآن بالانصراف". وهكذا خرجنا.

مـــا أن دلفــنا إلـــى داخل سيارتي، حتى قلت في جذل: "أحياناً ما تصيب طلقة في الظلام هدفها".

"لــم تكن طلقة في الظلام. أعني أننا بهذا قد وضحنا الصورة، وأصبح هناك منطقاً للأحداث، هذا وفقاً لبقية الحقائق التي لدينا، وما نعرفه عن هؤلاء الأشخاص".

"معكِ حق. لقد أديت دورك ببراعة".

"أشكرك. إلا أنك من مهد كل شيء ووضع هذه الخطة".

كان هذا صحيح، لذا قلت لها، "بالفعل، أنا من وضع الخطة".

"أعتقد أنني لا أميل إلى من يدعي التواضع زيفاً".

"هذا جيد. أنت إذن داخل السيارة المناسبة. هل تعتقدين أن الكولونيل فاولر قد طلب منها أن تذكر الحقيقة، أم أنها قررت هذا من تلقاء نفسها؟".

فكـــرت ســـينثيا للحظة، ثم أجابت: "أعتقد أن الكولونيل فاولر يعلم بأننا نعلم بعض

المقـدمات. فأعد لزوجته الإجابات على ما توقعه من أسئلةٍ منا، كما طلب منها أن تفرغ كل ما بداخلها، حتى ترتاح أعصابها".

"هذا صحيح. والسيدة فاولر تعد شاهدة زوجها التي سيستعين بها ليبين أن آن كامبيل كانت ميتة حينما وصلوا إليها، وأن الكولونيل فاولر لم يقتلها".

"صواب. وأنا أصدقها، كما أنني لا أصدق أنه هو الذي قتل آن".

قـدت الـسيارة في صمت متوجهين إلى مبنى القاعدة الرئيسي، وكنا مستغرقين في أفكارنا.

وصـلنا إلـى بـيومونت مبكرين قليلاً، إلا أننا قررنا أن لا نتقيد بالبروتوكول هذه المرة، فتوجهنا إلى باب المنـزل مباشرةً، حيث تأكد فرد الشرطة العسكرية من هوياتنا، ثم قرع لنا جرس الباب.

ولأن حظنا كان حسناً، فقد كان الملازم الشاب الوسيم إيلبي هو من فتح الباب. قال: "وصلتما قبل موعدكما بعشر دقائق".

كان الشاب يرتدي زي ضابط المشاة، ومع عدم وجود ما يدل على أنه قد خاض أية مهمـة قتالـية من أوسمة أو غيرها، إلا أنني قدرت أنه ضابط ذو مهام خاصة. قلت له: "يمكننا أن نغادر لنعود في ميعادنا، أو أن نتحدث معك لبضع دقائق".

بـدا لـنا أن المـلازم إيلبي من النوع الودود، حيث رافقنا إلى الداخل. توجهنا إلى حجـرة الانـتظار التي كنا قد جئناها قبلاً، وقلت لسينثيا – وكنا لا نـزال واقفين –: "ألم تخبريني بأنكِ تودين الذهاب إلى الحمام؟".

"ماذا؟ آه... بالفعل...".

فأشار لها الملازم إيلبي قائلاً: "هناك حمامٌ على اليسار من هنا".

"أشكرك". وغادرتنا.

قلـت لـه: "أيهـا المـلازم، لقد نما إلى علمي أنك كنت على علاقة مع النقيب آن كامبيل".

نظر إليَّ في تركيز، ثم أجاب: "هذا صحيح".

"هل تعلم بأنها كانت تواعد ويس ياردلي كذلك؟".

هـزّ رأسه بأن أجل، ومما بدا عليه عرفت أنه لا يزال يتألم من تلك الذكرى. وكان مـن الطبيعـي أن أفهم شعوره – فهو ضابط شاب بهي الطلعة يجد أن هناك من يشاركه ابنة رئيسه. قلت له: "هل كنت تحبها؟".

"لن أجيب على هذا السؤال".

"لقد أجبت بالفعل. وهل كانت نواياك تجاهها سليمة؟".

"لماذا تسألني هذه الأسئلة؟ فأنت هنا لتقابل السيدة كامبيل".

"لقد جئنا مبكرين عن موعدنا... إذن فأنت تعرف ويس ياردلي. هل سمعت شائعات أخرى تقول بأن آن كامبيل كانت على علاقة غرامية مع الضباط المتزوجين في هذه القاعدة؟".

"ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟".

فهمت أنه لم يسمع بتلك الشائعات. كما تيقنت من أنه لا يعلم شيئاً عن تلك الغرفة بالقبو. فقلت له: "هل وافق الجنرال على علاقتك بابنته؟".

"بلى. هل عليَّ أن أجيبك على هذه الأسئلة؟".

"لم يكن عليك أن تجيب عنها منذ ثلاثة أيامٍ مضت، وكان في مقدورك وقتها أن تفعل بي ما تشاء. وبعد بضعة أيام من الآن يمكنك أيضاً أن تفعل بي ما تشاء. ولكننا نتحدث عن هذه اللحظة، لذا أقول بأن عليك أن تجيب عن هذه الأسئلة. السؤال التالي... هل كانت السيدة كامبيل راضيةً عن هذه العلاقة؟".

"بلى".

"هل تحدثت مع آن كامبيل في شأن الزواج؟".

"بالفعل".

"أرجو أن تحكي لي أكثر عن هذا الأمر".

"في الواقع... لقد عرفت أنها على علاقة بذلك الشاب ياردلي، وكنت... غاضباً... إلا أن الأمر لم يتعلق بـ... أقصد أنها أخبرتني... بأن عليها أن تتأكد من أن والديها موافقان على هذه الزيجة، وحينما أبدى الجنرال موافقته، أصبحنا على وشك أن نعلن خطبتنا".

"فهمت. وهل تناقشت في هذا الأمر مع الجنرال.. أعني رجلاً لرجل؟".

"بالفعل، منذ عدة أسابيع. كان سعيداً، ولكنه طلب مني مهلة شهر حتى يفكر في الأمر. قال لي بأن ابنته شديدة العناد".

"آه. ومن ثم تلقيت مؤخراً أوامرَ تقضي بتأدية بعض المهام في إحدى قواعدنا في الجانب الآخر من المحيط".

نظر لي مندهشاً، "أجل.. في جوام..".

كدت أضحك، إلا أنني منعت نفسي. فبالرغم من أنه يفوقني رتبة، إلا أنه كان في سن صغيرة مقارنة بي، فوضعت يدي على كتفه قائلاً: "أيها الملازم، أنت كنت أفضل

شيء يمكن أن ترتبط به آن كامبيل، إلا أنه لم يكن مقدراً لهذا أن يحدث. فلقد كنت ضحية صراع قوى بين الجنرال وابنته، وكانا يحركانك وفقاً لمصلحتيهما. وأعتقد أنك قد حدست هذا نوعاً ما. عليك الآن أن تهتم بحياتك وبمهنتك، أيها الملازم، وحينما تفكر في الارتباط، فكل ما عليك هو أن تعمل على تهدئة خواطرك حتى تتنحي فكرة الزواج هذه من تلقاء نفسها".

وللأسف فإن سينثيا قد عادت في تلك اللحظة التي كنت أقول له فيها تلك العبارة الأخيرة، فقابلتني بنظرة نارية.

بدا الارتباك على إيلبي، إلا أن هناك بالتأكيد كثير من الأفكار التي تتلاعب برأسه الآن. فنظر إلى ساعته قائلاً: "سوف تقابلكما السيدة كامبيل الآن".

تبعناه إلى الردهة، حيث أشار لنا ناحية غرفة جلوس من الطراز الفيكتوري عند مقدمة المنزل.

نهضت السيدة كامبيل من مقعدها وتوجهنا إليها. كانت ترتدي رداءً أسودَ بسيطاً، وحينما اقتربت منها لاحظت مدى الشبه الذي يربط بينها وبين ابنتها. لقد بدت السيدة كامبيل - وهي في سن الستين - وقد تحولت من الجمال إلى الجاذبية، إلا أن أمامها عشر سنوات على الأقل قبل أن تفقد تلك الجاذبية.

صافحتها سينثيا أولاً مبديةً لها تعازيها الحارة. وصافحتها بدوري مع تعزيتي لها. فقالت: "تفضلا بالجلوس". أشارت إلى أريكة صغيرة أمام النافذة الأمامية. جلسنا، وجلست هي على أريكة مماثلة تقابلنا. كانت بيننا طاولة دائرية صغيرة عليها بعض التحف الزجاجية الصغيرة والأكواب وزجاجات الشراب. كانت تحتسي الشاي قبل مجيئنا، إلا أنها سألتنا: "هل ترغبان في بعض من المشروب المفضل؟".

اندهشت من لهجتها الجنوبية، إلا أنني سرعان ما تذكرت أنني كنت قد رأيتها ذات مرة على شاشة التلفزيون خلال حرب الخليج، وأتذكر أني قد اعتبرتها زوجة ملائمة للجنرال: فهو جنرال شديد الشجاعة من الغرب وهي سيدة مثقفة من الجنوب.

دردشت معها سينثيا قليلاً، وتباسطت معها السيدة رغم حزنها البادي. وتبين لي أن السيدة كامبيل من كارولاينا الجنوبية، وهي بدورها ابنة أحد ضباط الجيش. اسمها جيون كامبيل، وكانت تجسيداً لكل ما في الجنوب من سمات. فهي مهذبة، ساحرة، معتزة بنفسها، فتذكرت ما قاله الكولونيل فاولر عنها، وأضفت إلى ذلك ولاءها وما تتحلى به كسيدة من حزم.

كنت على دراية بأن وقت المقابلة ضيق، إلا أن سينثيا لم تبدُ مستعجِلة، ويبدو أنها قدرت (اعتبرت) أن من غير المقبول أن تفقدها أعصابها. وأنا لا ألومها بأي حال. ولكن

ســرعان ما قالت سينثيا: "أعتقد أن الكولونيل فاولر، أو ربما السيدة فاولر قد اتصلت بكِ قبل وصولنا".

بارعة أنتِ يا سينثيا.

وضــعت السيدة كامبيل قدح الشاي على الطاولة وأجابت بنفس هدوء نبرة حديثها، "أجــل، لقد كانت السيدة فاولر هي من هاتفتني. وأنا سعيدة بأن الفرصة قد أتيحت لها كي تتحدث معكما. فلقد كانت في غاية الحزن، ولقد بدت أحسن حالاً الآن".

أجابتها سينثيا: "أجل. فهذا ما يحدث دوماً. أنتِ تعلمين سيدتي بأنني أتولى في العادة مهمــة التحقــيق فــي جرائم الاعتداء الجنسي، وبوسعي أن أخبرك بأنني حينما أبدأ في اســتجواب من أعتقد أن في جعبتهم ما يقولونه، فإنني أكون مراعيةً لما هم فيه من حالة نفــسية. فالكل مجروح بشكل أو بآخر، ولكن ما أن يتحدث أول شخص، حتى يرى الباقي الراحة في الكلام، كما هو حالنا الآن".

كــان هذا هو أسلوب سينثيا حينما تود أن تبين أنه حينما ينكسر حاجز الصمت، فإن الكل يهرع لأن يكون مجرد شاهد ملك. وبالتالي يتجنب أن يكون في دائرة المشتبه بهم.

قالت لها سينثيا: "مما أخبرتني به السيدة فاولر، ومما اكتشفته مع السيد برينير، يبدو لــنا أن الجنــرال كان قد تلقى مكالمةً من آن في ساعات الصباح الأولى، تطلب منه أن يلاقيها عند ساحة الرماية، ربما لكي يتناقشا حول أمر ما. هل هذا صحيح؟".

تصويبة أخرى في الظلام، أو – حتى أعطي سينثيا حقها – تلاعب جيد بالحظ.

أجابــت السيدة كامبيل: "لقد رن جرس الخط الساخن إلى جوار الفراش في حوالى الــساعة الثانية إلا الربع صباحاً. فأجابه الجنرال على الفور، وكنت قد استيقظت بدوري. راقبــته وهــو يــستمع إلى الطرف الآخر. لم يتلفظ بأية كلمة، فقط أغلق الخط ثم غادر الفــراش وبدأ في ارتداء ملابسه. وأنا لم أعتد أبداً أن أسأله عن طبيعة تلك المكالمات، إلا أنــه دومــاً ما يخبرني بوجهته ومتى يمكن أن يعود". وابتسمت وقالت: "منذ أن جئنا إلى فــورت هادلي وهو لا يتلقى الكثير من المكالمات في منتصف الليل، ولكن حينما كنا في أوروبــا ويرن جرس الهاتف في منتصف الليل كان يقفز من فراشه، ليعد حقيبته، ومن ثم يطيــر إلــى واشــنطن أو إلى حدود ألمانيا الشرقية، أو إلى أي مكان آخر. إلا أنه كان يخبرني بوجهته دوماً... أما هذه المرة فاكتفى بقوله أنه سيعود في غضون ساعة. وارتدى ملابــسه المدنــية وغــادر المنــزل. وقد راقبته وهو يستقل السيارة، فلاحظت أنه استقل سيارتي أنا".

"ما هو طراز سيارتك، سيدتي؟".

"بويك".

أومـــأت سينثيا برأسها وقالت، "إذن ففي حوالى الساعة الرابعة أو الرابعة والنصف صباحاً عاد الجنرال إلى المنـــزل وأخبرك بما حدث".

حــدقت فـــي اللاشـــيء، وبدا لي لأول مرة وجه سيدة مرهقة ملأها الأسى، وكان بوســـعي أن أتخيل كم معاناتها طيلة تلك السنين. ومن المؤكد أن زوجة وأم مثلها لم تكن لتستسيغ ما فعله أب وزوج بابنتهما باسم المصلحة الكبرى، وباسم رفعة الجيش والصورة الإيجابية. إلا أنها اضطرت عند درجة معينة إلى أن تتكيف مع ما حدث.

اســتحثتها ســينثيا على الكلام بقولها: "عاد زوجك إلى المنـــزل في الساعة الرابعة والنصف صباحاً".

"أجل... كنت في انتظاره.. هنا في هذه الحجرة. وحينما دلف من الباب، تيقنت من أن ابنتـــي قـــد ماتت". نهضت وهي تتابع: "وهذا هو كل ما أعرفه. وبما أن حياة زوجي المهنية قد انتهت، فقد أصبح كل ما نأمله هو إلقاء القبض على من قتلها، حتى يهدأ بالنا".

نهــضنا بدورنا، وقالت لها سينثيا: "نحن نبذل قصارى جهدنا، كما نشكرك على أنك تغلبتِ على آلامك كي تتحدثي معنا".

أخبرتها بأن في وسعنا أن نخرج من المنـــزل بأنفسنا.

وفـــي الخارج، وفي طريقنا إلى السيارة، قلت: "لقد انتهت حياة الجنرال المهنية منذ عـــشر ســـنوات مضت في مستشفى كيللر العسكري في ويست بوينت. كانت مسألة وقت ليس إلا".

"أجل. فهو لم يتخلَّ عن ابنته فقط، بل خان نفسه وزوجته أيضاً".

دلفنا إلى داخل السيارة وانطلقت بها بعيداً عن ذلك المنـــزل في بيومونت.

الفصل السابع والعشرون

سألتني سينثيا وأنا أقود السيارة: "فبماذا تحدثت مع الملازم إيلبي؟".

"في الحب والزواج".

"أجل، فقد سمعت تلك الحكمة التي قلتها له".

"حسناً... كما تعلمين، فهو أصغر من أن يستقر الآن. كان قد تقدم يطلب يد آن كامبيل".

"لم أكن لأعتبر الزواج من آن كامبيل نوعاً من الاستقرار".

"هذا صحيح". أوجزت لسينثيا فحوى حواري القصير مع إيلبي، ثم قلت، "لقد تم نقل هذا الوغد المسكين إلى جوام. هذا ما يحدث – تماماً كما هو الحال في تلك المسرحيات الإغريقية القديمة، حينما يسترق بشري أحد أسرار الآلهة. فينتهي به الأمر إلى الجنون، أو يتحول إلى حيوان أو جماد، أو أن يعاقب بالنفي إلى جوام أو أيٍّ من أماكن الإغريق الأخرى".

"هراء جنسي".

"بالفعل. على كلٍّ، لقد انتابني إحساس بأن في هذه العائلة مرضاً نفسياً متأصّلاً يعيق أي إحساس بالحب والسعادة، وليكن الرب في عون كل من ساقته الأقدار إلى التعامل مع كل هذا الألم والتعاسة".

"هل تظن أن هذا كان حالهم قبل واقعة الاغتصاب في ويست بوينت؟".

"حسبما سمعنا من الكولونيل مور أقول إن من المؤكد أن هذا كان حالهم قبلها. فالصورة واضحة الآن. وبمناسبة الصور، فإنني أفكر في أمر ألبوم الصور الذي وجدناه في منزل آن... فلو تذكرنا الصور التي كانت قبل وبعد الواقعة، فسنجد أن الفارق واضح بين تلك الصور قبل ذلك الصيف وبعده".

"أجل. فبوسع المرء أن يتحقق من مأساة أي عائلة بهذه الطريقة، هذا إن كان يعلم ما يبحث عنه... لقد تسلى بها قليلاً أولئك الذين اغتصبوها، ثم واصل كلٌّ منهم حياته، من دون أن يفكروا أبداً في تلك الإنسانة التي دمروا حياتها".

"أعلم هذا. فنحن نلحظ هذا مع كل جريمة عنف. إلا أنه كان من الممكن أن تسود العدالة، لولا أن أحداً لم يأمر بتحقيق".

"هــذا ما نحاول أن نفعله هنا الآن... كيف تريد أن نوجه مسار المقابلة مع الجنرال كامبيل؟".

"كم أود أن أثير أعصابه وأن أشفي غليلي منه. إلا أنني أرى أنه قد دفع بالفعل أغلى ثمن لخطأه الأكبر. لا أعرف... ولكن علينا توخي الحذر.. فهو جنرال في نهاية الأمر".

"معك حق".

كـــان موقف سيارات القيادة يكاد يخلو من أية سيارة، فعددها كان قليلاً، ومن بينها سيارة الجنرال العسكرية الزيتية المموهة. كما توجد سيارة جيب، تتبع القاعدة المركزية، وافترضت أن تلك التي تقبع عند الهانجر في جوردان فيلد كان قد تم استبدالها.

وقفـــت مع سينثيا في موقف السيارات على اليمين من المبنى المركزي، وقلت: "لقد خـــرجت مـــن الـــباب الجانبي في حوالى الساعة 1:00، ثم استقلت إحدى هذه السيارات الجيب، وقادتها إلى حيث ستواجه أشباح الماضي".

"وحيث انتصرت الأشباح".

درنا حول المبنى حتى وصلنا إلى البوابة الأمامية. كان المبنى المكون من طابقين، والمبنـــي بالقرميد الداكن أشبه بتلك المدارس الابتدائية التي بنيت في الثلاثينيات من القرن الماضـــي، فيما عدا تلك القذائف الفارغة والتي تم ترصيع جانبي الممشى بها، ومن داخل كـــل واحـــدة مـــنها تنبثق زهرة، وكأنما المفارقة هنا متعمدة. كما يوجد على العشب في مواضـــع متفرقة تذكارات من أجزاء القطع الحربية التي ترجع لأماكن وعصور مختلفة، فيما بدا وكأنه معرض يبين تطور صناعة الدمار.

دلفـــنا عبر البوابات الأمامية، حيث نهض أحد أفراد مكتب الاستعلامات لاستقبالنا. أخبـــرته بـــأن لدينا موعداً مع الجنرال كامبيل. ففحص الأوراق أمامه، ثم قادنا عبر ممر طويل إلى مؤخرة المبنى.

مـــشينا، أنا وسينثيا، عبر الممر الطويل الخاوي ذي الأرضية اللامعة. قلت لها: "لم يسبق لي أن ألقيت القبض على جنرال من قبل، فربما أكون أكثر توتراً منه هو".

رمقتني وهي ترد، "ليس هو الجاني يا بول".

"وكيف لكِ أن تتيقني من هذا؟".

"لا يمكننـــي تصور هذا، وإذا لم أتمكن من تصور هذا، فإني أصبح متيقنة من عدم حدوثه".

"لم أعرف أن هذا كان مما تعلمناه".

"على كلٍ، فإني لا أعتقد أنه من المسموح لك أن تلقي القبض على جنرال. هذا مما تعلمناه".

وصلنا إلى ما بدا أنه بهو آخر، وكان خاوياً، وفي نهايته كان هناك باب مغلق، عليه لافتة تقول، "الجنرال جوزيف كامبيل".

طـرقت الـباب، ففتحته نقيب اسمها المكتوب على الزي هو بولينيجير. قالت لنا: "مساء الخير. أنا كبيرة مساعدي الجنرال كامبيل".

تـصافحنا، ثـم قادتـنا إلى داخل حجرة سكرتارية صغيرة. كانت في سن الخامسة والثلاثـين، بدت نشيطة وودودة. قلت لها: "لم أسمع من قبل بأن هناك جنرالاً لديه إمرأة في منصب كبير مساعديه".

فابتـسمت وأجابتـي، "هـن قليلات. كما أن مساعد الجنرال الآخر رجل، الملازم إيلبي".

"أجل، فلقد التقيناه". خطر لي أنه لو كان الملازم إيلبي بيدقاً في لعبة الشطرنج التي دارت بين الجنرال وابنته، إلا أنه من المؤكد أن هذه النقيب لم تكن كذلك؛ فلم يكن لآن أن تغـويها، كمـا أنهـا بـدت مناسبة لمتطلبات السيدة كامبيل. كم هو الأمر مقزز عند هذا المستوى من السلطة.

صحبتنا النقيب بولينيجير إلى مكتب خارجي فارغ وهي تقول: "لقد خصص لكم الجنـرال كـل الوقت الذي ستحتاجون إليه. ولكن أرجو أن تفهما أنه... أنه في غاية الأسى".

أجابتها سينثيا، "نحن نقدر هذا".

كـنت بدوري أقدر أن هذه المقابلة كانت معدة لتكون في ساعات ما بعد الخدمة فإن خرجت عن نطاق سيطرته، فعندها لن يرى أو يسمع أحد من الجنود أي شيء.

طرقت النقيب بولينيجير الباب في رفق، ثم فتحته، وأعلنت عن حضورنا، ثم تنحنت جانباً كي ندخل نحن.

كان الجنرال واقفاً، وتقدم إلينا فحيانا. تبادلنا التحية العسكرية ثم تصافحنا.

أشار الجنرال كامبيل إلى مجموعة من المقاعد، حيث جلسنا جميعاً. لدى الجنرالات – وكـأنهم أشـبه بعـضو منتدب في شركة كبرى – مجموعات متنوعة من المقاعد في المكـتب، إلا أنهـم يخـتلفون في كون أن من صلاحياتهم أن يجعلوك تقف أثناء المقابلة بالكامـل، بل وفي وضعية انتباه أيضاً. إلا أنه أبدى لنا احتراماً أكبر بكثير مما تتيحه لنا رتبـتانا. فبدا لي أن للأمر علاقة بأننا قد سمعنا للتو اعترافين بوجود سلوك إجرامي، بل واحتمال مؤامرة. ولكنه قد يكون يتعامل معنا هكذا بدافع اللطافة لا أكثر.

سألنا: "هل تودان تناول الشراب؟".

"كلا، نشكرك سيدي". فأنا أعلم بأنه مجرد عرض لن يتحول إلى واقع.

خيم الصمت لبرهة من الوقت، فأخذت أتطلع عبر أرجاء المكتب. كانت الجدران بيضاء مصقولة، أما حوافها فكانت من خشب البلوط الأصلي، وكذلك المكاتب والطاولات وغير ذلك. كانت السجادة فوق الأرضية الخشبي من الطراز الشرقي الأحمر، ربما جلبها من تلك البلاد في الشرق. لم يكن هناك الكثير من الدروع والنياشين والهدايا العسكرية التذكارية، ولكن كان هناك على طاولة صغيرة مستديرة في الركن عباءة زرقاء وضعت على شكل مفرش فوقه سيف، ومسدس عتيق ذو ماسورة طويلة، وقبعة زرقاء، وغير هذا من المتعلقات الغريبة الطراز.

لاحظ الجنرال أني أنظر إليها، فقال: "تلك متعلقات والدي. لقد كان كولونيل في سلاح الفرسان القديم خلال العشرينيات من القرن الماضي".

"لقد كنت في كتيبة الفرسان الثامنة خلال حرب فيتنام، لكن من دون الجياد بالطبع".

"حقاً؟ لقد كانت الجياد شغف والدي".

هكذا وجدت أن هناك شيء ما يجمع بيننا. كانت سينثيا قد بدأت تتململ من حديث الذكريات هذا، إلا أن هذه الثرثرة كانت أمراً مطلوباً قبل أن ندخل في الجد.

سألني: "إذن فأنت لم تكن منذ البداية محققاً جنائياً؟".

"كلا سيدي، فقد كنت قبل ذاك أقوم بعمل مخلص للجندية أكثر من هذا".

فابتسم وقال: "هل نلت أوسمة أو نياشين؟".

أخبرته فأومأ برأسه. رأيت أنه سيتقبل أياً مما سأقوم به حينما يدرك أنني كنت مقاتل في فيتنام. فحتى ولو لم أكن كذلك، لكنت قد اختلقت هذه القصة. فمن حقي أن أكذب بحثاً عن الحقيقة، كما يحق للشاهد الذي لم يحلف اليمين أن يكذب هو الآخر. وهو أمر لا يحق لمن هم تحت القسم، وبوسع المتهم أن يستخدم حقه في الشكوى من سوء المعاملة في أي وقت.

نظر الجنرال إلى سينثيا، حتى لا يجعلها تشعر بأنها مهملة، وسألها عن خلفيتها العسكرية، وعن جذورها المدنية، وغير هذا. فأخبرته، حتى إنني تعرفت على أشياء لم أكن أعلمها من قبل، ولو أنني أعتقد أنها كانت تكذب. لقد لاحظت أن الجنرالات - والكولونيلات أحياناً - دوماً ما يسألون من هم أقل منهم رتبة بكثير عن بلدانهم الأصلية، وعن المدارس العسكرية التي التحقوا بها، وعن تدريباتهم، وكل ما هو من هذا القبيل. وأنا لست متيقناً من كونهم يهتمون بالإجابة أصلاً، أو أن الأمر مأخوذ من أساليب الإدارة العسكرية اليابانية والتي تلقنوها في الأكاديميات، فعليك أن تجاريهم، حتى لو كنت تنوي أن تناقشهم فيما اقترفوه من عمل إجرامي.

فاتــت خمس عشرة دقيقة من الوقت الثمين المتبقي لنا في هذه القضية، وفي النهاية قــال الجنرال: "لقد عرفت أنكما تحدثتما مع السيدة فاولر والسيدة كامبيل، لذا فقد تعرفتما على شيء مما حدث في تلك الليلة".

قلــت لـــه: "أجــل سيدي، ولكني أصارحك بأننا كنا قد استنتجنا الكثير منه قبل تلك المقابلتين".

"حقاً؟ هذا مثير جداً. يبدو أن تدريبات التحقيقات العسكرية مجدية فعلاً".

"أجــل ســيدي، كما أن لدينا من الخبرة العملية الكثير، بالرغم من أن هذه القضية فريدة من نوعها".

"بالتأكيد. هل توصلتما إلى من قتل ابنتي؟".

"كلا سيدي".

حدق فيَّ قليلاً، ثم سألني: "أليس هو الكولونيل مور؟".

"قد يكون".

"أرى أنكما لم تأتيا إلى هنا لتجيبا على أسئلتي".

"بالفعل سيدي".

"فما غرضكما من هذه المقابلة؟".

"أعــتقد أن مما يسهل مهمتنا جميعاً هنا يا سيدي أن تبدأ بإخبارنا عما حدث في تلك الليلة. لنبدأ من المكالمة التي تلقيتها في الساعة 1:45. وقد أطلب تفسير بعض النقاط في كلامك".

"بالفعــل، حسناً. لقد كنت نائماً، حينما رن جرس الخط الساخن على الطاولة جوار الفــراش. فأجبته، لكني لم أسمع شيئاً من الطرف الآخر. بعدها سمعت صوت تكة، ثم... ثم أتاني صوت ابنتي، وتيقنت من أنه صوت مسجل من قبل".

أومــأت برأســي. هــناك كــبائن هاتف عند أبراج التحكم في إطلاق النار في تلك الساحات، إلا أنها تكون مؤمنة ليلاً. من الواضح أن آن كامبيل وتشارلز مور كان معهما هاتفان محمولان، وجهاز تسجيل.

تابع كلامه، "كانت الرسالة المسجلة تقول أبي، هذه آن. أود أن أناقش معك شيء في غايــة الأهمــية في أسرع وقت. عليك أن تلتقيني عند ساحة الرماية رقم ستة قبل الساعة 2:15... وقالت بأنني لو لم آتِ فسوف تنتحر".

أومــأت برأسي من جديد أستحثه ليتابع. وقلت له: "هل طلبت منك أن تحضر معك السيدة كامبيل؟".

نظر إليَّ وإلى سينثيا، فهو لا شك يتساءل عن قدر ما نعرفه من معلومات، وقد ظن بأننا قد عثرنا على ذلك الشريط بشكل أو بآخر. قال: "بلى. لقد ذكرت هذا بالفعل، إلى أنني لم أكن أنوي تلبية هذا الطلب".

"حسناً سيدي. هل كانت لديك أية فكرة عن ذلك الأمر الذي كانت تود التحدث معك بشأنه في أسرع وقت، لدرجة أن تخرج من فراشك لتتجه في تلك الساعة إلى ساحة الرماية؟".

"كلا... أنا... فآن – كما لا بد من أنكما قد عرفتما – كانت تمر بحالة إحباط".

"بالفعل سيدي، على أني أعتقد أن هناك من ذكر لي أنك كنت قد وجهت لها إنذاراً مشروطاً بموعد أخير. وكانت ستعطيك الرد خلال إفطار الصباح التالي".

"هذا صحيح. فلقد أصبح سلوكها غير مقبولٍ، وطلبت منها إما أن تتخلى عما تقوم به أو أن تفارق هذا المكان".

"لذا فعندما سمعت صوتها في تلك الساعة أدركت أن هذه ليست مجرد حنين مفاجئ تجاهك، بل أمر له صلة بذلك الإنذار".

"أجل، أعتقد أن هذا ما تيقنت منه".

"لماذا في رأيك عمدت إلى الاتصال بك برسالة مسجلة؟".

"هذا لكي لا يكون هناك أخذ ورد. فلقد كنت صارماً جداً معها، ولكن بما أنني لم أستطع أن أتجادل مع رسالة مسجلة فقد قمت بما على الأب أن يقوم به، واتجهت إلى المكان الذي حددته".

"أجل سيدي، وكما تبين لنا، فلقد كانت ابنتك بالفعل في ساحة الرماية، ولقد اتصلت بك من هاتف محمول. فهي قد غادرت مبنى القيادة في الساعة 1:00. ألم تتساءل عن السبب في كونها قد اختارت منطقة تدريب بعيدة لأجل هذا اللقاء؟ ولماذا لم تكتفي هي بالحضور إلى موعد الإفطار كي تجيبك على رسالتك؟".

هزّ رأسه قائلاً: "لا أعرف".

ربما كان لا يعرف في البداية، إلا أنه من المؤكد أنه قد عرف حينما رأى جثتها. أمكنني أن أتبين أنه على حال من الأسى تمنعه من التفكير، وأنه سيخبرنا بالحقائق الواضحة والمرتبطة بالأدلة القوية. إلا أنه لن يتطوع بالكشف عن الحقيقة الأهم وهي السبب في أن ابنته قد عمدت إلى أن يراها عارية مقيدة إلى الأرض.

قلت له: "لقد ذكرت أنها سوف تنتحر لو لم تحضر أنت. هل خطر لك أنها ربما كانت تخطط لقتلك لو كنت حضرت؟".

لم يجبني.

فسألته: "هل أخذت سلاحك معك؟".

أومأ برأسه أي نعم، ثم قال: "لم تكن لديَّ فكرة عما ينتظرني هناك في تلك الليلة".

أنا موقن من أنك تفاجأت بالفعل. ولهذا السبب لم تأخذ معك السيدة كامبيل. قلت له، "لذا فقد ارتديت ملابسَ مدنية، وأخذت سلاحك، وأخذت سيارة زوجتك، وقدتها متجهاً إلى ساحة الرماية رقم ستة وأنت تضيء كشافاتها. متى وصلت إلى هناك؟".

"في... في حوالى الساعة 2:15. في الوقت الذي حددته".

"بالفعل. ثم أطفأت أنوار السيارة، و...".

خـيم صمت طويل بينما كان الجنرال يفكر في ما أفرضه أنا من تسلسل للأحداث. وفي النهاية قال: "ترجلت من السيارة ثم اتجهت إلى سيارتها الجيب، إلا أنها لم تكن بها. وهـنا ازداد قلقي وأخذت أناديها، إلا أنها لم تجبني. ناديت ثانيةً، ثم سمعتها ترد، فالتفت إلـى ناحية ساحة الرماية ورأيت... رأيتها راقدة على الأرض، أو رأيت جثماناً ما على الأرض، فاعـتقدت أنهـا هـي وأنها مصابة بشيء ما. فهرعت مسرعاً تجاهها... كانت عاريـة، وكنت... أعتقد أنني كنت فزعاً متوتراً... لم أكن أعلم معنى ما يحدث، إلا أنها كانـت حـية، وهو كل ما كان يهمني. فناديت عليها وسألتها عما إذا كانت بخير، وردت بأنها كذلك... فاقتربت منها... أوه.. من الصعب أن أتحدث عن هذا الآن".

"أجـل سـيدي. إنـه لأمر صعب علينا جميعاً أيضاً. ونحن لا نقصد أن نربط بين خـسارتك الفادحة هذه ومشاعرك، إلا أنني أظن أنني أتحدث بلسان الآنسة صنهيل كذلك حينما أقول أننا خلال مسار هذه التحقيقات وصلنا إلى.. إلى درجة أصبحنا معها نتعاطف مع ابنتك". ربما لم يكن هذا رأي الآنسة صنهيل. إلا أنني تابعت كلامي، "فمن المعتاد أن يحدث تعاطف من المحقق في جريمة القتل تجاه المجني عليه، حتى وإن لم يلتقِ أيٌّ منهما بالآخـر. وهـذه قـضية غيـر عادية شاهدنا خلالها ساعات من أشرطة الفيديو الخاصة بمحاضرات ابنتك، وشعرت أن ابنتك شخص كنت أتمنى لقاءه... إلا أن عليَّ أن أفسح لك المجال لتخبرنا بما حدث بعد ذلك".

كـان الجنـرال كامبـيل قد بدأ يفقد السيطرة على أعصابه من جديد، فمكثنا جميعاً لبـرهة من الوقت حتى أخذ نفساً عميقاً ثم تنحنح وقال: "عندها، حاولت أن أفك قيدها... كان الأمر محرجاً جداً، لي ولها، إلا أنني لم أستطع أن أفك الحبل، كما عجزت عن جذب الأوتـاد مـن الأرض... لقد حاولت.. إلا أن الجاني كان قد ثبتها عميقاً في الأرض، لقد فككـت تلك العقد... وبعدها قلت لها بأني سأعود... وذهبت إلى السيارة وإلى الجيب، إلا أننـي لـم أجـد في أيٍّ منهما ما يمكنني من قطع تلك الحبال... فعدت إليها لأقول لها... لأقـول لها... بأني سأعود إلى بيثاني هيل لأحضر سكيناً من منـزل الكولونيل فاولر...

حيث إن بيثاني هيل لا تبعد سوى عشر دقائق من ساحة الرماية... إلا أنني كنت أتمنى لو أني... أوه.. أنا لا أعرف ما الذي كان عليَّ أن أفعله".

أومـأت برأسـي من جديد، وسألته: "وبينما كنت تحاول أن تفك تلك الحبال، كنت تتحدث معها بالطبع".

"بضع كلمات لا أكثر".

"ولكن من المؤكد أنك قد سألتها عمن فعل بها هذا؟".

"كلا...".

"سيدي الجنرال، من الأكيد أنك قد سألتها عمن ارتكب هذه الفعلة؟".

"أوه... بالطبع... إلا أنها لم تكن تعلم".

قلت له: "هي لم ترغب في أن تخبرك في الواقع".

حدق فيَّ الجنرال. "هذا صحيح. لم تكن لتخبرني. ربما تعلم أنت السبب".

"وهكذا عدت بالسيارة إلى طريق ساحات الرماية متجهاً إلى بيثاني هيل".

"صحيح. وهاتفت الكولونيل فاولر طالباً المساعدة".

"ألم تكن تعلم بأن هناك نقطة حراسة عند مخزن الذخيرة على بعد حوالى الكيلومتر في الاتجاه المعاكس؟".

"أنا لا أعلم بموقع كل نقطة حراسة في هذه القاعدة... وأنا أشك في أني كنت سوف أذهـب إلى هناك على أية حال. فلم أكن لأسمح لأحد من الجنود بأن يرى ابنتي على هذا الحال".

"فـي الحقـيقة أن مجـندة هي من كانت تناوب وقتها في تلك النقطة. إلا أنه ليس موضوعنا الآن. فما أتساءل عنه هو السبب في أنك قد انطلقت بالسيارة عائداً من دون أن تنيـر مـصابيحها، سيدي، وعن السبب في أنك لم تنر المصابيح إلا بعد بضع مئات من الأمتار".

لا بـد مـن أنه كان يتساءل بدوره عن كيفية معرفتي بهذا، ومن المحتمل أنه أدرك أننـي قد استجوبت أفراد الحراسة. فأجاب في النهاية: "سوف أكون صريحاً معك، فأنا لم أرغب في أن ألفت الأنظار إلى هذه النقطة".

"والسبب؟".

"لو كنت مكاني، هل كنت ستحاول لفت الأنظار؟ فلو أنك تركت ابنتك عاريةً مقيدةً إلى الأرض، هـل كـنت سـترغب في أن يتدخل أحد؟ لقد قررت أن عليَّ التوجه إلى الكولونيل والسيدة فاولر لأجل المساعدة. ومن الواضح أني لم أكن أرغب في أن يعلم الجميع بما حدث".

"إلا أنهـا كانـت جريمة يا سيدي، أليس كذلك؟ أقصد... هل لم يخطر ببالك أنها قد تعرضـت للاعـتداء على يد مجنون أو عدة مجانين؟ فلماذا كانت الرغبة في عدم معرفة الآخرين بما حدث؟".

"أعتقد أني لم أرغب في إحراجها".

هنا تحدثت سينثيا: "إن جريمة الاغتصاب لا تمثل إحراجاً للضحية".

"إلا أنها كانت كذلك".

سألته هي: "هل أشارت لك بأي حال بأنها على استعداد لأن تبقى في مكانها إلى أن تذهب لتحضر الكولونيل والسيدة فاولر؟".

"لا، لكنني ظننت أن هذا أفضل تصرف".

"ألـم تكـن في حال من الفزع من أن يعود المغتصب أو المغتصبون عندما تذهب أنت؟".

"كـلا.. في الحقيقة.. نعم.. فقد طلبت مني أن أسرع بالعودة. انظري آنسة صنهيل ويـا سـيد برينيـر، لو أنكما توحيان لي بأني لم أقم بالتصرف السليم، فربما كنتما على صـواب. فربما كان عليَّ أن أبذل المزيد من الجهد كي أفكها من قيدها، وربما كان عليَّ أن أتـرك سـلاحي معها بحيث تستطيع أن تحمي نفسها أثناء غيابي، أو ربما كان عليَّ إطلاق طلقة رصاص حتى أجذب انتباه رجال الشرطة العسكرية، وربما كان من الممكن أن أبقـى إلى جوارها إلى أن تمر بنا سيارة. ألا تعتقدان بأني قد فكرت في كل هذا آلاف المرات حتى الآن؟ فمعكما حق في مساءلتي عن طبيعة تصرفي، ولكن ليس من حقكما أن تشككا في قدر قلقي عليها".

أجابـته سـينثيا: "سيدي الجنرال، إنني لا أشكك في أيٍّ من هذا أو ذاك. بل أتساءل عما حدث بعد ذلك".

همَّ بالإجابة، ثم قرر أن يصمت.

فقلـت له: "وهكذا قدت السيارة إلى منـزل آل فاولر، وشرحت لهم الوضع، فهرعا لمساعدة النقيب كامبيل".

"هذا صحيح. فقد أحضرت السيدة فاولر روباً وسكيناً لنقطع الحبال".

"ألم ترَ ملابس ابنتك في أي موضع بالقرب منها؟".

"كلا، لم أرَها".

"ألم تفكر في أن تغطيها بقميصك؟".

"كلا... لم أكن أفكر بصفاء ذهن وقتها".

ها نحن ذا أمام رجل نجح من قبل في قيادة كتيبة مشاةً مجهزة آلياً لكي تقتحم مدينة جوانج تراي المحاصرة وتنقذ مجموعة من القناصة الأميركيين الذين حوصروا في القلعة الفرنـــسية القديمة. إلا أنه يعجز الآن عن مساعدة ابنته بالشكل السليم. من الواضح أنه لم يكن ينوي تقديم المساعدة لابنته. فقد كان في غاية النقمة عليها.

سألته: "لماذا لم تعد مع فاولر سيدي الجنرال؟".

"لم تكن هناك حاجةٌ إليَّ. فوحدها السيدة فاولر كانت تفي بالغرض، إلا أن الكولونيل فاولر رافقها، في حال صادفت مشكلة".

"أي نوع من المشاكل؟".

"في حال كان المجرم لا يزال قابعاً في المكان".

"ولمـــاذا كـــان عليك أن تترك ابنتك وحدها، وهي مقيدة وعارية ومعرضة للخطر طالما كنت ترى أن من الممكن أن يحدث لها المزيد من المشكلات؟".

"لم يخطر هذا ببالي إلا بعد أن كنت في طريقي إلى منـــزل فاولر. وعليَّ أن أشير إلى أن الطريق إلى هناك لم يستغرق عشر دقائق".

"بلى، ولكن عليك أن تضيف عملية إيقاظهم، ثم ارتدائهم لملابسهم والعودة إليها من جديـــد، كل هذا كان ليستغرق قرابة النصف ساعة. فبعد إيقاظهم وطلب مساعدتهم يكون مـــن الطبيعي لأي شخص – سواءٌ كان أباً أو قائداً عسكرياً – أن يهرع عائداً إلى مكان الجريمة ويؤمن المكان حتى حضور من طلب".

"هل تشكك في حكمي على الأمور أو في دوافعي إذن، يا سيد برينير؟".

"لا أشكك في حكمك على الأمور، فقد كان من الممكن أن يكون حكمك ممتازاً لو أن دوافعك بريئة. أنا أشكك في دوافعك". من المعتاد ألا يتعرض الجنرال إلى أي تشكيك. إلا أن الوضع الآن صار مختلفاً.

فأومـــأ برأســـه قـــائلاً: "أرى أنكما تعرفان الكثير مما لا تودان الكشف عنه. أنتما ماهران بالفعل. وأنا حدست هذا من البداية. فلماذا لا تخبراني أنتما بحقيقة دوافعي؟".

أجابته سينثيا: "لقد أردت لها أن تتعذب قليلاً".

لقـــد تـــم اقـــتحام الحصن – كما نقول نحن العسكريين – وعبرت سينثيا من خلال الثغـــرة. قالت: "في الحقيقة سيدي الجنرال، لقد عرفت أن ابنتك لم تكن ضحية اغتصاب، وأنهـــا لم تتعرض لهجوم أثناء انتظارها لك. ولكنها هي ومن معها قد قاما بالاتصال بك وإسماعك تلك الرسالة المسجلة، وأرادا أن تتجه إلى ذلك المكان لأجل هدف واحد هو أن تـــراها أنـــت والـــسيدة كامبيل على هذا الوضع. هذا هو سيدي التفسير المنطقي الوحيد لتسلسل الأحداث هذا، ولتعمدك أن تتركها هناك وحدها، ولتوجهك إلى آل فاولر كي يتوليا

همـــا الأمـــر، ولمكـــوثك في منـــزلهما منتظراً إياهما أن يعودا بصحبة ابنتك وسيارتها الجيب، ولعدم الكشف عن كل هذا حتى هذه اللحظة".

قـــبع الجنرال كامبيل في مكانه، مستغرقاً في التفكير، وربما كان يفكر في ما أمامه من خيارات، وفي حياته القادمة، وفي ما ارتكبه من أخطاء منذ عدة ليال مضت، وفي ما ارتكـــبه مـــن أخطـــاء منذ عشر سنوات مضت. حتى قال في النهاية: "لقد انتهيت كرجل عسكري، ولقد كتبت استقالة سوف أقدمها في الغد بعد جنازة ابنتي. وأرى أن كل ما أفكر فيه الآن هو قدر (مقدار) ما لديكما من معلومات مما يمكنكما من القبض على الجاني، وما علـــيَّ أن أعتـــرف لكما وللعالم به، ومن فائدة أن نـــزيد من إهدار كرامة وذكرى ابنتي. أعلـــم أن كـــل هـــذا يخصني أنا، لكن عليَّ أن أفكر في زوجتي وفي ابني، وفي الجيش ككل... أنا لست مواطناً عادياً، وبالتالي فإن سلوكي سيلقي بظله على حياتي المهنية ككل، وقد يؤدي إلى إهدار الروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة".

أردت أن أخبـــره بـــأن الـــروح المعنوية لكبار ضباط فورت هادلي كانت منخفضة بالفعـــل، فجمـــيعهم بانـــتظار المقصلة، وأنه بالفعل ليس مواطناً عادياً ولم يكن لديه سبب يدفعـــه لأن يتوقع أن نتعامل معه بهذا الشكل، وأنه لم يكن يفكر سوى في نفسه ولا تهمه ســـمعة ابنـــته في شيء، أو أن يهتم بقدر المعلومات الذي سيتيح لنا أن نلقي القبض على الجانـــي، وفي النهاية فإنه كان محقاً في أن حياته كرجل عسكري قد انتهت، إلا أنني قلت لـــه بدلاً من كل هذا: "أنا أفهم السبب الذي دفعك إلى عدم إبلاغ أفراد الشرطة العسكرية بـــأن ابنـــتك مقـــيدة وعاريـــة في ساحة الرماية – فالحقيقة سيدي الجنرال أن الأمر كان شخـــصياً حتى تلك اللحظة، وأنا أعترف لك بأني كنت لأفعل الشيء نفسه. كما أني أفهم كذلك السبب والكيفية التي تربط عائلة فاولر بهذا الموضوع. وأعترف من جديد بأني كنت لأفعل الشيء نفسه. ولكن حينما عادا ليخبراك بأن ابنتك قد ماتت لم يكن لك الحق في أن تـــورطهما في مؤامرة تهدف إلى إخفاء الطبيعة الحقيقية لهذه الجريمة، ولم يكن من حقك أن تـــورط زوجتك في أمر كهذا. ولم يكن من حقك سيدي أن تزيد من صعوبة مهمتي أنا والآنسة صنهيل بأن تقدم لنا أدلة مضللة".

"أنت محق تماماً. أنا أتحمل المسؤولية عن هذا بالكامل".

تنهدت، ثم قلت له: "لا بد من أن أخبرك سيدي بأن أفعالك تمثل تعدياً يستحق العقاب وفقاً لميثاق العدالة العسكرية".

أومـــأ برأسه متفهماً، ثم قال في تؤدة: "أنا على دراية بذلك فعلاً". ثم نظر إليَّ وإلى سينثيا. "إلا أنني أطلب منكما معروفاً".

"أطلب سيدي".

"إنني أطلب منكما أن تبذلا جهدكما حتى يبقى اسم عائلة فاولر بعيداً عن هذا الموضوع".

كنت متوقعاً لهذا الطلب، وفكرت في الإجابة المناسبة قبل أن يسألها الجنرال. فنظرت إلى سينثيا ثم إلى الجنرال، وأجبت: "لا يمكنني أن أضيف إلى هذه الجريمة جريمة أخرى من جانبي أنا". والحق أني قد اقترفت هذا بالفعل، حينما عقدت اتفاقاً مع بيرت ياردلي. إلا أنه كان أمراً خارج نطاق هذه القاعدة. أما هذا فلا. فقلت له: "إن آل فاولر هم من وجد الجثة سيدي الجنرال. ولم يعترفا لي بهذا".

"لقد اعترفا. لي أنا".

قالت سينثيا: "إنني أختلف قليلاً مع السيد برينير، ومع أن من غير المطلوب أن نبدي خلافنا أمام الغير، إلا أنني أعتقد أن بوسعنا أن نبقي آل فاولر بعيداً عن هذه المسألة. والحقيقة أن الكولونيل فاولر قد اعترف بما حدث لك أنت، وأنك قد أخبرته بأنك سوف تتصل بالكولونيل كينت. إلا أن الصدمة والحزن اللذين كنت والسيدة كامبيل عليهما عجلا باكتشاف الجثة قبل أن تقوما أنتما بالإبلاغ عن هذا. هناك الكثير من التفاصيل التي ينبغي علينا التعامل معها، إلا أنني لا أرى أن من المفيد للعدالة أن نورط فاولر في هذا الموضوع".

حدق الجنرال كامبيل في سينثيا لبرهة من الوقت، ثم هزّ رأسه متفهماً.

لم أكن سعيداً بهذا، إلا أني كنت مرتاحاً، فالكولونيل فاولر - رغم كل شيء - كان الضابط الوحيد الذي أبدى درجة من النزاهة والشرف خلال مسار هذه القضية، بما في ذلك عدم التورط في علاقة جنسية مع ابنة الجنرال. وللحق فإنني لا أتمتع بمثل هذا القدر من قوة الإرادة، فكنت أحترم فيه هذا. ومع هذا فلا يمكن أن تعطي شيئاً من دون مقابل، وكانت سينثيا تفهم هذا، حيث قالت له: "إلا أنني أود منك يا سيدي أن تخبرنا بحقيقة ما حدث هناك، والسبب في حدوثه".

تراجع الجنرال كامبيل إلى الوراء في مقعده. وقال: "حسناً. إن الحكاية تبدأ في واقع الأمر منذ عشر سنوات مضت... في مثل هذا الشهر منذ عشر سنوات في ويست بوينت".

الفصل الثامن والعشرون

أخبـــرنا الجنرال كامبيل بما حدث في معسكر باكنير، منطقة التدريبات الميدانية في ويـــست بوينت. لم يكن يعرف عن واقعة الاغتصاب أكثر مما كنا نعرفه بالفعل، أو ربما كـــان هـــذا مـــا تعرفه السلطات عن الحادث. فما كان يعرفه هو أنه حينما رأى ابنته في مستـــشفى كيللـــر العسكري، كانت تعاني من صدمة نفسية، ومن هيستيريا، ومن إحساس بالمهانـــة بـــسبب ما حدث لها. وأخبرنا بأنها كانت تتشبث به وهي تبكي وتتوسل إليه أن يعيدها إلى المنـــزل.

وأعتـــرف لنا بأن ابنته أخبرته بأنها كانت عذراء، وأن من اغتصبوها سخروا منها لأجل هذا. وأخبرته بأن هؤلاء قد جردوها من ملابسها وقيدوها إلى الأرض بأوتاد الخيام. وقـــد كان أحدهم يخنقها بحبل أثناء اغتصابه لها، وهددها بأن يخنقها حتى الموت لو أنها أبلغت عما تعرضت له.

وكـــنت متأكداً من أنني وسينثيا لم نكن نتوقع من الجنرال أن يعترف بتلك التفاصيل الدقيقة. فهو يعلم أن تلك الحادثة لها صلة بالجريمة التي بين أيدينا، وإن كانت هذه الصلة لـــن تـــساعد في التعرف على حقيقة الجاني. إلا أنه أراد أن يزيح عنه عبء هذا الكلام، فتركناه يتكلم.

وتولد لديَّ انطباع بأنه على الرغم من عدم تناوله للموضوع مباشرةً، فإنه كان يعلم أن ابنـــته كانـــت تتوقع منه أن يقتص لها، ومن أنها قد تعرضت بلا جدال إلى اغتصاب وحـــشي، وأن مـــن فعلـــوا هذا لا بد من أن يتم طردهم من الأكاديمية العسكرية وأن تتم محاكمتهم.

كانت تلك بالطبع ردود فعل منطقية من فتاة كانت تحاول قدر جهدها أن تحقق آمال أبـــيها فيها، ومن أجل هذا تحملت كافة مصاعب الحياة في ويست بوينت، ولكنها أصبحت ضحية اعتداء إجرامي.

إلا أنـــه كـــان مـــن الواضـــح أن هناك بعض المشكلات. فهناك أولاً مسألة تواجد المستجدة كامبيل وحدها بصحبة خمسة رجال وسط الغابات ليلاً. فكيف تم عزلها عن بقية الأربعـــين فرداً؟ هل هي مصادفة؟ أم عمداً؟ وثانياً أن المستجدة كامبيل لم تستطع التعرف على هويتهم. فلم يكتفوا فقط بوضع صبغات تمويهية، بل كانوا يضعون أقنعة شبكية على

وجــوههم. وكان الوقت ليلاً، فلم تستطع أن تحدد ما كانوا يرتدونه، وبالتالي لم تستطع أن تتــيقن ممــا إذا كانوا من المستجدين أم من غيرهم، من جنود الفرقة 82 المحمولة جواً. فهناك قرابة الألف رجل وسيدة متواجدين خلال تلك التدريبات الليلية، ففرصة أن تتعرف على هوية المجرمين الخمسة تكاد تقارب الصفر، وهذا ما أُخبر به الجنرال كامبيل.

إلا أن هــذه لــم تكــن كل الحقيقة، كما كنت أنا وسينثيا نعرفها. فمن خلال أسلوب الاســتبعاد يمكــن تضييق نطاق البحث. ومع الاقتراب من تحديد هوية الجناة سيكون من المحــتم أن يــنهار أحدهم لكي ينقذ نفسه من عقوبة أشد. كما أن هناك اختبارات السائل المــنوي، واللعــاب، والشعر، والبصمات، وكل أساليب الطب الشرعي هذه. والحقيقة أن جــرائم الاغتــصاب الجماعي تكون أسهل في الحل من جرائم الاغتصاب الفردي، وهو الأمر الذي يعلمه كلانا، كما أعتقد أن الجنرال بدوره يعلم هذا.

فلــم تكن المشكلة في تحديد من فعلها؛ بل في أن هؤلاء كانوا إما من المتدربين أو من طاقم التدريب أو من الجنود. فالمشكلة هنا مشكلة علاقات عامة.

فالمــسألة هــي أن هناك خمسة مجرمين تناوبوا على اغتصاب مجندة واحدة، وأن الأكاديمــية العــسكرية الخاصة بكامل جيش الولايات المتحدة في ويست بوينت يمكن أن تخــسر ســمعتها بأسرع من الوقت الذي فقدت خلاله آن كامبيل عذريتها. فهذا هو الزمن الــذي نعيشه؛ فالاغتصاب لا يمكن أن يعد ممارسة جنسية، بل هو جريمة عنف، وانتهاك للــنظام والمعايير العسكرية، وخرق لميثاق الشرف العسكري في ويست بوينت، واستهانة واضــحة بــتلك الأكاديمية، وعلى وجود المرأة في الجيش، ورسالة موجهة إلى الضباط الإنــاث جمــيعاً، وعلى مفهوم أن بوسع المرأة أن تشارك الرجل في التواجد في الغابات المظلمة لمعسكر بكنير، أو في التواجد في ساحات الحرب.

فها هي سيطرة الرجال على ويست بوينت تنتهك من قبل من يخجلن من أن يقضين حاجــتهن وسط الغابات، تماماً كما عبر عن هذا ذلك الكولونيل في بار نادي الضباط. فلم يكن أمراً يمكن التسامح فيه طيلة سنوات التدريب والدراسة في الأكاديمية ولكن كان يمكن التغاضــي عنه داخل الفصول. أما في الغابات، وأثناء ليالي الصيف الحارة، وفي الظلام، فإن من حق الرجال أن يرتدوا إلى أفعال عصور ما قبل التاريخ.

وأنا أتذكر جيداً أن التدريبات الميدانية بالكامل كانت عبارة عن تعبئة عامة، وكأنها الحــرب، ومحاكاة متعمدة لتقاليد القتال البدائية. ولم تكن هناك إناث معنا في الغابات أثناء أدائي للتدريبات، ولو حدث هذا، لكنت قد شعرت بالأسى لأجل حالهن.

إلا أن الإدارة في واشنطن والبنتاغون كانت قد قررت أن تساوي بين الجنسين داخل الجيش. وقد كانت هذه خطوة جيدة، بل ضرورية، إلا أنه قد بولغ في تنفيذها. ومن المؤكد

أن التفكير قد اختلف منذ أن كنت شاباً أتدرب من أجل حرب فيتنام. إلا أن تفكير الكل لم يتغيـــر، فتطبـــيق المساواة هذه قد تفاوت بين أقسام الجيش المختلفة. فهناك من أبدى عدم اقتناعه، وهناك من قاوم هذا التطبيق، وكانت مواقف فردية. هذه هي مقدمات ما حدث في لـــيلة مـــن آب/أغسطس منذ عشر سنوات مضت. فقد أخفت قيادة ويست بوينت أن مئات المجـــندات قد اغتصبن على يد آلاف المجندين أثناء تلك التدريبات الليلية في الغابات. ولم تكن على استعداد للكشف عن هذا.

وهكـــذا تـــباحث مسؤولو واشنطن - في البنتاغون - داخل الأكاديمية مع الجنرال جوزيـــف كامبيل حول الأمر. وكما أخبرني أنا وسينثيا، فقد بدا الاتفاق معقولاً في نظره. فمـــن الأفضل التكتم على هذه الواقعة بدلاً من نسف ويست بوينت من أساسها، ومن إلقاء الـــشكوك على توجهات هذه الأكاديمية، وعلى آلاف المجندين والضباط الأبرياء الذين لم يشتركوا في اغتصاب أنثى ذات ليلة. كل ما كان على الجنرال أن يفعله هو أن يقنع ابنته بأن من الأفضل لها وللأكاديمية وللجيش ولمبدأ المساواة أن تنسى ما حدث.

تـــم إعطاء آن كامبيل دواءً يمنع حملها، وتم الكشف عليها للتأكد من أنها لم تصب بـــأي من الأمراض الجنسية المعدية، وحضرت والدتها من ألمانيا جالبةً معها دمية ابنتها المفضلة، وتمت مداواة جراحها وسحجاتها، وتنفس الجميع الصعداء.

كان الأب مقتنعاً، ولم تكن الأم على نفس اقتناعه. وكانت آن تثق في أبيها، وهي لم تكن حتى سن العشرين هذه سوى ابنة أبيها ولم تكن تود سوى رضائه، وهكذا نسيت أنها تعرضت للاغتصاب. إلا أنها سرعان ما تذكرت هذا فيما بعد، ولهذا السبب نجلس جميعنا الآن في مكتب الجنرال.

كانت هذه كل الحكاية الحزينة، وكان صوت الجنرال يتهدج بين الحين والآخر، بل كـــان يـــسكت أحـــياناً. بل لقد لاحظت أن سينثيا تكاد تنتحب عدة مرات، وسأكذب لو لم أعترف بأنه قد كانت هناك غصة في حلقي.

نهـــض الجنرال إلا أنه أشار لنا بأن نبقى جالسين. قال: "أستأذنكما للحظة". وخرج مـــن باب الحجرة، وسمعنا صوت خرير الماء. وفي هذا الموقف الميلودرامي كدت أتوقع سماع صوت طلق ناري.

بقى نظر سينثيا معلقاً بالباب وهي تقول لي: "أنني أتفهم سبب قيامه بتلك التصرفات، إلا أنني في غاية الغضب من هذا لكوني امرأة".

"وأنا غاضب أيضاً يا سينثيا. فهناك خمسة رجال يتندرون الآن على ليلة تسلوا بها، بيـــنما نحن هنا في مواجهة هذه القضية. خمسة رجال - هذا إن كانوا طلاباً عسكريين - واصـــلوا حياتهم وتخرجوا ليصبحوا ضباطاً أو أصحاب مناصب. كانوا زملاء لها وربما

كانوا يرونها كل يوم. فأصبحوا مسؤولون سواءٌ بشكل مباشر أو غير مباشر عن موتها. ومن المؤكد أنهم كانوا مسؤولين عن ما كانت عليه من حالة عقلية".

أومأت سينثيا برأسها قائلةً: "ولو كانوا جنوداً فإنهم قد عادوا إلى ثكناتهم متفاخرين بأنهم قد اغتصبوا تلك الطالبة العسكرية في ويست بوينت".

"وأنهم لن ينالوا العقاب".

عاد الجنرال كامبيل ليجلس من جديد. وبعد برهة قال: "هكذا ترون أنني قد نلت جزائي، إلا أن آن كانت هي من دفع ثمن خيانتي لها. ففي غضون أشهر من تلك الواقعة تحولت من فتاة مرحة منطلقة ودودة إلى امرأة غامضة انعزالية لا تثق بأحد. لقد أبلت بلاءً حسناً في الأكاديمية، وتخرجت بين أوائل دفعتها، ثم واصلت دراستها العليا. إلا أن الأمور لم تعد كما كانت أبداً بيني وبينها، وكان عليَّ أن أضع في الحسبان هذه التبعة لتصرفي... لقد فقدت ابنتي حينما فقدت ثقتها بي" وتنهد عميقاً، ثم تابع: "إن حديثي معكما الآن جعلني أفضل كثيراً".

"أجل سيدي".

"بالطبع تعرفون بما أصابها من تخبط في التصرفات، وقد فسر لي الخبراء سبب ذلك. لم يكن الأمر يتعلق فقط بمحاولتها إفساد جميع من هم حولي أو أن تجلب لي العار. بل كانت تحاول أن توصل لي رسالة مفادها: إنك لم تقدر لي عفتي، وأنني كنت قد قررت أن أبقى عذراء حتى الزواج، فها آنذا أعطي الجميع جسدي طالما أن ذلك أمر لن يهمك في شيء. فوفر عليك دروساً تريد أن تلقنني إياها".

أومأت برأسي مقرراً ألا أعلق.

قال الجنرال: "وهكذا مرت السنون، حتى أتت إلى هنا. لم يكن مجيئها صدفة، بل قصدت هي هذا. فلقد وجدت أن شخصاً في البنتاغون، له يد عليا في اتخاذ القرار في ويست بوينت، يقترح عليَّ اقتراحين. أولهما أن أترك الخدمة فتقرر عندها آن بدورها أن تترك الخدمة هي الأخرى، أو أن سلوكها هذا لم يعد يجدي نفعاً... فقد كانوا يخشون أن يطلبوا منها أن تقدم استقالتها، فقد كان من الواضح أنها متعلقة بالجيش. أما الخيار الثاني فكان تولي ذلك المنصب في فورت هادلي، حيث توجد مدرسة للحرب النفسية. فقالوا أني لو أصبحت القائد فسيتمكنون من تحويل آن إلى منصب في تلك المدرسة، بحيث يبدو الأمر متفقاً مع خبرتها، وحتى أتمكن أنا من حلَّ المشكلة عن قرب وداخل مكان معزول كهذا. وقد اخترت الخيار الثاني، مع أن استقالتي كانت لتصبح أمراً متوقعاً بعد ما حققته من نجاح في الخليج وبعد سنوات الخدمة الطويلة... على أنها كانت قد أخبرتني ذات مرة بأنني لو قبلت منصباً يعرضه البيت الأبيض أو قبلت الترشح في السلك السياسي، فإنها

ستفضحني على العلن. ففي الحقيقة أني كنت أسير الجيش بسبب ابنتي، ولم يكن أمامي من خيار سوى أن أبقى أو أن أتقاعد بعيداً عن الحياة العامة".

هكذا تبين لي سبب زهد الجنرال كامبيل في تولي منصب سياسيٍّ أو أي منصب في البيت الأبيض. وهكذا رأيت أن لجميع ما يحدث هنا في هذه القاعدة سبباً ظاهرياً لا يدل أبداً على السبب الخفي وراءه.

أخذ يتطلع فيما حوله وكأنما يراه للمرة الأولى. وقال: "لذا قررت أن آتي إلى هنا لأصلح ما يمكن إصلاحه، وأن أحاول أن أمحو أخطائي وأخطاء رؤسائي في الآن نفسه، فقد كان العديد منهم لا يزال داخل الجيش أو انخرط في الحياة العامة، وأغلبهم من الأسماء المعروفة لكما... وأنا لا ألوم رؤسائي على ما فرضوه من ضغوط. فما فعلوه كان خطأ، إلا أنني من وافق على التعاون معهم في هذا. فقد كنت أظن أن ما أفعله سيعود بالنفع على الجميع – على آن وعلى القوات المسلحة – وبدت لي الأسباب منطقية، إلا أنها لم تكن في الأخير على هذه المنطقية التي ظننتها، وبالتالي فقد تخليت عن ابنتي من أجل نفسي... وفي غضون عام من الحادث كنت قد نلت النجمة الثانية".

قلت محاولاً ألا أبدو مبالغاً في تعاطفي: "سيدي الجنرال، أنت مسؤول عن كل ما يقوم به مرؤوسوك أو يفشلون في القيام به. ولكنهم في قضيتنا هذه قد خانوك. فلا يحق لهم أن يطلبوا منك أن تتحمل المسؤولية".

"أعلم هذا. وهم يعلمون هذا. فمع كل هذه الموهبة والخبرة والقدرات العقلية، إلا أننا كنا نلتقي في غرفة فندق صغير في نيويورك في منتصف الليل كالمجرمين نتحدث في أمور لا تشرف أي عسكري. إلا أننا بشر، وقد نخطيء في قراراتنا، فقد اتخذنا هذا القرار السيئ متحملين كافة التبعات".

كنت أتفق مع كلامه هذا، وكان هو يعلم هذا، فلم أعلق. إلا أنني قلت: "وهكذا كنت مع ابنتك خصمين متحاربين داخل حلبة تمثلها هذه القاعدة".

بدا شبح ابتسامة على وجهه وهو يقول: "بالفعل. لم يكن الأمر كما تصورته عملية علاج. بل كانت حرباً، وكانت متأهبة لها بشكل يفوق استعدادي أنا لهذا. وكان الحق معها، وهو ما عوض فارق القدرات. كانت تهزمني في كل خطوة، بينما كنت أعرض أنا عليها الهدنة. فقد كنت أعتقد أنه لو تبين لها أنها انتصرت، فسوف تقبل اعتذاري وندمي على ما فعلت. لقد كان ما يحدث يمزقني، بين كوني أباً يرى ما تقوم به تجاه نفسها وتجاه أمها. لم أعد مهتماً بسمعتي أنا. إلا أنني كنت مهتماً بهؤلاء الذين استغلتهم... رغم أنني – ويا للغرابة – كنت سعيداً بكونها متواجدة بالقرب مني مهما كان الذي تفعله. فقد افتقدتها، وأنا أفتقدها الآن".

مكـــثت وسينثيا من دون أن نتكلم واكتفينا بالاستماع إلى أنفاسه الثقيلة. من الواضح أن هذا الرجل قد كبر عشر سنوات خلال الأيام القليلة الماضية، وربما عشر أخرى طيلة العامين الأخيرين. وخطر لي أنه ليس نفس الرجل الذي عاد منتصراً من الخليج منذ فترة ليست بالطويلة. فقد كان من المدهش أن أتبين أن الملوك والأباطرة والجنرالات يمكن أن يسقطوا ضحايا لغضب وانتقام امرأة لاقت أية إساءة منهم. فنحن ننسى أن هناك أساسيات في هذه الحياة، مهما علا شأن الإنسان: اهتم بحياتك العائلية أولاً، ولا تخذل أفرادها أبداً.

قلـــت: "نـــود قبل أن ننصرف يا سيدي الجنرال أن تخبرنا عن ما حدث في ساحة الرماية رقم ستة".

"أجل... حسناً، لقد رأيتها هناك على الأرض، و... وظننت... ظننت في البداية أنها ميتة، إلا أنها نادت علي... قالت: هذا هو الرد على إنذارك اللعين".

... لـــم أفهم في البداية ما الذي كانت تتحدث عنه، إلا أنني تذكرت ما فعلوه بها في ويـــست بويـــنت. وســـألتني عن أمها، فأخبرتها بأنها لا تعلم أي شيء عن هذا. فنعتتني بالجـــبان، ثم قالت: هل رأيت ما فعلوه بي؟ هل رأيت ما فعلوه بي؟ وكنت.. كنت أرى ما فعلـــوه ظاهـــراً.. أعنـــي أنهـــا لو كانت تقصد أن تريني ما حدث لها هناك، فقد حققت غرضها".

"وماذا قلت لها سيدي الجنرال؟".

"اكتفـــيت بأن صحت فيها: ليس عليكِ أن تفعلي هذا يا آن. إلا أنها فعلته... لقد كان الغضب يجتاحها، وكأنما أصيبت بجنون مطبق. فأخذت تصرخ في أن أقترب، لكي أرى مـــا فعلـــوه بهـــا، وما عانت منه. وأخذت تردد هذا لفترة طويلة، ثم قالت بأنها ستقدم لي بعض الخيارات رداً على ما عرضته عليها من خيارات". وصمت الجنرال كامبيل للحظة، ثم تابع: "قالت لي أن هناك حبلاً حول عنقها... وأن بوسعي أن أخنقها إن أردت... أو أن أعمل على التعمية على هذا كما كنت فعلت قبلاً... فيمكنني أن أقترب لأفك قيدها وأعيدها للمنـــزل... أعـــيدها إلى بيومونت... إلى أمها. كما قالت بأن بوسعي أن أتركها هكذا، وعندها سيجدها الحرس أو الشرطة العسكرية أو أي أحد، وسوف تفضي لهم بكل شيء. كانت هذه هي خياراتي".

فقالت سينثيا: "وهكذا اقتربت منها لكي تفك قيدها كما كنت قد ذكرت لنا؟".

"كلا... لم يكن بوسعي هذا. لم أستطع أن أقترب منها... ولم أحاول أن أفك قيدها... اكتفـــيت بالوقـــوف قرب السيارة، ثم فقدت أعصابي فجأة. فقد نال مني كل هذا الغضب والمقـــت الـــناتج عن محاولتي طيلة تلك السنوات أن أصحح الأمور. فأخذت أصرخ فيها بأنـــي لا ألقي بالاً لما فعلوه بها منذ عشر سنوات... وأني سوف أتركها في مكانها ليعثر

علــيها الحرس أو الشرطة العسكرية، أو أول كتيبة تحضر على ساحة الرماية صباحاً أو أي أحــد آخر، حتى يراها الجميع عاريةً و...". توقف في منتصف الكلام وثبت ناظريه علـــى الأرض، ثـــم تابع وهو على هذا الوضع: "قلت لها أن ليس بوسعها أن تؤذيني بعد الآن، عـــندها أخذت تصيح بتلك الخزعبلات التي حفظتها عن نيتشه: أياً ما يؤذيك يجعلك أقوى، ما لا يميتني يقويني.. وغير هذا. فقلت لها أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تدمره هـــي هـــو منصبي ورتبتي، وأني سأستقيل من الخدمة، وأنها قد دمرت أية مشاعر لديَّ تجاهها، وأنها قد تجاوزت كل الحدود في انتقامها هذا".

صـــبَّ الجنـــرال لنفسه بعض الماء ليشرب، ثم واصل كلامه: "أخذت تقول بأنها لا تهتم بهذا.. ليجدني أحدهم – أنت لم تمد لي يد المساعدة أبداً.. ثم بدأت تبكي، ولم تتوقف عـــن الـــبكاء، إلا أننـــي أظن أني سمعتها تقول أبي...". نهض قائلاً: "أرجوكما... أنا لا أستطيع أن...".

نهـــضت بـــدوري وأنـــا أقول: "أشكرك سيدي الجنرال". أدينا تحية الانصراف واتجهـــنا إلـــى الـــباب قبل أن ينخرط هو بدوره في البكاء، إلا أن خاطراً خطر لي، فالـــتفت أقول له: "إن مقتل فرد آخر من هذه العائلة لن يكون هو الحل. كما أنه ليس من الرجولة في شيء. بل هو عمل جبان". إلا أنه كان قد أعطى ظهره لنا، فأشك أنه قد سمعني من الأصل.

الفصل التاسع والعشرون

خرجت بالسيارة من موقف مبنى القيادة، وقدتها لبضع مئات من الأمتار، ثم أوقفتها إلـى جانـب الطـريق. فقد واتاني رد فعل متأخر على تلك المقابلة، وكنت أشعر ببعض الأحاسـيس المتضاربة. قلت لها: "أصبحنا نعلم الآن سبب وجود تلك الدموع الجافة على خديها".

"أشعر بالإعياء".

"وأنا أحتاج إلى شراب".

تنهدت وقالت: "كلا. علينا أن ننهي هذا الأمر. أين مور؟".

"من الأفضل له أن يكون داخل هذه القاعدة". ثم انطلقت بالسيارة متجهاً نحو مدرسة الحرب النفسية.

وفي الطريق سألتني: "لم يتخلَّ الجنرال في نهاية الأمر عن ابنته بنفس الطريقة التي فعلهـا في ويست بوينت. بل تركها في تلك الساحة غاضباً، إلا أنه قد أدرك أنها قد تكون الفرصة الأخيرة لإنهاء كل هذا الذي بينهما".

فكـرت للحظة، ثم تابعت: "فربما فكر في أن يعود إليها، إلا أنه وجد أنه يحتاج إلى سـكين لـيقطع بها الحبال، وإلى ملابس وإلى وجود سيدة معها. وقد تغلب هذا الاهتمام بالتفاصـيل علـى ما شعر به من صدمة مربكة، فقاد السيارة إلى بيثاني هيل، إلى الرجل الوحـيد الذي يثق به داخل هذه القاعدة". سكتت قليلاً، ثم واصلت: "وحينما وصلت عائلة فاولر إلى هناك كانوا متيقنين من أن الجنرال هو الذي خنق ابنته، أليس كذلك؟".

قلت: "ربما خطر هذا ببالهما. إلا أنهما حينما عادا ليخبراه بأنها ماتت... فلا بد من أنهما قد تيقنا من حجم الصدمة وعدم التصديق اللذين بديا عليه".

"ألم يكن عليهما أن يفكا قيدها ويحضرا جثتها؟".

"كـلا. فالكولونيل فاولر كان يعلم أن نقل الجثة سيزيد الأمور سوءاً. وأنا على يقين مـن أن الكولونـيل فاولر – بكل خبرته العسكرية – كان بوسعه أن يحدد ما إذا كانت قد ماتـت أم لا. وحتى لا تثار أية شكوك نحوه هو، فأنا متأكد من أنه أو الجنرال أو السيدة فاولر قد اتفقوا على تركها كما هي".

"بالفعـل، فلـو كان الكولونيل فاولر متواجداً وحده وقتها، لكان قد أصبح في موقف ضعيف سيئ".

فكرت في الأمر لحظات، ثم قلت: "ها نحن نعلم أنه قد كان هناك – بخلاف المجني علـيها – أربعة أشخاص: الكولونيل مور، والجنرال، والكولونيل والسيدة فاولر. ونحن لا نعتقد أن أياً منهم هو القاتل. فعلينا إذن أن نضع شخصاً خامساً في ذلك المكان خلال فترة النصف ساعة التي كانت الفرصة خلالها متاحة للقتل... وهذا الشخص هو القاتل بالطبع".

"ربما كان علينا أن نسأل الجنرال عما إذا كانت لديه أية فكرة عمن يمكن أن يتواجد خلال تلك النصف ساعة".

"أعتقد أنه يشك في الكولونيل مور. ولو أنه كان يشك في غيره لكان قد أخبرنا عنه. ولا أرى أنه قد خطر بباله أن يكون الكولونيل مور هو من عاونها، إلا أنه لم يكن القاتل. أقصد أنني لم أكن لأضغط على هذا الرجل أكثر".

"أعلم هذا. فكم أكره أن أستجوب عائلة المجني عليه. فتنتابني كافة المشاعر الـ..".

"لقد أديتِ دورك بامتياز. وكذلك أنا. وكذلك الجنرال".

زدت سرعة السيارة متجهين على مدرسة الحرب النفسية، إلا أن سيارة مور لم تكن متواجدة في مكانها. فدرت حول المبنى بالسيارة، إلا أننا لم نجد أثراً للفورد الرمادية. "لو كان هذا الوغد قد فارق القاعدة، فإني أقسم أن أقطعه إرباً".

اقتـربت منا سيارة جيب تتبع الشرطة العسكرية، كان صديقنا العريف سترود، "هل تبحثان عن الكولونيل مور، سيدي؟".

"ومن سواه".

فابتسم، "لقد ذهب لمقابلة القائد لأجل رفع ذاك الحظر عنه".

"نـشكرك". اسـتدرت بالـسيارة متجهاً صوب مبنى قيادة الشرطة العسكرية. قلت لسينثيا: "لسوف أصلبه صلباً".

"وماذا عن تقطيعه إرباً؟".

"ذاك أيضاً".

توجهـنا إلـى المبنـى الرئيـسي، وبينما اقتربنا لاحظت أن الصحفيين لم يغادروا أماكنهم. أوقفت السيارة أمام المبنى مباشرةً، وترجلت منها مع سينثيا وصعدنا سلم المبنى فـي سـرعة. دلفـنا إلى الداخل متوجهين مباشرةً إلى مكتب الكولونيل كينت. وقالت لنا سكرتيرته أنه في اجتماع.

"مع الكولونيل مور؟".

"أجل سيدي".

ففتحت الباب، لأجد بالداخل الكولونيل مور وكينت ورجل آخر في زيه العسكري، كان برتبة نقيب. بادرنا كينت قائلاً: "أنا سعيد لحضوركما".

نهض الرجل الثالث، وتبين لي أنه من الإدارة العسكرية القانونية، أي محامٍ. كان اسمه كولينز، سألني: "هل أنت المساعد برينير؟".

"أنا الذي ألقي الأسئلة هنا أيها النقيب".

"أعتقد هذا. لقد طلب الكولونيل مور مني أن أمثله كمحامٍ، لذا فكل ما تريد أن تقوله...".

"سأوجه كلامي إليه هو".

كان مور لا يزال جالساً في مواجهة مكتب كينت، ولم يكن ينظر إليَّ عمداً. فقلت له: "إنني ألقي القبض عليك. قم معي".

أشار النقيب كولينز إلى موكله أن يبقى جالساً، وقال لي: "ما هي التهمة الموجهة إليه؟".

"سلوك مشين لا يليق بضابط عسكري".

"حقاً، أتدري أن هذا سخف يا سيد برينير، فبوسعك أن...".

"بالإضافة إلى... انتهاك المادة رقم 134 من النظام العسكري العام. بالإضافة إلى تهمة التآمر والإدلاء بشهادة كاذبة. بالإضافة - أيها النقيب - إلى أنك أنت على حافة انتهاك المادة رقم 98، وهي عدم طاعة القواعد القضائية".

"كيف تجرؤ على هذا؟".

سألت كينت: "هل لديك أصفاد؟".

هنا بدا القلق على وجه كينت. فقال: "لدينا ما يتوجب أن نناقشه هنا يا بول. أنت بالفعل يمكنك أن تلقي القبض عليه، إلا أنني كنت أتحاور معه بصفته متهم ومعه محامٍ".

"إن الكولونيل مور ليس متهماً في جريمة القتل، فلا سبب هناك لهذه المحاورة، ولو كان هناك سببٌ، فأنا من له أن يحاوره، وليس أنت سيدي الكولونيل".

"تباً لك يا برينير، لقد تماديت هذه المرة..".

"سيدي الكولونيل، سوف أقتاد متهمي من هنا" ثم قلت لمور: "انهض".

نهض من دون أن يلقي أية نظرة إلى محاميه.

"تعال معي".

غادرت مع سينثيا مكتب كينت ومعنا الكولونيل مور المسكين.

صحبناه عبر الممر وحتى زنـــزانة الحجز. كانت معظمها فارغة، ووجدت إحداها مفـــتوح إلـــى جـــوار زنـــزانة ديلبيرت إيلكينـــز. دفعت مور دفعة خفيفة إلى الداخل ثم أغلقت الباب من خلفه.

نظر إيلكينـــز إلى مور ثم إليَّ، وقال مدهوشاً: "ما هذا أيها القائد، هذا كولونيل!".

تجاهلـــت إيلكينـــز موجهاً كلامي لمور: "أنت متهم بما قلته لك من قبل. ولك الحق في ألا تتكلم، كما لك الحق في أن تنوب عنك محامياً تختاره".

هـــنا تحـــدث مور لأول مرة: "لديَّ محامٍ بالفعل. ولقد هددته للتو بأن تلقي القبض عليه".

"هذا صحيح. كما أن أي شيء تتلفظ به هنا سوف يكون ضدك أثناء المحاكمة".

"أنا لا أعلم شيئاً عن القاتل".

"وهل قلت أنك تعلم؟".

"كلا... لكن...".

كـــان ديلبيرت إيلكينـــز يتابع الحوار عن كثب. فقال لمور عبر الزنـــزانة: "سيدي الكولونيل، لا تنوب عنك محامياً، فسوف يثير هذا غضبه".

رمـــق مور إيلكينـــز، ثم عاد ليقول لي: "لقد أخبرني الكولونيل كينت بأنه ليس من حقي مغادرة القاعدة، لذا لم يكن أمامي سوى أن أوكل محامياً".

"أنت الآن مسجون".

قـــال ديلبيـــرت: "سوف يطلقون سراحي. سأبقى محتجزاً في الثكنات. أشكرك أيها القائد".

تجاهلـــته مـــوجهاً كلامي لمور: "لديَّ أدلة قوية على أنك كنت في مسرح الجريمة وقت وقوعها أيها الكولونيل. وهناك ما يكفي من التهم ضدك لأن تقبع في السجن لعشر أو عشرين سنة".

تراجع مور للوراء في قوة وكأنما لكمته، وجلس على الفراش الصغير بقوة. "كلا... إنني لم أرتكب أي جرم. لكني فعلت فقط ما طلبته هي مني...".

"وأوحيت لها بأن تفعل ما فعلته".

"لا! بل هي التي خططت لذلك. لقد كانت فكرتها هي".

"أنت تدرك جيداً ما كان والدها قد فعله معها في ويست بوينت".

"لم أعلم بهذا إلا منذ أسبوع – حينما وجه إليها ذلك الإنذار".

نظر إيلكينـــز إلى سينثيا قائلاً لها: "ما الذي فعله معك؟".

قلت لإيلكينــز: "اخرس أنت الآن".

"أجل سيدي".

قلت لمور: "أريدك أن تترك القوات المسلحة. وقد أتيح لك أن تتقدم باستقالتك. وهذا سيعتمد على قدر تعاونك معي".

"أنا مستعد للتعاون و...".

"لا يهمنـــي إن كنت مستعداً أم لا أيها الكولونيل. بل سوف تتعاون. وسوف تتخلى عن طلب ذاك المحامي".

همَّ إيلكينــز بأن يعلق، إلا أنه تراجع مكتفياً بالجلوس على الفراش.

أومأ مور برأسه موافقاً.

"ما الذي كنت ترتديه حينما كنت في ساحة الرماية رقم ستة؟".

"زيـــي العـــسكري. رأيـــنا أن هـــذا أفـــضل، في حالة إذا ما مر بنا أفراد الشرطة العسكرية".

"وهذا الحذاء؟".

"أجل".

"اخلعه".

تردد، ثم خلع حذاءه.

"أعطه لي".

سلمه إليَّ عبر القضبان.

قلت: "أراك فيما بعد أيها الكولونيل" ثم قلت لإيلكينــز: "كيف حال صديقي؟".

نهض قائلاً: "في خير حال سيدي. سوف يطلقون سراحي صباح الغد".

"جيد. ولو فكرت في الهرب سأقتلك".

"أجل سيدي".

انصرفت وتبعتني سينثيا وهي تسأل: "من هو هذا الشاب؟".

"صديقي، وسبب وجودي هنا في هادلي". أوجزت لها قصته، ثم توجهت إلى المكتب لكي أعلم الرقيب بالحبيس الجديد: "هناك في الحبس الكولونيل مور. فتشه ذاتياً ولا تقدم له سوى الماء هذه الليلة. ولا تسمح له بقراءة أي شيء".

نظر الرقيب إليَّ في دهشة: "هل هناك ضابط في الحبس؟ كولونيل؟".

"ولن يحق له أن يتصل بمحاميه حتى الصباح. وسوف أخبرك قبلها".

"نعم، سيدي".

"ضع بطاقة على هذا الحذاء، ثم أرسله إلى الهانجر رقم ثلاثة في جوردان فيلد".

"نعم، سيدي".

غادرناه متوجهين إلى مكتبنا. قالت لي سينثيا: "لم أكن أعلم أنك ستقوم بحبسه".

"ولا أنـــا، حتـــى رأيـــت المحامي. وعلى العموم فقد كان الجميع يريد مني أن ألقي القبض عليه".

"أجل، لكن بتهمة القتل. كما من غير الممكن أن تضع ضابطاً في الحجز".

"عادة سخيفة. فماذا لو ذهب إلى ليفينورث... كما أن المتهم يتحدث بصراحة حينما يتعرض للحبس".

"هـــذا صحيح. بخلاف تفتيشه ذاتياً ومنعه من الطعام. فالتعليمات تقول بضرورة أن يتناول الخبز والماء على الأقل".

"كل أربع وعشرين ساعة، لا تنسي هذا. أنا نفسي لم أتناول طعاماً معقولاً منذ ثمانية وأربعين ساعة".

"سوف يتم توجيه النقد الرسمي لك على هذا التصرف".

"هذا آخر ما أفكر فيه الآن".

دلفـــنا إلى مكتبنا، وتصفحت الرسائل الهاتفية. فبخلاف الصحافة، لم يكن هناك من اتـــصل بي. لم يعد أحد يود أن يتحدث معي بعد الآن. على أن هناك رسالة من الميجور بـــويس، صاحبنا القلق في إدارة التحقيقات العسكرية هنا، ومن الكولونيل ويمز، صاحبنا القلق الآخر من مكتب المدعي العسكري العام، والكولونيل هيلمان المتلهف. هاتفت هيلمان بمنـــــزله في فولز تشيرش، حيث أوصلتني زوجته به بعد أن أكدت لي أنني أقطع عليه تناول عشاءه. "مرحباً كارل".

"مرحباً بول" قالها في جذل.

"أشكرك على رسالة الفاكس".

"لا تذكر هذا. لا تذكر هذا أبداً".

"معك حق. لقد تحدثنا مع الجنرال والسيدة كامبيل، كما تحدثنا إلى السيدة فاولر. وأمكنني أنـــا وسينثيا أن نعيد تكوين التسلسل الكامل لما حدث تلك الليلة منذ عشاء آن كامبيل في نادي الـــضباط ومن ثم تسلمها الخدمة وحتى وقت ركوبها الجيب بحجة تفقد نقاط الحراسة، وصولاً إلى وقت الجريمة وما بعد وقت الجريمة، وحتى الفجر ثم تعييني لهذه المهمة".

"جيد جداً، من قتلها إذن؟".

"في الحقيقة لم نصل إلى هذا بعد".

"فهمت. هل ستتمكنان من هذا قبل ظهيرة الغد؟".

"هذا ما نأمله".

"سيكون من الجيد أن تتوصل التحقيقات العسكرية إلى الجاني".

"بالفعل سيدي. وأنا بدوري أتطلع إلى ترقية وإلى زيادة في المرتب".

"لن تحصل لا على هذا أو على ذاك. لكنني سأرفع خطاب لفت النظر من ملفك كما طلبت مني".

"رائع. رائع بالفعل. عليك إذن أن تعد خطاباً آخر ليحل محله. لقد ألقيت القبض على الكولونيل مور، ووضعته في الحبس، وفتشته ذاتياً، وسمحت له بالماء فقط".

"كان عليك أن تكتفي بحظر خروجه من القاعدة يا سيد بول".

"لقد فعلت، إلا أنه نجح في التوصل إلى محامٍ عسكري ويوكله".

"هذا حقه".

"بالطبع. والحقيقة أنني قد ألقيت القبض عليه أمام محاميه هذا، بل كدت ألقي القبض على المحامي نفسه لو أنه تدخل".

"ما هي تهمته إذن، إن لم تكن القتل؟".

"التآمر على إخفاء معالم الجريمة، وسلوك لا يليق بالعسكرية، ولكونه أحمقَ، وهلمّ جرا. أنت بالطبع لا تود مناقشة هذه الأمور على الهاتف، أليس كذلك؟".

"كلا. لم لا ترسل لي تقريراً عبر الفاكس؟".

"لا تقارير. ربما تأمر المساعد كايفر بأن ترسل لك تقريراً".

"أوه، بالفعل. آمل أن تكون معينة لكما".

"لم نكن نعلم أن لنا زميلة ثالثة".

"ها قد علمتما. لقد اتصلت بكما لأن قائد التحقيقات العسكرية لديكم قد هاتف فولز تشيرش، وكان غاضباً جداً".

لم أجبه.

"إنه الميجور بويس. أتذكره؟".

"لم نلتقِ من قبل أبداً".

"إلا أنه كان يلقي بالكثير من التهديدات".

"يا كارل، هناك قرابة الثلاثين ضابطاً في هذه القاعدة، وأغلبهم متزوجون، وكلهم متورطون في علاقة جنسية مع المجني عليها، فمن الطبيعي أن يهددوا ويتوسلوا وينتحبوا وغير هذا...".

"ثلاثين؟".

"على الأقل. ولكن من يهمه العدد؟".

"ثلاثين؟ ما الذي يجري عندك بحق السماء؟".

"أعتقد أن هناك شيئاً ما في الماء هنا. وأنا لم أشرب منه على أية حال".

كتمت سينثيا ضحكة، إلا أن كارل سمعها، فقال: "آنسة صنهيل، هل أنتِ موجودة؟".

"أجل سيدي، وصلت للتو".

"كـيف عـرفتما أن هناك ثلاثين ضابطاً متزوجاً كانوا على علاقة جنسية بالمجني عليها؟".

أجابته سينثيا: "لقد وجدنا مذكراتها يا سيدي. في الكومبيوتر الخاص بها. فلقد نجحت جريس في فك شفرته... وتشمل القائمة معظم الطاقم الخاص بالجنرال".

لـم يأتنا رد، فقلت له: "أعتقد أن بوسعنا أن نسيطر على الموقف هنا لو أن هذا ما يريدونه في البنتاغون. وأنا أقترح نقلهم إلى ثلاثين قاعدة عسكرية مختلفة، ثم يلي ذلك أن يتقدموا باستقالاتهم على فترات متباعدة. وهنا لن يتم لفت الأنظار إلى السبب. إلا أن هذا أمر لا يخصني أنا".

لم يأتِنا رد من جديد.

فقالت سينثيا: "يود الجنرال كامبيل أن يتقدم باستقالته في الغد بعد جنازة ابنته".

هنا تحدث كارل: "سوف أحضر إليكما هذه الليلة".

"لماذا لا تنتظر حتى الغد؟ فالأجواء هنا عاتية و...".

"حسناً.. غداً.. هل من شيء آخر؟".

"كلا سيدي".

"سوف نتحدث في الغد".

"أتطلع لهذا. عشاءً طيباً يا سيدي".

أغلق الخط فأغلقناه بدورنا.

علقت سينثيا: "أرى أنك عزيز لديه".

"هذا ما أخشاه. ما رأيك في أن نتوجه لتناول الشراب؟".

"ليس بعد". ثم ضغطت زر الاستدعاء وطلبت من الآنسة كايفر أن تحضر.

دخلـت كايفـر ومعها مقعدها، فقد أصبحنا جميعاً على قدم المساواة، ومن حقها أن تجلس. سألتنا: "كيف تجري الأمور يا رفاق؟".

ردت سينثيا: "على ما يرام. نشكرك على تواجدك".

"هنا محور الأحداث".

"هذا صحيح. وأنا أود أن تقومي بالبحث في تقارير دوريات الشرطة العسكرية كلها لـيلة الحادث. وأن تستمعي إلى أشرطة اتصالات الراديو بين الدوريات، وتفحصي دفتر يوميات الرقيب المناوب تلك الليلة، وأن تستجوبي أفراد الشرطة العسكرية الذين كانوا في الخدمة ليلتها. أنتِ تعلمين طبعاً ما نبحث عنه".

أومـأت كايفـر برأسها: "أجل. سيارات وأشخاص في أماكن لا يفترض أن يكونوا متواجدين بها بعد الساعة 24:00. فكرة جيدة".

"في الحقيقة أنك أنتِ من جعلني أفكر في هذا وأنتِ تتحدثين عما كان أفراد الشرطة العسكرية يتهكمون به عبر اتصالاتهم. نراكِ فيما بعد".

فارقنا الآنسة كايفر في المكتب. وقلت لها ونحن نسير عبر الممر" قد تتوصلين إلى شيء ما من خلال هذا".

"آمل هذا. فلا يوجد لدينا شيء آخر".

"الشراب؟".

"أرى أن تـذهب إلى الكولونيل كينت. فلقد كنت فظاً جداً معه. وسوف أنتظرك في الخارج. فقط أطلب منه أن يرافقنا لتناول الشراب. ما رأيك؟".

نظرت إليها لدقيقة، وتلاقت عينانا. فتيقنت من أنها تريد من كينت شيئاً آخر خلاف تطييب خاطره. فوافقت متوجهاً إلى مكتبه، بينما واصلت سينثيا طريقها متجهةً إلى البهو الرئيسي.

مـشيت ببطء حتى مكتب كينت، وعقلي أسبق من قدمي. الكولونيل ويليام كينت – الدافـع، الفرصة، الرغبة في ارتكاب الفعل، التظاهر الشديد بالبراءة، ومع كل هذا حجة غياب ضعيفة جداً.

إن الموقـف هو الذي يحدد منظور المرء. أو أن ما يراه المرء يعتمد على الموضع الذي يقف عنده. لذا فقد كنت أقف في الموضع الخطأ. فلقد كنت أقف على قرب شديد من ويليام كينت. وهكذا كان عليَّ أن أتراجع لأرى كينت من منظور مختلف.

كانـت الفكـرة تنتابنـي بشدة خلال اليومين الأخيرين، إلا أنني لم أستطع أن أعبر عنها، أو حتى أن أفكر فيها. فلقد دعاني كينت إلى أن أتولى هذه القضية، مما جعلني أتخذ مـساراً فكـرياً محدداً تجاه هذه القضية. وكان كينت حليفي الوحيد داخل هذه القاعدة. أما الكـل فـرأيته مـتهماً أو شـاهداً أو ضـحية ما بشكل أو بآخر. كما أن كينت قد تطوع بالاعتراف بأنه كان متورطاً بدوره، ولكنه لم يفعل هذا إلا حينما أدرك أنني سوف أكتشف فـي النهاية شيئاً ما بخصوصه مما يربطه بآن كامبيل، كما كان يشك في أنني وسينثيا قد

وجدنا الغرفة التي في القبو. ولو أنني فكرت في الأمر لوجدت أن بيرت ياردلي ربما كان قد أخبر كينت بأن باب الغرفة كان قد فتح ثم أغلق بالغراء، وأنهم يشكون في أني من قام بهـذا. لقـد بدت محتويات الغرفة كما هي حينما وصل ياردلي إليها، إلا أنه وكينت ليسا متأكدين مما قد أكون وجدته بها.

لقد ادعى الوغد بيرت ياردلي الدهشة من كوني أعرف بمكان الغرفة، إلا أنه عرف أن آن كامبيل لم تكن لتغلقه بالصمغ – لذلك فقد شك في أن برينير هو من فعلها. لقد أخذ بيرت ياردلي هذه المعلومة إلى كينت، وقرر كينت أن يعترف بتصرفاته الجنسية، إلا أنه حمى نفسه بعدم ذكر الغرفة. وبعد أن أصبحت محتويات الغرفة في حوزة ياردلي، لم أعد أعرف من يمسك بتلابيب الآخر، وما العلاقة التي تربط بين هذين الرجلين، ولكن إن كان أيٌّ منهما هو الذي قتلها، فإن الآخر لن يكون له علم بهذا.

أتذكـر كيف قاوم كينت قراري بأن أذهب مباشرةً إلى منـزل المجني عليها. وكان هذا مفهوماً وقتها، بوصفه إجراء غير معتاد، ولكنني تذكرت كيف أن كينت كان ينوي أن يهاتـف ياردلي مبكراً ذلك الصباح، أو ربما حاول أن يهاتفه ليقول له شيئاً من قبيل: "أيها القائـد، لقـد تـم قـتل آن كامبيل داخل القاعدة. ولا بد من أن تحصل على أمر قضائي بالدخـول إلـى منـزلها، في أسرع وقت ممكن. وعليك أن تجمع الأدلة". وكان ياردلي سـيعلم بالأدلة المتوجب جمعها والتخلص منها، في أسرع وقت ممكن. إلا أن ياردلي – وفقاً لتقريره هو – كان في أطلانطا، فوجد كينت نفسه في مأزق.

هـذا صـحيح. لذا فقد كنت أول من وصل إلى هناك، وكان على كينت أن يهاتف ياردلي لغرض مختلف، وهو أن يشرح له ما كان قد حدث. ومن ثم اكتفى كينت وياردلي بتمني أن تبقى غرفة القبو خفية. وتماماً كما كنت أنا وسينثيا نتمنى الشيء نفسه، ولم نكن نعرف أن قائد شرطة ميدلاند ومارشال فورت هادلي كانا من ضيوف تلك الغرفة.

وقد وقع كينت في الفخ حينما أخبر الجنرال والسيدة كامبيل بالحادث. وقد يكون هذا مفهـوماً كرد فعل بشري، إلا أنه غير مفهوم من الناحية المهنية. ولكن لو أن كينت كان هو من قتل ابنة الجنرال، فلا أرى أنه كان سيمتلك شجاعة أن يبلغ هو بنفسه الخبر.

ولـم يكـن كينت سيهاتف الميجور بويس، لأن كينت يعرف أن بويس يعلم بأمر الغرفة، كونه من ضيوفها هو الآخر. ولم يكن كينت سيرغب في أن يذهب بويس إلى هناك فيجمع من الأدلة ما يدين كينت. كما أن كينت لم يكن ليذهب بنفسه إلى منـزل آن كامبـيل، فلو أنه هو من قتلها، لكان المكان الذي سيلجأ إليه هو منـزله، وبأسرع ما يمكن، لأجل أن ينتظر مكالمة الهاتف المتوقعة من الشرطة العسكرية حينما يعثروا على الجثة.

بوسعي تصور الأمر... أو أنني اقتربت جداً من هذا. فقد كان كينت - لسبب لا أعلمه حتى الآن - بالخارج وبالقرب من ساحة الرماية رقم ستة. ولست أعلم ما إذا كان قد علم بالذي سوف يحدث هناك أو بكيفية علمه بهذا، إلا أن بوسعي أن أتصوره بعد أن غادر الجنرال كامبيل المكان: فها هو ذا بيل كينت الطويل الضخم الجثة، مرتدياً زيه العسكري، يقطع الخمسين متراً الفاصلة، نحو آن كامبيل العارية والمقيدة إلى الأرض. ويتوقف وينظران إلى بعضهما البعض، وأدرك أن القدر قد أتاح له هذه الفرصة. فقد كانت مشكلته هي آن كامبيل، واستعدادها لأن تورط أي أحد في علاقة معها. وكان حل هذه المشكلة هو ذلك الحبل الذي كان ملتفاً بالفعل على رقبتها.

ربما عرف أو لم يعرف بالمغزى من هذا السيناريو الذي أمامه، وربما يكون سمع أو لم يسمع بالحوار الذي دار بينها وبين أبيها. ولو لم يكن قد سمع به، فربما أساء فهم ما يراه فظنه موعداً غرامياً مع رجل آخر، فتملكته الغيرة، وتملك منه الغضب. فتحدثا، وربما قالت له آن كامبيل العبارة الخطأ في التوقيت الخطأ.

أو ربما لم يكن مهماً أيٌّ مما قالته - فقد كان الكيل قد طفح بكينت. وعرف أن هناك آثاراً لغيره في المكان، وعرف بأنه سوف يعود إلى المكان بصفة رسمية في غضون ساعات، وعندها سيكون أي أثر له في المكان متوقعاً. فهو شرطي بالطبع، فحسب حساب كل الاحتمالات في سرعة. فلم تكن هذه بالجريمة الكاملة فقط، بل والجريمة الضرورية أيضاً. وكان كل ما عليه أن يفعله هو أن ينحني فيخنقها بالحبل. ولكن هل كانت لديه الإرادة الكافية لهذا الفعل؟ ألم تتوسل هي إليه؟ أكان من الممكن أن يتحلى ببرودة الأعصاب في هذا الموقف؟ أم أن الغضب والمقت هو الذي أعماه؟

ما الذي أعرفه عن هذا الرجل الذي ربما أكون قد التقيته أكثر من عشرين مرة خلال السنوات العشر الأخيرة؟ أخذت أقلب في الذاكرة، ولكن كل ما كان في وسعي أن أقوله بكل تأكيد أنه كان مهتماً جداً بالمظهر أكثر من الجوهر. وكان واعياً جداً بأهمية سمعته كشرطي نزيه. فلم تصدر عنه مثلاً أية نكات جنسية، وكان صارماً تجاه الرجال تحت قيادته ممن لا ينصاعون للمعايير التي وضعها والخاصة بالسلوك والمظهر العسكري. إلى أن ابنة الجنرال قد أغوته. وعلم أنه قد أصبح موضع سخرية - وهذا ما ذكرته الآنسة كايفر - وأنه قد فقد الاحترام، وعرف أنه لن يمكن أن يصبح جنرالاً وهو على مثل هذه العلاقة.

وهل كان من الممكن - في عقله الباطن - أن يكون قد تيقن من أن هناك رجالاً بعينهم داخل القاعدة - وأغلبهم ممن هم تحت إمرته - سوف يتساءلون في تقدير عن أنه هو من فعلها، وعما إذا ما كان القائد هو من قام بحل المشكلة، ليست مشكلته فقط، ولكن مشكلة أكثر من ثلاثين ضابطاً كبيراً؟ فقد يجد الشخص العادي نفسه كارهاً لهذا القاتل، إلا

أن القاتـــل قادر أيضاً على أن يفرض على الجميع الخوف منه واحترامه، خاصةً إذا كان هناك إحساس بأن القاتل كان يؤدي شيئاً ليس على هذه الدرجة من السوء الظاهر.

وبالنظر إلى كل هذا، وبالنظر إلى حقيقة أن هذه التخمينات والاستنتاجات لها معنى وتتناســب مــع الحقائــق، فهل كان هذا يجعل من الكولونيل ويليام كينت – قائد الشرطة العــسكرية لفــورت هادلـــي – متهماً في جريمة قتل آن كامبيل؟ بالإضافة إلى غيره من المتهمين من الرجال – وربما النساء – داخل هذه القاعدة ممن لديهم الحافز – من ثأر أو غيــرة أو إخفـــاء معالم جريمة أو حتى تفادي العار – وكيف لي أن أثبت هذا؟ فالمحقق يــواجه معضلة في الحالات النادرة التي يكون فيها الشرطي المتواجد في مسرح الجريمة من بين الجناة المحتملين.

وقفت عند باب كينت للحظة، ثم قرعت الباب.

الفصل الثلاثون

تـوجهت بـسيارتي إلى نادي الضباط، وكان الصمت مخيماً، حتى قلت لسينثيا: "ما الذي يدعوك إلى الاعتقاد أن كينت هو القاتل؟".

"الغريزة".

"إن الغريـزة هي التي دفعت كينت إلى الوقوع في غرام آن كامبيل. ولكن ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنه قتلها؟".

"أنا لست متيقنة من أنه هو القاتل يا بول. إلا أننا استبعدنا كل المشتبه بهم الآخرين. فلـدى ياردلـي وابنه حجة غياب قوية، ونحن نعلم بكل ما قام به الكولونيل مور، وكذلك الجنـرال، وبالمناسـبة فأنا أرى أن السيدة كامبيل لا صلة لها بالجريمة. كما أن الرقيب سـاينت جون والشرطية العسكرية كايسي ليسا بالمشتبه بهما، وكذلك بقية من تحدثنا إليهم أو سمعنا عنهم".

"لكـن هـناك الميجور بويس، والكولونيل ويمز، والملازم إيلبي، وكبير القساوسة، والـضابط الطبـيب، وحوالي الثلاثين ضابطاً ممن يمتلكون الدافع. كما أنه هناك زوجات هؤلاء الضباط. كل هذه احتمالات".

"هـذا صـحيح. وقد يكون أيضاً شخصاً طليقاً لم نسمع به من قبل. إلا أن عليك أن تضع في الاعتبار فرصة كل منهم وكذلك إرادة ارتكاب مثل هذه الجريمة".

"معـك حق. وللأسف فإننا لا نمتلك الوقت الكافي لاستجواب كل اسم ورد في تلك المذكرات. وأكره أن أتصور أن تكمل المباحث الفيدرالية عملنا هذا، لأن الوقت سيتيح لهم أن يتوصلوا إلى كل تفصيلة صغيرة عن هؤلاء. كينت مشتبه به رئيسي، لكنني لا أريد أن أتعامل معه بنفس المنطق الذي تعامل به الجميع مع الكولونيل مور".

"أنا أفهم هذا. إلا أنه قد خطر لي في لحظة من اللحظات أن الدلائل تشير إليه بقوة".

"ومتى خطر لك هذا؟".

"لا أعرف. ربما أثناء استحمامي".

"سأتجاهل ردك هذا".

"هل تعتقد أنه سينضم إلينا في النادي؟".

"لم يكن صافي الذهن. ولكنه سيأتي لو كان هو القاتل. فهو أمر معروف عن كل المجرمين. يريدون أن يبقوا بالقرب من الأحداث، يرون، ويسمعون، ويحاولون التلاعب بالتحقيقات والتحكم فيها. والأذكياء منهم لا يظهرون أنهم يتعمدون هذا. إلا أن هذا لا يعني أن انضمام كينت إلينا في نادي الضباط سيعني أنه القاتل. إلا أنه إن لم يحضر فإن بوسعي أن أراهن على أنه ليس هو القاتل".

"فهمتك".

لقد نجحت طيلة سنوات عملي في التحقيقات العسكرية في أن أتفادى الالتحاق بكافة دورات التدريب التي يعقدها الجيش لأفراده في مجال التعامل مع مختلف الأفراد والأعراق والأجناس، وهو ما سبب لي مشكلة واضحة مع التوجهات الجديدة داخل الجيش. إلا أنني حصلت على الكثير من دورات إعداد القادة، وفيها كل ما يمكن أن تعرفه عن العلاقات العامة، ومن ذلك: احترام من هم أقل رتبة بنفس درجة احترام من هم أعلى رتبة منك، وألا أطلب من مرؤوسي أن يفعلوا شيئاً لا يمكنني أنا أن أفعله، وأن أنال احترام الغير، من دون أن أفرضه فرضاً، وأن أسدي المديح على من يستحق. لهذا لم أتردد عن أن أقول لسينثيا: "أنت تقومين بعمل رائع، وأبديت روح مبادرة متميزة، وحكم سليم على الأمور، والقدرة على تحمل الضغوط. أنتِ محترفة، وخبيرة في مجالك، كما أنك تبذلين كل ما لديك من جهد في العمل. ولقد كان من حسن حظي أن عملت معكِ".

"هل هذه رسالة مسجلة؟".

"كلا.. بل..".

"ليست بها أية أحاسيس يا بول. محايدة تماماً. عليك أن تتحدث من قلبك، هذا إن كان لديك قلب".

"أنا نادم على هذا إذن". أوقفت السيارة في موقف نادي الضباط، "إن قولي هذا لا يعدو أن يكون...".

"أنا أحبك. قلها...".

"لقد قلتها في العام الماضي. كم من مرة يتوجب أن...؟".

"قلها!".

"أنا أحبك".

"جيد". قفزت إلى خارج السيارة، وأغلقت الباب في قوة، وأخذت تجتاز المسافة إلى النادي. تبعتها حتى لحقتها. لم نتبادل أية كلمة حتى دلفنا إلى المجلس الرئيسي. وجدت طاولة فارغة في الركن فنظرت إلى ساعتي، والتي كانت تشير إلى الثامنة والربع مساءً. كانت حجرة الطعام ممتلئة، إلا أن قاعة الجلوس كانت فارغة بعد انتهاء فترة الراحة

والتـي تقـدم فـيها المشروبات بنصف الثمن. إن التوجه الجديد في الجيش لا يحبذ فكرة نـصف الـثمن هـذه خلال ساعة الراحة، إلا أن مثل هذه الأندية تعد كياناً شبه مستقل، وبعـضها لا يـزال على تمسكه بالعادة القديمة الخاصة بتقديم مشروبات مفضلة رخيصة لمدة ساعة أو ساعتين كل يوم، وهو أمر يمثل للمجندين - ما عدا من كان منهم قد هاجر هـرباً من ديكتاتور في بلده - مكافأة رمزية عما يحتملونه من أشياء لا يحتملها المدنيون. ولـسوء الحظ فإن تلك الأندية أصبحت قليلة هذه الأيام. أتتنا إحدى المضيفات، فطلبت أنا وسينثيا المشروب المفضل. قلت لها: "كم أنا عطشان، إن الجو شديد الحرارة بالخارج".

"لقد كنت تعرق طيلة النهار... هل تريد أن تستحم؟" قالتها وهي تبتسم.

"هل لدينا وقت لهذا؟".

"ربما كان علينا أن نستحم معاً من جديد".

"إن عملنا مرهق بالفعل".

أتـت المـشروبات وقـرعنا الكـؤوس نخباً. قالت: "لأجل آن كامبيل. سوف نبذل قصارى جهدنا أيتها النقيب".

وتناولنا المشروب.

قلـت: "لقد أصبحت متعلقاً بهذه القضية. هل هذا بسبب القضية أم بسبب تعبي وكبر سني؟".

"إن للأمر علاقة بطبيعة القضية. فأنت مهتم بها. فهي ليست مجرد قضية، بل مأساة إنسانية".

"أي من المآسي لا يزال هناك؟ جميعنا على بعد خطوة من مأساة أخرى".

"صـحيح. فحينما نلقي القبض على القاتل، فلن نجد أن الأمر يستحق الاحتفال. بل هي مأساة أخرى. فهو شخص يعرفها. بل وربما أحبها".

"مثل كينت".

"أجل. إنني لا زلت أفكر في شيء كنت قد قرأته من قبل... شيء أذكره دوماً حينما أسـتجوب امرأة تعرضت للاغتصاب. إنه أشبه بهذا... الموت أهون من العار. أعتقد أننا أمام شيء من هذا القبيل، بدءاً بما تعرضت له آن من مهانة وعار في ويست بوينت. فكر في هذا يا بول. فهم يلقنون الضباط أن يتحلوا بالفخر بالنفس والثقة بها. وأناس من أمثال آن كامبـيل يكـن قـابلات بحكم حياتهن لأن يتحلين بهذا، وبالتالي فقد ناسبهم مكان مثل ويـست بويـنت. وحينما تحدث جريمة كالاغتصاب هذه، بما تحمله من مهانة، فإنهن لا يحتملـنها. كمـا أنهن لا يتقوقعن على أنفسهن كالباقيات. بل يتجرعن ما حدث، ومن ثم يبدأن الانتقام".

"أنا أفهم قصدك".

"فـتلملمن أنفـسهن ويواصلن الحياة، إلا أن حياتهن لا تعد أبداً كما كانت من قبل. أقـصد أنه لا توجد امرأة تبحث عن أن تتعرض لاغتصاب وحشي، وفي حالة آن كامبيل فإن علاج نفسيتها كان أمراً محالاً".

"أفهم أن البعض لا يرى علاجاً للمهانة والذل سوى الانتقام".

"صـحيح. ولو أننا طورنا هذا الأمر لنطبقه على الضابط الرجل العادي. لوجدنا أنه أكتـشف غواية آن كامبيل له، وأن هذه الغواية أمر لم يستغرق سوى العشرين دقيقة، بما في ذلك تناول المشروبات، فوجد نفسه منقاداً إلى تلك الغرفة وهي تشجعه على مجاراتها فـي أداء أفعـال شـاذة، وفي لحظة من اللحظات وجد نفسه يلبي بعض الأفعال المخجلة لأجلها. وهنا تختلط المشاعر بداخله – بدءاً من قهر رجولته، ووصولاً إلى تفكيره، خاصةً لو كان متزوجاً، في أن مكانته كضابط قد تلطخت بالعار. فأغلب الرجال لا يجد عاراً في أية ممارسة للجنس، إلا أن بعضهم – كالضباط أو وجهاء المجتمع – سيشعر بالعار. ومن هنا نعود إلى عبارة الموت أهون من العار. أو لنسمه انعدام الشرف العسكري. وهو ما قد ينطـبق علـى آن كامبـيل، وعلـى الجنـرال كامبيل، وعلى أي ممن تمنوا أن تلقى آن مـصرعها. من هنا أعتقد أن من قتلها شخص تعرفه، شخص شعر بأن فعلته هذه بمثابة وسـيلة لإنهاء العار وانعدام الشرف الذي يشعر به كلاهما، الجاني والمجني عليها. وهنا أجد أن كينت – وهو الضابط المرموق – يتناسب مع هذه النظرية".

أومأت برأسي من جديد. كنت أفكر في شيء مماثل لهذا، مع اختلاف التفاصيل. إلا أنه كان من المثير للانتباه أن تصور كلٍ منا لنفسية القاتل يؤدي إلى نفس الشخص، كينت. كما أن هناك الإلهام الذي لا بد من ألا نتجاهله. قلت "كينت... كينت".

كـان الكولونـيل كيـنت قادماً، والتفت إليه البعض في احترام. ومن المعتاد أن يحظى ضابط كبير الرتبة مثله بهذا الاحترام والاهتمام. إلا أننا في هادلي الآن، حيث أصبحت أخبار الجريمة في كل أنحاء القاعدة، أصبح كينت هو رجل الساعة. رأى موضعنا فتوجه ناحيتنا.

نهـضت مع سينثيا، كما هي تقاليد العسكرية. فبوسعي أن أقول ما أشاء بيني وبينه، إلا أنني لا بد من أن أبدي له ما هو من حق رتبته من احترام أمام الجميع.

جلـس فجلسنا. أتتنا مضيفة فطلب كينت شراباً لنا وطلب لنفسه كولا. قال لنا: "هذا على حسابي".

ثرثـرنا قليلاً، متفقين جميعاً على ما سببته القضية من توتر وقلة صبر، وقلة نوم، وتعـرض دائم لحرارة الجو، وما هو من هذا القبيل. كنا نتحدث معه على راحتنا، إلا أن كينت محترف ويدرك ما يعتمل في عقولنا، أو ربما شعر بأننا نناوره.

قال لنا: "هل ستمكثان لبعض الوقت بعد الجنازة، حتى تقدما تقريراً موجزاً للمباحث الفيدرالية؟".

قلت: "أعتقد أن هذا ما هو يفترض بنا أن نقوم به. إلا أنني أود أن أرحل في مساء الغد".

ابتسم وقال، "أرى أنكما زميلان منسجمان، أليس كذلك؟".

ابتسمت سينثيا بدورها وهي تقول: "نحن نجدد صداقتنا".

"وأين ستتلاقيان إذن؟".

"في بروكسل".

"مدينة عظيمة".

هكـذا دار الحوار. إلا أنه كان يلقي بين الحين والآخر سؤالاً حاذقاً من قبيل، "إذن فمن المؤكد أن مور ليس هو القاتل؟".

ردت سينثيا: "لم نتوصل إلى شيء محدد بعد. إلا أننا نرى أنه بريء... لكم أرعبنا أننا كنا على وشك اتهام بريء بهذا".

"لو كان بريئاً. فكيف تقولان بأنه قد قام بتقييدها ثم تركها؟".

أجبته: "هذا صحيح... وليس لي أن أكشف الآن عن السبب، إلا أننا نعلمه".

"إذن فهو مشارك في جريمة القتل".

"ليس بالشكل القانوني... بل إن الأمر مختلف تماماً عن هذا".

"هذا عجيب. هل حصلت خبيرة الكومبيوتر على ما كانت تبحث عنه؟".

"أعتقد هذا. هذا لسوء حظ البعض. فقد تركت آن كامبيل مذكراتها الجنسية محفوظة بالجهاز".

"أوه... يا إلهي... وهل اسمي مذكور فيها؟".

"أعتقد هذا يا بيل... بالإضافة إلى حوالى ثلاثين ضابطاً آخر".

"يـا الله... كنت أعلم أن لديها الكثير من... لكن ليس إلى هذا الحد... كم أشعر أني مغفل. هل يمكنكما أن تصنفا تلك المذكرات؟".

ابتـسمت. "تعنـي أن تـندرج تحت بند السرية المطلقة؟. هذا أمر لا يحدده سوى المدعي العسكري العام، أو المدعي العام المدني، أو كليهما معاً. وأرى أن اسمك يصحبه عدد كافٍ من الأسماء مما لا يجعلك تقلق على ذكرك في هذه المذكرات".

"لكنني شرطي في نهاية الأمر".

"هناك من هم أعلى سلطة ومكانة عسكرية منك".

"جيد. وماذا عن فاولر؟".

"لا يسعني أن أبوح بشيء. أتعلم أن بيرت ياردلي كان غارقاً هو الآخر في بحر العسل؟".

"أنت تمزح... يا إلهي...".

"أترى... هناك ما يجمعك مع ياردلي بشكل لم تتصوره أنت... هل أنت على دراية جيدة به؟".

"مما تقتضيه المهنة فقط، حيث إننا نحضر اجتماعات شهرية تضم ممثلي القوى الأمنية الخمسة في هذه البلاد".

هذه اجتماعات مدنية، فيبدو أن علاقتهما ببعضهما بعضاً أعمق مما يبدو، فكلاهما قائد في مهنته.

سألني كينت: "هل توجه أيٌّ منكما إلى الكنيسة حتى الآن؟".

ردت سينثيا: "كلا. أرى أن أنتظر حتى الجنازة غداً. هل ستذهب إلى هناك هذه الليلة؟".

نظر إلى ساعته، "أجل، بالطبع. فقد كنت أحد عشاقها".

سألته: "ما هو حجم تلك الكنيسة إذن؟".

ضحك كلانا على هذه الدعابة، إلا أن من المؤكد أنها كانت دعابة قبيحة المعنى، حيث إن سينثيا نظرت إليَّ نظرة جعلتني أخجل من نفسي.

سألته: "هل لا تزال السيدة كينت في أوهايو؟".

"بلى".

"حتى متى؟".

"أوه... بضعة أيام أخرى".

"هل ستأتي بالطائرة أم السيارة؟".

نظر إليَّ ثم قال: "بل بالطائرة". ثم أجبر نفسه على الابتسام وهو يضيف: "فوق مكنستها السحرية".

بادلته تلك الابتسامة الصفراء وأنا أقول: "هل يمكنني أن أسأل عما إذا كان لمغادرتها المنزل صلة بشائعات علاقتك بالنقيب كامبيل؟".

"في الحقيقة.. هذا سبب ضعيف من بين أسباب أخرى. ونحن نحاول الخروج من هذه الأزمة. إلا أنها لا تعلم الحقيقة. بل هي مجرد ظنون لديها. قد لا تكون متزوجاً، إلا أنك تفهم ما أقصده".

"لقد كنت متزوجاً، كما أن سينثيا متزوجة".

نظر إليها قائلاً: "هل هذا صحيح؟ هل هو عسكري؟".

"بلى. وهو في بينينج الآن".

"الحياة قاسية هناك".

هكذا مضى الحوار عذباً بين ضابطين مساعدين من إدارة التحقيقات العسكرية وقائد الشرطة العسكرية، يتحدثون عن الحياة والحب والوظيفة وهم يتناولون الشراب، ويعرجون على موضوع جريمة القتل بين الحين والآخر. يعد هذا من أساليب الاستجواب الذكية، ويكتسب فعاليته في مواقف معينة، مثل هذا الموقف. وأنا أراه أشبه بالشطيرة – طبقات من قليل من الخبز واللحم والخس والدم والجبن والطماطم والدم و.. تعود الكرة من جديد.

إلا أن كينت لم يكن بالمشتبه به الهين، فلديَّ انطباع بأنه على علم بكل ما نناوره به، وأنه يعرف أننا نعرف أنه يعرف. فأصبحت الجلسة أشبه برقصة صغيرة، استعراض قوى، وحينما تتلاقى أعيننا يدرك وندرك ما يجول بخاطر بعضنا البعض.

وحينما يدرك شخص ما أنك تستهدفه، يبدو الوضع غريباً، ويلجأ المتهم إلى أن يصور للطرف الآخر أنه لا يلقي بالاً لكل ما يجري. وأحياناً ما يسود منطق مقلوب، ويصبح المتهم جريئاً وقحاً. فقد قال لنا: "إنني سعيد لأني طلبت منكما تولي هذه القضية. فقد كنت متأكداً من أن بويس كان على علاقة بها، إلا أنني لم أود أن أذكر لكما هذا في حالة ما إذا كنت مخطئاً. كما أنه ليس لديه محققون متخصصون في جرائم القتل على أية حال، وكانوا في النهاية سيرسلون شخصاً ما مثلكما من فولز تشيرش. أو كانوا سيستدعون المباحث الفيدرالية. لذا أنا سعيد لكونكما هنا" ثم نظر إليَّ متابعاً، "لقد عملنا معاً من قبل، وأعلم أنك أنسب شخص لهذه القضية... وليس أمامكما من وقت سوى إلى ظهيرة الغد، أليس هذا صحيح؟ ولكن أود أن أقول لكما أني أعتقد أنكما ستنجحان في غلق ملف القضية قبل ذلك الموعد".

مكثنا جالسين لدقيقة أخرى، نداعب الملاعق والمناديل، وأتساءل أنا وسينثيا في طيات عقولنا عما إذا كان جليسنا هذا قاتلاً أم لا، بينما يفكر بيل كينت في الطريقة التي ستنتهي بها مسيرته العسكرية على أقل تقدير، وربما كان يقاوم دافعاً لأن يعترف لنا بما يمكننا من أن نغادر هذا المكان قبل ظهيرة الغد.

فأحياناً ما يحتاج المرء إلى دفعة تشجيع، لذا قلت له بنبرة يفهمها: "بيل، هل تود أن نتريض سوياً لبعض الوقت؟ أو نعود معاً إلى مكتبك، حيث يمكن أن نتحدث في حرية".

هـزّ رأسه قائلاً: "لا. فعليَّ أن أذهب الآن". ثم نهض وقال: "آمل أن يكون جزارو تلك المشرحة قد تركوا من جثمانها ما يستحق نظرة أخيرة.فكم أود أن أراها مجدداً... فليس لديَّ صورة لها.. "ثم أجبر نفسه على الابتسام وهو يقول: "ليس لديَّ الكثير من التذكارات لهذه العلاقة".

في الحقيقة أن هناك غرفة تعج بمثل هذه التذكارات. نهضت وسينثيا بدورنا، وأنا أقول له: "عليك بالاحتفاظ بإحدى صورها الدعائية تلك قبل أن يفكر أحد في أن يسبقك إليها. فهي تذكار".

"معك حق".

"نشكرك على الشراب".

استدار وانصرف.

عدنا للجلوس. كانت سينثيا ترقبه وهو يغادر، ثم قالت وكأنما تحدث نفسها: "قد يكون حزيناً لأجل انتهاء مسيرته العسكرية، وللفضيحة الوشيكة، ولما سيواجهه من مشكلات زوجية، إضافة إلى موت إنسانة كان يحبها. ربما كان هذا ما نراه بادياً عليه. أو... أن يكون هو القاتل".

أومأت برأسي موافقاً. "من الصعب تقييم سلوكه بالنظر إلى كل ما يعتمل بداخله. ومع هذا فإن نظراته تحمل سراً ما... فلها لغتها الخاصة، النابعة من القلب والروح. فهي تبوح بالحب والأسى والمقت والبراءة والذنب. وهي صادقة حتى لو كان صاحبها يكذب".

"من المؤكد أنها كذلك".

مكثنا في صمت لبرهة من الوقت، إلى أن سألتني سينثيا، "وماذا بعد؟".

بادلتها النظر، وكانت تنظر إلى عينيّ مباشرةً، لأجد نفسي أتفق معها ومن دون أية كلمات على أن بيل كينت هو القاتل الذي نبحث عنه.

الفصل الحادي والثلاثون

قررنا ألا نتناول العشاء وتوجهنا بالسيارة إلى طريق ساحات الرماية صوب جوردان فيلد. وكما كان كينت قد أشار، فهناك نقطة تفتيش للشرطة العسكرية على هذا الطريق، وكان علينا أن نتوقف لتعريف أنفسنا. وحينما وصلنا إلى نقطة الشرطة العسكرية عند مدخل جوردان فيلد، مررنا بنفس الإجراءات، وأخرى عند باب الهانجر رقم ثلاثة. فالقوات المسلحة لا تحب فضول الصحفيين، وترى أن مكانهم الوحيد هو قاعة المؤتمرات الصحفية. أما المخبرون الصحفيون ففضوليون بطبعهم. وهذا الاختلاف في وجهات النظر قائم منذ مئات السنين. فالجيش يحافظ على اعتبارات الأمن، بينما تحاول الصحافة ممارسة ما تراه حقاً لها. وقد كان للجيش اليد العليا خلال السنوات الأخيرة، منذ أن تعلمت الدرس في فيتنام.

وقد بدأت خبراتي في التعامل مع الصحافة في فيتنام حينما قرب صحفي ميكروفونه مني بينما كان كلانا مختبئاً يتقي طلقات النار. كانت الكاميرا تصورنا، وهو يسألني: "ما الذي يحدث؟". ظننت أن الموقف معبر عن نفسه، ولأني كنت ما أزال شاباً طائشاً فقد قلت: "إن أسلحة العدو تسيطر على موقعنا". فسألني: "وماذا ستفعل؟"، فقلت: "سأتركك هنا أنت والمصور". وسرعان ما انسحبت على عجل، متمنياً أن يركز العدو نيرانه على الموقع الذي به الصحفيان. إلا أن تلك اللقطات بقيت، كما أنني لم أرَ هذين الصحفيين مجدداً.

يكاد يكون الهانجر مهجوراً، فقد عاد أغلب رجال البحث الجنائي إلى فورت جيليم، أو ذهبوا في مهمة أخرى بمكان آخر، ومعهم معداتهم. إلا أن بعضهم بقي حتى يكتب التقارير ويستكمل بعض الاختبارات الأخرى.

كان منزل آن كامبيل هناك كما هو، وكذلك سيارتها الجيب والأخرى البي إم دبليو، إلا أن مكتبها قد تم نقله. وهناك تجلس جريس ديكسون في مكتبها بالمخيم، وهي تتثاءب أمام جهاز الآي بي إم الشخصي.

أخذت تنظر إلينا ونحن نقترب منها وقالت: "لقد نقلت الملفات إلى جهاز آخر، وأنا أقوم الآن بتصنيفها، وبقراءة الرسائل والمذكرات، ولكن من دون طباعة، كما طلبتما. هل وصلتك تلك الأوراق التي تخص ياردلي؟".

"أجل... أشكرك".

"توجد هنا الكثير من الأسرار المثيرة... وأنا أحب قراءتها".

"عليكِ أن تأخذي حماماً بارداً هذه الليلة يا جريس".

ضحكت حتى اهتزّ جسدها الرابض على الكرسي.

سألتها سينثيا: "أين ستبيتين الليلة؟".

"في بيت الضيافة بالقاعدة. وأعدكم ألا يكون هناك معي أية رجال. فاطمئنوا أن الأسطوانة في الحفظ والصون... إن قس هذه القاعدة مذكور في هذه المذكرات. أليس هذا من الأشياء التي تبعث على الخوف؟".

كدت أقول لها أن النوم مع آلهة الجمال يعد في حد ذاته طقساً من الطقوس، إلا أنني رأيت أن أياً منهما لن يقدر هذه الدعابة. فسألت جريس: "هل بوسعك أن تطبعي كل ما هو مذكور فيه اسم الكولونيل ويليام كينت؟".

"بالتأكيد. ولقد رأيته هنا. بمقدوري البحث عن اسمه. ما هي رتبته أو وظيفته حتى أبحث بهما أيضاً؟".

"إنه المارشال. ويعرفه أصدقاؤه باسم بيل".

"صحيح. لقد رأيته في هذه المذكرات. هل تريد طباعة كل شيء ورد فيه اسمه؟".

"بالضبط. كما عليَّ أن أقول لكِ بأن المباحث الفيدرالية قد تأتي إلى هنا هذه الليلة أو صباح الغد. ولن توقفهم الشرطة العسكرية بالخارج عن الدخول إلى هنا. فلو رأيتهم عليكِ أن تخبئي الأسطوانة وتتظاهري بأنك تكتبين تقريراً. مفهوم؟".

"بالتأكيد، ولكن ماذا لو كان بجعبتهم أمر قضائي أو إذن بالتفتيش؟".

أجد أن من السهل التعامل مع العسكريين لأنهم ينصاعون للأوامر من دون نقاش. أما المدنيون فيبحثون عن تفسيرات للأوامر ويطرحون الكثير من الأسئلة. قلت لها: "جريس، كل ما عليكِ هو أن تتظاهري بكتابة تقرير. وضعي الأسطوانة بين طيات ملابسك، ولو أرادوا أن يفتشوكِ، عندها اصفعيهم على وجوههم".

ضحكت وقالت: "وماذا لو كانوا وسيمي الملامح؟".

من الواضح أن هناك ما استثار هذه المرأة في كل تلك الأشياء التي بحثت فيها.

قالت لها سينثيا: "إن الأمر هام جداً يا جريس، أي أن من الضروري ألا يرى أحد هذه الأشياء عدا ثلاثتنا".

"حسناً".

سألتها: "هل لا يزال كال زايفر هنا؟".

"بلـــى. ستجدانه غافياً في مكان ما هناك". كانت قد بدأت جريس تكتب بسرعة على لوحة المفاتيح. أنا لا أعلم الكثير عن الكومبيوتر، والحقيقة أنني لا أود أن أعلم. إلا أن من يتعامل مع هذه الأجهزة مثل جريس يكتسب غرابة في تصرفاته. فلايبدو لي أنهم قادرون علـــى مفارقـــة هـــذه الشاشة، فيجلسون إليها، يتحدثون، ويكتبون، ويثرثرون، ويلعنون، ويدهـــشون، وربمـــا يـــبقون من دون نوم أو طعام أو جنس. فارقتها أنا وسينثيا من دون سلام، حتى لا نقطع عليها اندماجها.

رفعت أمامها لوحاً عريضاً حتى لا ينتبه إليها أحد عند دخوله المكان، ثم سرعان ما وجدنا كال زايفر غافياً على فراش معدني صغير، فأيقظته. نهض في غير توازن وبدا أنه لا يعلم بمن حوله.

انتظرته بضع ثوانٍ، ثم سألته: "هل وجدت أي شيء جديد أو مثير للانتباه؟".

"كلا. نحن الآن في مرحلة تصنيف الأدلة".

"هل لديكم آثار أقدام أو بصمات أصابع للكولونيل كينت؟".

"بالتأكيد".

"هل وجدتم أية آثار له في موقع الجريمة؟ أو على السيارة الجيب، أو حقيبة اليد، أو في الحمامات؟

فكـــر للحظـــات، ثم قال: "كلا. إلا أن آثار أقدامه موجودة في كل مكان. وقد أخذت منه آثار حذائه العسكري لأضاهيها بها".

"هل أخذت آثار حذائه العادي؟".

"بالتأكـــيد. ولقد ضاهيتها بما هو في مسرح الجريمة. فوجدنا أنها تتجه مباشرةً إلى الجثة، ثم إلى الطريق".

"هل رسمتم لها مخططاً؟".

"بالتأكـــيد". ثـــم اتجه إلى لوح ورقي ملفوف، وكشفه تحت إضاءة قوية. كان عليه مخططٌ لمسرح الجريمة مساحته أربعة في ثمانية أقدام (120 في 240 سم)، وبه الطريق وســـيارة المجنـــي عليها وبداية مقاعد مدرجات الساحة، وعلى الجانب الآخر من الطريق قـــسم صـــغير مـــن ســـاحة الرماية يشتمل على تلك الأهداف ورسم سريع لجثمان ممتد الأطراف لا يبين منه جنس الضحية.

كانـــت آثار الأقدام موضحة بدبابيس ملونة، وكان هناك أسفل الرسم ملحوظات تـــربط بين كل لون للدبوس وصاحبه من الأشخاص، بينما هناك دبابيس سوداء تشير إلـــى أن صـــاحب هـــذه الآثار مجهول. وهناك أسهم صغيرة توضح الاتجاهات، مع ملاحظـــات تبين ما إذا كانت هذه الآثار حديثة أم لا، واضحة أم غير واضحة... إلخ.

وفي حالة ما إذا كان هناك أثر فوق أثر، فإن أحدثهما يميز بدبوس أطول. كانت هناك ملحوظات أخرى خاصة تعمل على المزيد من إيضاح المناطق المتشابكة. وفي النهاية سيتم تغذية كومبيوتر خاص بهذه المعلومات جميعها، ليقوم بإعداد مخطط إلكتروني أكثر وضوحاً ودقة، ويمكن من خلاله استخراج المعلومات حسب الطلب، وبشكل تفاعلي، وكأنك حاضر بالمكان وقت الجريمة. أما الآن فكان عليَّ أن أعتمد على خبرتي فقط، وبالطبع خبرة سينثيا وكال.

قال زايفر: "لم نقم بتحليل هذه المعلومات بعد. فهذه مهمتكما نوعاً ما".

"صحيح. أنا لا زلت أذكر هذا".

"لقد قمنا بزيادة بعض التفصيلات لأجل رجال المباحث الفيدرالية. فهنا الكثير من المتغيرات والعناصر المجهولة، بما في ذلك أننا لم نأخذ أثر حذائك الذي كنت ترتديه".

"قد يكون حذائي موجوداً الآن في المبنى الرئيسي".

"حينما يمتنع أحد عن تقديم آثار أقدامه، فإنني أشك فيه".

"تباً لك يا كال".

"معك حق... بالمناسبة، آثار الكولونيل مور موضحة بالدبابيس الصفراء".

"نحن نبحث عن الكولونيل كينت".

صمت لحظات ثم قال مدهوشاً: "كينت؟".

قلت وأنا أنظر لمفتاح هذا المخطط، "كينت". وجدت أن آثاره مميزة بالأزرق.

أخذنا نتفحص المخطط، ونحن نسمع - وسط هذا الهدوء المخيم - صوت الطابعة وهي لا تتوقف عن طبع الأوراق.

قلت له: "تحدث إليَّ عن هذا المخطط".

"حسناً". بدأ كال الشرح، ومما كان يقوله ظهر لي أن الكولونيل ويليام كينت قد اقترب من الجثة ما لا يقل عن ثلاث مرات. قال كال: "انظرا، هنا يمشي من الطريق إلى الجثة. ثم يتوقف بالقرب جداً من الجثة، وربما انحنى عليها أو جلس القرفصاء، لأنه حينما استدار نجد أن الأثر يتخذ شكل الاستدارة، ثم ربما وقف وعاد إلى الطريق. كانت هذه هي المرة الأولى، حينما توجه إلى هناك بصحبة الشرطة العسكرية التي عثرت على الجثة... اُنظرا، ها هي آثارها... آثار كاسي. ميزناها باللون الأخضر. ثم ها هي المرة الثانية حينما جاء بصحبتك أنت وسينثيا وهي ترتدي حذاءً رياضياً. ميزنا آثار سينثيا بالأبيض. وها أنت تجد الكثير من الدبابيس السوداء. فحينما آخذ آثار حذائك سأميزها هنا بالوردي بدلاً من الأسود. إلا أنني لا أستطيع أن أميزك الآن من...".

"حسناً. فهمت. وماذا عن المرة الثالثة التي أقترب فيها من الجثة؟".

هــزّ كــال كتفيه. "لقد جاء إلى هناك حينما كنت أنا هناك، إلا أننا كنا قد وجدنا له آثــاراً قبل ذلك، فأعتقد أنه قد جاء إلى الجثة أكثر من مرة قبل أن تحضرا أنتما إلى هنا، حيث إننا وجدنا ثلاث مسارات لآثاره المتجهة من الطريق إلى الجثة. إلا أن من الصعب التيقن من هذا لأن الآثار لم تكن مكتملة. فلدينا آثارٌ فوق آثار، كما أن هناك أرضية رخوة وأخرى صلبة، وهناك الحشائش".

"صحيح". أخذنا نتفحص مسار الدبابيس والأسهم، ونقرأ الملحوظات.

قلــت: "كــان هناك رجل وامرأة كذلك، يرتديان أحذية مدنية. بوسعي أن أجلب لك الأحذية، إلا أنني مهتم هنا بآثار الكولونيل كينت. وأعتقد أنه قد وصل إلى مسرح الجريمة مبكــراً، ربما مرتدياً زيه العسكري، مع نفس الحذاء الثقيل الذي ارتداه فيما بعد، في وقت ما بين الساعة 2:45 و3:30".

أخذ كال يفكر للحظات، ثم قال: "لكن الجثة لم تكتشف إلا في... في الساعة 4:00، عن طريق الرقيب المناوب ساينت جون".

لم أرد.

أخــذ زايفر يفرك رأسه الصلعاء وهو يمعن النظر في المخطط. "في الحقيقة... من الممكــن.. أقــصد أن هــناك شــيئاً غير منطقي هنا... فها هي آثار أقدام ساينت جون. برتقالية. وهي محددة. فقد كان في نعل حذائه قطعة علك ملتصقة فميزت آثاره. حسناً... هــا هي آثار أقدام ساينت جون، ويبدو لي أنها مطبوعة على آثار أقدام أخرى نعتقد أنها تخص الكولونيل كينت. كان كينت مرتدياً لحذاء عسكري جديد واضح الآثار. لذا... أقصد أنه لو كان ساينت جون هناك في الساعة 4:00، وأن الكولونيل كينت لم يصل حتى هاتفته الشرطة العسكرية في حوالى الساعة... 5:00، فإن آثار ساينت جون التي هي فوق آثار أقــدام كيــنت لا تــتفق مع هذا التسلسل للأحداث. ولكن عليكما أن تفهما أنه في حين أن بوسعنا أن نحدد هوية صاحب الآثار إذا كان الوسيط أي الأرضية جيدة - كأن تكون ثلجاً أو طمــياً أو تربة ناعمة وغير ذلك - إلا أن الأمر لا يقارن بدقة بصمات الأصابع. وفي حالتنا هذه التي نمتلك فيها أثري أقدام واضحين، فإننا لا يمكن أن نتيقن من أيهما هو الذي كان فوق الآخر".

"إلا أنك تبين هنا أن آثار ساينت جون مطبوعة فوق آثار كينت".

"هــذا هو رأي التقني. وربما يكون مخطئاً. إلا أنه يتبين لي الآن أن من الممكن أن يكون ساينت جون قد حضر أولاً، وبالتالي فلا يمكن أن يكون قد سار على آثار كينت... إلا أنك تقول لي أيضاً أن كينت كان هنا قبل أن يكتشف ساينت جون الجثة".

"بالفعل أنا أقول هذا... إلا أنك لن تذكره لأي أحد".

"إنني لا أقدم ما لديَّ من معلومات إلا لكما أنتما وللمحكمة".

"هذا صحيح".

قالت له سينثيا: "لنرى الآثار المرفوعة لهذه البقعة".

"حسناً". أخذ كال يضاهي بعض الأوراق المطبوعة والمثبتة على اللوحة ببعضها البعض، ثم قادنا إلى ركن بعيد في الهانجر حيث يوجد حوالى المائة أثر مجسم لآثار أقدام كانت موضوعة على الأرض، بدت لنا أشبه بتلك المجسمات البشرية التي بقيت شاهدة على ما فعله بركان بومباي قديماً.

كان لكل مجسم رقم مدون عليه بقلم أسود، ووجد كال المجسم الذي بحث عنه، فرفعه وحمله إلى طاولة. كان هناك مصباح فلوريسينت على الطاولة فأضاءته.

أخذنا نمعن النظر في المجسم بضع ثوانٍ، ثم قال كال: "حسناً، هذه آثار أقدام ساينت جون، وهي متجهة إلى الجثة. وهذه العلامة الصغيرة عند الحافة تبين اتجاه الجثة. كما أن هذه الآثار بدورها تتجه إلى الجثة، وهي للكولونيل كينت".

نظرت إلى الأثرين. كانا متداخلين، حيث إن الجانب الأيسر من قدم كينت اليسرى تتداخل مع الجانب الأيمن من قدم ساينت جون اليمنى – أو العكس هو أن ساينت جون هو من تداخل مع كينت. تلك كانت هي المسألة. لم أعلق أنا أو سينثيا بأية كلمة. حتى قال كال في النهاية: "هل ترون هذه النقطة؟ إنها قطعة العلك التي كانت عالقة بحذاء ساينت جون، إلا أنها لا تتلامس مع آثار حذاء كينت. ترون أن لدينا هنا أثرين لحذائي عسكريين، لهما نفس الملامح، كما أن الفارق بينهما ساعات... كما أنهما متقاطعان متداخلان...".

"هل أنت بحاجة إلى قبعة بحافتين (أمامية وخلفية) لهذا؟".

"إلى ماذا؟".

"لماذا إذن وضع أحدهم دبوساً أقصر ليميز به آثار أقدام كينت؟ وليس العكس؟".

"أنا لست خبيراً في هذا المجال".

"وأين الخبير إذن؟".

"لقد رحل. ولكن دعني أجرب شيئاً". قام بتغيير موضع الإضاءة، ثم أطفأ المصباح وأخذ ينظر إلى المجسم في ظل إضاءة الهانجر الخافتة، ثم أنار كشافاً صغيراً وأخذ يجرب عدة زوايا ومسافات مختلفة. كنت أنظر أنا وسينثيا بدورنا إلى المجسم. كان ما يجري نوع من الاعتماد على الحدس والفطنة وليس علماً دقيقاً. فالحقيقة أنه يكاد يكون من المحال أن نحدد بدقة أسبقية أثر على الآخر.

مـشت سينثيا بأصابعها في خفة على موضع تماس الأثرين. فيمكن أن تدل نعومة أثـر الـنعل علـى مدى عمق الأثر، إلا أن هذا لن يمثل دليلاً على أن الأثر الأعمق هو الأسبق، بالنظر إلى الاختلاف في مشية شخص عن آخر والاختلاف في أوزانهم. إلا أنه فـي العادة ما يكون الأثر الأعمق هو الأسبق، حيث إنه هو الذي يضغط على الأرض أياً كان نوعها، وبالتالي فإن الأثر التالي عليه سيمشي على الأرض المضغوط عليها من قبل ولـن يغوص إلى درجة أعمق، إلا إذا كان ذلك الشخص بديناً جداً. قالت سينثيا: "إن آثار ساينت جون أعلى بدرجة ضئيلة جداً من آثار كينت".

فقـال: "لقـد رأيت كينت من قبل، وهو يزن قرابة المائتي رطل (90 كيلوغراماً). فماذا عن ساينت جون؟".

قلت: "نفس الوزن تقريباً".

فتابع زايفر: "في الحقيقة أن هذا يعتمد على ثقل وطئهما للأرض. فبالنظر إلى الآثار الأخـرى على المخطط، وبالوضع في الاعتبار الطبيعة المسطحة لكلا الأثرين، فأرى أن أحـداً مـنهما لم يكن يركض. بل وأنا أخمن أن كليهما كان يمشي ببطء. فلو كانت آثار كيـنت أعمـق قلـيلاً، فإن من الطبيعي أن نعتقد أن آثاره هي الأسبق، ومن ثم أتت آثار سـاينت جـون لتنطبع عليها. إلا أن هذا لا يعدو أن يكون تخميناً... وهو ليس دليلاً كافياً لإدانة أحد بمثل هذه التهمة".

"بالطبع، إلا أنه يجعلنا أكثر يقيناً من هوية الجاني".

"هذا صحيح".

"هل يمكنكم أن تحضروا خبير آثار الأقدام هذا إلى هنا هذه الليلة؟".

هـزّ كال رأسه: "لقد ذهب إلى القاعدة في أوكلاند لأجل مهمة هناك. إلا أنني يمكن أن أحضر خبيراً غيره".

"بـل أريد الآخر. أرسل إليه هذا المجسم بالطائرة إلى أوكلاند واطلب منه أن يعيد تحلـيل هذه الآثار. وأجعله يحللها وكأنما يراها لأول مرة. مفهوم؟ كما أنه لن يتذكر هذه الآثار بالذات من بين مئات الآثار الأخرى".

"صـحيح. سـنرى إن كـنا سنحصل على التحليل نفسه. سوف أعمل على هذا. قد نـستطيع شـحن المجسم على الرحلة المدنية المتجهة من أطلانطا إلى سان فرانسيسكو. سأذهب بها بنفسي".

"لا يا صاحبي. بل ستبقى هنا معي في هادلي".

"تباً".

"حسناً، أريد منك أن تحضر بدلاً من هذا فريق رفع الآثار من جيليم. أريد منهم أن

يكونـوا فـي ساحة الرماية مع أول ضوء. ليبحثوا عن المزيد من الآثار لحذاء الكولونيل كينت. اطلب منهم أن يبحثوا بمحاذاة الطريق، وحول مكان الجثة من جديد، وبالقرب من الحمامـات، وهكـذا. فأنـا أريد مخططاً واضحاً لآثار كينت وحده. والأفضل أن تغذي الكومبيوتر بهذه البيانات، واستعد لأن تعرضها مع حلول ظهيرة الغد. مفهوم؟".

"سأبذل قصارى جهدي... هل أنت متيقن مما تفكر فيه؟".

أومـأت برأسي إيماءة ضعيفة، وقد كانت كل ما يحتاج إليه من تشجيع حتى يهرع ليـستدعي ذلك الفريق على عجل ليكونوا هنا مع حلول الفجر. قلت له: "أود أن تعرف يا كال أن المباحث الفيدرالية قد تحضر إلى هذا المكان هذه الليلة أو في الصباح الباكر، وهم بجعبتهم سلطات مخولة للنظر في هذه القضية بدءاً من ظهيرة الغد. ولكن ليس قبل ذلك".

"فهمتك".

"فعلـيك أن تـتفق بـشكل ما مع أفراد الشرطة العسكرية على أن ينبهوك قبيل مجيـئهم إلى هنا، وعليك أن تنبه جريس حتى تستطيع أن تخبئ الأسطوانة التي تعمل عليها".

"لا تقلق".

"أشكرك. لقد قمت بعمل رائع".

عـدت مـع سينثيا إلى جريس ديكسون، والتي كانت قد طبعت كومة من الأوراق. قالت: "ها هي آخر مجموعة. وهذا كل ما ورد فيه اسم بيل كينت أو ويليام كينت أو كينت وغير ذلك من أوصافه".

"جـيد". أخذت الأوراق وقلبت فيها على عجالة. كانت حوالى الأربعين صفحة، أقدم تاريخ بها يعود إلى حزيران/يونيو منذ عامين، وأحدثها كان في الأسبوع الماضي فقط.

علقت سينثيا: "لقد كانا على علاقة وثيقة".

أومأت مؤمناً على كلامها. "حسناً، نشكرك ثانيةً يا جريس. لم لا تخبئين الأسطوانة، وتنالين قسطاً من النوم؟".

"بل أنا على ما يرام. أما أنت فلست كذلك".

أخذت الأوراق معي، وقطعنا المسافة حتى بوابة الهانجر الصغيرة. كانت واحدة من تلـك الليالي التي تجثم فيها الرطوبة على الأنفاس، ولم نستطع حتى أن نشم رائحة أشجار الصنوبر. سألتها: "ألا تودين الاستحمام؟".

"كـلا... بل سنذهب إلى مكتب القيادة. إلى حيث الكولونيل مور والآنسة كايفر. ألا زلت تذكرهما؟".

وهكـذا دلفـنا إلـى سيارتي حيث كانت ساعتها تشير إلى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة. مما يعني أنه لم يعد أمامنا سوى أربع عشرة ساعة.

رأتنـي سينثيا أنظر إلى الساعة فقالت: "ربما أصبحت المباحث الفيدرالية تفكر الآن في التدخل مبكراً. إلا أنهم سرعان ما سيملأون هذا المكان مع صباح الغد".

"معكِ حق". انطلقت بالسيارة بسرعة كبيرة، مبتعدين عن جوردان فيلد. قلت لها: "لا يهمني أن يكونوا هم من ألقى القبض على الجاني. فلست ممن يهتم بهذا. بل سأوليهم كافة جـوانب القضية مع حلول ظهيرة الغد، ولنرى ما سيفعلون. إلا أننا كلما اقتربنا من هوية الجاني، كلما قلت فرص أن يكشفوا عما يجري هنا من فضائح. وسوف ألقي لهم بشكوكي تجاه كينت وآمل أن يركزوا عليه فقط".

"جميل منك ألا تجد غضاضة تجاه أن ينهوا هم الأمر. بل أنني أرى أنك تحاول أن تنهي بيدك حياتك في هذه الوظيفة. إلا أنني قد أكون أنا التي تفعل هذا".

رمقـتها قائلاً: "نحن عسكريون. ننفذ الأوامر فقط. ولا بد من أن تعلمي أنكِ تتلقين الأوامر مني".

قالـت مـتهكمة: "نعم، سيدي... إن هؤلاء الفيدراليين أساتذة في العلاقات العامة يا بـول. ولا وجـه للمقارنة بين أساليبهم في هذا المجال وأساليب إدارات العلاقات العامة بالجيش. فعلينا أن ننهي هذه القضية بأنفسنا، حتى لو كان هذا يعني أن نجبر كينت إجباراً على تقديم اعتراف مكتوب".

"واو... أأصبحنا على كل هذه الثقة في النفس فجأة".

"هـذه مـسألة مهمة يا بول. وأنت محق في أنهم سينبشون في فضائح لا ضرورة للكشف عنها. وسوف يتوصلون إلى محتويات تلك المذكرات ويوزعونها على كل صحيفة فـي هـذه الـبلاد، بل وسيزيدون الطين بلة حينما يصرحون بأنهم قد وجدوا الأسطوانة ونجحـوا في فك شفرتها. فهم ماهرون، إلا أنهم لا يضعون لهذه المسائل أي اعتبار. بل أنت تكاد تكون مثلهم في هذا".

"أشكرك".

"كمـا أنهم لن يلقوا بالاً بالجيش. ففلسفتهم هي نفسها فلسفة نيتشه: أيٌّ مما سيسيء مـن سمعة جهة أخرى من جهات فرض القانون أو النظام سيؤدي بالضرورة إلى تحسين صورتنا نحن. فعلينا أن نغلق ملف القضية مهما كان الثمن قبل حلول ظهيرة الغد".

"حسناً. من القاتل إذن؟".

"كينت".

"متأكدة؟".

"كلا. وأنت؟".

هززت كتفي. "إنني معجب بذاك الرجل".

"وأنا لا أكرهه، إلا أنني لست واقعةً في هواه أيضاً".

كانت تقولها في سخرية، وتعجبت أنا من المفارقة التي تجعل رأي الرجل يختلف عن رأي المرأة تجاه نفس الشخص. فآخر مرة أتذكر فيها أنني اتفقت وامرأة في رأينا تجاه شخص ما، كانت تلك المرأة هي زوجتي، لدرجة أنها تركتني وهربت مع ذاك الرجل. سألتها كنوع من حب الاستطلاع: "ما الذي لا تحبينه في كينت؟".

"أنه قد كان يخون زوجته".

هذا سبب مفهوم. فقلت: "كما قد يكون قاتلاً. وهذه نقطة هامشية، إلا أنني اعتقدت أن عليَّ أن أضيفها".

"دعك من السخرية. فلو أنه قتل آن كامبيل بالفعل لكان ذلك القرار وليد لحظته. فقد كان يخدع زوجته طيلة عامين. مما يدل على ضعف في شخصيته".

"أتفق معك في هذا الكلام". توجهت صوب الطريق المظلم الطويل، المار عبر غابات الصنوبر. أمكنني أن أرى على البعد أنوار بيثاني هيل، وتساءلت عما قد يدور الآن في منزلي فاولر وكينت. قلت لها: "لم أكن على استعداد أن أذهب إلى هناك لتناول العشاء هذه الليلة".

تطلعت بدورها تجاه نفس المكان، "يا للغرابة. لقد أتيت إلى هادلي لأحقق في جريمة اغتصاب، وانتهى بي الأمر مسؤولة عن التحقيق في جريمة سببتها جريمة اغتصاب حدثت منذ عشر سنوات".

"كل جريمة تحمل في رحمها بذرة جريمة أخرى، وهلمّ جرا".

"صحيح. أتعلم أن الإحصائيات تبين أن فرصة ضحية الاغتصاب تكون كبيرة دوماً لأن تتعرض للاغتصاب مرةً أخرى، بما يفوق احتمال أن تتعرض له أنثى لم يسبق لها أن تعرضت لهذه الجريمة؟".

"لم أكن أعلم هذا".

"إلا أن سبب هذا مجهول. فليست هناك معايير محددة لهذا. فكل ما نعلمه هو أنه لو حدثت الجريمة مرة، فإن من المحتمل جداً أن تحدث مرةً أخرى لنفس الأنثى. وهو أمر لا منطقي. بل ومرعب، وكأنما هناك شيطان من نوع ما يعلم بـ...".

"مخيف هذا الأمر". لم تكن لديَّ نفس تلك الخبرة في مجال تحقيقاتي في جرائم القتل. فالمرء لا يقتل سوى مرةٍ واحدة على أية حال.

بدأت سينثيا في الحديث عن وظيفتها، وكيف أنها تصيبها بالإحباط أحياناً، وأنها قد تكون السبب في فشل زواجها.

كان من الواضح أن سينثيا كانت تحتاج إلى مثل هذه الفرصة لتفرغ كل ما يعتمل بداخلها، لكي تخفف من عبئها النفسي قبل تولي قضية جديدة. إلا أن لكل قضية ما تخلفه من أثر في النفس، فيبدو الأمر كأن هناك ما يعلق منها في روح المرء فيتعبها لفترة طويلة. إلا أنه عمل لا بد من أن ينهيه أحد، وهناك من قرر أن يقوم بهذا العمل. فقد يتعب قلبك مما يعتمل بداخله، إلا أن بمقدورك أنت أن تحدد مدى العبء النفسي الذي تتحمله، وأحياناً ما تنجح جريمة ما في فتق نفس الجرح القديم داخل قلبك.

لم تتوقف سينثيا عن الكلام، وأعتقد أنني أدركت أن كلامها لم يتعلق بها أو بزواجها أو وظيفتها فقط، بل ويتعلق بي أيضاً، بكلينا.

قالت: "أعتقد أن عليَّ أن أتقدم بطلب النقل إلى... أي شيء آخر".

"مثل ماذا؟".

ضحكت وقالت: "ما رأيك في فرقة الموسيقى العسكرية؟... فأنا أهوى العزف على الفلوت. هل مارست العزف على أية آلة؟".

"بل أكتفي بتشغيل الراديو. وماذا عن بنما إذن؟".

هزت كتفيها: "أنت لا تذهب إلا إلى المكان الذي يريدونه هم. فأنا لا أعلم... فلم يتحدد شيء بعد".

رأيت أن عليَّ أن أقول شيئاً ما، أو أن أقدم لها بديلاً عن هذا. ولكن للحق فإني لم أكن واثقاً أو حاسماً في أمور حياتي الشخصية مقارنة بما أنا عليه في وظيفتي. فحينما تتلفظ المرأة بكلمة "التزام" فإني لا أصدقها. وحينما تتحدث عن الحب، فإني سرعان ما أفر من أمامها متجاهلاً.

إلا أن ما كان يعتمل بداخلي تجاه سينثيا هو إحساس قوي حقيقي، لأنه قد صمد أمام تقلبات الحياة، ولأني كنت أفتقدها وأفكر فيها على مدار عام كامل. إلا أنها حينما أصبحت إلى جواري انتابني من الأحاسيس ما أصابني بالفزع. إلا أنني لم أكن لأفسد الأمر ثانيةً، لذا قلت لها: "لا زلت أحتفظ بذلك المنزل الريفي خارج فولز تشيرش... ألا تودين رؤيته مجدداً؟".

"كم أود هذا".

"عظيم".

"متى؟".

"أعــتقد أنـــنا قد نتمكن من هذا بعد الغد. حينما نعود إلى مقر إدارتنا هناك. لنقضي هناك عطلة نهاية الأسبوع.. أو فترةً أطول من هذا إن أحببتِ".

"عليَّ أن أكون في بينينج بحلول يوم الاثنين كما تعلم".

"لماذا؟".

"أنت تعلم ما يتطلبه أمر الطلاق من محامين وإنهاء أوراق. إنني سأتطلق في ولاية جورجــيا. رغــم أننـــي تزوجت في فيرجينيا. ولا أعتقد أن هناك قانون طلاق موحد قد يوضع من أجلنا خصيصاً".

"سيكون أمراً جيداً إن تم".

"كمـــا عليَّ أن أكون في بنما بحلول نهاية هذا الشهر. وأود أن أنهي مسألة الطلاق هذه قبلها وإلا سيتطلب الأمر ستة أشهر أخرى لو سافرت إلى خارج البلاد".

"هــذا صحيح. لقد وصلت إليَّ أوراق الطلاق الخاصة بي عبر البريد بينما كنت في الحرب".

"حقاً؟".

"حقــاً. بالإضـــافة إلى خطاب خاص بقرض السيارة، ومنشور مناهض للحرب من جماعـــة مـــا في سان فرانسيسكو. هناك أيام لا يكون من المجدي خلالها أن يغادر المرء فراشـــه. وللحق فلم يكن لديَّ فراش من الأصل. فما المانع أن تصل الأمور إلى أسوأ من هذا".

"وقد تتحول إلى أفضل من هذا. لسوف ننعم بعطلة نهاية أسبوع سعيدة على الأقل".

"كم أتوق إلى تلك اللحظات".

الفصل الثاني والثلاثون

عــدنا إلى مبنى القيادة. كان عدد الصحفيين قد ازداد، فأوقفت السيارة على الطريق بعيداً عن موقف السيارات. كان بجعبتي المذكرات المطبوعة لآن كامبيل، ودلفنا إلى داخل المنــزل.

قلــت لــسينثيا: "سنتحدث مع الكولونيل مور أولاً، ثم نرى ما حصلت عليه الآنسة كايفر".

وبينما كنا نتجه إلى زنـــزانة الحبس، علقت سينثيا: "من الصعب أن يتصور المرء أن الرجل الذي يدير هذا المبنى بالكامل هو المجرم".

"هذا صحيح. فهو أمر يتنافى مع جميع البروتوكولات والإجراءات المتبعة".

"بالتأكيد. ما هو رأيك في آثار الأقدام تلك؟".

"هي في الحقيقة كل ما نعتمد عليه من أدلة قوية".

فكــرت للحظة، ثم قالت: "ولكن لدينا الدافع وفرصة ارتكاب الجريمة. مع أني لست متأكدة من فحوى التقرير النفسي للقاتل أو إرادة كينت تجاه ارتكاب الجريمة. كما أن ليس في جعبتنا أي دليل ظرفي... لكنني رأيت أن حدسنا سليم بعد لقائنا معه في النادي".

"عليكِ أن تخبري الفيدراليين بذلك إذن".

أمــرت الرقيب بأن يرافقنا، واتجهنا إلى زنـــزانة الكولونيل مور. كان مور جالساً علــى فراشــه، مرتدياً زيه بالكامل عدا الحذاء. كان ديلبيرت إيلكينـــز جالساً على مقعد بالقرب من القضبان الفاصلة بينه وبين مور، وكان يتحدث إليه. وبدا على مور شيء من اثنين: إما أنه يستمع بكل انتباه إليه، أو أنه في وادٍ آخر تماماً.

رآنــا كلاهمــا ونحن نقترب، فنهضا. بدا إيلكينـــز سعيداً لرؤيتي، لكن الترقب كان بادياً على مور، ناهيك عن أنه كان أشعث الشعر عابس الوجه.

قــال لـــي إيلكينـــز: "أنحن على موعدنا في الغد سيدي القائد؟ هل هناك مشكلة في هذا؟".

"لا مشكلة".

"أود أن أوصل لك تحيات زوجتي".

"حقاً؟ ولكنها كانت قد طلبت مني أن أبقيك هنا".

ضحك إيلكينـــز.

قلت لرقيب الشرطة العسكرية المرافق، "افتح زنـــزانة الكولونيل مور لو سمحت".

"أجل سيدي". فتح الزنـــزانة وسألني: "هل أقيده؟".

"أجل أيها الرقيب".

صاح الرقيب في مور، "مد معصميك للأمام!".

مد كور قبضتيه للأمام، فكبلهما الرقيب في سرعة.

ســـرنا مـــن دون أية كلمة عبر الممر الطويل، وأصداء خطواتنا تتردد في المكان. هناك من المواقف ما هو أكثر كآبة من منظر سجين مقيد اليدين، إلا أن مور لم يستطع أن يتكيف بطبعه مع مثل هذا الموقف، ولقد كان هذا ما قصدته بالأساس.

دلفنا إلى غرفة الاستجواب، وفارقنا الرقيب. قلت له: "اجلس".

فجلس.

جلست أنا وسينثيا إلى الطاولة المقابلة.

قلـــت لـــه: "لقـــد ذكرت لك من قبل أنه حينما نتحدث في المرة التالية، فإن حديثنا سيكون هنا".

لم يرد. بدا على ملامحه خليط من الخوف، والحزن، والغضب، مع أنه كان يحاول كـــبت كـــل هـــذه الانفعالات، لأنه يدرك أنها لن تفيده في هذا الموقف. قلت له: "لو أنك أخبرتنا بكل ما تعرفه منذ المرة الأولى، فربما لم تكن هنا من الأصل".

ظل على صمته.

"هـــل تعلـــم أشد ما يثير غضب المحقق؟ هذا حينما يجد أنه يضيع وقته الثمين على شاهد متحذلق".

وأخـــذت أســـتثيره بالكلمات، وأنا أؤكد له أنه يثير اشمئزازي، لكونه قد لطخ سمعة الـــزي الـــذي يرتديه، ورتبته، وعسكريته، وبلاده، بل وعلاقته بربه، والإنسانية جميعاً، والكون كله.

ومع كل هذا ظل مور على صمته، على أني لم أعتقد أنه كان بهذا يمارس حقه في عدم الكلام، فأنا أرى أنه قد فهم مقصدي من وراء كل هذا، وهو أن أبقيه صامتاً.

كانـــت سينثيا قد خرجت خلال تلك الفترة ومعها ما طبعناه من المذكرات. وعادت بعـــد خمس دقائق من دونها، إلا أنها كانت تحمل صينية بلاستيكية على كوب من الحليب وبعض الكعك المحلى.

لمعت عينا مور حينما رأى الطعام، فلم يعد يلقي بالاً لي.

قالت له سينثيا: "لقد أحضرت لك هذا". وضعت الصينية على الطاولة بعيداً عن متناوله، وهي تقول: "لقد أمرت الرقيب أن يفك قيدك حتى تستطيع أن تأكل. وسوف يأتي بعد دقيقة".

طمأنها مور بقوله: "بوسعي أن آكل ويداي مكبلتان".

فقالت له: "إن مما يخالف التعليمات أن نجبرك على أن تأكل وأنت مقيد اليدان".

"أنتِ لم تجبريني. بل أنا الذي أريد أن...".

"آسفة. عليك أن تنتظر الرقيب".

ظل مور ينظر إلى الكعك المحلى، وكان هذا أول كعك محلى من صنع الجيش أرى أحداً ينظر إليه بكل هذا الاهتمام. فقلت له: "دعنا ننتهي من هذا الأمر. ولا تحاول أن تراوغنا كما في فعلت في كل مرة سابقة. ولكي أبين لك مدى سوء وضعك، فسوف أخبرك بكل ما أصبحنا نعرفه من أدلة جنائية. ومن ثم ستقوم أنت بمدنا بما ينقصنا من معلومات. أقول لك في البداية أنك قد خططت مع آن كامبيل لهذا الأمر على مدى أسبوع على أقل تقدير - منذ أن أنذرها أبوها. إلا أنني لا أعلم من منكما الذي أوحى بإعادة تنفيذ ما تعرضت له في ويست بوينت" - كنت أحدق فيه لأرى رد فعله على هذا الكلام، ثم واصلت كلامي - "إلا أنها كانت فكرة مريضة. لقد قمت أنت بالاتصال بها في مقر خدمتها، وأخذتما تنظمان التفاصيل، واتجهت بالسيارة إلى ساحة الرماية رقم خمسة، حيث أوقفتها عند منطقة الحصباء وراء مدرجات الساحة هناك. وترجلت من السيارة، ومعك أوتاد الخيام، والحبل، والمطرقة، وخلاف هذا، وكان معك كذلك هاتف محمول، وربما كان معك جهاز تسجيل. ومشيت عبر الممشى متوجهاً إلى دورات المياه عند ساحة الرماية رقم ستة، وربما هاتفتها من هناك لكي تتأكد من أنها قد غادرت مقر القيادة".

قضيت العشر دقائق التالية وأنا أعيد تصوير الجريمة أمام ناظريه، وأعتمد في سردي على الأدلة الجنائية، والفرضيات التي تربط بينها. وبدا الكولونيل مور مشدوهاً، مذهولاً، وقد ازداد بداخله إحساس بالتعاسة.

تابعت كلامي، "هاتفتما الجنرال على الخط الساخن، وحينما أجاب قامت آن بتشغيل الرسالة المسجلة. وعندها - وبعدما تأكدتما من أنه ليس أمامكما سوى قرابة العشرين دقيقة - قمتما بإعداد المسرح. فتجردت من ملابسها في الجيب أو بالقرب منها حتى لا يلحظكما أي عابر بشكل مفاجئ. ووضعتما حاجياتها في كيس بلاستيك تركتماه في السيارة الجيب. هل هذا صحيح؟".

"بلى".

"وبقت مرتديةً لساعتها".

"أجل. فقد كانت تريد التأكد من الوقت. فقد كان بوسعها تبين الوقت، وظنت أن هذا سيبعث على اطمئنانها أثناء انتظارها لأبويها".

رأيت أن هذا سبب عجيب، إلا أنه لم يكن ليختلف عن غرابة المنظر كله الذي ظهر لـــي لأول مـــرة، فها هي عارية إلا من ساعة على معصمها. وللحق فقد تطورت نظرتي للجـــريمة مـــنذ الصباح، حيث كنت أعتقد أنها جريمة اغتصاب في الأصل. فالحقيقة أن الجـــريمة قـــد تمت على مراحل، ومستويات، وكان أصل الجريمة ودافعها يعود إلى عقد مضى من الزمن، وما أراه الآن ليس هو ما بدا لبقية من عرفوا بالجريمة. فما رأيته كان نهاية نتاج ليلة غريبة الأطوار كان من الممكن أن تكون نهايتها مغايرة.

قلـــت لمور: "بالمناسبة، هل لاحظت أنها كانت ترتدي خاتم ويست بوينت أم لم تكن ترتديه؟".

رد بلا تردد: "بلى، لقد كانت ترتديه. فقد كان من الأشياء التي ترمز بالنسبة لها إلى جريمة الاغتصاب الأصلية. وقد كان اسمها بالطبع محفوراً عليه من الداخل، وكانت تنوي أن تقدمه لوالدها كتذكار – وسيلة تقول له من خلالها أن الذكريات السيئة التي يرمز إليها هذا الخاتم قد أصبحت بين يديه، ولم تكن ترغب في أن تتذكرها بعد الآن".

"فهمـــت..." يـــا إلهي، لقد كانت هذه خطة فريدة من نوعها. ولقد خطر لي أن هـــناك نوعاً من العلاقة السيكوجنسية العميقة بين الأب وابنته، وربما كان مور يدرك ذلك، وربما كانت العائلة كلها تدرك ذلك، إلا أنني متأكد من أن ليس لي رغبة بمعرفة تفاصيلها.

تـــبادلت النظرات مع سينثيا، وأرى أنها تفكر في نفس ما فكرت فيه. ولكن لنعد إلى قـــضيتنا. قلت لمور: "ومن ثم توجهتما معاً إلى الساحة، وتخيرتما مكاناً عند قاعدة أقرب هدف مجسم يبعد حوالى خمسين متراً من الطريق، فتمددت مباعدة بين ذراعيها وساقيها" ثم نظرت إليه مباشرةً وسألته: "ما هو شعورك وهو لا ترى فيك سوى مجرد أداة بلا أي حس أو شهوة؟".

لمحـــت الغـــضب عليه، إلا أنه تمالك نفسه وهو يقول: "لم أقم أبداً باستغلال أي من مرضاي جنسياً. فمهما كنت ترى غرابةً في أطوار هذا الأسلوب في العلاج، إلا أن القصد مـــنه كان مساعدتها، كعنصر تحفيزي لجميع الأطراف. ولم تكن خطوات العلاج تتضمن ممارستي للجنس معها، أو اغتصابها، عندما قيدتها".

"يا لك من رجل، مثال مطلق للمعايير المهنية إذن. ولكنني سأحاول ألا أترك العنان لغضبي ثانيةً. فما أود أن أعرفه منك هو ما حدث بعد أن قيدتها. صارحني".

"حسناً... تحدثنا لبعض الوقت، وشكرتني على مخاطرتي بالكثير مقابل أن أساعدها على إتمام خطتها...".

"توقف عن هذا أيها الكولونيل، وتكلم فيما يفيد".

تنهد في عمق ثم تابع كلامه. "عدت إلى السيارة الجيب، وأخذت الكيس الذي به ملابسها، وكذلك حقيبتي، والتي كنت أحمل فيها الأوتاد والحبال، والتي لم يكن بها الآن سوى المطرقة، ثم اتجهت إلى دورات المياه ومكثت هناك أنتظر".

"تنتظر من؟ أو تنتظر ماذا؟".

"كنت أنتظر مجيء والداها بالطبع. كما أنها كانت قلقة من أن يمر أحد قبلهما فيرى السيارة الجيب، لذا سألتني أن أبقى حتى وصول والداها".

"وما الذي كان يفترض أن تقوم به إذا ما مر أحد غيرهما أولاً؟ أن تختبئ داخل مقعد الحمام؟".

شعرت أن سينثيا ستهم بركلي في قدمي من تحت الطاولة، وتتولى هي إدارة الاستجواب. فسألت هي مور في لطف: "ما الذي كان من المتوجب عليك أن تقوم به أيها الكولونيل؟".

نظر إليها، ثم إلى الكعك، ثم عاد بنظره إليها وهو يقول: "كان معي مسدسها في ذلك الكيس. لكن... لم أكن أعرف على وجه التحديد ما كان يفترض بي أن أقوم به، إلا أنه لو كان أحد قد مرّ بها ورآها على هذا الوضع، فإني كنت مستعداً لأن أضمن لها ألا تتعرض لأي أذى".

"وعند هذه النقطة قررت الدخول إلى دورة المياه؟".

بدا مور مندهشاً قليلاً من هذه الملاحظة، إلا أنه قال: "أجل... كنت أحتاج إلى ذلك".

فقلت له: "كنت على درجة من الخوف أجبرتك على أن تفرغ بولك، أليس كذلك؟ ثم قمت بغسل يديك كأي جندي ملتزم، ثم ماذا بعد؟".

حدق فيَّ، ثم وجه رده إلى سينثيا: "وقفت خلف دورات المياه، ثم رأيت أضواء سيارة تأتي عبر الطريق. توقفت السيارة، وحينما انفتح باب السائق تبينت أنه الجنرال. وعلى أية حال فإن البدر كان ينير المكان، وتمكنت من تبين أنه كان يستقل سيارة السيدة كامبيل، مع أنني لم أرها بداخلها... ولقد خشيت ألا يكون الجنرال قد جلب زوجته معه".

"لماذا؟".

"في الحقيقة... أن من دون حضور السيدة كامبيل فإن الموقف كان من الممكن أن يخرج على نطاق السيطرة. ولم يخطر لي ببال أن الجنرال يمكنه أن يقترب من ابنته العارية ليؤذيها... فبوجود الاثنين معاً كنت متأكداً من أن الموقف سيمر كما خططنا له".

نظرت سينثيا إليه للحظة طويلة، ثم سألته: "هل بقيت تستمع إلى حوار الجنرال مع ابنته؟".

"كلا".

"ولماذا لا؟".

"كـنا قـررنا هـذا من قبل. فحينما تأكدت من أنه هو الجنرال، قمت بإلقاء الكيس البلاسـتيكي علـى سـطح الحمامات، ثم أسرعت عائداً عبر ذلك الممشى الطويل. كانت مـسافة خمـس دقائـق مـشياً حتى سيارتي، ولم أكن متأكداً من الفترة التي سيستغرقها حوارهما. فأردت أن أخرج بسيارتي إلى الطريق عائداً إلى القاعدة في أسرع وقت ممكن، وهو ما قمت به".

سألته سينثيا: "وهل رأيت أية سيارة أخرى على الطريق أثناء عودتك؟".

"كلا".

نظـرت سـينثيا إلـيَّ، ثم نظرت أنا إلى مور وقلت له: "عليك أن تفكر معي أيها الكولونيل، هل رأيت أية أضواء لسيارات على الطريق؟".

"كلا. بالتأكيد لا. فهذا ما كنت متنبهاً إليه وقتها... وأنا متأكد من أني لم أرَ شيئاً".

"ولم ترَ أحداً يسير على قدميه؟".

"كلا".

"هـل رأيت أو سمعت أي شيء حينما كنت في ساحتي الرماية خمسة وستة؟ وماذا عن دورات المياه، والسيارة الجيب، أو على الممشى؟".

هزّ رأسه نافياً. "كلا".

"وبعد أن تركتها قتلها أحدهم".

"أجل. فقد تركتها حية".

"من تعتقد أنه هو القاتل؟".

نظر إليَّ في دهشة: "إنه الجنرال بالطبع، فلقد ظننت أنكما تعلمان هذا الآن".

"وما الذي يدفعك إلى قول ذلك؟".

"الـسبب؟ إنكمـا تعلمان ما حدث. وتعلمان الآن أن دوري لم يتعدَّ أن أساعدها في إعـادة محاكـاة مشهد الاغتصاب لأجل أن يراه أبواها. وقد جاء هو إلى هناك – ورأيته بعينـي – وبعـدها عرفت في الصباح أنهم قد وجدوها مقتولة خنقاً. فمن برأيك يكون قد فعلها غيره؟".

سألته سينثيا: "ما الذي كانت تنتظره كرد فعل من أبويها؟ ما الذي قالته لك عن هذا؟".

فكر مور للحظة، ثم أجاب: "في الحقيقة... أعتقد أنها كانت تتوقع منهما أن... إنها لم تكن تعلم يقيناً كيف سيكون رد فعلهما على ما سيرياه، إلا أنها كانت تتوقع منهما أن يخلصاها من قيدها ويخرجاها من هذا المكان، مهما كان من الصعب عليهما أن يفعلا هذا... فقد كانت متيقنة من أنهما لن يتركاها في مكانها، لذا فقد كانا مجبرين على المواجهة معها، ومواجهة عريها، وعارها ومهانتها، وأن يخلصاها من هذا مادياً ومعنوياً من معاناتها للأبد... هل تفهمان قصدي؟".

أومأت سينثيا برأسها وهي تقول: "أفهم نظريتك".

أما أنا فأدليت برأيي قائلاً: "تبدو لي خطة فاشلة".

فقال مور: "لو أن السيدة كامبيل كانت قد حضرت إلى هناك، لكانت الخطة قد نجحت. إلا أن المأساة لم تكن لتنتهي هكذا".

"في العادة تفشل خطط الخبراء النفسيين دوماً".

تجاهلني وهو يقول لسينثيا: "هل يمكنك على الأقل أن تقربي مني كوب الحليب؟ إني في غاية العطش".

"بالتأكيد". وضعت سينثيا الكوب بالقرب من معصميه المقيدين، فتناوله وجرع الحليب في جرعة واحدة طويلة. وضع الكوب على الطاولة ثانيةً، وبقينا في صمت لدقيقة حتى ينتهي مور من تلذذه من الحليب، وكأنما هو كأس من المشروب المفضل الذي يفضله.

قالت له سينثيا: "هل سبق وأن أشارت لك أنها تعتقد أن أباها يمكن أن يأتي وحده، وأنه قد يقع أسير الغضب فيقتلها؟".

أجاب مور في سرعة: "كلا! فلو أن هذا قد خطر لها لما كنت قد وافقتها أبداً على ما تخطط له".

لم يكن لي علم بمدى صدق كل ما يقوله هنا، فهذا أمر لا يحسمه سوى شخصين. أحدهما قد مات، أما الآخر فبوسعه أن يكذب حتى يجمل صورة ما ارتكبه. وبالطبع فإن الجنرال نفسه كان يعلم بشعوره لحظة أن تحدته ابنته بهذا الشكل. إلا أنه يعجز حتى عن الإفصاح لنفسه عما شعر به في حقيقة الأمر، وبالتالي فلم يكن سيخبرني بهذا. إلا أن الأمر لم يعد يهم الآن، نوعاً ما.

سألت سينثيا السجين: "هل خطر لك أو لآن كامبيل أن الجنرال قد لا يكون بجعبته ما يحرر به ابنته من قيدها -وأنا هنا لا أقصد المعنى السيكولوجي - بل أشير إلى وجود سكين أو أداة يقتلع بها الأوتاد".

أجابها: "بالفعل. لقد فكرت في هذا. والحقيقة أنني قمت بغرس سونكي بندقية في الأرض... هل وجدتماه؟".

سألته سينثيا: "وأين كان هذا السونكي؟".

"كـــان في المنطقة... بين ساقيها... حيث إن من قاموا باغتصابها في ويست بوينت كانوا قد غرسوا السونكي بالقرب من... من ما بين ساقيها، ثم هددوها بألا تبلغ السلطات بما حدث لها، بعدها قاموا بفك قيدها".

أومأت سينثيا برأسها وهي تقول: "فهمت...".

واصـــل مور كلامه: "بالطبع كانت تحاول أن تصدمه، بل أن تصدمهما معاً، وكان سيتوجب عليهما جذب السونكي حتى يفكوا قيدها. وقد كانت تعتقد أنه سيلبسها قميصه أو ســـترته. فلقد تركت حمالة صدرها هناك، وسروالها الداخلي كان ملفوفاً حول عنقها، وأنا مـــتأكد مـــن أنكما قد وجدتما ذلك. وهذه هي الكيفية التي تركوها عليها في غابات ويست بويـــنت. فلقد ألقوا بملابسها في كل مكان، وكان عليها أن تبحث عنها وسط الظلام. على أنها كانت تنوي هنا أن يساعدها أبواها على أن تستقل الجيب، ثم تخبرهما بمكان الملابس - فـــي أعلى الحمامات - وتطلب من والدها أن يجلبها. فقد تركت حقيبة يدها في الجيب مـــع المفاتيح، حيث كانت تنوي أن ترتدي ملابسها وتقود السيارة وكأن شيئاً لم يحدث، ثم تعـــود لاستكمال خدمتها في مقر القيادة. وبعدها كانت ستحضر الإفطار مع والديها، حيث كانت تتوقع أن يناقشوا ما حدث معها وقتئذٍ".

هـــزّت سينثيا رأسها من جديد وهي تقول له: "هل كانت تعول كثيراً على ما سينتج من اجتماع الإفطار هذا؟".

فكر للحظة، ثم أجاب: "بالفعل، أعتقد هذا. وبالطبع فإن هذا كان يعتمد على رد فعل والـــدها ووالدتها تجاه ذلك المشهد. على أن ما حدث منع الآنسة كامبيل بطبيعة الحال من تبـــين نتيجة خطتها. لكنني أعتقد أن آن كانت ترى أنه أياً كانت نوعية القوى التي أطلقت عنانها في تلك الليلة، ومهما كان رد فعل والدها، فإن الأمور كانت بالفعل قد وصلت إلى الحـــضيض، ولـــم يكن سيصبح هناك ما هو أسوأ. هناك دوماً مخاطرة كبرى في العلاج بالـــصدمة، إلا أنـــه حينما لا يكون لديك شيء آخر تخسره، تكون مستعداً لأن تقامر بكل شيء أملاً في أن يتحقق الأفضل".

كانـــت ســـينثيا تجـــيد فن الإيماء بالرأس، الذي تعلمناه ضمن أساليب التجاوب مع المـــتهم، حـــيث عليك أن تبدو مشجعاً له متجاوباً معه، ولا تبدي له جمود الوجه، أو تبدو مـــشككاً فـــيما يقول، أو تبدي إدراكك لكونه يراوغك. بل عليك فقط أن تومئ برأسك بين الحـــين والآخـــر، تماماً كطبيب نفسي أثناء جلسة علاجية. وربما أدرك مور طبيعة هذا الأســـلوب، وهـــنا تكمن المفارقة، إلا أن حالته الذهنية والجسدية الراهنة لم تكن تسمح له ســـوى بأن يتمنى مشاهدة أية ابتسامة منا، أو حتى إيماءة، وبالطبع أن نعطيه قطعة كعك

محلـــي. ســألته ســينثيا: "هل أخبرتك بسبب تعويلها على هذا اللقاء؟ أقصد لماذا في هذا التوقيت، وبعد كل تلك السنوات؟".

"فـــي الحقــيقة أنها كانت قد قررت أن تصفح أخيراً. وكانت مستعدة لأن تقول أي شـــيء ذلــك الــصباح، كأن تعدهم بأن ما حدث سيعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. فقد أتعبتها تلك المواجهات مع أبيها، وقد شعرت بمقدمات الخلاص حتى قبل أن تقرر الذهاب إلـــى ســاحة الــرماية. فلقد كان لديها أمل، بل وأقول لكما أنها كانت سعيدة وقريبة من الوصـــل إلـــى الـــسكينة لأول مرة منذ أن عرفتها". تنهد وهو ينظر إلينا، ثم تابع: "أعلم نظـــرتكما إليَّ، وأنا لا ألومكما، إلا أنني لم أكنْ أكنّ لها سوى الخوف على مصلحتها. لقد أغوتني بدوري أيضاً، ولكن بأسلوب آخر... وسايرتها فيما كنت أعلم أنه ليس من التقاليد. إلا أنه لو كان بوسعكما أن تتبينا مدى التفاؤل الذي كانت عليه، وكيف كانت قد عادت إلى تصرفاتها المنطلقة الفرحة من جديد – لقد كانت متوترة، خائفة، ولكنها ممتلئةٌ أملاً في أن تكـــون قد وصلت بالفعل إلى نهاية كابوس طويل... على أنني كنت أعلم أن الضرر الذي ألحقـــته بنفسها وبالآخرين أعمق من أن يختفي في لحظة، ولمجرد أنها ستقول لوالديها.. أحـــبكما، وأســامحكما إذا ما سامحتماني... إلا أنها كانت موقنة من هذا، وجعلتني أوقن بدوري بهذا... إلا أنها أساءت حساب الموقف... كما أسأت أنا توقع قدر غضب الأب... والمفارقة أنها كانت تظن أنها تكاد تلامس السعادة بيديها... وبقيت تتدرب على ما سوف تقوله لهما تلك الليلة... وعند الإفطار...".

وهـــنا حـــدث الشيء الأغرب. فلقد فرت دمعتان من عيني مور لتنسابا على خديه، فغطى وجهه بكفيه.

نهـــضت ســـينثيا ووضعت يدها على كتفه، وهي تشير لي بأن نخرج من هنا قليلاً. فخرجنا إلى الممر، وقالت لي: "أطلق سراحه يا بول".

"تباً... لن أفعل هذا".

"لقـــد نلـــت ما تريد منه. فدعه يذهب لينام في مكتبه، ويحضر الجنازة غداً. فسوف نعاود تولي أمره في الغد أو بعد الغد. فهو لن يفر".

لـــم أكـــن مقتـــنعاً بهذا ولكنني أجبتها: "حسناً. لقد رق له قلبي". توجهت إلى مكتب الحـــرس وتحـــدثت مع الرقيب. وملأت استمارة تصريح بإطلاق سراح مع تقييد حركته داخل القاعدة، ثم وقعتها – لكم أكره مثل هذه الاستمارات الخاصة بتقييد الحركة – وبعدها عدت إلى الطرقة حيث كانت سينثيا بانتظاري.

قلت: "هو حر الآن، إلا أن حركته منحصرة بالقاعدة".

"جيد. هذا هو القرار الصواب".

"لن نعرف أبداً بأن كان صائباً أم لا".

"يـا بـول.. إن الغضب لن يغير من حقيقة الأشياء التي حدثت، كما أنه لن يجلب العدالـة. هذا هو الدرس الذي عليك أن تتعلمه من هذه القضية. وهو الأمر الذي لم تتعلمه آن كامبيل أبداً. إلا أن ما حدث لها لا بد من أن يمثل على الأقل عبرةً لغيرها".

"أشكرك".

توجهـنا إلى مكتبنا، وجلست إلى المكتب، مقسماً أوراق المذكرات بيني وسينثيا. و قبل أن نشرع في قراءتها قلت لها: "ماذا عن ذلك السونكي؟".

"لا أعـرف. فلو أن الجنرال كان لم يقترب فعلاً من ابنته، فمن المؤكد أنه لم يره، ولـم يعرف بأنه كان لديه ما يفك به قيد ابنته. ولقد سرد لنا قصتين مغايرتين لما حدث – إحداها أنه حاول أن يحررها من خلال أن يجذب تلك الأوتاد، والأخرى أنه لم يستطع أن يقترب منها... والحقيقة هي أنه لم يقترب منها".

"هـذا صـحيح. فالشخص الذي تلاه في الظهور على مسرح الأحداث – ولنقل أنه كيـنت – رأى السونكي، وكان لديه نفس الخيار بأن يتركه. ثم أتت عائلة فاولر التي كان معها سكيناً... لكنها كانت قد لقيت مصرعها. وبعدها أتى الرقيب ساينت جون، ثم كاسي مجـندة الشرطة العسكرية... لا أعلم ما حدث، إلا أن من اللافت للانتباه أنه أياً كان من سـحب الـسونكي من الأرض، فإنه قد قرر الاحتفاظ به..." تأملت كلامي هذا لبرهة، ثم تابعـت "ولو أننا صدقنا رواية الجنرال الثانية للأحداث، وهي أنه لم يقترب منها، فبالتالي لا يكـون هـو مـن جذب السونكي. كما أنه ليس لدى القاتل أي سبب يدفعه إلى سحب السونكي. وكذلك ساينت جونو كاسي".

"هل تلمح إلى أن آل فاولر هم من احتفظ به؟".

"بـل أقول بأنهما حينما وجداها قد ماتت، ورأيا أن وسيلة فك قيدها كانت قابعة بين ساقيها أدركا أن الجنرال قد كذب عليهما، وأنه لم يحاول أن يفك قيدها، وأنا متأكد من أنه قد ذكر لهما أنه قد حاول وفشل. هذا بالطبع تبعاً لقصة الجنرال الثانية عما حدث، وأنه قد بقـي بعـيداً عـنها. لذا فحينما رأى آل فاولر السونكي، ظنا أن الجنرال كان قادراً على تحريـرها مـن قيودها، إلا أنه لم يفعل، ونتيجة لهذا فقد ماتت. وحيث إنهما لم يرغبا في مـصارحته بهذا، أو أرادا أن يكتشف هو بنفسه من التقارير أنهما قد عرفا بهذا، فإنهما قد سـحبا السونكي ثم تخلصا منه. فكان هذا بمثابة جميل آخر يقدمانه إليه، إلا أنهما لم يقدما بهذا لنا أي جميل".

فكـرت سـينثيا فـي الأمـر للحظات، ثم قالت: "بالفعل هذا ما حدث". نظرت إليَّ وتابعت.. "وبالنسبة لخاتم ويست بوينت؟".

"هذا هو ما يحيرني".

"هل هما آل فاولر من جديد؟".

"من الممكن أن يكون هذا جميلاً آخر. على الرغم من أني لا أستسيغ الفكرة. وربما يكون القاتل هو من أخذه كتذكار عاطفي. وأنا أستبعد أن يقوم أيٌّ من الرقيب ساينت جون أو المجندة كاسي بمثل هذه الحماقة، إلا أن لا أحد يعلم يقيناً برد فعل شخص وجد نفسه أمام جثة. وهنا قد نعود إلى نقطة أن يكون الجنرال قد اقترب - على عكس ما يقول - من ابنته. فسحب السونكي، وفكر في أن يفك قيودها به، ثم غيّر رأيه، وأخذ منها خاتمها، وأخبرها بأنها قد أهانت الزي العسكري، وغادرها - وبعدها رق قلبه فاتجه إلى منزل فاولر. فمن يدري؟ ومن سيهتم بنقطة مثل هذه؟".

"أنا مهتمة بها. فعليَّ أن أتعرف على ردود فعل الأشخاص، وما يعتمل بداخلهم. فهو أمر مهم يا بول، فهذا ما يميز هذه المهنة. أتود أن تصبح شخصاً مثل كارل هيلمان؟".

ابتسمت وأنا أجيب: "أحياناً ما أود هذا".

"فلن تتمكن مرة أخرى من أن تحدد دافع أي مجرم أو أن تتوصل إلى من هو طيب القلب أو الشرير".

"أنا مقتنع برأيي أنا".

"لا تناقض نفسك".

"بمناسبة الدوافع، والخاصة بالطيبة والشر، والعواطف، والغيرة، والكراهية، علينا أن نقرأ هذه المذكرات أولاً".

أخذنا نقرأ لبعض الوقت، حتى تعرفنا على ما يفضل كينت ممارسته في الجنس، إلا أن الأهم هو أنني اكتشفت أن آن كامبيل كانت ترى فيه مشكلة لا بد من الفكاك منها. قلت لسينثيا: "إليكِ ما كتبته هنا في الشهر الماضي... لقد عاود بيل غيرته علي. كنت أظن أننا قد خلصنا من هذا الموضوع. فقد جاء الليلة وكان تيد ويس موجوداً. لم نكن أنا وتيد قد توجهنا إلى القبو بعد، وتناول بيل الشراب المفضل معه في حجرة المعيشة، وكان بيل فظاً معه، مستغلاً أنه أعلى رتبةً منه. وفي النهاية غادرنا تيد، وتكلمت مع بيل. لقد قال أنه يستعد لأن ينفصل عن زوجته وأن يستقيل من منصبه، هذا إن وعدته أن أعيش معه على الدوام أو أن أتزوجه. إنه يعلم بسبب قيامي بما أقوم به مع الآخرين، إلا أنه قد بدأ يرى أن علاقتنا نحن أقوى. إنه يضغط علي، وأنا أطلب منه أن يتوقف عن هذا. لم يكن راغباً في ممارسة الجنس هذه الليلة. كان يريد أن يتحدث معي فقط. وقد تركته يتحدث، إلا أن كلامه لم يعجبني. ما الذي يدفع بعض الرجال إلى الظن بأنهم فرسان قد جاؤوا ليخلصونا

ممـــا نحن فيه؟ أنا لست بحاجة إلى فارس. ففارسي هو أنا، كما أن عدوي هو أنا أيضاً، وأعــيش مـــع هذا وذاك في مملكتي الخاصة. أما الجميع فمجرد لاعبين ذوي أدوار، ولم يكــن بيل يعي هذا الأمر. لم يفهم، ولم أجد في نفسي رغبةً في التفسير. فقط قلت له أني ســأفكر فـــي عرضه هذا، إلا أنني طلبت منه أن يأتي بعد هذا إلى هنا وفقاً لميعاد سابق. وهــو الأمـــر الذي أثار غضبه، فصفعني على وجهي، ثم مزق ملابسي واغتصبني على أرضـــية الحجرة. وحينما شفا غليله مني، بدا لي أنه قد عاد إلى صوابه، فغادر المنـــزل. أدركـــت بأنـــه خطـــر، إلا أن هذا لم يكن ليهمني، والحقيقة أنه الوحيد، لولا ويس، الذي هددني أو ضربني، وهو الأمر الوحيد الذي يجذبني إلى كينت".

رفعت عيناي من فوق الورق، وتبادلت النظر مع سينثيا. من الواضح أن الكولونيل كيـــنت شخصية خطيرة. فلا شيء أخطر من ممن تتملكه الرغبة وشهوة الاستحواذ. كنت أهم بقراءة جزء آخر بصوت عالٍ حينما طرق أحدهم الباب، وفتحه. كنت أتوقع أن تكون المساعد كايفر، إلا أنه كان الكولونيل كينت، فتساءلت في قرارة نفسي عما إذا كان يسترق السمع.

الفصل الثالث والثلاثون

لملمت الأوراق ودسستها في ملف. بقى كينت واقفاً في مكانه يراقبنا لكنه لم يقل شيئاً.

كـان يـرتدي قبعته، وهو ما يعني أنه يمتلك حصانة في عرف العسكرية. فعادة ما تكـون غيـر محمي داخل المكاتب، إلا أن كنت مسلحاً، وهنا لا بد من أن ترتدي القبعة. وهي عادة عسكرية لافتة للنظر، وربما كانت لها علاقة بأخرى تقتضي ألا تمسك شيئاً في يـدك طالما كنت مسلحاً، أو ليعلم الجميع من خلال القبعة أنك مسلحاً. والحقيقة أن كينت كان يحمل مسدسه في جراب بجانبه.

وكنت أنا كذلك مسلحاً، وسينثيا أيضاً، إلا أن السلاح لم يكن ظاهراً للعيان، ولم يكن علينا أن نرتدي القبعات.

كـان المكتب معتماً، إلا من ضوء مصباحي مكتب، فبالكاد كنت أرى ملامح وجه كينت من موضع جلوسي، إلا أنه قد بدا لي مغموماً، فتذكرت أنه كان بالكنيسة يلقي عليها النظرة الأخيرة.

كان نبرة صوته هادئة محايدة وهو يقول: "لماذا تسعى بيكر وراء معلومات بعينها؟".

نهضت وأنا أجيبه: "لم تكن تتلصص. بل كانت تجمع معلومات طلبناها منها".

"إنني قائد هذا المكان. فعليك أن تسألني أنا عما تريد أن تعرفه".

هـذا صـحيح. لـولا أننا كنا نبحث عن معلومات لها صلة مباشرة بالقائد. "لم تكن سوى معلومات إدارية لا قيمة لها، سيدي الكولونيل".

"لا يوجد هنا ما لا أهمية له".

"ربما كانت إيصالات عبور السيارات وتوقفها من الأشياء التي لا قيمة لها".

"وما هي حاجتكما إلى هذه الإيصالات؟".

"إنـه إجـراء اعتيادي. فيجب أنك تعلم أن الغرض منها هو التأكد من خطوط سير سيارات بعينها في أوقات...".

"أعلـم هـذا. كمـا كنت تريد تقارير دوريات الشرطة العسكرية، ويوميات الرقيب المـناوب، بالإضافة إلى تسجيلات ورسائل الراديو الخاصة بتلك الليلة. فهل كنتما تبحثان عن سيارة بعينها؟".

كنا في الحقيقة نبحث عن سيارتك أنت. لكنني قلت له: "كلا. أين بيكر؟".

"لقد أوقفتها عن الخدمة، وأمرت بألا تخدم في هذا المبنى".

"هكذا. حسناً لا يسعني سوى أن أطلب منك رسمياً أن تعيدها إلى الخدمة هنا".

"لقد أمرت مجندة أخرى بأن تتلقى الأوامر منكما. فلن أتسامح تجاه أي خرق للأمن الداخلي هنا من قبل أي أحد، ولأي سبب كان. ولقد خالفتم التعليمات، وربما القانون. وسوف أعلم المدعي العسكري العام بهذا في الغد".

"هذا حقك بالتأكيد، سيدي الكولونيل. على أني أعتقد أن لدى الكولونيل ويمز ما هو أهم من هذا في هذه اللحظة".

بدا لي أن كينت قد فهم مقصدي، فأجاب: "إن ميثاق شرف العدالة العسكرية لا يعتمد على أي فرد كان، وكل من هو هنا خاضع لذلك القانون والميثاق، بمن فيهم أنتما الاثنان".

"هذا صحيح تماماً. وأنا أتحمل المسؤولية الكاملة عما فعلته بيكر".

وهنا نهضت سينثيا وقالت: "بل هي مسؤوليتي أنا، سيدي الكولونيل. لقد أمرت بيكر بهذا".

فنظر كينت إليها وأجاب: "كان عليكما أن تستشيراني أولاً".

"أجل سيدي".

وبعد أن صد هذه الهجمة، عاد كينت ليواصل هجومه علينا، رغم أن حماسه قد تلاشى. فقال لي: "إنني لم أتدخل حينما أمرتما بحبس الكولونيل مور، إلا أنني سوف أتقدم بتقرير رسمي حول أسلوب معاملتكما له. فليس هكذا يعامل الضباط". من الواضح أن كينت كان يشير إلى ما سيحدث في المستقبل القريب، وأن الكولونيل مور لم يكن يعنيه في شيء.

فأجبته: "كما أن الضباط عادةً ما لا يسلكون هذا السلوك بدورهم. فلقد أهان رتبته، ومنصبه، والعسكرية".

"ولو، فقد كان من الممكن أن يتم حصر تنقله في حدود القاعدة أو أماكن بعينها فيها حتى استكمال التقرير الرسمي، وتحديد ما إذا كان سيتهم أم لا".

"أتعلم سيدي الكولونيل، إن نظرتي الشخصية هي أنه كلما علت الرتبة كلما كان لسقوطها دوياً. فالمجندون الشباب الذين يقعون في الخطأ يعاقبون، رغم أن هذا قد يكون نتيجة للجهل أو انعدام الخبرة أو لما هم عليه من حماس. فرأيي هو أن كبار الضباط ممن يخالفون القانون لا بد من أن يكونوا عبرةً لغيرهم".

"إلا أن للرتبة مميزاتها، ومن بينها ألا يخضع الضابط للحبس التحفظي، يا سيد برينير".

"من العدل حينما يخالف الضابط القانون أن يكون عقابه متناسباً مع حجم صلاحياته ورتبته ودرايته بالقانون. فحقوق ومميزات الضابط تسير جنباً لجنب مع ما عليه من مسؤوليات هائلة، وأي خرق للواجب والنظام العسكري لا بد من أن يقابله ما يناسبه من عقاب". فانتبه يا بيل إني أقصدك أنت تحديداً، بل أنك تعلم هذا.

ردَّ قائلاً: "لا بد من أن نضع في الاعتبار ما بذله ذلك الضابط من أجل العسكرية في الماضي. فلو كان هناك من خدم بشرف على مدى عشرين عاماً – مثل الكولونيل مور – فلا بد من أن يلقى ما يقابل هذا من شرف واحترام. أما عقابه فتحدده المحكمة العسكرية، هذا إن كان عليه عقاب".

أخذت أنظر إليه للحظات، ثم أجبته: "أعتقد أن الضابط الذي تسدى إليه صلاحيات خاصة وأقسم على أن يؤدي مهامه، لا بد من ألا تكون لديه حجة في أن يقر بجرائمه وأن يريح المحكمة من عبء عقد محاكمة علنية.

والحقيقة أنني أميل إلى التقليد القديم الذي يجبر الضابط على الانتحار تكفيراً عن جرمه. وحيث إنه لم يعد هناك من يجرؤ على القيام بذلك، فإني أرى أن الشخص الذي ارتكب جريمة قتل أو أساء إلى نفسه أو للعسكرية عليه على الأقل أن يفكر في الانتحار، ولو مجرد تفكير".

"وأنا أرى أنك مجنون".

"ربما كنت كذلك. وربما كان عليَّ أن أستشير طبيباً نفسياً. وقد يكون تشارلز مور مناسباً لتلك المهمة. ولسوف تسعد عندما تعلم بأني قد وقعت أمراً بالإفراج عنه، ولا بد من أنه قد رحل من هنا الآن، ليبحث عن مكان يبيت فيه الليلة. ولو أردت أن تعثر عليه عليك بالاتصال باستراحة ضباط مدرسة الحرب النفسية. وبالمناسبة، فإنه يعتقد أن الجنرال هو من قتل ابنته. وأنا أعلم أن الجنرال ليس هو القاتل. فأعتقد أن الجاني سيحاول أن يفتك بمور قبل أن يبلغ المباحث الفيدرالية بشكوكه، حتى لا يتيح لهم أن يشكوا في رجل له احترامه مثل الجنرال. أم أن ذلك الشخص سيريحنا ويعترف؟".

تبادلت أنا وكينت النظرات، ثم قال لي: "أعتقد أن من قتلها لم يكن يرى أن ما فعله يعد جريمة بالأساس. أنت تود الحديث عن الشرف والتقاليد العسكرية القديمة، وحقوق وواجبات الضابط. لذا أراهنك على أن القاتل يرى أنه من غير اللازم أن يشغل منظومة العدالة العسكرية بتلك الفعلة.. التي يرى أنها تطبيق للعدالة والشرف. ها نحن ننظر إلى فلسفتك ولكن من وجهة نظر أخرى".

"هذا صحيح. ولكن ما نأسف له هو أننا نعيش في عصر يسود فيه القانون، وأن مشاعري الشخصية ومشاعرك أنت لا مكان لها الآن. كم من الجرائم التي حققت فيها

على مر عشر سنوات، سيدي الكولونيل، ولقد كنت أنت شاهداً على كثير منها. ونجد في أغلب تلك الحالات تبريراً لدى الجاني تجاه الفعلة التي اقترفها. وقد بدأت المحاكم المدنية تقتنع بتلك التبريرات بدورها. فالمقصد هو أنه طالما كان لديك تبرير، فلماذا لا تعرضه علينا". رأيت أن الحوار قد تحول من حوار عام إلى آخر محدد، وهو ما يعتمد على تفسير كلٍ منا لمعنى "أنت".

نظر كينت إليَّ، ثم إلى سينثيا، وقال: "لقد ذهبت إلى الكنيسة قبيل ساعات. إنني لست رجلاً متديناً، إلا أنني دعوت لها. وبالمناسبة فقد بدت غاية في الوداعة. وأعتقد أن هذا هو سر صنعة الحانوتي، ولكنني أحب أن أتذكر أن روحها قد تحررت وأنها قد وجدت السعادة من جديد..." قال هذه الكلمات ثم انصرف.

جلست مع سينثيا وسط صمت المكتب المعتم لبضع ثوانٍ، وسرعان ما قالت سينثيا: "أصبحنا الآن نعلم على الأقل مكمن ما كانت تعانيه آن كامبيل من آلام".

"فعلاً".

"أتعتقد أنه سيعترف؟".

"لا أعلم. فهذا يعتمد على من سيكسب المعركة التي سيخوضها من الآن وحتى الفجر".

"بالمناسبة فأنا لا أؤمن بجدوى الانتحار يا بول، كما لم يكن من حقك أن تذكر هذا الأمر له".

قلت في لامبالاة: "إن في فكرة الانتحار ذاتها عزاءً كبيراً، ولكم راودت الكثير منا خلال الليالي الكئيبة".

"هذا هراء".

"كلا، بل هو نيتشه".

نهضت قائلةً: "أفكار مريضة. علينا الآن أن نبحث عن بيكر".

"بل كايفر". نهضت بدوري، آخذاً معي الملف، وغادرنا المكتب والمبنى لنخرج إلى الليل الذي كان قد حل.

وفي الخارج، وعلى عتبات مبنى القيادة، أمكنني أن أشعر بسخونة الرياح. "هناك عاصفة في القريب".

ردت سينثيا: "هذا هو الطقس في جورجيا. فلو أنه قد كان هناك عاصفةٌ منذ يومين...".

"بالفعل كانت هناك عاصفة. ولكن لا بد من أن نقول أنه لو توقف الرجال عن الاغتصاب، والمؤسسات العسكرية عن إخفاء فضائحها، وإذا كانت العلاقة بين الآباء

والأبــناء على خير ما يرام، وإذا لم يبحث أحد عن الانتقام، وإذا ما كان من الطبيعي أن يكتفــي الــرجل بزوجته فقط، وإذا عامل كل منا الغير بما يحب أن يعامله به، لما وجدنا عملاً، ولربما استغلوا زنازين الحبس في تربية الكلاب الأليفة".

علقت سينثيا ذراعها في ذراعي، ونــزلنا سوياً درج المبنى.

دلفنا إلى سيارتي مع هطول أولى قطرات المطر المنتظر، وسألتني: "كيف نستطيع العثور على كايفر؟".

"بل هي من سيعثر علينا".

"وأين ستعثر علينا؟".

"في المكان الذي تعلم أننا سنكون به. في استراحة الضباط". أدرت السيارة وانطلقت بها مشعلاً أضواءها.

ازدادت كــثافة المطــر، فشغلت المساحات. قدت السيارة في صمت عبر الشوارع المهجــورة بالقاعــدة الرئيسية. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا عشر دقائق، ولم أكــن أشــعر بالتعب. وفي غضون دقائق كنت أوقف السيارة في موقف الاستراحة، وفي نفــس اللحظة انفتحت أبواب السماء وانهمر وابل من المطر، لدرجة أنني لم أسمع نفسي وأنا أقول لسينثيا: "هل تودين أن أقود السيارة حتى باب المبنى؟".

ردت علــيَّ وسط صوت انهمار المطر: "كلا. هل تريد أنت مني أن أوصلك حتى الباب؟".

ها هو عيب آخر في المرأة العصرية؛ فهي لا تصبح أرق تحت المطر. كانت بزتي أغلــى ثمــناً من ردائها، وهو ما كان يحنقني خلال تلك اللحظات، ولكننا لم ننتظر سوى دقيقة حتى يخفت هدير المطر، إلا أننا قررنا في النهاية أن نهرع إلى داخل المبنى.

كانــت الساحة قد تحولت إلى بركة ماء، لدرجة أنني لم أستطع أن أفهم كيف يفوت أمر كهذا على سلاح المهندسين الذي أنشأ المكان، حتى أننا عندما وصلنا إلى البوابة على مسافة تقل عن خمسين متراً كنا قد أصبحنا غارقين بالكامل في المياه. إلا أنه والحق أقول كان شعوراً منعشاً جداً.

وأخبرنا العريف المناوب في ردهة المبنى بالجديد قائلاً: "لقد حضر إلى هنا شرطي من ميدلاند وترك هذه المتاع لك، سيدي".

كــنت أنفر المياه عن جسدي وأنا أجيبه. "حسناً". لقد أثبت صاحبي بيرت أنه يلتزم بكلمته. سألته: "وأين هي؟... هل هي في غرفتي مهندمة ومعلقة في خزانتي؟".

"كلا سيدي، بل هي هناك على الأرض".

"كم نجمة تمثل مستوى الخدمة في هذا المكان أيها العريف؟".

"في الحقيقة أننا نحتاج إلى نجمة أخرى حتى نبلغ الصفر بالكاد".

"معك حق. هل من رسائل لي؟".

"هـناك رسالتان". وسلمني قصاصتان. إحداهما من كايفر والثانية من زايفر. ذهبت إلـى حيث متاعي، والذي كان يتألف من حقيبتين مدنيتين، وحقيبة عتاد عسكرية، وحقيبة نـوم. عرضت عليّ سينثيا أن تساعدني فحملت عني حقيبة مع حقيبة النوم. وصعدنا معاً سلم المدخل، وخلال بضع دقائق كنا داخل غرفتي فألقينا بالمتاع على أرضيتها.

كانـت سينثيا تلهث وهي تقول: "سوف أذهب لأغير ملابسي، هل سترد على هاتين الرسالتين؟".

"أجل". ألقيت بسترتي المبللة على مقعد، ثم جلست على الفراش، وخلعت حذائي وأنا أتصل برقم هاتف كايفر المدون في الرسالة. أجابتني امرأة: "هذه سرية الشرطة العسكرية رقم خمسة أربعة خمسة، العريف المناوب تتحدث".

قلـت قاصـداً التهكم أكثر من قصدي إخفاء هويتي: "معكِ الكولونيل هيلمان... هل يمكن أن أتحدث مع بيكر من فضلك".

"أجل سيدي انتظر لحظة".

كانت سينثيا قد غادرت الغرفة، وبينما كنت أنتظر مسنداً السماعة على كتفي، أخذت أخلـع عني القميص المبتل وربطة العنق وكذلك الجورب والسروال. لقد اختارت بيكر - كايفـر أن تمكث في الثكنات إذن، وهو أمر جيد لتخفي شخصيتها، إلا أنها ليست بالحياة المـريحة هناك. فأنا أعلم أن العريف قد ذهبت لتحضرها بنفسها، وهي الطريقة العسكرية لخدمة تحويل المكالمات الهاتفية.

وأخيراً سمعت صوتها: "بيكر تتحدث يا سيدي".

"هل يمكنك التحدث بحرية؟".

"كـلا سيدي، ولكن يمكن أن أعاود الاتصال بك من هاتف عمومي هنا ما أن تتاح ساعة خدمته. هل أنت في استراحة الضباط؟".

"أجـل". أغلقت الخط وجلست على الأرض، لأفتح حقيبتي باحثاً عن روب. لقد قام الـوغد ياردلـي بحشر كل شيء داخلها من دون ترتيب، بما في ذلك ملابسي المتسخة، وأحذيتي، بل وعدة الحلاقة. "يا لك من وَغد".

"من هو ذا؟".

نظـرت خلفي لأرى أن سينثيا قد عادت إلى الغرفة، مرتديةً روب كيمونو حريري، وقد جففت شعرها بمنشفة تلفها حوله. قلت لها: "إني أبحث عن روب".

"لنبدأ بترتيب هذه الأشياء". ثم بدأت في تعليق ملابسي بالخزانة، وتقوم بطي بعضها الآخر، وهكذا.

إن النساء شغوفات بهذه العملية، ومن يراقبهن يظن أن الأمر سهلاً، رغم أنني أجد صعوبة في تعليق سروال واحد على شماعة.

أحسست ببلاهتي وأنا أقف مرتدياً سروالي الداخلي فقط، والماء ينساب مني على الأرض، إلا أنني توصلت في النهاية إلى الروب مدسوساً داخل الحقيبة العسكرية، فسارعت بارتدائه وجرس الهاتف يرن. قلت لسينثيا: "إنها كايفر".

التقطت السماعة وقلت: "برينير يتحدث".

لم تكن كايفر، بل كان كال زايفر. قال لي: "بول، لقد تفحصت مخطط تلك الآثار والمجسمات بدقة حتى كدت أصاب بالعمى. ولم أستطع أن أعثر على أي دليل على أن الكولونيل كينت كان بموقع الجريمة قبل الوقت الذي ذكره هو. وبما أننا نعرف ما نبحث عنه الآن فقد قررت أن أطلب من فريق رفع بصمات الأقدام أن يعاود العمل بالموقع من جديد، إلا أن هذا المطر سيعيقهم بالتأكيد".

"وهل تركت أنت أدواتك هناك؟".

"كلا. ربما كان عليَّ أن أفعل هذا، إلا أن الكولونيل كينت قد ذكر بأنه سوف سيكلف أفراداً بحراسة وتأمين المنطقة بالكامل، ويغطيها بالقماش. إلا أنني كنت هناك منذ مدة قصيرة، ولم أجد أي قماش يغطي المكان، ولا أي فرد من أفراد الشرطة العسكرية. فلقد تم تدمير كافة الآثار على أرض موقع الجريمة بالكامل الآن".

"بالتأكيد".

"أنا آسف".

"لا عليك. هل أرسلت المجسم إلى أوكلاند؟".

"بالطبع. إلى جيليم. ومن هناك سيتم إرساله على متن طائرة عسكرية إلى الساحل الغربي. وسوف تأتيني معلومة مع حلول الصباح".

"هذا جيد".

"هل لا زلت تريد حضور فريق رفع البصمات؟".

"ما رأيك أنت؟".

"رأيي أن كل شيء قد محي الآن".

"حسناً، إنسَ الأمر. لقد نلنا كفايتنا من الحظ الحسن على العموم. أين جريس؟".

"إنهـــا لا تفارق جهازها. وتريد مني أن أخبرك بأنها استطاعت التوصل إلى رسالة حديثة من المجني عليها إلى زوجة كينت – وأنت فيما أرى كنت مهتماً بشيء عن كينت".

"ولا زلت. ما هو مضمون تلك الرسالة؟".

"تقــول فحواها بأن الكولونيل كينت كان يبدي تجاهها اهتماماً يفوق علاقة الصداقة العادية، وتطلب من السيدة كينت أن تتحدث مع زوجها قبل أن تقوم هي – النقيب كامبيل – بالــتقدم بــشكوى رسمية تجاهه. بل وقد اقترحت على كليهما أن يستشيرا طبيباً نفسياً بخــصوص علاقــتهما... أنــا عــن نفسي لم أكن سأسعد بوصول مثل هذه الرسالة إلى زوجتي".

"ما هو تاريخ هذه الرسالة؟".

"انتظر لحظة إذن".

كنت أراقب سينثيا وهي تفصل بين ملابسي الداخلية وأدوات حمامي. يا لك من وغد يا ياردلي.

عاد إليَّ كال مجيباً: "العاشر من آب/أغسطس".

أي منذ أحد عشر يوماً، وافترضت أن السيدة كينت قد توجهت من فورها إلى بيثاني هــيل مـــا أن تلقــت هذه الرسالة. كما أن من الواضح أن هذه الرسالة كانت نتيجة لتلك الــزيارة المفاجــئة التي قام بها كينت لمنـــزل آن كامبيل، ناهيك عن تصرفه غير السليم بطـــرده لصديقها ليلاً، وقيامه باغتصاب مضيفته. يا إلهي. إذن فلقد قررت آن كامبيل أن تتخذ رد فعل تجاه ما يقوم به كينت، إلا أنها لم تكن تدري أنها تتعامل مع قنبلة، وأن تلك الرســالة قــد أشــعلت فتيلها. قلت لكال: "أحتاج إلى الحصول على طباعة لهذه الرسالة، واحتفظ بالنسخة المطبوعة معك حتى أتسلمها منك".

أتانـــي صـــوت كال: "حسناً. كما أن هناك ثلاثة من المباحث الفيدرالية بالمكان منذ نصف الساعة".

"هل هم لطفاء".

"إنهــم مــثال للطافة. وقد أثنوا على ما قمت به من تجهيزات هنا، وباركوا لي كل بصمة نجحت في رفعها من مسرح الجريمة. ولقد أخذوا يلقون عليَّ الأسئلة وهم يتفقدون المكـــان على مدى الساعة. أما جريس فقد تظاهرت بالنوم. وكان هناك واحد منهم يعبث بالجهـــاز، إلا أن الأسطوانة كانت مع جريس... قالوا بأنهم سيعودون في الصباح بصحبة فريق البحث الجنائي الخاص بهم".

"حسناً. عليك أن تسلمهم كل شيء بحلول الظهيرة. هل هناك شيء آخر؟".

"كلا. إن الوقت متأخر والجو ممطر بشدة، وأصبحت منهكاً جداً".

"معــك حق. وعليك بترقب رد صاحبنا في أوكلاند. فهذه القضية معلقة على تحديد مــن كان أول من وطئ تلك الأرض. سأحادثك في الغد". أغلقت الخط ونقلت إلى سينثيا في إيجاز مضمون المكالمة، بينما كنت أساعدها فيما كانت تفعله.

كثيــراً ما كان يبيت معي بعض الأصدقاء، أو أن تمكث معي في البيت سيدة لبعض الــوقت. وهم صنفان: المنظم والفوضوي. وربما كان هناك صنف ثالث – المناقر، الذي يفــرض علــيك فرضـــاً أن تــرتب الأشياء، إلا أنني لم أكن أميل إلى أي من المنظم أو الفوضوي، ما لم يحاولا أن يرتبا ملابسي بدلاً عني. والنساء بطبيعتهن يملن إلى الرعاية والعــناية، أمـــا الرجال فمرضى نفسيون بدرجات متفاوتة. وسوف يكون من الأفضل أن يبقـــى كـــلٌ مـــنا ممارساً لدوره الذي فطر عليه. إلا أنه أيٌّ منا لا يفعل هذا، لذا فلا تدوم السعادة بين الرجل والمرأة سوى ستة أو سبعة أشهر، ثم يكتشف كل طرف ما يكرهه في الطرف الآخر، وسرعان ما يدخلان في دوامة الشجار وترك المنـــزل لأحدهما الآخر.

قامت سينثيا بطي آخر زوج من الجوارب وهي تقول لي: "من الذي يعتني بملابسك المتسخة؟".

"أوه، تأتينـــي مدبـــرة منـــــزل. سيدة ريفية، فتقوم بكل ما يلزم أثناء عدم تواجدي بالمنـــزل".

"هل أنت من النوع الذي لا يستطيع أن يخدم نفسه؟".

"فـــي الحقـــيقة نعم، خاصةً مع ملابسي وأدواتي، وأعمال الحياكة، ولكن بوسعي أن أفكك بندقية من طراز إم 16 مغمض العينين، ثم أعيد تركيبها في غضون ثلاث دقائق".

"وهذا ما يمكنني أنا أيضاً أن أقوم به".

"جيد. فلديّ بندقية بالمنـــزل يمكنك أن تنظفيها لي".

رن جـــرس الهاتف، فأشرت إلى سينثيا أن تجيبه. وكانت كايفر، بينما ذهبت أنا إلى الحمـــام وجففت شعري بالمنشفة. كانت سينثيا قد رتبت أدوات حمامي، فصففت شعري، وفرشت أسناني، وخلعت عني سروالي الداخلي من أسفل الروب. وللعلم فهذا ثاني أعظم إحساس ينتاب المرء في هذه الدنيا.

ألقـــيت به في سلة المهملات ومن ثم عدت إلى غرفة النوم. كانت سينثيا تجلس إلى حافة الفراش، تنصت إلى الطرف الآخر، واضعة ساقاً فوق ساق، وتفرك بكفها قدمها. إن لها ساقين جميلتين بالفعل.

نظـــرت إلـــيَّ وهي تبتسم، ثم قالت عبر السماعة: "حسناً. أشكرك، لقد قمت بعمل جـــيد". ثـــم أغلقت السماعة ووقفت. "لقد أثبتت كايفر أنها مفيدة بالفعل. يبدو لنا أن السيدة كينت تقود سيارة من طراز جيب شيروكي، وأن أفراد الشرطة العسكرية يرمزون لها في

رسائلهم عبر الراديو بالسيدة الوطواط، أما السيارة فاسمها السيارة الوطواط. ولقد استمعت كايفر إلى إحدى الرسائل المسجلة على أحد أشرطة المراقبة والتي تشير إلى السيارة الوطواط، حيث تقول الرسالة التابعة لدورية شرطة عسكرية متنقلة: "... السيارة الوطواط بصحبة راندي ستة تتوقف في موقف انتظار المكتبة. انتباه للجميع..".. من الواضح أن هذه رسالة رمزية تبين أن هناك ضابطاً ذا رتبة في المنطقة وهي تهدف لتنبيه أفراد الخدمة لأجل أخذ وضعية الانتباه. كما أن موقع المكتبة - لو لم تكن قد لاحظت - هو عبر الطريق القادم من مبنى القيادة".

"صحيح. متى كانت هذه الرسالة؟".

"في الساعة 00:32. وفي حوالى الساعة 1:00 غادرت آن كامبيل مقر القيادة، واستقلت سيارتها الجيب، ثم انطلقت إلى ساحة الرماية رقم ستة... ما الذي كان كينت يفعله بسيارة زوجته في تلك المنطقة؟".

"ما يفعله كل من أعماه الحب. قابع داخل السيارة منتظراً قدوم الأضواء".

"ربما كان يدور بعقله شيئاً أسوأ من هذا".

"ربما. فربما كان يفكر في أن يتوجه إلى مبنى القيادة ليلقي عليها التحية. أو أنه كان في انتظار أن يفارقها ساينت جون إلى مأمورية ما. أو أن تخرج هي في مأمورية ما، وهو ما حدث بالفعل".

ثنت سينثيا قدمها أسفل جسدها، في وضعية أشبه بجلسة اللوتس. تذكرت أنني أجد صعوبة في الجلوس في هذه الوضعية. جلست على المقعد الوحيد بالغرفة، والمقابل للفراش، ولاحظت أنها لم تخلع سروالها الداخلي. وحينما انتبهت هي إلى نظرتي عدلت من وضع كيمونها. قلت: "لو أن زوجتي قد تسلمت رسالة مثل هذه من عشيقتي، لكنت قد أصبحت في غاية الغضب، ولقطعت علاقتي بتلك العشيقة. أما لو كانت زوجتي قد فارقت البلدة بسبب تلك الرسالة، وكانت عشيقتي في عملها لساعة متأخرة من الليل، فكنت سأعجز عن مقاومة إغراء معاودة مقابلتها من جديد".

"يبدو لي أنك قد مررت بموقف كهذا من قبل".

"جميعنا مر بموقف كهذا".

"لست أنا... فيما عدا ذلك الرجل في بروكسل، وقد بذلت جهدي أن أطارده في كل مكان ذهب إليه، حتى بينت له الحقيقة في نهاية الأمر".

"ربما كان قد تبين الحقيقة بأسرع مما تصورتِ، إلا أنك كنتِ مشكلة".

"لا تعليق لديَّ...". أخذت تفكر للحظات، حتى ظننت أن هناك صلة ما بين جلسة اللوتس وبين التفكير السليم؛ "من الواضح أنه كان يتبعها".

"صحيح. ولكن من الممكن أن يكون قد واجهها في موقف سيارات القيادة أولاً. فهذا ما لا نعرفه".

"ولكن كيف يمكن له أن يتبعها من دون أن ترى سيارته على طريق ساحات الرماية؟".

"لقد كانت سيارة زوجته".

"وهل تعرف آن كامبيل سيارة زوجته؟".

"كل عشيقة تعرف سيارة زوجة عشيقها. إلا أن عدد سيارات الجيب شيروكي في هذه القاعدة لا يحصى، فليس هذا هو السبب. بل أن عائلة فاولر لديها شيروكي، رغم أنها حمراء اللون".

"ورغم هذا يا بول، يبقى السؤال عن المسافة التي يمكن لكينت أن يحافظ عليها بينه وبينها عبر طريق الساحات بحيث يمكنه أن يبقي مصابيح سيارته مضيئة؟".

"ليست بالمسافة البعيدة الكافية". نهضت وأخذت أقلب في جيوب حقيبة النوم، حتى عثرت على قلم سميك. وكانت هناك مساحة بيضاء بين النافذتين، فأخذت أرسم عليها. "حسناً. الطريق يتجه جنوباً من القاعدة المركزية إلى أن ينتهي عند آخر ساحة رماية، على مدى مسافة عشرة أميال تقريباً. ولا يوجد به سوى منعطفين – الأول هنا، عند طريق الجنرال بيرشينج، والقادم من اليسار؛ والثاني على بعد ميل من المنعطف الأول تجاه اليمين، وهو طريق جوردان فيلد، هنا". رسمت طريقاً على الحائط. "حسناً، لقد تبعها وبينهما مسافة معقولة وهو يضيء أنوار كشافاته، وتبين له أنها لم تنعطف يساراً في طريق الجنرال بيرشينج، فظل يتبعها. كما أنها لم تنعطف يميناً في طريق جوردان فيلد، إلا أنه أدرك أن عليه أن يطفئ مصابيح السيارة من هذه النقطة، وإلا علمت بأنه يتبعها. ما رأيك؟".

"هذا منطقي حتى الآن".

"ومن ثم انعطف في جوردان فيلد، ورأته هي في مرآتها فتنفست الصعداء. إلا أن كينت يعلم الآن أنها متوجهة إلى طريق ساحات الرماية حيث لا مقصد سوى نهاية الطريق أو العودة. هل هذا سليم؟".

أمعنت النظر في رسمي على الحائط وهي تقول: "يبدو لي سليماً. وما الذي فعله عندئذ؟ تبعها وأنوار السيارة مطفأة؟ أم مشي أم انتظر؟".

"ما الذي سأفعله أنا لو كنت مكانه؟ إنها ليلة مقمرة، ويمكن لأي أحد أن يرى السيارة من مسافة بضع مئات من الأمتار حتى من دون الأضواء. كما أن للمحرك صوتاً، والأضواء الداخلية التي تعمل عند فتح الأبواب، بل أن أضواء مصابيح الفرامل مرئية من

هذه المسافة نوعاً ما. لذا فليس أمامي سوى أن أترجل وأمشي – أو أهرول. وهكذا انعطف هو بسيارته إلى ما بين أشجار الصنوبر عند تقاطع طريق جوردان فيلد وطريق ساحات الرماية. ومن ثم ترجل واتجه جنوباً في طريق الساحات على قدميه".

"هذه فرضية".

"نوعاً ما. فبها شيء من الحدس والتخمين، وربما هي حل منطقي لمشكلة معلومة. فلقد تدرب كل من في الجيش على نفس النوع من التدريبات الليلية. فعلى الفرد أن يضع في اعتباره كافة احتمالات مهمته، الطقس، المسافات، الوقت، التأمين، وكافة تلك العوامل، كما عليه أن يعلم مثلاً، متى يبقى بداخل وسيلة انتقاله ومتى يترجل عنها ليمشي".

"حسناً، لنقل أنه ترجل عنها ليمشي أو يركض".

"صحيح. كان الوقت حينها ما بين 1:15 و1:30. كان الكولونيل مور قد وصل بالفعل إلى نهاية الطريق منتظراً وصول آن كامبيل. وهو الأمر الذي نعلمه يقيناً. ولم يكن الجنرال كامبيل قد تلقى بعد تلك المكالمة. أما كينت فكان أمامه ضعف الوقت على الطريق، وهو يبحث عن أضواء السيارة الجيب على الطريق. ولكن آن – عند نقطة ما – قررت أن تطفئ أنوار السيارة حيث كانت قد وصلت بالفعل إلى ساحة الرماية رقم ستة والتقت الكولونيل مور". وضعت علامة × لكي أميز منطقة ساحة الرماية رقم ستة.

لم يبدُ لي أن سينثيا التي كانت تجلس إلى الفراش مهتمة بما أقوم به من رسم تصويري. فسألتني: "ما الذي كان بيل كينت يفكر فيه الآن؟ ما هدفه مما يقوم به؟".

"في الحقيقة.. أنه كان في غاية الفضول حول السبب الذي دفعها إلى الخروج وحدها، على الرغم من أنه يعلم أنها قد تكون قررت المرور على نقاط الحراسة. فلو كان الأمر كذلك، فسوف يلتقيها وهي عائدة، ليوقفها ويواجهها. فلا ننسى أن لديه ميل مرضي إلى الاغتصاب، فربما كان يفكر في تكرار ما كان قد فعله منذ أسابيع مضت".

"ولكنها مسلحة".

"وهو أيضاً كذلك.. فحتى في علاقات عصرنا الحالي يعلم الطرفان أن من غير الجيد أن يرفع أحدهما سلاحه تجاه الآخر. وخاصة لو كان مسلحاً بدوره. إلا أنه كان يرى أن بوسعه السيطرة على الأمر. أو ربما كان هدفه أن يتحدث معها فقط".

"ربما. إلا أنني لو كنت مكانها لما كانت بي رغبة في لقاء عشيق سابق. بل قد أصدمه بالسيارة".

"سوف لا أنسى هذه الملحوظة بالتأكيد. إلا أن صاحبنا لم يكن له علم بطريقة تفكير النساء. فلم يستطع أن يتفهم حقيقة شعورها نحوه لو علمت بأنه كان يتبعها. فلم يفكر سوى في أنهما عشيقان، وهو أمر يهمه. كما أن زوجته ليست في البلدة، وهو مهووس بعشيقته،

أحمق هائج. فهو في غاية الشوق إلى ممارسة الجنس معها، بطريقة أو بأخرى. فيمكننا أن نقول بأن الجنس قد تملكه".

"وهكذا توجه مشياً إلى نهاية الطريق المظلم وحده، باحثاً عن سيارتها".

"أجل. أما الشيء الآخر مما طرأ على عقله فهو أنها قد تكون قد خرجت إلى هناك لأجل لقاء غرامي مع عشيق آخر. وهو لم يكن من الأمور الشاذة على شخصية مثل آن، وكان يتلهف ليرى أثر المفاجأة عليها حينما يقتحم عليها خلوتها مع عشيقها، وهو المجنون بالغيرة. أهذا تفكير منطقي في نظرك؟".

"لو كان هذا رأيك فلا مشكلة لدي".

"حسناً، الساعة الآن هي 2:15 تقريباً، والكولونيل مور أجرى مكالمته المسجلة بالجنرال، وقام بتقييد آن كامبيل إلى الأرض، وذهب ينتظر بالقرب من الحمامات حتى ظهور الجنرال. ولا يزال بيل كينت في طريقه ملتزماً التعليمات. فهو يعلم أن بمقدوره أن يرى أضواء السيارة على مسافة لا تقل عن نصف الميل وسط هذا الظلام، وعلى طريق مستقيم، لذا فلو قلنا أن سيارة تسير بسرعة خمسة وأربعين ميلاً في الساعة فيمكن أن تفاجئه خلال أقل من دقيقة، ما لم يرَ أضواءها أولاً. فكان عليه أن يلتفت خلفه كل ثلاثين ثانية. وفي الساعة 2:15 رأى أضواء سيارة تأتي من خلفه، فاختبأ في جانب الطريق منتظراً مرور السيارة".

"يعتقد أن هذا هو عشيقها".

"ربما. فربما كان يفضل – بتفكيره الشاذ – أن يضبطهما في وضع تلبس. فهو يمتلك سلطة مكنته من أن يطرد الميجور بويس من منزل آن، ومن ثم اغتصابها. فنحن أمام رجل مضطرب ومختل يظن أن آن كامبيل ستتجاوب مع سلوكه الشاذ العنيف أياً كان. ألست على حق؟".

أومأت برأسها: "هناك من هم على هذه الشاكلة. فأجد أن نصف عدد من استجوبتهم من المغتصبين يزعمون بأن الضحية قد استمتعت بما فعلوه بها. أما الضحايا فقد نفين هذا تماماً".

"صحيح. ولكن علينا أن نكون عادلين مع بيل كينت، حيث إن آن كامبيل قد سايرته في تصوراته هذه".

"معك حق. ولكن من المؤكد أن تلك الرسالة إلى زوجته قد أعلمته بأن أمره معها قد انتهى. ولكن، حسناً.. ليكن على ما هو عليه من جنون. فها هو قد رأى السيارة تمر".

"صحيح. مرت السيارة بالطريق عند حوالى الساعة 2:15 وأضواؤها منارة. كانت هذه هي الأضواء التي رأتها روبينز، حيث إن مور كان قد سار بسيارته آخر ميل من

دون أضـــواء، وكذلك فعلت آن كامبيل. أما الجنرال فلم يفعل هذا. مرت سيارة الجنرال، ورفـــع كيـــنت رأســـه مستطلعاً، وربما يكون أو لا يكون قد تعرف على السيارة البويك الخاصة بالسيدة كامبيل".

هـــنا علقـــت سينثيا: "لدينا الآن شخصان عاليا الرتبة والمنصب - الكولونيل كينت والجنرال كامبيل - يتلصصان ليلاً بسيارات زوجتيهما".

"صـــحيح. فلو كان كل من بالقاعدة يعرف سيارتك، وتبلغ الدوريات بعضها البعض رمزاً بتحركاتك كنوع من السخرية الخفية بك فلا بد من أن تستخدم سيارة بديلة".

"ربمـــا كـــان من الأفضل لي أن أبقى بالمنـــزل. حسناً، هنا أسرع كينت خطاه. في أثـــناء ذلك، كان مور يركض عائداً وحده عبر الممشى الخشبي، ثم استقل سيارته القابعة عـــند ساحة الرماية رقم خمسة ومن ثم إلى الطريق عائداً إلى القاعدة. إلا أنه لم يرَ كينت وهو قادم".

"كـــلا.. إمـــا أن كينت كان قد اجتاز ساحة الرماية رقم خمسة الآن، أو أنه قد رأى أضواء السيارة قادمة من جديد أثناء عبور مور للمنطقة المغطاة بالحصباء، فسارع كينت بالاختـــباء في المنحدر إلى جوار الطريق. وعندئذٍ اعتقد كينت أن عشيقته تستمتع بصحبة عدد من العشاق، بمعدل واحد كل خمس عشرة أو عشرين دقيقة، أو ربما أربكه هذا".

"سواءٌ أكان مرتبكاً أم لا... فإنه كان يفكر في أسوأ الأمور. فلم يخطر بباله أنها قد تكـــون تمـــارس مهـــام عملهـــا فقط، أو أن هناك خطراً محدقاً بها، أو أن لا صلة أصلاً للـــسيارتين بها. بل كان متأكداً من أنها هناك لتمارس الجنس. هل كنت ستفكر في هذا لو كنت مكانه؟".

"بالطبع. فأنا رجل يعتمل في عقله الصغير الكثير من الأمور".

ضحكت سينثيا رغماً عنها: "حسناً... تابع كلامك".

عدت بظهري إلى الوراء في المقعد وأنا أفكر. "حسناً... هنا لا نعلم تحديداً شيئاً عما حدث. فقد قطع كينت المسافة الفاصلة بين الساحة رقم خمسة ورقم ستة، حيث رأى تحت نور القمر سيارتين متوقفتين عند الطريق - السيارة الجيب والأخرى البويك التي كانت قد مرت به. ونعلم أن الوقت هو نفس وقت حوار الأب مع ابنته، أو كان قد انتهى للتو".

قالت سينثيا: "وفي كلتا الحالتين فقد بقي كينت حيثما هو".

"أجل، فنحن نعلم يقيناً أن كينت لم يقتحم هذا المشهد ليكتشف أن قائد البويك هو الجنرال الـــذي جـــاء إلى الساحة رقم ستة. بل راقب كينت من على البعد - لنقل من مسافة مائتي أو ثلاثمائة متر - وربما يكون قد سمع شيئاً ما، لأن الريح كانت تهب من الجنوب. لكنه قرر أن يتحلى بقدر من الذكاء يمنعه من الدخول في مواجهة مسلحة مع رجل آخر".

"أو أن الحــوار بــين الأب وابنته كان قد انتهى، وكان الجنرال قد عاد إلى سيارته بحلول هذا الوقت".

"هــذا ممكن. وهنا اقتربت منه سيارة الجنرال من دون إضاءة فعاود كينت الاختباء في المنحدر إلى جوار الطريق. هذا هو السيناريو الممكن الوحيد - لو كان كينت مترجلاً على قدميه - حيث إن لا الجنرال ولا مور كان قد رأى أية سيارة أخرى".

"وحينما مرت سيارة الجنرال، وقف بيل كينت وسار تجاه سيارة آن كامبيل".

"صــحيح. وكــان يــسير بسرعة كبيرة، وربما ساحباً سلاحه، متأهباً لأي شيء - الاغتصاب أو العشق أو المصالحة أو القتل".

مكثنا لدقيقة، هي جالسة إلى الفراش، وأنا على المقعد، نسمع صوت المطر المنهمر بالخــارج. كنت أتساءل - ومن المؤكد أن سينثيا كانت تتساءل بدورها - عما إذا كان ما نفعلــه هــنا لا يعدو أن يكون إلصاقاً لتهمة برجل بريء. ولكن حتى ولو لم نتوصل إلى التفاصيل الدقيقة حتى الآن، إلا أن الرجل كان قد ذكر أغلب ذلك بنفسه، أو أوحى به إلينا، مــن خــلال أسلوبه، أو حتى نظرات عينيه. قد يكفي قوله كذلك بأنها تستحق ما حل بها، كما أننا لم نثبت أبداً أنه هو الجاني. فهو مساء الظن به من الناحيتين.

تخلــت سينثيا أخيراً عن وضعية اللوتس هذه، لتفرد ساقها على الفراش. قالت: "ووجــد كيــنت أنها مقيدة على أرض ساحة الرماية، وربما كانت لا تزال تبكي، ولم يــستطع أن يحــدد مــا إذا كانت قد تعرضت للاغتصاب، أو أنها في انتظار العشيق التالي".

"مــن يعلم... إلا أن من المؤكد أنه قد اقترب منها ببطء، كما قال كال زايفر، ومن المؤكد أنه قد انحنى عليها، ولم تكن هي سعيدة لرؤيته".

"كانت في غاية الارتياع".

"فــي الحقيقة.. أنها لم تكن من هذا النوع. إلا أنها كانت في وضعية قيدت حركتها. وهو نطق بشيء، ونطقت هي بشيء. فربما كانت قد ظنت أنها ستبقى على وضعيتها هذه لفتــرة انتظار طويلة، بعد أن اعتقدت أن أباها تركها ومضى، وهي تعلم أن ناقلة الحرس لــن تمر قبل الساعة 7:00، وقد فكرت في هذا الاحتمال، ورأت أن ما سيحدث - أي أن يجدها قرابة العشرين حارساً عارية على هذا الوضع - هو ثمن جديد لتخلي والدها عنها مرةً ثانية".

أومــأت ســينثيا قائلةً: "لكنها تعرف بأن أباها سيدرك في نهاية الأمر الشيء نفسه، وسيكون عليه أن يعود لكي يتفادى ما سيلحق به من عار. لذا فقد كانت تريد من كينت أن يرحل على كل حال".

"ربمـــا. فلقــد كان يفسد عليها مخططها. ولقد رأى السونكي منغرساً في الأرض – بافتــراض أن الجنـــرال لم يسحبه – فعرض عليها أن يفك قيدها. أو أنه تصور أنها لن تــستطيع الفكاك من الحوار معه في ظل هذه الظروف، فسألها عما يجري، أو طلب منها أن تتــزوجه، أو أي شيء من هذا القبيل، ومن هنا تطور الحوار، أما آن – التي اعتادت أن يقــيدها الآخرون إلى قوائم الفراش في تلك الغرفة بالقبو – فلم تكن على هذا القدر من الخوف أو الحرج بل كانت غاضبة فارغة الصبر. ونحن لا نعلم بما تبادلاه من حوار".

"قد لا نعلم بمجراه، إلا أننا نعلم نهايته".

"صحيح. فربما قام بجذب الحبل ليجعلها تنظر إليه، أو ربما حاول استثارتها جنسياً بينما يمارس معها اختناق الجنس، وهي حيلة تعلمها منها... إلا أنه قام عند لحظة ما بلف الحبل على عنقها إلى أبعد مدى".

مكثــنا فـــي صمت لدقيقة كاملة، ونحن نقلب الأمور من جميع جوانبها، ثم نهضت ســينثيا قائلةً: "هذا ما حدث بطريقة ما. ثم عاد إلى الطريق، بعدما أدرك أبعاد ما اقترفه، فهرع إلى سيارته الجيب بأقصى ما لديه من سرعة. وربما يكون قد وصل إلى الجيب قبل حتى أن يهرع فاولر مع زوجته إلى المكان، وأسرع بسيارته ووصل إلى بيثاني هيل أثناء خـــروج آل فاولـــر مـــن عـــند منـــزلهما. بل وربما يكون قد مر إلى جوارهما في أحد الـــشوارع. وعـــاد إلى المنـــزل، وأوقف الجيب في المرآب، ودلف إلى المنـــزل، وربما أخـــذ حمامـــاً، ثم انتظر مكالمة هاتفية من الشرطة العسكرية... فأنا أشك في أن يكون قد نام".

"لا علـــم لـــي بهذا، ولكني حينما رأيته بعدها ببضع ساعات كان قد بدا لي مرتاحاً رابط الجأش، إلا أنني أعتقد الآن أنه كان مشتت الانتباه بعض الشيء... فلقد فصل نفسه عـــن الجـــريمة، وهو ما يفعله المجرمون عادةً بعد الساعات الأولى من الجريمة، إلا أن فعلتهم ترتد عليهم كما هو الحال الآن".

"هل بوسعنا إثبات أيٍّ من هذه الافتراضات؟".

"كلا".

"ما الذي علينا أن نقوم به الآن؟".

"أن نواجهه. فقد حان الوقت للمواجهة".

"سوف ينكر كل هذا كليةً، وعندها سينقلب هو علينا مستخدماً سلطاته".

"ربما. بل وربما نكون مخطئين".

كانـــت تقطع الغرفة جيئة وذهاباً، وكأنما تجادل نفسها. ثم توقفت وقالت: "وماذا عن البحث عن المكان الذي أوقف عنده سيارته الجيب؟".

"بالطبع، عند تمام الساعة 5:36... أي أول ضوء. هل عليَّ أن أتصل بك أم أن أهزك من كتفك؟".

تجاهلت تعليقي وهي تتابع: "بالطبع فإن المطر سيمحو آثار الإطارات. إلا أنه لو كان قد داس على بعض الشجيرات، فسوف يكون بوسعنا أن نحدد مكان خروجه عن الطريق".

"قد يزيل هذا بعض الشكوك. إلا أنه لا تزال هناك نسبة كبيرة من الشك، ونحن نريد قطع الشك باليقين".

"ربما تكون هناك بعض من حبات الصنوبر العالقة بسيارته مما يمكن من مضاهاته بما هو موجود في نفس المكان".

"قد نجد هذا لو كان صاحبنا مجنوناً، إلا أنه ليس كذلك. فسيارته دوماً ما تكون في حالة مثالية من النظافة واللمعان".

"تباً".

"علينا أن نواجهه، وعلينا أن نقوم بذلك عند اللحظة المناسبة من الناحية النفسية... في الغد، وبعد مراسم الجنازة. فهذه هي فرصتنا الأولى والأخيرة والوحيدة لننال منه اعترافاً".

أومأت سينثيا برأسها مؤمنةً على كلامي. "فلو كان سيعترف، فسوف يفعلها حينها. فلو كان يريد أن يزيح عبء هذا عن كاهله فسيفضل أن يكون هذا معنا، وليس مع المباحث الفيدرالية".

"هذا سليم".

"حان وقت النوم إذاً". التقطت سماعة الهاتف وطلبت من العريف المناوب أن يتصل بنا في الساعة 4:00 ليوقظنا، وهو ما كان يعني أن أمامي ثلاث ساعات فقط من النوم، هذا لو نجحت في أن أغط في النوم خلال الثواني العشر القادمة. إلا أنني كنت أحمل لها فكرةً أخرى: "لنستحم الآن ونوفر الوقت".

"ولكن...".

يا له من جواب سيئ. ذات مرة قال لي أبي: "تتحكم النساء في سبعين بالمائة من ثروات هذه البلاد، وفي مائة بالمائة من العلاقات الجنسية". كانت سينثيا وأنا خجولان قليلاً، خجل عشيقان سابقان يعاودان علاقتهما من جديد. كما أن كثرة الحديث عن الاغتصاب الجنسي قد أسهمت في أن يكون الجو الرومانسي المفترض مفقوداً، فلا شموع، ولا شراب، ولا موسيقى هنا. فالشيء الوحيد الملازم لنا هو شبح آن كامبيل، والتفكير في أن قاتلها ينام في فراشه في بيثاني هيل، بينما هناك شخصان منهكان بعيدان جداً عن منزلهما. قلت لها: "ربما ليس الوقت ملائماً".

"كـــلا، ولكـــن لننتظر حتى نحتفل بذلك بطريقة خاصة. ليكن هذا خلال عطلة هذا الأسبوع في منـــزلك. ولسوف نسعد لكوننا فضلنا الانتظار".

بالطـــبع، فأنا متلهف منذ الآن بالفعل لكوننا قد قررنا الانتظار. إلا أنني لم أكن في مـــزاج يـــسمح لي بالجدال، كما أنني لم أكون أمتلك مهارة إغواء النساء. لذا فقد تثاءبت وألقيت أغطية فراشي بعيداً، وقلت: "بون سوار.. كما نقولها في بروكسل".

"طابـــت ليلـــتك..." توجهت إلى باب الحمام، ثم – وكما فعلت في المرة السابقة – التفتت إليّ قائلةً: "هذا شيء يستحق أن ننتظره".

"معـــكِ حـــق". أطفأت ضوء المصباح، وخلعت عني الروب، واستلقيت عارياً في فراشي.

سمعت صوت خرير الماء في حوض الاستحمام، وصوت المطر بالخارج، وبعض الضحكات في الردهة بالخارج.

ولكني لم أسمع أبداً صوت جرس الهاتف وهو يرن في تمام الساعة 4:00.

الفصل الرابع والثلاثون

كانت سينثيا قد ارتدت ملابسها، والشمس تلقي بأشعتها القوية على النافذة، بينما كنت أشم عبق القهوة.

قعـدت إلى حافة الفراش، فجلست منتصباً، وأعطتني قدحاً بلاستيكياً. "لديهم خدمة تقديم القهوة هنا بالأسفل".

"كم الساعة الآن؟".

"تعدّت السابعة بقليل".

"الـسابعة؟". هممت بأن أخرج عن الفراش، إلا أنني تذكرت بأني عارٍ تماماً. "لماذا لم توقظيني؟".

"كم شخص نحتاج في رأيك لكي نتفقد ذلك الموضع بين الأشجار؟".

"هل ذهبتِ إلى هناك؟ هل وجدتي شيئاً؟".

"بلـى. مـن المؤكد أن هناك سيارة قد خرجت من طريق جوردان فيلد، قبل طريق سـاحات الـرماية بخمـسين متراً. هناك بعض الآثار على اليسار، ورغم أن الأمطار قد أزالـت أيـة آثار للإطارات، إلا أن هناك شجيرات متكسرة الأغصان، بالإضافة إلى أن هناك ما يدل على أن السيارة قد احتكت بجذع شجرة صنوبر منذ فترة ليست بالطويلة".

ارتشفت القهوة وأنا أحاول أن أكسب عقلي صفاءه. كانت سينثيا ترتدي سروالاً من الجينـز وقميـصاً رياضـياً، وبدت نشيطة مقارنة بما أنا عليه. سألتها: "احتكت بجذع شجرة؟".

"أجل. لذا توجهت صوب جوردان فيلد وأيقظت صاحبنا المسكين كال. فتوجه ومعه شـاب معـي إلى حيث المكان، وقاما باستقطاع الجزء الذي احتكت به السيارة من جذع الشجرة".

"و...؟".

"عدنا إلى الهانجر، حيث فحصناه بالمجهر، لنجد آثاراً لطلاء. وكال يعمل الآن على إرسـال ذلـك الجزء إلى فورت جيليم. لقد أخبرته بأننا نشك في سيارة سوداء من طراز جـيب شـيروكي، وذكـر لـي بـأن بوسعهم هناك أن يتأكدوا من هذا من خلال مصنع

السيارات، أو من خلال ملفهم الخاص عن عينات طلاء السيارات من الطرازات المختلفة".

"بالطبع. كما أننا سوف نجد أثر هذا على سيارة السيدة كينت".

"آمل هذا. عندها سيكون لدينا الدليل الذي نحتاج إليه والذي يتفق مع نظريتك حول تحركات كينت".

"صحيح". تثاءبت وأنا أتنحنح. "ولكن المؤسف أنه لو كان الطلاء بالفعل يخص شيروكي سوداء، فإن هذا لا يثبت سوى أن شيروكي سوداء قد احتكت بالشجرة. إلا أنه أمر يكفي لتأكيد الكثير مما افترضته".

"وأنا أيضاً".

أنهيت القهوة ووضعت القدح على طاولة الفراش. "كنت أود أن أستيقظ معكِ، هل حاولتِ إيقاظي؟".

"كلا... لقد كنت أشبه بالميت".

"حسناً فعلت".

"أشكرك. كما قمتِ بأخذ حذائك العسكري إلى كال، وقد ضاهى بينه وبين آثار مجهولة الهوية فوجدها تتطابق".

"شكراً. ها قد أصبحت واحد من بين المشتبه بهم".

"ليس بعد. إلا أن كال لم يستبعد آثار حذائك".

"فهل قام بتلميعه على الأقل؟".

تجاهلت تعليقي الساخر هذا وقالت: "لدى كال برنامج كومبيوتر حصل عليه من فورت جيليم، وهو يقوم ببرمجة الجهاز في الهانجر لكي يبين خطوات كل شخص حددنا هويته أو لم نحدد هويته. ولقد أعطيت كال موجزاً بما نعتقد أنه قد حدث في تلك الليلة". ثم نهضت واتجهت صوب النافذة. "لقد توقف المطر. وأشرقت الشمس. وهو أمر جيد لتلك المزروعات، ولمراسم الجنازة بالطبع".

لاحظت أن هناك ورقة على الفراش فالتقطتها. لقد كانت تلك الرسالة التي أرسلتها آن كامبيل إلى السيدة كينت. "عزيزتي السيدة كينت، أكتب إليكِ بخصوص علاقة نشأت بيني وبين زوجك..." وكانت الرسالة تنتهي كالتالي:

"ومع أني أحترم زوجك من الناحية العسكرية ولفارق الرتبة، إلا أنني لا أهتم به أبداً من الناحية الشخصية. وأنا أقترح عليه أن يستشير طبيباً نفسياً ليخرجه من الحالة التي هو بها، سواءٌ تمّ هذا وحده أو بصحبتك أنتِ أيضاً، وربما كان عليه أن يتقدم بطلب لنقله من

هــذه القاعدة، أو أن يتقدم بطلب إجازة طويلة. فأنا أخشى على منصبه، وسمعته، وكذلك سـمعتي، كمـا أخشى من أن تتبادر إلى الأسماع مثل تلك الأمور التي تسيء إلى سمعة القاعدة التي يتولى والديَّ قيادتها.. المخلصة، آن كامبيل".

قرأت العبارة الأخيرة بصوت عالٍ وأنا أكاد أضحك، فالتفتت سينثيا إليَّ معلقةً: "أنا أعترف لها بأنها كانت شجاعة".

ألقيت بالرسالة على الطاولة. "أنا متيقن من أن كينت قد قرأ الرسالة الأصلية، وهو الأمر الذي أثار غضبه. على كلٍ، هل تلقى كال رداً من صاحبه في أوكلاند؟".

"ليس بعد".

"حسناً، عليَّ أن أغادر الفراش الآن، إلا أنني عارٍ".

ألقـت سـينثيا بالـروب إليَّ وأعطتني ظهرها وهي تنظر من النافذة. خرجت من الفراش وارتديت الروب متجهاً صوب الحمام، حيث غسلت وجهي وحلقت ذقني.

رنَّ جـرس الهاتـف بالغرفة، وردت سينثيا. لم يسعني أن أسمع شيئاً بسبب خرير الماء، إلا أن سينثيا ظهرت برأسها عبر باب الحمام لتقول: "لقد كان كارل".

"وما الذي يريده؟".

"لقد سأل عما إذا كان قد طلب الغرفة الخطأ".

"أوه...".

"إنه في أطلانطا. وسوف يصل إلى هنا بحلول الساعة 10:00".

"عاودي الاتصال به وأخبريه بأن لدينا أعاصير بالمنطقة هنا إذن".

"إنه في الطريق".

"عظـيم.. عظيم". أنهيت الحلاقة وبدأت في تفريش أسناني. كانت سينثيا قد عادت إلى الغرفة. ومع خرير مياه حوض الاستحمام سمعت رنين جرس الهاتف من جديد ولكن فـي غرفتها هي هذه المرة. لم أكن أظن أنها ستسمعه، لذا فقد خرجت لأنظر في غرفتي، فـوجدتها تـتحدث في هاتفي. لذا اعتقدت أن من الضروري أن أرد على الهاتف الآخر. "مرحباً؟".

جاوبني صوت رجل يتساءل: "من هذا؟".

"من أنت؟".

"أنا الميجور شولته. ما الذي تفعله في غرفة زوجتي؟".

هــذا سؤال وجيه. كان بوسعي أن أخبره بأن المناوب قد حوله إلى الرقم الخطأ، وكان في وسعي أن أرد بغير هذا، إلا أنني قلت: "أنا أقوم هنا بمثل ما قمت به في بروكسل".

"ماذا؟ ما الذي... برينير؟ هل أنت برينير؟".

"في خدمتك أيها الميجور".

"أيها الوغد. لقد حكمت على نفسك بالموت. أتعلم هذا؟ أنت ميت".

"لقد كانت أمامك الفرصة في بروكسل، والفرصة لا تتأتى سوى مرة واحدة".

"أيها الوغد".

"الآنسة صنهيل ليست هنا، هل لك أن تترك لها رسالة؟".

"أين هي؟".

"في الحمام".

"تباً لك أيها الوغد".

ما الذي يثير حفيظة ذلك الرجل ما دام سيحصل على الطلاق ولديه صديقته؟ إن الرجال أحياناً ما يكونون بلهاء بالفعل، فهم يبقون على تصورهم بأن زوجاتهم ملكاً لهم، حتى لو حدث الطلاق. ولكن مهلاً... أشعر أن هناك شيئاً غير منطقي هنا، كما أنه يراودني نفس الإحساس الذي أشعر به حينما أرتكب حماقة ما.

جاوبني الميجور شولته: "كم أنت أحمق يا برينير".

سألته: "ألست وسينثيا في سبيل الطلاق؟".

"طلاق؟ من هو المعتوه الذي قال لك هذا؟ أحضر لي تلك العاهرة حتى أكلمها".

"أو الانفصال؟".

"أعطني إياها... الآن!".

"انتظر لحظة". وضعت السماعة على الفراش وأنا أفكر في الكثير من الأمور. إن الحياة أحياناً ما تكون مقززة، ثم تصبح أحلى ليعاود المرء التفاؤل بها من جديد، ويعود الربيع إلى حياتك، ولكن سرعان ما يسحب شخص ما السجادة من تحت قدميك، لتجد نفسك وقد وقعت على ظهرك من جديد. عدت إليه لأقول: "سوف أطلب منها أن تتصل بك".

"من الأفضل لكما هذا، أيها الـ...".

أغلقت الخط وعدت إلى الحمام. خلعت عني الروب ودخلت إلى حوض الاستحمام.

نادت عليَّ سينثيا من عند الباب قائلةً: "لقد اتصلت بمدرسة الحرب النفسية وتأكدت من أن الكولونيل مور قد بات ليلته هناك. وتركت له رسالة ليلتقينا بمكتبنا خلال ساعة. اتفقنا؟".

"اتفقنا".

"لقد أعددت لك زيك العسكري. فلا بد من أن نرتديه أثناء المراسم".

"أشكرك".

"سوف أذهب أنا لأرتدي زيي".

"حسناً".

كنت أراها عبر الزجاج، وهي تتجه إلى غرفتها عبر الحمام. ثم أغلقت الباب، فأوقفت الماء وخرجت.

بحلول الساعة 8:00 كنا قد ارتدينا زينا العسكري الأساسي، وبداخل سيارتي، متجهين صوب مبنى القيادة. سألتني سينثيا: "هل هناك ما يشغل بالك؟".

"كلا".

تناولت قدحاً آخر من القهوة عند وصولنا المكتب ثم استطلعت رسائل الهاتف والمذكرات. حضر الكولونيل مور وهو مرهق قليلاً، إلا أنه كان يرتدي زيه الأساسي ليحضر المراسم. وقد نجح في إحضار حذاء مناسب بطريقة أو بأخرى. طلبت منه سينثيا أن يجلس. أما أنا فقد قلت له من دون مقدمات: "لدينا أيها الكولونيل أسباب تدفعنا إلى الشك في أن الكولونيل كينت هو الذي قتل آن كامبيل".

بدا عليه الاندهاش، بل ويكاد يكون قد صدم، إلا أنه لم يرد.

"هل تجد هذا منطقياً؟".

فكر في هذا السؤال لفترة، قبل أن يرد: "لقد كان يمثل لها مشكلة، ولكن...".

"ما الذي قالته آن لك عنه؟".

"... قالت.. أنه يطاردها بمكالماته في جميع الأوقات، وأنه يرسل إليها بالكثير من الخطابات، ويأتي إلى منزلها من دون مواعيد مسبقة وكذلك إلى مكتبها".

فسألته. "ألم تذكر لك في الليلة التي لقت خلالها مصرعها – وحينما اتصلت أنت بها في مكتبها – أنه كان قد جاء ليسأل عنها أو ليراها أو أنه قد اتصل بها؟".

فكر للحظات، ثم قال: "في الحقيقة أن ما ذكرته لي هو أنها لن تستقل سيارتها البي إم دبليو تلك الليلة، وقد كانت هذه هي الخطة الأصلية، لذا طلبت مني أن أبحث عن سيارة جيب مناسبة. وذكرت أن بيل كينت قد عاد إلى إزعاجه لها من جديد، وأنها ستستقل السيارة الجيب حتى لا تلفت نظره إليها، وأنها تريد أن يتبين الجميع أن سيارتها البي إم دبليو بموقف السيارات طوال الليل. وقد مثل لي هذا مشكلة لأن سيارتها كان بها هاتفاً، كما أن لديَّ هاتفاً محمولاً، وكنا ننوي أن نبقى على اتصال ببعضنا البعض طيلة الوقت. إلا أنها لم تكن مشكلة جذرية على أية حال، وهكذا قادت السيارة الجيب وتوجهنا حسب الموعد المخطط له".

سألته سينثيا: "هل أتت على ذكر كينت أثناء لقاءكما؟".

"كلا...".

"هل ذكرت لك بأنها قد شعرت بأن هناك من يراقبها؟".

"كـــلا... ولكنها قالت بأنها قد رأت سيارة قادمة خلفها، إلا أنها انعطفت في طريق جـــوردان فـــيلد... لقد كانت تشعر بأن كل شيء يسير وفقاً لما خططنا له، فأجريت تلك المكالمة بوالدها".

قالت له سينثيا: "وهكذا توجهت إلى ساحة الرماية؟".

"أجل".

قالت: "وهل خطر لك.. أن الكولونيل كينت قد يحضر إلى المكان؟".

ســكت لحظات، ثم أجابها: "أعتقد أن هذا قد خطر لي. فقد بدا لي أنه يطاردها في كل مكان".

"ولم يخطر لك رغم هذا أنه قد يتتبعها إلى هناك فيقتلها؟".

"أعتقد... أنني يمكن أن أفكر في شيء كهذا الآن..".

بادرته بقولي: "يا لك من حاد الذكاء أيها الكولونيل".

بدا لي أنه قد تضايق من تعليقي، فقال: "لقد ظننت أن الجنرال هو من... في الحقيقة أنني لم أعد أدري بالذي عليَّ أن أفكر فيه. فقد كان أول ما خطر لي عندما سمعت بمقتلها هـــو أن والدها هو من فعلها... إلا أنه خطر لي أيضاً أن والدها قد تركها ومضى، فجاء شخص آخر... مجنون... تصادف وجوده هناك... لم يخطر كينت ببالي مطلقاً...".

"لماذا؟".

"ربما... لكونه.. قائد الشرطة العسكرية.. ورجلاً متزوجاً... ولأنه يحبها... ولكن، ولكنني أجد الآن أن جميع هذه الأسباب هي نفسها التي يمكن أن تدفعه لقتلها. أقصد أنه – مـــن الناحـــية – السيكولوجية قد أصبح واقعاً في أسر تملكه لها ولاعقلانياً. كما أن آن قد فقدت سيطرتها عليه".

علقت: "لقد صنعت آن منه وحشاً".

"بالفعل".

"وهل كانت هي مدركة لذلك؟".

"نوعاً ما. إلا أنها لم تكن معتادة على التعامل مع من تفقد السيطرة عليهم. هذا فيما عدا والدها، وربما ويس ياردلي. ولو نظرنا للأمور الآن لوجدنا أنها قد أساءت تقدير بيل كينت ولم تعطه الاهتمام الذي يستحقه".

"أي أنها افتقرت إلى أساسيات التعامل مع العقليات الشاذة".

لم يرد على تعليقي هذا.

"حسناً... ما أود منك أن تقوم به هو أن تعود إلى مكتبك لتكتب تقريراً عن كل هذا".

"أكتب ماذا؟".

"كـل شــيء. تقييم كامل لدورك في هذه القضية. وسلمه لي عند الكنيسة بعد انتهاء المراسم. واكتبه بسرعة، فأمامك ساعتان، ولا تذكر لأحد أي مما دار بيننا هنا".

نهض الكولونيل مور وانصرف، وقد بدا لي شبحاً لذلك الرجل الذي كنت قد التقيته منذ يومين.

علقــت ســينثيا: "بدت هذه القضية محيرة، وقد بذلنا فيها جميعنا جهداً، إلا أن الحل كان أمام أعيننا طيلة الوقت".

"هذا هو مكمن صعوبتها".

أخــذت ســينثيا تــتحدث في جوانب كثيرة، إلا أنني لم أنطق بحرف، لذا لم تفارق عيناها عينيَّ.

ولتفادي مفاجآت اللحظات الأخيرة التقطت سماعة الهاتف واتصلت بالكولونيل فاولر فــي مقر القيادة الرئيسي. رد عليَّ فوراً، وقلت له: "سيدي الكولونيل، أود أن تقوم بحرق الحــذاءين اللــذين ارتديتاهما أنت وزوجتك عند ساحة الرماية رقم ستة، هذا أولاً. ثانياً، علــيك أنت والجنرال كامبيل أن توحدا قصتكما حول الأحداث. أي أنك لم تذهب أبداً إلى ساحة الرماية. ثالثاً، عليك أن تدبر أمر خروج السيدة فاولر من القاعدة سواء بالسيارة أو بالطائرة بعد مراسم الجنازة مباشرةً".

أجابنــي: "أنــا أقــدر لك كل ما تقوله، إلا أنني أشعر بأن عليَّ أن أكشف عن مدى تورطي في هذا الأمر".

"إن رغبة قائدك الجنرال هي ألا تفعل هذا. ورغبة الجنرال بمثابة الأمر".

"إنه أمر غير قانوني".

"علــيك أن تعتبره جميلاً تسديه – تجاه نفسك، وزوجتك، وعائلتك، والجيش، ولي، ولعائلة كامبيل – عليك أن تنسى الأمر. فكر فيما أقوله لك".

"سوف أفعل بالتأكيد".

"هناك سؤال آخر – هل احتفظت بخاتم ويست بوينت خاصتها؟".

"كلا".

"هل كان هناك سونكي منغرساً في الأرض حينما وصلتما إلى هناك؟".

"لم يكن منغرساً في الأرض، بل كان المقبض بداخل عضوها التناسلي".

"فهمت".

"فنــزعته وتخلصت منه".

"أين؟".

"ألقيــته مــن فــوق جسر نهر تشيكاساو... أفترض أنك كنت تحتاج إليه لمضاهاة بصمات الأصابع".

"بالفعل". ولكن كينت لم يكن ليترك أية بصمات خلفه.

"أنا أعتذر لك، إلا أن هذا هو ما خطر لي وقتها".

"كثيراً ما يحدث هذا".

"إنها فوضى عامة يا برينير. لقد صنعنا جميعاً فوضى عارمة هنا".

"هذه الأمور تحدث".

"لا لــيس بالنــسبة لــي. لم يكن يحدث هذا حتى إن جاءت هي إلى هذا المكان منذ عامين. لكن الخطأ هو خطأنا نحن، وليس خطأها".

"أتفق معك في هذا.. وأنا قد ألقي القبض على الجاني هذه الظهيرة".

"من هو؟".

"ليس بوسعي أن أصرح بهذا. سوف أراك عند المراسم".

"اتفقنا".

أغلقت الخط. ولكن ما أن يعتقد المرء أنه قد نال كفايته من سوء الحظ هذا الصباح، حتــى يجد من يتطوع بإمداده بالمزيد. أما صاحبنا هذه المرة فهو ميجور شرطة عسكرية اســمه دويل، حيث حضر إلى المكتب ولمح سينثيا وهو يقول لي: "سيد برينير، لقد وقعت أمراً بإطلاق سراح الرقيب دلبيرت إيلكينــز. أليس كذلك؟".

"بالفعل سيدي".

"لقد وجدناه في ثكنات سرية الشرطة العسكرية".

"حسناً". وماذا في هذا؟

"وفقــاً لبنود هذا الأمر، فإن من الواجب عليه أن يوقع بالحضور في مكتب السرية كل ثلاث ساعات".

"يبدو لي هذا معقولاً".

"إلا أنه لم يوقع في الساعة 8:00".

يا إلهي. "ماذا؟".

"ولم يره أحد منذئذٍ".

نظرت لي سينثيا، ثم تحولت بنظرها إلى الناحية الأخرى.

وأضاف الميجور دويل: "لقد وزعنا منشوراً بما حدث، وأعلمنا شرطة ميدلاند، وشرطة المقاطعة، وشرطة ولاية جورجيا... وقائد التحقيقات العسكرية، الميجور بويس، يطلب منك تقريراً مفصلاً عما حدث". ثم ابتسم في تشفٍ وهو يضيف: "لقد أفسدت تلك القضية". بعدها انصرف.

أخذت أنظر شذراً إلى لا شيء لبرهة من الوقت، حتى قالت سينثيا في النهاية: "لقد حدث لي هذا ذات مرة".

لم أرد.

"إلا أنها حدثت لي فقط مرة واحدة. لا تكفي لأن نحكم من خلالها على طبائع البشر".

هل تودين الرهان إذن؟ إن التوقيت أهم شيء، وهذا هو أنسب وقت لأذكر لها فيه أمر مكالمة زوجها معي، لكن توقيت كارل هيلمان لم يكن جيداً، فقد تخير هذه اللحظة بالذات كي يحضر فيها إلى المكان.

نهضت أنا وسينثيا والرجل الكبير يدلف إلى هذا المكتب المتواضع. أومأ لنا برأسه، وهو يتطلع إلى ما حوله، ثم تصافحنا. ولأن سينثيا هي الأقل رتبة بيننا، فقد تخلت له عن مقعدها، وجلست أنا إلى مكتبي، بينما جلست سينثيا إلى مقعد صغير.

كان كارل يرتدي زيه العسكري الأخضر – مثلنا نحن – ووضع قبعته على سطح المكتب.

لقد كان كارل – مثلي– من بين أفراد سلاح المشاة، كما شارك كلانا في حرب فيتنام في وقت متزامن. ويتشابه زيي وزيه في ما يحمله من أوسمة ونياشين، بما في ذلك نجمة الشجاعة البرونزية وشارة سلاح المشاة القتالية. ولكوننا أبناء نفس المدرسة العسكرية، ومن سن مقارب، فإننا عادةً ما نرفع التكليف بيننا. إلا أنني لم أكن في مزاج جيد منذ الصباح، لذا عمدت إلى أن ألتزم بالرسميات. فقلت له: "هل تريد قهوة يا سيدي؟".

"كلا، أشكرك".

كان كارل رجلاً وسيماً أشيب الشعر، ذا فك بارزة قاسية، وعينين زرقاوين. إلا أن النساء لا يجدن فيه جاذبية. ربما كان هذا لأسلوبه معهن، وهو أسلوب صارم ورسمي. والحقيقة أنه شديد التزمت، كما أنه سريع الانفعال. إلا أنه محترف متمرس في العسكرية.

تبادلنا المجاملات لبضع ثوانٍ، ثم قال كارل لي بلكنته المميزة: "لقد عرفت أن شاهدنا الرئيسي في قضية بيع الأسلحة قد هرب".

"أجل سيدي".

"هل تذكر السبب الذي قلته لي حينما أردت إطلاق سراحه؟".

"ليس الآن سيدي".

"إن المرء ليتساءل عن السبب الذي يمكن أن يدفع شخصاً تم منحه مثل هذه الحصانة إلى أن يرتكب مثل هذه الحماقة ويهرب..".

"وأنا لا زلت أتساءل".

"هل عرفته بما يتمتع به من حصانة؟".

"أجل سيدي، إلا أن من الواضح أن شرحي لم يكن وافياً".

"أنت تعلم يا بول أن هذه مشكلة، أن تتعامل مع الأغبياء. فلقد أسديت ذكاءك وعقلانيتك لأجل شخص أحمق بالكلية، فخيب ظنك. إنه شخص جاهل رعديد، وعبد لغرائزه. وجد أبواب السجن مفتوحة، فهرب".

تنحنحت وقلت: "لقد اعتقدت بأني قد حزت على ثقته".

"بالطبع. فهذا ما أراد أن يجعلك تعتقده حينما كان مسجوناً. إنهم محتالون".

"أجل سيدي".

"ربما عليك أن تأخذ رأيي في المرات القادمة، قبل أن تأمر بإطلاق سراح سجين في قضية مثل هذه".

"لقد كان مجرد شاهد يا سيدي".

هنا مال كارل ناحيتي قائلاً: "إنه لم يكن يدري الفارق هذا من الأصل.كل ما فهمه أنك وضعته في السجن، ثم أطلقت سراحه، فهرب".

"أجل سيدي".

"إن المادة 96 من ميثاق العدالة العسكرية تتناول الإطلاق الخاطئ لسراح السجين عمداً أو بالخطأ. وأنت في ورطة لا يستهان بها".

"بالفعل سيدي".

عاد بظهره إلى الوراء. "أخبراني الآن، ما هي آخر التطورات في قضيتكما؟".

كنت سأبدأ بأن أبين له أنه لم تتح لي فرصة ممارسة الجنس مع سينثيا حتى الآن، وأنها كذبت عليَّ بخصوص علاقتها مع زوجها، وأنني في غاية الغضب لهذا السبب، وأنني لا أستطيع أن أتخلص من التفكير في آن كامبيل، وأن مارشال هذا المبنى هو القاتل في الأغلب، وأن ديلبيرت قد ورطني، وأن يومي بدايته سيئة.

تحول هيلمان إلى سينثيا قائلاً: "ربما ستتحدثين عنها".

"بالطبع سيدي"، بدأت سينثيا حديثها باستعراض أدلة البحث الجنائي، وما وجدته جريس ديكسون بجهاز كومبيوتر آن، وعن آل ياردلي، وتورط الميجور بويس في الأمر، وكذلك الكولونيل ويمز، وغيرهما من كبار الضباط.

وأنصت لها كارل.

ثم أخبرته سينثيا بصيغة أخرى بحواراتنا مع الجنرال كامبيل، والسيدة كامبيل، والكولونيل فاولر والسيدة فاولر، ومع الكولونيل مور. لم أعلق بشيء. إلا أنني لاحظت أنها لم تذكر أي شيء عن الدور الرئيسي للكولونيل فاولر وزوجته في تلك الأحداث، أو عن غرفة القبو بمنزل آن كامبيل، بل لم تأتِ على ذكر بيل كينت على الإطلاق. وأدركت أنها قد اتبعت نفس الأسلوب الذي كنت سأتبعه لو كنت أنا من سرد الوقائع عليه، فأعجبت بداخلي من قدر ما تعلمته مني خلال اليومين الماضيين. قالت سينثيا لكارل: "وهكذا ترى أن للأمر علاقة بالثأر والمجازاة وبتجربة غريبة الأطوار في مجال عمليات الحرب النفسية، وبما حدث في ويست بوينت منذ عقد مضى".

هزّ كارل رأسه متفهماً.

ووجدت أن سينثيا لم تذكر فريدريش نيتشه، في سياق حديثها عن فلسفة آن كامبيل في الحياة. ولقد بدا كارل مهتماً بهذه النقطة، وأدركت أن سينثيا تجيد فن جذب انتباه المستمع.

بعدها مكث كارل برهة من الوقت يتأمل الكلام، وقد عقد أصابعه وكأنما هو حكيم يهم بإلقاء إجابة لغز هذه الحياة. واختتمت سينثيا كلامها، "لقد أبلى بول بلاءً حسناً، ولقد اكتسبت الكثير من الخبرات خلال فترة عملي معه هذه".

أوه.

مكث كارل بلا حراك لدقيقة، وبدا لي أن الحكيم لا يدري ما يقول. كانت سينثيا تحاول أن تدفعني إلى النظر إليها، إلا أنني رفضت أن أنظر إليها.

وفي النهاية تحدث الكولونيل هيلمان: "بالفعل إنه نيتشه. إن المرأة أكثر همجية من الرجل في الحب والانتقام على حد سواء".

سألته: "هل هذا قول نيتشه يا سيدي، أم رأيك الشخصي؟".

نظر إليَّ نظرة غريبة. ثم قال لسينثيا: "جيد جداً. لقد عرضتِ الدوافع، وهي هذا الفساد العام، وكل هذه الأسرار هنا".

"أشكرك".

ثم نظر إليَّ، وإلى ساعته: "أليس علينا أن نتوجه إلى الكنيسة؟".

"أجل سيدي".

نهض ونهضنا بدورنا. ارتدينا قبعاتنا وخرجنا خلفه.

دلفنا جميعاً إلى داخل سيارتي، حيث جلس كارل في الخلف وحده. وسألني وأنا أتوجه نحو الكنيسة: "هل توصلت إلى الجاني؟".

"أعتقد هذا".

"هل يهمك أن تطلعني على ما توصلت إليه؟".

وما الذي يهمك في هذا؟. قلت: "لدينا بعض الأدلة الظرفية، وبعض الاعترافات، وبعض الأدلة الجنائية التي تشير إلى أن الجاني هو الكولونيل كينت". نظرت عبر المرآة العاكسة لأرى عينيه وقد اتسعتا فجأةً عن آخرهما. على أنه نجح في الحفاظ على هدوئه وأنا أضيف: "المارشال".

سألني كارل بعد أن أفاق من الدهشة: "هل أنتما على استعداد للتقدم باتهام رسمي؟".

"كلا، بل سوف أولي هذه المهمة للمباحث الفيدرالية". أشكرك لأنك قد أتحت لي فرصة التلاعب هذه يا كارل.

"والسبب؟".

"إن الأمر يحتاج إلى المزيد من البحث والتحقيق".

"أخبرني إذن بما تعلمانه".

دخلت إلى ساحة الانتظار الخاصة بالكنيسة، وهي المبنية على الطراز الجورجي الحجري، لتتناسب مع عقد الزيجات العسكرية، ومراسم التأبين، وطقوس يوم الأحد، والصلوات قبل توجه القوات إلى ساحات الحروب. ترجلنا من السيارة ووقفنا تحت الشمس الساخنة. كانت الساحة تكاد تكون ممتلئة، وكان هناك الكثيرون ممن أوقفوا سياراتهم على الطريق أو فوق العشب.

تناولت سينثيا ورقة من حقيبة يدها وناولتها لكارل، وهي تقول: "كان هذا مما وجدناه مخزناً في كومبيوتر آن كامبيل. رسالة منها إلى السيدة كينت".

قرأ كارل الرسالة، وهو يومئ برأسه، ثم أعادها إلى سينثيا. "أستطيع تفهم سبب غضب الكولونيل كينت وإحساسه بالمهانة لوصول مثل هذه الرسالة ليد زوجته. ولكن هل يمكن أن يدفعه هذا إلى القتل؟". في هذه اللحظة بالذات مر علينا الكولونيل كينت وهو يلوح لنا بيده. قالت سينثيا لكارل: "هذا هو الكولونيل كينت".

راقبه كارل وهو يسير نحو الكنيسة، وعلق قائلاً: "لا يبدو لي أنه يشعر بأنه متورط في شيء ما".

قالت سينثيا: "إنه على وشك الاقتناع بأن ما فعله كان صواباً، ومن ثم سيبادر بإخبارنا الشيء نفسه".

هزّ رأسه قائلاً: "أجل، فهذا هو سر هذه المهنة – ألا تواجه المجرم بمسألة ما إذا كان ما فعله صواب أو خطأ، بل أن تتيح له فرصة أن يعلل الأسباب التي دفعته إلى ارتكاب جرمه... ما هي الأدلة الأخرى التي بجعبتك؟".

سردت عليه سينثيا موجزاً لمحتوى تلك المذكرات، والشكوك حول آثار الأقدام، وتلك الجيب وسط شجيرات الصنوبر، ونقاشنا حول المشتبه به. وأنهت كلامها قائلةً: "لديه الدافع، والفرصة، وربما القدرة على ارتكاب الجريمة، لحظتها على الأقل. فهو ليس قاتل بطبعه، لكنه شرطي، وبالتالي فليس غريباً على جرائم القتل. كما كانت لديه القدرة على التعمية علينا، كونه متدخلاً في التحقيقات – مثل ما قام به من إفساد لمسرح الجريمة بسبب تعمده عدم تغطية المكان – إلا أن حجة غيابه عن مسرح الجريمة ضعيفة وتكاد تنعدم، وهذا هو حال جرائم اللحظة دوماً".

كان هيلمان مقتنعاً بكلمات سينثيا. وبعدها أدلى العظيم بدلوه: "لو كنتما محقين، وبوسعكما إثبات هذا الكلام، تكونا قد أنهيتما القضية قبل أن يتورط الجميع فيها. أما لو كنتما مخطئين، فسوف تدمركما هذه القضية، وتدمر آخرين مع استمرار التحقيق فيها".

ردت سينثيا: "أجل سيدي، وهذا هو السبب في أننا نعمل ليل نهار. إلا أن الأمر قد خرج فعلاً من أيدينا الآن". ونظرت إليَّ ثم تابعت كلامها: "بول محق في أننا لا نرغب في التقدم باتهام رسمي الآن. فلا مصلحة لنا أو لك أو للتحقيقات العسكرية أو للجيش في هذا".

تأمل كارل لوحة الشطرنج التي رسمها في مخيلته، ثم التفت إليَّ قائلاً: "تبدو لي هادئاً لدرجة تدعو إلى الشك".

"ليس لديَّ ما أقوله، سيدي الكولونيل". كنت أتعمد أن أخاطبه برتبته.

"هل أغضبك هرب ذلك السجين؟".

"هو مجرد شاهد فقط، كما أنني لست غاضباً".

علقت سينثيا: "إنه ممتعض منذ الصباح. حتى من قبل مجيئك إلى هنا". كانت تبتسم في وجهي إلا أن وجهي كان بلا أية انفعالات، فخفتت ابتسامتها. كم أود أن أخرج من هذا المكان، من هادلي كلها، خارج جورجيا، بعيداً عن كل من أعرفهم. قلت: "لن نتمكن من الجلوس لو انتظرنا أكثر من هذا". واستدرت إلى الكنيسة ومشيت.

تبعني كارل ومعه سينثيا. تحدث كارل معها قائلاً: "لا بد من أن تمنحيه فرصة أخيرة كي يعترف".

قالت مداعبة: "أتقصد بول؟".

"كلا يا آنسة صنهيل. قصدت الكولونيل كينت".

"معك حق. لقد فكرنا في هذا".

"إن المجـرم يكـون على استعداد للاعتراف بأفظع الجرائم، لو تم وضعه في الجو العـام الملائم. فالقاتل الذي يقتل من يحب يظل على عاتقه إحساس كبير بالذنب، فيود أن يـشرك غيره هذا الإحساس. وهو يختلف عن المجرمين المحترفين في كونه بلا شركاء، وبـلا أحد يمكن أن يأمنه على السر، فهو معزول، ولا يجد من يفضي إليه بأعظم أسرار حياته".

"أجل سيدي".

"هل تعتقدين أنه كان من قبيل الضرورة أن يسند إليكما كينت مهمة التحقيق في هذه القضية؟ لا أظن هذا، بل هي رغبة دفينة في عقله الباطن تدفعه للبحث عمن يتوصل إلى جريمته".

واصـل كلامـه إليها، ليذكر لها أشياءَ أعرفها من قبل، محفزاً إيانا على أن نواجه المـتهم، الـذي - بالرغم من تضرره من الناحية المهنية - لا يزال يمتلك الرتبة الرفيعة والكثير من الصلاحيات التي يعرف كيف يستغلها. وأخذت أتخيل نفسي في مواجهة لجنة تقصي حقائق، وأنا أحاول أن أقنعهم بأن الكولونيل كينت هو القاتل، بينما يزدرد سبعة من كـبار الضباط لعابهم تحفزاً لالتهامي. إلا أن حماقتي كانت تدفعني دفعاً إلى التجربة. إلا أنني سأستغل كارل إلى آخر لحظة. حتى يأمرني هو بأن أواجه كينت بالتهمة.

نظرت تجاه الكنيسة ولاحظت أن الطقوس المرتبطة بوصول التابوت قد انتهت؛ فلم يكـن حاملو بساط الرحمة واقفين لدى البوابة، بل أن عربة التابوت - التي جاؤوا بها من المتحف - لم تكن تحمل التابوت.

كانـت وسائل الإعلام - تبعاً لمذكرة رأيتها على مكتبي - محصورة في حضورها على عدد مختار من الصحفيين، والمصورون الوحيدونَ هم التابعون لإدارة الاستعلامات العـسكرية. والمذكـرة - التي وقع عليها الكولونيل فاولر - حثت الحاضرين على عدم التحدث إلى الصحافة.

صـعدنا السلالم ودخلنا إلى حيث البهو الرئيسي، حيث احتشد العشرات من الرجال والنساء يتهامسون في جو جنائزي. قمنا بالتوقيع في دفتر التشريفة، ودخلت إلى المصلى المعـتم، والذي لم يكن أخف حرارة من الخارج، ولاحظت أن الأماكن تكاد تكون مكتملة. إن حـضور جـنازة ابنة قائد القاعدة ليس من قبيل الأمر العسكري، إلا أنه مغفل من لا يحضرها، أو يحضر مراسمها الأولى على الأقل.

والحقيقة أن الكنيسة الصغيرة - التي تتسع لما بين خمسمائة وستمائة شخص - لم تكن لتسع جميع ضباط فورت هادلي وزوجاتهم، أو أهالي ميدلاند، فقد كنت واثقاً من أن هناك في جوردان فيلد حشداً ينتظر وصول الجنازة ليحضر آخر لحظاتها.

كانت الموسيقى الجنائزية تنساب في نعومة من مكان فوقنا، ومكثنا في البهو لدقيقة، وأعتقد أن كلاً منا كان ينتظر لحظة المسير إلى حيث التابوت، والذي كان قابعاً عند عتبات المحراب. وبدأت في نهاية الأمر المسيرة الطويلة، وكان خلفي سينثيا وكارل.

اقتربت من التابوت المغلف بالعلم والنصف مفتوح، ووقفت لألقي النظرة الأخيرة على المتوفاة.

بدت آن كامبيل نائمة في سلام، تماماً كما وصف المشهد كينت، رأسها مستند إلى وسادة حريرية وردية، وشعرها مفرود بشكل مروحي حول رأسها ووجهها. ولاحظت أن على وجهها من المساحيق قدر يفوق ما يمكن أن تكون قد وضعته طيلة حياتها.

ألبسها الحانوتي الزي العسكري الليلي الأبيض الذي ترتديه الضابط الأنثى أثناء المهام الرسمية، وقد كان خياراً موفقاً في رأيي، حيث السترة بيضاء الموشاة بتطريز ذهبي، والقميص الأبيض المزركش، فبدت مثالاً للعذرية والطهر. كما وضعوا نياشينها على اليسار من صدرها، ووضعوا سيف ويست بوينت على جسدها بحيث يمكن ليديها المغلفتي الكفين - اللتين قد تقبضان على صليب أو مسبحة صلاة حسب ديانة المتوفي - أن تمسكا عوضاً عن هذا بمقبض السيف. أما النصل فكان مختفياً تحت نصف غطاء التابوت الآخر.

كان المشهد أخاذاً: الوجه الجميل، الشعر الذهبي، التطريز الذهبي، مع لمعان السيف، والزي الأبيض على فراش وردي تم تبطين التابوت به.

أدركت كل تلك التفاصيل سريعاً، ولم تدم نظرتي أكثر من خمس ثوانٍ، ثم رسمت الصليب على التابوت، ومن ثم درت حول التابوت وعدت إلى البهو.

رأيت عائلة كامبيل في أول صفين على يميني: الجنرال، السيدة كامبيل، وشاب عرفت من صور سابقة أنه ابنهما، وغيرهم من أفراد العائلة الكبار والصغار، يرتدون جميعاً أزياء سود وشارات عزاء سوداء، وهي عادة عسكرية لا تزال قائمة.

تفاديت أن تتلاقى أعيننا وتوجهت إلى البهو ببطء حتى يلحق بي رفاقي.

وجدنا ثلاثة أماكن في نفس الصف الذي يجلس به الميجور بويس، والذي لم أعرفه سوى من اسمه على الزي، وسيدة خمنت أنها السيدة بويس. أحنى بويس رأسه محيياً الكولونيل هيلمان، والذي لم يبين لهما أنه يدرك أنه بصحبة خائن ومغفلة. وللمصادفة فقد كانت السيدة بويس بالغة الجمال، ليثبت هذا أن الرجال ليسوا سوى خنازير شرهة.

وبالـــرغم مـــن تلـــك النظرة على الجسد الفاني لفتاة شابة، إلا أنني كنت في مزاج أفضل، كغيري ممن يحمدون حسن حظهم الذي لم يجعلهم من عائلة المتوفي، وكمن لديهم مـــا يـــشغل بـــالهم من هموم العمل، مثل بويس، أو المتهمين في جرائم، مثل كينت، أو المتزوجين عموماً، والمرضى والمحتضرين، والموتى.

كان القس – الميجور إيمز – لا يرتدي سوى الزي العسكري الأخضر من دون أي مما يرصع الزي، وصعد إلى منصة الوعظ، فأخذت الأصوات تتخافت، حتى عمَّ السكون. وبـــدأ المـــيجور كلامه: "أعزائي الأحباء.. لقد اجتمعنا اليوم في حضرة الرب لكي نودع أختنا.. آن كامبيل".

وهنا تعالت أصوات النحيب من كثيرين.

فهمست إلى كارل قائلاً: "لقد كان القس من بين من مارس الجنس معها أيضاً".

هذه المرة فغر كارل فاه. وأيقنت أن اليوم لا يزال يحوي مفاجآته.

الفصل الخامس والثلاثون

تواصلت الطقوس بالصلوات، وعزف الموسيقى، وبعض الترانيم. وبالطبع فإن كبار ضباط الجيش هم من معتادي الذهاب إلى الكنيسة؛ فهذا هو الثالوث الذي يضاف إليه الله والوطن. لكنهم لا يميلون إلى إتباع طائفة بعينها، وهو أمر يؤمن لهم أهدافهم، التي دوماً تجمع بين تحقيق البين بين.

وميزة مراسم الأفراح والجنائز العسكرية هي أن من حقك اختيار ما يناسبك من جميع طقوس الطوائف المختلفة، من ترانيم وصلوات، بل وأن تجعل وقتها قصيراً. ومن خبرتي أقول أن أطول الطقوس هي تلك التابعة للكاثوليك، فهي تطول لمدة تكفي لقتل بعض العجائز إرهاقاً.

على كلٍ، صعد الكولونيل فاولر إلى منصة الخطابة لكي يلقي خطاب الرثاء.

قام الكولونيل فاولر بشكر وتقدير أفراد العائلة والأصدقاء ورفاقه الضباط، وكذلك من حضر من أهالي ميدلاند. وقال: "إننا نسمع ونرى في مهنتنا هذه التي اخترناها – وبشكل يفوق أية مهنة أخرى – عن وفيات مفاجئة للشباب والفتيات. إلا أننا لم نصبح معتادين على الموت، ولم نصبح كذلك بعيدين عنه، بل أصبحنا نحب الحياة ونستمتع بها أكثر لأننا علمنا وقبلنا بحقيقة أن الحياة العسكرية تجعلنا في مواجهة خطر الموت. وحينما أدينا القسم كنا نفهم تماماً أننا نهب حياتنا فداءً لهذا الوطن. وقد فهمت النقيب آن كامبيل هذه الحقيقة حينما قبلت بمهامها في الأكاديمية العسكرية، وفهمت هذا حينما ذهبت إلى الخليج لتحارب، وفهمت هذا حينما تطوعت – في ساعة ينعم معظمنا خلالها بأمن منزله – بتفقد وتأمين نقاط الحراسة في فورت هادلي. لقد كان عملاً تطوعياً تماماً، ولم يكن له أية صلة بنوعية خدمتها التي كانت تؤديها هنا، إلا أنه هذا كان هو أسلوب آن كامبيل، أن تؤدي المهمة دون أن يأمرها أحد بها".

كنت أستمع إليه، وخطر لي أنني لو لم أكن أعلم الحقيقة لكنت قد اقتنعت بهذا الكلام. فنحن الآن أمام فتاة عسكرية شديدة الحماس للقيام بواجباتها كضابط، حتى إنها بادرت بالذهاب لتفقد نقاط الحراسة لتلقى مصرعها وهي تخدم الوطن. يا لها من مأساة. ورغم أن هذا لم يحدث، إلا أن ما حدث في الواقع أشد مأساوية من هذا.

تابـع الكولونـيل فاولر كلمته: "إنني أتذكر الآن كلمات من الكتاب المقدس تقول... أيها الحارس ماذا عن الليل؟.. وكررها.. أيها الحارس ماذا عن الليل؟، فقال الحارس: إن الصباح آت. ألـسنا جميعاً حراساً؟ هذه هي مهمتنا في الحياة كجنود، أن نحرس لنحمي، في كل نهار، وكـل ليلة، ساهرين حتى ينعم الآخرون بنومهم حتى الصباح، إلى أن يأتي اليوم الذي اختاره الرب لنصعد إلى مملكته في السماء، وعندها لن تكون هناك حاجة للسهر والخوف من الليل".

إن فاولر يمتلك صوتاً خطابياً رخيماً، كما أن أسلوب إلقائه متدفق. ومن الواضح أنه كـان ليصبح ناجحاً لو سلك طريق الواعظ، أو كسياسي، لولا كونه شديد الشغف بمفاهيم الحق والباطل.

أنـا لا أجيد الإنصات إلى الكلمات، وكثيراً ما يتشتت انتباهي عنها. لذا سرعان ما سـرح خيالـي بـي إلـى حيث تابوت آن كامبيل المفتوح، إلى وجهها، والسيف، ويديها المطويتين إلى قبضته، وهنا أدركت ما كان خطأً في هذه الصورة: لقد ألبسها أحدهم خاتم ويـست بوينت. ولكن أكان هو خاتمها؟ ولو كان كذلك فمن هو الذي ألبسها إياه؟ هل هو فاولـر؟ أم الجنرال كامبيل؟ أم الكولونيل مور؟ أم هو الكولونيل كينت؟ ومن أين أتى به؟ وهل لهذا أهمية في مسار القضية؟

كـان الكولونيل فاولر لا يزال يلقي كلمته، فعدت أستمع إليه. "لقد عرفت آن كامبيل مـنذ أن كانت طفلة – كانت طفلة شديدة الانطلاق نضجت قبل سنها". ابتسم وسط بعض الضحكات المكتومة. إلا أنه عاد إلى جديته وهو يقول: "لقد كانت طفلة جميلة. ليس جمال الجسد فقط، بل كانت روحها أيضاً جميلة، هبة خاصة من الرب. وجميع من هم هنا ممن عرفوها أو أحبوها...".

مـع لـباقة كلمـات فاولر، إلا أنه لم يستطع أن يخرج من مأزق المعنى المزدوج لكلماتـه، إلا أنهـا كانـت لحظة صمت فيها، أدركها فقط من عشقوها ومن تورطوا في علاقات جنسية معها.

"... جميعنا سيفتقدها كثيراً كثيراً..".

لقـد أبكـت كلمة الكولونيل فاولر الكثيرين الآن، وهنا أدركت سبب إلحاح الجنرال وزوجته عليه أن يلقي هو كلمة الرثاء. وبالطبع فإن السبب الآخر هو أن الكولونيل فاولر لـم يكـن على علاقة غرامية مع الفقيدة، مما يجعله من ضمن القائمة الصغيرة من غير المغـضوب عليهم. ها أنذا أعود للتفكير الماكر مجدداً. إن مرثية فاولر كانت مؤثرة، فلقد عانت الفقيدة من الكثير من الخطايا، حتى ماتت فجأة.

إن الكولونـيل فاولـر لم يركز على وصف الكيفية التي ماتت بها، إلا أنه قال: "إن المـصطلحات العسكرية تعرف أرض المعركة بأنه موقع معادٍ، ومن المؤكد أنه توصيف

سليم. ولو قمنا بتوسيع معنى أرض المعركة ليشتمل على أي مكان يخدم فيه أي جندي، لأمكننا أن نقول وبكل صدق أن آن قد ماتت في أرض معركة". ثم تطلع إلى الحاضرين وختم كلمته قائلاً: "ومن الأنسب ألا نتذكرها كضحية، بل كجندي مثالي مات أثناء أدائه الواجب العسكري". ونظر إلى حيث التابوت قائلاً: "هكذا سوف نتذكرك دوماً يا آن". بعدها هبط الكولونيل فاولر درجات المنصة، ثم وقف عند التابوت ليؤدي التحية العسكرية، وبعدها عاد إلى مقعده.

بدأت موسيقى الأورجان تنساب من جديد، وتواصلت الطقوس لبضع دقائق أخرى. وقاد القس إيمز المعزين في الترانيم، وبالأخص الترنيمة الثالثة والعشرين التي يحبها الجميع، وأنهى ذلك بقوله: "امضي في سلام".

ثم قام العازفون بعزف مقطوعة صخر العصور، وعندها وقف الجميع.

فلقد كانت طقوساً جيدة في مجملها، مقارنة بمراسم العزاء الأخرى.

وقف حاملو بساط الرحمة الثمانية وتوجهوا إلى حيث التابوت، بينما وقف حملة التابوت الستة على جانبيه. لاحظت أن جميعهم من الشباب برتبة ملازم، فربما تم اختيارهم لصغر سنهم وقوتهم، أو ربما بسبب ضعف علاقتهم بالفقيدة. وقد لاحظت أنه حتى الملازم إيلبي – والذي كان ذو علاقة شريفة بها – قد تم تجنيبه من حمل التابوت.

والأمر نفسه مع حاملي بساط الرحمة، والذين يكونون في العادة من رفاق الجنرال من كبار الضباط أو الأصدقاء المقربين للفقيدة، فلقد كان من الواضح أن الاختيار قد تم لعدم علاقتهم بها؛ فقد كن جميعاً من الضباط الفتيات، بمن فيهن مساعدة الجنرال، النقيب بولينيجير. وقد بدا هذا التصرف ملائماً من الظاهر، إلا أن من فهموا سبب تجنيب الشباب، أدركوا أن الجنرال قد قرر في نهاية الأمر أن يقوم بما هو لازم لأجل إبعاد العشاق عن ابنته.

تقدمت الفتيات الثماني نحو مدخل الكنيسة، وقام حملة التابوت بإغلاق النصف الآخر منه، وغطوه بالعلم الأميركي، وقبضوا على المقابض الجانبية للتابوت، ورفعوه.

مشى القس إيمز أمام التابوت، بينما مشت عائلة كامبيل خلفه. وكما هو معتاد حال تحرك التابوت، قام كل من يرتدي الزي العسكري بتأدية التحية لصاحبته.

قاد القس المسيرة حتى المدخل، حيث وقفت الفتيات الثماني في وضع انتباه وأدين التحية العسكرية والتابوت يمر من بين الصفين. وهنا بدأ الحشد في المغادرة وراءه.

رأيت في الخارج، وتحت أشعة الشمس الحارقة، حملة التابوت وهم يضعونه في حرص على العربة، والتي كانت تقطرها سيارة جيب عسكرية.

كانت السيارات المرافقة مصطفة في طابور طويل على العشب خارج الكنيسة – سيارات عسكرية وحافلات لنقل العائلة، والفرقة الموسيقية، وحملة التابوت وبساط الرحمة، وفرقة إطلاق النار، وحرس الشرف. يحق لأي من المحاربين القدماء أن يتم دفنه في مقبرة وطنية مع تشريفة كاملة، إلا أن ما يحدث الآن لا يتسنى إلا لمن مات أثناء أداء الواجب. على أنه لو كانت هناك حربٌ فإن الدفن يتم في تلك الأراضي أو أن ترسل التوابيت – كما حدث في فيتنام – إلى الوطن حيث يتم تسليمها إلى ذوي المتوفين. وفي كل الحالات – وسواءٌ أكنت جنرالاً أو مجنداً – يتم إطلاق الإحدى وعشرين طلقة كتكريم.

وكالعادة، أخذ الحاضرون يتبادلون الأحاديث، ويتحدثون إلى القس، ويواسون عائلة كامبيل.

لمحت مجموعة من الصحفيين، يحاولون أن يصلوا إلى شخص يمكن لهم أن يحاوروه، ورأيت مصورو صحيفة الجيش يلتقطون بعض الصور خلسة من على البعد. فجميع الأخبار المتعلقة بهذه الجريمة بقيت حتى الآن غامضة ولا تخرج عن نطاق التخمينات، إلا أنها تلمح إلى أشياء أرى أن من الأصلح ألا يتناولها أحد.

لاحظت وجود شخص يقف بالقرب من العائلة تعرفت عليه – كما قلت – من الصور، فهو الابن جون. إلا أنني كنت لأتعرف عليه على أية حال. فهو طويل، وسيم الملامح، ويشبههم بعينيه وشعره وفكه.

بدا لي أنه مشوش الذهن، يقف إلى جانب عائلته، فاتجهت إليه وعرفته بنفسي، قائلاً: "إنني أتولى التحقيق في ظروف مصرع أختك".

أومأ برأسه في صمت.

تحدثنا لدقيقة، عبرت له خلالها عن تعازي. بدا لي شابا ودودا، لبقاً، متوقد الذهن. كان صالحاً لأن يصبح ضابطاً عسكرياً نموذجياً؛ إلا أنه لم يكن راغباً في لعب هذا الدور، إما لكونه لم يرغب في توخي خطى أبيه أو لأنه شعر أن في ذلك تضييقاً على روحه المنطلقة. وقد يكون على حق، إلا أنه لم ينجح في أن يصل إلى أي مما يصبو إليه، كغيره ممن ينشأون في مثل ظروفه.

كان يشبه أخته كثيراً، ولم يكن الغرض الوحيد من حديثي معه هو تقديم التعازي. فقلت له: "هل تعرف الكولونيل كينت؟".

سكت للحظات، ثم أجاب: "يبدو لي الاسم مألوفاً. أظن أنني التقيته في إحدى الحفلات".

"لقد كان من الأصدقاء المقربين لآن، وأود لو أنك تلتقيه".

"بالتأكيد".

مـــشيت معه إلى حيث يقف كينت على الرصيف، يحادث بعض الضباط، بمن فيهم المـــيجور دويل. قطعت عليهم الحديث قائلاً لكينت: "كولونيل كينت، أود أن أعرفك على شقيق آن، جون..".

تصافحا، وقال جون: "لقد التقينا قبل هذا عدة مرات، أشكرك لحضورك".

بدا كينت عاجزاً عن التلفظ بكلمات مناسبة للرد، إلا أنه رمقني بعينيه.

قلـــت لجون: "بصرف النظر عن كون الكولونيل كينت من أعز أصدقاء آن إلا أنه كان كذلك عوناً كبيراً لي في هذه التحقيقات".

فقال جون كامبيل لكينت: "أشكرك. أعلم أنك تبذل قصارى جهدك".

أومأ كينت برأسه من دون أن يتكلم.

هنا استأذنت بالانصراف وتركتهما يتحدثان.

قـــد ينتقد المرء مدى ملاءمة تعريف شقيق الضحية بالمتهم بقتلها وأثناء جنازة الـــضحية. إلا أننـــي أرى أن كل شيء مباح في الحب والحرب، والتحقيق في جريمة قتل.

وبالطـــبع فإنـــي قـــد شعرت بأن بيل كينت كان على وشك الانهيار، فأي مما كنت سأقوم به كي أفقده أعصابه عمل مشروع ومن حقي.

بدأ الزحام يخف والكل يتجه إلى سياراته. وهنا لمحت آل ياردلي، الأب والابن، مع سيدة بدت لي أنها من أقربائهما، إلا أنها ربما كانت زوجة بيرت – فقد تكون قريبته أيضاً على أية حال. فأنا أشك في أن تكون عائلة ياردلي من الضخامة بمكان.

كـــان هناك عدد من المدنيين الآخرين حاضرين، بمن فيهم عمدة البلدة وعائلته، إلا أن الغالبية كانوا من ضباط الجيش وزوجاتهم، على أني متأكد أن هناك من الزوجات من رفضن الحضور. وكان هناك الرقيب الذي جاء يمثل كل من هم أدنى رتباً داخل القاعدة، حيث إنه لو تم السماح للمجندين بالحضور لمثل هذا الأمر مشكلة.

رأيـــت كـــارل يتحدث مع الميجور بويس، قائد التحقيقات العسكرية الذي يوشك أن يتلقـــى قراراً بفصله، وكان بويس يقف في وضع الانتباه، وهو يومئ برأسه في صرامة حتـــى بدا لي أشبه بدمية ذات حركة نمطية. لم يكن كارل من النوع الذي يمكنه أن يفصل أحـــداً من عمله ليلة العيد، أو خلال حفلة، أو زفاف، أو أية مناسبة كانت. إلا أنه قد يفعل ذلك خلال جنازة مثلاً.

هـــا هي سينثيا تتحدث إلى الكولونيل والسيدة فاولر والجنرال والسيدة كامبيل، وأنا ممتن لكونها فعلت هذا. فأنا كثيراً ما أعمل على تفادي موقف كهذا، حيث لا أرتاح له.

ومن بين العشاق المفضوحين رأيت الكولونيل ويمز، المدعي العام العسكري، وزوجته، والملازم الشاب إيلبي، والذي كان يحاول جاهداً أن يغلف حزنه بالصرامة العسكرية.

وفي أحد أطراف الحشد رأيت المساعد كايفر، وهي ترتدي الآن زيها العسكري. توجهت إليها، وكانت متأنقة ومنطلقة بالرغم من أنها جاءت لتحضر مراسم عزاء. فانتهزت الفرصة لأرد شيئاً من الاعتبار لنفسي ومدحت جمالها.

وجدت في كلامي ما أدهشها، إلا أنها أعجبت به، وتواعدنا على أن نتناول الشراب سوياً هنا بالقاعدة، أو عندما نعود إلى فولز تشيرش. وهنا وجدت سينثيا تربت على كتفي وهي تقول: "علينا أن نذهب".

"حسناً". ودعت كايفر وتوجهنا إلى ساحة الانتظار.

التحق بنا الكولونيل هيلمان، وتقابلنا مع الكولونيل مور والذي كان من الواضح أنه يبحث عني، وبيده رزمة من الأوراق المطبوعة. عرفت هيلمان بمور، إلا أنه تجاهل يد مور الممتدة وحدجه بنظرة لا أتمنى أبداً أن يوجهها إليَّ يوماً ما.

على أن الكولونيل مور، كان أبرد من أن يغضب، وقال لي: "ها هو التقرير الذي طلبته".

تناولته منه، إلا أنني لم أشكره عليه، ربما متأثراً بموقف قائدي منه. ولكنني قلت له: "أرجو أن تبقى بالقرب اليوم، وألا تتحدث إلى المباحث الفيدرالية، أو إلى الكولونيل كينت".

دلفت إلى السيارة وأدرتها. لم تدلف سينثيا وكارل إليها إلا بعد أن أدرت التكييف لبعض الوقت. والتحقنا بصف طويل من السيارات يتجه جنوباً عبر طريق الكنيسة، متوجهاً إلى جوردان فيلد. قلت لكارل: "لقد وعدت الكولونيل مور بأن يكون شاهد ملك لو أنه تعاون معي".

قال كارل: "ألا تلاحظ أنك تفرط في استخدام هذا الحق؟".

تباً لك، كارل.

قالت سينثيا: "لقد كانت مراسم جميلة".

سألني كارل: "هل ما قلته عن ذلك القس مؤكد؟".

"أجل سيدي".

"هل يعرف كل واحد هنا بما اقترفه غيره؟".

"لحد ما. فهي لم تكن تخفي شيئاً".

علقت سينثيا: "هل علينا أن نتحدث عن هذا طيلة الوقت؟".

قلت: "من حق قائدنا أن يحصل على أية معلومة يريدها وفي أي وقت".

فاتجهت بناظريها عبر النافذة ولم تعلق.

رمقت كارل عبر المرآة ولاحظت أنه مندهش نوعاً ما بسبب أسلوبي الجاف معها.

قلت له: "لقد كان خاتم ويست بوينت الخاص بالمتوفاة مفقوداً طيلة التحقيقات، إلا أنني لاحظت اليوم أنه في إصبعها".

"حقاً؟ ربما كان خاتماً بديلاً".

"ربما".

رمقتني سينثيا، إلا أنها لم تتكلم.

مررنا بمنزل بيومونت، ثم بمدرسة الحرب النفسية، وبعدها درنا من حول بيثاني هيل لنجد أنفسنا في طريق ساحات الرماية.

كنا في الظهيرة، وقد زادت سخونة أشعة الشمس بدرجة كبيرة. قلت للكولونيل هيلمان: "بحلول هذا الوقت تصبح إدارة التحقيقات العسكرية غير مسؤولة عن القضية".

"لقد حصلت بحضوري إلى هنا على مهلة مدتها ساعة أخرى، وبوسعي أن أحصل على ساعة أخرى".

يا لنا من محظوظين. "هذا جيد"، قلتها من دون أي حماس.

تبعت طابور السيارات الطويل حتى طريق جوردان فيلد، ومررنا بنقطة تفتيش تابعة للشرطة العسكرية، حيث كان يقف تحت الشمس عريفان مسكينان، يؤديان التحية العسكرية لكل سيارة تمر بهما.

هناك المزيد من أفراد الشرطة العسكرية الذين كانوا يرشدون السيارات إلى ساحة الانتظار أمام الهناجر. وأخذت أدور بالسيارة حتى وجدت سيارة كينت العسكرية تقف بالقرب من الهانجر رقم ثلاثة. فأوقفت سيارتي بالقرب منها، وترجلنا جميعاً من السيارة وتبعنا الحشد حتى المنطقة المجهزة لتجمعه. في العادة ما يتم دفن الجثمان عند هذه البقعة، إلا أن من المنتظر أن يتم نقله جواً إلى ميتشيغان ليدفن هناك، وقد خصصت القوات الجوية إحدى الطائرات لهذه المهمة، طائرة كبيرة من طراز سي 130 تربض إلى الجوار من المكان.

وكما خمنت وجدت أن من لم يحضر إلى الكنيسة قد جاء مباشرةً إلى جوردان فيلد، بما في ذلك قرابة المائة من صغار الرتب، وبعض أهالي ميدلاند والمناطق المحيطة بها، بالإضافة إلى مجموعات المحاربين القدماء، وبقية ضباط فورت هادلي مع زوجاتهم.

بـــدأت الطبلة تقرع مارشاً جنائزياً بطيئاً، بينما ظهر حملة التابوت من بين الهناجر يدفعون عربة التابوت إلى القرب من مؤخرة الطائرة المفتوحة. أدى التحية العسكرية كل مـــن يرتدي الزي، بينما وضع المدنيون أيديهم اليمنى على قلوبهم. توقفت عربة التابوت في منطقة الظل التي صنعها ذيل الطائرة. وتوقف قرع الطبول، وخفض الجميع أيديهم.

كـــان الجو حاراً لدرجة وحشية، بل ولم تكن هناك أية نسمة هواء، حتى إن الأعلام لـــم تكن ترفرف، ما لم يحرك أحد الحرس العلم من مكان لآخر. إلا أن المراسم القصيرة استمرت.

قام حاملو بساط الرحمة برفع العلم إلى ارتفاع يقارب منتصف أجسادهن، بينما قال القـــس إيمـــز: "ليصلي لها الجميع". ومع نهاية الصلوات دعا القس الرب: "امنحها الراحة الأبدية أيها الرب، وهبها من نورك. آمين".

هـــنا قام أفراد فرقة ضرب النار السبعة برفع بنادقهم ليطلق كلٌ منهم ثلاث طلقات فـــي الهـــواء، بعـــدها انطلق نفير بوق نوبة الصحيان عبر الصمت المخيم. يعجبني هذا الطقـــس، ففكـــرته هي أن آخر صوت يسمعه الجندي ليلاً هو الذي يتم إطلاقه فوق قبره ليصبح علامة على بداية نوم أخير طويل، وليذكر الحاضرين أنه تماماً كما أن النهار يتبع الليل، فإن هذه النومة سيتبعها نوبة صحيان كبرى منتظرة.

قامـــت الفتيات بطي العلم وقدمته للقس إيمز، والذي قدمه بدوره إلى السيدة كامبيل، التي بدت عليها المهابة. وتبادلا بعض الكلمات والكل واقف بلا حراك.

ربمـــا كانت الحرارة هي السبب، بالإضافة إلى طلقات البنادق، والبوق، والارتباط بـــين فـــورت هادلي وجوردان فيلد – إلا أنه أياً كان السبب فقد عادت بي الذكريات إلى صـــيف 1971، وإلـــى موتيل وايت كاميليا بالذات، على الطريق السريع خارج ميدلاند، لأتذكر حفلة منتصف الليل التي لم يكن أحد يرتدي خلالها ثوب استحمام من أي نوع. قلت لنفـــسي يا إلهي، كم كنا صغاراً وقتها، وكيف كنا مصدر إزعاج لبلدة بأكملها – آلاف من الـــشباب الهائجـــين. إلا أنـــنا لـــم نكن رغم ذلك مثل هؤلاء الشباب المستهترين الذين لا يفكـــرون في المستقبل. بل على العكس– كنا نفكر في المستقبل في كل لحظة، وكل كلمة، وكـــل علاقـــة غـــرامية. كنا نقول بأن علينا أن نأكل ونشرب ونتزوج، لأننا سرعان ما سنصبح جثة ترقد في تابوت بجوردان فيلد.

أتذكـــر صديقين من سلاح المشاة كان من مهامهما أن يخرجا الجثامين القادمة إلى هـــنا مـــن فيتنام على مدى شهر أو أكثر. وفي يوم ما تلقيا أمراً بالسفر، لا إلى فيتنام، بل إلـــى ألمانـــيا، وكانا في غاية الفرح أو عدم التصديق، لدرجة أنهما كانا يقرآن الأمر على الجميع، وكأنما هو رسالة من محامٍ تؤكد لهما أنهما قد أصبحا وريثين لرجل ثري نبيل.

يبدو لي أن هناك علاقة ما تربط بين تفريغ الجثامين القادمة من فيتنام وبين ألا تكون أنت نفسك من بين هذه الجثامين يوماً ما، لذا فقد قرر جميع مجندي سلاح المشاة فجأة أن يتطوعوا للقيام بهذه المهمة، أملاً في أن تفضي بهم بعد ذلك إلى ألمانيا أو مكان آخر بعيداً عن الجحيم. وهكذا قمت بمهمة تلقي الجثامين وتفريغها في جوردان فيلد، إلا أن ذلك الوهم لم يكن صحيحاً، فقد جاء يوم تلقيت أمراً كان فحواه كالتالي: "هذا أمر بأن تسلم نفسك لقاعدة أوكلاند العسكرية لأجل التوجه إلى جنوب شرق آسيا". ويبدو أن الأمر نفسه قد أصبح يخشى أن يذكر كلمة فيتنام صراحةً.

عدت إلى ما نحن فيه، والذي لم يكن أخف وطأة من الماضي. رأيت الجنرال والسيدة كامبيل يتكلمان إلى بعض الأشخاص الذين اقتربوا منهما، بمن فيهم أفراد العائلة وآل فاولر، ومساعدة الجنرال، النقيب بولينيجير. لاحظت أن التابوت كان قد اختفى داخل الطائرة أثناء استغراقي في الذكريات فلم أنتبه لهذا.

دارت مراوح الطائرة فجأة، مطلقةً هديراً عنيفاً. ثم حيا الجنرال جميع من حوله، ووضع ذراعه في ذراع السيدة كامبيل بينما رافقهما جون، وسارا حتى ذيل الطائرة. واعتقدت للحظة أنهم سوف يدخلان الطائرة ليودعا الجثمان ليخرجا بعدها، إلا أنني حدست أنهم قد اختارا هذه اللحظة بالذات ليغادرا فورت هادلي إلى الأبد. وهكذا أغلقت عليهم بوابة ذيل الطائرة. وأشار المراقب الأرضي للطيارين بأن تنطلق الطائرة.

كان أغلب الحاضرين مدهوشاً، لهذه المغادرة المفاجئة لعائلة كامبيل على متن نفس الطائرة التي تحمل جثمان ابنتهم إلى ميتشيغان. إلا أنه يبدو لي أن الجميع قد أدرك في الوقت نفسه أن هذا هو أنسب تصرف من العائلة، ولمصلحة القاعدة، والجيش ككل.

راقب الجميع الطائرة وهي تتحرك على الممر، وتزداد سرعتها، وبعد أن قطعت قرابة الأربعة آلاف متراً بعيداً عن الحشد، فارقت الأرض، لتصعد فوق أشجار الصنوبر، ثم تنطلق في كبد السماء. ويبدو أنها كانت الإشارة التي ينتظرها الجميع، حيث انفض الحشد، واتخذت التشريفة (حرس الشرف) وفرقة النار والفرقة الموسيقية وحاملو بساط الرحمة وغيرهم تشكيلات منتظمة للعودة إلى حافلاتهم.

بدأت السيارات في الدوران من خلفي، فاستدرت واتجهت نحوها، وإلى جانبي سينثيا وكارل. كانت سينثيا تحمي عينيها بمنديل، وقالت لي: "لا أشعر بأني على ما يرام".

أعطيتها مفاتيح سيارتي قائلاً: "اجلسي في التكييف البارد قليلاً. وسوف ألتقيكِ عند الهانجر رقم ثلاثة حينما تتحسن حالتك".

"كلا سأكون بخير". واستندت على ذراعي.

يبدو لي أن هناك علاقة ما تربط بين تفريغ الجثامين القادمة من فيتنام وبين ألا تكون أنت نفسك من بين هذه الجثامين يوماً ما، لذا فقد قرر جميع مجندي سلاح المشاة فجأة أن يتطوعوا للقيام بهذه المهمة، أملاً في أن تفضي بهم بعد ذلك إلى ألمانيا أو مكان آخر بعيداً عن الجحيم. وهكذا قمت بمهمة تلقي الجثامين وتفريغها في جوردان فيلد، إلا أن ذلك الوهم لم يكن صحيحاً، فقد جاء يوم تلقيت أمراً كان فحواه كالتالي: "هذا أمر بأن تسلم نفسك لقاعدة أوكلاند العسكرية لأجل التوجه إلى جنوب شرق آسيا". ويبدو أن الأمر نفسه قد أصبح يخشى أن يذكر كلمة فيتنام صراحةً.

عدت إلى ما نحن فيه، والذي لم يكن أخف وطأة من الماضي. رأيت الجنرال والسيدة كامبيل يتكلمان إلى بعض الأشخاص الذين اقتربوا منهما، بمن فيهم أفراد العائلة وآل فاولر، ومساعدة الجنرال، النقيب بولينيجير. لاحظت أن التابوت كان قد اختفى داخل الطائرة أثناء استغراقي في الذكريات فلم أنتبه لهذا.

دارت مراوح الطائرة فجأة، مطلقةً هديراً عنيفاً. ثم حيا الجنرال جميع من حوله، ووضع ذراعه في ذراع السيدة كامبيل بينما رافقهما جون، وسارا حتى ذيل الطائرة. واعتقدت للحظة أنهم سوف يدخلان الطائرة ليودعا الجثمان ليخرجا بعدها، إلا أنني حدست أنهم قد اختارا هذه اللحظة بالذات ليغادرا فورت هادلي إلى الأبد. وهكذا أغلقت عليهم بوابة ذيل الطائرة. وأشار المراقب الأرضي للطيارين بأن تنطلق الطائرة.

كان أغلب الحاضرين مدهوشاً، لهذه المغادرة المفاجئة لعائلة كامبيل على متن نفس الطائرة التي تحمل جثمان ابنتهم إلى ميتشيغان. إلا أنه يبدو لي أن الجميع قد أدرك في الوقت نفسه أن هذا هو أنسب تصرف من العائلة، ولمصلحة القاعدة، والجيش ككل.

راقب الجميع الطائرة وهي تتحرك على الممر، وتزداد سرعتها، وبعد أن قطعت قرابة الأربعة آلاف متراً بعيداً عن الحشد، فارقت الأرض، لتصعد فوق أشجار الصنوبر، ثم تنطلق في كبد السماء. ويبدو أنها كانت الإشارة التي ينتظرها الجميع، حيث انفض الحشد، واتخذت التشريفة (حرس الشرف) وفرقة النار والفرقة الموسيقية وحاملو بساط الرحمة وغيرهم تشكيلات منتظمة للعودة إلى حافلاتهم.

بدأت السيارات في الدوران من خلفي، فاستدرت واتجهت نحوها، وإلى جانبي سينثيا وكارل. كانت سينثيا تحمي عينيها بمنديل، وقالت لي: "لا أشعر بأني على ما يرام".

أعطيتها مفاتيح سيارتي قائلاً: "اجلسي في التكييف البارد قليلاً. وسوف ألتقيكِ عند الهانجر رقم ثلاثة حينما تتحسن حالتك".

"كلا سأكون بخير". واستندت على ذراعي.

وبينما كنا ثلاثتنا متجهين إلى السيارة، قال كارل لي: "أرى يا بول أن تحسم الأمر الآن. فليس لدينا وقت، كما أن ليس لدينا خيار".

"صحيح أن ليس لدينا وقت، ولكن لديَّ خيار".

"هل عليَّ أن أصدر إليك أمراً مباشراً؟".

"لا يمكنك أن تأمرني بشيء أجده غير سليم من الناحية التكتيكية وقد يفسد القضية لمصلحة المباحث الفيدرالية".

"كلا، لا يمكنني هذا. فهل تعتقد أن من غير الصواب أن تواجه كينت الآن؟".

"بلى".

"إذن؟".

قالت له سينثيا: "سوف أواجهه أنا". نظرت لي وقالت: "انتظرني عند الهانجر".

لم أرد.

قال لها كارل: "حسناً يا سيد برينير وأنا سأنتظرك في السيارة".

قلت مرغماً: "حسناً... سأفعلها. فأنا غارق في المشكلات على كل حال".

أشارت سينثيا بيدها، فنظرت لأرى كينت، ومعه ضابطان أقل رتبة، يتوجهون نحو سيارته العسكرية. فقلت لسينثيا: "انتظري عشر دقائق، ثم الحقي بي".

وتوجهت حتى اقتربت منه، فربت على كتفه.

التفت كينت نحوي، ووقفنا للحظات ننظر إلى بعضنا البعض. وفي النهاية قلت له: "سيدي الكولونيل، هل يمكن لي أن أحادثك على انفراد؟".

تردد ثم أجاب: "بالتأكيد". أمر الضابطين بالانصراف، ووقفنا معاً على الإسفلت الساخن أمام الهانجر والسيارات تمرق إلى جوارنا.

قلت: "إن الجو حار هنا. لندخل إلى هذا الهانجر".

مشينا جنباً لجنب، وكأنما نحن زميلان في مهمة واحدة، وأعتقد أن هذا هو حالنا في نهاية المطاف.

الفصل السادس والثلاثون

كان الهانجر رقم ثلاثة أبرد قليلاً من ذلك الجو بالخارج، كما أنه أهدأ كثيراً.

مررت وكينت إلى جوار سيارة آن كامبيل البي إم دبليو وواصلنا طريقنا إلى حيث تم نصب متعلقات منـــزلها. وأشرت إلى كينت أن يجلس على مقعد بحجرة مكتبها فجلس.

كـــان من الواضح أن كال زايفر – الذي كان يرتدي زيه العسكري – قد خرج للتو من تلك المراسم. فتوجهت إليه وتنحيت به جانباً، لأقول له: "أرجو منك يا كال أن تخرج الجميع من هنا فيما عدا جريس. أريد منها أن تطبع الصفحات ذات الصلة به من مذكرات كامبيل". نظرت سريعاً تجاه كينت ثم قلت: "بعدها يمكن أن تغادر. واطلب منها أن تترك الأسطوانة هنا".

"حسناً".

"هل رد عليك خبير البصمات في أوكلاند؟".

"بلى. لكنه لا يستطيع أن يصدر رأيه النهائي الآن. ولكنه يستطيع القول بأن بصمة قدم الكولونيل كينت كانت أسبق من بصمة ساينت جون".

"حسناً، وآثار الطلاء على جذع الشجرة؟".

"لقـــد أرســلت ذلــك الجزء من الشجرة بالهليوكوبتر إلى جيليم منذ بضع ساعات. واخبرونـــي أن الطـــلاء أسود اللون ويتضاهى مع الطلاء الذي تستخدمه كرايزلر لطراز الجيب. بالمناسبة أين تلك الجيب؟".

"من المحتمل أنها في مرآب الكولونيل كينت. إنه يقطن بيثاني هيل. لم لا ترسل أحد إلـــى هناك، لكي يصور ذلك الكشط في طلاء السيارة، ويكشط بعض الطلاء لنضاهيه بما لدينا".

"هل يمكنني أن أفعل هذا؟".

"ولماذا لا؟".

"أحتاج إلى أمر كتابي من قائده المباشر حتى أفعل".

"لقد استقال قائده المباشر وطار للتو إلى ميتشيغان. إلا أنه أخبرني بأنه لا يمانع في أن نفعل ما يمكننا من إنهاء القضية. وعليك أن تكون مرناً يا كال. أنت هنا في الجيش".

"معك حق".

"هـل يمكـنك أن تعـرض للكولونيل كينت ولي رسومات آثار الأقدام على شاشة العرض؟".

"بالتأكيد".

"جيد. من المؤكد أن آثار كينت هي التي كانت أسبق إلى مكان الجريمة".

"فهمـتك". رمق كينت وهو جالس في حجرة مكتب آن كامبيل، ثم قال لي: "هل هذه هي نهاية القضية؟".

"ربما".

"لو أنك تعتقد أنه القاتل فلا تتردد".

"صحيح. ولو أنه كبل يدي واقتادني إلى الحجز فهل ستقوم بزيارتي؟".

"كلا، فعليَّ أن أعود إلى جيليم. إلا أنني سأكتب لك من هناك".

"أشـكرك. عليك كذلك أن تخبر أفراد الشرطة العسكرية بالخارج أن يمنعوا دخول المباحث الفيدرالية طالما أنا بالداخل".

"حسناً. حظاً سعيداً". وربت على كتفي ثم ابتعد.

عـدت إلـى كيـنت لأجلس على الأريكة. قلت له: "نحن نعمل على تجميع بعض الخيوط قبل مجيء المباحث الفيدرالية إلى هنا".

أومأ برأسه، ثم قال: "لقد علمت أن شاهدك في قضية السلاح قد هرب".

"لا أحد يفوز بكل شيء".

"وماذا عن هذه القضية؟".

"الوقت يمضي، والفيدراليون متحفزون، ولدينا متهم وحيد".

"من هو؟".

نهـضت وخلعت سترتي، لأكشف عن مسدسي من طراز جلوك 9 ملم. وفعل كينت الأمر نفسه، وخلع سترته ليكشف عن مسدس من طراز بوليس 38، فبدا الأمر كنوع من اسـتعراض القـوة. عـدنا للجلوس، وخففنا من قيد رباط العنق، وعاد ليسألني: "من هو المتهم؟".

"هذا ما كنت أود أن أتحدث معك بشأنه. ونحن في انتظار مجيء سينثيا".

"حسناً".

أخذت أنظر عبر أرجاء الهانجر. كانت البقية الباقية من أفراد البحث الجنائي تغادر المكان، ورأيت جريس وهي تقوم بالطباعة من جهاز الكومبيوتر.

تطلعـت عبر الهانجر إلى حيث البوابة إلا أن سينثيا لم تظهر بعد. فبصرف النظر عـن موقفـي تجاهها الآن إلا أنها تستحق أن تكون موجودة في النهاية، أياً كانت هذه الـنهاية. لقـد عرفت أن كارل راغب في أن يبعد نفسه عن هذا الموقف – لا كي يحمي نفسه لـو أن الأمور تطورت للأسوأ، بل لكونه يحترمني ويحترم عملي. فلا يميل كارل إلـى التدخل في ممارسة مرؤوسيه لأعمالهم، ولا يحاول أن يتلقى الثناء عن عمل قام به أحـدهم. ومـن ناحية أخرى، فإنه لا يتعامل جيداً مع الفشل، خاصةً لو كان غيره هو من فشل.

قال كينت: "إنني سعيد أن الأمر قد انتهى".

"جميعنا سعيدون".

سألني، "لماذا رغبت في أن ألتقي جون كامبيل؟".

"ظننت أنك تود أن تقول له شيئاً يشد من أزره".

لم يرد كينت على هذا الجواب.

لاحظـت أن ثلاجـة مطبخ آن كامبيل موصلة بالكهرباء، فتوجهت ناحيتها وفتحت بابهـا، لأجد أنها مليئة بعلب الجعة والمشروبات الغازية. فتناولت ثلاث علب وعدت بها إلى المكتب، وأعطيت واحدة إلى كينت.

تناولنا رشفات من الشراب. ثم قال كينت: "لقد تنحيت عن القضية الآن، أليس كذلك؟".

"لقد تم منحي بضع ساعات أخرى".

"أنت محظوظ. هل تتقاضى أجراً عن الساعات الإضافية في إدارتك؟".

"بالطبع. أجر مضاعف، وثلاثة أضعاف الأجر في أيام الآحاد".

ابتسم ونبهني قائلاً: "لديَّ الكثير من العمل بانتظاري".

"لن يستغرق الأمر طويلاً".

اكتفـى بهزّ كتفيه وتناول المشروب المفضل. أعطيته العلبة الأخرى. قال: "لم أكن أعلم أن العائلة ستغادر على الطائرة".

"لقد فوجئت أنا أيضاً بهذا. إلا أنها كانت حركة ذكية".

"لقد انتهى أمره. كان من الممكن أن يصبح نائب الرئيس القادم، بل وربما الرئيس. فنحن نوعاً ما كنا مستعدين لأن يحكمنا جنرال مرة أخرى".

"لا أعـرف الكثيـر عـن السياسة". رأيت جريس وهي تضع الأوراق التي طبعتها والأسـطوانة المـرنة على الطاولة بجوارها. ونهضت، ولوحت لي بيدها، ثم انصرفت. وتوجه كال إلى الكومبيوتر ووضع برنامجه بالكومبيوتر وبدأ يتعامل معه.

سألني كينت: "ما الذي يقومان به؟".

"يحاولان التوصل إلى الجاني".

"وأين المباحث الفيدرالية؟".

"ربما كانوا محتشدين خلف الباب في انتظار انتهاء مهلتي".

"إنني لا أسعد بالتعامل معهم... إنهم لا يفهموننا"،

"بالتأكيد. إلا أن أياً منهم لم يمارس الجنس مع المجني عليها".

انفتح الباب، ودلفت سينثيا إلى المكان. توجهت صوب المكتب وتبادلت التحية مع كينت. أحضرت لها مشروباً غازياً وأحضرت علبة من المشروب المفضل أخرى لكينت. عدنا للجلوس جميعاً. وهنا بدأ القلق يتبدى على محياه.

قالت سينثيا: "لقد كان أمراً محزناً جداً. لقد كانت شابة جميلة... لقد شعرت بالأسى لأجل والديها وأخيها".

لم يعلق كينت بأية كلمة.

قلت له: "بيل، لقد توصلت مع سينثيا إلى بعض الدلائل التي أقلقتنا ونرى أنها تحتاج منك إلى بعض التوضيح".

شرب المزيد من المشروب المفضل.

قالت سينثيا: "أولها هذه الرسالة". أخرجت الرسالة من حقيبتها وأعطتها لكينت.

قرأها، أو للحق لم يكن يقرأها، فهو يحفظها عن ظهر قلب، وأعادها إلى سينثيا.

قالت: "يمكنني أن أقول أن هذا قد أقلقك بدورك. أقصد أننا أمام امرأة تثير اللغط في جميع أرجاء القاعدة، بينما يجد الشخص الوحيد الذي يهتم بها أنها تسبب له المشكلات".

ازداد عدم ارتياحه، فتناول شربة طويلة من المشروب المفضل. ثم سألنا في النهاية: "وما الذي يجعلكما تتصوران أنني كنت مهتماً بها؟".

أجابت سينثيا: "هذا مجرد حدس. أنا أعتقد أنك كنت مهتماً بها، إلا أنها كانت مستغرقة في ذاتها ولا تتجاوب مع ما تبديه تجاهها من إحساس صادق".

على المحقق أن يتحدث بشكل سيئ عن المجني عليه أمام المتهم. فالقاتل لا يود أن يسمع من أحد أنه قد قتل مثالاً للفضيلة والطهر. وهو لا ينأى تماماً عن مسألة الحق والباطل – كما يرى كارل – بل يقوم بإلقاء السؤال بصيغة مختلفة ليوحي للمتهم بأن ما فعله أمر له ما يبرره.

إلا أن بيل كينت لم يكن غبياً، وكان يعلم المقصد من كل هذا التمهيد، لذا فقد اكتفى بالصمت.

فتابعت سينثيا كلامها: "كما أن لدينا مذكراتها التي تصف فيها تفاصيل علاقتها الجنسية بك".

وأضفت أنا: "إنها هناك بالقرب من الكومبيوتر".

اتجهت سينثيا إلى الكومبيوتر، وعادت ومعها الأوراق. جلست أمام كينت على طاولة القهوة، وبدأت تقرأ. كان المكتوب شديد الصراحة، إلا أنه لم يكن من النوع الجنسي الصرف. بل كان أقرب إلى ما قد تقرأه في دراسة طبية؛ فلم يكن هناك أي ذكر للحب أو العواطف، مما قد يتوقع المرء أن يجده في المذكرات، بل توصيف دقيق للعمليات الجنسية. ومن المؤكد أن الموقف كان محرجاً لبيل كينت، إلا أنه كان بمثابة تأكيد على أن آن كامبيل لم تكن ترى فيه سوى أداة جنسية. وأمكنني أن أرى على ملامحه الغضب يتنامى، ومن الصعب على الإنسان أن يتحكم في غضبه، كما أنه الشعور الذي يدمر أي شخص.

نهض كينت قائلاً: "ليس عليَّ أن أستمع إلى هذا الهراء".

نهضت بدوري قائلاً: "أرى أن عليك أن تسمعه. أرجو أن تعود إلى الجلوس. فنحن نحتاج بالفعل إلى وجودك هنا".

بدا أنه متردد بين الانصراف أو البقاء، ولكنها كانت تمثيلية. فما يحدث هنا الآن هو أهم حدث في حياته كلها، ولو أنه انصرف فسيحدث بأي حال ولكن من دون وجوده.بينما تظاهرنا نحن بعدم الاكتراث. وفي النهاية جلس، فجلسنا.

....

....

لم يعد الغضب هو المخيم على كينت، ولا الحرج، ولا حتى عدم الارتياح. بل بدا شارد الذهن عن كل هذا، ربما كان يفكر في مستقبل مظلم.

قرأت سينثيا آخر الفقرات، "... لقد عاود بيل غيرته علي. كنت أظن أننا قد خلصنا من هذا الموضوع. فقد جاء الليلة وكان تيد يويس موجوداً. لم نكن أنا وتيد قد توجهنا إلى القبو بعد، وتناول بيل الشراب معه في حجرة المعيشة، وكان بيل فظاً معه، مستغلاً أنه أعلى رتبةً منه. وفي النهاية غادرنا تيد، وتكلمت مع بيل. لقد قال إنه يستعد لأن ينفصل عن زوجته وأن يستقيل من منصبه، هذا إن وعدته أن أعيش معه على الدوام أو أن أتزوجه. إنه يعلم بسبب قيامي بما أقوم به مع الآخرين، إلا أنه قد بدأ يرى أن علاقتنا نحن أقوى. إنه يضغط علي، وأنا أطلب منه أن يتوقف عن هذا. لم يكن راغباً في الممارسة هذه الليلة. كان يريد أن يتحدث معي فقط. وقد تركته يتحدث، إلا أن كلامه لم يعجبني. ما الذي يدفع بعض الرجال إلى الظن بأنهم فرسان

قد جاؤوا ليخلصونا مما نحن فيه؟ أنا لست بحاجة إلى فارس. ففارسي هو أنا، كما أن عـدوي هـو أنا أيضاً، وأعيش مع هذا وذاك في مملكتي. أما الجميع فمجرد لاعبين ذوي أدوار، ولـم يكـن بـيل يعـي هذا الأمر. لم يفهم، ولم أجد في نفسي رغبةً في التفسير. فقط قلت له أني سأفكر في عرضه هذا، إلا أنني طلبت منه أن يأتي بعد هذا إلى هنا وفقاً لميعاد سابق. وهو الأمر الذي أثار غضبه، فصفعني على وجهي... .... وحيـنما شفا غليله مني، بدا لي أنه قد عاد إلى صوابه، فغادر المنـزل. أدركت بأنه خطـر، إلا أن هـذا لـم يكن ليهمني، والحقيقة أنه الوحيد لولا ويس الذي هددني أو ضربني، وهو الأمر الوحيد الذي يجذبني إلى كينت".

وضـعت سينثيا الأوراق على الطاولة، وخيم الصمت علينا. حتى سألت كينت: "هل قمت باغتصابها هناك في هذه البقعة، على أرضية حجرة المعيشة؟" كنت أشير برأسي إلى الحجرة المجاورة.

تجاهل كينت السؤال. لكنه قال: "لو كان غرضكما إهانتي فإني أعترف لكما بهذا".

"بـل غرضي، كولونيل، أن أعثر على من قتل آن كامبيل، وعلى الأقل أن أعرف السبب الذي دفعه إلى هذا".

"وهل تظن أني... أعرف شيئاً أخفيه عنكما؟".

"أجـل، نعتقد هذا". التقطت جهاز التحكم عن بعد وأدرت التلفزيون والفيديو. لتظهر صـورة آن كامبـيل، في وسط محاضرة تلقيها. قلت لكينت: "هل تسمح بأن نشاهد؟ فهذه الفـتاة تدهشني، ومن المؤكد أنها أدهشتك أنت وآخرين. وبين الحين والآخر أكون متشوقاً لرؤيتها. فهذا يطفئ نيران الشوق أحياناً".

كانـت النقـيب آن كامبـيل تقول: "تنشأ المسألة الأخلاقية فيما يتعلق باستعمال علم الـنفس، وهو في العادة علم علاجي، كسلاح في الحرب". سحبت آن كامبيل الميكروفون من منصة الخطابة واتجهت نحو الكاميرا. جلست على حافة المسرح وساقاها متدليان إلى أسفل، وهي تقول: "الآن يمكنني أن أراكم بشكل أفضل".

ألقـيت نظـرة على كينت، الذي كان يراقب الشاشة عن كثب، ولو كان بوسعي أن أحكـم علـى مشاعره في تلك اللحظة، لتيقنت من أنه يتمنى لو كانت حية في هذه الغرفة بالذات، حتى يتسنّى له أن يتحدث إليها ويلمسها.

واصـلت آن كامبيل حديثها عن أخلاقيات الحرب النفسية، وعن رغبات واحتياجات ومخـاوف البـشر عموماً. قالت: "إن علم النفس سلاح ناعم - فهو ليس بقذيفة من عيار 155 ملـم، ولكـن بوسعكم أن تقهروا أكثر من كتيبة بين صفوف العدو عبر المنشورات والرسـائل الإذاعـية بـشكل يفـوق ما قد تفعله القذائف. فليس علينا قتل البشر لو أنهم

استسلموا لإرادتك. فرؤية جندي العدو وهو يهرع نحوك مستسلماً، لينكب على ركبتيه عند قدميك يرضيكم أكثر من قتله".

أغلقت جهاز التلفزيون وأنا أعلق: "كان لها حضورها الكاريزمي، أليس كذلك، بيل؟ إنها من الذين ينجحون في الاستيلاء على انتباهك كله بصرياً وسمعياً وفكرياً. كم أتمنى لو أني عرفتها".

ردَّ قائلاً: "لا أعتقد أن هذا كان سيسعدك".

"لماذا؟".

تنهد عميقاً، ثم قال: "لقد كانت... الشر بعينه".

"الشر؟".

"أجل.. فلقد كانت.. كانت واحدة من تلك النساء اللاتي... كانت امرأة يحبها الجميع، وتبدو شريفة وحلوة المعشر.. ولكنها كانت تخدع الجميع. لم تكن تهتم بأحد أو بشيء. أقصد أنها كانت تجمع بين صفات بنت الجيران اللطيفة، وبين غرابة الأطوار في تصرفاتها سراً".

"لقد بدأنا نعرف هذا عنها. هل لديك ما تقوله لنا عن هذا؟".

وخلال العشر دقائق التالية حكى لنا كل ما بداخله عنها، والذي كان أحياناً ما يتوافق مع الواقع الذي نعلمه، وكثيراً ما لم يكن حقيقياً. وأحضرت له سينثيا علبة أخرى من المشروب المفضل.

كان من الواضح أن بيل كينت يحاول أن يقنعنا بمبرره الأخلاقي، بنفس الطريقة التي كان يعمد إليها مطاردو الساحرات منذ ثلاثمائة عام. فقد كانت شريرة، تملكت عقول الرجال، وأجسادهم، وأرواحهم، وألقت عليهم بلعناتها، وكانت تتظاهر بعبادة الرب والعمل نهاراً، إلا أنها كانت في خدمة قوى الظلام ليلاً. قال: "يمكنكما أن تتبينا من خلال أشرطة الفيديو هذه كم كانت ساحرة ولطيفة والرجال حولها، ولكن ما أن تقرأ تلك المذكرات حتى تدرك ما كانت عليه في الحقيقة. لقد أخبرتكما أنها كانت تقرأ لنيتشه، وتشربت أفكاره المتعلقة بالإنسان والسوبرمان، والمسيح الدجال، وكافة هذا الهراء". أخذ نفساً عميقاً، ثم قال: "أقصد أنها لم تكن تجد غضاضة في التوجه إلى مكاتب الضباط ليلاً لتمارس الجنس معهم، وتجد أنها في اليوم التالي تتجاهلهم وكأنهم حتى غير موجودين بالمرة".

وأخذ يواصل حديثه بلا انقطاع.

مكثت مع سينثيا نستمع في صمت. فحينما يتحدث المتهم بالقتل عن المجني عليه بسوء، فإما أنه ليس القاتل أو أنه يفسر لك السبب الذي دفعه إلى القتل.

وأدرك كينت أنه آخذ في التمادي فقرر أن يلطف من لهجته قليلاً. ولكنني أعتقد أن جلوسه داخل منزل آن كامبيل قد جعله يتحدث وكأنما يتوجه بكلامه إليها بأكثر مما يتوجه به إلينا نحن. كما أعتقد أن إدارة ذلك الشريط كان له أثره في استحضار صورتها في عقله. فلقد كنا نعمل على تهيئة الجو الذي يفك عقدة لسانه، ومن الواضح أنه كان مدركاً لهذا نوعاً ما. كما أن علب المشروب المفضل الأربعة قد ساعدت قليلاً في تسهيل الأمور، وهو ما يجعلني لا أؤيد القرار بمنع استخدام مصل الحقيقة، فهي وسيلة ناجعة دوماً.

نهضت وأنا أقول له: "أنظر لهذا".

توجهنا ثلاثتنا إلى الجانب البعيد من الهانجر، حيث جلس كال زايفر إلى الكومبيوتر. قلت لكال: "يريد الكولونيل كينت أن يرى البرنامج الذي أعددته".

"حسناً". بدأ كال يظهر رسماً تصويرياً لمسرح الجريمة، بما في ذلك الطريق، وساحة الرماية، ومدرجات الجلوس الخشبية، وأهداف الرماية، ولكن من دون الجثة الراقدة على الأرض. قال: "حسناً... الساعة الآن حوالى 1:30، وها هي سيارة المجني عليها الجيب تتوقف..." هنا ظهرت على الشاشة صورة للسيارة من أعلى وهي تتجه من اليسار إلى اليمين. "تتوقف السيارة، وتترجل عنها المجني عليها". وبدلاً من ظهور جسم امرأة مصور من أعلى، ظهر على الشاشة أثر قدميها إلى جوار السيارة. ".. ومن عند دورات المياه يقترب الكولونيل مور". ظهرت آثار أقدام صفراء اللون تسير من أعلى الشاشة وحتى السيارة، ثم تتوقف. "هما الآن يتحدثان، وهي تخلع ملابسها، بما في ذلك الحذاء والجورب – نحن لا نرى هذا بالطبع، ولكننا نرى الآن نقطة مفارقتهما الطريق وتوجههما إلى ساحة الرماية... آثارها بالأحمر وآثاره بالأصفر... جنباً لجنب.. ونرى آثار أقدامها الحافية. حسناً؟".

نظرت سريعاً إلى كينت، وقلت: "ما رأيك؟".

ولكنه اكتفى بالتحديق في الشاشة.

تابع زايفر وصفه: "حسناً.. توقفا عند الهدف المنصوب، حيث رقدت هناك...". وهنا ظهرت على الشاشة صورة لجسم بشري أحمر اللون عند قاعدة الهدف. ".. لا نرى أية آثار للأقدام بالطبع، ولكن بعد أن يقيدها مور ينصرف، ويمكننا رؤية خطوات عودته إلى الطريق... لقد التقطت كلاب شرطتك سيدي الكولونيل رائحته على العشب بين الطريق ودورات المياه".

علقت أنا قائلاً: "هذا عرض بصري كفيل بإقناع هيئة المحكمة العسكرية".

لم يعلق كينت بشيء.

واصل زايفر شرحه: "حسناً.. وفي حوالي الساعة 2:17 حضر الجنرال بسيارة زوجته".

نظـــرت إلـــى كينت الذي لم يبدِ اندهاشاً لهذه الحقيقة يفوق اندهاشه لكون مور كان موجوداً، وقام بتقييدها إلى الأرض ورحل.

"كانـــت مـــشكلة أن نطلـــب من الجنرال أن يعطينا حذاءه الذي ارتداه عند مسرح الجـــريمة، إلا أننـــي أرى أنه لم يبعد عن الطريق سوى بضعة أمتار وأنه لم يقترب من جسدها. وقد تحدثا ثم غادرها في سيارته".

قلت للكولونيل كينت: "هل تتابع هذا الشرح؟".

نظر لي، إلا أنه لم يعلق.

باغتته سينثيا قائلةً: "سيدي الكولونيل، إن ما نود أن نقوله هو أنه لا الكولونيل مور ولا الجنرال من قتل آن. بل كان الأمر خطة اعتمدت الدقة العسكرية والسيكولوجية لجذب الجنـــرال. لـــم تكن تواعد عشيقاً لها في هذا المكان، كما كان البعض يشك، ولا هاجمها مختل. بل كانت تحاول التصالح مع أبيها".

لم يطلب كينت تفسيراً، واكتفى بالنظر إلى الشاشة.

لكـــن ســـينثيا تطـــوعت بالتفسير: "لقد تعرضت حينما كانت طالبة بأكاديمية ويست بويـــنت لاغتصاب جماعي، وأجبرها أبوها على تكتم الأمر واتفق مع آخرين يعلونه رتبة على أن يتم التكتم على هذه الفضيحة. هل كان لديك علم بأمر كهذا؟".

نظر إلى سينثيا، إلا أنه لم يبدُ عليه أنه قد وعى كلمة واحدة مما قالته.

فقالـــت: "لقـــد كانت تعيد تجسيد ما كان قد حدث لها في ويست بوينت من أجل أن تصدم أباها وتهينه".

لـــم أكـــن أجد سبباً يدفعنا إلى الكشف عن كل هذا لكينت، إلا أن الحالة التي عليها كينت الآن يمكن أن تتيح لنا الاستفادة من الموقف.

قلـــت لكيـــنت: "هل كنت تعتقد أنها كانت هناك لتمارس شيئاً من الفانتازيا (النزوة) الجنسية؟".

لم يرد على سؤالي.

فأضفت: "مثل أن يأتي عدد من الرجال على التوالي حتى يغتصبوها؟".

وهنا كان لا بد من أن يجيب: "جميع من يعرفونها قد يفكرون التفكير نفسه".

"أجل. نحن كذلك فكرنا في هذا، بعد أن وجدنا تلك الغرفة في القبو. وأعتقد أنك أنت أيـــضاً قد فكرت في هذا حينما رأيتها على هذا الوضع على الأرض. بدا لك وضعاً متفقاً مع ما تعرفه عن آن كامبيل، وقد كان بالفعل. إلا أنك لم تقرأ الموقف القراءة السليمة".

جاوبني بالصمت.

قلت لكال: "استمر".

"حسناً.. وهكذا غادرها الجنرال، وها نحن ذا نرى هذه المجموعة من آثار الأقدام.. هذه هي آثار أقدامك أنت، كولونيل... تلك الزرقاء...".

هنا صاح كينت: "كلا... فقد أتت آثاري فيما بعد. بعد ساينت جون والشرطية كاسي".

أجابه كال: "كلا سيدي، بل كانت آثارك قبل آثار ساينت جون. أنظر هنا، لدينا تجسيم لآثارك وآثار ساينت جون... حيث يبين أن ساينت جون قد خطى فوق آثار أقدامك. وبالتالي فقد كنت هناك قبله. لا شك في هذا".

وأضفت: "والحقيقة يا بيل أنك حينما حضرت إلى هناك، بعد رحيل الجنرال، كانت آن حية. فقد رحل الجنرال واستدعى الكولونيل فاولر وزوجته ليأتيا بها، ولكنهما جاءا ليجداها مقتولة".

وهنا تجمد كينت في مكانه... بلا حراك.

قلت: "لقد شاهد أحد أفراد شرطتك العسكرية سيارة زوجتك الجيب شيروكي، وأنت تقودها، حوالى الساعة 00:30، وقد توقفت عند ساحة انتظار المكتبة على الجانب الآخر من مبنى القيادة". وقررت أن أكذب وأنا أضيف: "كما قد شوهدت وأنت تقود السيارة متوجهاً إلى طريق ساحات الرماية. وحددنا المكان الذي انعطفت عنده بالسيارة تجاه طريق جوردان فيلد لتخفي الشيروكي وسط الأشجار. فقد خلفت آثار الإطار واحتككت بشجرة. وقد ضاهينا الطلاء على الشجرة بذلك الذي على سيارة زوجتك، كما شاهدنا الكشط على السيارة". وها أنذا أتمادى في الكذب.. "ووجدنا هناك آثار قدميك في المنحدر الممتد بطول طريق ساحات الرماية. والمتجهة جنوباً، أي تجاه مسرح الجريمة... هل تود أن أعيد شرح تفاصيل ما حدث بالكامل؟".

هزّ رأسه بالنفي.

فقلت: "وبالنظر إلى كم الأدلة – بما في ذلك الدليل على وجود دافع، وهو ما هو مكتوب في المذكرات، والرسالة إلى زوجتك، وأدلة أخرى على تورطك جنسياً معها – بالنظر إلى كل هذا، بالإضافة إلى الأدلة الجنائية وغيرها، فإنني أطلب منك أن تخضع لاختبار جهاز كشف الكذب، ونحن جاهزون لهذا الآن".

بالطبع لم نكن مجهزين لمثل هذا الاختبار، إلا أن توقيته لا يهم. قلت له: "ولو رفضت الخضوع للاختبار الآن، فلن يكون أمامي من خيار سوى إلقاء القبض عليك، وسأستجلب أمراً من البنتاغون بإخضاعك للاختبار".

استدار كينت بعيداً وهم بأن يتجه صوب تصميم منزل آن كامبيل. فتبادلت نظرة مع سينثيا وكال، وسرعان ما تبعناه إلى هناك.

جلس كينت على ذراع أحد المقاعد في حجرة المعيشة وهو ينظر إلى السجادة. بدا لي أنه كان ينظر إلى البقعة التي اغتصب عليها آن.

وقفت أمامه وقلت: "أنت تعرف بالطبع حقوقك كمتهم، ولن أهينك بقراءتها عليك. إلا أنني سأقوم باقتيادك إلى الحبس الاحتياطي في مبنى القيادة..." ثم أضفت بلهجة ذات مغزى: "هل يمكنني أن تعطيني سلاحك؟".

كان يعلم أنها النهاية، ولكنه كان عليه أن يقاوم كأي حيوان وقع في الفخ. فقال لي ولسينثيا: "لن تتمكنا من إثبات أي من هذا. وحينما تبرأ المحكمة - التي سيترأسها أقراني في الرتبة - ساحتي سوف أشرف بنفسي على أن تحاكما بتهمة إساءة السلوك العسكري".

قلت: "بالطبع سيدي. فهذا حقك. أن يحاكمك أقرانك. ولو تمت تبرئتك فبوسعك أن توجه أي من التهم إلينا. إلا أن الدليل على تورطك في علاقة جنسية دليل قوي وكاف. فقد تفلت من تهمة القتل، ولكن عليك أن تكون في انتظار خمسة عشر عاماً على الأقل تقضيها في ليفينورث بتهم التقصير في أداء الواجب، وممارسة الجنس بشكل يسيء إلى العسكرية، والاغتصاب، وغير هذا من انتهاكات بنود ميثاق العدالة العسكري".

بدا لي أن كينت يعمل على حساب كل تلك الأمور، ثم قال: "لم تلعب لعبتك بشكل شريف، أليس كذلك؟".

"وكيف كان ذلك؟".

"أقصد بأني قد تطوعت من تلقاء نفسي بأن أخبرك عن علاقتي معها حتى أساعدك على القبض على الجاني، وها أنت ذا تتهمني بكل هذه التهم، ثم تلوي عنق الأدلة الأخرى لكي تبين من خلالها أني القاتل. أنت شخص يائس ليس إلا".

"توقف عن هذا الهراء يا بيل".

"كلا. بل عليك أنت أن تتوقف عن هذا الهراء. ولمعلوماتك، فقد كنت هناك فعلاً قبل سانيت جون، وحينما وصلت إلى هناك، كانت ميتة بالفعل. ولو كنت تريد رأيي، فإن رأيي هو أن الجنرال وفاولر هما من فعلا بها هذا".

"كل هذا لن يفيدك أبداً يا بيل". وضعت يدي على كتفه وأنا أقول له: "عليك أن تكون رجلاً، وضابطاً يتحمل المسؤولية - بل عليك أن تكون شرطياً بحق السماء. لم يكن عليَّ حتى أن أطلب منك الخضوع لجهاز كشف الكذب، فمن دون أن أضطر إلى استعماله، ومن دون أن أضطر إلى أن أعرض عليك الأدلة، ومن دون أن أضطر إلى أن أقضي الأيام معك في غرفة الاستجواب. فلا تجعل هذا الأمر محرجاً لكلينا".

نظر لي، وتبين لي أنه على وشك البكاء. ونظر إلى سينثيا ليطمئن إلى أنها لم تلحظ هذا.

واصلت كلامي إليه: "نحن جميعاً نعلم أنك من قتلها، وجميعنا يعلم السبب. هناك الكثير من الظروف المبررة ونحن نعلم بها. بحق السماء، إن من الصعب عليَّ حتى أن أقف هنا لأنظر إليك قائلاً أنها لم تكن تستحق منك هذا". والحقيقة أن هذا كان أمراً بوسعي، فهي لم تكن تستحق ما جرى لها، ولكن كما يقوم الجلاد بعرض الوجبة الأخيرة على من سيتم إعدامه، فإن عليَّ أن أسمعه ما يود هو سماعه في هذه اللحظات.

قاوم كينت الدموع وحاول أن يبدو غاضباً. وصاح: "لقد كانت تستحق قتلها! لقد كانت عاهرة، عاهرة.. لقد دمرت حياتي وزواجي...".

"أعلم هذا. ولكن عليك أن تصلح من حياتك. وأن تجعل النهاية مشرفة للجيش ولعائلتك ولعائلة كامبيل، ولنفسك".

كانت الدموع تنساب الآن على خديه، وأيقنت أنه كان يفضل الموت على أن يبكي أمامي، وأمام سينثيا وكال زايفر، والذي كان يراقبنا من الجانب الآخر من الهانجر. استطاع كينت أن يستجمع قواه ليقول: "لم يعد بوسعي تصحيح الأمور... لم يعد بوسعي هذا..".

"بل أنت قادر على هذا. وأنت تعلم هذا. وتعرف كيف تصلحها. عليك ألا تقاوم. ولا تجلب العار لك وللجميع. فهذا كل ما تبقى لك. عليك فقط أن تؤدي واجبك. قم بما يليق برجل محترم وبضابط عسكري".

فنهض كينت ببطء، وجفف عينيه وأنفه بيديه.

قلت: "أرجوك سلمني سلاحك".

فنظر إلى عينيَّ: "لا أصفاد يا بول".

"آسف.. عليَّ أن أكبل يديك.. تلك التعليمات".

"أنا ضابط بحق السماء! وأنت تريد مني أن أتصرف كالضباط، فعليك أن تعاملني كما تعامل واحد منهم!".

"بل ابدأ أنت بالتحلي بصفاتهم أولاً".. ناديت على كال: "أجلب لي زوجاً من الأصفاد".

وهنا... سحب كينت مسدسه من حزام كتفه وهو يصيح: "حسناً.. حسناً.. راقبوني إذن!". وسرعان ما صوب المسدس تجاه خده الأيمن و.. ضغط الزناد.

الفصل السابع والثلاثون

يمكن للعين البشرية أن تميز حوالى خمس عشرة أو ست عشرة درجة من درجات الـــرمادي. بيـــنما يمكن لمعالج الصورة الكومبيوترية -والذي يحلل بصمة الإصبع - أن يميـــز مائتي وخمس وستين درجة من درجات الرمادي، وهو أمر مبهر. على أن الأكثر إبهـــاراً هو القلب والعقل والروح البشرية، والتي بوسعها أن تميز بين عدد لا يحصى من الأنمـــاط الوجدانـــية والنفـــسية والأخلاقية، بدءاً من أحطها وأدناها، وحتى أكثرها طهراً ونقـــاءً. وأنـــا لـــم أرَ في حياتي طرفا النقيض هذين، إلا أنني كثيراً ما رأيت الكثير من الأنماط فيما بينها.

إلا أن الناس أقرب إلى الحرباء في التلون وفقاً للظروف والمعطيات.

ولا يخـــتلف الناس هنا في فورت هادلي - سواءٌ فيما هو خير أو ما هو شر - عن غيرهم ممن تعاملت معهم في كثير من القواعد والثكنات العسكرية حول العالم. إلا أن من المؤكد أن آن كامبيل شخصية مختلفة، وأنا أحاول أن أتخيل نفسي في حوار معها لو كنت قـــد التقيـــتها فـــي حياتها، إذا ما كنت مكلفاً مثلاً بالتحقيق فيما كان يجري هنا في فورت هادلي. أعتقد أني كنت سأرى أني لست في حضرة غانية عادية، بل شخصية فريدة قوية ومـــسيطرة. كمـــا أظـــن أنه كان بوسعي أن أبين لها أن أياً مما آذت به الآخرين لم يكن ليجعلها أقوى، بل يزيد من تعاسة الجميع.

أعتقد أني لم أكن لألقى نفس مصير بيل كينت، إلا أنه يظل احتمالاً وارداً، لذلك فأنا لست فـــي موضع يتيح لي الحكم على كينت. بل لقد حكم كينت على نفسه، وتبين له ما قد وصل إليه، وخاف من أن يتيقن من أن هناك شخصاً آخر يقبع بداخل عقله السوي المنظم، لذا قرر تفجيره.

امـــتلأ الهانجر الآن بأفراد الشرطة العسكرية، ورجال المباحث الفيدرالية، والطاقم الطبـــي، بالإضـــافة إلى رجال البحث الجنائي الذين تخلفوا في فورت هادلي، وظنوا أنهم على وشك أن يغادروها.

قلـــت لكـــارل: "عندما تنتهي من الجثة، ألأمر بتنظيف السجادة والأثاث وشحنها إلى عائلة كامبيلز في ميتشيغان. فسيكونون بحاجة إلى متعلقات ابنتهم".

"بالتأكـــيد... وأنـــا أكره أن أقولها.. ولكن هذا الرجل قد أبعد المشاكل عن كثيرين عداي أنا".

"لقد كان جندياً شجاعاً".

استدرت ومضيت عبر الهانجر، ماراً بشخص من المباحث الفيدرالية كان يحاول أن يلفت انتباهي، وخرجت من الباب إلى حيث الشمس الساخنة.

كـــان كـــارل وسينثيا واقفين إلى جوار عربة الإسعاف يتحدثان. مررت بهما متجهاً إلى سيارتي. فاقترب مني كارل قائلاً: "لا يمكنني القول بأني راضٍ عن هذه النتيجة".

لم أرد عليه بشيء.

قال: "تعتقد سينثيا أنك كنت تعلم بأنه كان سيقدم على هذه الفعلة".

"يجب أن تعلم يا كارل أن ما حدث لم يكن لي يدٌ فيه".

"لا أحد يلومك".

"ولكن هذا معنى كلامك".

".. قد تكون توقعت شيئاً من هذا و...".

"حـــسناً ســـيدي الكولونيل، ولأكون صادقاً معك، فأنا لم أتوقع ما حدث فحسب، بل وشجعته على الإقدام عليه. لقد لعبت دوراً بارعاً في التأثير على عقله. هي تعلم هذا وأنت تعلم هذا".

لـــم يقبل هذا الكلام، لأنه ليس الكلام الذي يود أن يسمعه أو يعرفه. فلم يكن هذا من مهامـــنا، ولكن الحقيقة أن إعطاء ضابط مكلل بالعار الفرصة وتشجيعه على الانتحار يعد ومـــن الناحية العسكرية التاريخية أمراً مشرفاً بين العديد من جيوش العالم، إلا أنه أمر لا يعتـــرف به في جيشنا هذا أبداً. إلا أن هذه الفكرة وذلك الاحتمال مستقر في العقل الباطن لكل ضابط ذي توجه صارم وإحساس متعاظم بالشرف العسكري. ولو أنني خيرت بين أن أحـــاكم عـــسكرياً بـــتهمة الاغتصاب والقتل والسلوك الجنسي غير السوي، وبكونها تهماً مثبتة، أو أن أقتل نفسي بمسدسي بكل سهولة، فلن أتردد في اختيار تلك الوسيلة الأخيرة. إلا أن من المحال أن أتصور نفسي في مكان بيل كينت. بل وحتى بيل كينت نفسه لم يكن يتخيل حدوث هذا منذ عدة أشهر مضت.

كان كارل يتحدث إليَّ، ولكنني لم أسمع شيئاً مما قاله. وفي النهاية سمعته يقول: "إن سينثيا حزينة جداً، وهي لا تزال ترتجف".

"مـــتاعب المهنة". والحق أن المرء لا يرى شخصاً يفجر رأسه كل يوم. وفيما يبدو فإنـــه كـــان على كينت أن يستأذن ويذهب إلى الحمام ليفعلها. ولكنه فضل أن ينثر شظايا مخه وجمجمته ودمه عبر أرجاء المكان، بل وعلى وجه سينثيا. قلت لكارل: "كم من مرة تلطـــخ وجهـــي بالـــدماء في فيتنام". بل حدث أن طار رأس ليصطدم برأسي. "إنها أشياء يغسلها الصابون".

بدا كارل غاضباً. فاندفع يقول: "هذه ليست مزحة يا سيد برينير".

"هل يمكنني أن أنصرف؟".

"أرجوك أن تفعل".

فاستدرت وفتحت الباب، ثم قلت لكارل: "أرجو أن تخبر الآنسة صنهيل بأن زوجها قد اتصل هذا الصباح، ويود منها أن تعاود الإتصال به". دلفت إلى السيارة، وأدرتها، وانطلقت.

كنت في استراحة الضباط في غضون خمس عشرة دقيقة. وخلعت عني الزي العسكري، ولاحظت بقعة من الدم المتجلط على قميصي. فتجردت من ملابسي واغتسلت، ومن ثم ارتديت سترة رياضية وحذاءً خفيفاً، ثم جمعت حاجياتي التي كانت سينثيا قد نمقتها بالخزانة. وألقيت نظرة أخيرة على الغرفة ثم حملت حقائبي إلى الأسفل.

سددت الحساب، مع بقشيش جيد للخادمة وعمال التنظيف، ولكن كان عليَّ أن أوقع إقراراً بتحملي الأضرار الناتجة عن كتابتي على الجدار في الغرفة، على أن أدفع الغرامة فيما بعد. كم أحب هذا النظام العسكري. ساعدني العريف على وضع حاجياتي في السيارة. ثم سألني: "هل انتهيت من القضية؟".

"بالفعل".

"من فعلها؟".

"الجميع". ألقيت بآخر حقيبة في الخلف، وأغلقت حقيبة السيارة، ثم دلفت إلى مقعد القيادة. فسألني العريف: "هل سترحل الآنسة صنهيل أيضاً؟".

"لا أعلم".

"هل تريد أن تترك عنواناً نرسل إليه ما سيصلنا من مراسلات؟".

"كلا. لا أحد كان يعلم بأني هنا. كانت مجرد زيارة".

انطلقت بالسيارة متجهاً إلى خارج القاعدة، شمالاً إلى حيث بوابة الشرطة العسكرية، إلى أن دخلت في طريق فيكتوري درايف.

مررت بالسيارة على المجمع السكني الذي به منزل آن كامبيل، ثم وصلت إلى الطريق الرابط بين الولايات. وعندها أدرت شريطاً لويلي نيلسون، ورجعت بظهري للوراء، وانطلقت بالسيارة. سوف أصل إلى فيرجينيا قبل الفجر، وسيكون بوسعي اللحاق برحلة عسكرية تنطلق من قاعدة آندروز الجوية. ولن يهم مقصد الرحلة، طالما كانت إلى خارج الولايات المتحدة.

لقد وصلت إلى محطة النهاية في خدمتي للجيش، ولا بأس بهذا. لقد كنت أعلم هذا حتى من قبل أن آتي إلى فورت هادلي. وليس لديَّ ما أندم عليه، أو أتردد من أجله، أو

أيـــة ضــغينة تجـــاه أحد. فنحن نبذل قصارى جهدنا، ولو أصبحنا غير قادرين على أداء الـــواجب، يكـــون علينـــا أن نفسح المجال لغيرنا، بدلاً من أن يطلب منا ذلك. فلا مجال للضغائن. فالأولوية للمهمة، والكل في خدمة تنفيذ هذه المهمة. هكذا تعلمنا.

كـــنت أفكـــر فـــي أنه كان من الأفضل أن أقول شيئاً لسينثيا قبل أن أتركها، إلا أن الكلام لم يكن ليفيد أحداً وقتها. تعلمنا من الحياة العسكرية أن لا شيء دائم، فكم قابلنا من أنـــاس وكـــم فارقـــناهم، وأقمنا علاقات من جميع الأنواع، ومهما كانت وثيقة قوية، فإن طـــرفيها كانا يدركان أنها مؤقتة. فبدلاً من أن نقول لبعضنا وداعاً، اعتدنا أن نقول "أراك فيما بعد".

على أن هذه المرة الوضع مختلف، فأنا راحل للأبد. فلقد شعرت أن من المناسب لي أن أرحـــل الآن، وأن أعلق سلاحي، فقد أصبحت متعباً وثقيل الحركة على كل حال. لقد انـــضممت للجـــيش فـــي أوج الحرب الباردة، في وقت حرب طاحنة في آسيا. وقد أديت واجبـــي، وواصلت الخدمة بعد سنتي الخدمة الإلزامية، ليمر عقدان من الزمان وأنا أخدم هـــذا الجيش. تغيرت الأمة أثناءها، بل تغير العالم كله. وأصبح الجيش الآن أكثر تقوقعاً، فالمهمة انتهت، وانتصرنا، فلينعم الجميع بالنوم في سلام إذن.

لا بأس. فهذا هو الهدف في نهاية المطاف. فلا أحد يريد حرباً لا نهاية لها، مع أنها بـــدت كذلك في بعض الأحيان. ولم يكن الهدف منها هو تشغيل الشباب والفتيات العاطلين عن العمل، على الرغم من أنها كانت وسيلة ناجعة.

لقـــد تخلت أميركا عن قواعد لها في عديد من أنحاء العالم، بل وحتى داخل البلاد. وتـــم تفكـــيك الـــوحدات القتالـــية. وربما يأتي اليوم الذي يغلقون فيه مقر حلف الناتو في بروكـــسل. صحيح أن هناك عصراً جديداً يبزغ، وصحيح أنني سعيد لهذا، ولكنني أسعد الآن لأنه لم يعد عليّ أن أتعامل معه.

أعـــتقد أن جيلي كان قد تربى على أحداث وأفكار لم يعد لها مكان الآن، بل وربما تغيرت قيمنا وآراؤنا من الأساس. فحتى لو كنا لا نـــزال نتحلى بالروح القتالية، إلا أننا لم نعد – كما قالت لي سينثيا – متوافقين مع متطلبات العصر، فأصبحنا أشبه بخيل الحكومة. لتـــتم تهنئتنا على ما أديناه وإحالتنا إلى الاستيداع بنصف الراتب، مع التمنيات بحظ سعيد في الحياة.

إلا أن المـــرء يتعلم الكثير خلال عشرين عاماً، ويكتسب الكثير من الذكريات. ولو خيرت بين تلك الحياة وغيرها لاخترتها ثانيةً، فقد كانت ممتعة.

كان ويلي يغني أغنيته الأشهر: "جورجيا في خاطري"، فأخرجت الشريط ووضعت بدلاً منه آخر لبودي هولي.

كم أحب قيادة السيارات، وخاصة حينما أود الهروب عن الأماكن، مع أني أفترض أن المـــرء لا يفـــر من مكان إلا إلى مكان غيره. إلا أنني لا أحاول أن أنظر للأمر بهذا الشكل، فأنا أهرب وحسب.

لمحـــت ســـيارة شـــرطة في المرآة، ونظرت إلى عداد السرعة، إلا أنه لم يتخطى الـــسرعة القانونية سوى بعشرة أميال في الساعة، وهو أمر يعني في جورجيا البطء، بل أنك تعطل المرور بذلك.

أخـــذ الغبي يومض بالمصباح الأحمر ويشير لي أن أتوقف. فتنحيت بالسيارة جانباً، وأوقفتها.

تـــرجل الشرطي من سيارته واقترب من نافذة سيارتي، فأنـــزلت زجاجها. تبين لي أنه شرطي من ميدلاند، فقلت له متهكماً: "ألست بعيداً قليلاً عن موطنك؟".

"الرخص والأوراق يا سيدي".

أريته إياها، فقال: "عليك أن تنعطف في المخرج التالي وتتبعني إلى ميدلاند".

"لماذا؟".

"لا أعلم السبب، ولكن هذا أمر تلقيته عبر الراديو".

"من القائد ياردلي؟".

"إنها أوامره سيدي".

"ولو رفضت؟".

"سيكون عليَّ أن ألقي القبض عليك، وأعود بك".

"هل هناك خيار ثالث؟".

"كلا سيدي".

"حسناً". استدرت بالسيارة في الاتجاه الآخر. وبقيت سيارة الشرطة تتبعني، ووجدت نفسي أعود جنوباً إلى ميدلاند.

انعطفنا في مخرج بالقرب من الحافة الغربية للبلدة، وتبعته حتى مركز حرق القمامة بالبلدة، والذي يسمونه "المقلب".

توقفت السيارة هناك، وتوقفت خلفها.

كان بيرت ياردلي يقف مراقباً تفريغ شاحنة على شريط تلقي القمامة.

تـــرجلت ووقفت أشاهد بدوري محتويات غرفة القبو الخاصة بآن كامبيل وهي تتجه إلى النيران.

كـــان ياردلي يتفحص مجموعة من الصور الفورية ولم ينظر إليَّ وهو يقول: "أنظر إلى هذا يا بني. أترى هذا البدين؟ إنه أنا. وانظر إلى هذا النحيل. من تعتقد أنه هو؟". ألقى

بالكثير من الصور إلى المحرقة، ثم التقط من عند قدميه مجموعة من أشرطة الفيديو ليلقي بهـا أيضاً إلى المحرقة. "ظننت أن بيننا ميعاد. هل تريد أن تتركني وحدي أقوم بكل هذا العمل؟ تعال، مد يدك يا بني".

ساعدته بالفعل في إلقاء الأثاث، والأدوات الجنسية، والأقمشة، وغير ذلك إلى المحرقة. وقال لي: "إنني أفي بكلمتي أيها الصبي. لم تكن تثق بي، أليس كذلك؟".

"بل كنت أثق بك، فأنت شرطي".

"معك حق. يا له من أسبوع لعين. أتدري؟ لقد بكيت كثيراً خلال تلك الجنازة".

"لم ألحظ هذا".

"كنت أبكي من داخلي. كثيرون هناك بكوا من داخلهم. هل تخلصت من تلك الأشياء المسجلة على الكومبيوتر؟".

"لقد أحرقت الأسطوانة بنفسي".

"حقاً؟ هل يعني هذا أن ما كان به من فضائح قد ذهب إلى الأبد؟".

"بالطبع. الكل نظيف الآن".

"حتى المرة القادمة". ضحك وهو يلقي بقناع جلدي أسود إلى المحرقة. "ليباركنا الرب، لسوف ننعم بنوم هادئ الآن. بما في ذلك هي".

لم أنبس ببنت شفة.

"أنا آسف لما جرى لبيل".

"وأنا أيضاً".

"ربما التقيا الآن ليتحدثا معاً عما حدث، هناك عند بوابات السماء". ونظر إلى المحرقة وهو يضيف: "أو في مكان آخر".

"هل انتهينا الآن أيها القائد؟".

نظر حوله وقال: "بالكاد". ثم أخرج صورة من جيبه وناولها لي قائلاً: "هذا تذكار".

لقد كانت صورة كاملة لجسد آن كامبيل العاري، كانت واقفة، أو في الحقيقة كانت تقفز، على فراش غرفة القبو، وشعرها يتناثر حولها، ويداها ممدودتان إلى جانبها، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

قال ياردلي: "كانت أكثر من مجرد امرأة عادية. إلا أنني لم أفهم أبداً حقيقة ما كان يدور بعقلها. هل فهمتها أنت؟".

"كلا. لكني أعتقد أنها أخبرتنا بالكثير عن أنفسنا، بما يفوق ما نود أن نسمعه نحن".

ألقيت بالصورة إلى المحرقة، وعدت إلى حيث سيارتي.

"لقد طلبت من كايفر أن تقول لك هذا حتى تفعل شيئاً".

"إذن كذبتِ مرة أخرى".

"صحيح. وما دخلك أنت؟".

مرت بنا سيارة شرطة، فهدأت من سرعتها حتى توقفت، وترجل منها شرطي وهو يلامس طرف قبعته بأصابعه ويخاطب سينثيا: "هل كل شيء على ما يرام يا سيدتي؟".

"كلا. فهذا الرجل معتوه".

نظر لي قائلاً: "ما هي مشكلتك يا رجل؟".

"لقد كانت تتبعني".

عاد بنظره إلى سينثيا.

قالـــت له: "ما رأيك في رجل يقضي ثلاثة أيام مع امرأة.. ثم يتركها حتى من دون كلمة وداع؟".

"قد تكون... هذه.. إساءة أدب".

"أنا لم ألمسها أبداً. بل تشاركنا في الحمام فقط".

"أوه... في الحقيقة..".

"بـــل دعاني إلى منـــزله في فيرجينيا لقضاء العطلة، ولكنه لم يتعب نفسه فيترك لي رقم الهاتف أو العنوان".

هنا نظر إليَّ الشرطي قائلاً: "هل هذا صحيح؟".

"لقد اكتشفت أنها لا تزال متزوجة".

"أنا لا ينقصني هذا النوع من المشكلات".

فسألته سينثيا: "ألا ترى أن على الرجل أن يقاتل لأجل نيل مراده؟".

"بالتأكيد".

فقلت: "وهكذا فعل زوجها. لقد حاول قتلي".

"لقد فاتني هذا المشهد".

قالـــت سينثيا: "أنا لست خائفة منه.. وسوف أتوجه إلى بينينج لأخبره بأن علاقتنا قد انتهت".

فقال لها الشرطي ناصحاً: "عليكِ بتوخي الحرص إذن".

"أطلب منه أن يعطيني رقم هاتفه".

فالتفت هو نحوي: "لا يمكنني أن... لم لا تعطيها رقم هاتفك، حتى نخرج جميعاً من هذا الموقف بعيداً عن هذه الشمس المحرقة".

"حسناً... هل معك قلم؟".

أخــرج مفكــرة وقلمــاً من جيبه، فأمليت عليه رقم هاتفي وعنواني. فاقتطع الورقة وناولهــا لــسينثيا. "هــا هي سيدتي. والآن ليستقل كل منكما سيارته ويبتعد في طريقه. مفهوم؟".

هكذا عدت إلى سيارتي، وسينثيا إلى سيارتها. ولكنها نادتني قائلةً: "السبت".

لوحت لها. وأنا أدلف إلى السيارة، منطلقاً تجاه الشمال. راقبتها في المرآة وهي تقوم بانعطافة غير قانونية عبر نهر الطريق الفاصل، ثم تتجه صوب المخرج الذي يفضي بها إلى فورت بينينج.

أنا سلبي؟ بول برينير، "نمر فولز تشيرش" كما يسمونني، سلبي؟

هــنا اتخــذت قــراري بلا رجعة... وتنحيت إلى الحارة الخارجية من الطريق، ثم أدرت المقود بقوة إلى اليسار، لأجتاز نهر الطريق الفاصل عبر صف من الشجيرات، ثم انطلقت بأقصى سرعة جنوباً. "لنرى إذن من هو السلبي".

لحقت بها قبل أن تصل إلى فورت بينينج.

... وبقيت معها حتى النهاية...

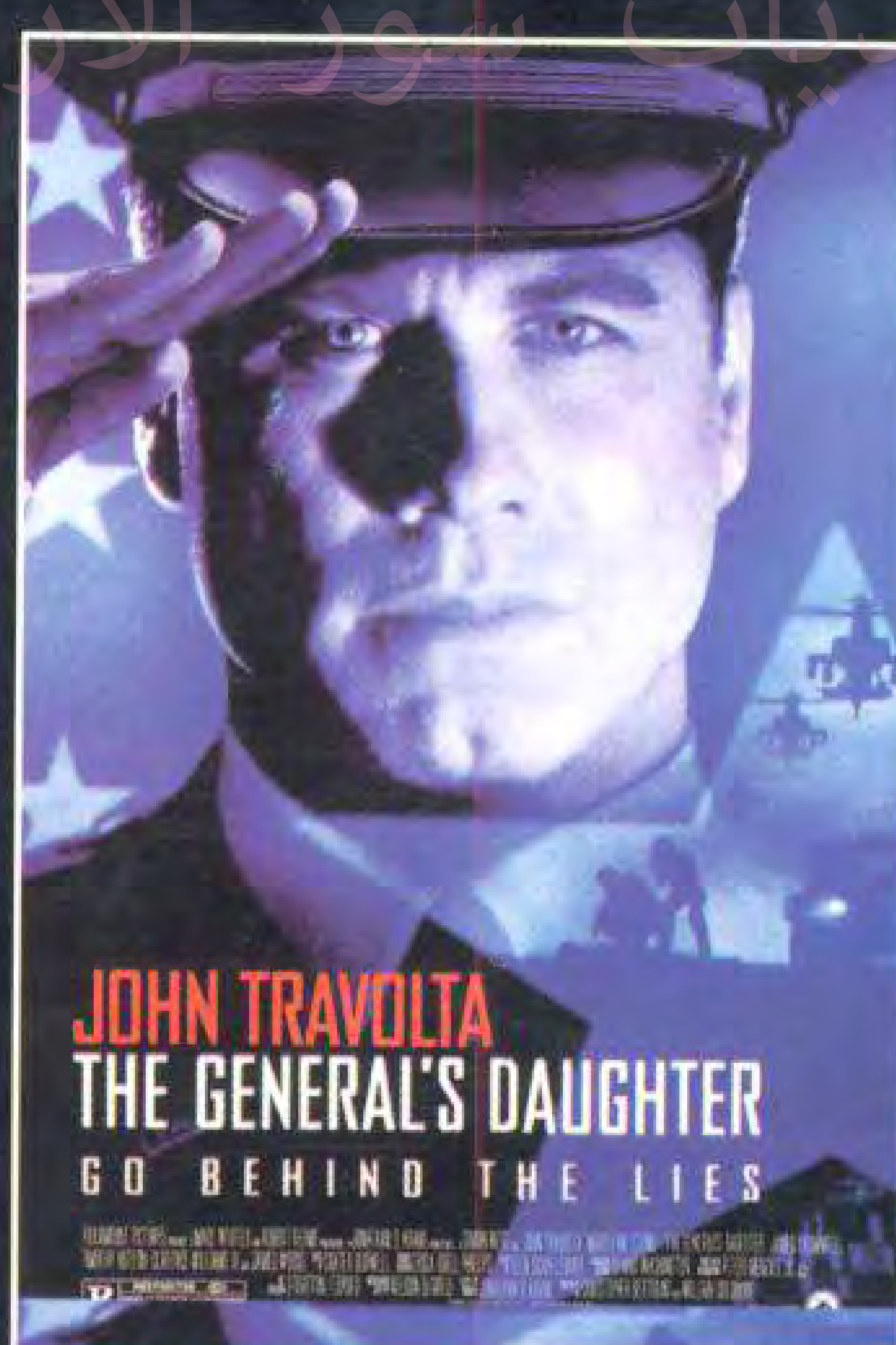
مقتلها لم يكن سوى البداية

كانت برتبة نقيب بالجيش وابنة الجنرال الأسطورة «المقاتل جو» كامبل، عندما تم العثور على جثتها - عارية ومقيدة - في ساحة التدريب على الرماية بفورت هادلي. ولكونها قضية سياسية حرجة، فقد أُسندت بشكل مباشر إلى المحقق العسكري البارع بول برينر، وخبيرة جرائم الاغتصاب سينثيا صنهيل... وتتفجر المفاجآت.

يكشف برينر وصنهيل عمّا يجري وراء ميثاق الشرف العسكري من فساد، مما يقود في النهاية إلى السر المذهل في حياة ابنة الجنرال.

«أفعال لا كلمات.. ها هو ديميل يصيب هدفه المرة تلو الأخرى...».

- أسوشيتيد برس.



ISBN 9953-29-132-2
9789953291321

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
في
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb